

رحلة إلى الجذور

المكتبة
الأغنية
القائمة



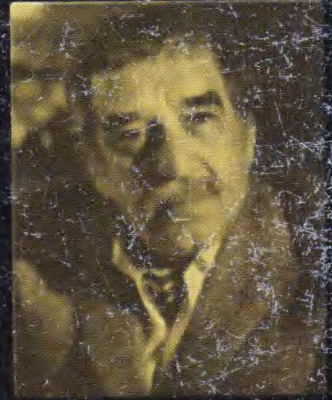
المشروع المقوم للترجمة

سيرة حياة
جابريل جارتيا ماركيز

تأليف : داسو سالديبار
ترجمة ودراسة وتقديم

صبري التهامي
مراجعة : حامد أبو أحمد

662



GABRIEL GARCIA MARQUEZ

يعتبر كتاب "رحلة إلى الجذور" من أفضل كتب السيرة الحياتية التي كتبت عن جابريل غارثيا ماركيز. إن لم يكن أفضلها على الإطلاق حتى أنه فاق بكثير ما كتبه مؤلف "مائة عام من العزلة" عن نفسه في سيرته الذاتية تحت عنوان "VIVIR PARA CONTARLA" والتي صدرت في عام ٢٠٠٢! وترجمت إلى كثير من مختلف لغات العالم من بينها العربية، تعتبر "رحلة إلى الجذور" أفضل هذه الكتب قاطبة: لأن كاتبه داسو سالديبار - الأستاذ بجامعة مدريد، وهو كولومبي الأصل ويعيش في إسبانيا ويحمل جنسيتها - بذل فيها جهداً حقيقياً ومجهوداً مضنياً طوال أربعة عشر عاماً اضطر خلالها للسفر عدة مرات إلى مسقط رأس غارثيا ماركيز، إلى قرية اراكاتاكا الواقعة في شمال كولومبيا ليجري العديد من التحقيقات والحوارات فضلاً عن لقاءاته المتعددة مع صاحب السيرة الحياتية ذاته ليستقى منه الكثير من المعلومات الموثقة من مصدرها الأول ونسجها الأصلي.

المشروع القومي للترجمة

رحلة إلى الجذور

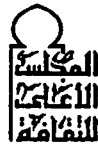
سيرة حياة

جابريل جارشيا ماركيز

تأليف : داسو سالديبار

ترجمة ودراسة وتقديم : صبرى التهامى

مراجعة : حامد أبو أحمد



٢٠٠٤

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٦٦٢

- رحلة إلى الجنود

- داسو سالدívar

- صبرى التهامى

- حامد أبو أحمد

- الطبعة الأولى : ٢٠٠٤

هذه ترجمة كتاب :

Dasso Saldívar

GARCÍA Márquez

El Viaje a La semilla

La Biografía

Alfaguara

© 1997, Dasso Saldívar

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

الفهرس

11	مقدمة المترجم
37	الفصل الأول
	العودة إلى الجنور . بارأنكاس : جذورالجنور . أسرة ماركيز إيرنانديث : القادمة من إسبانيا . الجواهرجى المسالم نيقولاس ماركيز . حرب الألف يوم . العقداء لم يجدوا من يرأسلهم . مبارزة نيقولاس ماركيز وميدرانو باتشيكو . نزوح أسرة ماركيز إيجواران
59	الفصل الثانى
	فى أرض الميعاد . أراكاتاك وأسرة تشيميلاس . اكتشافات خورخى أساكس . عجل الذهب لشجرة الموز لايونايتيد فرويت كمبانى " شركة الفاكهة المتحدة" . القطار و" الورقة الساقطة" . سوبوم الجديدة . ليلة أراكاتاك . وباء الإستاكوزا والأوبئة الأخرى . منبحة مزارع الموز . طوفان ٢٢
85	الفصل الثالث
	موظف البرق وكريمة العقيد . خطوبة القصة . الميلاد المعلن . بوليفار فى بارأنكيا . اللقاء الأول مع الأم . منزل الميلاد . فى ظل الجدة ترانكلينا العمات دينيفريدا وألبيرا وفرانثيسكا . جابيتو والجد نيقولاس . من المتوفى إلى صدقات تبرئة أرواح الموتى : شخصيات من القرية . ماكدينو الجان الألفى . من الرسم إلى الأبجدية . رحيل أسرة جارثيا ماركيز . وفاة الجد نيقولاس . وداعاً أراكاتاك . إعصار من الأساطير

137 الفصل الرابع

أول راتب بكبير لجابيتو. إنهاء المرحلة الابتدائية . من بارأنكيا إلى سوكرى. عدم لقائه مع الوالد. على أيدي إيرينديرا . نهاية الطفولة. أول عودة إلى أراكاتاكا. بدء المرحلة الثانوية فى مدرسة سان خوسيه. " العجوز" ذو الثلاثة عشر عاماً. القسم الثانى : ريبيستا خويينتود " مجلة الشبيبة" . الرسائل الأولى والأشعار. ساخرٌ خطير.

151 الفصل الخامس

الذهاب إلى منطقة باردة. " نهر الحياة" . التعود على النوم فى بوجوتا. أخطر لحظة فى حياته . منحة من راقص. ثيباكيرا. الليسيه الوطنى للبنين. أرقام اليانصيب أو الشجار. الحصبة الأدبية. الحجر والسماء. المدير كارلوس مارتين. مجموعة الثلاثة عشر. البدايات الصحفية. المجلة الأدبية. الأستاذ كارلوس خوليو كالديرون. ناظم القصائد. الرواية الأولى. رسامٌ فريد.

177 الفصل السادس

طالب الحقوق. أثينا الجنوبية. فيلسوف البارات والمقاهى. الأصدقاء المتألقون. "الحياة الجامعية" . القضية الخاسرة. ترام الأشعار. حيوان فى الترام. ليلة أوليس. على خطى شهرزاد وكافكا وترانكلينا.

195 الفصل السابع

جائيتان والتاسع من أبريل. احتراق بوجوتا. الكاتب إزاء أحداث التاريخ. فيدل يذهب للحرب . العودة للكاريبى. جريدة " أونيفرسال" ومجموعة كارتخينا (قرطاجنة). المنزل وقراءات ربوة الشيطان. الورقة الساقطة ومولد ماكوننو. فى ظلال أشجار المانجو فى سوكرى لقاء مع سوفكليس. وداعاً للقانون. كارتخينا مشتل لا ينضب. ألبارو موتيس. جارثيا ماركيز والغمد.

227 الفصل الثامن

بارأنكيا مدينة الأطلسى الحارة بين سائقى التاكسى والعاهرات والصيادين. مقهى كولومبيا ومكتبة العالم. رُضاًع ديك الكهف. مغامرات

ومصائب العالم القطلانى. كلمات . كاتب عمود فى الهيرالد. ساكن ناطحات
السحاب. بيت عاهرات فاولكيرينى. على أنغام آلة البرق. أوراق الشجر البالية
لم تجد من ينشرها. " المجلة الأسبوعية " . المراهنة بالمرأة التى كانت تصلى
فى تمام السادسة. كروانات أوفيميا السوداء. الواقع والأدب والصحافة.

257 الفصل التاسع

عندما كان سانتياجو نصَّار مازال هو جاييثانو جنتيلى. ازدهار وتدهور
سوكرى. قصة الأمهات العظيمات . الطفلة الساذجة وقابلتها القاسية.
ماريا أليخاندرينا ثيربانتس . وفاة كايتا نوجنتيلى. من سوكرى إلى
قرطاجنة التتويج فى بارونا. القُرص . اللقاء برفائيل إسكالونا. أبناء
الوادى والنافورة المسحورة. البحث عن الأوقات الضائعة . العودة إلى
الجنور . الصيدلية. تأكيد ماكوندو. بائع الكتب فى بايدوبار ولا جواخيرا .
مع هيمنجواى وفيرچينيا وولف رفايل إسكالونا وليساندرو باتشيكو فى
جنور الجنور . استعادة الأزمنة الماضية .

295 الفصل العاشر

العودة إلى بوجوتا محرراً بأجر قدره ٩٠٠ بيزو. زملاء " المشاهد " كورناد
بيدفورد والغمد. روخاس بينيا والاستبداد المسيحى. فى خلية شيوعية . ناقد
سينمائى. اليوم اللاحق للسبت. التحقيقات الكبيرة. حكاية غريق. العنف
والديكتاتورية والصحافة. طبع أوراق الشجر البالية. إهداء معلن ومعروف.

223 الفصل الحادى عشر

صوب أوروبا مع " أفضل مهنة فى العالم " . جنيف وقطار أراكاتاكا.
مؤتمر الأربعة العظام. محقق صحفى فى روما والبنديقية. فى براغ ووارسو
عبر فيينا. فرناندو بيبرى . شيسرون فى ثينيثتا . بيلينيو ميندوتا ومعجزة
الجليد. فى ركن بفندق فلاندريس . العقيد يجد من يرأسه. باريس كانت
وحشاً . خلف الستارة الحديدية جيرمو أنجولو ولقاءات سيريزف. لندن والوداع.

365 الفصل الثانی عشر

ما بین کاراکاس التعیسة فی عهد بولیفار وکاراکاس السعیدة فی عهد خوان دی فریتیس . سقوط وهروب مارکوس بیریت خیمینث . الجوانب الأولى لخریف الشیخ الوقور . میرسیدس خطیبة الصیدلیة . "قیلولة الثلاثاء" نیکسون فی کاراکاس .فی هذه الأشياء . انتصر فیدل . " عملیة الحقیقة" وحقائق الكاتب . رائد فی الصحافة اللاتینیة . کامیلو توریس وقصة اللص الصغیر . جنازة " ماما الكبيرة" طبع العقید . کاتبنا فی هافانا . مراسل فی نیویورک .

403 الفصل الثالث عشر

ألبارو موتیس وولادة اللبوة . المكسیك أرض الميعاد . بحثًا عن شذا الجوافة . الأسرة والأحداث . صحافة معدية . الإقامة فی کومالا . " بحر الزمن المفقود" . جائزة إسو . "الساعة المشنومة" . السينما والدعاية . سیناریوهات وأكواب الشای فی أيام الأحد مع کارلوس فوینتیس "مائة عام من العزلة" . لقاء مع لويس هارس . زيارة لكارمن بالثليس . إهداء لماريا لويسا إيليو . كهف المافيا . إعداد العدة . ليالى سان أنخيل إن . بوروا أو " القارئ المجهول" . هذا الغلاف لبیثینتی روخو . بوینوس آیرس كانت فی عید . زجاجة للزمن . مع ماریو بارجاس یوسا فی کاراکاس ولیمما ویوجوتا . من الرحلة والجنور .

470 هوامش

527 صور

571 أشجار النسب

إهداء إلى :

سلفادور سيبوليدا وخرانا أوتشوا ، دالي فانيير ، دالكن سيبوليدا أوتشوا .
إنهم يتعهدون إلينا الآن من الجانب الآخر للجنود .

مقدمة المترجم

يُعتبرُ كتاب "رحلة إلى الجنور" - الذى أعاننا الله على ترجمته وراجعته مشكوراً الدكتور حامد أبو أحمد - من أفضل كتب السيرة الحياتية التى كُتبت عن جابريل جارتيا ماركيز إن لم يكن أفضلها على الإطلاق حتى إنه فاق بكثير ما كتبه مؤلف "مائة عام من العزلة" عن نفسه فى سيرته الذاتية تحت عنوان "VIVIR PARA CONTARLA" والتى صدرت فى عام ٢٠٠٢ وترجمت إلى كثير من مختلف لغات العالم من بينها العربية حيث قام بترجمتها د. طلعت شاهين . نعتبر "رحلة إلى الجنور" أفضل هذه الكتب قاطبة ليس لأننا قمنا بترجمته بل لأن كاتبه داسو سالديبار الأستاذ بجامعة مدريد وهو كولومبى الأصل ويعيش فى إسبانيا ويحمل جنسيتها بذل فيها جهداً حثيثاً ومجهوداً مُضنياً طوال أربعة عشر عاماً اضطر خلالها للسفر عدة مرّات إلى مسقط رأس جارتيا ماركيز ، إلى قرية "أراكاتاكّا" الواقعة فى شمال كولومبيا ليجرى العديد من التحقيقات والحوارات مع أهل هذه القرية ممن بقوا على قيد الحياة لتوثيق معلومات كتابه فضلاً عن لقاءاته المتعددة مع صاحب السيرة الحياتية ذاته ليستقى منه الكثير من المعلومات الموثقة من مصدرها الأول ونبعها الأصيل ، فهذا الكتاب الذى بين أيدينا هو ثمرة عمل شاق مُضن ودعوب على مدى عشرة أعوام. وقد سبق أن ترجم إلى كثير من لغات العالم ، كان آخرها اللغة الصينية استناداً لما أكدّه لى المؤلف نفسه فى رسائله إلى عبر البريد الإلكتروني . وها هى الترجمة العربية نقدمها للقارئ العربى والتى جاءت بناءً على اقتراح من الدكتور حامد أبو أحمد على مؤلفه الذى رحّب بالفكرة .

وجدير بالذكر أن الدكتور حامد أبو أحمد كان قد عرض علىّ فى البداية أن نترجم الكتاب سوياً إلا أنه عدل عن هذه الفكرة لكثرة ارتباطاته وضيق وقته وعهد إلىّ بهذه المهمة واكتفى بمراجعة الترجمة. وكلنا أمل فى أن تحظى هذه الترجمة بإعجاب واستحسان القارئ العربى والله نسأل التوفيق والسداد .

جابريل جارشيا ماركيز :

* وُلِدَ جابريل جارشيا ماركيز فى قرية "أراكاتاكا" فى الشمال الكولومبى يوم

٦ مارس ١٩٢٨ .

* بدأ يزاوّل نشاطه الأدبى وهو لا يزال فتىً صغيراً بالمرحلة الثانوية حيث ظهر له أوّل عمل أدبى فى مجلة كانت تُصدرها المدرسة بعنوان (JUVENTUD) (شباب) .

* التحق فى عام ١٩٤٧ بكلية الحقوق فى الجامعة الوطنية فى بوجوتا (عاصمة كولومبيا) ولكنه تركها فى ١٩٤٨ ليلتحق بجامعة أخرى .

* مارس الكتابة الصحفية فى عمود بجريدة يومية تُدعى EL UNIVERSAL (العالمى). كما نشر أوّل أقاليصه فى ملحق تُصدره صحيفة EL ESPECTADOR (المشاهد) أسبوعياً كل يوم سبت .

* تنازعت الصحافة ودراسة الحقوق جابريل جارشيا ماركيز إلا أنّ هوايته وشغفه بالصحافة كانا لهما عظيم الانتصار على دراسته الجامعية. لذلك سافر الكاتب إلى أوروبا وأمريكا للعمل مراسلاً صحفياً بها . وقد عاش فترة طويلة فى أسبانيا تُعتبر من أخصب مراحل الأدبية الإبداعية .

* صدرت له قصة وهى "الأوراق الساقطة" عام ١٩٩٥ ثم قصة "العقيد لا يجد من يرأسه" فى عام ١٩٥٧ . وفى عام ١٩٥٩ قصة "جنازة الأم الكبيرة" ثم "الساعة المشنومة" فى ١٩٦١ .

* كان أهم وأعظم حدث أدبى فى حياة ماركيز هو كتابة رائعته "مائة عام من العزلة" التى تُرجمت إلى مُعظم لغات العالم ومن بينها "لغة الضاد" وكان لهذه القصة الفضل الأوّل فى الشهرة العالمية التى تحققت لقصاص كولومبيا الأشهر ، فهى تُمثل وبلا غرو أحد الخيوط الهامة فى القصة المعاصرة ليس فى الأدب الأسبانى الأمريكى فحسب بل فى الأدب العالمى . فالقصة تدخل ضمن عمليات التطور الإبداعى فى فن السرد ويمكن مقارنتها لعظيم أهميتها بقصة "أوليس" لجيمس جويس .

* صدرت له عام ١٩٧٥ قصة "خريف البطريق" ثم "نبأ موت مُعلن" فى عام ١٩٨١ و"نبأ اختطاف" فى ١٩٩٦ .

* منحت الاكاديمية السويدية جارشيا ماركيز جائزة نوبل فى الآداب يوم الخميس ٢١ أكتوبر ١٩٨٢ فكانت خير تنويع لإبداع الكاتب وخير اعتراف بدوره الكبير فى تطوير الإبداع القصصى .

* يُعتبر جارشيا ماركيز من رواد حركة الواقعية السحرية التى بهرت العالم أجمع .
* لا يزال جارشيا ماركيز يُتمتع قرأه بمقالاته التى ينشرها فى صاحبة الجلالة السلطة الرابعة (الصحافة) وبكتابات الملهمة وإبداعاته الرائعة على الرغم من تجاوزه الخامسة والسبعين من عمره ومن اكتشافه إصابته بسرطان الغدد الليمفاوية .

منزل إراكاتاكّا وشخصياته النسائية والجد :

وُلد جارشيا ماركيز فى منزل جدته لوالدته فى "أراكاتاكّا" . وقد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بهذا المنزل الذى عاش فيه سنّى طفولته الأولى على مدى ثمانى سنوات . كان ماركيز وجده مُحاطين بمجموعة كبيرة من النساء تمثّلن فى الجدة وقد ذكر د . حامد أبو أحمد فى أكثر من موضع بكتابه الواقعية السحرية أهمية الجدة فى حياة ماركيز مع بيلينيو ميندوثا وما كتبه أيضاً ناد وكتّاب آخرون مثل ماريو باجاس يوسا وكتابه أديب كولومبيا بعنوان "جارشيا ماركيز - قصة متّرد" ١٩٧١ فقد شدّد على أهمية جدته على سبيل المثال فى حواراته مع ميندوثا فى ص (١٨) قائلاً : "أن ثمة صلة تربط بينه وبين جدته هى أشبه بخيط دقيق غير مرئى يربط كليهما بعالم أسمى من العالم الواقعى" .

لكن هذا العالم كان يحمل لماركيز مع قدوم الليل همّاً لا يفارقه إلا عندما يصحو على ضوء النهار فى اليوم التالى وذلك لأن أحاديث الجدة التى كانت تدور حول الأشباح والعفاريت كانت تُسبب له نوعاً من الخوف يتحول بطبيعة الحال إلى هم وقلق ومن العجيب أن هذا الإحساس ظل يلزم الكاتب حتى فترة متقدمة من حياته ومن ثم فقد اعترف فى حواراته مع بيلينيو ميندوثا فى نفس الصفحة المذكورة آنفاً : "وحتى

الآن عندما أكون فى بعض الأحيان ناماً وحدى فى فندق فى أى مكان بالعالم أستيقظ مدفوعاً بخوف رهيب لكونى بمفردى فى الظلام وأحتاج فى العادة إلى عدة دقائق لكى أعود إلى رشدى وأخلد مرة أخرى للنوم". (د. حامد أبو أحمد "الواقعية السحرية" ص ١٥١).

لقد كانت جدته تحكى له أكثر الأشياء فظاعة بشكل طبيعى جداً دون أن تمتعض أو ينتابها أى تأثر وكأنها تتحدث عن شىء رأتَه منذ قليل ويقول جارثيا ماركيز إنه اكتشف فيما بعد أن هذه الطريقة ثابتة الجنان والثراء فى الصور هما اللذان كانا يُسهمان أكثر من أى شىء آخر فى إضفاء مصداقية كبيرة على حكاياتها وقد اعترف ماركيز بفضل هذه الطريقة عليه فى كتابة رائعته "مائة عام من العزلة" (الواقعية السحرية فى موضعين ص ٤٣ و ١٥٢). كما ذكر ذلك أيضاً فى حواراته مع بيلينيو ميندوثا ص ٤١ وكذلك فى "رحلة إلى الجذور" ص ١٠١.

ولم يقتصر تأثير الجدة على هذا الجانب فحسب بل صارت أيضاً نموذجاً لكثير من شخصياته الفنية أو الأدبية فهى أصل شخصية ماما الكبيرة فى "جنازة الأم الكبيرة" وإذا كان لدى ماركيز بطيريركه من الرجال أى السيد الكبير فإن لديه أيضاً السيدة الكبيرة المسيطرة المهيمنة أو ما تُسمى باللغة الأجنبية "المطيريركة" ويصفها بارجاس يوسا فى ص ٢٤ من كتابه عن ماركيز بقوله: "يبدو أن السيدة ترانكلينا كانت نموذجاً يُحتذى لربة البيت. كانت تشبه سيدات العصر الوسيط، إمبراطورة المكان، الصانعة للنشيط، الولودة، المخيفة، التى لا تقف مكتوفة اليدين أمام العوائق، وتعرف جيداً كيف تُنظم حياة أسرة كثيرة العدد بمهارة وكفاءة واقتدار". كما أن هذه الجدة أيضاً هى أصل شخصية أرسولا زوجة خوسيه أركاديو بوينديا "الأول" فى رواية "مائة عام من العزلة". وتتمتع هذه الشخصية فى الرواية بقوة خارقة والنكبات التى أصابت آل بوينديا بالعمى والجنون. وهذا ما حدث بالفعل فى الواقع لجدة ماركيز فقد توفيت ضريرة مجنونة فى سوكرى عندما كان سبطها يدرس فى ثيبا كيرا.

وهذا يجرنا إلى قضية علاقة الكاتب بالواقع وكيف يمكن أن يكون الواقع الفنى انعكاساً للواقع العملى استناداً لتسمية ماريو بارجاس يوسا. ويلاحظ هذا الانعكاس

بقوة فى كل أعمال ماركيز ويقول رولان بارت : "إن قصة أى قصاص هي قصة موضوع ما وتحولاته" أى سرد قصة موضوع يلح على كاتبه ويعانى هذا الموضوع من تحولات كثيرة. ويقول د. حامد أبو أحمد: "إن هذه المقولة لا تنطبق على كثير من الكتاب مثل بلزاك وديكنز ونجيب محفوظ لتنوع مراحلهم الأدبية والموضوعات والأفكار فعلى سبيل المثال انتقل أديبنا العالمى نجيب محفوظ من المرحلة التاريخية إلى الواقعية النقدية ثم إلى المرحلة الميتافيزيقية وتلتها بعد ذلك الواقعية الثانية .. إلخ".

ولكن هناك كتاباً تلح عليهم فكرة واحدة أو موضوع واحد طوال حياتهم الأدبية من هؤلاء فرانز كافكا وديستوفسكى وجارثيا ماركيز . فالكتاب الكولومبى على سبيل المثال كان عالم طفولته يلح عليه حتى صدرت له "مائة عام من العزلة" ١٩٦٧ وإن كان قد بدأ ينأى بعض الشيء فى رواياته اللاحقة وعلى وجه التحديد فى الفترة من ١٩٧٥ إلى ١٩٩٠ ولكن أعماله منذ أواخر الأربعينيات حتى عام ١٩٦٧ ظلت لديه فكرة مهيمنة على عقله وإبداعه الأدبى تكمن فى عالم طفولته وذكرياته فى منزل جديه لأمه خلال الثمانية أعوام الأول من حياته (الواقعية السحرية ص ١٥٥) ومن هنا تتأكد مقولته فى حوار مع بارجاس يوسا عام ١٩٦٨ : "لا أستطيع أن أكتب قصة إلا إذا كانت قائمة على تجارب شخصية" كما قال لصديقه ميندوثا فى الحوارات المشار إليها أنفاً : "لقد اكتشفت بعد ثلاثين عاماً من الكتابة أمراً كنا نغفل عنه فى معظم الأحيان نحن القصّاصين ، وهو أن أفضل صيغة أدبية هى الحقيقة دائماً". ولذلك فإن ماركيز أكد لميندوثا أيضاً أن نقطة انطلاقه لكتابه قصة هى صورة مرئية. ومن ثم فإن قصة "قيلولة الثلاثاء" وهى من أفضل قصصه على حد تعبيره ظهرت إثر رؤيته لسيدة وطفلة ترتديان السواد وتحملان مظلة سوداء وتسيران تحت شمس متقدة فى قرية صغيرة. و"الورقة الساقطة" جاءت نتيجة لرؤية الكاتب لشيخ يحمل حفيده إلى القبر ، ونقطة الانطلاق فى "العقيد لا يجد من يرأسه" هى صورة رجل ينتظر مركباً فى بارانكيا. كان ينتظر المركب بنوع من القلق الصامت. ويقول ماركيز : "إنه وجد نفسه بعد ذلك لسنوات ينتظر رسالة بنفس القلق فى العاصمة الفرنسية ووجد نفسه يتماهى أى يتطابق مع ذلك الرجل. (الحوار مع ميندوثا .. ص ٢٥ .. والواقعية السحرية ص ١٥٥ و ١٥٦) .

وحتى اسم "ماكوندو" الذى اخترعه الكاتب اختراعاً له أساس فى الواقع كانت هناك ضيعة للموز تُسمى ماكوندو بالقرب من قرية "أراكاتاكا" التى قضى بها ماركيز ثمانى سنوات من طفولته وقد أكّد على ذلك داسو سالديبار فى كتابه "رحلة إلى الجنور" ص ١١٥ . حيث أشار إلى معانى كلمة ماكوندو .

وقد ظلّ بيت جديه لأمه محفوراً فى ذاكرته لدرجة أنْ أكّد فى حواراته مع مينوثا ص ١١٧ قوله : "إنّ ذكرياتى الأكثر حيوية وديمومة أو استمرارية ليست تلك الخاصة بالأشخاص وإنّما تتمثل فى منزل أراكاتاكا الذى عشت فيه مع جدى ، إنّه حلم متواصل مازال يلح على بل وأكثر من ذلك أنى فى كل أيام حياتى استيقظ من النوم ولدى انطباع ، زائف أو حقيقى بأنّى قد حلمت بأنّى كنت فى هذا البيت وكأنّى لم أغادره أبداً (الواقعية السحرية ص ٢٢٤) وكان المنزل يضم عدداً من النساء منها جدته التى أسلفنا الحديث عنها وخالاته فرانتيسكا وبيترا والبيرا وكلهن من النوع الخيالى اللانئ يعشن تهيمن عليهن ذكريات سحيقة ويؤمنُ بالخرافات. وقد شبههن بالهنديات من خدم المنزل. ويحكى ماركيز لمينوثا: "إن خالته فرانتيسكا كانت امرأة قوية لا تشعر بالتعب وذات مرة جلست تحيك كنفها وسألها ماركيز عن ذلك فقالت له : إنها ستموت وبالفعل انتهت من حياكة الكفن وذهبت إلى فراشها واضطجعت عليه وماتت" وهذه الحكاية هى أصل شخصية أمارنتا فى رواية "مائة عام من العزلة" ص ٢١٩ من الرواية الإنسانية حيث انتابها إحساس بقرب مرضها فأعلنت للناس فى قرية ماكوندو أنها ستموت وأنها تريد حمل رسائل إلى الأموات فى الدار الآخرة ، فهرع إليها الناس وكل منهم يحمل رسالة خطية أو شفاهية حتى تجمع لديها كم هائل من الرسائل الموجهة إلى الموتى (الواقعية السحرية ص ١٤٩) .

كان لهذه الشخصية تأثير قوى على طريقة القص لدى ماركيز وقد أكّد ذلك لبارجاس يوسا وأشار إليها أيضاً داسو سالديبار فى الكتاب الذى نُقدم ليه وتتلخص فى الآتى : كانت جالسة ذات يوم فى ممر المنزل فجاعتها صبية تحمل بيضة دجاجة لها نتوء حيث سألتها الطفلة عن سبب وجود نتوء بالبيضة ؟ فنظرت إليها وقالت لها : لأنها بيبيضة أفعوان خرافى ثم أمرت بأشعال نار فى الفناء وأحرقوا فيها البيضة. وقد تم هذا بشكل طبيعى جداً ويقول ماركيز : "إن هذه الطبيعية والتلقائية والعفوية فى الردود

هى أكثر الأشياء التى أعطتنى مفتاح رواية "مائة عام من العزلة" حيث تحكى أكثر الأشياء فظاعة وأكثرها خرقاً للعادة بنفس الطريقة الطبيعية التى أحرقت بها بيضة الأفعوان الخرافى الذى لم أدر أبداً ماذا كان .

اعترف جارتيا ماركيز بأن الرحلة التى طلبت والدته منه مرافقتها فيها إلى أراكاتاكا لبيع منزل الجد كانت فى غاية الأهمية بالنسبة له. فقد كان أهم قرار اتخذته فى حياته كمؤلف لأن فترة مراهقته كانت أكثر وعياً بالمستقبل منها بالماضى وبالتالي كانت ذكرياته عن القرية شبه مطموسة فقد هجرها منذ أربعة عشر عاماً ولم يعد إليها طوال هذه الفترة .

ويذكر ماركيز أن والدته عندما طلبت منه ذلك أخبرته بأنها ليس معها ما يكفيها من النقود فطمأنها أنه سيتحمل مصروفاته. كان ماركيز يتقاضى ثلاث بيزات عن الخبر اليومي وعن الافتتاحية أربعة بيزات عندما يغيب المحرر ولم تكن هذه البيزات تكفى على الإطلاق لى يعيش منها. حاول الحصول على قرض من مدير الصحيفة إلا أنه ذكره بأنه مدين بثمانمائة خبر يومي أى كان مديناً له بـ ٢٤٠٠ بيزو وهو مبلغ كبير آنذاك. فتوجه إلى الأستاذ القطالونى بائع الكتب رامون فينيس ليقترض منه عشرة بيزات ، ولكنه لم يكن معه سوى ستة بيزات فقط .

جارتيا ماركيز وجده :

كان جارتيا ماركيز وجده هما الرجلان الوحيدان اللذان يعيشان فى منزل أراكاتاكا وكانا محيطين بزمرة كبيرة من النساء كما أسلفنا سابقاً. كان الجد يلاعب سبطه ويصطحبه إلى محله ويرافقه فى التنزه خارج البيت وخاصة إلى السيرك أو إلى مصنع الثلج. عاش ماركيز فى ظل رعاية الجد الذى لم يكن يفارقه إلا عند النوم. وقد حكى الجد لسبطه الكثير والكثير عن حياته العسكرية واشتراكه فى الجروب الأهلية التى عانت منها كولومبيا .

لم يكن الجد مثقفاً فقد هجر المدرسة الحكومية منذ صغره فى ريوهاتشا لى يقاتل فى الحروب الأهلية المستعرة فى منطقة الكاريبي .

ويقول الكاتب إنَّ جدته كانت تفرض على جده اصطحابه في خرجاته وتنزهاته كي يكون رقيباً على جده حتى لا يُقدم على زيارات لا أخلاقية ويقول ماركيز: "إنَّ هذا لم يحدث على الإطلاق. ومع ذلك فقد تذكَّر ذات يوم أنَّه رأى جده أمام منزل وكان الجد يتصرف هناك كما لو كان سيِّداً لهذا البيت الأمر النِّهاى فيه ويُضيف الكاتب بأنَّه عاهد نفسه على ألا يحكى شيئاً عن ذلك حتى بزوغ شمس اليوم (أن تعيش لتحكى ص ٧٤).

لم يعد الجد إلى الدراسة بعد ذلك قط. وذات يوم كان برفقه سبطه في السيرك وأراد الطفل الاستفسار عن الفرق بين الجمل والهجين ولم يستطع الجد إشباع فضول سبطه. ولكنه عندما عاد إلى المكتب استخرج قاموساً وعرف منه الفرق بين الجمل والهجين ثم وضع القاموس في أحضانه نجل كريمته وقال له : هذا الكتاب يعرف كل شىء وهو الوحيد الذى لا يُخطئ .

كان للجد عظيم الأثر في سبطه ولذلك شعر ببالغ الأسى عندما وافته المنية. أمَّا والده فلم يكن له تأثير في نجله ويبرر ماركيز ذلك بأنَّه تربي بعيداً عن والده وبالتالي لم يكن بينهما ألفة وساد الجفاء علاقتهما. ونرى أنَّ هناك سبباً آخر لتلك الجفوة وهذا الفتور فى العلاقات بين الكاتب ووالده وهو أنَّ الأب لم يكن راضياً على الإطلاق عن هجر نجله لدراسته الجامعية والعمل كصحفى وكاتب كما سنوضح فيما بعد .

تُوفى الجد نيقولاس عندما كان جارثيا ماركيز فى الثامنة من عمره. ويمثل هذا الجد الأساس المرجعى لكل العقداء الذين وردوا فى أعمال ماركيز بدءاً من "كولونيل الورقة الساقطة". ومروراً بـ "الكولونيل الذى لا يجد من يرأسه" حتى الكولونيل أورليانو بويندا فى رواية "مائة عام من العزلة" ولا يشاركه فى ذلك إلا كولونيل آخر هو الزعيم الليبرالى قائد جناح الليبراليين فى الحرب الأهلية الكولومبية التى انتهت عام ١٩٠٢ وراح ضحيتها أكثر من مائة ألف شخص وتُسمَّى بحرب الألف يوم. وهذه الحرب هى الأساس المرجعى للمعارك التى خاضها الكولونيل أورليانو بويندا (٣٢ معركة) فى رواية "مائة عام من العزلة" وخسرهما جميعاً (الواقعية السحرية ص ١٤٨) .

التكوين الثقافي لجابريل جارتيا ماركيز :

واجه الطفل جارتيا ماركيز صعوبة بالغة فى تعلم القراءة فلم يعلمه المدرس أسماء الحروف بل كان يكتفى بتعليمه أصواتها فقط (أن تعيش لتحكى ص ٧) ومن الجدير بالذكر أن ماركيز أحب مدرسته روسا إيلينا فيرجسون لطريقتها المهذبة فى التعليم ويُعدها عن التشنج. كان للطفها وظرفها أثر كبير فى حب ماركيز للقراءة والكتابة. (داسو سالدبيار ص ١١٩) وتمكن ماركيز من قراءة أو كتاب عثر عليه فى مخزن منزله يكاد يغطيه التراب ، كان جزءاً من قصة "ألف ليلة وليلة" وقد سحره هذا الكتاب لدرجة أن خطيب عمته سارة عندما رآه يطالعه صاح قائلاً: "يا إلهى لدينا طفل سيصبح كاتباً" (أن تعيش لتحكى ص ٧٧-٧٨) .

ويقول جارتيا ماركيز: "لقد أدهشنى الكتاب جداً. ومرت سنوات طويلة دون أن أعرف أنه جزء من قصة "ألف ليلة وليلة". وكان أكثر شئ أعجبني فيه قصة قصيرة وبسيطة جداً لازلت أعتقد أنها أجمل قصة مكتوبة كانت تقول : إن صياداً وعد جارتة أن يهديها أو سمكه سيصيدها من البحر ، وعندما فتحت المرأة بطن السمكة وجدت بها ماسة فى حجم ثمرة اللوز". (أن تعيش لتحكى ص ٧٨)

جارتيا ماركيز يترك دراسته الجامعية :

كان جارتيا ماركيز وقد وضع نصب عينيه هدفاً وسعى إلى تحقيقه ، قرر أن يكون كاتباً إلى جانب عمله بالصحافة. لذلك بعد أن التحق بكلية الحقوق فى جامعة بوجوتا الوطنية هجرها لكى يتفرغ للكتابة والعمل بالصحافة ضد رغبة والده. وهنا نذكر أن والده كان دائم النصح لنجله حيث أبلغه بأن الكتابة والصحافة لا يغنيان ولا يُسمنان من جوع ولكن جارتيا ماركيز أصرَّ على موقفه فهجر الدراسة الجامعية مثل خاثنيتو بينابينتى إلا أن الفارق بينهما أن الثانى ترك دراسة الحقوق بعد وفاة والده ليتفرغ لكتابة المسرح أما الأوّل فقد هجرها فى حياة والده. ومن الجدير بالذكر أن والدته لم تتحدث معه عن شئ سوى استياء والده من تركه للدراسة أثناء عودتهما

من الرحلة إلى أراكاتاكا لبيع منزل جديهِ وقال له ماذا أقول لوالدك فأخبرها أن تبلغه بأنَّه يحبه حباً جماً ولكنه قرر أن يكون كاتباً وسيكون .

ويقول جارشيا ماركيز لقد شجعتني على ذلك عبارة كتابها برنارد شو قال فيها: "توقفت عن الذهاب إلى المدرسة منذ صغرى فلم أكن في حاجة إلى مناقشة ذلك مع أي شخص لأنني سأعجز عن إقناع الآخرين ، ولن تُجدي معهم أسبابي ومبرراتي" .

وقد حاولت والدته ماركيز إقناعه بأن والده لا يُعارض هذا الاختيار ولكن يطلب منه فقط تأجيل ذلك حتى يحصل على شهادته الجامعية أمل وطموح أسرته إلا أن المتمرد كما يسميه ماريو بارجاس يوسا ضرب عرض الحائط بنصح والده وتوسلات والدته .

وكان جارشيا ماركيز قد تزود بسلاح العلم والمعرفة حيث التهم كل ما ألف وترجم عن تعلم فن كتابة الرواية. وكان ذلك عقب تركه لدراسة الحقوق بسنة أشهر حيث تفرغ للقراءة والكتابة وهو في الثالثة والعشرين من عمره. كان يحفظ عن ظهر قلب أشعار العصر الذهبي الإسباني. وكان ماركيز يقول إن كتاب "ضوء أغسطس" للقصاص الأمريكي وليام فوكنر أقرب الكتب إلى قلبه. وكان يمتص كتابات فوكنر امتصاصاً ويرتشف من رحيقها محاولاً فهم الكاتب جيداً خشية أن يكون القصص الأمريكي كاتباً مخادعاً. ولذلك كان الأستاذ القطالوني رامون فينيس يهدئ من روعه ويقول له : "لو كان فوكنر في بارأنكيا لشاركتنا الجلوس على هذه الطاولة. (أن تعيش لتحكى ص ٩٧) .

وتجدر الإشارة هنا أيضاً إلى أن والدته ماركيز بعد أن انتابها اليأس من إسداء النصيحة لنجلها قبل انصرافها عنه بعد رحلة العودة من أراكاتاكا قالت له : "إن والدك سيموت حسرة لترك الدراسة" .

لم يكن الوقت مناسباً لكي يبدأ ماركيز كتابة رواية ثانية لأنه غرق في الأولى حتى أذنيه ومع ذلك فقد عاهد نفسه في تلك الليلة على أن يكتبها أو يموت استشهاده بقول ريلكة "إذا استطعت أن تعيش دون أن تكتب ، فلا تكتب" (كناية عن استحالة العيش بالنسبة للكاتب إذا لم يكتب) . ولذلك كان آخر ما قاله لوالدته عند وداعها إيَّاه أخبري

والدى أنتى أحبه حباً جماً وأنتى بفضلله ساكون كاتباً ، ولن أكون إلا كاتباً . (أن تعيش لتحكى ص ٨١) .

مجموعة بارأنكيا :

يقول ماركيز إنّه تعرف على مجموعة بارأنكيا وهى جماعة من الكتّاب والفنانين الشبان التى كانت تلعب دوراً ثقافياً ريادياً فى حياة المدينة بقيادة الأستاذ القطالونى رامون فينيس وكانت تضم خيرمان بارجاس والفونسو فوينمايور وألبارو تيبيدا ساموديو كانت تجمعنا سمات كثيرة مشتركة لدرجة أنّهم كانوا يقولون عنا أننا أبناء لأب واحد. كانت استقلاليتنا وموهبتنا الراضية للتبعية وتميزنا الإبداعى من أسباب شهرتنا وكذلك سبباً لكراهية بعض الأوساط لنا . (داسو سالديبار "رحلة إلى الجذور" وأن تعيش لتحكى) .

كانت ميرا ديلميرا المرأة الوحيدة بين أفراد الجماعة. وقد أصبحت مكتبة MUNDO (العالم) بمرور الوقت مركزاً للاجتماعات الأدبية للجماعة حيث كانت تلتقى مرتين يومياً .

كان ماركيز أكثر أفراد الجماعة فقراً حيث كان يلجأ إلى ركن ناء فى مقهى روما ليكتب فيه ما يريد حتى الفجر لأنّ العاملين اللذين كانا يزاولهما على الرغم من أهميتهما كان دخلهما لا يكفى شيئاً. كان ماركيز يمكث بالمقهى حتى بزوغ خيوط الفجر الأولى يقرأ بلا هوادة ولا مهادنة. وعندما يعرضه الجوع كان يتناول ساندويتشاً مع فنجان شيكولاتة ، وكان يقتنزه مع ساعات النهار الأولى تحت أشجار الطريق المزهرة. كان ماركيز يكتب خلال الأيام الأولى بمقر الصحيفة وينام بضع ساعات فى أى مكان خال بها أو يفترش بقايا بكرات ورق المطبعة إلا أنه بمرور الوقت وجد نفسه مضطراً للبحث عن مكان آخر أكثر راحة وهدوءاً .

وكان الأستاذ القطالونى رامون فينيس قد اسدى نصيحة غالية لجارثيا ماركيز تكمن فى ألا يُطلع أحداً كائنًا من كان على شئ من إنتاجه الأدبى الذى لا يزال فى طور الكتابة والإعداد .

جارثيا ماركيز والواقعية السحرية :

عند تناول هذه النقطة المهمة فى المقدمة لا يسعنا فى هذا المقام إلا أن نوصى القارئ الكريم إذا أراد الاستفاضة والتوغل فى تيار الواقعية السحرية بقراءة كتاب الدكتور حامد أبو أحمد الذى يحمل نفس الاسم وقد أصدرته دار نشر سندباد للنشر والتوزيع. يقع الكتاب فى ٢٨٥ صفحة من القطع الصغير وقد تناول فيه المؤلف هذا التيار الأدبى بإسهاب والعلاقة بينه وبين السيرالية ورواد هذه الحركة الأدبية فى أمريكا اللاتينية وعلى رأسهم بطبيعة الحال جابرييل جارثيا ماركيز. وحلل الناقد بعض قصص هذا الاتجاه الأدبى فى الرواية مثل "خريف البطريزك" و" الحب وشياطين أخرى" للكاتب الكولومبى و"السيد الرئيس" ليجيل أنخيل أستورياس .

وبالنسبة لتعريفات هذا التيار الأدبى فى فن الرواية سنقتصر على ما ذكره الكاتب البيروانى الشهير ماريو بارجاس يوسا فى حوار مع د. حامد أبو أحمد أثناء رحلتهما إلى الإسكندرية فى مطلع شهر فبراير ٢٠٠٠ يقول بارجاس يوسا : "بالنسبة للواقعية السحرية ، لا أحد يستطيع تعريفها تعريفاً محدداً وقاطعاً أو بمعنى أدق بتعريف جامع مانع فالبعض يقول إن أليخو كاربينتير وهو أديب كوبى (١٩٠٤-١٩٨٠) كان روائياً ، وقصصاً ، وكاتب مقال وموسيقياً ، ودبلوماسياً ، وكان أول من قدم هذا العالم الذى لا يمكن أن نسميه واقعاً ولا نستطيع أن نطلق عليه فانتازيا. ومن هنا نشأ مصطلح الواقعية السحرية من الجمع بين عنصرين مهمين هما الواقع والفانتازيا ، لقد ارتبط اسم جارثيا ماركيز أيضاً بهذا الاتجاه ربما بشكل أوسع ، لكن الحقيقة ، أن خوان رولف له عالمه المختلف ، وكذلك خورخى لويس بورخيس وكل منهما مختلف عن عالم جارثيا ماركيز. فعالم بورخيس على سبيل المثال مأخوذ من ثقافات عديدة على العكس من عالم ماركيز الذى يقتصر على الصنعة الروائية. وهذا يعنى أنه لا يوجد قالب واحد يجمع كل الكُتَّاب فى صفة واحدة. واستطرد بارجاس يوسا قائلاً: "إن الواقعية السحرية ليست تراثاً خاصاً بأدب أمريكا اللاتينية ، ففى إسبانيا نجد فى قصص الفرسان فانتازيا كثيرة مثلما نجد عند جارثيا ماركيز ، وكذلك فى الأدب الألمانى والفرنسى وبالنسبة للأدب العربى نعرف أن بورخيس العارف الكبير بهذا الأدب ،

استخدم كثيراً من العناصر الخيالية فى "ألف ليلة وليلة" لصياغة أدبه. أما ارتباط هذه التسمية بأمريكا اللاتينية على وجه الخصوص دون غيرها يرجع إلى ظهور عدد كبير من كُتّاب القارة خلال عقد الخمسينيات أدى إلى توثيق هذا الارتباط .

تأثر ماركيز بكتاب آخرين كانت لهم إبداعات مهمة فى مجال المزج بين الواقع والأسطوري مثل فوكنر وهيمنجواى وكافكا وغيرهم وفى هذا الصدد سنشير إلى ما قاله فى الحوارات المذكورة مع ميندوثا رداً على سؤال له دلالة مهمة يقول : "هل كانت جدتك هى التى أهلتك لاكتشاف أنك ستصبح كاتباً ؟ "فأجاب : " كلا ، كان ذلك هو كافكا الذى كان يحكى بنفس طريقة جدتى ترانكلينا. فعندما قرأت قصة "المسخ" LA METAMORFOSIS وعمرى سبعة عشر عاماً اكتشفت إنى سأصبح كاتباً ، وذلك عندما رأيت أن جريجوريو ساسا (بطل القصة) استيقظ ذات صباح ليجد نفسه قد تحول إلى جعران هائل. فقلت لنفسى لم أكن أعرف أن فى الإمكان القيام بهذا ، لكن إذا كان الأمر كذلك فإنه يهمنى أن أكون كاتباً".

ويأتى كلام ماركيز بعد ذلك فى غاية الأهمية لأنه يوضح الخيط الرفيع الذى يفصل بين الحرية والفوضى فالكاتب يؤكد على دور الحرية فى العملية الإبداعية. ويقول أنه عقب قراءة ته لقصة "المسخ" لكافكا اكتشف أن الأب يتضمن إمكانات أخرى غير الأكاديمية والعقلية التى عرفها أثناء دراسته لكنه يؤكد فى الوقت ذاته على أنه أدرك أن المرء لا يمكن أن يخترع أو يتخيل كل ما يعنُّ له بلا ضوابط ، وإلا تحول الأمر إلى مجرد أكاذيب ، الأكاذيب فى الأدب أكثر خطورة منها فى الحياة الواقعية. ومما قاله الكاتب فى هذا الصدد: "إنَّ الأشياء الأكثر دخولاً فى حالة الاعتساف الظاهر تحكمها قوانين. والمرء لا يستطيع أن يزيح مساحة العقل بشرط ألا يقع فى الفوضى ، أى فى اللاعقلانية المطلقة" أى الفانتازيا التى أوضح خلال هذا الحوار أنه يمقتها. وعن سبب كرهه لها قال الكاتب: "أننى أعتقد أنَّ الخيال ما هو إلا أداة لتشكيل الواقع . لكن مصدر الإبداع أولاً وأخيراً هو الواقع دائماً. أمَّا الفانتازيا ، أو الاختراع الخالص والبسيط على غرار والت ديزنى ، هو أكثر الأشياء التى تثير كراهيتى ومقتى. وقد أكَّد ماركيز فى تلك الحوارات على أنه لا يوجد سطر واحد فى كل أعماله القصصية لا يستند إلى الواقع . (الواقعية السحرية ص ٤٤ و ٤٥ ، ورحلة إلى الجنور ص ١٧٩ و ١٨٠) .

وسوف نشير هنا أيضاً إلى المفهوم الشعري للواقع لدى جارشيا ماركيز فهو مفهوم متوازن جداً ، لأنه يعتقد أن القصة يجب أن تكون تمثيلاً أو تجسيداً أو تشخيصاً دقيقاً للواقع ، نوعاً من اللغز أو الأحجية للعالم. والواقع الذي يصنع فى قصة مختلف تماماً عن واقع الحياة ، على الرغم من أنه يقوم عليه ، مثلما يحدث فى الأحلام. ولا شك أن هذه الرؤية للواقع نابعة من الواقع الغريب الذى تعيشه بلدان أمريكا اللاتينية ومثالاً لذلك ما جاء فى مخطوطات رحالة أمريكى يدعى أوب دى جراف الذى قام برحلة فى نهاية القرن التاسع عشر إلى منطقة الأمازون شاهد فيها من بين ما شاهد ، مجرى مائياً تغلى مياهه ، ومكاناً يكون صوت الإنسان فيه سبباً لهطول وابل من المياه. كما اشار ماركيز إلى الحادثة التى وقعت فى إحدى المناطق الجنوبية النائية فى الأرجنتين عندما حملت الرياح إلى البحر "سيركاً" برمته ، وفى اليوم التالى عثر الصيادون فى شباكهم على جثث الأسود والزرافات. (قراءات فى أدب إسبانيا وأمريكا اللاتينية للدكتور حامد أبو أحمد ص ١٨٦). ويشير ماركيز أيضاً فى حواراته مع ميندوتا أنه فى قصة "جنازة مما الكبيرة" حكيت رحلة لايمكن تخيلها ، ومستحيلة للبأ إلى إحدى القرى الكولومبية حيث استقبله رئيس متوسط القامة أصلع الرأس حتى يختلف عن رئيس البلاد فى ذلك الحين الذى كان طويلاً قوى البنيان ومن العجيب أنه بعد كتابتى لهذه القصة بأربعة عشر عاماً زار البابا كولومبيا وقد استقبله رئيس أصلع الرأس متوسط القامة كما فى القصة. وأضاف أيضاً أنه بعد أن كتب رائعته "مائة عام من العزلة" عام ١٩٦٧ ظهر شاب فى بارأنكيا اعترف أن فى مؤخرته ذيل خنزير. وكان ماركيز أثناء كتابته لأعماله الأدبية يجد نفسه أمام تفسيرين أحدهما واقعى والآخر سحرى. فكان يلجأ إلى السحرى وهذا ما حدث مع شخصية ريميديوس الجميلة فى "مائة عام من العزلة" فكرت أولاً فى أن أجعلها تختفى وهى تقوم بالتطيرز مع نساء أخريات فى دهليز البيت ولكن قلت هذا ما يحدث فى السينما ولم يبد لى ذلك مقبولاً ففكرت فى أن أجعلها تصعد إلى السماء بالروح والجسد معاً. وكان هذا الخاطر يستند إلى حدث واقعى أيضاً وهو أن إحدى السيدات كانت لها حفيذة هربت منها ساعة الفجر ولكى تخفى عار اختفائها وهروبها مع حبيبها أطلقت شائعة تقول إن حفيدتها ذهبت إلى السماء . وقد لجأ الكاتب إلى التفسير السحرى للواقعة عن مقارنته

بالتفسير الواقعي لأنه وجد الأول أكثر عمقاً وتشويقاً وجذباً للقارئ ، ثم إنه بمنأى عن الابتذال والألفة. (الواقعية السحرية ص ٤٦ و ٤٧) .

ولعل اللغة من أهم مكونات هذا العالم الواقعي السحري عند ماركيز لأن اللغة عنده كما اشار الكاتب فى كثير من حواراته لها بريق ، وثناء وعمق حيث يرى أن اللغة والتقنية أدواتان يحددهما أو يفرضهما موضوع العمل الأدبى نفسه. فاللغة فى "الكولونيل لا يجد من يرأسه" وفى "الساعة المشنومة" وفى عدة قصص أخرى من "جنازة الأم الكبيرة" لغة موجزة متنوعة يهيمن عليها الاهتمام بكونها فعالة وهى تقريباً مأخوذة من لغة الصحافة فى "مائة عام من العزلة" كانت فى حاجة إلى لغة أكثر ثراء لكى أعطى مدخلاً لهذا الواقع الآخر الذى اتفقنا على تسميته "الواقع الأسطوري" أو "الواقع السحري" وفى "خريف البطريق" اضطرت للبحث عن لغة أخرى. ورداً على سؤال الميندوثا حول "خريف البطريق" وهل هى قصيدة منشورة ؟ وهل هى متأثرة بتكوينك الشعري ؟ رد بحسم : "كلا ، إنها متأثرة فى جوهرها بالموسيقى. فلم اسمع موسيقى بكثرة مثلما سمعت خلال كتابتى لهذه الرواية". وذلك كان ماركيز على حق عندما قال إن التقنية واللغة أدواتان يحددهما ويفرضهما موضوع العمل الأدبى سواء كان قصة أو رواية (بيلينيو ميندوثا ، حوارات مع جابريل جارتيا ماركيز ص ٨٦)

فالواقعية السحرية عند هذا الروائي العالمى الذى تميز بشدة الخصوصية ، واتساع الخيال ، والثراء والتنوع لها روافد كثيرة ومتنوعة ولكن الأهم من ذلك هو تلك العقلية الفذة والعبقرية المبهرة وذلك الخيال الخلاق الذى استطاع ببراعة واقتدار أن يقدم لنا من كل هذا الرؤى والروافد والخيالات والأفكار أعمالاً إبداعية خالدة ترجمت لأهميتها إلى كل لغات العالم تقريباً وليس فيها عملٌ واحد يمكن أن يُقال عنه إنه دون المستوى أو أصابه الوهن والضعف أو جاء مخيباً للآمال .

ماركيز وجائزة نوبل :

منحت الاكاديمية السويدية جائزة نوبل فى الآداب يوم الخميس الموافق ٢١ أكتوبر عام ١٩٨٢ لأديب كولومبيا العالمى جابريل جارتيا ماركيز دون أن يُصاب أحد بالدهشة أو الاستغراب فقد اقترن فوزه لهذه الجائزة بالاستحسان خاصة وأنها كان قد

ضلت طريقها فى الأعوام الثلاثة الماضية حيث منحت لكتاب مغمورين لم يقرأهم أحد ولن يقرأهم أحد وذلك لكى تلفت الأكاديمية المانحة للجائزة الأنظار لهم. وهذا ما عبر عنه أديب أوروغواى الأشهر خوان كارلوس أونيتى. وعلى الرغم من صغر سن جارثيا ماركيز نسبياً عند حصوله على الجائزة (٥٤ عاماً) إلا أن شهرته قد جابت الأفاق وذاع صيته فى مختلف أرجاء الكرة الأرضية فقد ترجمت روايته "مائة عام من العزلة" إلى مختلف لغات العالم كما طبع منها أكثر من خمسة ملايين نسخة حتى ذلك الحين كما أن "نبا موت معلن" آخر قصة صدرت له فى عام ١٩٨١ بلغ عدد نسخ طبعتها الأولى مليون نسخة (دراسات فى أدب أسبانيا وأمريكا اللاتينية للدكتور حامد أبو أحمد ص ١٩٣) .

لقد حصل جابرييل جارثيا ماركيز على جائزة نوبل فى الآداب عن جدارة واستحقاق إلا أنه وهو أمر مهم للغاية نصير للقضية العربية ويقف إلى جانب الحق العربى لذلك نجده يُطالب فى مقال له نشرته صحيفة الباييس فى أواخر سبتمبر أو أوائل أكتوبر ١٩٨٢ تحت عنوان "جائزة نوبل للموت لبيجين وشارون" قبل فوزه بالجائزة العالمية بثلاثة أسابيع تقريباً تحدث فيه عن جائزة نوبل للسلام التى مُنحت ظلماً وعدواناً للإرهابى .

د. صبرى محمدى النُّهامى زيدان

مصر الجديدة فى ٢٠٠٤/١١/٥

المراجع

- ١ - بيلينيو ميندوثا "حوار مع جابرييل جارتيا ماركيز" دار نشر بروجيرا ، الطبعة الثانية مدريد ، ١٩٨٣ .
- ٢ - د. حامد أبو أحمد ، "الواقعية السحرية" دار سندباد للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٢ .
- ٣ - د. حامد أبو أحمد ، "دراسات فى أدب أسبانيا وأمريكا اللاتينية" ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٣ .
- ٤ - د. حامد أبو أحمد ، "دراسات فى الأدب المقارن" القاهرة ، ٢٠٠٣ .
- ٥ - داسو سالدبار ، جارتيا ماركيز "رحلة إلى الجنود" دار نشر الفاجورا ، مدريد ، ١٩٩٧ .
- ٦ - جابرييل جارتيا ماركيز "أن تعيش لتحكى" ترجمة وتقديم د. طلعت شاهين ، سنابل للنشر والتوزيع ، مدينة ٦ أكتوبر ، مصر ، ٢٠٠٣ ، الطبعة الأولى .
- ٧ - ماريو بارجاس يوسا ، جارتيا ماركيز "قصة متمرد" ، دار نشر بارأل ، برشلونة ، ١٩٧١ .

شكر وامتنان

فى عمل ضخيم ومتعدد الأطوار كما هو الحال فى السيرة الحياتية ؛ فإن المؤلف لا يعدو كونه ناسخاً لكثير من معاونيه الذين لا غنى عنهم بالنسبة له ، يُعتبر من الإنصاف الجوهري والامتنان والعرفان أن نبرهن على كرم إسهام هؤلاء .

لذلك فإن أدل امتنان أقدمه لجابرييل جارثيا ماركيز ليس فقط لأنه جعلنى أرتاح للكتابة عنه دون أدنى قيد - كما لو كان ميتاً - بل أيضاً لمساعدته إيأى على مدى أمسيتين طويلتين لترتيب وإيضاح الأحداث المعقدة وغير الموثقة جيداً على مدى العشرين عاماً الأولى من حياته. وفى هذا الصدد ، كانت إسهامات والدته حاسمة أيضاً السيدة/ لويسا سانتياجا ماركيز إيجواران (التى أوضحت لى كذلك ووسّعت معلوماتى حول اللحظات الجوهريّة لخطوبتها وزواجها من موظف التلغراف فى أراكاتاكا جابرييل إيلخيو جارثيا ماركيز) ، وحول أشقائه وشقيقاته لويس إنريكي ومارجوت وعائدة وإليخيا وجوستابو وخايمي وإيلخيو جارثيا ماركيز . لقد تكفل لويس إنريكي وإليخيا مراراً وتكراراً بأن يوضحا لى التواريخ وصلات القرابة والنواذر. ولقد كانت إليخيا بحق مؤرخة الأسرة ؛ فهى بالإضافة إلى ابنة عمها مارجريتا ماركيز ، التى أمدتني بمعظم المعلومات عن أشجار النسب. أمّا خايمي فقد زودنى بوجهة نظره الثاقبة عن كل فرد من أفراد أسرة ماركيز . وبالنسبة لعائدة ، فقد بدأت حوارى معها فى كيكبانا وأنطيوخيا فى أكتوبر عام ١٩٧٢ عندما كانت تعمل راهبةً . وبعد ذلك بعشرين عاماً ظلّت تحدثنى لإثراء بعض الجوانب التى كنا قد تطرقنا إليها فى محادثتنا الأولى وكان عجلة الزمن قد توقفت.

وعلى الرغم من كل ذلك ما كنت أستطيع الانتهاء بشكل موسّع ومقنع من طفولة الكاتب ، ولا من إعداد تخيلٍ نظري للمنزل الذى ولد فيه لولا الإسهام النهائى من جانب

سارة ماركيز ابنة عم القصاص التي نشأت معه هي ومارجوت طيلة عشر سنوات ، إنها بذاكرتها القوية دون ثغرات لم تضع النقاط على الحروف فقط - حيث تفادت بعض الأمور الزائفة عن طفولة الكاتب التي تجوب العالم - بل أيضاً رسمت لى أفضل الصور للأجداد والعمات والمنزل. كما كانت إيضاحات العمة مارجوت بالديبلانكيث جوهرية ؛ فقد كانت رواية شفوية حقيقية حيث عرفتني بالعديد من الجوانب الأساسية فى حياة الأجداد وفى طفولة الكاتب. وقد كان مسك الختام بالنسبة للمنزل الذى شهد ولادة الكاتب يرجع الفضل فيه إلى مساعدة المهندس المعماري جوستابو كاستيون ليشيرو ، وهو مؤلف مشارك لأطروحة عظيمة عن ذلك المنزل . وقد قضيت معه أسبوعاً فى أراكاتاكا من التنقلات والبحث والبراهين لإكمال تحرياتي الأولى التى بدأتها فى مطلع وأواسط السبعينيات.

ولم تكن أقل أهمية درشتاتي مع روسا إيلينا فيرجيسون مُدرسته التى علّمتها القراءة ، وغرست فيه هواية الشعر فى أمسيات مدرسة مونتييسورى . وقد أمدنى لويس كارميلو كوريا جارثيا صديق ولادة الكاتب برؤية واسعة عن التلميذ جابيتو : ألعابه وعاداته الغريبة وهواياته ، وكذلك عن جوانب مهمة من تاريخ أراكاتاكا ، وعن مزارع الموز ، وبعض شخصياته مثل خالدة الذكر خوانا دى فريتيس ، والثرى الهائل أنطونيو داكوتى فاما .

وإزاء نقص الأرشيفات شبه المطلق كان كل من لورينثو سولاند بيلايث ، وجراثيانو بريتو وإيتايل وكليمينتين سالتارين يمثلون مصادر الرئسية فى بارنكاس كريمة الضيافة لى أتعلم فى الفترة الريفية لأجداد جارثيا ماركيز ، وكذلك عن المباراة التى اضطر فيها العقيد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا إلى قتل صديقه ميدرانو باتشيكو روميرو برصاصتين فى ذلك المساء المطير يوم التاسع عشر من عام ١٩٠٨ .

كما كان الشاعر كارلوس مارتين والمهندس المعماري إدواردو أنجلو فلوريس ، وأخصائى المسالك البولية أرماندو لوبيث ، والطبيبتان جلاديس وثوني كالديرون نجلتا الأستاذ كارلوس خوليو كالديرون إيرميذا وماريا لويسا نونيث ، وماريا جوميث دى أجيرى زوجة ونجلة المحامى أنولفو جوميث تامارا على الترتيب ، كانوا جميعاً بتصريحاتهم

ووثائقهم التي أمدوني بها وإضافاتهم وتصويباتهم التي لا غنى عنها لاستعادة السنوات الأربع النهائية لجارثيا ماركيز التي قضاها في ثيباكيرا . ومع ذلك فإن النشاط الأدبي والصحفي للشاب طالب الثانوى ذى السبعة عشر ربيعاً كان سيظل ناقصاً بدون الإسهام الهائل الذى قدّمه لى كارلوس مارتين: نسخة من العدد الأول من " المجلة الأدبية " تلك الصحيفة التي أصدرها القصاص مع رفاقه فى مدرسة الليسيه الوطنى للبنين فى ثيباكيرا .

كما كان الإسهام الكبير للويس بيار بوردا وجونثالو مايارينو صديقيه وزميليه السابقين عن العاميين الدراسيين اللذين عانى خلالهما الكاتب بكلية الحقوق فى بوجوتا ، واللذين تصادفاً مع البداية الواثقة لمسيرته الأدبية . وكان بيار بوردا مراسلاً غزير الإنتاج ومدققاً فى أدنى التفاصيل ، فضلاً عن سخائه فى استعادة القصيدتين اللتين كان قد نشرهما بالاشتراك مع كاميلو توريس والمنشورتين فى ملحق صحيفة "العقل" فى منتصف عام ١٩٤٧ ، كما تحلّى بالصبر كلُّ من ألفونسو فوينمايور وجوستابو إيبارا ميرلانو وراميرو دى إسبيريا ومانويل ثباتا أوليبيا وألبارو موتيس ورفائيل إسكالونا وخوان ثباتا أوليبيا فى مساعدتى فى تنقية وتصحيح واستكمال المعلومات الهائلة الخاصة وغيرها عن فترتى كارتخينا وبارانكيا ، وهما الفترتان الأساسيتان فى التأمل وهما فى التأمل اللتان بدأ خلالهما ماركيز يصبح حقيقة جارثيا ماركيز . أمّا ألفونسو فوينمايور فقد استكمل درشتنا الأولى بمراسلات سخية حتى وفاته فى سبتمبر ١٩٩٤ . وتحملُ إيبارا ميرلانو على مدى عامين تحريّاتى الأدبية حتى استطعنا -معاً- التحقق دون أدنى شك من مكان وسنة وتقريباً التاريخ الدقيق الذى أنهى فيه صديقه الرواية الأولى " الورقة الساقطة " ، وهو أمر أساسى للتمكن من إيضاح سلسلة كاملة من الأحداث المتلاحقة زمنياً . وقد أشار علىّ مانويل ثباتا أوليبيا ورفائيل إسكولانا بلحظات ذات مغزى فى مختلف الأسفار التي قام بها الروائى من أراكاتاكا فى مطلع الخمسينيات إلى بايديوار وجواخيرا بحثاً عن الجنور الأصلية لذاكرته .

وبالنسبة للفترة الطويلة المهمة التي تبدأ من يناير ١٩٥٤ عندما وصل جارثيا ماركيز إلى جريدة الاسبكتادور " المشاهد " حتى مايو ١٩٦٧ التي نشر فيها " مائة عام من العزلة " فى بوينوس آيرس ، فإننى مدينُ بإسهامات جوهرية لأشخاص كثيرين

ولكن يجب أن أعترف مع مزيدٍ بالاعتراف بالجميل بأنَّ أحدًا لم يكن شديد الكرم معي ،
وصبوراً وفيّاضاً بمثل ما كان ألبارو موتيس ، معلم كويو ، وهو عند الكثيرين من أعزِّ
أصدقاء جارثيا ماركيز وأكثرهم حميمية ، وفي حالتى أيضاً فقد كان من حسن حظى
أن أنهل من ذاكرته ويصيرته وكرمه خلال الإعداد المضمنى لهذه السيرة الحياتية .
فبفضله استطعت أن أرى بشكل أفضل لحظة وصول ودخول كاتبنا إلى الصحيفة
البوجوتية " المشاهد " ثم سفره إلى أوروبا وجهده الجهد فيها ووصوله واستقراره فى
المكسيك ؛ تلك السنوات الصعبة التى سبقت " مائة عام من العزلة " ، والشهور التى
لا تُنسى لكتابتها ولحظات المجد الأولى بعد اجتياز الصحراء .

وقد تعمقت فى المعلومات والإيضاحات حول فترة كان قد درسها جال جيرالد
ويبدو سوريل مع كل من الصحفيين خوسيه سالجار وألبرتو ثالاميا . واستطعت بفضل
المثال رودريجو أريناس بيتانكورت الاطلاع على طريقة عمل جارثيا ماركيز فى
تحقيقاته عن مرحلة " المشاهد " ، وقد زودنى المخرج السينمائى فرناندو بيرى بمعلومات
قيّمة عن الفترة التى درس فيها الكاتب السينمائى فى روما . وقد حكى لى ألبرتو
أجيرى فى مدريد وميدياين قصة الطبعة الأولى لعمله : " العقيد لا يجد من يرأسه " . كما
حكى لى دانييل سامير وخوسيه لويس دياث جرانادوس نوادر ومعلومات متفرقة غزيرة
ودقيقة عن أوقات مختلفة ، كما زودنى كل من أدريانو جونثاليث ليون وخوسيه فونت
كاسترو بجوانب معينة عن فترة كاراكاس ، وكل من أنخيل أوخير وإليسيو ألبرتو ديجو
أرشدانى لتذكّر وقائع عن الإقامة الأولى للقصاص فى هافانا خلال الأيام الأولى للثورة .

أمّا عن استرجاع الفترة الطويلة الخصبة بالمكسيك وهى فترة الانفجار العظيم ،
فلم تكن أقل أهمية وغزارة إسهامات كل من كارلوس فوينتيس وماريا لويسا إيليو وبيثنتى
روخو وإيمانويل كاريابو ونانسى بيثينس وميرسيدس بارشا باربو وجونثالو جارثيا
بارشا وخوسيه دى لا كولينا وكارمن بالثليس ولويس كودوريير وأرتور ريبستين
والأخير من خلال إدواردو جارثيا أجيلار ، وعن الفترة التى أعدد فيها السيناريوهات ،
وعندما كانا يحلمان بكتابة أعظم قصص القارة ؛ حدثنى كارلوس فوينتيس بالتواضع
نفسه والسخاء اللذين تميز بهما ألبارو موتيس والدردشات مع ماريا لويسا إيليو التى
أهديت لها " قصة مائة عام من العزلة " ، وفيثنتى روخو ومانوئل كاريابو إلى جانب

إسهامات ألبارو موتيس ، حيث كانت هي أهم ما مكننى من من استرجاع الأربعة عشر شهراً التى استغرقتها كتابة قصة ماكوندو العظيمة " مائة عام من العزلة" بما صاحبها من صعوبات وشدائد .

وأخيراً قدّم لى الناشر باكو بوروا ووكيلة أعماله كارمن بالثليس على مدى شهر معلومات مثرية وموضحة عن عقد الطبعة الأولى لقصة " مائة عام من العزلة" وطرحها فى الأسواق ، وكذلك عن العقود الأولى والترجمات إلى لغات أخرى .

ومن المراجع التى لا حصر لها ، والتى تَمَرَّتْ والرجوع إليها ، بدءاً من تلك التى تتضمن تَرمُحات المذكرات والحكايات والمقالات المضيئة ، ينبغى أن أبرز كل ما كان له دور أساسى فى عملى ؛ مثل أعمال ماريو بارجاس يوسا وبيلينيو أبوليو مينوثا و جاك جيرالد وميتسشيل بالينثيا روته ولاثارو دياجو خوليو وإدواردو جارتيا أجيلار ، الذين لولاهم لأصبحت هذه السيرة الحياتية المرهقة أكثر صعوبة وبطناً وربما حُكِمَ عليها بالإعدام . ويمكن أن نقول كذلك على نحو ما بشأن القراءة الدقيقة والمتأنية والفنية للنص التى قامت بها مارتا كانفيلد كورنادو ثولوماجا وخوسيه مانويل كوماتشو ديلجادو .

ولكن هذه التركيبة الهائلة من الأسئلة والرسائل الأدبية والمكالمات والأسفار والقراءات والاستدلالات طوال عشر سنوات لم تكن ممكنة بدون الحماس اليومى لرينا(*) ومساعدة وتفهم خيسوس ماريأ أوسينا ومارجريتأ ثولواجا والجهد الذى لا غنى عنه لكارمن بالثليس ورفائيل ديل بوثو. ومع ذلك فإن القائمة لا تنتهى هنا فقد كانت هناك إسهامات ومساعدات أثناء كتابة هذا الكتاب الذى بدأ بالحماس الشديد للناشر المحترف بالينتين ثباتيرو وانتهى بالحماس البديل ودون تحفظات لخوان كروث وتتسع القائمة لكل من إيدجار مونتيل وجوستابو بارجاس وأنطونيو جامونيدا و كارمن بوساداس وسانتياجو موتيس وإدوارد جارتيا أجيلار وبيدرو سوريلا ونارثيسو جايجو وإيرنستو سيراً وجوستابو تاتيس جيراً وخورخى جارتيا أوستا وأرتيلى ثيبيدا وبيكتوريا كولينار ومارتا باهوس وخوسيه سيبوليدا .

(*) رينا Reina هى زوجة مؤلف الكتاب .

مدريد في ١٣ أغسطس ١٩٩٦

" لن نتوقف عن الاكتشاف
وفي نهاية كل اكتشافاتنا
سيكون المال إلى حيث بدانا
ومعرفة المكان لأول مرة

ت . س . إليوت

" إن الذكرى الحية والباقية عندي
ليست للأشخاص ؛ بل
لنفس منزل أراكاتاكا الذي عشت فيه
مع أجدادي . وكل يوم أستيقظ
بانطباع زائف أو واقعي بأتني
قد حلمت أني في ذلك المنزل "

جابريل جارتيا ماركيز

الفصل الأول

- العودة إلى الجنود .
- بارأنكاس : جنود الجنود .
- أسرة ماركيز إيرنانديث القادمة من أسبانيا .
- الصانع المسالم نيقولاس ماركيز .
- حرب الألف يوم .
- العقلاء لا يجدون من يرأسهم .
- المباراة بين نيقولاس ماركيز وميدرانو باتشيكو .
- نزوح أسرة ماركيز إيجواران .

لعل الرحلة التي قام بها جابرييل جارتيا ماركيز برفقة والدته إلى أراكاتاكا عام ١٩٥٢^(١) لبيع منزل الأجداد الذي ولد فيه هي ، كما كرر ذلك في سنوات لاحقة ، كانت أهم الأحداث الحاسمة في حياته الأدبية.

وعندما كان جارتيا ماركيز قصاصاً شاباً في الخامسة والعشرين من عمره كان يعتقد أن كل قصة جيدة تتحقق لها تلك الجودة وفقاً لشرطين متزامنين: أن تكون تعبيراً شعرياً عن الواقع ، وأن تكون نوعاً من الأحجية المشفرة عن العالم. فمنذ خمس سنوات خلت كان يحاول إيجاد مخرج أدبي لعالم كوابيس طفولته في حكايات " عيون كلب أزرق " ، وفي مسودة قصة لا شكل لها ولا نهاية عنوانها " المنزل " ، وفي طبعتين أو ثلاث لرواية " الورقة الساقطة " . ومع ذلك فإن عودته إلى مسقط رأسه جعلته يرى أنه كان بمنأى عن تحقيق ذلك بالطريق الذي سلكه في البداية^(٢) . لقد أدرك أنه لكي يستعيد الزمن الماضي ، ولكي يصل إلى لب ما شاهد في أراكاتاكا (من خراب وعزلة) كان يحتاج إلى منظور أكثر اتساعاً ، وبالتالي تحتم عليه العودة إلى ماضى طفولته والتوغل في الزمن ، وفي القرى الريفية التي قَدِمَ منها أجداده لأمه.

وفي قطار العودة إلى بارانكيا التي أقام فيها عامين يكتب لصحيفة "الهيرالد - Her- aldo" بدأ يسأل والدته عن أجداده: ومن هم في الحقيقة ؟ من أين ومتى وصلوا إلى أراكاتاكا ؟ ومن هو ذلك الرجل الذي اضطر العقيد ماركيز أن يقتله في مبارزة جرت منذ أربع وأربعين سنة ؟ ومن هم الذين أعادوا بناء أراكاتاكا إلى جانب أسرة ماركيز إيجواران اعتباراً من عام المذنب هالي ؟.

وعندما عاد إلى بارانكيا لم يتخل فقط عن كتابة قصة " المنزل " أو يُعد مرة أخرى " الورقة الساقطة "^(٣) بل شعر بضرورة الاستمرار كما في قصة أليخو كاربينتير ورحلاته إلى الجذور ، أو بمعنى أدق إلى جذور : إلى أصل الأجداد ، ومن ثم كل ما حدث في ذلك المنزل الذي قاما ببيعه، بدءاً من ولادته، وقد كان المنزل مرتبطاً بشكل أو بآخر بالمصير القديم لنيقولاس ريكاربو ماركيز ميخيا وترانكلينا إيجواران كوتيس.

وقد قام جارتيا ماركيز فى العام التالى بزيارة أكثر دقة إلى باييدو بار ولا جواخيرا ، بينما كان يبيع أو يتظاهر بأنه يبيع موسوعات وكتباً لدار نشر " أوتياها " بحثاً عن القرى والأماكن الكامنة فى ذاكرة أجداده ، وقد سلك الطريق فى الاتجاه المعاكس لما رسمه القدرُ لهم فى نهاية العقد الأول من القرن العشرين. وفى هذه السفيرة الأساسية أو الأسفار الأخرى التى كان يقوم بها منذ بداية ذلك العقد كان يصحبه دائماً صديقه ووالده عند التعميد رفائيل إسكالونا ، " نجل شقيق الأسقف " ، الذى إلى جانب أنه عرفه بتمعق على جواخيرا فقد ساعده أيضاً على التأكد والتحقيق من مسارح الأحداث والشخصيات لكثير من القصص التى كان قد حكاها أجداده فى أراكاتاكا عندما كان طفلاً.

وذات يوم عندما كانا يتناولان بعض كنوس البيرة فى الكانتين الوحيد بقرية لا باث^(٤) " السلام " المجاورة لبايديوار التقياً بخوسيه أركاديو: رجل طويل القامة قوى البنية وعليه قبعة راعى البقر وينتعل حذاءً طويلاً - يصل حتى الركبتين - لركوب الخيل واضعاً مسدساً فى خصره. وكان إسكالونا صديقاً لأركاديا فعرفه على جارتيا ماركيز . وقد مدَّ الرجل يده بقوة تتم عن حنان وودٍ للكاتب وفى ذلك سألَه أركاديا " هل له علاقة بالعقيد نيقولاس ماركيز؟ " فقال له الكاتب إنه حفيده حينئذٍ تذكَّر الرجل جريمة أسرية. " لقد قَتَلَ جَدُّك جدى " (٥).

كان يُدعى ليساندرو بانثسيكو وبالتأكيد كان جد جارتيا ماركيز - واسمه نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا اضطر لقتل جده - فى مبارزة تحدٍ - ميدرادو بانثسيكو روميرو منذ خمس وأربعين سنة فى قرية بارأنكاس إحدى قرى جواخيرا. ومن باب الحذر والاحتياط أوعز إسكالونا إلى ليساندرو ألا يثير من جديد هذه القصة لأنَّ جابرييل لا يعرف عنها شيئاً ذا بالٍ ، ومتعللاً بهوايته ومعرفته للأسلحة النارية أخذ المسدس من جرابه بحجة تجريب التنشين وأفرغ خزنته وترك رصاصة واحدة وقال: " سائبث كيف أنشن اليوم " (٦). وقد شجَّعه ليساندرو بارتياح أن يطلق كل الرصاصات التى يريد ، وفجأة تبارى الاثنان فى التصويب على الهدف. وعندما دعيا جارتيا ماركيز لكى يجرب التصويب رفض ، ولكن بين كل كأس وآخر من البيرة كان الكاتب يتابع المنافسة بين إسكالونا وليساندرو.

لم يكن هناك داعٍ للحفاظ الذي التزم به الملحق الموسيقى الشهير : فقد أصبح الحفيدان صديقيّ لهو طوال ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في عربة نقل المهربّ ليساندرو باتشيسيكو يتناولان براندى ساخناً ويأكلان لحم ماعزٍ نصف مسلوقٍ احتفالاً بذكرى جدّيهما المتوفيين^(٧) ، وقد تنقلا بين قرى دائرتي ثيسار ولا جواخيرا: الكوبي وبايدوبار وماناورى وباتال وأوروميتا وبيانونيا وسان خوان دى ثيسار وفوسسيكا وبارأنكاس وريو هاتشا وألانا وري دى جواخيري. وخلال هذا السفر النهائي أكمل جارثيا ماركيز عمله الميداني حيث عرّفه ليساندرو باتشيسيكو على العديد من الأتجال غير الشرعيين الذين تركهم جده نيقولاس ماركيز من قبل أشتاتاً خلال سنوات ضياع حرب الألف يوم الأهلية.

ولقد اضطر الحفيدان للتوقف - باهتمام خاص - في قرية بارأنكاس الصغيرة حيث الضيعة الخفية لأجدادهما في الأيام الخوالي مثل خوسيه أركاريو بوينديا وبرودوثيو أجيلار قبيل تأسيس ماكوندو. لقد عاش الجدان سعيدين حتى اضطر أحدهما إلى قتل الآخر في مبارزة بينهما في ١٩ أكتوبر ١٩٠٨. ويمكننا الاتفاق على أنه في ذلك المكان والتاريخ تبدأ سيرة جابرييل جارثيا ماركيز قبيل ميلاده بتسعة عشر عاماً ، لأنّ ما حدث أثناء مساء ذلك اليوم في بارأنكاس سيحدد المصير الشخصي والأدبي للكاتب حيث لن يسمح فقط بأن يتعارف على والده بعد ذلك بست عشرة سنة ؛ بل أيضاً لكونه السبب البعيد في بقاء جارثيا ماركيز ليعيش مع أجداده في المنزل الكبير والوهمي في أراكاتاكا ، وهو أهم حدث بالنسبة للقصاص الجديد.

وقد اختلفت بارأنكاس عن معظم قرى لا جواخيرا ، حيث كانت قرية ذات مظهر حديث ومزدهرة نسبياً بفضل ضرائب منجم فحم الثيريوخون. ومع ذلك فعندما وصل إليها أجداد الكاتب في أوائل الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر كانت قرية صغيرة لا حول لها ولا قوة ، ويبدو عليها أنها عانت من كوارث متعددة ونزاع ديني - إداري أدى إلى وصول اسمها إلى مدينة الفاتيكان ذاتها.

وتقع بارأنكاس على الضفة الغربية لنهر رانييثيريا في وادٍ صغير بلا جواخيرا الداخلية بين الجبال المتفرعة من سلسلة مرتفعات سيراً نيبادا دى سانتا مارتا والجبال الغربية المتفرعة من مونتيس دى أوكا ، ويمنحها هذا طبوغرافية مختلفة عن معظم

لاجواخيرا فضلاً عن السفوح السهلة والنباتات الخضراء الهادئة التي تسهم بعد وقت الزوال شديد الحرارة في تلطيف المساء بفضل الرياح التي تنساب من سلسلتى الجبال الفرعية . وعلى الرغم من أنها أُسِسَتْ عام ١٦٦٤ بواسطة مُبَشِّرٍ إسباني يُلقَّب ببلانكو ، فمن المرجح أن يرجع أصلها إلى الحصن أو الاستحكام الخشبي للعبيد الزنوج الهاربين بداية إلى كثير من القرى والمدن الكاريبية . فالهنود الصمر الذين ينحدرون من أراوكو في شيلي استقروا هنا ونَمُوا ثقافتهم الزراعية حول الذرة والفاصوليا واليوكا .

وقد عاشت بارأنكاس من الناحية العملية فترة رَعَوِيَّة حتى عام ١٧٤٦ عندما عاصرت أوَّل هَوْلٍ أو فزع في تاريخها ، حيث عُنَّ للأسقف المتعسف القادم من ريوهاتشا خوان نيتوبولو ديل أجيلا أن يمنحها درجة الأبرشية مخالفاً بذلك مرتبتها الإدارية ومتعدداً دائرة اختصاصه . وقد وصلت الدعوى القضائية بين الأسقف وعمدة ريوهاتشا إلى الفاتيكان الذي قضى لصالح أسقفه مما اضطر السلطة المدنية إلى منح بارأنكاس منزلة مصطنعة كمركز أو كبلدية .

وبعد اثنين وعشرين عاماً واعتباراً من تمرد الهنود ، وبعد معركة بارأنكاس التي وقعت أثناء الاستقلال دخلت القرية مرحلة تدهور بطيء في البداية ، ثم اتسم بالسرعة المتناهية عام ١٨٦٠ من جرأ النزوح الجماعي لأهالي قرية مورينو المجاورة التي دُمِرَتْ في إحدى المواجهات الحربية المتأصلة في المنطقة^(٨) .

وعندما وصل القصاص خورخي إسكس عام ١٨٨١ بغية دراسة واكتشاف حقول الفحم في الثريخون ، كانت كارثة بارأنكاس - على ما يبدو - قاربت النهاية ، ولكن المغامرة الأدبية السعيدة لمؤلف ماريا لم تكن أكثر من مصيبة في المضمار التجارى . لقد عيَّنه الرئيس رفائيل نونيث أميناً عاماً للبعثة العلمية المكلفة لهذا الغرض ؛ فقد سبق أن كُفِّ إسكس باكتشاف مناجم الفحم الحجري في أراكاتاكا ، وقد استطاع أن يجمع شركاء إنجليز وتكنولوجيا إنجليزية للبدء في استغلال المناجم البارأنكية . وعلى وجه السرعة تم مد أول خطوط السكك الحديدية بين بارأنكاس ريوهاتشا . ومع ذلك ، وكما حدث للقصاص في مرأت أخرى ؛ فقد باء مشروعه بالفشل وأُجِّلَ طوال مائة عام^(٩) .

وهكذا عندما وصل أجداد جارثيا ماركيز قادمين من ريو هاتشا في مطلع العقد الأول من القرن العشرين لم تكن بارأنكاس فقط في مرحلة تدهور وانهيار ؛ بل كانت أيضاً قد فقدت منزلتها بوصفها مركزاً أو بلدية ، لتعود خلال بعض الوقت لتتبع قضاء بلدية فونسيكا المجاورة. ومع ذلك فقد بدت لأسرة ماركيز إجواران كأنها فردوس الخضرة والسلام والأمان والهدوء مقارنة بمدينة الشمس والتراب والبارود التي تركتها.

وُلِدَ ريكاردو ماركيز ميخيا في السابع من فبراير عام ١٨٦٤ في ريو هاتشا ، ولكنه نشأ بعيداً عنها في الكارمن دي بوليبار مع جدته لأمه خوسيف فرانثيسكو بيدال ولم يعد إلى مدينة مولده حتى السابعة عشرة من عمره ، حيث تعلم فن صياغة القضة من والده نيقولاس كارمن ماركيز إيرنانديث. ولم يُعرف سوى القليل عن مرحلتى طفولة جد جارثيا ماركيز وشبابه فهو - إلى جانب ريو هاتشا - قد عاش في كمارونيس ولم يستطع إنهاء سوى المرحلة الابتدائية فقط ، حيث إن الفقر منعه من دراسة الثانوية فقد أُرسلَ للعمل في كور الحداد مع والده وهو لا يزال صبيّاً صغيراً^(١٠) ، وبعد أن رُزق نيقولاس ماركيز بابنين غير شرعيين من ألتاجراثيا بالديبلانكيث تزوج وهو في الحادية والعشرين من عمره بفتاة محترمة من ريو هاتشا كانت نجلة عمته أو خالته وتُدعى ترانكلينا إجواران كوتيس المولودة في الخامس من يولييه عام ١٨٦٣ ، وتنحدر من أصول جاليثية كانوا قد وصلوا إلى لاجواخيرا الكولومبية قادمين من فنزويلا. وبعد زواجه بقليل رحل نيقولاس إلى بنما حيث عمل بضعة أشهر إلى جانب عمه خوسيه ماريا ميخيا بيدال وعاد إلى موطنه بعد قليل من ولادة نجله البكر خوان دي ريوس في عام ١٨٨٦ . وبعد ذلك بثلاثة أعوام رُزق في ريو هاتشا بنجلته الثانية مارجريتا ، بينما وُلِدَت أم الكاتب لويسا سانتياجا في بارأنكاس في الخامس والعشرين من يولييه ١٩٠٥ .

أما جدّ والدة القصاص نيقولاس ديل كارمن ماركيز إيرنانديث فكان قد وُلِدَ في ١٨٢٠ في كاستيا (قشتالة) مثل والديه نيقولاس ديل كارمن ماركيز وخوانا إيرنانديث. وعندما ترمّلت هذه سافرت إلى كولومبيا قادمة من الأندلس وكنارياس مع نجلها الصغير الذي لم يتجاوز عمره بضع سنوات في منتصف تلك الحقبة. واستناداً إلى والدة جارثيا ماركيز فإنَّ جدّها ماركيز إيرنانديث عرف سيمون بوليفار وهو في

العاشرة من عمره عندما قام المحرر عام ١٨٣٠ برحلته الطويلة صوب الموت عبر نهر ماجدليتا. والحقيقة أنه عندما كَبُرَ جد والدته أصبح صانعاً ماهراً للفضة ؛ تلك المهنة التي لقنها لنجله. وقد رُزِقَ - مثل نجله - بالعديد من الأبناء غير الشرعيين فى ريو هاتشا ومعظمهم من خوانا ألكون وهى من لاجواخيرا. وبعد ذلك تزوج بلويسا خوسيفا ميخيا بيدال ، التى رُزِقَ منها بأربعة أبناء نيقولاس ريكاردو جد الكاتب ، وأرماندو ، وفرانثيسكو وروينفريد ماركيز ميخيا الشقيقة التى سترافق نيقولاس ريكاردو حتى الموت. أمّا الأرملة جدة جارثيا ماركيز ، وهى خوانا إيرنانديث دى ماركيز فقد وجدت حبها الثانى بلاس إيجواران فى ريو هاتشا ورُزِقَت منه بكريمتها روسا أنطونيا إيجواران إيرنانديث فى ١٨٢٧^(١١) التى كانت أختاً غير شقيقة لجدته نيقولاس ديل كارمن ماركيز إيرنانديث. وقد أنجبت روسا أنطونيا ثلاثة أبناء غير شرعيين من أٌجُستين أنطونيو إيجواران كوتيس: ترانكلينا جدة القصاص روسا أنطونيا وخوسيه أنطونيو إيجواران كوتيس. وهكذا فبفضل والدته الجدة القشتالية التى وصلت إلى كولومبيا من جزر الكنارى فى سنة غير معروفة على وجه التحديد خلال العقد الثالث من القرن التاسع عشر ؛ فبفضلها كان أجداد جارثيا ماركيز أبناء عمومة مثل خوسيه أركاديو وأورسولا إيجواران فى " مائة عام من العزلة".

وعلى غرار ما كان والده فى ريو هاتشا؛ فقد أصبح الجد نيقولاس ريكاردو صانعاً شهيراً فى بارأنكاس. وفى منزله الكبير الواسع ذى الأبواب والنوافذ التى تكثر فيه من جهاته الأربع ، والكائن بناصية الميدان المواجهة للمدافن كانت له ورشته مع شريكه أويخينيو ريوس الذى أحضره من ريو هاتشا وهو لا يزال غلاماً فقد كان شقيقه من جهة الأم لفرانثيسكا تيموبوسيا ميخيا ابنة العم المحبوبة التى نشأ معها نيقولاس فى الكارمن دى بوليبار ، وهى السيدة التى طوال كثير من السنوات اللاحقة سترعى جارثيا ماركيز فى أراكاتاكا. وكانت الجدة ترانكلينا تساعد أيضاً فى اللمسات الأخيرة بورشة الصياغة ، حيث كانت ترصع المجوهرات بالياقوت وتنظفها وتلمعها. ولكن بينما كان العقيد أوريليانو بوينديا يقوم بتصنيع حلّى من الذهب على شكل أسماك صغيرة كان الجد يصنع فى بارأنكاس جميع أنواع الحلّى والمجوهرات: الخواتم ، والأقراط ، والأساور ، والسلاسل وحلّى على شكل حيوانات صغيرة. ومع ذلك

فبعد نشر "مائة عام من العزلة" كانت أكثر المعروضات التي يقدمها الورثة من هذه المجوهرات السمكات الذهبية ، وخاصة هؤلاء الورثة من الأبناء غير الشرعيين للجد الذين كانوا يعلمونهم بارتياح حمل شعار الأسرة والمدينة التي تضمنتها شجرة نسب الكاتب المتفرعة والمتشعبة^(١٢).

واشترى نيقولاس ماركيز - بسرعة فائقة - ضيعة جواسيمو في أراضى والده عند التعميد بينيسيو سولانو بيدال في المرتفعات المتفرعة من سلسلة جبال سيراً نيبيادا دي سانتا مارتا ، ويعد ذلك اشترى ضيعة الإستمو في ضواحي القرية على ضفاف نهر رانشيريا^(١٣). ومثل كثير من أسر بارأنكاس التي كانت تقوم بزراعة سفوح جبال مونتيس دي أركا بالذرة والفاصوليا واليوكا والموز والبن وقصب السكر الذي كان يُصنع من عصيره في معمل تقطير منزلي للمسكرات مشروب الشيرنيشي وهو روم غليظ القوام كان يتم تسويقه عن طريق التهريب.

وبهذه العوائد الاقتصادية السخية لم يكن لدى نيقولاس ماركيز ميخيا وترانكينا إيجواران كوتيس سوى ثلاثة أنجال من زواجهما : خوان دي ريوس ومارجريتا ولويسا سانتياجا والدة الكاتب ، وقد حظى نيقولاس بشهرة كبيرة على الصعيدين الشخصي والمهني بين أهالٍ مسالمين ومتكافلين ، وفيما يبدو أنه وزوجته قد وجدا في بارأنكاس المتدهورة فردوس النضج والأمن والشيخوخة الهادئة. ولكن حرب الألف يوم والبارزة بين نيقولاس وميدراندو كانتا بمثابة وياثين من العصور الوسطى ألماً بهما في غضون ثماني سنوات فقط أفسد عليهما مشروع حياتهما الهادئ ، وحول الجد إلى رجل حزين يؤرقه تأنيب مرعب للضمير وستظهر قصصه بعد ذلك بثلاثة عقود لتحدد المصير الأدبي لحفيده بأراكاتاكا . ،

سمع الطفل جابريل من جده ألف حكاية وحكاية عن الحرب عندما كانا يسيران في شوارع أراكاتاكا ، أو عند مرورهما بمزارع الموز لكي يستحما في تَرَعِ جبال سيراً نيبيادا دي سانتا مارتا تلك الحرب التي بدأت في ١٧ أكتوبر ١٨٩٩ ، عندما قاد الزعماء الليبراليون رفائيل أوريبى وأوريبى وبينخامين إيريرا وجابريل سانتوس الكفاح المسلح ضد النظام الفاسد والمستبد المحافظ DE LA REGENERACIÓN (للإصلاح) برئاسة مانويل أنطونيو سانكليمنتي البالغ من العمر ثمانين عاماً آنذاك.

إن تاريخ كولومبيا - مثل معظم دول أمريكا اللاتينية - تاريخٌ مليءٌ بالحروب الأهلية حتى قبل ميلاد الجمهورية بها. فقد نشبت الحرب الأولى عام ١٨١٣ بعد الاستقلال بست سنوات ، وقد مثلت وقت الذروة للفترة المعروفة باسم لا باتريا بوبا "الوطن الساذج" من ١٨١٠ إلى ١٨١٦. فالصراع بين نموذجين للدولة: المركزى والفيدرالى كان السبب المشترك للحروب العشرين الأهلية العامة والإقليمية المعلنة وغير المعلنة التى عانت منها كولومبيا طوال القرن التاسع عشر. وقد كان واضحاً أن ما وراء هذه الصراعات بين المركزين والفيدراليين فى نهاية الأمر هو النزاع بين نموذجين للمجتمع: المحافظ الرجعى القائم على البقايا الاستعمارية ؛ الذى كان يناصره ويؤيده مُلاك الأراضي والمصدرون الزراعيون من المحافظين ، والليبرالى المناهض للكنيسة الذى يؤيد التنوير الفرنسى والذى كانت تنادى به الطبقة المتوسطة الصناعية والتجارية الناشئة .

واعتباراً من النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبين حرب وأخرى ؛ فإن طبقات وجماعات المجتمع الكولومبى قامت بعدة تنقلات وتفاعلت فى نسيج اجتماعى مُعقّد وسياسى واقتصادى حتى حدوث التواطؤ الكبير بين الحزبين المتمثل فى نظام الإصلاح الذى هيمنت من خلاله الأرستوقراطية الليبرالية المحافظة على الدولة لخدمة مصالحها الخاصة ، حيث همّشت وقمعت بوحشية أى ردّ فعلٍ لأحزاب وجماعات المعارضة.

وقد تزعم نزعة الإصلاح هذه الليبرالى المستقل رفائيل نونيث والمحافظ الوطنى ميجيل أنطونيو كارو. لقد كان حكماً مهيمناً على كل شىء طوال ثلاثين عاماً بدأ فى ١٨٧٨ للتصدي للإقطاعية الليبرالية المتشددة التى أثبت مشروعها للدولة مراراً وتكراراً أنه ليس ممكناً من الناحية العملية فى مجتمع متمزق مثل المجتمع الكولومبى خلال القرن التاسع عشر. لقد كان أنصار النزعة الإقطاعية يدافعون بصفة عامة عن استقلالية حقيقية للولايات الفيدرالية عن السلطة المركزية وتحديث الدولة صناعياً وتجارياً وتعليمياً واستقلالية كل من السلطتين القضائية والتنفيذية والفصل بين الدولة والكنيسة. وكانت هذه النزعة تتمثل فى الطبقة الزراعية والصناعية المتوسطة الأكثر تقدماً بالبلاد ، وكانت تضم نوى الفكر الحر المناهض لرجال الدين. وفى المقابل ؛ كان المحافظون القوميون والليبراليون المعتدلون لحركة الإصلاح الذين تولّوا الحكم بمقتضى

دستور ١٨٨٦ والاتفاقية البابوية لعام ١٨٨٧ ، وقد وضعوا حيز التنفيذ مشروع دولة مركزية شديدة القسوة . وقد تركوا المصالح الاقتصادية للدولة فى أيدى رأس المال الأجنبى ، وفرضوا زراعة واحدة وهى البن الذى كثيراً ما جلب الازدهار والمصائب للاقتصاد الوطنى ، ووضعوا كولومبيا فى ظل الرعاية الروحية والأيدولوجية للكنيسة ، حيث ردوا إليها الإشراف على التعليم^(١٤).

وعلاوة على ذلك ؛ فإن حكومة الأقلية الثنائية لحركة الإصلاح فرضت ازدواجيتها الفكرية والأدبية. ولم يكن زعماء الإصلاح المهيمنين على السلطة والإدارة العليا فى كولومبيا فقط ، بل كانوا - هم أنفسهم - المفكرين والمؤرخين والجغرافيين ، وعلماء فقه اللغة والنحويين والشعراء مثل "ماما الكبيرة" فى ماكوندو ، وكانوا أيضاً أصحاب الكلمة فى تنقية اللغة وتخليصها من الشوائب ، وكانوا كذلك المهيمنين على الفكر والخيال . وبالفعل كانت الصورة القميئة التى وصل إليها النظام أحد الشياطين التاريخية التى ستخدم جارثيا ماركيز لإبداع شخصية " الأم الكبيرة" بسلطتها المهيمنة على كل شىء ، الغربية ، المتخلفة زمانياً .

لقد تزامن تدهور حكم الإصلاح مع واحدة من أسوأ أزمات البن فى أواخر القرن التاسع عشر. حيث تمتع البن بارتفاع فى أسعاره خلال عقد كامل ، ولكن سرعان ما بدأ سعره فى التراجع لأسباب داخلية وخارجية ، مما أثر بشكل خطير على العوائد الجمركية لحكومة ميغيل أنطونيو كارو ، مما أدى إلى قيامه - فى المقابل - بفرض حصص ضريبية باهظة على الليبراليين والمحافظين فى صفوف المعارضة ، الذين يطلق عليهم اسم التاريخيين. إن هذه الأزمة الاقتصادية أدت إلى تعزيز وتقوية عيوب حركة الإصلاح الحاكمة: اضطهاد الطبقة المتوسطة الصناعية ، التجارية واستحالة وصول الليبراليين إلى مجلس النواب من خلال انتخابات حرة (ففى نهاية الأمر لم يكن لهم سوى نائب واحد تمثل فى أوريبى أوريبى ، الذى حصل عليه خلال الحرب الأهلية الأخيرة فى ١٨٩٥). تعسف الحكومة فى إصدار أوراق نقدية (شهادات اكتتاب) إجبارية للتلاعب بالجهاز الانتخابى لصالح مرشحي النظام الحاكم ، وتفشى السرطان اليومى للفساد والاختلاسات من الأموال العامة^(١٥) .

وفى هذا الإطار من الطغيان والتفكك المتزايدين ، فإنَّ الفتيل الذى أشعل "حرب الألف يوم" تمثّل فى المهزلة الانتخابية التى أُجريت فى ٥ ديسمبر ١٨٩٧ ، والتى تكررت عدة مرّات طوال تاريخ كولومبيا وسيُخلّدُها جارتيا ماركيز فى "مائة عام من العزلة" .

لقد كانت هذه الحرب - بلا ريب - أكثر الحروب قسوة ودموية فى تاريخ كولومبيا حيث خربت البلاد تماماً شعباً وإنتاجاً وبنية أساسية ، وتركت الوعى القومى مليئاً بالأحقاد والانقسامات ، والظلم لكى يصبح فى النهاية العدوان اللودان التاريخيان الليبرالية والمحافظين - وبشكلٍ ساخر - الوجهين الشريكين لنفس العملة السياسية : ففى كولومبيا كما يقول العقيد أوريليانو بوينديا : "إنَّ الفارق الوحيد بين الليبراليين والمحافظين أن أولئك يذهبون إلى قُدّاس الساعة الخامسة ، وهؤلاء إلى قُدّاس الساعة الثامنة"

ولم تذكر كتب التاريخ التى تناولت "حرب الألف يوم" حتى اسم جد جارتيا ماركيز ، وبالتالي فقد اضطررنا للتعمق فى غابة المذكرات المتشابكة والمبعثرة ، وكتب الأخبار ، والملاحظات ، ورسائل رفقاء السلاح لكى نتحقق من أنّه كان يحارب فى قوات الجنرال رفاثيل أوريبى أوريبى تحت قيادة الجنرال كولودو هيررو كاستيو فى مقاطعات ماجدلينا والثيسار ولاجواخيرا . وكان جد الكاتب يحمل رتبة العقيد منذ الأيام الأولى للحرب بكل فخر واعتزاز حتى وفاته . وكما هو الحال فى "العقيد لا يجد من يرأسه" كان سيظل منتظراً طوال حياته معاش الحرب الذى وعدت به الحكومة المحاربين المحنكين . ولم تكن هذه مصيبته الوحيدة : فلقد كان على وشك الأسر والإعدام مع رفاقه (أحدهم هو ميدرادو باتشيكو روميرو الرجل الذى اضطر إلى قتله فى مبارزة بعد بضع سنوات) فى عملية غاية فى المخاطرة . وفى بعض المعارك لم يجد أمامه فقط أقارب زوجته فى أسرته كوتيس وإجواران ؛ بل أيضاً أنجاله الكثيرين غير الشرعيين مثل خوسيه ماريا وكارلوس ألبرتو بالديبلانكيث ماركيز اللذين كانا ينتميان إلى حزب المحافظين بوصفة ميراثاً أيديولوجياً من جهة الأم . ولذلك فقد كانت كل معركة من هذه الحرب معركة بين الآباء والأبناء والأعمام والأخوال ، وأبناء الأخوة والأخوات بين أولاد العمومة ، وحتى بين الأشقاء أنفسهم .

فقد اضطر نيقولاس ماركيز هو وأتباعه - فى بداية الحرب - دون اتجاه واضح ، ودون أسلحة ، ودون تدريب إلى الاحتماء فى سفوح سلسلة جبال سيراً دى سانتا

مارتا ، وجبال دى أوكا واقتصروا على الاعتداءات العشوائية على جيش العدو. ولكن مع تلقيهم لأول مساعدة فنية خرجوا من مخابئهم وحققوا بعض الانتصارات السهلة مثل احتلال ريو هاتشا فى نوفمبر ١٨٩٩ ، وفى الواقع إن هذا يرجع إلى أن خوان مانويل إيجواران (ابن عم جده الكاتب) ورجاله كانوا قد انسحبوا إلى باخارو ؛ البلدة المجاورة ، بينما المحافظون التاريخيون كانوا يقررون الانضمام من عدمه إلى صفوف القوميين من حركة الإصلاح فى الحرب ضد الليبراليين. ويعد أن تبلور التحالف واضحاً بين سلاحين فى حركة المحافظين عاد رجال إيجواران مرة أخرى إلى مواقعهم وأجلوا أنصار نيقولاس ماركيز^(١٦).

ولقد وصل نبأ أول انتصار ليبرالى فى الحرب عند نهر بيرالونسو الواقع شمال سانتدير فى مطلع عام ١٩٠٠ ، وقبل ذلك جاءت البشرى بأن الجنرال الليبرالى خوستو دوران تقدّم على الحدود الكولومبية الفنزويلية بمزيد من الرجال وألف بندقية مانليتشتر ، ومائة ألف قطعة ذخيرة قدمتها الحكومة الفنزويلية للجنرال ثيريانو كاسترو. وأصاب ذلك المحافظين بالذعر مما اضطرهم إلى الجلاء عن المدينة متسرعين. ومع ذلك ؛ فقد وجد الليبراليون أنصار العقيد ماركيز - فى المدينة الخالية من الحصون والقوات - عدواً أشرس وأسوأ من خصومهم السياسيين: الحمى الصفراء .

وبعد ذلك بقليل وصل الجنرال أوزيبى عبر طريق بايدوبار وبارأنكاس قادماً من بوليبار . وبعد أن ألقى خطاباً حماسياً فى جيشه ، وألقى نظرة على كارثة الطاعون "الحمى الصفراء" وأصل القائد الأعلى لثورة الأطلسى مسيرته إلى فنزويلا للحصول على مزيد من المعونة والمساندة من الرئيس كاسترو. وفى هذه الأثناء ؛ فإن الرجال القليلين الذين بقوا على قيد الحياة من الجيش الليبرالى فى لاجواخير قد لانوا بجبال مونتييس دى أوكا حتى إشعار آخر. أمّا قوات المحافظين التى تم تعزيزها وتقويتها فى ديسمبر من ذلك العام ؛ فقد دخلت ريو هاتشا بقيادة الجنرال بيدرو نيل أوسبينا ، هو زميل سابق وصديق كبير لخصمه أوريبى أوريبى^(١٧). وبعد أن حصل على تأييد مستبد لاجواخير خوسيه توغلت قواته فى لاجواخييرا إبان الشهور الأولى من عام ١٩٠١ حتى وصلت إلى بايدوبار بعد أيام قليلة دون مقاومة كبيرة حيث أن عمديات بارأنكاس ، وفونسىكا ، وسان خوان ديل تيسار ، وبيانونيا ، وأروروميتا ، وبايدوبار كانت قد بدأت استبدال أعلامها الليبرالية الحمراء بأعلام المحافظين الزرقاء عند مرور القوات بها .

ومع ذلك ؛ فسرعان ما ظهر الجنرالان الثوريان ميجيل راميريث ، وسلفادور دى لوكى الجنرال كاراخو عند الحدود مزودين بالأسلحة والعتاد التى حصلوا عليها من فنزويلا لمواصلة الحرب. وقد توحدت صفوف الليبراليين المواليين لنيقولا ماركيث ويدأوا يفتحون مزيداً من الأراضي : هاجم مائتان وخمسون ثورياً بينادق مانليتشتر سبعمائة جندي وهزموهم فى فونسيكا يوم ٨ مارس من نفس العام (١٩٠١). حينئذٍ تجمع المحافظون فى ريو هاتشا مرةً أخرى ولكن الليبراليين كانوا قد لاذوا بالمرتفعات المتفرعة من جبال مونتيس دى أوكا يتحركون كالسباع فى عرينها. وقد حصل المحافظون فى هذه الأثناء على جائزة الترضية حيث اعتقلوا وأعدموا العقيد المغرور ألونسو بلاتاس^(١٨).

وقبيل ذلك بثمانية أشهر فى مدينة بوجوتا الأنديزية النائية كان نائب الرئيس خوسيه مانويل ماروكين قد عزل الرئيس العجوز مانويل أنطونيو سانكلمينتى ، وكان هناك احتمال أن يؤدى ذلك إلى إنهاء سوء الحكم فى البلاد ، وأن يقوم ماروكين بتوقيع معاهدة سلام دائمة مما غمر الليبراليين والمحافظين بالسعادة البالغة. ولكن رد فعل الرئيس الجديد كان غير متوقع وصاعق: لقد طالب باستسلام الليبراليين بون قيد أو شرط ، وأمر بأن كل ثوري سيتم إلقاء القبض عليه حاملاً سلاحه سيُعدم . وبهذه الطريقة كان إعدام العقيد ألونسو بلاتاس رمزاً بالرصاص واحدةً من عمليات الإعدام السياسى الأولى "لحرب الألف يوم". وقد نُفذَ الإعدام فى فناء القيادة ببارأنكاس بالقرب من منزل أسرة ماركيث دى إيجواران^(١٩) ، وقد كان هذا الإعدام واحداً من أكبر المأسى الشخصية بالنسبة للعقيد نيقولا ماركيث ، وإحدى القصص التى حكاها بكل صورها إلى حفيده فى أراكاتاكا .

وبعد الحرب بستين عاماً ؛ قام المقدم خوسيه ماريا بالديبلانكيث النجل الأكبر للعقيد ماركيث بإعداد كتاب ضمَّ سلسلة من الأخبار والوثائق عن الحرب ذاتها^(٢٠). وذكر فيه أنه استخدم "تقارير المعسكر الثورى" التى قدَّمها له والده بعد الحرب. ومع ذلك ؛ لم يرد ذكر العقيد ماركيث تقريباً - كما كانت عادته - لأنَّ الجد أثر دائماً ألا يتحدث عن أمجاده العسكرية . ولكن بالديبلانكيث أدرج ما حكاه اثنان من رؤساء وأصدقاء العقيد أوكتابيو جوميث^(٢١) اللذان أبرزتا مشاركة جد جابرييل جارتيا ماركيث فى المعارك الرئيسية ، وفى بعض المهام بالغة الخطورة مثل عمليتى العبور المروعتين

اللتين قاما بهما سوياً بين الحدود الكولومبية الفنزويلية وبايدوبار ، وهذا ما حدث ؛ لقد كانت عبارة عن مهمة خطيرة للاتصال بالجيش الليبرالي بهذه المحافظة وإقناع قائده الجنرال خوسيه ماريا ديل كاستيو بالتقدم بقواته وبعض المتطوعين صوب الحدود لأخذ الأسلحة الجديدة التي قدمها مؤخراً الرئيس الفنزويلي ثييريانو كاسترو إلى الجنرال أوريبى أوريبى ثم التحرك بعد ذلك إلى ريو هاتشا وفقاً للخطط الجديدة.

وقام الجنرال كلودوميرو كاستيو الذى عينه أوريبى أوريبى مؤخراً قائداً لجيوشه فى الأطلسى باختيار ثلاث مجموعات ينبغى عليها الوصول إلى بايدوبار فى زمن قياسى عبر طرقٍ مختلفة لتحقيق هذا الهدف. وكانت إحدى تلك المجموعات تضم العقيد نيقولاس ماركيز ، وأوكتايو جوميث ، والجنرال سباس سوكوتراس ، وخوسيه ماريا كويار ، وفرانثيسكو خابيير روميرو ، وكان معهم نجل شقيقه الجنرال خابيير روميرو ، وهو جندى يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً طويل القامة قوى البنية ، ومع ذلك لم يرد اسمه فى أخبار سباس وجوميث . لقد كان ميدرانو باتشيكو روميرو^(٢٢) الرجل الذى سيقتله جُذُ جارثيا ماركيز بعد ذلك بسبع سنوات . ويعد سبعة أيام وصل نيقولاس ماركيز ورفاقه بايدوبار بعد أن تغلبوا على كافة الصعوبات التى واجهتهم فى طريق شيطانى محفوف بالمخاطر يمتد لثلاثمائة كيلومتر ويهيمن عليه المحافظون وحلفاؤهم من أنصار المستبد خوسيه بولوريس. لقد كانوا عُرضة - عدة مرات - للأسر والإعدام رمياً بالرصاص. وقد سلكوا فى العودة الطريق نفسه وعلى وجه التحديد خلال سبعة أيام تقريباً مارين بأوروميتا وبيانوبيا والمولينو وسان خوان ديل الثيبار وفونسكا وأتونوبيو وكارأيبيا والحدود ، حيث كان ينتظرهم قائدهم كلودوميرو كاستيو لكى يتلقى نبأ سيئاً: فالجنرال الآخر كاستيو عندما رأى أنه قد استُبدل بكلودوميرو كاستيو قائد للجيش الليبرالية فى الأطلسى لم يستجب لأوامر قائده الجديد بحجة أن ذلك الطريق يُعتبر بمثابة انتحار ، نظراً لهيمنة المحافظين عليه. ونتيجة لذلك ؛ وحتى كارثة كاراتوا ؛ فقد ظل الليبراليون طوال شهرين بلا نشاط عسكري. ولهذا الانقسام بدأ يتبدد انتصار الليبراليين فى محافظتى لاجواخيرا وبايدوبار ، وبعد ذلك فى ماجدلينا بأسرها.

ومع ذلك فإنَّ الليبراليين بقيادة أوريبى أوريبى بانتصارهم المهم فى ريو هاتشا فى السادس عشر من أبريل ١٩٠٢ وعلى الرغم من سوء تنظيمهم والتنافس بين القيادات الفرعية^(٢٣) فإنهم قد أبرزوا مؤشرات تبرهن على أنَّ قوة رد فعلهم - فيما يبدو - لن تنفذ أو تتضرب . ومن ناحية أخرى ؛ فإنَّ أنباء الانتصار شبه الساحق الذى حققه عشرة آلاف رجل بقيادة بنيخامين إيريرا فى المحيط الهادى وبما جعلت الأمل يراود بعض الليبراليين ومن بينهم إيريرا نفسه بأنهم سيتمكنون من الفوز فى الحرب قبيل عام إذا استطاعوا توحيد صفوفهم والتنسيق مع جيوش أوريبى أوريبى^(٢٤) . ولكن كولومبيا كانت مستنزفة تماماً . وبالتالي ، لم يكن الإحساس المشترك بين الليبراليين والمحافظين هو الانتصار القريب بل الانكسار والإرهاق والملل . فخلال ثلاث سنوات تقريباً من الحرب استطاع الجانبان أن يشيدا أكبر النُصَب التذكارية للباتريا بوبا " الوطن الساذج " الذى كما فى طويلة العمر ماما جراندى دى ماكوندو " الأم الكبيرة فى ماكوندو " مدُّ ظلاله الويلة على كولومبيا طوال القرن التاسع عشر: مائة ألف قتيل ، تدمير شبه كامل للإنتاج والتجارة ووسائل المواصلات والاتصالات ، والإعلام ، وعمليات الإنزال فى بنما التى خططت لها وساندتها الولايات المتحدة الأمريكية . وفى ظل هذه الظروف كانت الضرورة الملحة والفورية لكلا الجانبين المتحاربين هى إنهاء تلك الحرب الشيطانية .

وبعد أن استنزفت القوات الحكومية قام الرئيس ماروكين بالخطوات الأولى لتحقيق السلام فى الثانى عشر من عام ١٩٠٢ ، وفى الرابع عشر من أغسطس ظهر الجنرال أوريبى أوريبى قادماً من كوراثو مُنهكاً مُتعباً ، وقد تملَّكه المللُ التاريخى طوال أربع حروب أهلية (فقد عُمِدَ عسكرياً وهو فى السابعة عشرة من عمره فى حرب ١٨٧٦) مستعداً لقبول العرض الحكومى لإنهاء الحرب بأى وسيلة كانت^(٢٥) . تولى القيادة ، وأعاد تنظيم قواته ، وذهب على رأس ألف رجل إلى بارأنكاس وبايديوار ووصل إلى أراكاتاكا فى ٥ سبتمبر^(٢٦) . وفى قرية مسقط رأس جارتيا ماركيز عسكر - طوال يومين - مع قواته وتحدث مع الجنرالين كلودوميرو كاستيو ، وخوسيه روساريو دوران وبقية ضباطه ، وكان من بينهم جد القصاص ، ووضع خططاً يأسه لتحقيق نصر سريع على المحافظين وعلى سأم تلك الحروب التى لا تنتهى " حرب الألف يوم " ، أو على الأقل

لتدعيم موقفه مما يسمح له بإبرام معاهدة سلام مُشرّفة. وحدث ذلك إلى أن وصلت الكارثة الليبرالية الكبرى فى معركة ثينيجا فى الرابع عشر من أكتوبر عام ١٩٠٢ التى أنهت الحرب.

وقد فقد العقيد نيقولاس ماركيز أحد أنجاله فى تلك المعركة وهو كارلوس ألبرتو الذى كان لايزال فى السابعة عشرة من عمره ، بينما نجله الآخر الرقيب أول خوسيه ماريا بلانكيت فقد حظى بشرف السفر على ظهر بغلة إلى سانتا مارتا وثنيجا لى يُسلّم الجنرال أوريبى أوريبى الخطاب الذى يتضمن مبادرة السلام بواسطة الجنرال المحافظ فلورينتينو مانخاريس ، التى اقترحتها حكومة الرئيس ماروكين^(٢٧) . إنَّ المعاهدة التى تم الاتفاق عليها خلال ثمانية أيام من الهدنة كانت مهينة شكلاً ومضموناً لأنها أمرت الليبراليين بعد نزاع أسلحتهم بالعودة إلى منازلهم ووعدتهم بشكل مبهم بأنه بعد عودتهم إلى الحياة المدنية ؛ فإن نظام الإصلاح سيقوم بإجراء الإصلاحات الملزمة لى يشركهم فى السلطة بشكل تناسبى.

وقام بتوقيع المعاهدة الجنرالان رفائيل أوريبى أوريبى ، وفلورينتينو مانخاريس فى مزرعة فى نيرلانديا بالقرب من ثينيجا فى الرابع والعشرين من أكتوبر ١٩٠٢ . وفى منزل متواضع ، وعلى منضدة خشبية ريفية تم الإعلان رسمياً عن معاهدة الليبراليين . وقد وقع المتحاربون على محضر المعاهدة وتناولوا دجاجاً ملفوفاً فى مخبوزات رقيقة وشربوا نخباً من الكونياك والروم فى كنوس أعدت من ثمرات شجرة البغونيات تحت ظلال شجرة اللوز بفناء المنزل^(٢٨) .

وقام بينخامين إيريرا رغماً عنه بالتوقيع على المعاهدة الثانية فى بنما على متن السفينة الحربية الأمريكية ويسكونسين ، وكانت هذه المعاهدة أفضل قلباً وقالباً من سابقتها ، ويتوقعها تم الإعلان رسمياً عن انتهاء "حرب الألف يوم" التى ستكون مثلاً يُحتذى بما تضمنته من أسماء وحكايات ونوادر عن حروب العقيد أوريليانو بوينديا . ومع ذلك ؛ فإن معاهدة نيرلانديا هى التى ستضع نهاية للحروب الأهلية فى "مائة عام من العزلة" ، فقد شارك فيها جد القصاص ، وقام بتوقيعها الجنرال رفائيل أوريبى أوريبى ، وكانت النموذج الرئيسى للعقيد أوريليانو بوينديا وعلى طرف نقيض ، يبدو أن

هذا الاسم مأخوذ من شخصيات الحرب: العقيدان رامون بوينيديا وأوريليانو ناودين^(٢٩) ؛ فقد كان الأول أحد أفراد جيش بينخامين إيريرا. لقد كان أسطورة بكل معانى الكلمة فى الشجاعة والإقدام فى بنما والمحيط الهادئ. أمّا الثانى فقد كان محارباً فذاً فى قوات أوريبى أوريبى على شاطئ الأطلسى .

وبينما يرى البعض أن معاهدة نيرلانديا كانت أكبر خطأ سياسى وعسكرى للجنرال أوريبى أوريبى ، نجد أن آخرين يعتبرونها ضرورة حتمية واستسلاماً أقل مهانة وإذلاً . وقد أدت المعاهدة إلى استياء معظم ضباط رفائيل أوريبى أوريبى حتى أن العقيد ماريّا كاييو أعلن ذلك على الملأ ، حيث كسّر السيف وحطّم الميداليات والرتب العسكرية والنياشين الشرفية وصاح متعجباً : لم نجد شيئاً من كل هذه التضحيات ؛ فكل هذا لا طائل تحته ؛ سأعود إلى حياتى الخاصة لكيلا أعرف أى شىء مطلقاً عن السياسية^(٣٠) . وقد حذا حذوه معظم الجنرالات والعقلاء وعمّهم النسيان والفقر. هكذا وجد غالبيتهم جارثيا ماركيز بعد خمسين عاماً فى أسفاره إلى جواكامايال وأشبيلية وأراكاتاك ويايويبار وماناوري ولا باث وبيانونبيا وأروميّا وفونسيكا وبارأنكاس وريو هاتشا. وهم مثل جده تماماً ظلّوا ينتظرون أن تفى الحكومات المتلاحقة وتمتثل لما نصت عليه معاهدة السلام ، وتمنحهم معاش الحرب مدى الحياة الذى وعدتهم به عند انتهائها^(٣١).

وبعد ذلك بستة أعوام عندما بدأت جروح الحرب تندمل وشرعت - على ما يبدو - أسرة ماركيز دى إيجواران فى تصنيع حلّيا على شكل أسماك الذهب وتقطير مشروب الروم - بعد أن استردت الأمن والأمان - تمهيداً لبيعه مهرباً ، جاء النبيل الزنجى ميدرادو روميرو الذى سُمّي كذلك لكونه ابناً غير شرعى لميدرادا روميرو ونيقولاس باتشيكو. لقد ظهر فى صورة شائعة شعبية. لقد تردد أن ميدرادا التى أنجبته دون أن تتزوج ، حيث كانت متحررة من كافة القيود البشرية ، وأنها فى هذا الأمر قدّمت معروفاً لشخص ما. ولقد كثرت التعليقات مراراً وتكراراً عندما كان نيقولاس ماركيز وأصدقائه ذات يوم يتحاورون فى المدينة. صاح نيقولاس ماركيز بنبرة مهذبة أكثر منها توبيخية : " هل هذا حقيقى " حملت الشائعة كلمات نيقولاس ماركيز إلى ميدرادا ولكن بصورة مشوهة وملتوية : "إنّ هذا أكد أنها قد قدّمت معروفاً إلى شخصٍ ما". لقد شعرت لا ميدرادا بالإهانة ، وأنها طُعنت فى شرفها ، وطلبت من نجلها

أن يسترد لها شرفها من العقيد. ولكن ميدرادو رفض ذلك . ولم يكن نيقولاس شخصاً محبوباً ومحترماً فقط في بارأنكاس ، بل كان أيضاً أحد القادة العسكريين لميدرادو خلال الحرب. فقد قام إلى جانب عمه فرانتيسكو خابيير روميرو وضباط آخرين باجتياز الطريق المرعب من بايدوبار إلى الحدود الكولومبية الفنزويلية ذهاباً وإياباً. كما كان كلاهما عضوين في الحزب الليبرالي في بارأنكاس. وعلاوة على ذلك ؛ فإن ميدرادو كان مُعذَّباً بالدوافع البطولية لوالدته ، وعندما بدأت الحرب أجبرت أنجالها على الذهاب إلى ميدان المعركة ، وفي نهاية الحرب اغتيل لويس في مناوشة أمام منزل تشانكليتا المجاور. وأول شيء فعله ميدرادو هو رفضه لتوصية والدته عندما طلبت منه الانتقام لشرفها من نيقولاس ماركيز ، ولكن الأم كانت حازمة وقالت لنجلها: إذا لم تفعل ذلك سأخلع عليك فستانى لترتيديه وسترتدى هي سرواله^(٣٢).

وفي منتصف أبريل عام ١٩٠٨ وبينما كان العقيد نيقولاس ماركيز يتحاور ذات مساء مع أصدقائه في شرفة منزل خوسيفينا أبيلا في مواجهة الميدان ، أفرغت لا ميدرادا كل ما لديها من السموم لنيقولاس ماركيز على لسان نجلها ميدرادو الذى لم يتحد فقط جد جارثيا ماركيز بل كال له كافة أنواع الشتائم والسبب ، واختتم ذلك قائلاً بصوت مرتفع كى يسمعه جميع الناس مما ألم كثيراً العقيد ماركيز الذى لم يتحرك بعد ذلك بل وقف ونظر بهدوء إلى الشاب الذى أهانه وقال له: هل انتهيت ياميدرادو؟ لست جبناً لكى أصبح كاللجاجة ، فليس كل الرجال يتشاتمون^(٣٣) ، وذهب بعد ذلك إلى منزله بهدوء المعتاد.

وقد استمر ميدرادو في اعتدائه الشفهية وأهجيته المكتوبة المعلقة في كل مكان رغبة منه في الانتقام لشرف والدته بينما العقيد نيقولاس ماركيز - بروح الفنان - كان يعد نفسه للمبارزة القاتلة بدقة بالغة . وقد باع ضيعة الإستمو خلال الست أشهر التالية ، وأوفى بكافة تعهداته كصانع ، وترك ورشة المجوهرات لمساعدة وريثه أوخينيو ديوس وسدد ديونه ، وأبلغ ميدرادو بأن يُسلح نفسه لأن ساعة تسوية قضية الشرف هذه تراشعاً بالرصاص قد أذفت.

كان ميدرادو رجلاً قوياً فارح القامة ويصغر العقيد الأشقر قوى البنية بسبعة عشر عاماً ، وكان قد تزوج بنيقولاسا داثا منذ ثلاثة أشهر ، واستقرا في دائرة الببال المجاورة. وفي ١٩ أكتوبر أى بعد ستة أشهر من التحدى الأول كانت بارأنكاس تحتفل

باليوم الثامن من أعياد عذراء البيلار ، أى اليوم الأخير من أعياد راعية القرية. وخرج ميدرادو من منزله مثل باقى أهل بارأنكاس للمشاركة فى الموكب ذلك اليوم حاملاً فى يده شمعة مشتعلة وفاءً للعذراء بالنور التى أخذها على نفسه ، وبعد أن تحققت أمنياته طيلة العام الماضى ، ومن بينها كان زواجه الحديث من نيقولاسا داثا. وقد حاولت نيقولاسا إقناعه بالبقاء فى المنزل لأن اليوم كان ممطراً ، ولكنه اعتذر لها بحجة أن النور ينبغى الوفاء بها .

لقد تم التحدى أو المبارزة فى شارع ضيق يؤدي إلى البوابات حيث خرج ميدرادو مساءً ليحضر قليلاً من الأعشاب لبغلته ، وقد اختفى هذا الشارع الضيق منذ سنوات. وقد استُبدل بمنزلين قديمين بضاحية البلدة ما بين شارعى ١١ ، ولا كارمرا السادسة ، ومع ذلك فلا زال أهل بارأنكاس يطلقون عليه الشارع الضيق المسدود الذى قتل فيه نيقولاس ماركيز متحديه ميدرادو روميرو فى اليوم الثامن من أعياد عذراء البيلار أى فى ١٩ أكتوبر. وكان ميدرادو يرتدى حلة من الكتان الأبيض وفى إحدى يديه مظلة المطر ، وحزمة من العشب ، فى اليد الأخرى وسط مطر منهمر فى الساعة الخامسة مساءً ، وفى هذه الظروف وتلك الهيئة الهائلة كان هدفاً للتصويب الأسطورى للعقيد نيقولاس ماركيز الذى كان ينتظره متأنقاً فى زيه إلى أبعد حد قابلاً تحت مظلته اتقاءً للمطر وكأنه لم يذهب لقتل رجل بل للقيام بإحدى الشعائر ، وقد صاح فيه نيقولاس عندما رآه حاملاً حزمة العشب قائلاً : يا ميدرادو لقد سويت كافة شئونى وموضوعاتى هل أنت مُسلحٌ ؟ . قال ميدرادو نعم إننى مسلحٌ. وكان هذا هو مارد به ميدرادو قبل أن يستقبل رصاصتين صائبتين. ولما سمعت جريجوريا كانتيو - وهى سيدة مُسنة كانت تعيش بمفردها فى منزل مجاور - خرجت إلى الشارع ، وشاهدت حجم المأساة ، وانتهرت العقيد قائلة : " ويحك لقد قتلتته ! " قال : " نعم . إن رصاصة الشرف قهرت السلطة " .

وقبل أن يُسلم نفسه للعمدية طلب التأييد المعنوى من صديقه الزعيم الليبرالى لورينثو سولانو ، فدخل منزله ليبلغ زوجته بذلك الخبر السيئ . وقد كادت ترانكلينا أن تفقد صوابها عندما علمت بالنبا. وقد قام الصديقان نيقولاس ماركيز ولورينثو سولانو بعبور الميدان ، حيث سلّم الأول نفسه للعمدة توماس بيلايث . وعندما سأله فى الجلسة

اعترف العقيد بأنه قاتل ميدرادو باتشيكو روميرو ، وأضاف عبارتين في أسلوبه الضمنى القاطع: لقد قتلت ميدرادو باتشيكو روميرو ، ولو بُعث سأقتله مرة أخرى^(٢٤) ، وقد قال خوسيه أركاديو بوينديا شيئاً من هذا القبيل لبرودينثيو أجيلار ليلة ظهوره . ومنذ ذلك الحين ظلّ ميدرادو لا يفارق ذهن العقيد المعذب. وهكذا ، وكما تتبع طيف برودينثيو أجيلار خوسيه أركاديو بوينديا . ظل شبح ميدرادو باتشيكو روميرو يطارد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا ، ليس فقط حتى يتجاوز سلسلة الجبال في أراكاتاكا ، ولكن أيضاً حتى وفاته بعد ذلك بثلاثين عاماً. كما أنّ جارثيا ماركيز نفسه ظلّ متأثراً دائماً بعبارة الاعتراف التى سمعها من جده وهو فى السادسة أو السابعة من عمره: " أنت لا تعرف عبء القتل وعلاوة على ذلك؛ فإنّ شهر أكتوبر المشنوم والمطر الذى شهد وقوع هذه الأحداث سيظل يطارد العديد من العقّاء فى قصص الحفيد: فالعقيد العجوز المستسلم للقدر - أحد شخصيات قصة ماركيز - العقيد لم يجد من يرأسه على سبيل المثال - يشعر بأنه يُصاب بالقوىء والزنايق السامة خلال شهر اكتوبر ، كما أنّ المنية وافت العقيد أوريليانو بوينديا مساء يوم فى شهر أكتوبر وهو يتبول أسفل شجرة القسطل.

وعموماً قبلت بارأنكاس المأساة كقدر محتوم لا فكاك منه ؛ فالجميع يعرفون أنّ نيقولاس ماركيز لم يرغب فى القتل - بناء على قرار من ضمير نفسه - نعى قتل صديقه ورفيقه سياسياً ، وهذا يتضح من الإعداد للمبارزة على مدى زمن طويل؛ وربما كان ينتظر أنّ يتدخل البعض ، أو العناية الإلهية خلال أشهر الاستعداد الستة لتفادى مأساة اضطرابه لقتل ميدرادو كما حدث مع قاتلى سانتياجو نصّار فى "رسالة موت معلن" ولكن الأحداث واصلت مسيرتها القاسية كما فى التراجييديا الإغريقية ، وأنّ الزمن سيحول القاتل إلى ضحية حقيقية ، والذى من أجلها صبوا كل أحزانهم تقريباً طوال عدة سنوات. لقد عاشت بارأنكاس المأساة الشخصية لنيقولاس ماركيز ، كما شهدت مأساتها الاجتماعية ، وقد بلغ الأمر أنّ بعض أفراد القتل ، الذى كانوا يقفون إلى جانب القاتل فى تلك اللحظات ، ومنهم بيبي ميندوتا أحد أعمام القتل كان الشرطى الوحيد فى بارأنكاس نام عدة ليال أمام باب السجن تجنباً لقيام أقارب آخرين بأخذ ثأر القتل. كما أنّ الجنرال فرانتيسكو خابيير روميرو - عم آخر - قام بحماية منزل ترانكلينا إيجواران كوتيس وأنجالها الثلاثة: خوان دى ديوس ، ومارجاريتا ولويسا سانتياجا التى ما لبثت أنّ أكملت عامها الثالث.

ولم يمكث السجين أكثر من بضعة أيام فى سجن بارأنكاس ، لأن الذين يريدون الانتقام للقتيل استمروا عاقدين العزم على قتل العقيد ماركيز بأية وسيلة كانت. وبفضل تدخل عمدة ريو هاتشا خوان مانويل إيجواران (نجل عم ترانكلينا وأحد خصوم العقيد فى "حرب الألف يوم") تم نقل نيقولاس ماركيز إلى سجن هذه المدينة. ربما لأن منتقمى القتل لايزالون يصرون على تحقيق مقصدهم نُقِلَ العقيد ماركيز من جديد - إلى سانتا مارتا حيث قضى عاماً بالمدينة وكأنها سجن تحفظى ، وبعد ذلك بعام وصلت ترانكلينا وأنجاله وأقارب آخرون ، وعلى عكس ما حدث فى " مائة عام من العزلة" حيث قام خوسيه أركاديو بوينديا وقومه بالرحلة عبر سلسلة الجبال ، قام أولئك بالرحلة عبر البحر فى مركب شراعى صغير.

وبعد أن قضى العقيد عقوبته ترك هو وأسرته سانتا مارتا ، واستقروا لمدة عام تقريباً فى بلدة تيناجا المجاورة. والسبب الرئيسى فى ذلك أن إيسابيليتا روميث كانت تعيش هناك ، وهى حبيبته التى كان قد تعرّف عليها فى بنما عام ١٨٨٥ ، والتى رُزِقَ منها فى العام التالى بماريا جريجوريا روميث . هذا وقد عيّن نيقولاس ماركيز جابياً للضرائب لدائرة أراكاتاكا ، ولكنه لم يَقم وأسرته هناك فور تعيينه لأن القرية كانت غير صحية. وعندما تم توسيع مزارع الموز وتأسست شركة يوناييتد فرويت كمبانى " شركة الفواكه المتحدة" قرّر الاستقرار نهائياً فى الأرض التى لم يعدهم بها أحد فى أواخر أغسطس ١٩١٠ بعد شهرين ونصف من مرور المذنب هالى^(٣٥).

بينما أحاط التهميش الأخلاقى والوحدة بميدرادا روميرو التى تسببت فى مقتل نجلها ، وفى نزوح أسرة ماركيز إيجواران ، وقد توفيت بعد اثنين وعشرين عاماً بعد إصابتها بالاستسقاء^(٣٦). أمّا نيقولا داثا الأرملة الشابة ، فقد انتقلت إلى قرية فونسيكا المجاورة إلى جانب رفات زوجها وهى حامل فى ابنتها من ميدرادو باتشيكيو التى ستكون أمّاً لليساندرو باتشيكيو حفيد ميدرادو باتشيكيو الذى رافق جارثيا ماركيز بعد خمسة وأربعين عاماً إلى المنطقة لكى يعرف أين وكيف قتل جد الكاتب جد ليساندرو باتشيكيو برصاصتين فى ذلك المساء المطير يوم ١٩ أكتوبر ١٩٠٨ .

الفصل الثانى

- فى أرض الميعاد .
- أراكاتاكا كارلوس تشمبلاس .
- اكتشافات خورخى إساكس .
- عجل الذهب من شجرة الموز .
- شركة الفواكه المتحدة .
- القطار و "الورقة الساقطة" .
- سدوم الجديدة .
- ليلة أراكاتاكا ،
- وباء الإستاكوزا وأربينة أخرى .
- مذبحه الموز .
- طوفان عام ٣٢ .

لم يكن وصول أسرة ماركيز إيجواران إلى منطقة مزارع الموز نتيجة الصدفة ؛ بل كان عن اختيار . وقد كانت هناك ثلاثة أسباب لكي يستقر العقيد في أراكاتاكا نهائياً : عرف العقيد - خلال الأيام الأخيرة للحرب - السلام وخصوبة الأرض ، كان له فيها أصدقاء ورفقاء سلاح سابقون مثل الجنرال خوسيه روساريو دوران ، كما كانت أراكاتاكا آنذاك أحد المراكز المهمة لإنتاج الموز. ولذلك ففي أواخر أغسطس عام ١٩١٠ وصل مع أسرته وخدمه وكثير من الصناديق في القطار الأصفر الذي سيجعله حفيده مشهوراً في قصصه . وفي هذه القرية الناشئة غير الصحية انتهى النزوح الطويل الذي استمر اثنين وعشرين شهراً ، والذي انتزعهم من بارأنكاس وجعلهم يعيشون فترة غريبة غير آمنة في ريو هاتشا وسانتا مارتا وثنينجا .

وعلاوة على أنجاله الثلاثة الشرعيين: خوان دى ديوس ، ومارجريتا ، ولويسا سانتيجا التي كانت قد بلغت خمس سنوات ؛ فقد رافق أسرة ماركيز إيجواران كل من وينيفريد ماركيز شقيقة العقيد ، ونجلة خالته المحببة إلى قلبه ، وشقيقة روحه فرانتيسكا ثيموبوسا ميخيا إحدى السيدات اللاتي أثرن كثيراً في حياة جارثيا ماركيز . أمّا طاقم الخدم ؛ فقد كان مكوناً من ثلاثة هنود حمر ، كان العقيد قد اشتراهم من لاجواخيرا بثلاثمائة بيزو وهم : أليريو ، وأبولينار وميمي ، وهم الأبطال الصامتون والمجهولون في " الورقة الساقطة" (١) .

ولكن في الوقت الذي انتهى فيه النزوح في المنزل الواسع والهادئ الذي استقروا فيه بالقرب من ميدان بوليبار ، فإنّ المأساة لم تنته عند هذا الحد ؛ بل على العكس من ذلك ؛ فقد ظلت المأساة تحرق بالأسرة حيث توفيت مارجريتا - النجلة الكبرى التي وُلدت في ريو هاتشا، ونشأت في بارأنكاس- بعد مضي أربعة أشهر فقط متأثرة بالحمى التيفودية ، وكانت شابة في الحادية والعشرين من العمر بيضاء وشقراء الشعر ، وكان وجهها شاحباً ويعلو رأسها ضفيرتان مما جعلها أسطورية في الأسرة ؛ كما ألهم ابن شقيقها بشخصية ريببكا بوينديا . لقد كانت مارجريتا مدللة أسرة ماركيز إيجواران ، وكانت تستحوذ على حب العقيد . وقبل أن تموت بقليل رقدت في السرير ،

ونظرت إلى والدها . فى اللحظة الوحيدة التى أفأقت فيها من الحمى ، وأالت له : " لقد انطفأت عيون منزك" (٢).

وهكذا عمتْ المأساة أسرة ماركيز دى إيجواران فى بداية ونهاية نزوحهم ، كما أن موت النجلة الكبرى فرضت تقليداً أسرياً وهو عدم الاحتفال بأعياد ٢١ ديسمبر (أعياد رأس السنة) لأنه فى ذلك اليوم انطفأت أعين الأسرة بأسرها فى الوقت الذى كانت هناك أشياء كثيرة يمكن الاحتفاء والاحتفال بها فى أراكاتاكا الناشئة والمتحمسة مثل: وصول القطار حديثاً ، والتوسع فى زراعة الموز ، والتطلعات العالمية للقرية ، وازدهار التجارة ، وتشيد أول معبد ، وافتتاح البرق " التلغراف" . ومع ذلك - أو ربما لذلك - لم يعد أحد فى ذلك الوقت يتذكر شيئاً عن المؤسسين الأوائل للقرية وهم هنود الشاميلاس الحمر الشُجعان الذين كانوا قد انقضوا بالقرب من منازلهم فى أراكاتاكا الأصلية .

وكان هنود الشاميلاس الحمر قد تصاهروا مع نظرائهم الأراوكيين ، وكلاهما تعرض لغزو الكاريبيين منذ أزمنة سحيقة ، وقد فرضوا عليهم جانباً من ثقافتهم وأزاحوهم صوب شمال أمريكا الجنوبية . وقد احتلوا الوادى الشاسع والخصب شمال دائرة ماجدلينا والواقع ما بين البحر وأنهار أريجوانى وثيسار ، الذى يمتد من الشمال إلى الجنوب والسفوح الغربية لسلسلة جبال سيراً نيبادا دى سانتا مارتا ، ونهر ماجدلينا من الشرق إلى الغرب. وقد اكتشف أماكنهم الفاتح الإسبانى بيدرو دى ليرما فى ١٥٢٨ ، مرّ بهم - بعد ذلك بثمانى سنوات - جونثالو خيمينيث دى كيسادا عندما كان متوجهاً صوب كولومبيا الأنديزية بحثاً عن الدورادو . وفى نهاية القرن السادس عشر نجح هؤلاء فى مواجهة المحاولات الأسبانية الأولى لإخضاعهم ، وكان ذلك بقيادة زعيم قبيلتهم سورلى ، وهو أشهر زعمائهم . ومن ذلك الحين قد توخى الغزاة الحذر فى عدم التوغل فى الأراضى الشاسعة الخاضعة لسيطرتهم لأن الشاميلاس من الهنود الحمر كانوا أحد الشعوب الأصليين المتمرسين فى الحروب الذين لا يمكن قهرهم أو ترويضهم ، وقد تصدوا للإسبان بنجاح بالغ ، ولذلك فإن غزوهم تأخر أكثر من مائتى عام لدرجة أنهم ظلوا حتى منتصف القرن الثامن عشر يعيشون على هامش الاستعمار الإسبانى .

ولكن جاء الوقت الذى فرضت فيه المصالح الاستعمارية بدون تسويق الخضوع الدامى على هنود الشاميلاس الحمر . وفى عام ١٧٤٤ كُلف نائب الملك القائد خوسيه

فرناندو دى ميير إى جيراً بتلك المهمة الذى نفذها بالدم والنار. وكان الهدف الرئيسى من ذلك هو شق طريق يمر ببلدة هؤلاء الهنود ليصل إلى ميناء ماجدلينا فى تينريفى ، وكذلك بوادى أوبار الخصب والمزدهر حيث تُربى الماشية ، وتكثر الطواحين الزراعية وورش الحدادة . وقد كثر دى ميير إى جيراً عن أنيابه لهنود الشاميلاس الحمر المتوحشين ، وكلما انتزع منهم شبراً من الأرض أسس عليه قرية . لقد كان الثمن باهظاً من ضحايا الجانبين ، ولكن بعد خمس سنوات استطاع المستعمرون إخضاع أعوانهم ، وأسسوا قرى كافيةً لاحتوائهم داخل بعض الأراضى الصغيرة التى لا أهمية لها^(٣).

وقد استكمل أنصار دى ميير إى جيراً مهمة القضاء عليهم. ففى آخر المطاردات المدمرة التى قام بها رجال خوسيه خواكين دى ثونييجا عام ١٧٦٨ حيث اكتسحوا أراضى أشبيلية وجواكا مايال وأويرويل ، و أراكاتاكا ، وقد هُزم هنود الشاميلاس الحمر نهائياً وأبيدوا تقريباً . أما القلة التى بقيت منهم فقد احتمت بالأجزاء العليا لأنهار أدوريامينا وفونداثيون وأريجوانى . وبمرور الزمن ، وبعد أن استقرت إحدى قبائلهم نزلت إلى وادى نهر أدوريامينا ، وعلى الضفة الجنوبية لمنعطف النهر أسست - فى أراضى أميرية أو حكومية وفى سنة غير معروفة بالتحديد فى أواخر القرن الثامن عشر - عزبة أو كفراً من الأكواخ الخشبية والنباتات المتسلقة والنخيل بلا شوارع ، ولا ميادين ؛ أطلقوا عليها كاتاكا هذا الاسم الذى سيطلق على شيخ القبيلة ، والقبيلة نفسها فيما بعد. وكذلك قام أهل القبيلة بإطلاق الاسم ذاته على نهر أدوريامينا ، وفى النهاية أطلق على القرية اسم أراكاتاكا وهو اسم مكان يتكون من كلمتين كلمة أرا التى تعنى نهر ، وكاتاكا اسم شيخ القبيلة والقبيلة ذاتها^(٤).

ولقد تعايش أفراد قبيلة أراكاتاكا فى سلام نسبي بقريتهم طوال قرن تقريباً . وقد زرعوا اليوكا، والقلقاس ، ونبات المينهوت (وهو نبات يُستخرج منه النشا والدقيق) ، ونبات الهوياما ، والذرة والقطن. وقد اصطادوا الأسماك المتنوعة من المياه الصافية لنهر أراكاتاكا الذى كانوا يجوبونه فى قواربهم حتى لاثينا جا جراندى ، كما اصطادوا الحيوانات من سلسلة جبال سيرا نيابادا ، وقاموا بتصنيع بعض الأشياء اليدوية لاستبدالها مع هنود حمر آخرين ، والمستعمرين مما كان مريحاً لهم نسبياً لأن أراكاتاكا أقيمت فى مكان إجبارى لالتقاء الطرق المتوجهة إلى الشمال والجنوب

والشرق ، وبالتالي كان يزورها جميع التجار الذين كانوا ينتقلون - طولاً وعرضاً - فى محافظة سانتا مارتا المترامية الأطراف كما أن أهل أراكاتاكا كانوا يسIRON طولاً بضعة أسابيع للوصول إلى القرى الكائنة بالضفة الشرقية لنهر ماجدلينا ، كما كانوا يجتازون سيراً نيبيادا حتى يصلوا إلى الكفور النائية فى لا جواخيرا ، حيث كانوا يستبدلون منتجاتهم الزراعية ومشغولاتهم اليدوية بالملح والمعادن ومنتجات أخرى كانوا يفتقرون إليها. وكانت طُرُق التجارة بالتحديد هى التى تسرب من خلالها التطور إلى ثقافتهم. وصل إليهم معبأ فى زجاجات المشروبات الروحية: ومن بينها مشروب الروم المهرب الذى تم تصنيعه فى معامل تقطير منزلية ، والذى كان يحتوى على نسبة كبيرة من الكحول . وقد كان أهل أراكاتاكا يشترون هذه المشروبات مقابل منتجاتهم الزراعية واليدوية ، وبدأوا فى تناولها بدون حساب مما أضر بصحتهم فى بضع سنوات. أما الباقي ؛ فقد كان ميسوراً : فالمستعمرون الأشحاء الذين أغرتهم جودة الأراضى التى انتهبوا إليها عن طريق منتجاتها الزراعية انتهى بهم الأمر إلى انتزاعهم أفضل هذه الأراضى خصوبة. ورويداً. رويداً فرض السكان الغرباء طريقتهم فى الملبس وسلوكياتهم الثقافية على أهل أراكاتاكا مدمنى الكحول ، لدرجة أنه فى أواخر القرن لم يبق سوى القليل من نسل شيخ القبيلة وزعيمها الأسطوري والشجاع سورلى.

ومع ذلك فقد ظلت أراكاتاكا غير المتجانسة حيث عاش بها الهنود الحمر والمولدون والبيض كقرية للمتوحشين الطيبين ، حيث مارس السلطة الأخلاقية لا الملكية شيخ القبيلة أو زعيمها أراكاتاكا شيخ قبيلة هنود حمر الشاميلاس حتى قدوم القاضى عام ١٨٨٨ . وكما حدث فى ماكوندو ؛ فقد ظهر بصورة مفاجئة وتولّى السلطة العسكرية والمدنية بالقرية إزاء أهاليها المذهولين ، وقد تعلل بأنه يمثل السلطة المركزية والمحافظة فى سانتا مارتا (وفى ذلك الحين كان النظام المركزى قد تم إقراره فى كولومبيا) ولكن - فى قرارة أنفسهم - هذا لم يهمهم كثيراً نعى هنود حمر الشاميلاس ولا المولدين ولا المستعمرين حيث إن المنطقة عانت من الفقر خلال تلك السنوات فى نهاية القرن التاسع عشر ، وقد اشتد الفقر بسبب الحروب المتلاحقة التى أدت إلى غضبهم من أهالى ماجدلينا حتى بلغت حالة من الاحتدام كانت تبدو لا أساس لها. وبالنسبة لأراكاتاكا ، فقد تأمل القصاص خورخى إساكس قبل ذلك بست أو سبع سنوات عندما تجول بالمنطقة بغية اكتشاف حقولها من الفحم.

وكان المؤلف الشهير لقصة ماريا قد عُنِيَّ أميناً لهذه البعثة العلمية من جانب الرئيس رفائيل نونيث لدراسة الثروات الطبيعية لكولومبيا. فالقصاص كان فى حاجة إلى المال ، ولذلك رحل فوراً لاكتشاف أراضي لا جران ماجدلينا (ماجدلينا الكبرى) التى كانت تضم فى ذلك الحين بوانر ماجدلينا والثيسار ولا جواخيرا ، وأعدَّ إساكس دراسات دقيقة عن عدة حقول للفحم فى لاجواخيرا و أراكاتاكا وقدم للحكومة المشروعات المتعلقة باستغلال هذه الحقول. ويُقال إن بوينديا كان متحمساً أكثر منه كرجل أعمال ، ولذلك استثمر جانباً من عوائد قصته الشعبية فى استغلال المناجم الواقعة بالمرتفعات الملاصقة لسيراً نيبادا فى أراكاتاكا العليا ، وكذلك فى دراسة لمعرفة تكاليف تطهير النهر بغية استخدامه كوسيلة للنقل إلى ثيناجا جراندى (ثيناجا الكبرى)^(٥). وبعد ذلك باثنى عشر عاماً فقط عندما كانت البلاد على حافة الإفلاس قامت حكومة ميغيل أنطونيو كارو المحافظة بمنحه حقوق استغلال مناجم الفحم فى أراكاتاكا. وقد بدأ القصاص مهمته فى نفس عام ١٨٩٢ ، ولكنه اضطر إلى الانتقال مريضاً إلى إيباجى بعد بضعة أشهر حيث توفى بعد ذلك بعامين. وقد آلت المهمة إلى نجله ليسسيماكو الذى أوكلها إلى شركة بان أمريكانا للاستثمار، ولكنها فى النهاية تركت العمل لعدم تنفيذ العقد.

وبهذا الشكل فإنَّ الحلم التجارى لمؤلف قصة ماريا توقَّف عند المرتفعات الملاصقة لأراكاتاكا العليا حيث يُقال إنه لم يجرؤ أحد على الاستمرار فيه لإكماله كما حدث بالفعل فى "مائة عام من العزلة" ؛ ويبدو التفكير اضطرابياً حينذاك بأنَّ خورخى إساكس كان يريد أن يُصبح بوينديا عظيماً بل الأعظم بين أسرته حيث إن مشروعه الأوَّل كان ينوئ استغلال مناجم الفحم برأسمال وتكنولوجيا إنجليزية بمنطقة الثيريوخون ، ويارأنكاس قد باء بالفشل فى مطلع الثمانينيات والتى عانت من الهجر على مدى مائة عام قبل أن تُصبح أهم حقول لاستغلال الفحم فى كولومبيا.

وعندما ترك إساكس الوطن الصغير لجارثيا ماركيز فإنَّ المحور المستهلك لتاريخ هنود الشاميلاس الحمر قد أُبيدَ تماماً ، ليس فقط بسبب إبادةهم شبه الكاملة ، بل أيضاً لأنه على الضفة الشمالية للنهر فى مواجهة كاتاكا الأصلية أسست قرية جديدة تضم ثلاث سلالات من البيض والمولدين وهنود حمر آخرين. وأثبتت القرية الجديدة سيطرة تامة فى حرب ١٨٨٥ عندما هربت مجموعة من الجنود قادمين من سانتا مارتا عند

مرورهم بأراضي الشاميلاس الهادئة والخصبة ، وهناك عند الكفر البدائي للضفة الشمالية للنهر أقاموا منازلهم وسقفوها بجنوع النخيل دون أدنى نظام أو ترتيب . وبمرور الزمن قام المستعمرون والمولّدون الذين كانوا يعيشون فى القرية الجنوبية للشاميلاس بالانتقال إلى الكفر الجديد . وهكذا تم تأسيس كاتاكّا التى ستسمى أراكاتاكّا وليس بثالوث أراكاتاكّا المقدس الاسم الذى أطلق على القرية رسمياً عام ١٨٣٤ عندما انضمت حينذاك إلى اختصاص دائرة أو مقاطعة ثيناجا .

أما هنود الشاميلاس الحمر الذين نجوا من عملية الإبادة ، سواء بمرض الجدرى أو بإدمان الكحول فى نهاية القرن التاسع عشر ، فقد بدأوا يتفرقون فى طرق الجنوب أو ذهبوا للمغامرة فى الطرق التى لا تنتهى لودى أوبار أو الهجرة إلى الأراضى المرتفعة المجاورة لنهرى ريجوانى وأدوريامينا (أراكاتاكّا) ، حيث قدّم أجدادهم منذ مائة عام لتأسيس القرية التى لم تعد تتذكر شيئاً عنهم ، وفجأة عندما كانت ترقص حول عجل الذهب لشجرة الموز أخرجتهم تماماً من ذاكرتها .

هكذا كان الأمر . وعندما استقر أفراد أسرة ماركيز إيجواران بمخيماتهم فى الأرض التى لم يعدهم بها أحدٌ خلال عام الكوكب هالى فإنّ التاريخ الطويل والمأساوى لهنود حمر الشاميلاس لم يعد فقط موضوعاً عفا عليه الزمن ؛ بل أيضاً كان للنسيان تماماً . وبالتالي فإنّ تأسيس أراكاتاكّا الجديدة قد تم على أساس الإنكار الكامل لأراكاتاكّا الأصلية . ومنذ تأسيس شركة الفواكه المتحدة فى عام ١٩٠٥ وافتتاح القطار وصلت أفواج من البشر كالطوفان من مختلف أنحاء الكاريبى وكولومبيون من الداخل (الذين أطلق عليهم لفظ المتناقضين على سبيل الاستهزاء والتحقيق) من الفنزويليين والأسبان والفرنسيين والإيطاليين والأتراك والسويديين والفلسطينيين والعاهرات . وبسرعة أصبحت أراكاتاكّا قرية من قُرى بابل فى منطقة واسعة ولا علاقة لها بوفرة الموز ، حيث كان الزمن كفيلاً باكتشاف جواهرها الخفى علاوة على المأساة التى تأخر تأثيرها أكثر من اقتحام التقدم المجنون .

وكما حدث أيضاً فى ماكوندو فإنّ القطار جلب كل شىء : الموز والورقة الساقطة (الدخلاء) والتقدم والتدهور . وعلى الرغم من أنّ شركة الفواكه المتحدة لم تستطع

السيطرة على منطقة الموز حتى بداية الحقبة الثانية ، وكانت زراعة الموز قد بدأت فى الكاريبي الكولومبى منذ أكثر من عشرين عاماً ، أى منذ أن أدخله خوسيه مانويل جونتاليث بيرموديث بصفة تجارية عام ١٨٨٧ حتى استطاعت شركة الفواكه المتحدة ابتلاع الشركات الأخرى الوطنية والأجنبية فى عام ١٩٢١ ، حيث انتشرت زراعة الموز بسرعة فى الأراضى الشاسعة بمراكز ثيناجا وبويلو بيبخو و أراكاتاكا التى تبلغ مساحتها الإجمالية ١١٢.٠٠٩ هكتار منها ٤٦.٠٠٠ هكتاراً بمنطقة الموز خُصص منها ٢٠.٠٠٠ هكتاراً لزراعة الموز^(٦).

وصل الموز إلى أمريكا بواسطة إسبانيا خلال القرن السادس عشر ، ويعد ذلك بمائة عام انتشرت عدة أنواع من الموز فى منطقة سانتا مارتا التى نالت استحسان المستعمرين وأهالى البلاد الأصليين. وقد دعم الموز شهرته إلى جانب الكاكاو والتبغ والبن وقصب السكر خلال القرن التاسع عشر ، واعتباراً من افتتاح السكة الحديد بين سانتا مارتا و ثيناجا فى ١٨٨٧ ، وقد زرع الموز قضبان السكة الحديد حيث أن مد القطار حتى فونداثيون كان بمثابة العمود الفقري الذى على أساسه نمت زراعة الموز ثم بعد ذلك الشركة الحكومية المتحدة للفواكه.

لقد غيرت هذه الشركة تاريخ أراكاتاكا ، وماكوندو جذرياً والتى تأسست فى بوسطن فى نهاية القرن التاسع عشر بغية ابتلاع الشركات الأخرى التى كانت تعاني من صعوبات مالية. ومنذ أن تُبنت أقدامها كشركة عملاقة فى ماجدلينا فى عام ١٩٠١ لم تتوان فى إبراز أهدافها ومقاصدها. قامت الشركة بمد السكة الحديد إلى أراكاتاكا وفونداثيون فى ١٩٠٦ ، واحتكار الأراضى المحيطة بالبلدتين ، وادخال وسائل الإنتاج المتطورة للغاية التى أدت إلى دعم الاحتكار الأمريكى مما أدى إلى إضعاف الشركات المنتجة الأخرى الوطنية والأجنبية. وفى عام ١٩١٥ كانت شركة الفواكه المتحدة تمتلك ٦.٠٥٠ هكتار مزروعة فى مقابل ٨٥٠ هكتاراً للمنتجين من أبناء الأوروبيين ، ٢٤٨٥ شركة إيموبليرى وأجريكولى دى كولومبى الفرنسية^(٧) التى قامت بتوسيع زراعتها حتى أراكاتاكا فى ١٩٠٨ واستحوذت أيضاً على معظم منطقة الزراعات الأنتيلية (نسبة إلى جزر الأنتيل بأمريكا الوسطى. وكانت شركة الفواكه المتحدة تُقدم الرشاوى وتشتري ، أو ببساطة تُداهم ، من لا يقبل قواعد اللعبة. وبلا شك لم يقبل الجميع

هذه القواعد. وكان الجنرال بينخامين إيريرا أحد أبناء الأوروبيين المنتجين ، وتجراً في التنديد بهذا الاحتكار المتسلط أمام المحاكم في سانتا مارتا وأعمال التعسف التي كانت ترتكبها في حق منتجي الموز. ولكي تُستأصل الدعوى التي رفعها الجنرال ضد الشركة أمرت مُديرها بسرقة ملف الدعوى من المحكمة^(٨). لقد سُجن المدير ، ولكن الشركة استمرت في فرض تلاعبها القذر. وبعد ذلك بخمسة أعوام تمكنت الشركة من ابتلاع الشركة الفرنسية كومباين إيمويليرى إيت أجريكولوى دى كولومبيا ، وبالتالي أصبحت شركة الفواكه المتحدة الأم الكبرى لزراعات الموز ، فقد استولت الشركة على ٦٩٪ من الأراضي الزراعية وغير الزراعية في المنطقة بأسرها ، وبالتالي كانت الشركة قوية من الناحية الاقتصادية : هذا الوضع الراهن غير القانونى أو سياسة الأمر الواقع جعلت ، الشركة تمارس عملها منذ ذلك الحين كدولة داخل الدولة الكولومبية.

إنَّ سلطتها الكبيرة كشركة غير حكومية سمحت لها بالاستناد إلى كثير من قوانين العمل التي أقرتها حكومة الجنرال رفائيل ريبس (١٩٠٤ - ١٩٠٩) وكذلك على المناورات السياسية والتجارية والعمالية في المنطقة . وقد فرضت مطالب ذات بال لدرجة المغالاة فكانت تفرض السعر الذى سيتم به شراء الموز على باقى الشركات الأخرى المنتجة للموز ، وتحدد الذين سيتم إمدادهم بمياه الرى والكمية المسموح بها لكل منهم والذين سيتم إقراضهم ، والنسبة المئوية لفائدة هذه القروض مما اضطر الشركات التي يمتلكها أبناء الأوروبيين فى أمريكا إلى التجمع فى شركة وطنية للفواكه ، ولكن مؤسساتها أصبحت كوميدى تراجيدى لم تكن فى الحسبان : ففى ميناء نيويورك بدأت سلطات الجمارك فى احتجاز شحنات شركة الفواكه الوطنية لكى تسلمها لشركة الفواكه المتحدة^(٩).

وإذا كان المنتجون الوطنيون قد أصبحوا صيداً سهلاً لها كما تريد ووفقاً لمعاييرها ؛ فإن استغلال عمال شركة الفواكه المتحدة كان حدثاً يصعب وصفه لأن الآلاف من عمالها لم يكن لهم وجود قانونى لأن الشركة لم تتعامل معهم ؛ بل كانت تتعامل مع المقاولين أو مع المتعهدين الذين كانوا مكلفين بالتعاقد مع هؤلاء العمال ، وبالتالي لم يكن لدى الشركة الأمريكية أية مسئولية بالنسبة للزراع والذين يجمعون الموز والحمالين ولا عمال التستيف أو الشحن ؛ بل كانت مسئولة فقط عن ٢٥٠ مقاولاً، ومقاولين من

الباطن ورؤساء عمال. وقد سمح هذا الوضع لحوت الموز بارتكاب كل أنواع الظلم والتعسف مع آلاف العمال الذين كانوا - علاوة على ذلك - أميين أو ذوى مستوى ثقافى متدنٍ للغاية ، وبلا وعى سياسى على الإطلاق. وبما أن هذه العمالة غير موجودة من الناحية القانونية ؛ فإن شركة الفواكه لم تكن مضطرة لكى تسدد لهم تأميناً على الحياة، ولا لحوادث العمل أو لتقدم لهم الخدمات الطبية والعلاجية ، أو حتى لمنحهم عطلة أيام الأحاد والأعياد ، أو منحهم على الأقل حق الإضراب . وعلى العكس من ذلك؛ كانت تفرض عليهم من خلال مقاولى العمال ومتعهديهم مرتباً كل خمسة عشر يوماً على شكل إيصالات تصدرها الشركة لشراء منتجاتها ؛ أى لا يمكن صرف مقابلها نقداً ، التى كانت الشركة تبيعها فى منافذ البيع بها .

كما أن تدنى الأجور والمساكن سريعة التلف وغير الصحية ، وعدم وجود خدمات طبية تقريباً أدت إلى تلاشى العلاقات الاجتماعية العمالية - تلك العلاقات الهشة التى لا أثر لها - بين العمال المعوزين وشركة الفواكه المتحدة. كل هذه المساوئ أيقظت العمال ، ودفعتهم للقيام بإضراب كانت نهايته مأساوية فى ٦ ديسمبر ١٩٢٨ ، وهو ما يُعد أحد الشياطين التاريخية التى سيكون لها أكبر تأثير فى حياة وأعمال جارتها ماركيز .

وفى تلك الأثناء كانت أراكاتاكا مثل ثيناجا وبوبيلو بيخو تتسم بالحماس البابلى ، كانت قدراً من الثقافات والسلالات حيث انصهر فيها العالم بأسره. فقد تعايش فيها هنود حمر الكاتشاكوس والكوسقيوس فى الأطلسى وبوليبار والأنتيليون والفرنزويليون والعرب والأوروبيون ، وقد كانوا يمثلون تدفقاً مستمراً من المهاجرين تزايد بسبب نهاية الحرب العالمية الأولى وامتد حتى منتصف العشرينيات . لقد قدموا جميعاً تجذبهم أسطورة الدورابو بنانيرو (مزارع الموز الذهبية). وكان فى أراكاتاكا ٢٥٠ منزلاً يعيش فيها ١٢٠٠ نسمة فى عام ١٩٠٨ تقريباً ، ثم نمت أراكاتاكا حتى بلغ تعداد سكانها ٣٠٠٠ نسمة ، ٦٠٠ منزل بعد ذلك بخمس سنوات ، وسيكون ثلاثة أضعاف هذا العدد فى الحقبة التالية. فمن ناحية عاش الأمريكيون فى قلعته الخاصة بهم ، ومن ناحية أخرى نجد أن أراكاتاكا الحارة والمتربة عاش بها الأرستوقراطيون ، ومواطنوها من العوام وشعبها من الرعاع: حديثى العهد بالنعمة " الورقة الساقطة" (يعنى الدخلاء والغرياء).

كانت كل هذه المنازل تقريباً من الصفيح ، ومسقوفة بالقش أما منازل الأرستقراطيين فكانت من الخشب والزنك. أمّا الآلاف من عمال الشركة فكانوا يعيشون مكسدين في مخيمات أكثر تواضعاً مثل حظائر البقر بُنيت على أعمدة أسمنتية وسُقت بجذوع النخيل وسعفه ودون جدران أو حوائط ، وبالتالي كانت حشرات الليل تستنزف دماء العمال التعساء ؛ بينما كانت منازل مديري الشركة وموظفيها تتوافر فيها كل سُبُل الراحة والرفاهية التي لا يمكن تخيلها. وعلى الجانب الآخر من السكة الحديد؛ أنشئَ حى لغير الناطقين بالإسبانية ، والذي وصفه جارشيا ماركيز بشكل تحقيري " حظيرة الدجاج المزودة بالكهرباء في قصة " مائة عام من العزلة " . تلك المنازل الأرستقراطية الفاخرة كانت بها نوافذ ملحقة لحماية سكانها من الحشرات ، وقد أُعدت أسقفها بصورة خاصة للتغلب على شدة الحرّ. أمّا البرادو فقد شُيّدت به ملاعب التنس وسط مناطق من العُشب الأخضر ، فضلاً عن حمامات السباحة بلونها الأزرق التركوازي. وبالنسبة لأهالى كاتاكا كانت هذه المنازل فردوس حلمهم المستحيل تحقيقه . كما كانت هذه المنازل الفاخرة محاطة بأسوار ، ويقوم على حراستها وحمايتها زنوج مسلحون بالبنادق وكلاب الحراسة^(١٠) .

وفى هذه البوتقة متعددة الجنسيات كان الأمريكان وحدهم هم الذين لم ينصهروا أو يختلطوا مع أهالى البلد الأصليين وآلاف الأجانب الآخرين ، ولم يكن لهم أية اتصالات إلا فى أوقات محددة مع الأرستوقراطية الريفية . أمّا ما يُسمّى بالمجتمع ؛ فقد كان يتألف من الأجانب ، وكبار المسؤولين بالشركة ، وقُدّامى جنرالات وعُقّداء الحرب الأهلية الأخيرة . ونظراً لسمعتهم الأخلاقية والسياسية ؛ فقد كان هؤلاء تتألف منهم المجموعة البارزة ؛ فهم عليه القوم فى أراكاتاكا . فشخصيات مثل الجنرالات بينخامين إيريرا وفرانثيسكو تروكونيس ، وبابلو إيميليو موراليس ، وخوسيه روساريو دُوران ، والعقّداء نيقولاس ماركيز ، ودومينجو بيتكايانو ، وخيسوس أجيرى كانوا بمثابة الاحتياطي الأخلاقي الكبير ، فقد تركوا نُصبهم التذكارية الأسطورية فى التاريخ الريفى لتتكون منها الخماثر الأدبية الرئيسية لجارشيا ماركيز.

وكان الجنرال إيريرا أعظم شخصية فى أراكاتاكا ، وأحد الشخصيات البارزة فى البلاد خلال العقد الثانى من القرن العشرين. فمنذ سنوات الحرب وهو يضع نصب

عينه حقول أراكاتاكا ، وفى عام ١٩١٢ غادر منفاه فى ترينيداد ، واستقر فى مزرعة الموز التى أطلق عليها لا كولومبيا بغية التصدى لتعسف وظلم شركة الفواكه المتحدة ، وبين الحين والآخر كان يقوم بزيارة للقرية فى المساء ، وفى مكتب العقيد ماركيز أو فى مكان يُطلق عليه "كاميون" (حافة مرتفعه عند أخدودين فى الحقل) ، حيث كان يجتمع مع رفقاء سلاحه القدامى للاحتفال بأحداث الحرب التى كان يروىها العقيد ماركيز لحفيده المفضل .

وبكل تأكيد سيكون الجنرال رفائيل أوريبى أوريبى النموذج العظيم للعقيد أوريليانو بوينديا ؛ كما أنه من المؤكد أيضاً أن شخصية الجنرال بينخامين إيريرا أسهمت كثيراً فى إبداع شخصية جارتيا ماركيز . لقد قبل نتائج الهزيمة العسكرية فى " حرب الألف يوم " مرفوع الهامة دون أن تُمس كرامته . بالصورة نفسها كان السلوك الذى احتذاه فى الخيال العقيد أوريليانو بوينديا ، وكذلك الجنرال إيريرا الذى لم يكف عن التمرد على الظلم ومناهضة تحالف حكومة الأقلية الليبرالية - المحافظة مقتنعاً بأن كولومبيا ينبغي أن تتخلص من هذا الوباء السياسى ، وكانت آخر خيانة ارتكبوها فى حق البلاد تتمثل فى الامتيازات الشاملة التى منحوها لشركة الموز الأمريكية فى عهد حكومة الجنرال رفائيل ريبس .

وكان خوسيه روساريو دوران أحد كبار الشخصيات بأراكاتاكا الناشئة ، فقد كان ليبرالياً صميماً ، وتزعم الليبرالية فى كاتاكا طيلة نصف قرن بالاشتراك مع العقيد نيقولاس ماركيز حيث تمكنا من التخلص من الأضرار والمظالم لدرجة أنه تمت الاستعانة بهما للوساطة فى إضراب الموز فى ١٩٢٨ . فقد كانا صديقين دائماً ، وكان دوران هو الذى ساعد إلى حد كبير جد جارتيا ماركيز لكى يغرس جنوره فى القرية حيث قدم له كل نوع من التأييد والمساندة حتى استطاع العقيد ماركيز الاستقرار كصانع وجاب للضرائب فيما بعد بدائرة أراكاتاكا الذى تناوب فيها مع منصب آخر وهو أمين صندوق البلدية .

كما وجد كثير من المحاربين القدامى ملاذاً فى أراكاتاكا كمزارعين أو كصناع يُعدون المشغولات اليدوية ، فى الوقت الذى تولوا فيه مناصب إدارية بالقرية . وعلى الرغم من آثار الحرب ونتائجها ، وكون بعضهم ليبرالياً ، والبعض الآخر محافظاً ؛ فإنهم كانوا أصدقاء عظاماً وجيراناً ممتازين . كما كانوا أخوة فى الانتظار أسبوعاً بعد

أسبوع ؛ كانوا ينتظرون بلا جدوى طيلة ما تبقى من أعمارهم معاش التقاعد الذى كانت الحكومة قد وعدتهم به فى نهاية الحرب. ولقد أصبحوا عُقْداء لم يرسلهم أحد ، وكما يُفترض أن يحدث لشخصية جارشيا ماركيز ؛ فقد مات معظمهم وحيدين بؤساء . ولذلك قبل أن يصبحوا شخصيات جارشيا ماركيز بوقت طويل كان الكاتب شاهداً مذهولاً لمأساتهم بدايةً عندما كان طفلاً ، وبعد ذلك خلال الرحلات التى قام بها للمنطقة فى مطلع الخمسينيات عندما وجد قريته ، وقد تحولت إلى قرية مُتربة يُخيم عليها الصمت ومليئة بالموتى. وقد توفى عُقْداءها فى الأفنية الداخلية تحت آخر شجرة موز^(١١).

وكان - بلا شك - أهم ما يلاحظ فى المجتمع أو الأرستقراطية المحلية وملبسهم أو طريقتهم فى اللبس. كان الرجال يرتدون السراويل ، والقمصان التى نُشِيت ياقاتِها وأطراف أكمامها ، وصديرى ، ورباط عُقْ وقُبعة من اللباد ، وكانوا ينتعلون أحذية من الجلد مُغطاة لحمايتها من الأتربة. أمّا النساء فكان يرتدين قُبعات من ريش الرومى. كان هؤلاء يرتدون هذه الملابس الغربية على المناخ المدارى ، وكانوا قد اعتادوا على إقامة السهرات فى نهاية الأسبوع حيث كانوا يرقصون على أنغام الأغانى القصيرة ؛ فضلاً عن الرقصات ، والرقصات التقابلية ، والبالس ، والرقصات على أنغام الأناشيد الدينية المسيحية أو كانوا يقرأون أجزاء من الأعمال الأدبية الشهيرة آنذاك^(١٢).

أمّا الأنماط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى سادت لدى الأرستقراطية فى كاتاكما ، والتى كان يتحرك فيها أفراد أسرة ماركيز إيجوارن ؛ فقد نقلها جارشيا ماركيز حرفياً على وجه التقريب إلى قصصه ، وخاصة فى "مائة عام من العزلة" ، حيث كان أفراد أسرة بوينديا يمثلون الإشارة الإجبارية للمجتمع الماكوندى .

وكما هو الحال فى ماكوندو ؛ فإنّه إلى جانب الارستوقراطية ؛ كانت عامة الشعب من أبناء البلدة والغُرباء أو الأجانب مستقرة بالقرية ، وفى مقدمة " الورقة الساقطة " وصف جارشيا ماركيز بشكل غنائى ودقيق ما كان عليه هذا الحشد الكبير فى مرحلة التخمير: ففي " الورقة الساقطة " والتى تكونت من البقايا الإنسانية والمادية من الشعوب الأخرى التى بقيت على قيد الحياة بعد الحرب الحرب الأهلية ، التى تبو فى كل مرة ضاربة فى الزمن السحيق ولا يمكن تصديقها. تلك الأوراق البالية التى كانت تلوّث كل

شئ بسبب الرائحة المتقلبة لهذا الحشد من البشر. رائحة إفراز الجسد والموت الخفى ، الذى - فى أقل من عام - قذف القرية بأنقاض وأطلال الكوارث الكثيرة التى سبقت تأسيس القرية ذاتها .

والعام المشار إليه - كما يلاحظ فى المقدمة نفسها - هو ١٩٠٩ . اعتباراً من ذلك العام قُبيل وصول أسرة ماركيز إيجواران ؛ بدأت تتبلور عالمية أراكاتاكا بكل نتائجها وأثارها ، ومن أهمها التكسد والتراخى فى العادات والتقاليد . كما ظلَّ القطار يجلب رجالاً من مختلف الطبقات والجنسيات مع زوجاتهم ومحظياتهم وتيوسهم وخنازيرهم وبغالهم ودجاجهم وصناديق أمتعتهم ، وأسرتهم وقنيناتهم وقدرهم . وقد جاء بعضهم بعظام أجدادهم حتى الفجر ؛ قَدِمُوا فى تلك السنة بخيامهم وبضاعتهم التى برز منها لغرابتها وكثرة الطلب عليها : الثلج الذى كانوا يشترونه من سفن شركة الفواكه المتحدة فى ميناء سانتا مارتا^(١٣) . وصل إلى كولومبيا فى أواخر القرن التاسع عشر جهاز أوربى أصيل ، هو الأكوورديون ، بدأ عرضه للتداول فى محلات الأخوان تادير ، وفقاً للعرف والتقاليد حينذاك أنهى العازف الأسطورى الكبير فرانثيسكو موسكوتى (فرانثيسكو الأومبرى) جولاته البوهيمية فى المنطقة ، وفى أراكاتاكا ذاتها .

وكحل حسى وواضح للتعب والإرهاق المتراكم فى مزارع الموز بدأت على وجه السرعة فى الظهور صالات الرقص والمخيمات ، وكذلك بيوت الدعارة ومحلات لعب القمار . وكانت أسر المجتمع المحافظة تنظر فى دهشة بالغة كيف أن قرية أخرى بدأت فى الظهور داخل قريتهم كما فى المجتمع الفاسق متعدد اللغات فى " الورقة الساقطة " حيث التهم المجتمع الليبرالى والمحافظ والورع فى أراكاتاكا . ولكنهم لم يستطيعوا القيام بأى شئ لوقف معاقرة المسكرات لهذه الجموع الفقيرة حول عجل الذهب فى مزارع الموز . كانت النسوة يرقصن رقصة الكومبيا مقترنة بالشموع الملقوفة بالعملات الورقية فئة بيزو وخمسة بيزو التى كان يقدمها لهن مغازلهن من الرجال . كما كانت العاهرات تخرجن إلى ممرات منازلهن بملابسهن الداخلية ، وكُنَّ يركبن على عجز الجياد مع عملائهن المناوبين . لقد كان التسرى والزنا منتشرين فى أى مكان كما امتدت بيوت الهوى إلى السواقي وحقول القمح ؛ بينما كان السكارى يتنازعون على الأرصفة ليناموا . كما امتلأت صالات البلياردو بالكرات ومصارعات الديوك ، التى كانت قد ووجدت لها مكاناً فى شوارع أراكاتاكا .

لقد مزقت فضيحة التقدم ضمير المواطنين الأصليين فى غضون خمسة أعوام فقط ، وقد تحولت القرية الهادئة المسالمة - التى انتشرت بها الزراعة والصناعات اليدوية حيث كانت الهيمنة لزراعة الكاكاو وقصب السكر بمعاصرها - إلى تقليد ومحاكاة قريتي سدوم وجومورا (وهما قريتان صبَّ عليهما الله سبحانه وتعالى جام غضبه ، وأهلكهما عن بكرة أبيهما لشركهما وعصيانهما لرسله). ومنذ ذلك الحين بدأت الأسطورة تنسج خيوطها قائلة : إنَّ منطقة زراعات الموز تنتشر فيها الرذيلة ، وأنَّ أهلها مسرفون مبذرون حيث كانوا ينفقون ببذخ ؛ ففى رقصة لا كومبيا لم يكتف هؤلاء بإشعال الشموع بالعملات الورقية فئة خمسة بيزو ، بل أيضاً لم يجرؤ أحد على الانحناء لكى يلتقط النقود الكثيرة المبعثرة على الأرض^(١٤). وفى واقع الأمر لم تكن الوفرة بهذه الضخامة؛ بل كان يعمهم فقرٌ روحى ؛ فباستثناء الرواتب الكبيرة للعاملين بشركة الفواكه المتحدة لم يكن عامل اليومية يتقاضى أكثر من نصف بيزو أى النذر اليسير . لقد كان هؤلاء فى فقر مدقع، ولكن آلاف الأجور المتدنية سويّاً أوحث بسراب الرخاء والوفرة فى تلك القرية المسرفة بدون حساب. إنَّه الإسراف الذى شجعتة الأمية ، وعدم التكافل ، وغيبة الوعى النقابى لدى الآلاف المؤلفة من العمال - وهذا ما كانت تصبو إليه دائماً شركة الفواكه المتحدة.

ولتطهير وضبط سدوم الجديدة - حيث بدأت تنتشر أيضاً ممارسات السحر والشعوذة - فإن بعض أفراد الأرستقراطية قد عَنَتُ له فكرة طيبة حيث طلب من مسئولى الكنيسة فى سانتا مارتا إرسال قسٍ دائم. وقد استجابوا لهذا الطلب ، وأرسلوا لأراكاتاكا القس بيدرو إسبيخو من مواطنى ريو هاتشا؛ فكان بذلك أوَّل قسٍ لأراكاتاكا. وبنفس الحماس الذى استخدمه الأب نيكانور رينا لبناء كنيسة فى ماكوندو. وقد قام الأبُ إسبيخو بحملة مكثفة لإيقاظ الوازع الوطنى الدينى من سباته لدى أهل القرية وتعليمهم العادات الحسنة ؛ فقام بتنظيم رعايا الكنيسة فى مجموعات وكونَ لجاناً للحث على تشييد المعبد الذى سيستغرق بناؤه أكثر من عشرين عاماً^(١٥). ومع ذلك لم يكن عمله الأبرشى أو الرعوى ، الذى أدى إلى شهرته بأنه رجل طيب أو قديس خلال تواجده فى أراكاتاكا ، بل كانت معجزة الرِّى هى السبب فى تلك الشهرة ، بالفعل فى يوم ما ،

ارتفع عدة سنتيمترات وهو يلقي القداس^(١٦) فإن المشهد ذاته متكرر فى "مئة عام من العزلة" عندما كان الأب نيكانور رينا يتناول قدحاً من الكاكاو، وهذه هى إحدى النواذر الكثيرة التى ستظهر من حين لآخر فى معظم كتب ومؤلفات جارتيا ماركيز حيث أسهم إسبيخو بمجيئه لأول أبرشية فى أراكاتاكا فى أرض الكفار ، وصداقته مع أجداد القصاص وتعيينه قسيساً فيما بعد لسانتا مارتا ، وتدخله الحاسم لإقناع أسرة ماركيز إيجواران لتزويج نجلتها لويسا من موظف البرق (التلغراف) بأراكاتاكا ستضمن له ظهوراً مستمراً فى مؤلفات جارتيا ماركيز الخيالية ، سواء لكونه قسيساً بسيطاً ، أو لكونه الأسقف الذى أعلن عنه ولكنه لم يصل إلى تلك الدرجة الكهنوتية أبداً^(١٧) .

إن مهمة تصحيح المسار الروحى والأخلاقى التى أخذها الأب إسبيخو على عاتقه تناقضت وتعارضت بسبب تفجر بؤرة العنف فى بوينوس آيرس المجاورة ، التى أسست أثناء حكم رفائيل ريبس لإبعاد المجرمين الخطرين بالدولة. وحقيقة لقد كان الأمر بمثابة إطلاق سراحهم ، لأن هؤلاء كانوا يهربون من هذا السجن المضطرب ، وقد نظم هؤلاء المجرمون عصابات لسرقة واغتيال الأبرياء من سكان السواحل. وقد أدى ذلك إلى زيادة النفور والكرهية بين سكان السواحل والهنود الحمر المعروفين باسم لوس كاتشاكوس ، وعلى إثر اغتيال أحد المواطنين الأصليين على أيدي أحد مواطني أنطويوكيا ، بدأت حملة كبيرة للانتقام من جانب كل أبناء القرية. وخلال عامين ظل شغل أراكاتاكا الشاغل لقتل لوس كاتشاكوس من الهنود الحمر . وقد عُرِفَت هذه الحادثة المشنومة باسم "ليلة أراكاتاكا" منذ بداية الحقبة الثانية من القرن العشرين^(١٨) .

إن تصاعد درجة العنف والاسترخاء الأخلاقى للمجتمع ، والإهمال الذى شمل القيادات البلدية فى ثييناجا و أراكاتاكا جعل فكرة تحويل الدائرة القضائية إلى مركز ، للقضاء على هذا السباق العميق والمأساوى الذى طال أكثر مما كان متوقعاً . وقد نُشِرَت الفكرة أولاً فى صحيفة "الأحد" وهى الصحيفة الأولى بالقرية، وذلك بواسطة صاحبها ومديرها خوسيه أنطونيو إيجواران (شقيق جدة جارتيا ماركيز) وبعد ثلاثة أعوام من المداولات والمطالبات والمخاوف والأموال تم اعتماد أراكاتاكا كمركز فى أبريل ١٩١٥ ، وتم الاتفاق على وضع حدودها من الأراضى ما بين نهري توكورينكا وفونداتيون والمرتفعات الغربية لسيراً نيبيادا ولا ثييناجا جراندى. وكان أول عُمدة لها المأمور القضائى توماس نوجيرا .

وعلى الرغم من جهود الأب إسبيخو ؛ فإن القرية ظلت على فسادها الأخلاقي ، وعمّها غَضَبُ الله ، كما أنّ السّلطة المركزية أهملت القرية. وكان الوضع فوضويّاً بها قبل تحويلها إلى مركز ؛ فقد كانت هناك مشاجرات نتج عنها ضحايا من القتلى فى نهايات الأسبوع ، والتي تزايدت خاصة فى محلات البلياردو بشكل ملحوظ ، وكذلك مصارعات الديوك ، وفى صالات الرقص ، والكانتينات ؛ كما كانت بيوت الهوى تفتح أبوابها ونوافذها بلا أدنى درجة من الخجل أو الحياء ، كما انتشر اللواط فى جميع أرجاء القرية ، وقد أصاب ذلك كريمات الأسر من أبناء القرية الأصليين اللاتي سلّمن أنفسهن لمقاول العمال أو الأجنبي الذي كان يفتنهن بقليل من المال ، ولذلك انتشرت الأمراض التناسلية ؛ فضلاً عن السّل والملاريا؛ فقد تفشت الخلعة وانتشر الانحطاط فى أراكاتاكا ، حتى بدأ الناس الطيبون الذين لم ينخرطوا فى هذا الجو الفاسد يعلنون بهم الأمر أنهم تمنوا من أعماقهم أن يحل بالقرية عِقَابُ إلهي. وعلى ما يبدو لم تتأخر الاستجابة لتوسلاتهم وتضرعهم ؛ ففي مايو ١٩١٤ ظهر أسوأ الأوبئة فى القرية : وباء الإستاكوزا^(١٩).

لقد عمّ الذعر ، ولم يكن ذلك لأن أراكاتاكا كانت قد عانت من ذلك الوباء منذ سبع سنوات مضت ، حيث قضى هذا الوباء على الثمار والزروع ، وعلاوة على ذلك فإنّ هذا الوباء جاء مسبقاً بأنباء تتحدث عن كوارث هائلة بالمراكز الأخرى. وكما فى أوقات الجذب الماضية انتقل الجنرال بينخامين إيريرا حذاءه وتزعم أهل أراكاتاكا للتصدى فى معركة حربية ضد الطبيعة. لقد تسلح الجميع بالذخائر وخاضوا معركة حيث تمكنوا من ترويع هذه الحشود الجرارة من الحشرات ، ولكن شيوع فكرة بأنّ أراكاتاكا ، (مثل ماكوندو تماماً) ، كانت قرية مكتوباً عليها أن تُعاني من الأوبئة المذكورة فى الإنجيل. لذلك ظلت هذه الفكرة مهيمنة على أهالى أراكاتاكا .

كانت احتفالات الكرنفالات الأولى فى فبراير من العام التالى بمثابة الأسطورة وتكريس كل شئ للإسراف الذى شجعتة شركات الموز. لقد جاء إلى أراكاتاكا أناس من جميع القرى والمحافظات ، وقد وصل إليها الفجر مرة أخرى بقدرهم ، وأوعيتهم والتج قبيل أن يأتى أحد إلى أراكاتاكا ، وهو الذى كان قد تحول إلى سلعة شعبية آنذاك. كما وصلت إلى القرية فرق موسيقية شعبية عديدة ، ووصل سحرة الثعابين ؛ فضلاً عن

جميع أنواع التجار الذين عرضوا للجمهور مساحيق العصفور ماكو لممارسة أعمال السحر على النسوة النواشز ، وكذلك عين الإبل الأبق أو الشارد ، والليمون الجاف فى شرائح على شكل صليب لطرد الأرواح الشريرة ، وضروس سانتا بولونيا لجلب الحظ فى ألعاب النرد ، وفك الثعلبة لخصوبة المحاصيل ، والأطفال على هيئة صليب للفوز فى المشاجرات ؛ فضلاً عن مراهنات القوة وردم الخفاش للسير ليلاً دون إزعاج من الأرواح الشريرة^(٢٠). وعلى مدى أربعة أيام من الأعياد فى أراكاتاكا تنتهى بعيد يحضره جمهور غفير لم يتخلف عنه أحد ؛ فالجميع بأقنعتهم وزيهم التنكرى^(٢١).

وفى سوق البازار العربى حيث كان يُباع كل ما يمكن بيعه ، كل شىء يمكن أن يخطر على البال. وبلا شك ؛ كان ذلك الكرنفال الأول بمثابة التعبير عن الفرحة الغامرة بالواقعية السحرية التى عرفت بها أراكاتاكا . ومن ذلك الحين انتشرت أسطورة الكرنفالات ؛ فهى تمثل أهم عناصر فى الفولكلور الساحلى ، وتبذير الأموال فى رقصة لا كومبيا ، والثروات اللامتناهية للرخاء والازدهار بلا حدود ، وبذلك فإن عام ١٩١٥ قد اعتبر بمثابة عيد الظهور المسيحى فى تاريخ المكان ، وحتى أن جارثيا ماركيز نفسه قام بتسجيله فى " الورقة الساقطة" مثل العام الذى أصبحت فيه ماكوندو أكثر ازدهاراً ورخاءً .

وقد كان هذا العام مهماً فى تاريخ القرية ، ولكنه لم يستمر كذلك إلا حتى عام ١٩٢٤ تقريباً حيث أدركت أراكاتاكا أوج تطورها القاتل. وعندما انتهت الحرب العالمية الأولى ، وما بين ١٩١٨ ، ١٩٢٤ تمخضت عن معظم الهجرة الأوروبية والعربية ، مما أدى إلى ترسيخ الأسر الجديدة الشهيرة مثل : سعد ونجار وحتوم وسباتينو وفاضول وديكولا ديل بيتشيو وبارونيسى ودى رومينيكو وفيرجسون وداكونتى وبارليتا ويانينيسى ، وكانت هذه الأسر صاحبة الفضل فى تأسيس أراكاتاكا الحديثة. وعلى سبيل المثال فإن الإيطالى داكونتى لم يكن فقط صاحب الفضل فى إدخال السينما الصامتة ، بل أيضاً التصوير الصوتى أو المحاكى ، وأول أجهزة استقبال الإذاعة ، وصالة البلياردو ، وتأجير الدراجات^(٢٢). أما فى المجال التجارى ؛ فقد دانت الهيمنة للعرب واليهود ؛ وبالتالي ؛ فإن حى كتاكيتا ، وقطاع النواصى الأربع ، وشارع لوس توركوس (الأتراك) شهدوا حالة من الحركة التجارية والازدهار ، مما جعل من المستحيل مجرد الارتياح فى أن التدهور سيحدث بالقرية قريباً .

إن سجل هذا الازدهار الأخير كان يكمن فى زهو المجتمع بالاثرياء الجدد الذين أطلق عليهم بالعامية خاى لاي وبالإجليزية هاى لايف " الحياة الرغدة" ، وكانت تضم تجاراً ومهريين وغشاشين وسماسرة بورصة ومرايين ، أناسُ كوَّنوا ثراءً ، ونمواً فى ظل زراعات الموز ؛ فعلى سبيل المثال كان أوريليانو سيجوندو وزمرة أصدقائه يقيمون حفلات بذخ حيث كانوا يحضرون الفرق الموسيقية خصيصاً من بارأنكيو ، وكانوا يعلقون فى منازلهم مصابيح زجاجية غريبة على شكل العنكبوت ، وكذلك أجهزة البيانو التى لم يعرف أحد العزف عليها ، وأثاثاً من فيينا مرصع بالفضة ، وسجاجيد من القطيفة فى قرية تصل فيها درجة الحرارة فى الظل إلى ٣٠ درجة مئوية ، ومسجلات جلبوها من التهريب. وكان جهاز التسجيل يعرف باسم الأورتوفونيك ، وقد أحدث المسجل ثورة كبيرة فى عادات مجتمع كاتاكا حيث أنه حل محل الفرق الموسيقية فى حفلات السينما الصامتة ، وكذلك فى صالات الرقص وفى بيوت الهوى ، كما أدى إلى انتشار جميع أنواع الموسيقى فى بابل الموز.

وخلال هذه الحقبة العجيبة عرفت أراكاتاكا الضوء الكهربائى ، وقد كونت أول أوركسترا لها ، وتم تشييد المسقى الكبير من الأسمنت لكى تشرب الماشية ، كما تطور تشييد المعبد (الكنيسة) ومبنى اليانصيب الذى كان يقتصر لعبه على المنازل ، ولكنه خرج إلى الشارع لكى يكون أهم وأعظم حدث أسبوعى فى القرية ، وقد ازدهرت فى ظلله أنشطة اقتصادية واجتماعية أخرى.

ولكن مظاهر التقدم هذه التى حدثت على مدى حقبتين فقط لم تكن تسمح للوهلة الأولى بالتنبؤ بالتدهور المأساوى الذى سيلحق بأراكاتاكا اعتباراً من مذبحة مزارع الموز فى ديسمبر عام ١٩٢٨ . ولكن كان يكفى خدش جزء يسير من الغلاف الاجتماعى لكى نعرف عن يقين بأن الجواهر المغلف أو الخفى لهذا كان ينطوى على مأساة أكثر من الرخاء والازدهار ، وأن المشاكل لم تنحسر ، ولم تحل بل كانت تتراكم؛ ولذلك ففى عام المذبحة وتفشى أوبئة البطالة ، وانتشار الفقر المدقع ، والتكدس وإدمان الكحوليات ، والدعارة والسُّل ، والأمراض التناسلية ؛ بلغ كل ذلك درجة من التناقض الذى لم يكن من الممكن تحملها بالوجه الحسن للتجارة بعيداً عن مزارع الموز ، ولذلك فقد ظهر على مسرح الأحداث زعماء النقابات ، وأشعلوا الفتيل بالدعوة إلى إضراب مأساوى وتذكارى خاصة أنه أسر إحساس وخيال طفل ولِدَ منذ ما يقرب من عامين أو ثلاثة أعوام.

وكان أحد مظاهر ذلك الإضراب الملفت للنظر هو الشُّح الرسمي في الإحصائية المرعبة لضحاياه: اعترفت الحكومة فقط بتسعة قتلى بينما ذكر الشهود والباقون على قيد الحياة بأنَّ الضحايا كانوا بالمئات^(٢٣). إن الموقف الوقح والمخزى للنظام المحافظ برئاسة ميغيل أباديا مينديث ظل في ذاكرة الشعب كالخميرة ليس فقط لأنها غزت الكراهية الشاملة ضد النظام الحاكم ؛ بل أيضاً ذكرت أنَّ عدد ضحايا هذا الإضراب وصل إلى ثلاثة آلاف قتيل على الرغم من أن التقرير الحكومي لم يذكر سوى تسعة من القتلى.

وربما لم يعرف على وجه الدقة عدد القتلى ، ولكن بكل تأكيد لم يكن قليلاً كما ذكرت الإحصائية الحكومية " تسعة قتلى " ، كما لم يصل إلى ثلاثة آلاف ، ومن المعقول الحديث عن عدة مئات من القتلى ؛ فهو أقرب إلى الصواب ؛ أما الصحف القومية فقد ذكرت في البداية تسعة قتلى استناداً إلى الإحصائية الحكومية إلا أنها فيما بعد عادت وتحدثت عما لا يقل عن مائة من القتلى. تحدثت جريدة الصحافة في بارانكيا عن ١٠٠ قتيل^(٢٤)، الاسبكتادور في بوجوتا تحدثت عن ألف قتيل^(٢٥) ، بينما تحدثت صحف أخرى عن ثلاثمائة أو ألف وخمسمائة ، وعن ثلاثة آلاف قتيل. أمَّا الزعيم الليبرالي خورخي إليسير جايتان ؛ فقد تحدث في البرلمان عن مئات القتلى نتيجة ضربهم بالرشاشات القاتلة. أما قُنصل الولايات المتحدة الأمريكية فقد أعدَّ تقريراً عُرِفَ بعد ذلك بسنوات ذكر فيه أنَّ القتلى تجاوز عددهم الألف شخص^(٢٦). وقد أكد إدواردو مايتشا الزعيم الرئيسى للإضراب في منفاه بأنَّ عدد الضحايا على أيدي الجيش تجاوز مائتي شخص^(٢٧). أما جارتيا ماركيز نفسه ؛ فقد اعترف بعد أربعة وستين عاماً ، حيث ذكر بشأن الإحصائية أنها نشأت وترعرعت على فكرة أنَّ الضحايا كانوا كثيرين: كانوا آلافاً من القتلى. وعندما اكتشف أنَّ الملفات تنص على سبعة قتلى فقط تساءلت: في أى مذبة يمكننا الحديث عن سبعة قتلى فقط ، حينئذٍ حولت عناقيد الموز إلى قتلى ، وقد ملأت عربات القطار لأنَّه بسبعة من القتلى لم أكن أستطيع ملء عربات القطار. وحينئذٍ قلت في القصة لقد كان القتلى ثلاثة آلاف قتيل في تلك المذبة ، وقد ألقيت بهم في البحر. إنَّ هذا لم يحدث ؛ لقد كان اختراعاً^(٢٨). لقد كان اختراعاً من الشعب ، وكما هو المعتاد دائماً ؛ فقد أصاب القصاص عندما حوّل الخيال إلى حقيقة لأن ظهور "مائة عام من العزلة" كشفت بوضوح الصفحة المخزية في التاريخ الكولومبي بإحصائيتها الزائفة ،

ومنذ عام ١٩٦٧ ، بدأ ومعظم الكولومبيين يتحدثون عن ثلاثة آلاف من القتلى فى مزارع موز ماجدلينا ، وهو الرقم الذى أعلن عنه فى ماكوندو خوسيه أركاديو سيجوندو بمفرده حتى وفاته.

ومع ذلك ؛ فهناك احتمال بأن هذا الرقم لم يكن فقط مبالغة انطوت عليها الذاكرة الشعبية ، أو مبالغة نتاج خيال جارثيا ماركيز ، وخاصة إذا أخذنا فى الحُساب أنه بعد مذبحة محطة السككة الحديد فى ٦ ديسمبر ١٩٢٨ فى ثيرناجا قام جنود الجنرال كارلوس كورتيس بارجاس بإطلاق الرصاص فى كل من بويبلو بيبخو ، وإشبيلية ، وجواكامايال و أراكاتاكا ، واضطهدوا وأعدموا جميع المشتبه فيهم بأنهم من المضربين على مدى ثلاثة أشهر من الذعر المستمر فى هذه المنطقة الشاسعة^(٢٩).

وفجأة يستحضر جارثيا ماركيز فى الدردشات العالمية تلك الأمسيات التى كان يتجول فيها الجنود فى شوارع أراكاتاكا وهم يمرون أمام منزله. ويسترجع بدقة ما كان يقوله له الجنود وهم يحيونه " مع السلامة يا جابيتو الجميل"^(٣٠). وكانت والدته وإخوته يستمعون إليه بأذان غير صاغية ، حيث بدا لهم أنها ذكرى تفوق ذاكرة طفل لم يكن يتعدى عمره عامين آنذاك. ومما هو مؤكد على أية حال هو أن خيال الكاتب - بالإضافة إلى ما حكا له جده عن المذبحة - كانا يمثلان إحدى الخمائر القوية لتكوينه الأيدولوجى ، وإحدى الأفكار الأدبية الراسخة التى تركزت فى ذهنه. ويقول شقيقه لويس إنريكي إن الكاتب غير تاريخ ميلاده لكى يتوافق مع المذبحة الكبرى. وعلى أية حال ؛ فمن المؤكد أن ذلك الإضراب ونهايته الدامية كان أحد الأحداث المهمة فى تاريخ كولومبيا خلال القرن التاسع عشر. لقد كان جرحاً حتمياً ودامياً يجعل هذه المأساة البطيئة والمستترة مأساة ظاهرة لمزارع الموز تنزف باستمرار ، وقد حُفرت بشكل لا يُطمس فى الوعى التاريخى لشعب بأكمله.

ومنذ عام ١٩١٨ شُوهِدت الأحداث على أنها حتمية على المدى القصير. وبعد ذلك بخمسة عشر عاماً من الاستغلال السهل قام العمال بصورة تلقائية باستثمار الرياح الأخيرة لثورة أكتوبر ، وخططوا لإضراب كبير قامت حكومة المحافظ "ماركو فيدل سواريث" بالقضاء عليه فوراً. وبعد ذلك بستة أعوام أصبح التخطيط واقعاً ، ولكن عدم

وجود قيادة وتنظيم أصابا الأضراب بالوهن والضعف وقُضِيَ عليه عسكرياً. وقد تزايد القهر العسكرى فى المنطقة بأسرها فى عهد حكومة بيدرو نيل أوسبينا. ومع ذلك ، فقد بقى من الهزيمتين ضرورة واقتناع بأنه يتحتم على عمال مزارع الموز تنظيم أنفسهم لإضراب شامل ونهائى ، حيث إن شركة الفواكه المتحدة ، وشركات الموز التى يمتلكها أبناء الأوربيين المقيمين فى كولومبيا لم تُردِّ حتى مجرد الاستماع إلى تحسين الظروف العمالية المتدنية وأجورهم الزهيدة.

وفى ظل تلك الظروف ظهر الزعماء النقابيون ألبرتو كاستريون وإراسمو كورونيل وإدواريو مايتشا وآخرون ، وهم الذين هُزموا فى الإضرابين الأخيرين فى باخو ماجدلينا (ماجدلينا الدنيا). لقد كان الأسطورى مايتشا فوضوياً شيعياً أكثر تلقائية منه صاحب نظرية ، ولكنه داهية وعارف كبير بالحركة العمالية الكولومبية ، كما كان خطيباً مفوهاً ، وكان يُجيد الكتابة. كما كان طبيباً تجانسياً فى الخفاء ، وكانت لديه القدرة على استخراج أو استئصال حصاة من الكبد ، وهو مثل الفوضوى أليرو نوجيرا فى "مائة عام من العزلة" استخدم الطب التجانسى كطعم لاكتساب مؤيديه^(٢١). ولم يتأخر كثيراً حتى أصبح الزعيم الرئيسى للاتحاد النقابى للعمال فى ماجدلينا ، والذى وُلد فى جواكا مايال قبل ذلك بعامين. وفى مطبعته المتنقلة التى كانت أكبر حليف له ؛ بدأ مايتشا فى تنمية الوعى النقابى والسياسى بين العمال مقتنعاً إياهم بضرورة القيام بإضراب عام يقصف رأس الحكومة وأرباب العمل. وبمساعدة من منازل الشعب الكثيرة؛ فإن مضربى عام ١٩٢٨ اتفقوا وحرروا فى ثناجا منشوراً بالمطالب تضمن تسعة بنود أو نقاط: إقرار التأمين الجماعى ، التعويض فى حالة إصابات العمل ، راحة أسبوعية يوم الأحد مدفوعة الأجر ، ومنازل صحية ، وزيادة الأجور بمقدار ٥٠٪ ، وإزالة أقسام الشرطة من منطقة زراعات الموز ، إلغاء دفع الأجور كل أسبوعين وجعله أسبوعياً ، إلغاء التعاقدات الفردية ، وسريان مفعول التعاقدات الجماعية ، وإنشاء مستشفى لكل أربعمائة عامل ، وطبيب لكل مائتى عامل ، توسيع وتحسين مخيمات العمال صحياً^(٢٢). وكان معظم هذه المطالب تتفق مع ما نص عليه الدستور والقوانين الكولومبية.

ومع ذلك ، وعلى الرغم من كثرة الأسباب السياسية والأخلاقية لى ينجح الإضراب فإنه فقد جانباً مهماً بين أروقة وكواليس السياسة . لقد كان زعماءه

فوضويين وشيوعيين متحمسين من جرأ الانتصارات العمالية الأخيرة في الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا بشكل لم يخفوا معه طموحاتهم التي تجاوزت العمل النقابي المحض. ولكن أكبر صعوبة للتفاوض كانت تكمن في أن شركة الفواكه المتحدة كان اقتصادها استثمارياً . كانت دولة داخل الدولة الكولومبية ، وهي التي بفضل مراوغاتها القانونية لم تكن مسئولة من الناحية القانونية عن العمال المضربين ، ولزيادة الطين بلة ؛ فإن حكومة ميغيل أباديا مينديث المحافظة كانت كسابقاتها تخدم بصورة عمياء الشركة الأمريكية.

ويعد إضراب دام شهراً تقريباً تسبب في خسائر اقتصادية فادحة ، وحالة من التوتر المتزايد مقترناً بالتخريب وأعمال السلب ، أعلنت السلطات اضطراب الأمن ، وأصدرت أمراً بحظر التجول في المنطقة بأسرها قبيل حدوث المذبحة. وكانت لجنة الوساطة المشكلة من الجنرال خوسيه روساريو دوران ، والعقيد نيقولاس ماركيز^(٣٣) قد فشلت في اليوم نفسه ، ربما لأنه كان قد صدر الأمر بمواجهة المضربين بأيدٍ من حديد. وكان هؤلاء يريدون التجمع في ثيناجا من مختلف جهات المنطقة ، والقيام بمسيرة إلى سانتا مارتا للقيام بمظاهرة أمام السلطات الحكومية ، ولكن في صبيحة ٦ ديسمبر ، وعندما تواجد ثلاثة آلاف عامل في محطة السكة الحديد في ثيناجا طُلب منهم ألا يفعلوا شيئاً ، وفجأة جاء المحافظ ، ومدير شركة الفواكه المتحدة بحثاً عن حل معهم بشأن منشور المطالب. لقد كانت خدعة قاتلة ، لأنه بدلاً من أن يأتي المحافظ ومدير الشركة ظهر الجنرال كارلوس كورتيس بارجاس قائد المنطقة المدنى والعسكرى ، ورفقته ثلاثمائة جندي وأغلق مداخل الشوارع ، وحاصر العمال بالمحطة وتلا عليهم مرسومه رقم ١ ، وأمرهم بإنهاء المظاهرة تحت تهديد النيران ، وقد منحهم خمس دقائق للانصراف . لم ينسحب أحد ، وقد منحهم الجنرال دقيقة إضافية ، وحينئذٍ صاح صوت قوى في الحشود الصامته قائلاً : سنهديكم الدقيقة الباقية^(٣٤).

وقد ظهرت تفاصيل المذبحة ، وكذلك الجنرال كورتيس بارجاس ومرسومه الأعلى رقم ٤^(٣٥) فى " مائة عام من العزلة" من جانب واحد والذي باستثنائتيه الذاتية كان يوجه الاتهامات بلا خطأ . وكانت الساعة المشنومة ما بين الواحدة والنصف والثانية صباح ٦ ديسمبر ١٩٢٨ ، وفى تمام السادسة فقط تم رفع الجثث. وكان هناك وقت كافٍ

لكى يقوم الجنرال كورتيس بارجاس بإعداد أحصائيته الخرقاء بشأن عدد القتلى ، وتقليص عددهم من المئات إلى تسعة من القتلى فقط . كان العدد مشكوكاً فيه مثلما كانت المطالب التي نص عليها منشور العمال^(٣٦) . لقد اشتد المناخ العدائى بالقرية تجاه شركة الفواكه المتحدة بسبب المحاكم البرلمانية التي تزعمها الشاب اللامع والزعيم الليبرالى خورخى إيسير جايتان^(٣٧) ، والتي أثبت فيها بالأدلة والشهادات التي تم جمعها فى المنطقة نفسها ، فضلاً عن سبل التعسف التي كانت تمارسها الشركة الأمريكية ، وكذلك مصلحة حكومة ميجيل أباديا ميندث ، ومذبحة المضربين على أيدي جنود الجنرال كارلوس كورتيس بارجاس . إن الجو العدائى الناشئ ضد الشركة الأمريكية قد اشتد ، ولم يعد من السهل عليها تدبير شئونها على هواها وكما تريد . ومع ذلك ؛ كانت الأزمة الاقتصادية العالمية فى عام ١٩٢٩ - التي قلّصت بشكلٍ مأساوى حصص التصدير - وكذلك فيضانات ١٩٣٢ أديا إلى انحسار وانكماش شركة الفواكه المتحدة بالمنطقة .

وكما يُقرأ فى " مائة عام من العزلة " ، فبعد مذبحة العمال بساعات قليلة عصف طوفان إنجيلي ، كأنه عقاب سماوى ضد شعب ماكدندو وضد شركة الموز الأمريكية . وفى الواقع كان الأمر على عكس ذلك تماماً ، فلم تكن الشركة شريكة فى الجريمة ، بل كانت شريكة فى العقاب . وفى شهر أكتوبر من ذلك العام هطل طوفان من المياه لمدة بضعة أيام وليالٍ مما أدى إلى فيضان مياه الأنهار والسواقي وأغرق المنطقة الريفية الغربية فى أراكاتاكا ومعظم محيطها العمرانى . وحدثت الكارثة على وجه الخصوص فى القناة التي يبلغ طولها تسعة كيلومترات ، والتي قامت بتشبيدها شركة الفواكه المتحدة للربط بين أنهار أراكاتاكا وسان خواكين وأخى . إن هطول الأمطار بغزارة ، والفيضانات بلغت الذروة لدرجة أن أهل كاتاكا فكروا فى أن ما يحدث لهم هو على غرار الطوفان العالمى ، كما جاء فى " مناجاة إيسابيل عندما شاهدت هطول الأمطار فى ماكوندو " وفى نفس عبارات الوصف التي تضمنتها " مائة عام من العزلة " ، فقد أصبح العالم الريفى ينحسر فى كونه محيطاً من الوحل على مدى أيام وليالٍ . لقد كانت أكبر كارثة بحق فى تاريخ القرية ؛ بل تجاوز فيضان ١٩١٢ ، ووباء الإستاكوزا فى ١٩١٤ . وكان هناك الكثيرون الذين رُوجوا ذلك الحزن على أنه عقاب من السماء لمكابرة وعناد الأجانب ، ومصائب الإضراب ، وتبديد وإسراف الأموال فى الرقص واللهو الإفراط فى

المأكل والمشرب بما فى ذلك سكانها المهمشين. وتفادياً لحدوث فيضانات مستقبلية ؛ قامت شركة الفواكه المتحدة بتحويل مجرى النهر وأبعدته عن القرية كما ينبغي أن يكون فى ماكوندو.

وفى تلك الأثناء الذى حلت فيه هذه المصيبة المدمرة على المنطقة بأسرها ، كان جارتيا ماركيز قد بلغ من العمر خمسة أعوام وثمانية أشهر ؛ ففى السن نفسة الذى كان لدى أستاذه مانويل ديفوى عندما اجتاح الطاعون الكبير لندن فى ١٦٦٥ عندما كان يعيش فى منزل أجداده ، والذى شاهد من خلاله ذلك الطوفان وأثاره المدمرة وهو الذى بعد أربعة وثلاثين عاماً سيصب جام غضبه من جديد على ماكوندو طوال أربع سنوات وأحد عشر شهراً ويومين .

وعندما رأت شركة الفواكه المتحدة أنها لا تستطيع التملص من المسؤولية ، ولكنها تفادتها بكل الأشكال ، وتجمعت قليلاً حيث غيرت اسمها إلى شركة ماجدلينا للفواكه ، ونوّهت بأنها سترحل. وقد قامت بتفكيك العنابر الكهربائية ، وحمامات السباحة ، والمناطق الخضراء ، وملاعب التنس ، وتركوها طعمة سائفة للطبيعة المدارية . لقد رحل كثيرٌ من التجار ومعظم الأسر الأرستقراطية من الأثرياء الجُدد . لقد رحلوا بمصاييحهم الزجاجية ، وأجهزة البيانو الفاخرة ، ومسجلاتهم وبسطهم وفُرُشهم وحفلات عريبتهم وسكرهم، وقد بقيت أراكاتاك عارية كما كانت فى البداية ، وإن كانت قد نعمت بعد ذلك بلحظات من السلام والازدهار النسبى ، فإنها ستعيش فى المستقبل فترة احتضار بطئٍ دون هواده أو رحمة أدت إلى التدهور والعزلة ، كما وجدها جارتيا ماركيز فى مارس ١٩٥٢ ، عندما عاد مع والدته لكى يبيعا منزل الأجداد.

الفصل الثالث

- موظف البرق والتلغراف وكريمه العقيد .
- خطوبة القصة .
- المولد الملعن .
- بوليفار فى بارانكيا .
- اللقاء الأول مع الأم .
- منزل الميلاد (مسقط الرأس) .
- العمات وينفريدا وألبيرا وأفرانشيكا .
- جابيتو وأجد نيقولاس .
- من الميت إلى لوس أنيميس شخصيات من القرية .
- ماكوندو الجان الألفى .
- من الرسم إلى الأبجدية .
- روسا أبلدنا فيرجبسون ومدرسة موتيسورى .
- ألف ليلة وليلة .
- رحيل أسرة جارتيا ماركيز .
- وفاة الجد نيقولاس .
- وداعاً أراكاتاكا .
- إعصار من الأساطير .

وفى يوم حار من شهر يوليه ١٩٢٤ وفى ذروة (الموز الذهبى) ظهر فى المنزل الكبير المضيف لأسرة ماركيز دى إيجواران شاب أسمر فى الثالثة والعشرين من العمر نحيف مضحك وانسيابى الحديث حاضر النكتة .قدّم الشاب نفسه للعقيد العجوز بخطاب توصية أعطاه إياه قسيس فى قرطاجنة الهندية ؛ صديق لذلك العقيد . لقد كان عامل البرق الجديد فى أراكاتاكا و قد أخفى تحت بشرته البشوشه حالم محنك يهوى الشعر الغرامى و الكمان .

وُلدَ جابر ييل إيلخيوارثيا مارتينيث فى سينثيه ، سوكرى فى ١ ديسمبر ١٩٠١ وكان أبناً غير شرعى لجابرييل مارتينيث جاريدو أخيميرا جارثيا باترينا التى رُزِقَتْ به وهى فى الرابعة عشرة من عمرها . و اللقب جارثيا وكذلك ماركيز من أصل إسبانى ، و من المحتمل أن يكون قد حلّ بالمنطقة فى الحقب الأولى من القرن التاسع عشر مع جدد أجداد الكاتب بيدرو جارثيا جورودوت المولود فى مدريد . وقد رُزِقَ بولد فى كايسيتو بسوكرى وأسمته أميناداب جارثيا الذى تزوّج بمواطنة من سينثيلخو تدعى لوثانا باترينا^(١) ، و كانا هما والدى جدة القصاص لأبيه أرخيميرا جارثيا باترينا . وهكذا لم يأت فقط لقب جارثيا ماركيز من شبه الجزيرة الأيبيرية ، بل إن كلا اللقبين وصلا إليه عن طريق والدته كل هذا مقدمة للتأثير الحاسم الذى ستلعبه السيدات فى حياه جارثيا ماركيز .

وفى سينثيه قضى جابرييل إيلخيوارثيو طفولته وشبابه وسط ظروف اقتصادية صعبة . ومع ذلك استطاع الحصول على الثانوية و دخول الجامعة . وفى مطلع العشرينيات التحق ببعض البورات الدراسية بمدرسة طب الأسنان بجامعة كارتخينا^(٢) ، ولكن الفقر اضطره إلى ترك قاعات المحاضرات مما جعله ينتقل ما بين ١٩٢٣ و ١٩٢٤ بين عدة قرى لمقاطعات قرطبة ، وسوكرى ، و بوليبار متناوباً بين عمله كموظف البرق ومهنته البسيطة كطبيب تجانسى . وفى مجانجى الوطن الأصغر لميرسيدس بارشا كان له الشرف فى كونه أول عامل تليفراف ، ثم بعد ذلك انتقل الى عدة قرى من بينها تولو

وسينثيلخو. و فى أُنثشيه رُزقُ بأول أبنائه الأربعة غير الشرعيين ، لينقل بصفة عاجلة إلى ثينتورا وكايميتو ، وأياييل حيث تعرف على المرة التى ستكون زوجته طوال حياته : كارميلينا إيرموسيا. ولكن القدر حرَّك الأوراق فى موعدها ، وفى بارا نكيا - حيث ذهب جابرييل إيلخيو ليشتري لوازم زواجه - التقى بنجل عمه كارلوس إينريكي باريخا الذى نزع من ذهنه فكره الزواج المبكر^(٣)، فلم يكن الخطيب قد بلغ العشرين من عمره، وكان عقله مفعماً بالأشعار الغرامية ، حينئذٍ لجأ جابرييل إيلخيو إلى معارفه واستطاع التعيين فى وظيفة عامل برق ، وفى أراكاتاكا فى قلب منطقته زراعات الموز .

والأب أجوادو الذى أعطاه خطاب التوصية للعجوز ماركيز كان مرتدّاً (أى قسيس كاثوليكي اعتنق المذهب البروستانتى) ، وعندما سلمه الرسالة قال له أجوادو: "إنك ستخطئ بحُسن الاستقبال فى منزل العقيد لأنه شابٌ مؤدّبٌ وظريفٌ ويعزفُ جيداً على الكمان ، ويكتب الأشعار. بل إنك يمكن أن تصبح أحد أفراد أسرته لأن لديه بنتاً حسناً"^(٤). ويبدو أن كلمات الأب المرتد كان لها مفعول السحر بمجرد وصول جابرييل إيلخيو إلى أراكاتاكا ؛ فقد استقبله العقيدُ بكبرٍ مشاعر الود الحب ودعاه ليتناول الطعام ، وفى اليوم التالى لوصوله رافقه إلى سانتا مارتا حيث كانت تقضى أسرته عطلة الصيف لكى يقدمه إليها، وعندما وصلوا إلى محطة المدينة الاستيطانية اشترى العقيد طائراً صغيراً يطلق عليه قُنبرة بقفصه ، وأعطاه لجابرييل إيلخيو لكى يهديه الى كريمته. حينئذٍ تعرف عامل البرق على لويسا سانتياجا ماركيز إيجواران وباقى الأسرة. ولكن على الرغم من جمالها فإن بنت العقيد لم تترك لديه انطباعاً جذاباً فى البداية^(٥).

لقد تولّى موظف التلغراف فى أراكاتاكا مهام منصبه بالمبنى الذى يوجد خلف الكنيسة على بُعد بضعة مبانى من منزل ماركيز إيجواران. وكان الأبُ المرتدُ فى كارتخيئا قد أعطاه رسالة أخرى إلى راعى كنيسة أراكاتاكا ، وقد تسلّمها الأبُ ميرابال بنفس الحماس مثل العقيد تماماً ، وقد ضمّه إلى كورال الكنيسة كعازف كمان هاوى فى فرقه الكنيسة "بنات مريم" ، وهُنَّ عشرون فتاة فى مقتبل العمر كُنَّ تحلّقن كالحمامات ، حيث كان عامل البرق على شفّيته بيت من الشعر يراوده وخاصه للمعلمة الأولى لجارثيا ماركيز التى تحولت أعين الفتيات الأخريات إليه فإن جابرييل إيلخيو

وضع عينيه على إحداهن، ولكن فى واقع الأمر لم يشعر موظف البرق بالجابضية تجاهها وقد ركّز كل وجدانه من أجل كريمة العقيد. ومع ذلك فعندما سألت لويسا سانتياجا جابرييل إيلخيور دُ عليها بضحكة طويلة: سريعا ستكونين يا آنسه لويسا والدتى عند التعميد^(٦) ومنذ ذلك الحين ساد التعامل بينهما على أنها الأم التى تبنته وهو ابنها المتبنى.

وفى يوم ما أصيبت الأم المتبنية بشر، وقد وصف لها الطبيب أن تذهب إلى مكان معتدل الحرارة فأرسلها الوالدان إلى ماناورى ديل تشار ما بين مرتفعات بريكا وجنوب شرق سيرا نيادا فى سانتا ماريا. لقد كانت أجمل قرى العالم؛ بها شارع واسع فقط ومنازلها من طراز واحد، وفى هضبة خضراء يخيم عليها صمت خارق للطبيعة^(٧) وعندما رآها جارتها ماركيز بعد ثلاثين عاما تذكر عندما زارها فى تلك الرحلة الصامتة بحثا عن أصل جدوده. وكان غياب طفلة أراكاتاكا الجميلة بمثابة المعجزة التى لعبت دورها النهائى لدى موظف البرق العاشق الولهان .

وعندما عادت بعد ذلك بشهر ذهب الابن المتبنى لاستقبالها فى المحطة بين كبار القوم فى أراكاتاكا وكان يرتدى حلة رائعة اشتراها بفضل كسبه لليانصيب بما قيمته مائتا بيزو قبيل ذلك بقليل. لقد حييتها وصافحتها بحنان بالغ . وقد ردت على بنفس الطريقة وسلمتني بعض الحلوى كانت قد جلبتها له . ولم تنطق ببنت شفه، ولكن مع اهتزاز الأيدي عند المصافحه شعرت أنها تحس بشئ تجاهى^(٨).

وبعد ذلك ببضعة أيام التقيا مرة أخرى فى قداس الأحد ، وتبادلا النظرات من بين رؤوس الحاضرين. وبالنسبة لجابرييل إيلخيور لم يكن لديه أدنى شك فى أن الثمرة حان قطفها، وعند ذلك فى يوم شديد الحر فى شهر مارس ١٩٢٥ أفصح عن حبه لطفلة أراكاتاكا الفاتنة ، واقتراح عليها الزواج فى ظل شجرة لوز بمنزل ماركيز إجاران وأكد لها أنها كانت سبب أرقه وسهاده ، ولم يكن أحد غيرها يسكن قلبه ، وأن لديه ضرورات ملحة لكى يتزوج منها دون مماطلة أو تسويف ، وقد أعطاهم مهلة ٢٤ ساعة لكى تتدبر الأمر. فقط أربع وعشرون ساعة ، ومع ذلك لم تستطع إخباره بقرارها عند انتهاء المهلة المحددة ، حيث اقتربت خالتها (بنت عمه والدتها) من شجرة اللوز ، وهى فراثيسكا ثيموبوسيا ميخيا ، وهى نموذج الخالة المتكلمة دائما فى الحب فى زمن الغضب ، التى

لقبها جابرييل إيلخيو بالحارسة لأنها لم تفارق نجلة شقيقتها لحظة واحدة ، وأصبحت بمثابة العائق أمام شاب كاتاكا عندما كان يريد مغازلة حبيبته^(٩). وقد كان يعلم ذلك جيداً ماريانو بيرينتيثي " الشاعر " أحد الجيران وقريب من بعيد للويسا ، وهو الذى كان ينوى حبها على غرار حصان طروادة بأشعاره ، حتى علم بذلك العقيد و الخالة فرانشيسكا ، ووضعوا نهاية لمزاعمه. بيرينتيثي كان ابن شقيقة لنجلة غير شرعية للعقيد ، وبالتالي فلم يكن معه أى مستقبل للويسا : كان شاعراً يمجّد الزنا بالمحارم . وتحتم على فلورينسيو إريثا حقيقة الانتظار حتى " الحب فى زمن الغضب " لكى يستطيع الزواج من حبه الأول و الأوحد فى حياته بعد فترة خطوبة قصيرة ، وبعد خمسين عاماً من الانتظار ، إنها ليست لويسا سانتياجا ماركيز إجواران بل كانت فير مينا داثا .

و بهذا الشكل كان لدى فرانشيسكا ثيموبوسيا الصواب لكى تكون منتبهة للمغازلات الغرامية بين بنت أختها و موظف التلغراف ، ذلك النمط الغريب صاحب النكتة ، و كان يقول عن نفسه إنه شاعر و كان مغامراً ذا هيئة لا تخطئ ، و كان ذا خيلاء بأنه طبيب تجانسى و عازف كمان .

و لكن لويسا لم يهدأ لها بال حتى تجد حلاً لهذا الوضع ، ووجدت بالفعل كيفية إبلاغ خطيبها بأنها تنتظره للحديث عن هذا الموضوع ساعة القداس فى اليوم التالى. وبدون وجود الحارسة. ذهب موظف البرق مباشرة الى لبّ الموضوع و هو اقتراح الزواج : حينئذٍ سألت جابرييل إيلخيو. قائلة له : إن لدى بعض الشكوك لأن حضرتك هوائى الغرام . قال جابرييل إيلخيو واثقاً من نفسه : إذا لم ترتبطى بى حضرتك ياآنسة ماركيز فلن أنتظر. فأنا بالنسبة لفتيات كاتاكا عريس عظيم وقوى. سألته لويسا : بما تعدنى ؟. قال لها: أمرٌ واحد يمنعنى من الزواج بك وهو الموت فقط. حينئذٍ مدت له يدها وقالت له: وأنا كذلك : لن يمنعنى سوى الموت أن أتزوجك. ولكن تذكر أن أسرتى لا ترغب فى زواجى الآن ويمكن أن تفعل المستحيل لتفادى ذلك الزواج^(١٠). وهذا ما حدث. وعندما علم العقيد ماركيز بارتباط كريمته استاء استياءً جماً من موظف البرق وأوصد أبواب منزله أمامه ، وكان الموضوع الذى تعللت به أسرة ماركيز إجواران لمنع هذا الزواج هو أن الخطيبين لا يزالان شابين للإقدام على هذه الخطوة المحمومة ، ولكنهما فى الواقع لم يكونا كذلك : فقد كانت الفتاة فى العشرين من عمرها ، وهو فى

الرابعة والعشرين. ويبدو أن السبب الأكبر لمعارضة الأسرة هو أن لويسا لازالت الطفله المدللة وعينى العقيد اللتين يرى بها. ولكن ربما تكون هناك أسباب أخرى لم تذكر ، وهى أكثر صلابة وقوة : فعلى الرغم من أن أسرة ماركيز دى إجواران قد ولد أفرادها فى ريو هاتشا وينحدرون إلى أصول أسبانية فكانت لا تزال لديهم بعض العادات والأوهام الأسبانية القديمة المتأصلة . وعلى الرغم من التكذيبات المتكررة فيما بعد من جانب جابرييل إيلخيو ، وهو أن العقيد لم يكن يشرفه أن يكون جابرييل صهره لأنه كان ابناً غير شرعى وشاباً مغامراً مثل كثير من الغرباء الذين قدّموا إلى القرية بسبب شركة الموز . ولزيادة الطين بلة؛ فقد كان موظف التلغراف أسمر اللون جداً، وكان ينتمى إلى الحزب المحافظ وهو إن كان فى وظيفة جيدة فإنه كان يعزف على الكمان وينظم الشعر سراً. والمعروف أن حزب المحافظين هو المنافس التاريخى الكبير لحزب العقيد. كما أن أسرة جابرييل إيلخيو لم يكن لها أصل أرستقراطى فى قرية مثلما كان لأسرة ماركيز إجواران فى أراكاتاكا^(١١).

وكانت لويسا سانتياجا ماركيز إجواران قد ولدت فى ٢٥ يولييه ١٩٠٥ فى بارأنكاس بجواخيرا ، وكان عمرها خمس سنوات عندما استقرت الأسرة فى أراكاتاكا بعد النزوح إلى ريو هاتشا وثنياجا وسانتا مارتا لمدة ٢٢ شهراً . وبعد وفاة شقيقتها مارجريتا أصبحت لويسيتا النجلة الوحيدة لأسرة ماركيز إجواران ، كما أنها كانت عينى العقيد اللتين يرى بها. فلم تكن فقط فتاة جميلة على الرغم من نوبات الحمى التى كانت تنتابها باستمرار ؛ بل كانت أنيقة الملبس تتزين بالحلى والجواهر مما يُضفى رونقاً جذاباً على هندامها. كانت بحق أكثر فتيات القرية أناقة وهنداماً : كانت أجمل فتاة فى أراكاتاكا. وقد أسهمت راهبات مدرسة لابرستنتايشون فى سانتا مارتا - حيث كانت تدرس الثانوية - فى زيادة صفاتها الحسنة ومسلكتها الحميد ، كما علّمتها الكتابة بالإسبانية الصحيحة حفاظاً على تقاليد الأسرة العريقة. كانت تتسم بالإيماءات الجمالية المتأنيّة والمنتقاة ، وإحساس غريب بالرغبة فى النزاع والمنافسة ، فضلاً عن حس أدبى عظيم. وكانت محاورّة قليلة الكلام، ولكن بتبريرات دقيقة وحاسمة. وربما يرجع ذلك إلى الخضوع لديها كان دائماً بمثابة استمرار للطاعة . واعتقد والداها بأنها ستترك موظف البرق بمجرد إبلاغها معارضتهما الشديدة لزواجها منه. ولكن السيد

نيقولاوس والسيدة ترانكليينا لم يأخذا في اعتبارهما عناد قلب كريمتهما ، وخاصة قلب جابريل إيلخيو الذى لا يقهر .

وعندما ترك العقيدُ الحديثَ مع خطيب نجلته فإن الأمر لم يقتصر على هذا فقط ؛ بل أوصد العقيد أبواب منزله فى وجهه ، و مع ذلك فقد فكّر الخطيبان فى متاهة من الإشارات و الإشارات المضادة و الرسائل و الوسطاء ، لكى يتصلا ببعضهما البعض ويلتقيا كل المرأت التى يريدانها : عند الخروج من القدّاس ، عند مدخل السينما أو فى ميدان بوليبا . وكانت لويسيتا تتلقى رسائل خطيبها من خلال كنياتيكو ساعى البرق أو التلغراف . وفى مرأت أخرى كان موظف البرق يتسلل سراً داخل صيدلية السيد / أنطونيو باربوسا الكائنة بإحدى النواصى المقابلة لمنزل الخطيبة ليأخذ رسائلها ويترك لها خطاباته، وعبر نافذة صغيرة داخلية كانت تطل على أشجار اللوز حيث كانت تنتظره لويسا ، وكان جابريل يزورها يومياً عن بُعد^(١٢)، ويمرور الوقت، ومع الحظر التام ذهب مبادرات موظف التلغراف إلى أبعد من هذا بكثير ، وبدأ يعزف لها بنفسه مقطوعات على الكمان كما سيفعل فيما بعد فلورينتينو أريثا مع فرميناداثا، وكان يرسل لها بالهدايا . وإن ينسى سانتدير إنفانتى صانع الألعاب النارية فى أراكاتاكا اليوم الذى أرسله فيه جابريل إيلخيو بمنديل إلى لويسا ودفعه فضوله إلى قراءة ما كان به من أشعار " وزهرة الأوركيد على الضفة المقابلة للنهر خلع عليها الصيف ثيابها وكساهما الشتاء / ولم يشعر الماضى / ولم يشعر به يا حبيبى"^(١٣) . وإزاء إصرار موظف البرق الذى تجاوز كافه أنواع الحظر والتقاليد لكى يستمر فى رؤية خطيبته، فقد اعتقد والداها أن الغد كفىل باستئصال شائفة هذا الحب . قام العقيد بالاتصال بأقاربه وأصدقائه فى طريق امتد لأكثر من أربعمئة كيلو متراً انتهى فى سانتا مارتا محاولاً إخفاء نجلته تماماً بعيداً عن خطيبها، ماراً بكل من الكوبى وبوبيلوبيو وبايدويار ولابات وماناورى وبياناوييا وسان خوان ديل ثيسار وفونسيكا وبارانكاس وريوهاتشا تلك الأماكن التى كافح - قبل ربع قرن مضى- فيها خلال "حرب الألف يوم" . وفى قافلة من البغال تم حمل الصناديق وركبت ترانكليينا ولويسا وإحدى الخادمت . وسارت القافلة فى طريق وعر ومعوج سمح لها بتفادى القبائل المتحاربة فى سيراً نيبادا حتى وصلت إلى بايدويار وماناورى بعد بضعة أسابيع وفى هذه القرية شديدة الخضرة والصمت

الداهم حيث شفيت لويسا هناك عندما كانت مريضة وحيث ولدت ريكا بونديا وقضت
الأم وكريمتها وخادمتها عدة أشهر هناك ، وفى آخر أغسطس ١٩٢٥ بدأن السير فى
طريقهم إلى بيانوييا (حيث يوجد الجنرال مساباس سوكارأس) وبارانكاس مسقط
رأس لويسا والساحة المشنومة بالنسبة لوالدها ، وظلوا فى سفر دائم حتى أواخر العام
حيث اتجهوا إلى ريو هاتشا حتى وصلوا إلى سانتا مارتا خلال الشهور الأولى من
العام التالى^(١٤) .

ولم يأس جابريل إيلخيو ، ولكن كما كان منتظراً قدح زناد فكره ووضع
ما أسماه "بخطه المعركة" بفضل تعاون موظفى التلفزيون فى القرى التى كانت تمرىها
لويسا فقد استطاع الاتصال بها فى كل وقت عبر الرسالة الشفوية^(١٥)، كما سيفعله
تماماً فلورنتينو أريثا مع فيرمينا داثا فى "الحب فى زمن الغضب". ففى بارانكاس
- على سبيل المثال - تذكر الجميع خلال حقب متتالية مصائب هذا الحب عن بُعد. وخلال
الأشهر الثلاثة التى قضتها هناك ترانكلينا و لوسيا و الخادمة شون أقمن فى منزل
أويخنيو دى ديبوس الجواهرجى مساعد العقيد فى أوقات أخرى و الأخ غير الشقيق
للخالة فرانتيسكا ثيموبوسيا ميخيا الملقبة بالحارسة. وبفضل مشاركة هيكتور سولانو
جوميث صديق الروح لموظف البرق بأراكاتاكا كانت رسائله وخطاباته تصل فى حينها
إلى لويسا. بينما كانت تتذكر السيدة ترانكلينا مع أقاربها وأصدقائها الأوقات المأساوية
التي عاشوها فى بدايات القرن العشرين. لقد ظلت لويسا مع خادمتها شون فى المطبخ
تقرأ وتعلق على الرسائل الملونة لخطيبها، والتي كانت تُخفيها بعد ذلك فى ثنايا الموقد حتى
لاتصل إليها نظرات والدتها ومع ذلك فإن أكبر لحظات الفرح بالنسبة للخطيبة البعيدة
عن حبيبها كانت الأمسيات التى تذهب فيها إلى منزل هيكتور سولانو جوميث الذى
كان يحبه العقيد حباً أبوياً لأنه نجل صديقه الليبر الى لورينثو سولانو. وكانت كلما
دخلت الفتاة المنزل كانت تغمرها فرحة فجائية وكانت تتراقص كظبية طروب ، وكانت
السيدة ترانكلينا حائرة فى أمر نجلتها، ولا تدرى ما سبب فرط سعادتها المسائية حتى
اكتشفت ذلك ذات مساء : ففى ركن من صالة منزل سولانو جوميث كان يعلق صورة
لصديقه الكبير جابريل إيلخيو جارثيا^(١٦). وأدركت ترانكلينا أن البعد لم يستأصل
شافة هذا الحب ؛ بل ساعد على توجهه وتأججه أكثر فأكثر. وبالفعل عندما نزلن فى

سانتا مارتا من السفينة الشراعية التي نقلتهم من ريو هاتشا تنبته الأم إلى أن الخطيبين كانا على اتصال دائم، فقد كان هناك موظف البرق في أراكاتاكا وهو يرتدى أفخر الثياب منتظراً نزول خطيبته التي كانت ترتدى فستاناً وردياً .

لقد بقيت لويسا في منزل أخيها خوان دي ديوس في سانتا مارتا ولكن دون زواج إلى أن ذهبت إلى أراكاتاكا . وكان جابرييل إيلخيو يذهب لرؤيتها كل عطلة أسبوع من خلال نافذه عليها سياج حديدي بشارع ألبوثو، وقال لها إذا عادت الى أراكاتاكا فإن والديها والحارس سيفضون هذه الخطوة؛ وبالتالي فإن الإقامة في سانتا مارتا كانت صحية للغاية لكي ينمو حبهما لأنها ستسمح لها بالزواج سرّاً إذا لزم الأمر. و تحسباً لهذا الوضع ؛ فقد طلب الخطيب نقله إلى ريو هاتشا^(١٧)، وقد اتصلت لويسا براعي كنيسة المدينة الأسقف بيدرو إسبيخو (وكان أول قس مقيم في أراكاتاكا ، وكان صديقاً كبيراً لأسرة ماركيز إيجواران) لتطلب منه التشفع لدى والديها ، وبدأ الأسقف إسبيخو يطلب من سينثيه قرية الخطيب كافة المعلومات الممكنة عنه، ولما علم بأنها تشير جميعاً إلى معلومات ممتازة ومشرفة ، كتب إلى أسرة ماركيز إيجواران رسالة طويلة بتاريخ ٢٤ مايو ١٩٢٦. وقد اعترف لها أنه لامناص من ذلك فالشباب مَتيّمان ولهانان ، ومن الرصانة الموافقة على زواجهما لتفادي مزيداً من المشاكل . إنني على يقين من ذلك وأنهم س يكونان سعيدين للغاية^(١٨). وقد وافق أفراد أسرة ماركيز إيجواران على مفضض ، وتزوج الخطيبان في ١١ يونيه^(١٩) في كاتدرائيته سانتا مارتا تقريباً بعد عامين من تعرفهما في نفس المدينة .

وقد أحسّ جابرييل إيلخيو بأنه طُعِنَ في عزة نفسه ، و طلب ألا يحضر والدا عروسه. ولكن نزوات النصر بدأت تتلاشى رويداً رويداً عندما نبه بأن خطيبته لم تأت لتتزوج في القُدّاس الصغير في تمام الساعة السادسة صباحاً كما كان مقرراً ، وإزاء هرج و مرج المدعويين ، وإزاء شكوك العريس اضطر الأسقفُ إسبيخو نفسه للذهاب إلى شارع ألبوثو ليطلع على ما حدث. والأمر ببساطة يكمن في أن لويسا سانتياجا ظلت نائمة في يوم زفافها. و لم يكن أمراً غريباً عليها وإن كان غريباً في هذه اللحظة بالذات. و لذلك فقد جهزوها بسرعة ووصلت إلى الكاتدرائية لكي تتزوج محاطة بكل مراسم الشرف في القُدّاس الكبير في تمام السابعة في اليوم الذي كانت مدينة سانتا مارتا تحتفل فيه بعيد راعيها قلب المسيح المقدس .

وحينئذ أحسَّ موظف التلغراف جابريل إيلخيو مارتينيث و الطبيب التجانسي بالهواية و الشاعر و عازف الكمان أحسَّ بنشوة النصر و أقسم ألا يعود إلى أراكاتاكا مسكن الفقراء^(٢٠) كما كان يُقال . فقد قبلوا انتقاله إلى ريوها تشا وعقب الزواج بيومين رحل هو وزوجته فى سفينة شراعية إلى مدينة القراصنة والمهربين الأسطورية . ولكن العقبات فى طريق الحب بدت لاحصر لها : فالرحلة التى كانت تتم فى أقل من ليلة استمرت معظم اليوم التالى ، لأنَّ الرياح التجارية كانت تصد وتعوق السفينة الشراعية . كل ذلك كان بمثابة رمز نهائى لعامين من الحب الذى واجه صعوبات جمّة ولكنها ستلهم نجلهما " الحب فى زمن الغضب " بعد ستين عاماً تقريباً .

و كان نبأحمل لويسا هو السبب الذى يحتاج إليه والداهما لكى يشرعا فى تقليل المسافات وإصلاح الأضرار العاطفية التى تسببها فيها بمعارضتهما غير المعقولة . وبسرعة بدأ وصول الرسائل وكافة أنواع الهدايا فى سفن البريد الشراعية . وفى البداية كانت الرسائل عبارة عن توسلات ملحة لكى تعود لويسا مع زوجها إلى المنزل وبعد ذلك إزاء رفض الزوج بدأت الفواكه تتدفق أسبوعياً والحلوى والهدايا وملابس الرضيع ، وكان الشخص المكلف بإرسالها فى مدينة سانتا مارتا هو موظف الجمارك خوسيه ماريّا بالديبلانكيث أكبر الأخوة غير الشرعيين للويسا . وقد وصل فى يوم ما إلى ريوها تشا شقيقها خوان دى ديوس ومعه نبأ مرض السيدة ترانكلينا بسبب رفض لويسا العودة الى أراكاتاكا . وحينئذٍ قرر جابريل إيلخيو أن تذهب لويسا بمفردها إلى منزل والديها لتضع جنينها هناك حتى لا يحث فى وعده .

وعندما نزلّا من القطار الأصفر (قطار الحادية عشرة) صباح ذلك اليوم فى شهر فبراير ١٩٢٧ كانت لويسا فى الشهر الثامن من الحمل . وقد وصلت مرهقة ومُنهكة نظراً لطول الرحلة فى السفينة الشراعية ، والتى كانت بمثابة بغلة بحرية فضلاً عن حرّ الصيف الشديد خاصة وأن بقاء لويسا ثمانية أشهر من الحمل فى ماركيز هاتشا أدى إلى أن يسود الاعتقاد بأن النجل البكرى جارثيا ماركيز ولد فى عاصمة ريو لاجواخيرّا . لكن لا ، لقد وُلدَ فى أراكاتاكا فى أحضان مزارع الموز صبيحة الأحد شديد الحرارة فى ٦ مارس ١٩٢٧ فى تمام الساعة الثامنة والنصف أثناء حضور جده نيقولاس لقدّاس الثامنة^(٢١) .

والمولد المعلن كان على وشك التحول إلى مأساة مزبوجة ؛ فالطوى التى كانت تُرسل إلى رويوها تشا أسبوعياً والرعاية المفرطة من جانب الأم والخالات خلال الشهر الأخير من الحمل فى أراكاتاكا - فيما يبدو - كان لها تأثير عند الولادة . فعلى الرغم من أن القابلة كانت ذات خبرة ومتمرسه فى أراكاتاكا ، وكانت تُدعى لا سانتوس بيريث ، فإنَّ الطفل تعثرت ولادته وكانت الأم تنزف بغزارة ، وحينئذٍ تم استدعاء خوانا دى فريتييس إحدى نساء كاركاس المنفيات التى كانت لديها خبرة فى كل شىء ، وقامت بإجراء تمارين التنفس المناسبة للنفساء فضلاً عن التدليك الملائم لكى يُولد الطفل ووزنه ٩,٣٠ رطل وهو الذى وصل إلى الدنيا والحبلى السرى ملفوفاً حول عنقه (من هنا نشأت لدى القصاص عقدة الخوف المرضية الفطرية من الأماكن المغلقة ، والتى اضطرتة فى سنوات الرخاء والعز إلى شراء منازل ذات نوافذ واسعة لكى يدخل نصف ضوء النهار إلى داخل المنزل) حينئذٍ عادت إلى الظهور على مسرح الأحداث إحدى السيدات التى ستقرر مصيره الشخصى فرانتيسكا ثيموبوسيا ميخيا نجلة عم العقيد ماركيز التى كانت تعرف كل شىء عن المنزل ، وكانت تُقرر كل شىء : فقد أمرت بإلقاء ماء التعميد على الطفل فوراً تحسباً لوفاته . وهكذا تمَّ تعميد جابرييل خوسيه جارثيا ماركيز فى النهاية، والذى عُرف فى أسرته منذ ذلك الحين باسمه المصغر جابيتو . ولم تمض سوى ثلاث سنوات وأربعة أشهر بعد ذلك حتى عُمدَ بشكلٍ رسمى .

ولم يذهب جابرييل إليخيو إلى أراكاتاكا لكى يتعرف على نجله حتى مرور بضعة أشهر . كان مستاءً من والدى زوجته ؛ لقد أقسم فى أكثر من مناسبة أنه لن يعود إلى مسكن الفقراء إلى أراكاتاكا ، ولكن الرغبة الفطرية فى التعرف على نجله وكثرة الرجاءات والتوسلات حملته أخيراً على المجيء إلى أراكاتاكا ، ولم يكن الجو العام فى منزل والدى زوجته عادياً فقط بل كان ينم عن سعادة كبيرة وغامرة . لقد صافحه العقيد بحرارة وقدم له ما يعوضه عن الأضرار العاطفية التى تسبب له فيها خلال الأوقات الماضية: إننى على استعداد لتقديم لك كل ما يسرُّك؛ ببساطة كل ما تريد . قال له ذلك فى تواضع جم . ردَّ جابرييل إليخيو قائلاً : الأمر لم يعد يستدعى ذلك^(٢٢) . لقد أعاد الابن الأكبر لأسرة جارثيا ماركيز الصلح والسعادة إلى الأسرتين ، وبقي جابيتو

مع أجداده، وسيكون دائماً نجلاً لجدّه أكثر من كونه نجلاً لوالده ، وابنًا لجدته وخالاته أكثر من كونه ابنًا لوالدته .

ومنذ تلك اللحظة ترك جابريل إيلخيو ريو هاتشا واستقر في أراكاتاكا، وترك وظيفته بالبرق لكي يكرس جهوده لهوايته كطبيب تجريبي بفضل بعض الدراسات غير المنتظمة عن الطب التجانسي والصيدلة في جامعه قرطاجنة . فخلال إقامته الأولى أثناء خطوبته للويسا اشتهر بكونه طبيباً تجانسياً تلقائياً بسبب انتشار وباء الدوسنتاريا (الزحار) عام ١٩٢٥^(٢٣) الذي عذاه الكبار الى كارثة زمن الغضب، ولكن فترة الإقامة الأولى لجاريثا ماركيز في أراكاتاكا كانت قصيرة لأن الطبيب التجانسي المتنقل قرر الذهاب إلى بارأنكيا في يناير ١٩٢٩ ليبحث عن آفاق أفضل لمهنته التي تأثرت كثيراً بسبب الأحداث الأخيرة الدامية في مزارع الموت .

وقبل ذلك بأربعة أشهر ؛ في الثامن من سبتمبر ، كان قد وُلِدَ له نجله الثاني لويس إنريكي . لقد كان حلاً حكيماً للحياة : حيث تمكن الزوجان من اصطحاب نجلهما حديث المولد وترك جابيتو ابن العامين تقريباً مع أجداده ، فقد أصبح الحفيد مركز حب وعطف وسهاد هولاء ، وكانا لا يستطيعان معرفة طعم الحياة بدونه . وفي بارأنكيا فتح جابريل إيلخيو صيدلية وعمل في نفس الوقت بشركة سنجر . وتتابع الزيارات بكثرة بين الأسرتين . وكانت أول زيارة يعيها جابيتو لبارأنكيا بمناسبة ميلاد شقيقته مارجوت في ٩ نوفمبر ١٩٢٩^(٢٤) ، وعلى الرغم من كون عمره عامين وثمانية أشهر فقط فلم ينس الانطباع الذي تولد لديه بسبب إشارات المرور ، وهؤلاء الأشخاص الصامتين الذين ينظمون المرور بأصواتهم السحرية. ولكن الذكريات ستكون أكثر وضوحاً اعتباراً من الزيارة الثانية بمناسبة ولادة شقيقته الثانية عايدة روسا في ١٧ ديسمبر ١٩٣٠ . لقد قالت إنها ستكون راهبة ولم يتذكر جابيتو فقط العيادة ، والشقيقة التي وُلِدَت مؤخراً بل أضواء المدينة المبهرة التي كانت في أحلى ثيابها بمناسبة الأعياد . فقد كانت طائرة صغيرة كديك كبير تطلق فوق المدينة بصورة حلقات دائرية وقد فُتِنَ الطفل الذي كان في الرابعة من عمره بالطائرة العجيبة : وحينئذ سَمِعَ شخصاً ما يتسأل ماذا يحدث، وقد أجابت والدته بأنهم كانوا يحتفلون بمرور الذكرى المئوية الأولى لوفاة بوليفار. وكان جابيتو سنوياً لا يرحم ، وسعد كل السعادة لهذه الإجابة لأنه

اعتقد أن الأمر يتعلق بالزبد ماركة بوليفار^(٢٠). وبعد ذلك حكى له جده نيقولاس ديل كارمن ماركيز إيرنانديث الذي كان يعرف بوليفار و هو لا يزال طفلاً. و عندما بلغ جابيتو السابعة من عمره اصطحبه جده ليتعرف على قرية سان بيدرو أليخاندريينو حيث توفي محرر أمريكا اللاتينية .

ولكن قبل هذه الرحلة الخالدة الى بارانكيا حدث اللقاء الأول الذى يعيه جابيتو مع والدته . ويرى بعض كتاب سيرته الذاتية أنه تعرف عليها وهو فى الخامسة من عمره، ولكن الكاتب صرح بأنه يستحيل عليه تحديد عمره بالضبط عندما حدث ذلك. كما استحال إيضاح تلك اللحظة مع والدته . ومع ذلك فقد أكدت السيدة لويسا - على عكس ما أكده نجلها- بأنها حضرت تعميد جابيتو ومارجوت سوياً فى كنيسة أراكاتاكافى ٢٧ يولييه ١٩٣٠ . مما نستطيع أن نستنتج منه أن جابيتو قد يكون تعرف على والدته فى تلك الأيام وعمره ثلاثة أعوام ونصف تقريباً . وعلى أية حال ؛ فإن اللقاء كان فى إحدى اللحظات الواضحة والمبهرة من طفولته ويتذكره دائماً على أنه مشهد سابق من "الورقة الساقطة " : "لقد دخلت وكانت أمى جالسة على أحد الكراسى بصالة المنزل فى أراكاتاكافى . وكانت ترتدى فستاناً وردياً ذا كتافتين على شكل جرس وقُبعة خضراء حينئذ قالوا لى "سلم على والدك " ، وأتذكر جيداً أننى ذهلت كثيراً أنهم أخبرونى بأن تلك السيدة هى أمى . إننى أتذكرها من هذه اللحظة فقط ، لقد ظلت هذه اللحظة عالقة فى ذهنى بذلك الطيب الذى كانت قد تطيبت به، والذى لم يجد الكاتب له مثيلاً مرة أخرى على الإطلاق ؛ فحتى ذلك اليوم كانت الفكرة لدى الطفل بالنسبة للأم تكمن فى كونها شخصاً متعددًا موزعاً بين الجدة ترانكلينا والخالات أليبرا وفرانثيسكا ووينفريدا ، ومنذ ذلك الحين لم تعد لويسا سانتياجا إحدى السيدات المترددات على منزل الأجداد ، وبدأت العلاقة الجادة فى حياتهما دون نزعات عاطفية. علاقة تتجاوز العلاقة بين الأم ووليدها لتصبح بمرور الوقت بين صديقين كبيرين يتحدثان سوياً ، ويتبادلان الحب مقترناً بجدية المزاج .

لقد عمدَ جابيتو بصورة رسمية فى وقت متأخر نسبياً بالمقارنة بما كان يحدث فى ذلك العصر ، وربما يرجع ذلك إلى أنه كان قد تمَّ تعميده فى الأسره عند ولادته بناءً على أمر فرانثيسكا. لقد شرح جارتيا ماركيز على النحو التالى مقترناً بمزاحه المعتاد . وهناك

عندما أرابوا تعميد شقيقتى مارجوت وعمرى أكثر من عامين تذكرونى وقالوا إن هذا الولد لم يُعمد رسمياً وأخزونى وأوقفونى هناك وصبُّوا الماء المثلج على رأسى . وهذا أتذكره تماماً". لقد عمَّد الاثنان فى كنيسة سان خوسيه بأراكاتاكا بواسطة الأب فرانثيسكو. أنجارتا ، ووالدى التعميد خوان دى ديوس وفرانثيسكا ثيمودوسيا وفقاً للعادة القبلية فى جواخيرا التى تُجبر أكبر أفراد الأسرة على تقديم الحماية المعنوية والمادية لأفرادها الجدد .

وعندما ذهبت السيدة ترانكلينا إلى بارانكيا لمساعدة كريمتها فى ولادة عابدة روسا راهبة المستقبل وجدت الصغيرة مارجوت هزيلة ومنطوية على نفسها وعليها الأعراض الخاصة بالأطفال الذين يأكلون الطين. كانت الظاهرة تسترعى الانتباه. فالحمل الرابع كان بلوى بالنسبة للأم إلى جانب المصيبة المنزلية بسبب تعرض تجارة جابرييل إليخيو للخسائر ، وقد أثر ذلك على الرعاية التى تلقتها الصغيرة مارجوت. حينئذٍ ثارت الجدة وقالت لنجلتها لويسا إنَّها ستأخذ مارجوت معها إلى أراكاتاكا لكى ترعاها إلى جانب جابيتو. وباستخدام المطهرات والأعشاب وزيت الخروع بدأت الجدة تعالج حفيدتها من هذا الداء ، ولكن مارجوت استمرت تتناول الطين خفية حتى بلغت الثامنة من عمرها كما ظلت منطوية على نفسها وسقيمة ومعتلة الصحة. لذلك أو ربما كانت لهذا السبب أكبر قرينة لجابيتو فى طفولته ، وقد جعلها شريكة له طوال حياته حيث جعلها فى وقت لاحق الطفلة ريبىكا بوينديا التى تاكل الطين فى " مائة عام من العزلة " .

وكانت نجلة خالها سارا ماركيز الابنة الغير شرعية لخوان دى ديوس ماركيز إجواران بمثابة شقيقتهم الكبرى . وُلدت سارا فى ١٩١٧ ولقد تربت فى منزل الأجداد لتصحح علاقة والدها الزوجية مع ديليا كبايرو التى لم تقبل الصغيرة على الإطلاق. وبالتالي فإنها إلى جانب الجدين والخالات كانت الشخص الذى عاش مزيداً من الوقت مع جابيتو فى المنزل بأراكاتاكا. لقد كانت فتاة جميلة صامئة ومنعزلة كانت كالقديسة صوفيادى لا بيداد تظهر فقط فى اللحظات الدقيقة، وفى الخامسة والسبعين عثرا عليها فى سانتا مارتا وكان ذلك توفيقاً حقيقياً لأنه بفضل ذاكرتها العجيبة تم الانتهاء من إعادة بناء وتأثيث وتسكين وتحريك كل ما يتعلق بالمنزل الحقيقى الذى ولد وترعرع فيه القصاص حتى العاشرة من عمره. فهى بمزاجها الهروب، وبلا حركات أو إشارات ؛ بل بالكلمات

الدقيقة للتعبير عما بذكرتها القوية للغاية كانت سارة ماركيز (التي أصبحت حالياً معروفة باسم القديسة صوفيا دى لا بيداد) مصدرًا مهمًا لاستكمال وتحديد - على مدى مسائين طويلين - معلومات غزيرة وفيضاة قدمتها لنا، إلى جانب لويسا سانتيجا ماركيز ومارجوت إيلخيا جارثيا ماركيز ، كما قامت بتصحيح بعض المعلومات والخطابات بصفة تلقائية عن المنزل وطفولة الكاتب .

وأثناء تلك العودة المهمة فى مارس ١٩٥٢ باع جارثيا ماركيز ووالدته المنزل بسبعة آلاف بيزو إلى اثنين من المزارعين المسنين الفقيرين عقب كسبهما لليانصيب . وقد هُدمَ معظم المنزل لإقامة منزل آخر حديث ، ولم يبق من المنزل الأصلي سوى غرفة السفرة وإحدى الغرف. وبعد ذلك ببضع سنوات ألت ملكيته الى أسرة إيريارتى أومادا التى ربحت لليانصيب أيضاً ، وقامت الأسرة فيما بعد ببيع المنزل للبلدية فى أوقات الرُخاء والشهرة لإعادة تشييد المنزل الأصلي وإقامة متحف مخصص للكاتب. ومع ذلك فإن المشروع لم يتعد بعض الأشياء المتسرعة وغير المتقنة أدت إلى إتلاف ماتبقى ، ولم يبق منه إلا القليل ، ولحسن الطالع فإن ثلاثة مهندسين معماريين هم خورخى و تاديو ولوثانو قاموا بإعداد رسالة تخرجهم عن منزل الكاتب ورفعوا اقتراحاً لإعادة تشييده كاملاً من جديد ، كما كان المنزل الأصلي فى الحقيقة^(٣٦). وبأعمال الحفر والدراسات المتعلقة بالتطور المعمارى لاراكاتا ، فضلاً عن المقابلات الكثيرة مع أسرة جارثيا ماركيز والأقارب والجيران استطاع جوستابو كاستيون وخيلبير كاربايو وخايمي سانتوس إعداد مخطط نظرى هائل مطابق للمنزل الأصلي بقدر الإمكان . وعندما رأى الكاتب نفسه هذه الرسومات والخرائط لما كان عليه منزله قديماً أقرها وكتب بخط يده هذه العبارة "أقر وأصدق على أن المنزل كان كذلك " .

وأول استنتاج ملفت للنظر هو أن منزل الأجداد هو حرفياً منزل "الورقة الساقطة " وكذلك مع إضافة بعض التعديلات الطفيفة هو المنزل فى "مائة عام من العزلة " فلم يكن من الممكن أن يكون شيئاً آخر حيث أيقظ الكاتب فيه شعوره ولاشعوره مقترناً بالذاكرة المتلذذة والعاطفية والودية بدأ فيها إعداد مكان أعماله المستقبلية . كان المنزل بساكنيه وأثاثه وقصصه ونكهاته وروائح وألوانه وأصواته كل هذا تحول بفضل الخيال الخصب والقوى للكاتب إلى قصص وحكايات خالدة. ولذلك ففى السنوات التى أعقبت

أشهر قصة لجارثيا ماركيز اعترف بعدة اعترافات كانت بالنسبة للبعض مقدمة "مائة عام من العزلة" وقد انبثقت من فكرته المتسلطة على وجدانه وهى العودة إلى منزل أجداده ، لأنهما كانا يمثلان له أكبر التأثيرات الأدبية ، وكذلك "ألف ليلة وليلة" ومنذ أن توفي جده لم يحدث له أمرٌ مهم ، وكان كل ما كتبه جارثيا ماركيز قبل ذلك قد سمعه قُبيل الثامنة من عمره^(٢٧) ، ولم يكن فقط كل ما كتبه حتى ذلك الحين بل معظم ما سيكتبه فى وقتٍ لاحق .

ومع ذلك لم يكن للطفل ولعٌ أو شغفٌ خاص بالمنزل . لقد كان ذلك فى الذكرى فى الحنين والاشتياق. لقد عاش فيها طبيعياً كشأن كل طفل يريد أن يشب ويتعرع لكى يكون مُخبراً خاصاً ويبدو كدك تراثى. ولكن المنزل كان على العكس من ذلك تماماً ، كان المنزل بمثابة الشبح فى طفولته لقد كان منزلاً مسحوراً ، كما فى رواية خوليو كورتشار حيث إن نصف غُرفه كان مخصصاً للحديث عن ذكرى الأقارب المتوفين : الخال لأثارو كوتيس الذى قَدِمَ من بايدوبار الخالة بيترا كوتيس التى تُوفيت وشعرها أبيض بعد أن تجاوزت المائة عام ، وكانت تتمرجح فى أحد الكراسى الهزّانة بالمر الذى كانت تكثر به زهور البيغونيا. وكانت ضريرة مثل أرسولا و الخالة مارجاريتا التى تُوفيت فى الحادية والعشرين من عمرها بالحمى التيفودية وهى النموذج الرئيسى لريبيكا بونديا .

وإذا كان المنزل بمثابة شبح طفولته ، فإنه سيظل الشبح الذى يختفى طوال بقية حياته ، وفى معظم كتبه ومؤلفاته. ومن ثَمَّ فإن الكاتب يعترف بأن أكبر ذكرى حية ودائمة لم تتعلق بالأشخاص بل بمنزل أراكاتاكا حيث كان يعيش مع جديه وأنه كل أيام حياته كان يستيقظ بانطباع زائف أو حقيقى ، وأنه يحلم بأنه فى ذلك لا لكونه عاد إليها بل لأنه هناك بلا عمر ، أو لأى سبب خاص كأنه لم يخرج من ذلك المنزل الضخم القديم^(٢٨). وذلك فإن جارثيا ماركيز لم يخرج قط من منزل أراكاتاكا الذى عاش فيه وتعايش معه ويتواجد فى ذاكرته وفى أحلامه بقوة كبيرة ، حتى أنه اكتشف التصدع أو الشرخ الموجود فى الجدار الذى لم يره فى طفولته والاستماع إلى الجُدُجُد (صرصار الليل) يغنى فى الفناء الذى لم يسمعه فى طفولته قط أو التطيب برائحة شجرة الياسمين التى كان الموتى يتطيبون بشذاها فى تجولاتهم الليلية بالغرف .

نظرا لرحابة المنزل وموقعه و عدم تجانس المواد التى كان يتكون منها؛ فقد كان منزلاً غريباً بالنسبة للسائد فى عصره. و كان يتكون من أربعة مبانٍ ، وفى أواخر العشرينيات شبَّ حريقٌ مروعٌ فى أحد المبنيين المشيدين بالشارع الحالى رقم ه (أو شارع مونسنيور إيسبيخو) ، وقد تحول المدخل إلى الفناء وقد أحيط بحواجز خشبية فى مواجهة شجرتى اللوز على الرصيف (انظر خرائط ورسومات المنزل فى الجزء الخاص بالصور) ، وعلى اليسار كان أحد المباني مسقوفاً بالزنك وقواعد من الطوب حيث كان العقيد ماركيز يمارس مهنته كجانب للضرائب و أمين خزانة البلدية ، وكان مكتبه يقع فى ظل شجرة طلع (شجرة السنط) ، وكان يتكون من صالة و مكتب ، وكان مزوداً بمكتب منسق ومنظم بماسكة للأوراق والمقلمة و الملفات أو حافظات الأوراق وفى أحد الأرفف بجوار دفاتر الحسابات و المجلات و الصحف ، وكان لدى أمين خزانة أراكاتاكا بعض القواميس و الكتب مثل الألفاظ الساحلية دى سوندهين حيث أبرز بحبر أحمر بعض المصطلحات الساحلية ؛ مثل غمد و سُبَات و بنات الكنو أو الكلوربريل ومصطلحات أخرى سيقوم حفيده فيما بعد على نشرها فى مختلف أنحاء العالم .

أما المبنى الثانى فقد كان مدخله يؤدى إلى ما قبل الفناء ، وكان ممراً فسيحاً يتكون من ستة أماكن يبدأ بها المنزل . وكانت أرضيته من الأسمنت ذى التشطيب الجيد اللامع ، وكان سقفه أملس من الخشب ، وكان مبنياً من الخشب وسقفه من الزنك يتكون من مستويين ونوافذ ملحقة وسياج معدنى وبلاستمرار فى " مائة عام من العزلة " فى اتجاه خيط الدم الذى نَزَف من جسد خوسيه أركاديو. ويرى منزل أسره بوينديا بشكل جيد ، والذى كان يشبه تماماً منزل أسرة ماركيز إجواران ويوجد خلاف مهم فى القصة حيث تحولت ورشة الصياغة الخاصة بالجد إلى صالة. وحقيقة الأمر أنه لم تكن هناك سوى غرفة نوم واحدة للزائرين ، وقد كان يبدأ بها الدهليز الثانى. وبها سريران نظيفان أنيقان وكرسى وحوض لغسيل الأيدي مزود بنورقه وطسته، وكانت هذه الأشياء تُكوّن أثاث غرفة الزائرين التى كان يرتاح فيها فى أيام الأعياد أسقف سانتا مارتا أو الأصدقاء والأقارب القادمون من ريوها تشا وبارانكيا وبایدوبار وقرطاجنة أو بارانكيا وفى الداخل أو امتداداً لهذه الغرفة كانت توجد ورشة الصياغة الخاصة بالجد وبها مهاريسه وتنوره وكيره ؛ تلك الورشة التى قُتِنَ بها جابيتو عندما شاهد

تذهيب المعادن أو طلاؤها بالذهب وتصنيع الحلى على شكل أسماك صغيرة من الذهب . وبعد ذلك تقع غرفة السفرة أو الطعام وتتوسطها منضدة كبيرة مستطيلة وتتسع لعشرة مقاعد وبها مكيا ل للسوائل وكرسيان مزأزان من الصفصاف ، وقد انتهى الدهليز بغرفة نوم و غرفة خزين الطعام والمطبخ دون حوائط أوجدران ، ولكنه كان محاطاً بشبكة متصلة لحمايته من الذباب والحشرات ، وكان المطبخ مزوداً بفرن الفحم وكانت الجدة والخالات يضعن فيه إلى جانب الخبز الحلو لبيعها .

وأمام حجرة السفرة (التى كانت تُستغل كصاله لاستقبال الزائرين) وورشة المجوهرات كان يوجد الفناء الداخلى وهو عبارة عن حديقة متعددة الألوان حيث كانت شمس الزوال تضىء شجرة ورد بين أشجار الياسمين وزهرة هافانا وعباد الشمس والمسك الرومى وإكليل الجبل وإبرة الراعى واسترومليا ، وكانت ترتفع من هذه الحديقة إلى عنان السماء رميديوس الجميلة فى ملاءة من الدُّيَّارة أعدتها فرناندا ديل كاريو .

وعند نهاية الحديقة وموزياً للدهليز الثانى كان يقع المبنى الثالث من هذه الأماكن الثلاثة ، وهو الذى كان مشيداً من الطوب مثل المبنى الأول ومسقوفاً بالزتك من مستويين وكانت الغرفة المجاورة للحديقة هى غرفة الأجداد حيث ولدَ جارثيا ماركيز وبها سرير للزوجية مصنوع من الأعمدة الحديدية ، وسرير طفل وحوض الغسيل الأيدى ورف وبعض أيقونات القديسين ، وكانت هذه الأشياء أول ما رأى القصاص من حين ولادته . ثم تنتقل إلى الغرفة الثانية غرفة القديسين حيث كان جارثيا ماركيز ينام مع شقيقته مارجوت والخالة فرانثيسكا ثيمودوسيا ، وكان يستيقظ كل يوم وتطل عيناه بتمعن على أيقونات القديسين الموجودين بالمحراب الأسرى المضاء بمصابيح تعمل بزيـت الذرة . وفى نهاية هذا المبنى وفى طرفه الداخلى كانت غرفة الذاكرة الواسعة الفسيحة وبها الصناديق الكثيرة المرصوفة مجاورة للحائط والمليئة بالكتب والمجلات والدُمى وبطاقات المعايدة والملابس وأشياء أخرى لا تُحصى للأسلاف من ريو هاتشا وبارأنكاس .

وبين هذين الدهليزين والحديقة كان هناك ممر زهرة البيجونيا المضىء ، حيث كانت توجد أصصها فى حوض خشبى . وكانت تجلس فى هذا الممر للتطريز فى أمسيات ماكوندو كل من أمارانتا ورببيكا بوينديا ، بينما كانتا تتنافسان للاستحواذ على قلب الإيطالى بيترو كرسبى .

وكانت مبانى المنزل المتعددة تشترك فى شيئين ؛ الأرضية الأسمنتية اللامعة، والسقف الخشبي الأملس.

وكان الحمام فى الفناء بحوضه الكبير الذى أسهم فى شهرة رميديوس الجميلة بجلساتها التعبدية الطويلة ، ثم إلى جانب الفناء توجد غرفة النجارة الريفية ، وخلف الفناء أو الاسطبل الذى كان يطلق عليه "لا روثا" كانت توجد شجرة القسطل الذى رُبط فيها خوسيه أركاديو بونديا عندما تفككت منه ماكينة الزمن ، وكان الكنيف أو المرحاض يوجد فى أقصى جوانبه. ولكن معظم هذا المكان كانت الدجاجات تستحوذ عليه والخنازير والতিوس ليتم تسمينهم لأعياد الميلاذ القادمة .

وفى منزل فسيح كهذا ملئ بظلال الماضى وسكان مشاهير ، وفى قرية بابلية كراكاتاك حيث دخلها أناس كثيرون. والأمر لم يكن يتطلب سوى الإصغاء جيداً لما تقول له الجدة والخالات والانتباه والعيان مفتوحتان إلى جانب الجد. وقد بدأ جابيتو كما ينبغى ككل طفل ، بدأ شيطاناً شقياً فريداً وإن كان التجسيد الشيطاني تمثل فى شقيقه المرعب لويس إنريكي ، وكان جابيتو يسره التمتع بشهرة شيطانية وإن كان طفلاً منعزلاً أو انطوائياً وخجولاً بسبب طريقتة المفرطة فى حبه لذاته ومكابرته فى الدفاع عن مصالحه. وباستثناء أعمال الرعب التى يمارسها ليلاً؛ فإن الصباح يبدأ بالنسبة لمطالبه فى الطعام وإذا لم تستجب تماماً لذوقه وهواه كان يترك كل الطعام الموجود ويذهب إلى السوق ليشتري ماطلبه ولم تتم تلبية : لقد كان يسأل عن كل شىء وكان يسأل الجميع. وعندما كانت تأتى زيارة للمنزل كان الطفل الذى لم يتجاوز الخامسة من عمره يتحول إلى المضيف الرئيسى ، وفى هذا العمر بدأ الطفل يسمع بإصغاء البالغ الكبير ، وقد اكتسب تحريك طرف عينيه مما كان يفتن جدته : ترانكلينا كانت تفكر أن الطفل أصيب بمرض فجأة ، وبدأت تضع له قطرة الورد ، وخلال شهوره الأولى تفاؤوا معالجته بالكورين وذلك بإعطائه نقيع نفس الزهرة. ولكن الشيطان كان يضحك بون أن يعترف بذلك : وطبقاً لما شرحه بعد ذلك فإن تحريك طرف عينيه كان يسمح له بالتقاط ما كان يتحدث فيه الكبار بصورة أدق وأفضل. وهذه على ما يبدو كانت واحدة من تلك النوادر التى يتذكرها الأشقاء جيداً ، والتى تتعلق بعودة العسكرى السابق إلى المنزل وبدئه فى تحريك كافة قصص الحرب مع جده. وكان جابيتو يجلس دائماً إلى جواره. وبدأ بتحريك طرفى عينيه واستمر فى هذه الحركة الغريبة، وعندما كان الزائر ينهض لى ينصرف وجهه

جابتو بالبكاء كأنَّ الزائر كان يظأ إحدى قدمى الطفل بأحد نعليه طوال فترة الزيارة (٢٩). ومن الممكن أن يكون الطفل قد ربط دون أن يشعره منذ تلك اللحظة بين الحذاء العسكرى وعالم الحروب والسلطة .

وعندما كان أشقاؤه يذهبون إلى منزل الأجداد لم يدخر جابتو وسعاً لكى لا يبقوا وقتاً طويلاً ، بل كان يسجل بعناية فائقة الحب الذى يوليه الأجداد لأشقائه الآخرين. وتشند هذه الغيرة لتصل إلى أقصى درجة لها عندما يتواجد أطفال من أراكاتاكا بالمنزل لمدة طويلة من الوقت : كان الشيطان جابتو يقرصهم خفيةً ثم يطلب منهم متوسلاً أن يذهبوا إلى منازلهم ليبكوا. وذات مرةً عندما أرادت المياه أن تعود إلى مجاريها أو لكى تعود إلى مجاريها؛ فقد كان يظل يسأل ويطلب بإلحاح مزعج لا ينتهى. وعندما يفيض كيل جدته تقول له : عجباً وهى تصرخ بأعلى صوتها لتملأ المنزل القديم بصراخها. إنَّ هذا الطفل شيطانٌ مريد (٣٠).

ولذلك فعندما يجن الليل كانت لديها وسيلة لشل حركته : لترويعه وتخويفه من الموتى. كانت تجلسه على كرسى وتقول له : لا تتحرك من هنا وإلا ستأتى الخالة بيترا الموجودة فى غرفتها أو الخال لاثارو الموجود فى حجرته أيضاً (٣١). وكان جابتو يظل بلا حراك ويتنفس فقط على أنغام الأرواح المستوطنة وكذلك على أنغام تمايل غصون شجرة الياسمين وعصافير الفناء ، كان يظل على هذا الحال حتى يحملونه إلى سريره فى غرفة القديسين حيث يستمر الكابوس ويتزايد نمواً واتساعاً ويتعمق عالم الأشباح الذى كانت جدته تروعه به دائماً. وبهذا الشكل يظل قلقه وهمه حتى يبدأ الصباح الجديد فى نسج خيوط ضوئه التى كانت تدخل عبر سياج النوافذ لتطرد الأرواح المخيفة التى كانت تروعه بها جدته .

وفى أول حكاية لجارثيا ماركيز "الاستسلام الثالث" سنجد طفلاً فى السابعة من عمره - من منطلق الموت والحياة - سيببلغ الخامسة عشرة من عمره ، وهو فى تابوت حتى يتحول إلى ميت روحى ومجرد. وفى "الورقة الساقطة" كان الطفل فى الحادية عشرة من العمر يجلس على كرسى طوال الوقت أمام جثة طبيب قد انتحر. وبعد ذلك فى "شخص ما أخلَّ بتنسيق هذه الورود" كان الطفل قد أصبح روحاً تجلس على كرسى

منتظراً. إن هذا المنظر وتلك الصورة ستتكرر كثيراً في معظم كتبه ومؤلفاته تتنوع وتتعدد حتى الوصول إلى ميلكيادس الشخصية الرئيسية للبنية الأسطورية - الزمنية في "مائة عام من العزلة". إنها صورة الأهوال الليلية التي كانت جدته تروعه بها والتي لم تتركه ينعم بالراحة قط وربما لحظة التكوين الأكثر خصوصية في أعماله الكبرى.

وكانت ترانكليتا إجواران كوتيس لا تزال الجدة النشطة رقيقة الحس والعينين الرماديتين اللتين بهما ماء أزرق وشعرها أبيض أو ذابل وبه فرق في منتصفه ووجها العقابى الأعقف وينتهى شعرها بكعكة تتدلى على جيدها الأبيض. كانت ترتدى ملابس الحداد وشبه الحداد وبها زركشات خافتة ، وكانت تجوب المنزل من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل كالنسيم العليل وهي تغنى وتعطى أوامرهم للآخرين : " أعدوا اللحم والسّمك لأنه لا أحد يعرف ماذا يريد أن يتناوله القادمون " إن هذه الجملة ستسمعها على لسان أورسولا إجواران تعطينا فكرة عما كان عليه مطبخ ذلك المنزل المضيف الذى كان يتردد عليه زائرون من جميع الطبقات والفئات. ولكن بما أنها سيدة نشيطة لم تسرع فى شىء وقد كانت تتحرك بهدوء مذهل لأنها ربما فى قليل من الأحيان كانت تطأ الأرض : لم تكن مملكتها فى هذا العالم. وبالتالي فلم تُعر اهتماماً لما يقوله الأحياء مثلما تفعل مع الأموات. وعبثاً حاولت فرانثيسكا تيمودوسيا ميخيا إخبارها بالحياة الحقيقية للرجال بادئة بزوجها نفسه : "أيتها المنجمة أنت امرأة جبانة " كانت تقول لها دائماً إن نيقولاس يخونك مع سيدات أخريات وأنت لا تدرين^(٣٢)، ولكنها لم تتغير ، لقد كانت مشغولة بالحدود الفاصلة ، التى كان يصطدم عندها الأحياء والأموات وتحافظ على الأسرة بخرافاتها. وعلى سبيل المثال كان ينبغى عليها مرافقة الأطفال ليناموا قبل أن تنطلق أرواح الموتى ، وإذا مرّت جنازه وهم نائمون أيقظتهم حتى لا يموتوا مع المتوفى الذى يمر أمام منزلهم. وكانت تحاول جاهدة ألا تدخل فراشه سوداء المنزل لأن هذا يعنى ببساطة أن أحداً سيموت من أفراد الأسرة ، وإذا كانت فراشة أخرى فان ذلك يعنى أن المنزل سيستقبل زيارة وراعاها ، وأنها كانت تحاول دائماً تفادى سوء الحظ محاولة بكل ما أوتيت من قوة ونشاط ألا يقع الملح ، وأنها إذا سمعت ضوضاء غريبة فإن ذلك يعنى أن الساحرات دخلن المنزل ، وإذا شمت رائحة الكبريت فإن ذلك يعنى أن الشيطان قريب جداً^(٣٣) ، ولقد ورث الحفيد جانباً كبيراً من قاموس خرافاتها فضلاً

عن هول الموت. وعموماً فإن عالم الفانتازيا والخرافات أو الخز عبلات يكونان الأرضية الخصبة لخيالات جارتيا ماركيز .

إن سرعة التصديق والطبيعة الفانتازية للجدّة مرتبطتان دون أدنى شك بماضيها الجواخيري (الريفي وانحدارها من أصل جاليثي). ويصنَعُ تماماً على شخص جواخيري معرفة الحدود الفاصلة بين الأحياء والأموات. وفضلاً عن ذلك فإنه يُعدُّ واقعاً مستوطناً في أمريكا اللاتينية وقد استطاع جارتيا ماركيز أن يكتب "مائة عام من العزلة" عندما أخذ في الاعتبار - إلى جانب أشياء أخرى - أن جدته وخالاته لم يكن وحدهن اللاتي يعشن في عالم الخيال والفانتازيا ، بل أيضاً معظم الكولومبيين والأمريكيين اللاتينيين .

وهكذا كانت السيدة ترانكلينا تغنى طوال اليوم وتهذى ، بينما الحفيد لم يتوقف عن الأسئلة والاستفسارات. " جدتي من هو مامبرو وإلى أى حرب ذهب ؟ ولم يكن لديها أدنى فكرة عن ذلك ، ولكنها شحذت خيالها وأجابت بثبات ورباطة جأش : "لقد كان رجلاً كافح وناضل مع جدك في "حرب الألف يوم"^(٣٤) . وكما هو معروف فإن مامبرو الأغنية الشعبية القديمة (التي كان يغنيها جد جابيتو بإعجاب شديد) هو الدوق مامبرو نفسه، وعندما حاول جارتيا ماركيز إدراجه كشخصية فانية وسريعة الزوال في قصصه ورواياته وخطاباته فضل رواية الجدّة على الرواية الحقيقية. وهذا هو السبب في ظهور مارلبورو متكرراً على شكل نمُر حيث خسر جميع الحروب الأهلية الكولومبية إلى جانب العقيد أوريليانو بوينديا .

وفي صرامة منقطعة النظير ورداً على أسئلة لا حصر لها لحفيدها أشارت الجدّة إلى كل أنماط القصص الخيالية المكتظة بالأموات. لقد كانت تتحدث بصوت كان يبدو كهمس قادمٍ من عالم بعيدٍ جداً : عالم أبطالها. وبينما حكايات الجد واقعية وكانت مليئة بالأموات الذين توفوا من الواقع فإن حكايات الجدّة كانت أهلة بالأموات الذين كانوا حيون ويحاولون جاهدين تخفيف حدة وحدتهم باحثين عن الأحياء مثل تلك الماركيزية ذات الشعر الطويل التي ماتت بداء الكلب وهي في الثانية عشرة من عمرها ظلت تعيش بين الناس بمعجزاتها الكثيرة في جميع أنحاء العالم .

وفى ذلك اليوم الملى بالنسوة فإن ترانكلينا - إلى جانب إصدارها للتعليمات والأوامر - كانت تقوم بأشياء محددة مثل الطهو عندما لم تكن هناك خادمة ، ودائماً كانت على رأس المخبز المنزلى الذى اعتبرته تخصصها دون منازع ، والذى كان سبباً فى شهرتها كخبازة ممتازة لا تُضارع فى المنطقة ولم تهتم بالأطفال تقريباً إلا لإبلاغهم بأخبار الموتى ولتغنى لهم أغانى من وحى خيالها ووجدانها عندما كانوا يكونون أو عند ذهابهم للنوم . لقد كانت أغانى تحكى حكايات وكان جارثيا ماركيز يتذكر إحداهما دائماً تلك التى كانت عبارة عن حوار بين عاشقين يتبادلان الشكوى لهذا فلم تقتصر ضرورة السرد فقط على حكاياته ؛ بل أيضاً تجاوزتها إلى أغانيها . لقد كان نفس الأصل السردى فى ألف ليلة وليلة الأغانى الشعبية والفولكلورية والتى ستفتن وتؤثر فى قصاص المستقبل .

ومن هنا فإن العمات هن اللانى ريين جابيتو : إلبيرا كاريو وبياث ووينفريدا وناثا وخاصة فرانثيسكا تيموديو سيا ميخيا العمة ماما كانت إلبيرا شقيقة وتوأم إستيبان كاريو ، وقد وُلدت فى بارانكاس فى نهاية القرن التاسع عشر وقد وصلت الى أراكاتاكا وهى فى العشرين من عمرها حيث احتفى بها والداها وكذلك ترانكلينا التى اعتبرتها دائماً ككريمةها ، كما اعتبرت كأنجالها أيضاً الأبناء الكثيرين غير الشرعيين لزوجها نيقولاس إجواران ، وبالتالي كان على إلبيرا أن تتصرف كابنة محبوبة لترانكلينا التى كانت ترعى العجوزة مينا حتى ماتت فى سوكري وهى فى الرابعة والثمانين من العمر . أما الخالة باث فكانت لها سلطة موزعة فى المنزل ليس فقط بسبب شخصيتها بل لأنها الوحيدة التى كانت تجيد أشياء كثيرة: كانت تقضى اليوم تطرز فى ممر زهور البيجونبا، وكانت تنظف المنزل وتحفظ الملابس من العتة بوضع النفتالين كما كانت تراقب سلوك الأطفال و تُعدُّ الحلوى على شكل نجوم وجياذ صغيرة لتبيعها . وعلى العكس من ذلك كان وجود وينفريدا محدوداً حيث كانت تعيش فى منزل آخر مع زوجها خيسوس كينتيرو ولكنها كانت إحدى عمات المنزل وإحدى سيداته ، وكانت تمارس سلطاتها ونفوذها بفضل حياتها فى منزل آخر وتميزت بأنها كانت شقيقة روح نيقولاس ماركيز .

وكانت العمة ماما هى صاحبة الأمر والنهى فى المنزل ، وقد فاقت سلطتها سلطة كل من العقيد نيقولاس وزوجته ترانكلينا . لقد كانت السيدة المتسلطة عقيدة المنزل فهى لم تكن

فقط التى تعرف وتقرر كل شىء بل كانت أكثر النسوة نشاطاً . إنها لم تتزوج فقط لأنها وجدت لها بديلاً للزواج ألا وهو تفانيها من أجل الأسرة ، كما كانت أحد أفراد الأسرة الأسطوريين : لقد رافقت أسرة ماركيز دى إيجواران فى نزوحها من بارانكاس إلى أراكاتاكا فى نهاية الحقبة الأولى من القرن التاسع عشر. وكان والداها خوسيه ماريا ميخيا بيدال وتيريسا دى ديوس مما أضفى عليها صفة القرابة من الدرجة الأولى مع العقيد كما جعلها أختاً لأب لأويخينيو ريوس صانع بارانكاس والذى ورث من نيقولاس فن وحرفة الصاغة .

إنها من كارمن دى بوليفار حيث نشأت مع ابنة عمه فرانثيسكا ثيموبوسيا^(٢٥) لقد كانت سمراء ذات قامة متوسطة وبنية عادية وكان شعرها هندياً وتصففه إلى الخلف وينتهى بضفيريّتين طويلتين كانت تحولهما إلى كعكة عند الخروج الى الشارع . لم ترتد ملابس ملونة على الإطلاق بل كانت ملابسها سوداء أو شبه سوداء تقريباً مثل ترانكلينا ويلوزات بثلاثى كم ، وكانت تسير فى المنزل منتعلة خف وتستبدله أحياناً بحذاء طويل مغلق بزازير عندما تخرج من المنزل لقد كانت نشيطة كثيرة الصياح متسلطة وفى أوقات الضيق والضجر كانت تتفوه بشتائم لاحصر لها دون أن تكثرث بمن يتلقى هذه الشتائم وهذا السباب ، ومع ذلك كان قلبها كبيراً . لقد ملأت المنزل بالأبناء والمتبنين وكانت كريمة مع الزائرين ، تقدم لهم مختلف العصائر من الفواكه والبسكويت والجبن الساحلى والحلوى المكونة من الجوافة مرة المذاق وحلوة المذاق التى كانت تصنعها بنفسها .

ولم تكن تكف عن الحركة لحظة واحدة وخاصة أنه كان منوطُ بها الاهتمام بالأطفال وتوجيههم . لقد كانوا شغلها المفضل : كانت تحمّيهم فى النهر ، وتطعمهم وتلبسهم ، وتوجههم فى عمل واجباتهم ، وكانت ترافقهم إلى الكنيسة والتساييح فى المساء وكانت تحرسهم فى نومهم عن قرب. لقد كانت تنام فى نفس غرفة القديسين مع جابيتو ومارجوت والمراقة سارة ماركيز. وكانت فرانثيسكا بعد أن تقوم الجدة ترانكلينا بالغناء لهم وتحكى لهم الحكايات وتوجههم فى صلواتهم ، وعندما ينامون كانت تجلس على كرسى من الجلد بجوار المحراب الكائن بالغرفة حيث توجد تماثيل لكل من سان خوسيه وسانتا ريتا من الجص وصورة لقلب السيد المسيح وتمثالاً للسيدة العذراء كانت قد أحضرته من بارانكاس. وعلى الرغم من أنها كانت تذهب يومياً إلى الكنيسة

فقد كانت تصطحب الأطفال أيام الأحد فقط ، وخاصة جابيتو لى يرافق القس أنجارتا فى القدّاس. ونظراً لتدينها الشديد وتفانيها من أجل الأبرشية كان لها شرف حفظ مفاتيح المعبد معها وكذلك مفاتيح المقابر والحفاظ على المحارب فى الأعياد الكبرى ، ومع ذلك فكان لديها مزيد من الوقت لى تكسب قوتها وتسهم فى الاقتصاد المنزلى فكانت مثل ترانكلينا إلبيرا تصنع الحلوى من اللبن والجوافة وجوز الهند لبيعها .

ولم يتذكرها جارثيا ماركيز فقط لكونها سيدة لا تكل ولا تمل وواسعة الأفق والخيال ، وهى التى ربته بل أيضاً لكونها السيدة الحكيمة التى تحمى القرابة كلها. كانت كاثوليكية تماماً وتؤمن بالخرافات والخزعات مثل ترانكلينا ولكنها كانت تختلف عنها فى كونها تقف على أرض صلبة ، وكانت خبيرة فى الثقافة الشعبية ، وعلى الرغم من كون الصورة الموقرة كانت نموذجاً لأورسولا إجوران فإن شخصية العمة ماما أضفى كل سماتها على أورسولا إجوران. إن عظمة شخصيتها لاتقل عن شخصيه أورسولا فى ماكوندو وقد اجتازت هذه العظمة كافة الحدود الأسرية. وفى يوم من الأيام جاءت فتاة ومعها بيضة فيها نتوء. ولم يستطع أحد فى أراكاتاكا أن يشرح لها هذه الظاهرة إلا العمة الحكيمة العارفة فرانثيسكا فبعد أن فحصت البيضة بتمعن وتوعدة قالت "إنها كانت بيضة لأفعوان خرافى وطلبت أن توقد النار فى الفناء وتُحرق"^(٣٦). لم يفهم أحد شيئاً وقد استجيب لطلبها فى الحال .

وبهذه الطريقة الطبيعية والخيالية وبهذا الجلد كانت تواجه أمور الحياة حتى فى المواقف والأمور غير المألوفة والمأساوية وهذا ما أسماه الكاتب "وجه الجلد والثبات" . وحيث حكى الحكاية الفانتازية بون أن يتغير وجهها أو ملامحها. وهذا هو المصدر أو المورد الأدبى الذى استغله جارثيا ماركيز فبفضله كتب بعد ذلك بثلاثين عاماً "مائة عام من العزلة" ولأنه تبناه كأحد المفاتيح الأساسية لفنه السردى.

وعلى الرغم من الموقف الدرامى الذى ماتت فيه العمة ماما فإن ملامح وجهها لم تتغير حتى نهاية حياتها . وبما أنها لم تعرف الحياكة ولم تستطع الجلوس خلال أيامها الأخيرة بسبب مرض كلوى مؤلم فقد طلبت من ألبيرا كاريو أن تطرز لها كفتها^(٣٧). وعندما أوشك الكفن على الانتهاء طلبت منها معروفاً أخيراً : وهو إعداد المحراب لإقامة

صلاة الجنازة عليها عند موتها. وقد استجابت العمة لكل ما طلبته خطوة خطوة : ففي المكتب القديم للعقيد ، والذي تحول إلى غرفة نوم للنقاها وضعت أولاً ملاءة بيضاء على الحائط وبجوارها منضدة ، ثم وضعت شمعدانين كما أمرتها المحتضرة. هذا فضلاً عن تمثال المسيح وصورة قلب المسيح وتمثال العذراء المفضل لديها أى عذراء الكارمن . مثمًا فعلت ماما جراندى وكذلك المنتقمة والغامضة أمارانتا بوينديا (التي أعدت كفنها بنفسها فى مائة عام من العزلة) توفيت العمة ماما دون أن تتزوج ، وبالضمانة السوداء التى تدل على عذريتها دون أن تتخلى عن إصدار تعليماتها وأوامرها الأخيرة .

وكان لجابيتو مع جده اتصال وتفاهم كامل. ففي الوقت الذى كان عالم الجدة والعمات يصيبه بالحيرة وكان غالباً ما يسبب له الرعب فإن عالم الجد كان يمهده بالأمن والطمأنينة . وكلما قالت له الجدة أو العمات شيئاً غريباً غير مألوف كان الجد يقول له : "انس هذا فإنها معتقدات نسائية"^(٢٨) وعلى الرغم من الأمان الذى أمده به جده إلا أن الفضول كان يدفعه ليعرف شيئاً عن عالم الجدة . فقد كان عالم الجد ينتمى إلى الأشياء التى تحدث فى الواقع تاريخياً وتتصف بالترتيب والتدرج؛ أما عالم الجدة والعمات فكان على طرف نقيض من ذلك ، لقد كان عالماً خيالياً مليئاً بالخرافات والخزعبلات وتميز بالركود الزمنى والسير فى حلقات مفرغة ، وقد سادته القياس الظالم والمنطق المعكوس الذى كان الطفل يعجز تماماً عن استيعابه وفهمه بسهولة ويسر ، كما كان يستوعب ويفهم ما يدور فى عالم جده. ولذلك فإن الحفيد كان يريد أن يكون مثل جده بطلاً واثقاً فى نفسه ومنظماً. ولكن المفارقة الغريبة فإن حياة الكاتب جعلته يميل إلى جانب جدته أكثر من جده. فعلاقته بهما ستكون فى كل حالة متشعبة ومختلفة الأمر الذى سيكون له تأثير ملحوظ ليس فى قصته " الورقة الساقطة " و" مائة عام من العزلة " بل أيضاً فى نفس بنيتهما المكانية - الزمنية .

لقد كان العقيد نيقولاس ريكابو ماركيز ميخيا الشخص الذى أثر كثيراً فى مشاعر جارتيا ماركيز. فقد قال عنه: "إنه الشخص الوحيد الذى استطاع الحديث معه فى طفولته ، والذى كان يتفاهم معه جيداً. إنه أهم شخص فى حياته ، ومنذ وفاته لم يحدث له شئ مهم ، حتى إن سرأء حياته وهو كبير هى سرأء وسعادة غير كاملة لأن الجد لم يعلم بها"^(٢٩) . وقد اعتاد جارتيا ماركيز أن يرثى حظه لأن الحياة لم تسمح لجده بمعرفة إنجازات حفيده المفضل .

لقد كان الجد وحفيده الرجلين الوحيديين في منزل مكتظ بالنساء ، وقد أدى هذا إلى تعزيز وتقوية صداقتهما وشراكتهم. وبما أنه كان عسكرياً سابقاً كان ينادى حفيده قائلاً : "يانابليونى الصغير" وكان الطفل ينادى عليه يابابيليو . وعندما بدأ الطفل يدرك مدى الشراكة بينهما كان الجد فى الثامنة والستين من عمره لقد كان قشتالياً أصيلاً ومتوسط القامة أكرش عريض الجبهة وذا ابتسامة قليلة طيبة ، وكان غزير الشارب وأشيب الشعر كان يستخدم نَظَّارة شنبورها من الذهب وكان أعور العين اليمنى لأنه فى يوم من الأيام وهو يتأمل حصاناً أبيض فى ورشته بارأنكيا فقد عينه فجأة بسبب الرمى .

وعلى الرغم من طلعه المهيبه كعسكرى سابق كان نيقولاس ماركيز ذا خلق طيب كريم الصفات ، وكانت كلماته متزنة ودقيقة كانت تعرف طريقها إلى لب الأشياء وجوهرها . كان عملياً ومنظماً وذا تحضر فريد أو منقطع النظير. كان أنيقاً فى ملبسه دائماً وخاصة فى المناسبات الكبيرة ، عندما كان يرتدى أفخم حله بصديرى ورباط عنق على الرغم من الحر الخائق. وكان يحمل فى أحد جيوب الصديرى ساعته الذهبية تتدلى منها سلسلة كانت تعبر بطنه الكبيرة . أما قمة أناقة مظهره فكانت تمكن فى حلاقتها الدائمة لذقته واستخدامه للكلونيا. وكان أكولاً نهماً لامتثل له على الإطلاق وكان زئراً مفرطاً للنساء^(٤٠) استناداً لما يقوله حفيده. فالأبناء الكثيرون غير الشرعيين (تسعة عشر ابناً يؤكد القصاص أنه تعرف عليهم فى التيسار ولاجواخيرا عندما كان يبحث عن جذوره وأصوله) وهؤلاء سيكونون سبب إلهامه فى السبعة عشر ابناً غير الشرعيين للعقيد أوريليانو بوينديا ، كما أن نهمة الكبير بالأطعمة سيكون نموذجاً يُحتذى فى الأكلات البطولية لخوسيه أركاديو وأوريليانو سيجوندو . ومن حين لآخر وخاصة فى أعياد الميلاد كان يظهر فى أراكاتاكا بعض البراعم المنتشرين فى منطقة الكاريبي الواسعة ، وكانت ترانكلينا تحتفى بهم كما لو كانوا أنجالها تماماً وهذا ما ستفعله أوردولا إجواران مع الأبناء غير الشرعيين للعقيد أوريليانو بونديا .

لقد كانت استقامته ووجاهته ومهنته كجانب للضرائب بالدائرة وأمين لصندوق البلدية ، وصراعاته السياسية فى صفوف الحزب الليبرالى ، وشهرته الكبيرة كعقيد قديم واتصالاته الجيدة جعلته أحد البطارقة الأقوياء والمحبوبين فى أراكاتاكا وكان ذا شجاعة أدبية وسياسية لا جدال عليها. لقد كانت ليبراليتها نقية متأصلة ، وفيما يتعلق

بالقضايا الأيدولوجية فقد كان عنيداً في آرائه كما في مسائل الشرف تماماً : وكانت أكبر الإهانات التي تعرض لها في مساء خلال شهر أبريل عام ١٩٠٨ عند ما تجرأ ميدرادو باتشيكو وكال له السباب والشتائم وقال له : "إنه وصمة عار في جبين حزينا الليبرالي ، وكان يسير مع حفيده ماسكاً يده وشغله الشاغل هو أن يرى أشياء أو يسرد له بعض الأمور. وقد عرف جابيتو بواسطة جده قرية أراكاتاكا والعالم الخارجي والتاريخ بأمجاده وأحداثه الصغيرة والرجال الذين سطوروا هذا التاريخ . كان يأخذه من يده ويسير به في الشوارع ذات التراب الخانق وأشجار اللوز الحزينة لمشاهدة أفلام تومي ميكس وأفضل عروض السيرك في كولومبيا التي كانت تنصب خيامها في أراكاتاكا ، وكان أصحاب ملاهى السيرك يأتون بفعل جاذبية زراعات الموز المزدهرة هناك. وقد استطاع الحفيد مشاهدة كثير من الحيوانات التي كان يراها في الكتب الفكاهية أو في النصوص المدرسية. وفي إحدى الليالي عندما عاد إلى المنزل بعد أن شاهد الجمل ذا السنام الواحد بالسيرك أخرج الجد القاموس وشرح للطفل ذى السنوات الست : "هذا هو الجمل ذو السنام الواحد ، وهذا هو الفارق بين الجمل والفيل"^(٤١) أى أنه أعطاه أول درس عن حديقة الحيوان وعلم تأليف المعاجم . وفي كل مرة كان الفتى يسأل ويتعلم الجد كان يقول الصبى دائماً " لنر ماذا يقول القاموس " ومن هنا نشأت هواية الكاتب بالقواميس والموسوعات. لم يترك الجد سؤالاً أو أى شيء يقلق الطفل ولو كان صغيراً إلا و كان يجيبه عليه ، وبينما كانت الجدة تكلمه بأرواح وأشباح المنزل في تمام السادسة مساءً كان الجد يرد مسروراً على كافة أسئلته ومطالبه ، وذات مرة والطفل في الخامسة من عمره عاد إلى المنزل وقال لقد رأيت توأ مرجاناً صلباً كالأحجار في مكتب أمن شرطة الموز. وشرح له الجد أن الأسماك كانت تبدو كالأحجار لكونها مجمدة. وقد سأل جابيتو ماذا تعنى كلمة مجمد فأجابه قائلاً : إنهم وضعوا الأسماك في الثلج ، ولكن الطفل سأل ما هو الثلج ؟. حينئذ أخذ الجد حفيده وذهبا إلى مكتب أمن الشركة القريب من المنزل وفتح صندوق سمك المرجان وجعله يرى الثلج^(٤٢). وظل ذلك عالماً في ذهن ووجدان الطفل لسنوات طويلة تختمر في ذاكراته صورة الثلج والجد يأخذه من يده لمشاهدة السيرك والصور الأصلية في "مائة عام من العزلة " .

ومن أهم الذكريات التي لا تمُحى لدى الكاتب إلى جانب جده تلك الرحلات التي قاما بها فى مركبٍ شرعى إلى جزيرتى كوراثا وأرويا عندما كان العقيد يذهب لشراء العطور والقمصان الحرير^(٤٣). وقد قام بهذه الرحلات فى المركب أورورا عبر نهر ماجدلينا صوب بارأنكيا. وكانت هذه الرحلة على وشك أن تكون مأساوية لأن جابيتو وهو فى السادسة او السابعة من عمره سمع من الكابينة بالمركب الضوضاء عندما كان الجد يدافع عن نفسه بسبب مناقشة سياسية ضد بعض الرجال الذين أرادوا القاءه فى النهر^(٤٤). وكمرات كثيرة طوال حياته ومنذ ولادته كانت المأساة تطرق بابه دائماً دون أن تجرؤ على الدخول .

وكانت أهم رحلة قاما بها سوياً - دون شك - إلى سان بيدرو أليخاندرينو فى سانتا مارتا لكى يتعرف الطفل على الهيكل الوطنى الذى مات عنده سيمون بوليفار (محرر أمريكا اللاتينية) ، وكما رأينا فإن الطفل قبل أن يبلغ الرابعة من العمر سمع اسم بوليفار فى بارأنكيا وعندما بلغ السادسة رأى تمثال بوليفار بعد وفاته فى النتيجة الحائطية للجد واسفل الصورة بعد أبيات الشعر الساذج التى جاء فيها : إن سانتا مارتا أعطته قطعة من الشاطئ ليموت عليها ، وعندما وصل جابيتو وهو فى السابعة من عمره برفقة جده للتعرف على سان بيدرو أليخاندرينو كان أول شيء سأل عنه تحت ظلال أشجار التمر الهندى : أين هذا الشاطئ الذى ذكرته تلك الأشعار؟. وبما أن والد جده كان قد عرف بوليفار فقد شرح له الأمور وجعل من صورة والد الوطن أسطورة^(٤٥) واعتباراً من هذه الأمور وبعض التفاصيل الأخرى المتراكمة ظهر الاهتمام القصصى للكاتب بشخصية المحرر بوليفار. وعلى الرغم من كل هذا فإن أهم اللحظات الراسخة فى ذهن الكاتب منذ طفولته كانت الزيارات التى اصطحبه فيها جده إلى مزارع الموز الضخمة ، وهما مدهولين بالصمت الذى يخيم عليها ، وذلك للاستحمام فى مياه نهر أراكاتاكا أسفل مرتفعات سيراً نيفادا فى سانتا مارتا ، وبالطبع فإن ذاكرة الكاتب المتعطشة دائماً للجديد استحوذت إلى الأبد عليها صورة تيار المياه الشفافة المتدفقة شبه المثلجة التى كانت تنساب عبر الأحجار الضخمة البيضاء اللامعة النظيفة وكأنها بيض ماقبل التاريخ وعندما كانوا فى طريق العودة ، والصمت الرهيب يخيم على زراعات الموز ؛ صمت سحرى قاتل فى " مائة عام من العزلة " وفى " الحب فى زمن

الغضب " ولم يقطع هذا الصمت سوى غناء بعض الطيور وكان جابيتو وجده يسمعان هذا التغريد ، وكان يحكى له عن المذنب هالى ، وعن العصور الذهبية لأراكاتاكا وكان يكرر له تفاصيل مذبحة مزارع الموز ، وكذلك ألف قصة وحكاية عن "حرب الألف يوم" والمعارك التى اشترك فيها واليوم الذى كان على وشك أن يلقي عليه القبض فيه ويعدم مع رفاقه ، والأصدقاء الذين ماتوا خفية ، والجرحى المحتضرون اثنان منهما فى مستشفى الإسعاف وهما اللذان أعدما رمياً بالرصاص ، وكذلك صديقه العقيد ألونسو بلاتاس الذى أعدمه المحافظون فى صباح مشنوم منذ بضع وثلاثين سنة بالقرب من منزل بارأنكاس .

وقد ظلت القصص تغلى فى ذاكرة الكاتب ، ثم عاشت فى خياله وهى التى كانت سبباً فى اثنين وثلاثين حرباً أشعلها ثم خسرها العقيد أوريليانو بوينديا . ولكن لب هذه الحروب لم تحصرها ذاكرته فى هذه المعركة أو تلك الموقعة المربعة ، ولا حتى فى شخص جده الوقور ولكن فى صورة ثانوية : إثر جرح لرصاصه فى أعلى فخذ الجد وقبيل وفاته بعامين جاء الطبيب ليفحصه إثر وقوعه الخطير على السلم . لقد توقف أمام أثر جرح الرصاصه وسأله عن سببها فقال له : إنها رصاصه حرب^(٤٦) . وقد كانت بالنسبة للعقيد بمثابة الإيضاح التام للماضى الأسطورى والبطولى للجد .

وأحياناً أخرى كانا يتجولان متوقفين حتى الحدود الفاصلة بين أراكاتاكا الفوضوية والفقيرة ، والمنازل الفردوسية التى تحيط بمنازل الأمريكيين العاملين فى الشركة المتحدة للفواكه . لقد رأى الطفل فى العالم الآخر فى "مائة عام من العزلة" الذى أطلق عليه فى تهكم أدبى الحظائر الكهربائية ، المنازل الجميلة المكيفة وحمامات السباحة التركوازية ومظلاتها للوقاية من شدة الحرارة ، التى تنتشر فى المناطق السندسية الخضراء حولها وملاعب التنس بها ، وكان الرجال والنساء والأطفال لونهم أحمر كالجمبرى يتنزهون بها مرتدين ملابسهم الرقيقة أو الداخلية أو كانوا يستريحون على كراسى من الصنم من الصنم تحت مظلاتهم . وأحياناً أخرى كن يخرجون من الحظائر الكهربائية وهن مرتديات للفساتين من القماش الموصلين الرقيق وقبعات من نسيج شفاف . سيدات ذات ضحكات رقيقة وعيون تنظر إلى عالم آخر . مثل التى تجاسرت ذات مساء وخرجت فى سيارة مكشوفة برفقة كلب من فصيلة الذئاب فى شوارع حى الفقراء فى أراكاتاكا . وقد مرت بين حشد غفير من العيون التى شاهدها من خلال التراب

المتناثر في الجو والحر الخائق ، وكان من بين تلك العيون عينا طفل في السادسة أو السابعة من عمره ، وهو الذي ظل مفتوناً بجمالها الصارخ إلى الأبد فضلاً عن قدرتها الهائلة وغرابتها^(٤٧). وهكذا قبل أن يتعلم القراءة فإنَّ الطفل المفكر الصامت المنعزل في أراكاتاكا بدأ يرى العالم الحقيقي لجدّه وعالم الأشياء التي تحدث حيث يوجد محور تقدمي أو تخلفي لأن البعض ينعمون بكل شيء وآخرون لا يجدون شيئاً ، البعض يأمر وينهى والبعض الآخر يؤمر ، لأنَّ البعض يعرف كل شيء والبعض الآخر يجهل كل شيء ، وفي هذا التقدم أو التخلف الكل يشترك في المساوية سكان المدينة المحرومة ؛ سكان الحظائر الكهربائية لأنهم المسؤولون عن الإضراب المساوي عام ١٩٢٨ لقد غيَّروا مجرى النهر حيث كان الطفل يستحم مع جدّه ، والأدهى من ذلك والأمر أنهم غيَّروا للأبد مجرى تاريخ القرية وأهلها .

ولذلك فإنَّ الأشياء التي كان يرويها ويحكىها العقيد ماركيز لحفيده أمدته بتفاصيل لا حصر لها كانت الأساس ليقظته السياسية والفكرية. كما كان الجد يقرأ لحفيده أنباء الصحف وكان يشرح أى شعار يصعب عليه مثل المحافظ يولد والليبرالي يصنع ، ومع ذلك فقد كان أثناء الحكومة الليبرالية لأوليا إيريرا (١٩٣٠ - ١٩٣٤) وجابيتو لا يزال طفلاً حيث اغتاز مستاءً من نظام الحكم في بلاده عندما جاء مندوبو الحكومة إلى أراكاتاكا لجمع التبرعات لتمويل الحرب المساوية المضحكة ضد بيرو وقد أخذوا دبلتي زواج جدّه وجدَّته حينئذ بدأ جابيتو يفتح عينيه . وفكر في نفسه ربما يكون أحد قد اخترع فكرة الحرب ضد البيروانيين لكي يسرق من أجداده وجميع مواطني بلاده دبل زواجهم^(٤٨) .

وسرعان ما كان العجوز يتوقف في منتصف شارع أثناء تجولاته المسائية مع حفيده الذي كان لا يزال في السابعة من عمره ، وقد اعترف له الجد قائلاً بعد أن صدرت عنه تنهيدة عميقة : أنت لاتعرف مدى ثقل قتيل في ضمير ووجدان شخص. وإذا كان أثر الجرح الناجم عن الحرب هو أهم الأشياء التي فتنت الحفيد بجدّه فإن هذه العبارة ستؤثر فيه كثيراً. وهذا يؤكد أن هذين الأمرين كانا يمثلان المأساة العظمى للجد ؛ جروح الحرب وحديثه عن الموت. واعترف جارتيا ماركيز بأن تأثير سوفكليس هو السبب في وجود الموت بشكل متسلط في أعماله^(٤٩). إن هذا يعتبر نصف الحقيقة لأن النصف الآخر يكمن

فى المأسى التى عانت منها كولومبيا وكذلك جده قبل الأستاذ اليونانى . كما رأينا لقد كانت "جرب الألف يوم" المأساة الأهلية الأكثر دموية فى تاريخ كولومبيا (إلى جانب الفترة المسمّاة بعنف الأربعينيات والخمسينيات) ولقد نقل الجد هذه المأساة إلى حفيده. ومن ناحية أخرى فإن الجملة التى يعترف فيها العقيد "أنت لا تعرف مدى ثقل قتيل فى ضمير ووجدان الشخص" !. لقد ظلّ شبح المرحوم ميدرانو باتشيكوروميرو عالماً بذهن العقيد ، وهو الذى اضطر الجد لقتله فى بارأنكاس فى مبارزة بينهما ، وبهذا الشكل ويمرور السنين تفهم الحفيد رويداً رويداً شخصية الجد الموقر بهدونه ونظامه وسلطته ، فقد كان مُحاطاً بمأساتين لا فكاك منهما : إنه أحد الباقين أحياء بكرامته على الرغم من هزائمه نفسها. ولقد فهم الحفيد أيضاً أنه ومصيره كانا نجلين لهذه الهزائم القديمة ، لأنه من هذا المنظور قَدِمَتْ أسرة ماركيز إجواران إلى منطقة زراعات الموز بعد تلك المبارزة المشنومة فى بارأنكاس لكى يتزوج موظف التلغراف من طفلة أراكاتاكا الفاتنة ، وينشأ ويتعرع جابيتو مع الجد حتى سن العاشرة من عمره فى ذلك البيت القيم الضخم الملىء بالأحياء والأموات. ولم ولن يعرف العقيد نيقولاس ماركيز على الإطلاق أن هزيمته المزدوجة ستتحول إلى انتصار جمالى خالد ودائم فى قصص الحفيد .

وفى تعداد الشخصيات التى شهدتها طفولة جارثيا ماركيز نجد أن الأجداد والعَمَّات ووالديه وأشقاءه والخدم وبعض الأقارب هم بلا شك أهم الشخصيات إن لم يكونوا الأشخاص الوحيدين فى طفولتهم. وكانت أراكاتاكا كبايل حيث كان يقيم بها بعض الأشخاص ويعود إليها الغرباء سواءً من المواطنين الكولومبيين أو الأجانب والذين سكنوا أو استوطنوا ذاكرة جارثيا ماركيز وسيخدمونه فى ابتكار شخصيات أخرى أو على الأقل رسم وجوه أو تخطيط ملامح نفسية محددة .

لقد كان البعض مجهولاً تماماً مثل تلك المرأة التى جاءت وقد حرقته حرارة الشمس يرافقتها الفضول الاجتماعى ومعها طفلة فى يدها وياقة من الزهور لتضعها على قبر نجلها ، بينما كانت الشائعة تنتشر فى أراكاتاكا بأسرها "ها هنا جاءت أمُّ اللص"^(٥٠). إن هذه السيدة الوقورة التى ظلت مجهولة تماماً خلّدها الكاتب فى قصة "قيلولة الثلاثاء" ، التى كان الكاتب يعتبرها طوال عدة سنوات أفضل رواياته. أو تلك السيدة الأخرى من الجيران التى هربت مع عشيقها ولكى تخفى حولها الفضيحة الأسرية قالت

إن حفيدتها اختطفها رياح المساء^(٥١). ولكن الذين فتنوه تماماً هم الأطباء الدجالون الذين كانوا يستخرجون الديدان من الأبقار بصلواتهم السحرية ، أو ذلك الرجل الذي أدخلوا له ضفدعاً فى كرشه ، أو مقطوع الرأس فى ميدان بوليفار الذى ظل راكباً حماره بعد أن ضربت رأسه ضربة واحدة لسبب تافه .

أما الآخرون فمعظمهم معروف الاسم كانوا لا ينتمون إلى عالم الأحياء مثل الميت الذى كان يقطن المنزل المجاور لمنزل أجداده والمشهور بمنزل الميت وإن كان ساكنه قد أفصح عن اسمه الحقيقى فى جلسة تحضير للأرواح^(٥٢)، فكل الناس كانوا يطلقون عليه اسم "الميت" وليس ألفونسو مورا. لم يكن روحاً مأساوية ؛ بل كان هادئاً بعيداً كل البعد عن حركات التملق للموتى الآخرين ، لقد كان يعيش حياته الثانية بفلسفة مثلما فعل برودينثيو أجيلار فى "مائة عام من العزلة". لقد سُمِعَ فقط وهو يسعل أو يُصفر فى جانب من الجوانب ، وإذا التقى به أحدُ فجأة لم يكن الأمر يتعلق بارتكابه خطأ الخروج إلى الشارع أو الذهاب إلى منزل الجيران. لا ، حدث هذا لأن هؤلاء تَجَرَّأُوا واقتحموا منزل الميت الأعزل . بنفس صرامة وجلد جدته ترانكلينا وعمته ألبيرا كاريو فيها أكثر من استماعهم إلى الميت وهو يسعل أو يصفر فى جانب من الجوانب. لقد وصفه جارثيا ماركيز لكى يوضح للعقلانيين كيف تم لقاءه وهو طفل صغير مع الميت : ذات يوم والشمس ساطعة مررت بالمنزل المجاور لمنزلنا لمطاردة أرنب وحاولت اللحاق به فى الكنيف أو المرحاض حيث اختبأ . دفعت الباب ولكن بدلاً من الأرنب رأيت الرجل المطعون بالسكين جالساً على الكنيف حزناً ومفكراً شأنه كشائنا جميعاً فى تلك الظروف لقد تعرفت عليه فوراً ؛ ليس بسبب أكاماه التى شمرها حتى المرفقين ، ولكن بسبب بياض أسنانه الناصع لشخص زنجى أو ملون كانت تضىء فى الظلام^(٥٣) ، ولكن أكثر الأمور دهشة لم يكمن فى أن الميت كان يعيش فى المنزل الكائن على الناصية ولكن فى مشاركته لشخص آخر فى المنزل وهو راعى الأبرشية فرأنثيسكو . ت . أنجارتا الذى استأجره رغم كافة التحذيرات واستطاع أن يروض روح الميت بعد عدة جلسات لتحضير الأرواح ، وإن كان الميت لم يكف على الإطلاق عن السعال والصفير من حين لآخر ، وهذا ما أكدته الجدة ترانكلينا لآليساندرو روبيليس كتانيو عندما قام بزيارتها فى أوائل الأربعينيات فى المنزل نصف المهجور : لقد سألتها حينئذ عن الميت الذى كان

يخرج على الناحية المقابلة على الرغم من وجود راعى الأبراشية الذى استأجر المنزل واستطاع طرد الجان الذين كانوا يسكنون الغرفة ، وقد ابتسمت بهدوء وقالت : إن هذه الكوايس لا زلت أتذكرها ، ولم أنسها على الإطلاق. وهكذا وقد كتمت الضحكة وأشارت لى على قطعة الأرض المجاورة التى لم يستطع بصرها الوصول إليها الضعفه وقالت لى بخبث ودهاء : هناك يصفرون دائماً وأنا أحس بذلك فى كل لحظة...^(٥٤) وعلى الرغم من ذلك فإن حياة الأب أنجاريता كانت أكثر دهشة من حياة شريكه فى المسكن. لقد وصل أنجاريता كراع جديد لأبرشية أراكاتاكا فى منتصف ١٩٢٨ وقد بدأ ممارسته لعمله بتعميد جارثيا ماركيز . لقد كان بطيئاً صفيق الجلد وكان يسير مستنداً على عكان ، وكان أنجاريता - مثل الأب أنجيل والأب أنطونيو الياويل - واعظاً أخلاقياً متشدداً ، وبه مسحة من الهذيان والهرءاء. لقد كان يتكلم فى دروسه الدينية عن المضمون الأخلاقى للأفلام ، وفتحة الفساتين الفاضحة على صدر النساء ، أو عن تقويم بريستول أو عن سعر الموز وبالنسبة للفتيات العاقات فقد كان يوبخهن. أما العقلاء مثل جابيتو الذى كان أحد خدام قداسه فكان يكافئهم بأجزاء من القرايين وكان يعد جابيتو وقرناء جيله للاعتراف بمناسبة قربانهم الأول وذلك من خلال قاموس الخطايا . كان يستجوبهم بعمق وترتيب بالنسبة لأفعالهم ونواياهم عما إذا كانت لهم علاقة بالنساء أو مع الحيوانات . وعندما كان فى الواقع ممسكا بمرأة بين الصفحات ليتأمل بمهارة زى الفتيات اللائى تمررن أمام المنزل : وإذا خرجت إحداهن بفتحة صدر واسعة أو بتتورة موعزة كان يؤنبها ويوبخها فى الدرس التالى تلميحاً لا تصريحاً دون أن يذكر اسمها. ولكن هذا لم يكن إلا عارضاً خفياً لرغبته وشهوته الجنسية التى لا تُشَبَّع : إن الأب أنجاريता مثل كل رجال القرية كان يستعين بنساء لقضاء حاجته وإشباع رغبته الجنسية ، ويقال إنه بالغ تماماً فى حكايات الميت لترويع الأطفال الذين كان يدفعهم فضولهم إلى مراقبته والتلصص عليه عندما كان يحاول إشباع رغباته الشهوانية والجنسية . ومع ذلك فإن أنجاريता استطاع الاستحواذ على قلوب أهل أراكاتاكا ، لا لكونه تشدد فى قداساته كسلفه فى المنصب الأسقف إيسيبخو ، بل لأنه استطاع إكمال وإنهاء بناء الكنيسة التى كان قد بدأها الأسقف إيسيبخو فى مطلع الحقبة الثانية من القرن العشرين ، وكذلك لموقفه الجريء والثابت أثناء أيام القمع والاضطهاد التى تلت مذبحة العمال فى ديسمبر ١٩٢٨ :

وعندما ارتاب فى أن جنود كارلوس جارثيا بارجاس سيُعدمون المضربين المسجونين فى أراكاتاكّا بالرصاص دخل معهم السجن . إن هذه الفضاعات وغيرها للقمع العسكرى فى منطقة زراعات الموز كانت مشهورة فى جميع أنحاء كولومبيا بفضل التقرير الذى أعده الأب أنجاريثا بنفسه وأرسله إلى البرلمان الليبرالى : خورخى إليثير جايتان فى منتصف العام التالى^(٥٥) .

وفى الناصية المقابلة لمنزل الميت ، والقطرية مع منزل جابيتو كان يعيش شخص آخر سيترك له أثراً خالداً : الطبيب الفنزويلى أنطونيو باربوسا . الذى نفته ديكتاتورية خوان بيتينس جوميث والذى جاء فى أوائل الحقبة الثانية من القرن العشرين وأصبح طبيباً وصيدلياً لقرية أراكاتاكّا ، ولكن بمرور الوقت هجر مهنته ولاذ بالكسل فى إحدى صالات منزله . كان باربوسا يصنع اللوثيونات وبعض المعاجين والمراهم والدهانات. كان رجلاً عاقلاً رزيناً ورصيناً وصديقاً كبيراً لأسرة ماركيز إجواران ، وكان ضعف أعصابه يجعله لا يتحمل الأطفال ولا يطيقهم. ومع ذلك كان يسعد بالألعاب جابيتو ولويس كورثيا جارثيا اللذين استطاعا أن يجعلاه شريكاً لهما ، حتى أنهما كانا يتنافسان على من يعرف الأدوية أولاً على أرفف الصيدلية حيث كان الصيدلانى يقوم بنفسه بتغيير أماكنها يومياً على الأرفف. ولم تكن هذه الألعاب ساذجة فى مجملها لأن الصيدلية ستعرض فيما بعد فى العديد من كتب ومؤلفات كاتب المستقبل ، وخاصة أن هذا المنزل كان والداه يتبادلان فيه الرسائل أثناء فترة خطوبتها المحظورة ؛ إنه المنزل الذى جاء ذكره فى "الورقة الساقطة " حيث سيعيش وسيبتحر وسيسهر على جثة الطبيب الفرنسى النباتى الغامض. كما أن الدكتور باربوسا نفسه سيكون جزءاً من هذا النموذج لتلك الشخصية ، فقد أسهم فى تكوين الخيال الأوروبى للكاتب لكى يتمثل فى شخصية البلجيكي السيد إيميليو . لقد وصل الفرنسى كما كانوا يلقبونه فى أراكاتاكّا فى أواخر الحقبة الثانية قادماً من الأنتيل وهو جريح فى إحدى ساقية ويعكازين فى يديه ، فاراً من رعب وأحوال الحرب العالمية الأولى التى كان قد شارك فيها. لقد كان يصنع الجواهر مناضد اللعب ، كما كان صديقاً كبيراً لجديّ جابيتو وكان يشارك العقيد فى الهوايات الحرفية اليدوية الفنية ، كما كانا يلعبان الداما (من ألعاب الورق) عندما يحل المساء. وبعيداً عن الحى الأرستوقراطى الأوروبى وحى الفقراء فى أراكاتاكّا وفرت لهم القرية

الأمن والأمان والطمأنينة . وذات يوم سبت فى المساء ارتكب خطأ شنيعاً عندما ذهب لمشاهدة فيلم " لا جديد على جبهة القتال " مما أثر فيه إلى أبعد حد حيث كان تجسيدا هائلاً للحرب العالمية الأولى ، وكان تكراراً لها، وكان مرةً سجلت أحداثها كما هي فشاهد ويلات الحرب مرةً أخرى ، تلك الحرب التى سببت له عجزاً جسدياً وعقلياً إلى الأبد ، ومات وقبل أن يتناول سم السيانيد ترك مذكرة توضيحية : " لا تتهموا أحداً لقد انتحرت لكوني مغفلاً" (٥٦) .

ولم يذهب العقيد فى اليوم التالى إلى قدّاس الثامنة لكى ينظم له جنازة تليق به فى أرض المنتحرين ، وبالعادة اصطحب جابيتو معه وكما عودنا دائماً استطاع جابيتو أن يستثمر تلك المناسبة أدبياً: فلم يتحول السيد إيمليو البلجيكى بشكل جزئى إلى النباتى الغامض والطبيب الفرنسى فى " الورقة الساقطة " بل أيضاً أحياء من رقادته مرة أخرى فى قصة " الحب فى زمن الغضب " باسم خيريمياس دى سانت أمور اللاجئ الأنتيلى مُعوق الحرب ومصوّر الأطفال .

وقد بقيت فى ذاكرة طفولة الكاتب بعض الشخصيات القليلة مثل مواطنة كاراكاس خوانا دى فريتيس التى هربت مع زوجها من خوان بيثينتى جوميث . لقد كانت المستشارة القانونية لشركة القابلات سانتوس بيبروس عندما ولد جارثيا ماكيز حيث أنقذت حياة الطفل والأم وكانت إحدى القابلات ذات الموهبة الأدبية للكاتب. لقد كانت الشخصية الأولى التى حكّت له حكايات الأطفال دائماً حيث كانت تقوم بتحديثها له على طريققتها. وفى صالون منزلها وأبوابه المتحركة. وكان المنزل امتداداً لمكتب أمن الشركة المتحدة للفواكة. كانت العجوز البيضاء البدينة تجلس على كرسى هزاز من النباتات المتسلقة كل مساء لكى تروى لأطفال أراكاتاكا القصة المؤثرة ذات الرداء الأحمر التى كانت قد التهمها نثب فى كاراكاس يدعى خوان بيسينتى الفاريت ، أو قصة الساحرة ذات الرماد التى فقدت حذاءها الزجاجى فى حفلة فردوس كاراكاس ، أو القصة السارة " الجميلة النائمة " التى كانت تنتظر أميرها المستيقظ فى ظلال شجرة الماهوجنى فى كاراكاس (٥٧) ، وبالنسبة للقصص الكلاسيكية كانت خوانا فريتيس الهائلة تضيف عليها شيئاً جديداً ، حيث كل شىء يحدث فى مدينتها التى تشناق إليها .

لقد شبَّ جارثيا ماركيز حينئذٍ بنظرة مثالية وأدبية عن العاصمة الفنزويلية حيث وُلِدَ سيمون بوليفار ، والتي شهدت أموراً لا يمكن تصديقها . قدم منها أناس نوو شأنٌ وهائلون مثل أسرتى باربوسا وفريتيس أو مثل أسرتى ليونى وبيتانكور ، وكذلك أسرُ بارزة قدّمت بعد بضع سنوات رئيسين لجمهورية فنزويلا . ومن العجيب كما سنرى ففى كاراكاس وفى اليوم الأول من شهر يناير ١٩٥٨ سينضج لدى جارثيا ماركيز موضوع خريف البطريق وهو موضوع رآه الطفل فى أراكاتاكا إلى جانب جده بشكل ما كما قابل محاربين مختلفين آخرين والمنفيين الفنزويليين البارزين .

لقد عاش الصغير جابرييل خوسيه فى عالم أدبى أو ما قبل الأدبى تماماً فى عالم خيالى وعجيب وساحر ، فقد كان ينتقلُ من منزله إلى منزل الأرواح ومنزل الميت وهو المنزل المجاور ماراً بمنزل خوانا دى فريتيس ومنزل السيد إيميليو ثم انتقل سريعاً إلى منزل الإيطالى أنطونيو داكوتى فاما .

وكان داكوتى كبقية المهاجرين الأوروبيين القادمين فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وهو الذى أدخل السينما الصامتة فى أراكاتاكا والدراجات بالإيجار والفونوجراف وأول أجهزة استقبال الراديو ، وهى أسباب كافية لكى يقوم جارثيا ماركيز بتخليده فى " مائة عام من العزلة " باسم بييرتو كريسبى أكبر فاعل خير فى ماكوندو . كما أن مصيره كرجل ثرى ومسرف انعكس على حياته الغرامية لقد كانت له زوجتان شقيقتان ، وأعظم مافى الأمر هو أنهما كانتا متفاهمتين معه جيداً ، وفيما بينهما أيضاً وقد كانتا تتبادلان الأنجال لتر بيتهم ، وكانت إحدهما تربي الإناث والأخرى تربي الذكور . ولم يبق داكوتى فى ذاكرة الكاتب فقط لكونه ثرياً وهائلاً ؛ بل أيضاً بسبب الأرواح التى كانت تسكن منزله ذا الأربع نواصى . وكانت أهم تسليات جابيتو المفضلة وأصدقائه لويس كورثيا جارثيا وفرانكو بيدال هو التلصص على السلوك غير المرئى وغير المتوقع والفكاهة السوداء للأرواح التى استحوذت على منزل الإيطالى .

وخلافاً لما كانت عليه أرواح الكاريبى الكولومبية كانت هناك أرواح من الجان فاعلى ومحبى الخير حيث كانت تساعد ملاك البيت فى الأوقات العصيبة ، أما أرواح أراكاتاكا فقد كانت أرواحاً شريرة شقية تحب اللعب ، وتسكن أعماق المياه وكانت تتسلى بقيامها بكافة

أعمال الشقاوة المزعجة بالمنزل. لم تكن أكثر من ذلك : أرواح شعبية ولكنها محبة للخير ؛ فقد كانت تجبن اللبن وكانت تغير لون أعين الأطفال ، وتصيب الأقفال بالصدأ أو كانت تتسبب في الأحلام المعقدة المتشابكة. ومع ذلك فقد كانت هناك فترات يتغير ويتبدل لديها المزاج لأسباب لم تفهم أبداً. وكانت في تلك الأثناء تقوم بإلقاء الأحجار على المنزل الذي يعيش فيه^(٥٨).

ومثلاً فعل الدكتور خويينال أوربينو في الحب في زمن الغضب كان جارثيا ماركيز يقضى الساعات البطيئة لطفولته متأملاً هذه الأرواح بدهشة شبه تصوفية ، ولكنه كان يختلف عن شخصيته حيث ظل يؤكد برباطة جأش منقطعة النظير أنه شاهد تلك الأرواح تقذف منزل أنطونيو داكونتي بالأحجار ؛ أى منزله الخاص وبعد مرور ستين عاما سأل لويس كارميلو كورثيا - بالاحتياط العقلاني الذي بداخلنا - عما إذا كانت هذه القصة حقيقية أعنى قصة الأرواح. ولم يتردد الآخر في الرد بأن كل هذا كان حقيقية راسخة تماماً ولكن جابيتو وحده هو الذي عاد يتذكرها.

وكلمة واحدة مع جان دى ألف عام ليس فقط سبب اشتقاقه الذي سيصل إليه من خلال إحدى الشخصيات التي اعتادت زيارة منزل الأجداد: رامون جارثيا مقول العمال في مزرعة موز ماكوندو .

وعلى الرغم من أن جارثيا ماركيز قال بعد ذلك بسنوات طويلة إنه لا يزال يتذكر أحداثاً من الطفولة مع صديقه في مرحلة ما قبل الولادة لويس كارميلو كورثيا جارثيا فإنه قد سمع اسم ماكوندو لأول مرة وهو في الخامسة من عمره في مكتب أمن الشركة المتحدة للفواكه من المحتمل بل ، ومن المحتمل جداً أنه كان قد سمعه من قبل في نفس منزله ، فقد كان رامون جارثيا يزور أسرة ماركيز إجواران بكثرة وكان ينزل ضيفاً عليه كلما زار أراكاتاكيا لحضور أعياد عزراء لاكاندلاريا في الثاني من فبراير ، ولكن من المحتمل أيضاً أنه سمع هذا الاسم بداية في ظروف أو مناسبات أخرى ولأسباب مختلفة ، لأن كلمة ماكوندو كانت في نفس الوقت اسم شجرة أو لأحد ألعاب الحظ أو لقرية في بيبياخى .

وكانت ماكوندو مزرعة تابعة لشركة الفواكه المتحدة . وكانت مساحتها ٣٣٦ هكتار على ضفاف نهر أشبيلية على مقربة من قرية تحمل نفس الاسم ولكنها كانت

تابعة لاختصاص جواكامايال إحدى مأموريات ثينانجا القضائية ، التى أسست عندما أنشئ خط السكة الحديد وعندما بدأت زراعات الموز فى فجر القرن العشرين ، ولقد ظلت جواكامايال تذكر على أنها قرية قوم لوط بالمنطقة (سدوم) ، وقد استشهد بها جارشيا ماركيز فى "جنازة الأم الكبيرة" عند الإشارة إلى عادات جواكامايال . ولكن كما رأينا أيضاً كانت مقراً للحركة الفكرية والسياسية التى تزعمت الإضراب العام فى ١٩٢٨ ، وعلى الرغم من ذلك فإن أكبر إسهام لجواكامايال هو اسم مزعتها القديمة للموز ، والمكان يتسم بالخضرة الدائمة كما هو الحال فى ضواحي أراكاتاكا ، ولذلك فعندما كان يراها جابيتو من خلال القطار أثناء رحلاته مع أجداده وعماته إلى ثينانجا وسانتا مارتا وبارانكيا وماكوندو كانت تبدو له امتداداً طبيعياً لأراكاتاكا بزراعات الموز فيها ، وأشجار الأرز الأمريكية والمانجو ، والجوافة ، والسنط ، وأشجار الأرتينة الأمريكية ؛ وهى شجرة يبلغ طولها ٢٠ متراً ، وأوراقها تشبه كف اليد ، وأزهارها حمراء ، وثمارها مخروطية الشكل .

ولاسم ماكوندو قصة عريقة فى القدم يستحيل تتبعها بكافة التفاصيل ، وخطوب الدهر حتى الوصول إلى الكاريبي الكولومبى . ولكن مما هو معروف فإن الاسم قادم من أفريقيا الوسطى - الشرقية من لغة البانتو الألفية " اسم لجنس من الزوج الأفارقة وللغاتهم " . وكلمة ماكوندو مشتقة من لغة البانتو ماكوندى ، وهى جمع للاسم ليكوندى ، وهو اسم الموز فى تلك اللغة ، والتى يترجمها أفراد جنس البانتو "بغذاء الشيطان" (٥٩) .

وقد وصلت الكلمة مع العبيد الأفارقة خلال القرن السادس عشر لكى تصل فيما بعد إلى ساحل الأطلسى الكولومبى ، ويبدو أن العبيد حافظوا عليها خوفاً من انقراض لغتهم الأصلية عندما أطلقوا كلمة ماكوندو أوليكوندو الموز الذى هو أحد الفواكة الأساسية فى غذائهم . وبمرور الوقت أصبحت الكلمة تُطلق على شجرة فى شمال دائرة ماجدلينا حتى الحقب الأولى من القرن العشرين . وكان الماكوندو يُطلق أيضاً على المعديات أو القوارب (والتي وصفها الصيدلانى بونبلاند خلال حملة هومبلدت إلى أمريكا الجنوبية) بأنها شجرة سميكة ، أما أفرعها الوقية فإنها تبدأ فى الانقسام بعد ٢٠ متراً ، ومع ذلك فهى قليلة أوندرة ، وأوراقها كثيفة . أما جذعها فهو أخضر أشهب ، وفى الساق حلقات قائمة رقيقة تتناوب مع أخرى بيضاء عريضة .

ونظراً لطواعيتها ؛ فإن السكان الأصليين وشركة الموز قد أسرفوا في استخدامها في صناعة القوارب وأحواض العجين ، والأطباق ، وكافة الأدوات المنزلية والزراعية ؛ وبالتالي فإنه اعتباراً من حقبة الثلاثينيات انقرضت شجرة الماكوندو تقريباً ، ولم يبق منها سوى بعض الأشجار في سلسلة جبال متفرعة من سيراً نييادا في سانتا مارتا^(٦٠).

وجدير بالذكر أنه أثناء ازدهار أشجار الماكوندو في المنطقة فإن منزل أو ضيعة ماكوندو كانت شجرتان عملاقتان في فنائها ، وبالتالي فإن هذا المصطلح تحول إلى اسم مكان ، ثم أطلق أيضاً على الطريق الذي شُيّد في هذا المكان ، ولكن قبيل تشييده كانت هناك قرية أخرى تحمل نفس الاسم ، وكانت تابعة لاختصاص مركز بيبياخاي المجاور.

وتُسمى بماكوندو أيضاً إحدى ألعاب الحظ التي كانت شائعة في منطقة الموز أثناء المهرجانات والأعياد الإقليمية. لقد كان على غرار البينجو حيث كانت العجلة على شكل دوامة أو نحلة سداسية الشكل ، ويختلف وجهها تماماً: شمس وقمر وأرض ونجم ومنزل وماكوندو (ويمكن أن تتغير الأشكال من منطقة إلى أخرى) وتُمثل الأشكال الست في ست خانات متساوية على مفرش من القماش ، حيث كانت تُوضع المراهنة. ويتم ممارسة اللعب بتشغيل الدراجة أو النحلة على طبق ، ويفوز بالمراهنة الشكل الذي يظل أفقياً. كما يُشير بذلك الاسم ، وكان شكل الماكوندو هو الذي يفوز بأحسن الجوائز مشيراً بذلك إلى صعوبة الوصول إلى قيمة هذه الشجرة نظراً لنعومة ساقها الطويل وسمكها ، وقد يصل الطول إلى أربعين متراً.

وبهذا الشكل ؛ فإن الظروف التي سمع فيها جابيتو لأول مرة اسم ماكوندو يمكن أن تكون متنوعة ومختلفة لأن اختلاف مدلولاتها يجعل لها حضوراً دائماً في كلمات سكان منطقة زراعات الموز. وعلى أية حال فإن جارثيا ماركيز يعترف بأنه سمع اللفظ وهو لا يزال في الخامسة من عمره لأول مرة في مكتب أمن شركة الفواكه المتحدة التي كانت تقع على الناصية المقابلة لمنزلة، وأنه بعد دفع مرتبات عمال مزرعة ماكوندو وصل القطار إلى محطة أراكاتاكا أيام السبت الساعة الثامنة صباحاً لكي يقوم بالمهمة نفسها مع عمال المنطقة هنا ، وقبل أن يخرج القطار من ماكوندو كان مدير مكتب أمن الشركة

يُعلن أن القطار سيتحرك ليستعدوا في تلك اللحظة. وكان مدير مكتب أمن الشركة ريكاردو كوريا يصيح في الشارع قائلاً: هياً بنا إلى المحطة فقد غادر القطار ماكونيو.

وأياً كان المكان واللحظة التي سمع فيها جابيتو هذه الكلمة لأول مرة ؛ فإنها ستستقر في ذاكرة المؤلف المستقبلي " لمائة عام من العزلة " مع نسمة ما بعيدة مقترنة بلغز رثان على أنغام أفريقية.

ومن الممكن أن يكون هذا العالم المليء بالعجائب والشخصيات الغريبة والمفتونين بالكلمات الرنانة المشبعة بالحنان كانت قد فتنت أوسلبت لب الصغير جابرييل خوسيه ، وأيقظت فيه الاهتمام بتعلم القراءة والكتابة ، لأنه من المفارقات ألا تكون هذه من الأمور القليلة جداً التي لم يتحمس لها كثيراً. أمّا الرسم فقد كان أكبر هواية وأعظم شغف سيطر على عقل ووجدان الطفل وهو لا يزال صغيراً في كنف جده. وكان الرسم هو الشكل الوحيد للتعبير عن أفكار جارتيا ماركيز حتى تعلّم الكتابة وهو في الثالثة عشرة من عمره ، وكان يرسم طوال الوقت ، وفي أي وقت ، وعلى أي سطح كانت الجدة تهذي بجوار سرير الطفل الذي لم يكن يكف عن تشرّيخ الحوائط والأبواب والأرضيات ، وحتى جنوع الأشجار ؛ فالجد لم يكن يسمح له فقط بهذه الشقاوات ؛ بل كان يحاول جاهداً أن يوفر له تشكيلة من الأوراق وأقلام الرصاص لكي يمارس هوايته.

بدأ جابيتو يخط خطوطاً وأشباح أشخاص في فناء المنزل بأي قطعة من العصا ، وظل يرسم أشخاصاً بلا ملامح في أوراق الكراسية التي كان قد أعطاهها له الجد. وفي السادسة من عمره أصبح يرسم كل شيء وفي جميع الأماكن. وبالطبع كان يشق الصور الفكاهية للصُحف والمجلات حتى كان يملأ كراسية كاملة في مساء واحد. وكانت تسليته المفضلة نون هواة هي رسم رأس المرأة التي فصل الساحر ريتشاردين رأسها في السيرك. وقد كان هذا الساحر القادم من أعماق كولومبيا أحد الشخصيات الكبيرة في طفولة الكاتب ، ويسبب تأثير سحره بالسيرك أقدم على كتابة أعماله الدرامية بدمية من القرع العسلى والتي كان يحقنها بسائل أحمر. وكان جابيتو وأصدقاؤه يمثلون في فناء المنزل دور المرأة التي فصل الساحر رأسها عن جسدها ، حيث كان جابيتو وحده يقوم بدور الساحر ريتشاردين.

وبفضل هذا العالم العجيب الذى أحاط بجاييتو ، وشغفه ، وولعه بالرسم الذى استمر معه حتى أصيب بالحصبة الأدبية وهو فى الصف الثالث الثانوى ، وحتى تلك اللحظة لم يبد جاييتو أدنى اهتمام أو اشتياق لى يتعلم القراءة والكتابة. وفى قرارة نفسه كان الكاتب يتذكر ذلك قائلاً: "كنتُ أعرف أن ذلك سيحدث فى يومٍ ما كشىء من صنوف القدر ، فمعرفة الكتابة لم تكن شيئاً مقدساً بالنسبة لى". وعدم معرفته القراءة أو الكتابة فى طفولته كان يتذكره دائماً على أنه أحد الأحاسيس الأكثر غرابة فى طفولته. وبعد أن تخطى حاجز الأبجدية على يد معلمته روسا إيلينا فيرجسون بدت الحياة له وكأنها أرض جدباء ، وفيما بعد كمستعمرة من الكلمات.

وكانت روسا إيلينا فيرجسون فاتنة وكان يغازلها جابريل إيلخيوي جارثيا إلى جانب فتيات كورال ماريا بالكنيسة ، فى الوقت الذى بدأ قلبه يعشق لويسا سانتياجا ماركيز . وكانت نجلة أول قُنصل إنجليزى فى ريو هاتشا (وربما أيضاً تنتمى للعقيد ويليام فيرجسون ياور سيمون بوليفار)، وقد وُلدت فى تلك المدينة ، ثم تعلمت فى مدرسة نورمال فى سانتا مارتا. وعقب دخولها المدرسة بقليل طُلب منها الإقامة فى أراكاتاكا حيث كانت تعيش أسرتها ، وقد تلقت دروساً على يد المعلمة الإيطالية ماريا مونتيسورى ، وفى عام ١٩٣٣ أنشأت المدرسة التى حملت اسمها. وقد بدأت روسا إيلينا فيرجسون حياتها كمعلمة فى منزل ماركيز إيجوارن حيث كانت تُعلم مجموعتين ، ولكنها اضطرت بعد شهرين إلى إغلاق المدرسة بسبب المشاكل الداخلية. وهكذا فإن جاييتو لم يبدأ سنوات الحضانة حتى السنة السادسة من عمره ، وقد اضطر لإعادتها فى العام التالى ولم يتعلم القراءة والكتابة حتى السنة الدراسية الأولى عام ١٩٣٥ ، وهو فى سن الثامنة. وحينذاك كان للمعلمة مونتيسورى مكاناً خاصاً بها بجوار المسقى بالقرب من محطة القطار. وكان المبنى على شكل ورشة نجار فسيحة ومتجددة الهواء فى قلب الطبيعة وسقف من القرميد ذى مستويين ، ومدخل للحديقة ، وفناء واسع لا حدود له لى يستطيع الأطفال اللعب فى ظل أشجار المانجو وبعض الأشجار الأخرى.

لقد كانت طريقة مونتيسورى فى التعليم مهذبة ولطيفة تعتمد على الخيال الخصب بدون أوامر إجبارية ، وقد توافق ذلك تماماً مع طرق روسا إيلينا. وقد تم تعليم الطفل

أولاً النظام والتحضر دون أن يشعر بفرض لائحة عليه. وبعد ذلك ، وقبيل تعلمه القراءة والكتابة بدأت تعلمه التأمل والمشاهدة والتمعن بحرية تامة ، وهى نفس الطريقة التى كان يتبعها جابيتو تحت رعاية جده؛ وبالتالي فإن الحضور إلى المدرسة وبدء تعلم الحروف الأولى كان لذة حقيقية لجابيتو ، فضلاً عن مجيئه لمشاهدة معلمة التى عشقها وأحبها وأحب الشعر بسببها. لقد كانت روسا إيلينا جميلة حسناء لطيفة متسامحة ، ونهراً من الإيماءات الإنسيابية الفاتنة فى حواراتها ومحادثاتها. لقد كانت ولعة بالشعر فى العصر الذهبى الذى كانت تتغنى به فى السهرات وأمام تلاميذها. وربما كان جابيتو يقصد أن الأشعار التى تنساب من فمها كانت تنبثق بصورة طبيعية من جمالها الفاتن. ومن باب العرفان بالجميل ظل الكاتب يتذكرها حتى بعد أن نال الشهرة المجيدة: إن أول امرأة سحرته هى التى علمته ضرورة الذهاب إلى المدرسة لكى يستمتع برؤيتها " وكانت هى التى تقرأ لنا فى الفصل القصائد الأولى التى اختمرت فى ذهنى إلى الأبد" (٦١).

أما روسا إيلينا فيرجسون ؛ فقد ظلت تتذكر تلميذها بعد ذلك بستين عاماً بجلاء منقطع النظير : " لقد كان جابيتو أشبه بدمية لطفل بشعره الملون مثل ورق شجرة الحور ؛ أما بشرته فقد كانت بيضاء وردية وهو لون غريب فى أراكاتاكا ، وكان مصفف الشعر دائماً وأنيقاً ونظيفاً ، وكان يستخدم دائماً بنطلونات قصيرة ضيقة " وقالت إنها طلبت من والدته ألا تجعله يستخدم هذه البنطلونات الضيقة حتى لا يكتسب عادات قبيحة. كان صامتاً قليل الكلام، وكان يعيش خجولاً. كان زملاؤه يحترمونه ، وقد برز من بينهم باجتهاده وحبه للنظام والذكاء ، ولكنه لم يكن يهوى الرياضة. وكان يفخر دائماً بأنه أول من يلبى أمراً". وكانت روسا إيلينا تعلم أن تلميذها بارع فى الرياضيات والرسم والقراءة والكتابة؛ كما كان انضباط مواعيده من أهم صفاته البارزة ، والقراءة والكتابة والرسم أهم هوايتين راسختين لديه. وأما فيما يتعلق بحب الطفل العذرى لها قالت: إن هذا يرجع إلى أنه رفعها إلى درجة المثالية بفضل طريقتها المهذبة الحنونة فى التعامل معهم ، وبالأشعار التى كانت تقرأها لهم ، وبالفعل ذات مرة اعترفت لها لويسا ماركيز أن نجلها قال لها إنه عندما كانت تقترب منه كان يشعر بالخجل ، وبأن شيئاً ينتاب كل جسده.

وفيما يتعلق باستبيان بروست اعترف جارثيا ماركيز بأن الفاتنة النائمة هي واحدة من أهم بطلاته المفضلات التي جادت بها فانتازيته. وحقيقة فإن هذا الولاء يعود إلى سنوات تعليمه الأولى للأدب مع خوانا دي فريتيس وروسا إيلينا فيرجسون. وفي نهاية السنوات الدراسية اعتاد التلاميذ على إقامة جلسات قراءة لبعض الكتب الكلاسيكيين ، وكذلك القصص وحكايات بيرالت. وخلال ختام العام الدراسي الأول قام جابيتو ورفاقه بتقديم مسرحية "فاتنة الغابة النائمة" وقد مثل جابيتو دور الأمير الذي سيوقظ الأميرة بقبله يطبعها على جبينها. لقد كانت النهاية الحماسية للهوايات الدرامية الأولية التي ألهمها إياها الساحر ريتشاردين. ولذلك فمنذ أراكاتاكا البعيدة شديدة الحر ، وذات يوم في أواخر نوفمبر ١٩٣٥ كان بمثابة خيط جسر - بعد ذلك بأربعة عشر عاماً - سيعود الكاتب إلى سوفكليس أهم وأعظم معلميه وأساتذته.

ولكن جابيتو لم يدرس سوى عام واحد في الحضانة ، والعام الدراسي الأول مع روسا إيلينا فيرجسون في مدرسة مونتيسوري. وقد التحق جابيتو بالمدرسة العامة عام ١٩٣٦ حيث درس العام الثاني مع المدرس فرانثيسكو أنطونيو أرون. وقد تحول جابيتو وهو في التاسعة من العمر إلى قارئ صامت وعلى وجه الخصوص عندما اكتشف قصة "ألف ليلة وليلة" ، وهو ما يعد من أهم الأحداث في حياة الحفيد الخجول للعقيد ماركيز. ذات يوم - كما فعل ذلك عدة مرّات - ظلّ يبحث في صناديق أجداده حتى عثر على كتاب أصفر ناقص ليس له غلاف ، وبدأ يقرأه جزءاً جزءاً: وكانت أول حكاية عن وجه لا يمتعض أولاً يتغير ، وهو الذي وصف به جيته. كانت قصة "جان شرقي فقير" الذي ظل يعيش في زجاجة منذ ستمائة عام حتى استطاع صياد أن يقدم له أكبر معروف حيث فتح له الزجاجة لكي يستعيد حياة الجسدية. ولم يعرف جابيتو أن هذا الكتاب غير المغلف كان عبارة عن مختارات من "ألف ليلة وليلة" حتى مضت بضع سنوات ، ويقول الكاتب: "لقد تشبّثت به. لقد قام شخص بفتح الزجاجة وخرج منها جان من الدخان وقلت: عجبا، إن هذا أمرٌ عجيب! لقد فتنني هذا أكثر من أي شيء آخر في حياتي أكثر من اللعب والرسم والأكل ، أكثر من كل شيء ، ومنذ تلك اللحظة لم أرفع رأسي عنه". كما أن قصص شهرزاد كانت تأكيداً وتوسيعاً لعالم الجدة ، وبالطبع لم يكن في عالم الجدة

جان من الدخان ولا بَسْطَ طائِرةٌ ، ولا مصابيح عجيبة، ولا كهوفٌ سحرية ؛ بل كانت هناك أرواحٌ وساحراتٌ تطوفُ بالمنزل اعتباراً من الساعة السادسة مساءً ، وجيران من الموتى يسعلون ، ويُصفرون في كل لحظة ، وماركيسات عذراوات نوات الشَّعر الطويل كُنَّ يفعلن المعجزات. وكلاهما يعنى شهرزاد وترانكلينا تسردان قصصهما وحكاياتهما دون أن يتغير وجههما ، أو بثبات منقطع النظير و " وجه صارم".

إن قراءة " ألف ليلة وليلة" لم تغير قط حياة جابيتو بل لكونها الخبرة التي استمرت معه حتى " مائة عام من العزلة" ، حيث سيقوم أوريليانو سيجوندو وأوريليانو بابيلونيا بتكرار هذه البطولة الشجاعة والمثمرة في الغرفة الخالدة لميليكياديس.

ومن خلال الباب الكبير الذي أوضحته له شهرزاد استمر يلتهم قصص بيرالت والشقيقتين جريم دوماس وسالجارى وبيرنى في حب مستمر حتى السنوات الأولى للثانوية في ثيباكيرا. وكان أحد المترددين الدائمين على المنزل قد أعرب عن دهشته كيف أنه في قرية أراكاتاكا تصل فيها درجة الحرارة أكثر من ثلاثين درجة في الظل يوجد شخص وطفل بالتحديد يقرأ في كل وقت وحين. " إن هذا الفتى سيكون نابغة"، وكان الجار يتعجب كلما رأى جابيتو يحمل كتاباً في يده. وبشكلٍ ما فإن افتتاح جارثيا ماركيز بالكتب الأولى تُذكِّرنا بما حدث مع الكيشوت بالنسبة لقصص الفرسان ، مثلما حدث أيضاً مع أوريليانو بابيلونيا بالكتب التي كانت منسوخة على رقائق ولفافات جلد من مقتنيات ميليكياديس ، وهو نفس الافتتان والإعجاب الذي سيغمر جارثيا ماركيز فيما بعد تجاه أعمال فرانز كافكا وسوفكليس وخوان رولفو.

وبينما كان جابيتو يدرس في الحضانة عاد والده من بارأنكيا لكى يستقر في أراكاتاكا لمدة ثلاث سنوات منذ منتصف ١٩٣١ إلى أواخر ١٩٣٧ أو بدايات ١٩٣٨ . وخلال تلك العودة تعرّف الطفل على والده الذي جاء في اليوم الأول من ديسمبر من ذلك العام ، ولم ينس جابيتو هذا التاريخ أبداً لأنه يتذكر أن شخصاً ما قال لوالده: " أهنتك ؛ فلقد بلغت عُمر السيد المسيح" ، وإذا كان قد تعرّف على والدته وعنده ثلاثة أعوام ونصف العام ، فإنه لم يتعرف على والده حتى السابعة وتسعة شهور من عمره ، وإذا كان بالنسبة لوالدته بدا له ذلك غريباً أن تكون سيدة في الخامسة والعشرين من العمر

ترتدى حُلّة وردية وكتافات على شكل أجراس وقُبعة خضراء هي والدته ، فقد كان استغرابه أكبر عندما وجد نفسه أمام رجل نحيف أسمر حاضر النكتة ولطيف يرتدى ملابس بيضاء وقبعة. شخص كاريبي أصيل فى عقد الثلاثينيات^(٦٢) ، كما ارتبطت معرفته لوالده دائماً بوداعه النهائي للبراءة.

وقُبيل أن يكمل العام الخامس من عمره كان جابيتو قد رأى امرأة تدخل عليه غرفته فى أعياد الميلاد ، وكانت ترتدى ملابس فوسفورية ، وقبل أن تغادر الحجرة اضطجعت فى فراشه. وكما ساد فى اعتقاده كانت إحدى أرواح المنزل ، وظل الطفل مرعوباً داخل الملاءة ، ولكنه اكتشف فى اليوم التالى أن السيدة ذات الملابس الفوسفورية المضئ كانت جدته تضع له هدايا أعياد الميلاد عند قدميه. وخلال أعياد الميلاد القادمة لسنتين متتاليتين لم يحك لأحدٍ اكتشافه كى تستمر الهدايا فى المجئ ، ومع ذلك فى ليلة عيد الميلاد - عندما كان فى السابعة من عمره عندما كان ينبغى على الأطفال أن يضطجعوا عُقلاء لكى ينتظروا هدايا الأعياد - طلب منه والده البقاء دون سابق إيضاح. ويتذكر الكاتب أن والده اصطحبه إلى السوق لكى يساعده فى شراء هدايا الأعياد التى ستُقدم لأشقائه. وفى تلك الليلة - وبأكبر خيبة أمل فى حياته - بدأت أشعر أننى بالغ كبيرٌ رزين^(٦٣). وفى الحقيقة ؛ فإن طفولة جارثيا ماركيز لم تستمر بعد السابعة من عمره.

وقد استأجرت أسرة جارثيا ماركيز منزلاً فى أراكاتاكا بالقرب من أسرة ماركيز إجواران ، حيث وُلدت ليخيا فى الثامن من أغسطس ، وأسس جابرييل إيلخيو صيدلية فى أواخر ١٩٣٤ . فقد كانت اختراعاته وفعاليته وصفاته وروشتاته فى الطب التجانسى مشهورة ، كما اشتهر كثيراً من جرأ ذلك ، فقد كان والد الكاتب موظفاً بالبرق (التلغراف) والآن قد عاد بخبرات طبية كبيرة فضلاً عن كونه قد أصبح طبيباً تجريبياً دائماً مرموقاً وقارئاً للمجلات. وهكذا استطاع الحصول على تصريح من مجلس معادلة الشهادات الطبية سمح له بمزاولة مهنة الطب التجانسى عام ١٩٣٥ . وقد تم اختراع جهاز منظم الدورة فى تلك الحقبة الذى عُرفَ بالاختصار GG أى جابرييل جارثيا وهو شراب يبيعه بصيدليته بعد أن أُمّنته القوانين الأجنبية ، وإلى جانب أدوية تنظيم الدورة الشهرية والكُرّات الدموية التجانسية وأدوية التيتانوس، والحمى الصفراء الغربية

كانت الصيدلية تعينه بالكاد على عول أسرة كبيرة العدد ، فسيُولد الابن الثالث فى ٢٧ سبتمبر ١٩٢٥ ، وقد أسموه جوستابو وكان ترتيبه السادس بين أشقائه وشقيقاته. ولحُسن طالعهم كانت أسرة ماركيز إجواران تقدم لأسرة الكاتب العون دائماً ، ولحُسن طالع جابيتو أنه ظل مزيداً من الوقت فى منزل أجداده.

وفى ديسمبر عام ١٩٢٦ قرر جابريل إيلخيو تغيير مقر إقامته، وذهب إلى سينثى مسقط رأسه ليبحث عن مكان جديد لتجارته ، ربما لأن أراكاتاكا بدأت تتدهور إلى ما كانت عليه منذ عشر سنوات سكناً للفقراء. ومع ذلك فإن واقع الأمر أن الصيدلية لم تلق رواجاً ، وكانت السبب المباشر فى عدم استقراره ، كما أن مهنة الطب التجانسى جعلت منه رحالة متنقلاً. كان مليكياديس مخضرمًا وحالمًا وشاعرًا غنائياً لا براء من حالة مثل فلورينثيو أريسا نفسه.

وبغية التعرف على جدته لأبيه أرخيميرا جارتيا باترينينا قرر اصطحاب نجلية الكبار جابريل خوسيه ولويس إنريكي. واعتباراً من هذه اللحظة سيعيش جابيتو أربعة أ وخمسة أشهر فى أراكاتاكا ، ولم يعد يرى جده وعمته وينفريدا ماركيز . وفى سينثى واصل تعليمه الابتدائى مع لويس جابريل ميسا ، وكان رجل دين فى الماضى يعطى دروساً بصورة غير رسمية نظراً لحبه لمهنته ، وبهذا الشكل فقد جابيتو كثيراً من الناحية التعليمية عام ١٩٢٧ . ولقد فقد أكثر من ذلك حيث فقد جده بعد ثلاثة أشهر.

كان العقيد ماركيز قد سقط من على السلم منذ عامين عندما كان يتأكد - كما هى عادته فى كل صباح - من مستوى المياه فى الخزانات التى كان يملؤها بواسطة مضخة تعمل بالموتور. وعندما أراد النزول أفلتت درجة من السلم الخشبى وسقط الجد على ظهره من أعلى السلم^(٦٤) ، ولحُسن الحظ لم يمت الجد، ولكنه أُصيب إصابة خطيرة مما اضطره إلى السير معتمداً على عكازٍ . وكانت هذه اللحظة التى اكتشف فيها الحفيد إثر زيارة للطبيب إحدى الأشياء التى فتنته فى طفولته ، وهو أثر الجرح الذى أُصيب به فى أعلى الفخذ بسبب رصاصة تلقاها فى "حرب الألف يوم" ، وبالتالي فهى أعظم أثر ظلل عالقاً فى ذهن جابيتو وخالداً إلى الأبد عن جده العقيد ماركيز دى إجواران.

وخلال العامين التاليين لم تتحسن صحة العقيد بل ساءت ، وخاصة بعد وفاة شقيقته وينفريدا فى الحادى والعشرين من يناير عام ١٩٣٧ ، وقد اضطر إلى نقلها إلى سانتا مارتا حيث أجريت لها عملية استئصال ورم شحمى فى العنق. وقد لقي رعاية ما بعدها رعاية من نجله غير الشرعى خوان دى ديوس وزوجته ديليا كبايرو، ولكنه أصيب بالتهاب رئوى نجم عن شدة برودة الجو فى سانتا مارتا ، وخاصة فى الصباح عندما كان يستحم فى الهواء الطلق مما عجل بوفاته فى الرابع من مارس وهو فى الثالثة والسبعين من عمره^(٦٥) ، بعد أن ظل ينتظر كل أسبوع ، وعلى مدى خمس وثلاثين سنة معاشاً لكونه محارباً قديماً فى "حرب الألف يوم". وفى وسط حزن أسرى غامر وبرقيات المواساة دُفِنَ العقيد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا بالمقابر المركزية بالمدينة فى نفس اليوم حيث ظلّ رفاته هناك حتى حَقبة الثمانينيات حتى فُقِدَ تماماً وبصفة نهائية وضاع اسمه ذاته فى دروب التاريخ الوعرة لولا أنه كان جد الكاتب الكولومبى والشخصية المهمة فى حياة جارثيا ماركيز أحد أهم كتاب القصة الأسطوريين فى القرن العشرين.

ولقد تلقى جابيتو النبأ فى سينتى بسوكرى عندما سَمِعَ والده يتحدث عن ذلك مع جدته لوالده أرخيميرا، وكان جابيتو فى العاشرة من عمره ، وكان جده ذا التأثير الأكبر فى مصير الكاتب ، ولكنه قد لا يكون قد انتبه إلى ذلك ، وربما لم تكن لديه فكرة مأساوية عن الموت فى تلك الآونة ، لذا لم يبك عندما عَلِمَ بالنبأ. فكَرَّ فى أنه ينبغي عليه أن يبكى ، ولكنه لم يفعل ذلك ، وكانت فكرته عن الموت تنحصر فى الخوف والفضول كما علمته جدته بحكاياتها وأرواح المنزل " لقد كان قلقى من نوع آخر تماماً " يتذكر جارثيا ماركيز " أتذكر أنه خلال تلك الفترة كان القمل يهاجمنى فى مدرسة سينتى ، وقد سبب لى ذلك حرجاً بالغاً. كانوا يقولون أنه عندما يموت الشخص ينتشر القمل فى جسده ، وأتذكر أن الغم استحوذ علىّ تماماً ، وقلت : عجباً إذا متُ الآن سيدركون أننى مُقَمَّلٌ ! " حينئذٍ وفى تلك الظروف لم يؤثر فى موت جدى. وكان كل همى القمل. وفى الواقع أننى بدأت أشعر بفقدان الجد عندما كبرت ولم أجد من يحل محله ولم يكن والدى بديلاً له على الإطلاق ، لأن والدى كان مختلفاً تماماً عن جدى.

واعتباراً من تلك اللحظة سيصاحبه الإحباط الذي تولّد لديه ، لأن الحياة لم تسمح له أن يذكر للجد حُسن صحبته له خلال طفولته ، وكيف أنهما سوياً كانا على علاقة جيدة ، ولم يستطع أن يُقدّم له الشكر على صداقته ، وأنه كان يُمسك بيده حتى سن العاشرة من عمره. وأكثر من ذلك أنه قال خلال محادثاته مع رفيق مغامراته الصحفية بيلنيو أبوليو مينوثا: عندما يحدث لى شيء ، وخاصة عندما يحدث لى شيء جيد أشعر دائماً بأن ما أفقّرُ إليه لى تكتمل سعادتي هو أن يعلم جدى بذلك ، ولذلك فإن جميع سعادتي وأنا كبير كانت وستظل للأبد تُعكر صفوها جرثومة الإحباط^(٦٦) .

وبعد وفاة العقيد بشهرين أو بثلاثة أشهر ذهبت ترانكلينا ، ولويسا ، وألبيرا ، وفرانثيسكا إلى سينثى مع بقية الأسرة ، ولم يبق بالمنزل سوى سارة ماركيز التى تزوجت حديثاً. وعلى الرغم من أنه لا نبي فى قومه فإن جابريل إيلخيوظلّ متمسكاً بالقرية التى وُلِدَ فيها عسى أن يجد عائداً اقتصادياً مجزياً من مهنة، ولكن كما هو الحال دائماً لم تثمر تجارة الطبيب التجانسي ، ولكى يزداد الطين بلة مرضت العمّة فرانثيسكا بالكلى مرضاً خطيراً وهى العمّة الأم ، ولذلك اضطر الجميع للانتقال إلى أراكاتاكا فى سبتمبر من العام ذاته.

وعلى الرغم من أن منزل الأجداد كان تحت تصرفهم ، وكانوا يتمتعون بشهرة عظيمة ، فضلاً عن التقدير فى القرية ، فإن أسرة جارثيا ماركيز قررت العودة إلى بارأنكيا فى أواخر عام ١٩٣٧ وبداية ١٩٣٨ ومعها جابيتو. لقد كان الوداع النهائى لأراكاتاكا لأفراد أسرة جارثيا ماركيز ولم يكن الأمر كذلك لجابريل خوسيه " جابيتو " لأنه اعتباراً من تلك اللحظة وهو يعي أنّه قصاص المستقبل ، وسيقطنها بمزيد من القوة لأنه غادرها وهو مُفعمٌ بكل أشباحها.

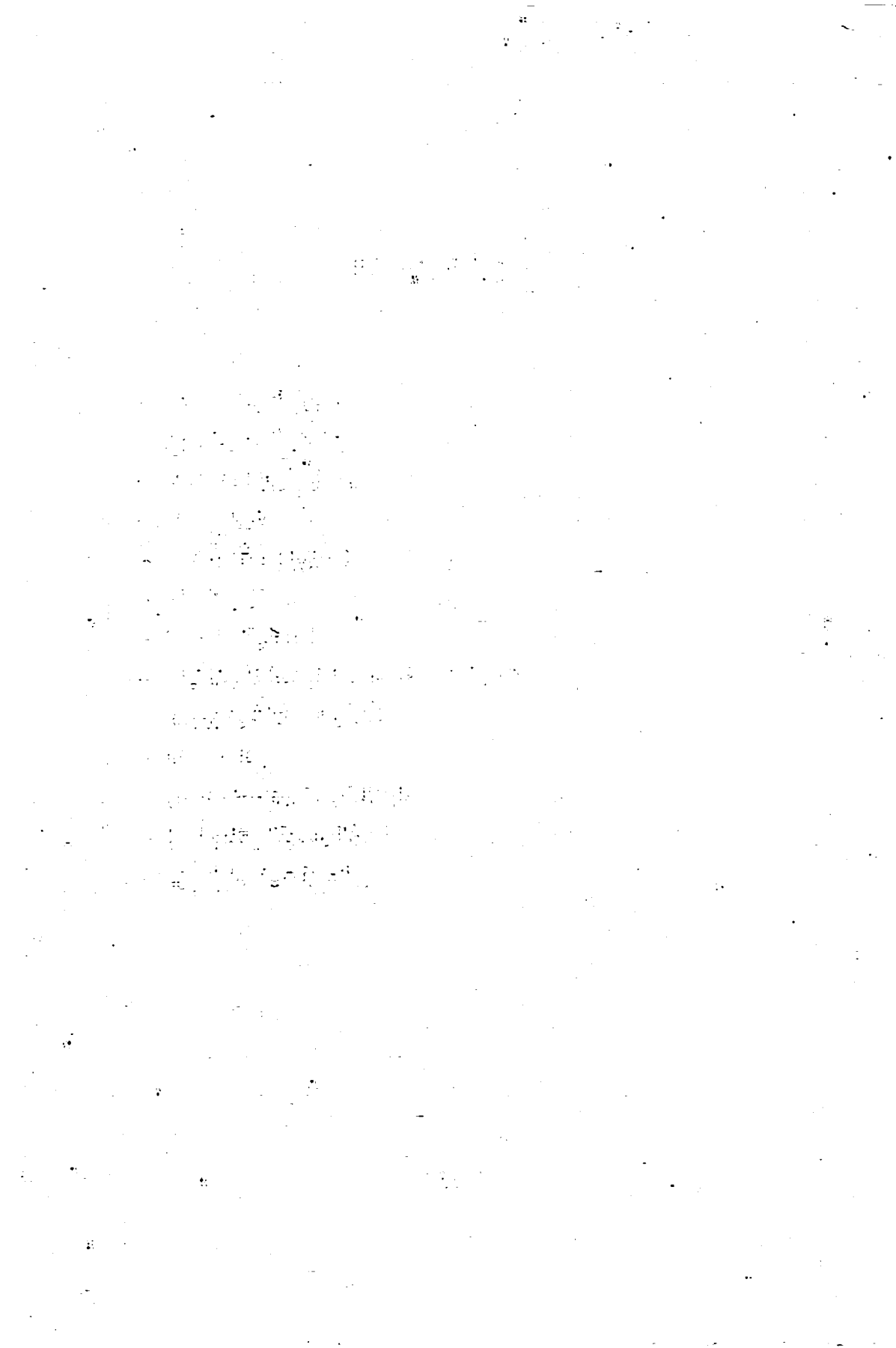
فالأرواح المستوطنة فى المنزل والقصص الفانتازية للجدّة ، والحكايات الواقعية للجد ، والنزهات، والأسفار التى قام بها مع جده والشخصيات الغريبة وأرواح " ألف ليلة وليلة " ، فالأشعار وهالة معلمته الأولى روسا إيلينا ، وسحر السيرك المتجسد فى ريتشاردين ، والدكتور أنطونيو باربوسا ، والبلجيكي السيد إيميليو وخوانا فريتيس ... كانت كل هذه الأمور بمثابة استكمال لا ينتهى لقصص وحكايات ونوادير أراكاتاكا الوهمية والتى بعد أن انتهى ازدهار الموز بها بدأت تتحول إلى إعصار من الحنين والأساطير.

لقد استنزفت القرية ، وأصبحت الآن بحق مسكنًا للفقراء ؛ - فالورقة الساقطة - محاها الزمن كما أن كُرَات البلياردو نُدِرَتْ فى محلات البلياردو ، كما أن الديكة لم تعد تتعارك وتتصارع فيما بينها فى ميادين مصارعة الديكة، كما أن رقصة الكومبيا لم تعد تُمارس على رائحة العُمَلات الورقية المشتعلة، كما أن أجهزة البيانولا كانت تُردّد أغانيها المستهلكة ، وأصبح الفقراء أكثر فقرًا ، كما أن نظرات الباقين فى أراكاتاكا كانت نظرات تشرد مفقودة ضالة فى أفق غير موجود ، أو لا وجود له. لقد جاء عصر الأساطير والخرافات للظلال التي بدأت تكسو الشوارع بالأتربة ، وأصاب الغم أشجار اللوز بسبب وحدتها حتى أن الغم والحزن بدءا يغزوان المنازل المسقوفة بالزنك. ولم يعد بيت الأجداد وحده المسكون بالأشباح ؛ بل أراكاتاكا بأسرها.

وعلى الجانب الآخر؛ نجد جابرييل خوسيه جارتيا ماركيز طفلًا خجولًا وفتىً يافعًا على وشك بلوغ الحادية عشرة من عمره بدأ يشق مشوار مصيره اعتباطًا ، وعلى غير هدى ، ولكنه مدفوع بحماس جماعى من القصص والنوادر والأسماء والوجوه والأصوات والألوان والنكهات والأنغام: كل عالم الآباء والأجداد أصبح بمرور الزمن عالمه وعالم قرائه بفضل الخيال والشعر.

الفصل الرابع

- أول راتب كبير لجابيتو.
- انتهاء المرحلة الابتدائية
- من بارانكيا إلى سوكري
- اللقاء مع الوالد
- بيد سيدة تُدعى إيرنديرا
- نهاية الطفولة
- أول عودة لأراكاتاكا
- بداية المرحلة الثانوية في مدرسة سان خوسيه
- العجوز نو الثلاثة عشر عاماً
- القسم الثاني
- ربيستا خوبينتود "مجلة الشباب"
- التعليقات والأشعار الأولى
- مازح خطير نو شأنٍ عظيم



إنَّ الإقامة الثانية لجارثيا ماركيز فى بارأنكيا كانت أقصر من الأولى ، منذ أواخر عام ١٩٣٧ أو أوائل ١٩٣٨ إلى نوفمبر من العام التالى (يعنى ١٩٣٩). فعلى الرغم من التحمس الأكيد من جانب جابرييل إيلخيو جارثيا ، فإنَّ الحقيقة تكمن فى أنه من الصعب الجمع بين مهنتى الطب التجانسى والصيدلة اللتين يكتسب بهما قوت أسرته ، بالإضافة إلى رومانسيته المزمنة التى جعلته غير مستقر على الإطلاق ، وكان بصفة دائمة فى تغريب دائم أو ترحال مستمر فهو يُعزَل من هنا لكى يعيش هناك مما جعل من المستحيل على الأسرة أن تغرس جذورها فى أى مكان. ومع ذلك ؛ فقد كانت معرفته بالطب الطبيعى هائلة ، وفى مايو ١٩٣٨ استطاع أن يحصل من وزارة التعليم على منحة التصريح بمزاولة الطب التجانسى على الصعيد الوطنى ، الذى حصل عليه منذ بضع سنوات فى نفس المدينة. وقد نصَّ قرار الوزارة على تحذيره من القيام "بإجراء أية عمليات جراحية ، كما لم يُسمح له بممارسة علاج الداء بضده" (١).

ولم يُطع جابرييل إيلخيو الأمر بالطبع ، بل إنَّ شهرته كطبيب تجانسى جعلته يزدري الطب الرسمى أو الحكومى.

ومع ذلك فقد كان هذان العامان فى بارأنكيا سيئين للغاية ؛ فقد اقتصر على كسب القوت الضرورى للبقاء ببساطة على قيد الحياة مما اضطر جابرييل خوسيه إلى العمل وهو فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره للإسهام فى الاقتصاد المنزلى. ويفضل خطه المتميز الذى علمته إيَّاه روسا إيلينا فيرجسون فى مدرسة أراكاتاكا ؛ بدأ يكتب لافتات لصاحب محل طوكيو الكائن على الناصية ، وكان يكتب بالكربون ويرسم على الكرتون الأبيض ، وبالنسبة للعملاء المماطلين فى الدفع للسيد كاستيانوس كتب له لافتات مثل " اليوم لا أثق ، ولكن سأثق غداً " ، " من يثق يدفع الثمن " واسأل عما لا تراه (٢) ، حتى اليوم الذى حصل فيه على أوَّل راتب كبير فى حياته خمسة وعشرين بيزو مقابل كتابة ورسم لافتة بالمنزل للأوتوبيس الذى كان يقطع الطريق إلى باريو أباخو ، وهو الحى الذى كان يعيش فيه مع أسرته. وفى فترة كان الطعام ينبغى اختراعه يومياً

أماً فى ذلك اليوم ؛ فقد كَثُرَ الطعام بفضل مرتب جابيتو. كان هناك غذاءٌ كثيرٌ فى منزل أسرة جارثيا ماركيز ، وبعض المشتريات لتجديد الأثاث المتواضع للمنزل الكائن فى شارع سانتانا حيث وُلِدَ فى العاشر من يوليو عام ١٩٣٨ النجل السابع للأسرة: ريتا ديل الكارمن.

وواصل جابيتو - فى هذه الأثناء - دراسته الابتدائية التى كانت قد توقفت بسبب سفره إلى سينثى وعودته اللاحقة إلى أراكاتاكا خلال العام الماضى. وفى مدرسة كارتخينا دى إندياس درس الفصلين الثالث والرابع مع المدرس خوان بينتورا كسالىنس ما بين عامى ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ (وكانت المرحلة الابتدائية فى كولومبيا تتكون من أربع سنوات فقط). وعلى الرغم من تعدد اهتمامات جابيتو؛ فقد كان تحصيله العلمى ممتازاً ، وقد حصل على أعلى التقديرات والأوسمة. ومع ذلك لم يشعر بالسعادة ، وتقول شقيقته عايده ، ومارجوت: " فى اليوم الذى أنهى فيه دراسته الابتدائية وصل إلى المنزل وسعرتة مليئة بالميداليات ، وبعد ذلك ترك هذه الميداليات كزينة لا قيمة لها". وحقيقة الأمر أن الدراسات الأكاديمية على الرغم من براعته فيها فإنها بدأت تعوقه لأن هويته الأولى كانت الرسم وولعه الأكبر القراءة. كان جابيتو فى ذلك الوقت رساماً عبقرياً وقارئاً متحمساً للشعراء الكولومبيين وكلاسيكى العصر الذهبى الأسباني ، فى الوقت الذى كان يقرأ فيه قصصاً للآخرين مثل جريم وخوليو فيرنى وسالجارى ودوما.

وفى نوفمبر عام ١٩٣٩ قامت الأسرة بحزم حقائبها ، وتعبئة أمتعتها بحثاً عن قرية أخرى ومنزل آخر لتجربة حظها من جديد. وفى تلك المرة نزلت الأسرة فى قرية سوكرى بالدائرة التى تحمل الاسم نفسه ، حيث تجرى أحداث معظم كتب جابرييل جارثيا ماركيز. وهو لا يزال فى الثانية عشرة من عمره ، وبفضل الروح العملية التى ورثها عن جده ؛ كان جابرييل المنسق والمنظم بل والمشرف على كل إجراءات الانتقال بينما كان والده ، دائماً ، يتعلل بالإعداد للوصول فكان يذهب أولاً إلى مكان الانتقال. اشترى جابرييل تذاكر السفر وتعاقد مع سيارات النقل ، وأشرف على تغليف الأمتعة ، وأصدر الأمر بالرحيل ، وقدم النصائح. ومن الناحية العملية كان جابيتو يتصرف كنه شخص كبير.

وقد عاشت أسرة جارثيا ماركيز فى سوكرى اثنى عشر عاماً ، حيث استمتعت بأول فترة فى حياتها من الأمان والسعادة النسبية بفضل تمكن جابرييل إيلخيو من ممارسة مهنته كصيدلانى وكطبيب تجانسى ، ولكن أيضاً بفضل مميزات القرية وطبيعة أهلها فى حبهم للأمن والتضامن. وبدون استثناء يتذكر جميع أفراد أسرة جارثيا ماركيز الفترة التى قضوها فى سوكرى حيث خيمت فيها السعادة عليهم ، وهى الفترة الوحيدة التى جمعت شملهم جميعاً باستثناء جابرييل الذى اضطر للعودة إلى بارانكيا لكى يبدأ دراسته الثانوية فى مدرسة سان خوسيه اليسوعية.

وإذا استثنينا الأشهر الثمانية التى عاشها فى سوكرى خلال عام ١٩٤١ عندما اضطر لقطع دراسته فى الصف الثانى الثانوى لأسباب صحية ، فقد كان يذهب لقضاء فترات قصيرة مع أسرته بحد أقصى ثلاثة أشهر. وخلال تلك الفترة كان يُستقبلُ فى المنزل كالنجل أو الأخ الذى كان يحضر إلى المنزل كل فترة معينة. فالفتى نحيفٌ وخجولٌ ومنعزلٌ يتحدث قليلاً ، وكان دائماً يقرأ الكتب الغريبة . وهذا الاغتراب الدائم جعل من الصعب عليه تكوين علاقة انسيابية فيأخذه مع والده. فبينما كانت علاقته مع والدته قد تعدت علاقة الأمومة - والبنوة لتصل إلى الودية والجدية فى المزاح ، فإن علاقته مع والده كان يعوقها البعد ، وافتقارهما إلى أن يتعرف كل منهما على الآخر. ولكن السبب الجوهرى هو أن شخصية الجد لجابرييل كانت غير قابلة للاستبدال. ومن ناحية أخرى يجب أن نأخذ فى الحُساب أن جابرييل لم يتعرف على والده إلا عندما بلغ السابعة من عمره ، وعلى وجه التحديد عندما أتم جابرييل إيلخيو الثالثة والثلاثين من العمر. وفى هذه الظروف كان من المنطقى استحالة مضاهاة شخصية والده التى لم تكن مختلفة فقط ؛ بل على طرف نقيض تماماً من شخصية جده. وعندما كان جابرييل غلاماً منعزلاً لأنه لم يجد مفاتيح الدخول إلى قلب جابرييل إيلخيو ؛ الذى كان والدًا دقيقاً معتتياً بنفسه ، ومع ذلك كان يتصف بالقسوة التى لا هوادة فيها فى عدم الفهم أو الإدراك ، وكان يعتبر أن نجله الأكبر هو الحفيد المدلل لدى جده العقيد ، بل كان أيضاً يعتبر الفتى كذائباً ، لأن كل ما يسمعه أو يشاهده فى القرية كان يحكيه بطريقة أخرى مغيراً إيّاه باختراعاته الخيالية. وفى الواقع؛ فإن جابرييل إيلخيو الذى كان يزهو دائماً بانه

قارئ جيد ورجل خيال ، وقد كلفه ذلك الكثير ليفهم ابنه ، وربما لم يفهم نجله تماماً لأن طبيعة نجله فى الكذب كانت تنم عن أسمى صفاته ومميزاته.

وبعد ذلك بمسافة قريبة أو بعيدة بقليل ، أو بكثير من الانسيابية سيكون جارثيا ماركيز مثل قصيدة الإحساس الطيب لثيسار باييخو نواة لإبراز رجولته أمام والده أكثر من إبراز البنوة أمامه.

ومع ذلك ؛ فإن خيال جابرييل إيلخيو وأشعاره التى كتبها فى شبابه ، وشغفه بالقراءة ، وعزفه على الكمان كما يبدو ذلك منصوفاً عليه فى " الحب فى زمن الغضب" شكلاً بعض العناصر التى كانت - بلا شك - وراء الموهبة الأدبية لنجله.

وخلال إحدى عشرة سنة كان طالب الثانوية والطالب الجامعى والصحفى المبتدئ يقضى أجازته فى سوكرى. وكانت هذه هى أهدأ لحظات شبابه. وكانت خبراته ومعايشاته ، مثل تلك التى عاشها فى أراكاتاكا ، التى عاشها وسمعها فى تلك القرية التى لم يدخلها القطار حتى ذلك الوقت هى التى غدَّت جانباً من حكاياته خلال السنوات القادمة. وكانت إحداها البداية الجنسية الغريبة وهو فى الثانية عشرة من عمره. والحكاية ستتضمنها قصة الغراميات العاصفة لفرميندا داثا فلورينتينو أريثا ، التى حدثت بشكل طبيعى ، وفى غير أوانها بينما كان جابرييل يقوم بمأمورية لوالده فى بيت العاهرات بالقرية. وبكل براءة السنوات الاثنتى عشر للصبي وصل جابرييل وطرق الباب وسأل عن الشخص المطلوب. وعندما فتحت له الفتاة الباب حاصرتة بنظراتها ، وقالت له بلا مبالغة: "آه، نعم، تعال هنا" وأخذته من يده إلى إحدى الغرف ، وفى الظلام جردته من ملابسه وانتهكت عرضه. ويتذكر جارثيا ماركيز تلك الواقعة على أنها الشيء المُرعب الذى حدث له ، لأنه لم يعلم شيئاً عما يحدث هناك ، ولقد كان متأكداً من أنه سيموت^(٣). وهذا هو نفس الشعور الذى ستحس بعض شخصياته من الرجال فى بدايتهم الجنسية ، مثل العقيد أوريليانو بوينديا مع تلك المجهولة الساذجة حينذاك إيرينديرا ، أو الرومانسى أريثا مع روسالبا فى القارب النهري.

وعقب موت الجد والخروج من أراكاتاكا ولقائه من جديد مع والده ؛ كانت هذه البداية الجنسية غير المتوقعة فى الثانية عشرة من عمره: كانت الطفولة فى أراكاتاكا

مرحلة قصيرة ، ولكنها كانت مكثفة ومليئة بالأحداث ، لقد تجاوزت الطفولة مرحلة المراهقة وسلمته إلى مرحلة الشباب دون إجراءات روتينية كبيرة ، لأن شهادات أقاربه وأصدقائه كانت تسمح بالاعتقاد - أنه في تلك السن المبكرة - كان جابرييل مع ذلك فتى ناضجاً نفسياً وفكرياً إلى حد كبير لى يتم اعتباره بالغاً رشيداً . كان في الواقع كما ينم عن ذلك سلوكه وتصرفاته ، ربما لأنه كما قال مارسيل بروسست واعترف به جارتيا ماركيز في وقت لاحق: لقد عاش عندما أتمّ التاسعة من عمره التجارب الأساسية التي غدّت قصصه ورواياته.

هكذا كان ، وإن كان لا يزال لم يدرك. ففي تلك اللحظة التي بدأ فيها دراسته الثانوية وهو في الثالثة عشرة من عمره كانت حياته متوجة بالبحث اللاشعوري والمفارقات: النمو صوب الجنور ، النضج في اتجاه الطفولة ، الوطن الحقيقي الذي حدثنا عنه بودلير وسانت - ألسبوري ، وعن تلك الرحلة البطيئة الحافلة بالأحداث إلى الجنور ؛ بدأت تظهر رواياته وقصائده الأولى وحكاياته وقصصه الرائعة.

وعلى الرغم من أن جابرييل لم يكتب قصائده الأولى وقصته الأولى ذات الاهتمام الأدبي حتى بلغ السابعة عشرة أو العشرين من عمره ، فمن المحتمل أن يكون قد تعرّض لواقعة أو لحادثة من بداية رحلته إلى أصوله وأول عودة له إلى أراكاتاكا : في عام ١٩٤٠ وهو يدرس في السنة الأولى الثانوية لمرافقة جدته التي أجريت لها عملية لإزالة المياه الزرقاء من عينيها . وبعد موت العقيد بثلاث سنوات كانت ترانكلينا على حافة جنون الشيخوخة ؛ كانت منحنية القامة ضئيلة الجسم ، وفي عينيها قليلة الإبصار مازال الأموات يتزاحمون كما هي العادة دائماً . لقد حملها أفراد أسرة جارتيا ماركيز إلى بارأنكيا أملاً في أن الجراحة ستنقذها من فقدان بصرها ، ولكن ذلك لم يحدث ، ويتذكر الكاتب أنهم عندما عادوا من أراكاتاكا فإن العملية تركتها كما كانت تسبح في ليل دامس دون حدود كأورسولا إجواران في شيخوختها وكانت تلك المرة هي الأخيرة التي يجتمع فيها أفراد الأسرة من جديد في أراكاتاكا .

ولم تكن العودة الأولى لاستئصال الجنور والقلق مثل تلك التي ستتم بعد اثنتي عشرة سنة مع والدته: ولكن على - أية حال - لقد أثر على الكاتب كثيراً التأكيد من أن

الجدة توفيت فى وحدتها وظلامها الدامس ، وكذلك لأن الأرواح استحوذت على المنزل الذى شهد ولادته أرواح وأشباح الزّمن. لقد ذُلبت أشجار اللوز عند مدخل المنزل ، وكذلك زهور البيجونيا الكائنة بالممر ، والحديقة الغنّاء متعددة الألوان فى فناء المنزل والخضرة الدائمة التى كانت خراف أعياد الميلاد ترعى فيها. وقد رأى أن باقى أراكاتاكا لم يكن استثناءً من هذه القاعدة العامة: فالأرواح والأشباح أشعلوا الجو حرارةً ، وحلّت الوحدة فى جميع الأرجاء ، وقد حلّ الصداً بالأسقف الزنكية وهُجرت معظم منازل البلدة.

كما أن منزله لن يتأخر سوى ثلاث سنوات ليُهدم. فبعد وفاة التى لم تكل ولم تمل ؛ فرانتيسكا تيمودوسيا ميخيا ؛ العمة الأم فى ٥ فبراير ١٩٤٣ انتقلت ترانكلينا وألبيراكاريو إلى سوكرى حيث تُوفيت فى ١٥ ابريل ١٩٤٧ بعد أن فقدت بصرها وعقلها تماماً بعد خلطها لأسماء موتاها الأعزاء مع أشعار متناثرة لسبيرو كتالينا وكانديلاريو أوبيسو . ومن العجيب أن حفيدها فى ذلك الوقت وعمره عشرون عاماً كان مولعاً بالشعر ، وظلّ يحفظ أشعاراً لبيتراك ودانتى وجارثيلاسو وكيبينو وروين داريو ونيرودا ؛ بينما كان يتظاهر بأنه يدرس الحقوق فى جامعة بوجوتا الوطنية.

وقد بدأ جابرييل دراسته الثانوية فى فبراير ١٩٤٠ فى مدرسة سان خوسيه^(٤) ؛ التى كانت عبارة عن مخزن كبير مربع الشكل يتكون من ثلاثة طوابق ، مجاورة لكنيسة مما أضفى عليه المظهر المغلق لأحد الأديرة حيث كان يدرس فيه ستمائة طالب ومعظمهم من الطبقات المتوسطة والدنيا. ومع ذلك كانت حينذاك إحدى أحسن المدارس بالمدينة ؛ فالإدارة ، والانضباط الذى يتميز به اليسوعيون حافظ على مرتبة هذه المدرسة ، وهذا هو السبب ؛ فضلاً عن شهرية قيمتها ثلاثة بيزو ، ولهذا فإن أسرة جارثيا ماركيز سجلت نجلها فى مدرسة سان خوسيه. فالانضباط الذى ساد منزل الأجداد سيجد فى المدرسة اليسوعية استمراريته بالنسبة للفتى البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً ، وقد بدأ يظهر عليه جوانب ملفتة للنظر ، نظراً لشغفه بالقراءة والرسم ، والسهولة والخط الجيد الذى تميزت به كتابته.

وهناك تعرّف على العديد من الفتيان الذين سيكون بعضهم رفاقاً له فى المغامرات الصحفية ، والبعض الآخر تولى مناصب سياسية واقتصادية فى الدولة.

ويتذكر الصحفي والوزير السابق خوان ب. فرنانديث وينويتسكى أن جابرييل كان فتى نحيلًا نحيفًا يكره ممارسة الرياضة ، وكان يرتدى بنطلونات خضراء وسترة فاضحة^(٥) ، مما كان يتناقض تمامًا مع شخصيته الخجولة والمنطوية على نفسها ، وكان من برج الحوت، وهوايته الاستثنائية كانت القراءة والرسم. وفي وقت الفسحة كان رفاقه يرونه منعزلًا في أحد أركان الحديقة تحت شجرة حيث كان يلتهم كتبًا لخوليو فيرنى، وإيميليو سالجارى. وبهذا الشكل كان فتى أراكاتاكا يحصل على خمس درجات لحسن سلوكه ، وكان خجله يجعله يبدو فظًا ، أما تسريحته الغريبة ، والفرق على الجانب الأيسر من رأسه فكان يبدو لهم كأنه غريب ومن عمرٍ آخر غير عمرهم، وكانوا يلقبونه " بالعجوز". لم يكن هذا بُعدًا وخجلًا فقط ، ولكنها كانت ملامح الشباب المبكرة ، لأن جابرييل مثل فلورينتينو أريثا كان حظه غريبًا لأنه كان يبدو عجوزًا منذ طفولته .

بتلك الألفاظ سيتذكر بعد ثلاثة وخمسين عامًا الأب إجناتيو ثالديبار مدرس الأدب فى السنة الأولى بالمرحلة الثانوية: أنه لم يمارس رياضة قط، كان منطويًا على نفسه مفكرًا ، وكانت نظراته تنمُّ عن كونه شخصاً رشيداً يعرف تفاصيل كثيرة ، وليست لديه القدرة على القيام بفعل ذميم ، ولكنه مع ذلك كان له سحرٌ خاص وروح فكاهية كبيرة. وكان فى وقت الفسحة قد اعتاد البحث عن أساتذته ومدرسيه للحديث عن كتب أو عن أشياء من الحياة ، وكان دائماً له آراء مثل شخص كبير. وعلى طرف نقيض من رفاقه السابقين يضيف الأب ثالديبار : " لا أحد شك فى أن جابيتو سيصل إلى ما وصل إليه ؛ لقد كان فتى ضمن باقى الأطفال كان يحب العزلة ، وكان شغوفاً بالقراءة. كان أنيقاً فى ملبسه ومظهره. وكان هذا هو كل شيء .

وسرعان ما تغيرت شخصية فتى أراكاتاكا ، أو بمعنى أصح حيث أطلق العنان لإبراز مزاجه الحقيقى: الفكاهى أو المازح^(٦). إن الساحلين بصفة عامة أناس يحبون الفكاهة والمزاح ، ولذلك فإن الدعابة والفكاهة بالنسبة لهم هى أهم شيء جاد فى العالم وأحد العناصر الجديرة بالتصديق فى العلاقات الشخصية. وهكذا فإن جابرييل الذى نشأ على الانضباط والكرامة بشكل صارم على أيدي أجداده وعماته الذين ينحدرون من أصول إسبانية بدأ يضع فى حيز التنفيذ العملى ما كان يعرفه دون أدنى شك : لكى تستطيع العيش بين مصارعى الديكة فى بارانكيا ؛ من الأفضل أن يكون

الفرد واحداً منهم. ويتذكر جارتيا ماركيز نفسه أنه في مدرسة سان خوسيه أذهل الجميع وأصابهم بالجنون من حسن حديثه ، وعظم أسلوبه الذي يخطه قلمه. وخير دليل على ذلك التعليقات الإخبارية والأشعار التي كان يكتبها لريبيستا خوينتود " مجلة الشباب" الخاصة بالمدرسة: كانت باكورة إنتاج حياته.

ولكى يستطيع اليسوعيون فرض الانضباط والنظام على التلاميذ بصورة أفضل قاموا بتقسيم وتصنيف الطلاب إلى أقسام تتكون من طلاب من مختلف السنوات يتم تجميعهم وتصنيفهم وفقاً لسنهم ولقامتهم ، وقد أطلقوا على الأقسام أو المجموعات القسم الأول والثاني والثالث ، وكان يشرف على كل قسم مدرس ، هو الذي كان يجمع الطلاب ويتحدث إليهم فوق منصة عن موضوع يتعلق بالنظام والانضباط أو عن موضوع رياضي أو أكاديمي قبل أن يتوجه التلاميذ إلى فصولهم. وكان طلاب الفرقة الأولى والثانية والثالثة الثانوية يشكلون المجموعة الأولى وقد انتمى إليها جابرييل على مدى عامين طويلين في مدرسة سان خوسيه (في عام ١٩٤١ رسب في الصف الثاني بسبب مشاكل صحية واضطر لإعادته في العام التالي) ، وداخل كل مجموعة أو قسم تم تشكيل مجموعات فرعية وفقاً لأهواء وميول الطلاب. وقد تزعم جابرييل مجموعة الأدباء وأسائذة الإنسانيات. وعندما لاحظوا عليه نهمة الشديد للقراءة وجهه اليسوعيون صوب الآداب ، وقدموا له كتاب الأدب الذي كان بمثابة مذكرات أو مفكرات أعدت له خصيصاً ليتلاهم مع المجموعة حيث تبارى فيها الكتاب الكلاسيكيون والقوميون والإقليميون. وقد قرأ جابرييل الكتاب من أوله لآخره بنفس الوله والشفغ الذي كان قد قرأ به الجزء غير المغلف من كتاب " ألف ليلة وليلة" في منزل الأجداد وهو في التاسعة من العمر. أمّا حمسه الثاني (أو الأول) فقد كان الشعر ، وقد حفظ قصائد كاملة طويلة مثل "EI VÉRTIGO" الدّوار ؛ لكانت ما بعد الرومانتكية الأسباني جاسبار نونيث دي أرثي.

وفي دفع هذه القراءات ، والأمور اليومية للمجموعة الثانية ، أو القسم الثاني كتب جابرييل أول أشعاره وتعليقاته الصحفية^(٧) التي نشرها في (مجلة الشباب) بالمدرسة : " أخبار القسم الثاني" ، و" تلقائيات القسم الثاني" ، و" من أحد أركان القسم الثاني" و" سفاهاتي" ، وأخبار القسم الثاني (بالشعر) وقد وقعها بأسماء الكابتن أرنانيا وجابيتو وجابرييل جارتيا^(٨).

كانت (مجلة الشباب) متواضعة للغاية ، ولكن إعدادها وتأثيرها كانا مقبولين ، وقد أسسها اليسوعيون في العام الذي بدأ فيه جابرييل المرحلة الثانوية بغية تشجيع وتحفيز الإبداع والعمل الإنساني لتلاميذهم. ومن المرجح أن يكون أحد العوامل الحاسمة لبدء نشر المجلة هو الحمى الأدبية التي جاء بها إلى المدرسة فتى أراكاتاكا . وفي جزء من الصفحة الافتتاحية كتب مدير المجلة في عددها الأول الأب ترينو ميجيل سيرانو: ستكون هذه المجلة البداية لكثير من طلابنا الأعزاء لكي يبدؤوا مسيرتهم ككُتّاب وأدباء وجدليين وعلماء اجتماع وعلماء... وفيما بعد سيتذكر هؤلاء بحب طفولي المجلة التي نشرت لهم مقالاتهم الأولى في مجال الأدب^(٩) .

وكانت المجلة مفتوحة للمدرسين وأرباب الأسر ، وبها أبواب مخصصة للمدرسة والمدينة والدولة والشخصيات الفنية والتاريخية والعلمية. ولم يكن جابرييل أحد المتعاونين الأدبيين البارزين ؛ بل كان كاتب كافة النقوش للأعداد الستة الأولى. ويلاحظ فيها الرسام الخيالي الذي كان عمره يتراوح ما بين ثلاثة عشر وخمسة عشر عاماً. إنَّ ولع جابرييل بالرسم ، والفكاهة التي وُلدت فيه في الرابعة من عمره في ظل جده قد بلغ ذروته إلى حد كبير مع " مجلة الشباب " لكي تكتمل في ثيابكيرا أثناء المرحلة الثانوية لتفسح المجال بعد ذلك لولعه الاستثنائي بالشعر والرواية.

وكانت أسباب تعليقاته الصحفية الأولى وسفاهاته تدور حول الأحداث اليومية في المدرسة: بداية العام الدراسي والرحلات والمقابلات الرياضية وتغيير المدير وافتتاح المكتبة الجديدة، وكذلك أسماء الزملاء وألقابهم وعاداتهم وسلوكياتهم ، وكانت تبريرات جيدة لكي يكتب عنها الشاعر المبتدئ أو ليُعدَّ تعليقاً. ولم يُلحَظ في هذه المؤلفات الأولى حماس الأهمية أو الخلط أو الغموض الفكري. وكل ما كان يبحث عنه المؤلف هو التسلية والمزاح مع أصدقائه ، إلى جانب الإعراب عن اعتراضه على القواعد المتشددة في المدرسة اليسوعية. كان يفخر بأمرين لا ينفصلان : الفكاهة والسخرية المناهضة كل ما هو جادٍ وصارمٍ من طبيعته المناهضة للفكرية من بعض الوقاحات ، والتمرّد ، والعصيان ، التي ستصبح بعض السمات البارزة في أعماله الأدبية. ولكن هذا لا يشير إلى أنَّ السفاهات والتعليقات الصحفية التي كتبها في دفة القسم الثاني كانت البدايات الأدبية لجابرييل جارثيا ماركيز ؛ بل على العكس من ذلك ؛ فعلى الرغم من

قافيته وعبقريته الهائلتين بالنسبة لفتى يبلغ من العمر ثلاثة عشر أو خمسة عشر عاماً فقد كانت تُعاكس أو تتناقض تماماً مع القصائد والحكايات التي كتبها فيما بعد فى ثيباكيرا وبوجوتا. وقد اعترف - نفسه - بذلك ويذكر: إنه فى تلك الفترة كان يلعب بالأبيات الشعرية ، ولم يكن قد دخل بعد حيز الأدب ، ولم يكن لذلك أى بعد إبداعى، ولم يكن قد استيقظ للأدب حتى ذلك الحين: لقد كنت فى البداية وهذا ما حدث ، وعلى عكس ما كان يحدث عادةً للكتاب المبتدئين ، فإن جابرييل لم يصدق سفاهاته الأولى ؛ بل أبرز سماتها: من يُريد معرفة من كتب هذه التفاهات فليتوجه برسالة لجابيتو. كان يخطُ هذه العبارة دائماً فى نهايات "سفاهاتى"^(١٠). ولم تكن سفاهات فكانت عبارة عن أشعار أعدّها جيداً بمهارة فائقة كما يتذكرها دائماً بعض زملائه: خوسيه كونسويجرا الذى أصبح لقبه مزاحاً مستمراً: إن صديقى خوسيه كونسويجرا لا يشتكى من لقبه لأنه يقول إن الحماية قد أجهزت عليه. أما سانتو لوماثا ، الذى كانت خلقته الصغيرة والشجاعة سبباً لنكتة: سانتولوماثا يُلَكم / ويكسب أية مباراة / ولكن إذا كانت المباراة جادة / يختبئ كالقارة. أو تشونا إيميرو الذى صورّه هكذا بشقاوته: تشونا إيميرو فاتنٌ أخاذ / ليس لديه وقت يُضيعه / إن البائس قديس.../ عندما يكون نائماً^(١١) .

ويمراجعة تعاون جابرييل جارتيا ماركيز مع خمس مجلات وصُحُف فى الفترة ما بين ١٩٤٠ ، ١٩٤٢ ودوره البارز فى الأعداد الستة الأولى من مجلة الشباب ، حيث تُسجل جوائزهُ وأوسمته بسبب استيعابه الأكاديمى يوضح أن جابرييل كان مستريحاً ومسترخياً فى جو بارأنكيا. ويوضح على وجه الخصوص أنه أحس بالعنصر الطبيعى وهو يتنفس الجو والمناخ الأدبى والفكرى فى القسم الثانى ، حيث ازدادت قراءاته بشكل ملحوظ عن قراءاته الأولى فى أراكاتاكا وسينثى وفى مدرسة كارتخينا دى لاس إندياس "قرطاجنة الأمريكية". وهى توضح أيضاً أن القساوسة والدراسات الأكاديمية والمدرسة بانضباطهما الرهبانى شبه العسكرى كانت بمثابة سترة ضيقة وغير مُريحة بالنسبة له ، حيث إنه نشأ وترعرع مُتمتعاً بمزيد من الحريات ولين الجانب من قبل أجداده. إن فقدان الطفولة الذهبية بدأت تسبب له - مثل الحصوة فى الحذاء - اعتلالاً روحياً معيناً فى كافة الأوساط والأماكن ، حتى ولو كانت الأكثر راحة ورفاهية أينما

وُجِدَ وحيثما حلَّ. وكما يقول ماريو بارجاس يوسا: إنَّ أراكاتاكا كانت جُرحاً وبدلاً
من أن يندمل بفعل الزمن كان يلتهب ولا يتمثل للشفاء. إنَّه الحنين المتزايد بمرور
الأيام ، إنَّه الوجود الباطني الذي اضطر الطفل إلى أن يقيس به العالم الجديد الذي
يحيط به^(١٢).

الفصل الخامس

- ذهاب التعرف على البرد
- نَهْرُ الحياة
- أخطر لحظة في حياته
- منحة من أحد راقصى البوليرو (رقصة أسبانية)
- ثيباكيرا
- مدرسة الليسيه الوطنية للبنين
- أرقام اليانصيب
- الحصبة الأدبية
- الحجر والسماء
- الرئيس كارلوس مارتين
- مجموعة الثلاثة عشر
- البدايات الصحفية : (المجلة الأدبية).
- المدرس كارلوس خوليو كالديرون
- مؤلف القصائد
- الحكاية الأولى
- رسّامٌ فريدٌ

وفى يناير عام ١٩٤٣ وقُبيل أن يُكمل ستة عشر عاماً من العمر واجه جارثيا ماركيز أهم حدث فى حياته ، وربما يكون الأكثر فائدة من جميع أحداث حياته: الخروج من المنزل للبحث عن وسيلة لتمويل دراساته الثانوية ليخفف من الأعباء الأسرية على والده.

وعلى الرغم من النجاح الذى حققه والده فى مجال الطب التجانسى فى سوكرى ؛ كانت الأسرة لا زالت تعيش مواجهة العديد من الصعوبات الاقتصادية الكبيرة ، وكان عدد أفرادها يتزايدون من عام لآخر. وفى تلك اللحظة كان لجابرييل سبعة أشقاء: لويس إنريكي ، ومارجوت ، وعائدة أوليخيا، وجوستابو ، وريتا ، وخايمي ؛ ولم يبق سوى شهرين ويُولد إيرناندو. وبالتأكيد كان أمامه خياران أو بديلان: أولهما أن يبقى مع الأسرة وهو يرى المستقبل يلقى بظلاله القاتمة ، أو ترك الأسرة ، ومحاولة إنقاذ نفسه بمفرده^(١). ومن المحتمل أن قوة إرادة الكاتب التى بدأت تتبلور صوب المصير المحتوم هى التى دفعته أيضاً إلى الخيار الثانى. وهذا ما حدث حيث سافر إلى بوجوتا ومع بعض خطابات التوصية من والده ، عازماً على أن يتقدم إلى المسابقة الوطنية لمنح وزارة التعليم. فاجتهاده العلمى فى مدرسة سان خوسيه وقراءاته الغزيرة والمكثفة والمتجددة ورغبته فى إيجاد وسيلة ملزمة ومُحفزة له فكرياً بنأ فيه الثقة فى المؤسسة الجديدة ، حيث بدأ فيها الطريق المعكوس للابن الضال. ولم يتخيل هذا المراهق الساحلى أبداً أن يواجه - وإن كان متوقفاً - ذلك التناقض بين الكاريبى ومنطقة جبال الأنديز ، الأمر الذى كان يستحيل تحمله لمراهق صغير السن فى السادسة عشرة من عمره.

وبفضل تذكرة نهريّة ومائتى بيزو قدمتها له الأسرة من دخلها الضعيف تمكّن جابرييل من مواجهة أوّل مغامرة مهمة فى حياته. فالأم حزينة لأنها ستفارق نجلها الأكبر من جديد. وقد أعدت له حُلّة من نسيج أسود لوالده مستعينة بماكينه حياكة قديمة ماركة سنجر بالبّدال . وعندما قامت الأسرة بكاملها بوداعه فى الميناء النهريّ، نفس الميناء النهريّ الذى ورد ذكره فى عمله " العقيد لا يجد من يُراسله " ، و "نبأ

موت مُعلنٌ كان جابريل مذهولاً مما يتعذر معه التعرف عليه ، فالحلة التى كان يرتديها تبدو واسعة عليه إلى حد ما ، كما أن القبعة لم تكن مناسبة لرأسه ، ولكى يزداد الطين بلة فإنه كان يحمل صندوقاً أشبه بتوابيت الموتى^(٢) ، وكان يضم الملابس ذات الألوان الزاهية. والمعاطف التى ستقيه البرد فى بوجوتا ، والكتب التى سيقراها من جديد لتحافظ له جيداً على حماسه الأدبية.

وقد قام بجولة فى لنش فى أنهار ماخونا وسان خورخى وماجدلينا حتى ماجانجى حيث استقل الباخرة القادمة من بارانكيا ، حتى وصل بعد أسبوع إلى ميناء سالجار عند سفح جبال الإنديز الشرقية. وقد سافر معه فتیان ساحليون كانوا يبحثون عن منحة أو يعوون من إجازاتهم. ويتذكرهم جابريل جارتيا ماركيز فى " الحب فى زمن الغضب" بوصفهم زمرة من الطلاب المشاغبين المنهكين ، ويخيم عليهم الحنين فى آخر جولات إجازتهم. وكان من بين المسافرين رجلٌ نظيفٌ يرتدى حلةً أنيقة بصديرى ، كأنه هندي أحمر من بوجوتا ، ولم يفعل شيئاً سوى قراءة الكتب ومزيد من الكتب. وقد لفت نظر جابريل كما شدَّ نظر الرجل طريقة إنشاده للأغاني الشعبية مع زملائه لكى يكتسبوا قليلاً من النقود^(٣). لقد حدث بينهما اتصال ودى. وكان هذا اللقاء أحد اللقاءات المهمة فى حياة الفتى جابريل؟ جارتيا ماركيز .

وفى تلك الأوقات كانت الملاحة فى نهر ماجدلينا الشريان النهري التاريخي لكولومبيا تتم فى بواخر من ثلاثة طوابق ومدخنتين بشكل يختلف عن بواخر نهر المسيسيبي كانت عجلة الدفع بها فى المقدمة ، وكانت تمر ليلاً وكأنها قرية مضيئة ، وكانت تترك سيلاً من الأغاني الموسيقية ، وأحلاماً متعددة لدى القرى المتناثرة على ضفة النهر^(٤). إن الرحلة حتى ميناء سالجار يمكن أن تستغرق أسبوعاً أو أسبوعين تبعاً لحالة الباخرة والنهر. ومع ذلك لم يكن التأخير سبباً للقلق لأحد منهم لأن الباخرة بطيئة أو معطلة ، فقد كانت تتحول إلى حفلة عائمة ، وتكمله للجولة الأخيرة. كان الاستمتاع بسيمفونية الطبيعة المتمثلة فى أجزاء النهر التى تمر بها الباخرة وطوفان السنجاب أو البلشون وفصائل البغاوات ، وضجيج القروذ طويلة الذيل ، وأماكن تجمع السمك ، كل ذلك كان يُضفى على صفحة النهر روعة وبهاءً فضى اللون. وكانت التماسيح تستمتع بحمامات الشمس فى وقت الظهيرة ، وفوق البحر تُرضع صغارها على الشواطئ. لقد

كان الملهى الحيوانى يتحول إلى سحر حقيقى عندما يبرز فجر أو يغرب النهار بضوء الشمس الغليظ الأعزل عند الأصيل فى الغابات على ضفاف النهر. وفى السنوات الخمس التالية كان جارثيا ماركيز يُكرر هذه الرحلة الساحرة حتى استقر فى روحه أنها كانت إحدى التجارب الساحرة والمثمرة فى حياته. وبالفعل فإن "نهر الحياة"^(٥) كما سيسميه فيما بعد فى مقاله الصحفى سيصبح فى وقت لاحق نهر الحب فى "الحب فى زمن الغضب" ونهر الموت والهزيمة فى "الجنرال فى متاهته".

وفى ميناء سالجار توجه صوب بوجوتا فى قطار لم يختلف كثيراً عن ذلك القطار الصغير الأصفر الذى كان يراه يومياً قادماً إلى أراكاتاكا فى تمام الحادية عشرة صباحاً وهو طفل صغير. لقد كان قطاراً يُشبه التحفة الفنية، وطوال خط سيره كان يمر بقرى ومناظر طبيعية أقيمت فى زمن برى وهادئ، ويمرور السنوات أصبح هذا القطار الصغير - إلى جانب البواخر ذات المدخنتين - أحد أكبر مصادر الحنين والاشتياق لجبال الإنديز لدى ماركيز: كان قطار ميناء سالجار يصعد الكورنيش الصخري طوال يوم كامل ببطء شديد. وفى المناطق المرتفعة كان يتوقف لكى يأخذ قوة دفع جديدة ليعاود مرة أخرى الصعود وهو يلته كالتنين، وأحياناً كان من الضرورى على الركاب النزول والسير على القدمين حتى الكورنيش التالى لتخفيف حمولة القطار. وكان جابرييل ماركيز يتذكر القرى المتناثرة على خط سيره "بأنها باردة جداً، وحزينة للغاية" حيث كانت تُباع وجبات صفراء اللون، وعصيدة مثلجة كأنها أطعمة مستشفى^(٦).

وكان جابرييل وأصدقائه يواصلون الرحلة بالباخرة، ولكن فى كل مرة بحماس أقل لأنه كلما اقتربوا من بوجوتا يقل الأكسجين ويجمدُ البرد أرواحهم. ولم تكن الأغلبية تُجيد الغناء والرقص فقط؛ بل كان الكثيرون يجيدون العزف بمهارة على الجيتار والأكورديون متسببين فى تبادل القبلات بين العاشقين الولهائين. وسرعان ما يصل القطار اللاهث إلى الهضبة العليا التى يبلغ ارتفاعها ألفين وستمائة متراً، ويبدأ فى السير بسرعة - نجد الرجل الهندى الأحمر، الذى ظلّ طوال السفر يلتهم الكتاب تلو الآخر وقد اقترب من جابرييل وطلب منه أن يكتب له إحدى أغانى البوليرو، وهى رقصة أسبانية من تلك التى غناها هو وأصدقائه أثناء رحلة الباخرة. وقد شرح له الرجل أن

له خطيبة فى بوجوتا ، وأن هذه الأغنية ستنال إعجابها بالتأكيد. ولم يكتب له جابرييل الأغنية فحسب بل علّمه اللحن قليلاً^(٧) بنفس السعادة التى ستساعد بها بيلار تيرنيرا المحبين الهاربين فى ماكوندو. ودون أن يدرك جابرييل بهذا الصنيع قد حالفه الحظ السعيد^(٨) الذى كان يفتقر إليه عند الوصول إلى عاصمة الجمهورية (بوجوتا).

وكان إليسر توريس أرانجو أحد الأقارب البعيدين هو الذى أوصاه والد جابرييل بأن يستقبله فى محطة السافانا فى تمام الساعة الرابعة مساءً ، وعندما رأى مع جابرييل هذا الصندوق الخشبى المحاط بأربطة معدنية أوعز إليه قريبه بأن يحملها فى عربة نقل إلى اللوكاندة التى كانت على بعد ست نواصى من المحطة ، وعندما شرعا فى السير خلف عربة النقل أدرك جابرييل أنه تقريباً غير قادر على التنفس بسبب ارتفاع المكان عن سطح البحر. وقد بدا جابرييل شاحباً ومذهولاً وهو يرتدى حلة والده السوداء ، بعد أن ضببطتها له والدته ، وصندوقه الضخم الذى يشبه تابوت الموتى. بدا جابرييل فتى أراكاتاكا لرفاقه الساحليين الآخرين باللوكاندة بشارع ١٩ كأنه شبح استعمارى أكثر من كونه طالباً ساحلياً.

وكانت اللوكاندة فى منزل قديم دون نوافذ ، وكانت أبوابه تطل على حديقة داخلية بها زهور إبرة الراعى " الجيرانيوم " والياسمين كانت تذكره بالمنزل الذى ولد فيه. وعند إغلاق باب الغرفة كان النزلاء يظنون محبوسين وكأنهم فى خزانة أمنية. ومع ذلك ففى أول ليلة نامها فى بوجوتا لم يستطع جابرييل التخلص من العقدة الخلقية المتمثلة فى كراهيته للأماكن المغلقة ، لأنه بمجرد دخوله السرير صاح صيحة خوف ورعب أفزعته جيرانه النائمين: لقد شعرتُ بأنّ شخصاً شاطره المزاح ، وأنه بلل سريره. وقد شرح له الساحلى الذى كان ينام بجواره وهو يكاد يموت من الضحك بأنّ أحداً لم يمزح معه ، ولكنها رطوبة بوجوتا. وقد أدرك جابرييل حينئذٍ لماذا لا توجد نوافذ بالمنزل ، ولماذا كانت المنازل التى بها نوافذ تُغلق بإحكام شديد خشية شدة الرطوبة. وقد طمأنه مواطنه وهداً من روعه قائلاً: إن هذا مختلف عما فى الساحل ، ينبغى على الشخص أن يتعلّم كيف ينام فى بوجوتا^(٩) .

وطبقاً لتصريحات جابرييل جارتيا ماركيز : فإن ذلك المساء المشئوم من شهر يناير عام ١٩٤٣ عندما وصل إلى بوجوتا ربما كان أخطر لحظة فى حياته : فهى

اللحظة الوحيدة التي اضطر فيها إلى البكاء حُزنًا وغمًا . ولم يكن الأمر أقل من ذلك . لقد كان مراهقًا وخجولاً دون حماية . لقد جاء من عالم ليس مختلفاً فقط ؛ بل على العكس تماماً من ذلك الذى سيواجهه الآن . فقد كان عالمه ترتفع درجة الحرارة فيه إلى ثلاثين درجة فى الظل ؛ عالم لم ير فيه جبلاً واحداً باستثناء المرتفعات الفرعية لسلسلة سيراً نيابداً فى سانتا مارتا حيث كان الأكسجين متوفراً ، وكان ينتابه الإحساس بالاختناق من كثرة الحياة والحيوية ، وحيث تكثر الموسيقى الصاخبة والمودة والنساء والمزاعم لم تكتم الحياة كثيراً ، والجميع - أثرياء وفقراء - ينعمون بسعادة تملأ وجوههم . أما بوجوتا فهى على النقيض من ذلك تماماً ؛ فقد بدت له اضطراباً مدينة باردة وحزينة ذات سماء ومناخ اجتماعى رماديين حيث تندر النسوة ، أو كُنَّ محبوسات ، ويكثر الرجال الحزانى ، وبعض الانجليز المداريين البيروقراطيين الصامتين الذين كانوا يتحدثون بصورة معقدة كما فى قصص فرانز كافكا .

وبعد ذلك بثمانية وعشرين عاماً - وقد غزته سمات من الاشتياق والحنين - وصف جارثيا ماركيز مدينة كوابيسه بهذا الشكل: " إنَّ أوَّل ما لفت انتباهي فى تلك العاصمة المكفهرة كان كثرة الرجال بها وهم يهرولون فى الشارع ، وكان الجميع يرتدون مثلى حُللاً سوداء وقُبَّعات ، وعلى العكس من ذلك لم تكن بها أية سيدة . كما لفت نظري أيضاً تلك الجياد القوية بدنياً التى كانت تجرُّ عربات البيرة تحت هطول المطر ، وشرر عربات الترام عندما كانت تعبر النواصى تحت المطر ، وعوائق المرور لإفساح الطريق أمام الجنائز التى لا تُحصى تحت المطر . لقد كانت الجنائز الأكثر حزنًا فى العالم ، بعربات المحراب الأكبر ، وجياد مكسوة بالقטיפى السوداء ، والخوذات المفتوحة التى تشبه القُبَّعات من الريش الأسود ، وجنازات أفراد الأسر النبيلة حيث كانوا يشعرون بمخترعى الموت . وتحت رذاذ المطر الخفيف فى ميدان نيبيس " الجليد " عند الخروج من إحدى الجنائز رأيت أوَّل امرأة فى شوارع بوجوتا ، وكانت نحيفة وصامته ، وذات وجاهة منقطعة النظير ، وكأنها ملكة وقت الحداد ، ولكننى ظللت إلى الأبد دون إشباع نصف رغبتى الأخرى ، فقد كانت السيدة تُغطى وجهها بنسيج صفيق لا يسمح برؤيته (١٠) .

حينئذٍ وبالقرب من ذلك الميدان فى شارع خيمينيث دى كيسادا ، وأمام مبنى المحافظة كانت أخطر لحظة فى حياته كما فى قصيدة ثيسار بايخو (١١) : لم يقاوم أثر الوحدة وانفجر باكياً (١٢) .

وفى المدينة المليدة بالغيوم الغزيرة الأمطار تحت مظلة المطر والقبعات السوداء والمعاطف استطاع التعرف على الهنود الحمر الذين جاءوا ذات يوم وأخذوا دبلى زواج جديه عندما كان جابيتو فى الخامسة من عمره من أجل تمويل الحرب ضد بيرو. هم أنفسهم الذين كانوا يقومون بكافة الحيل القانونية للدفاع عن مصالح شركة الفواكه المتحدة ، وهم أنفسهم بزى الجنود الذين مروا أمام منزله فى السنوات التالية لمذبحة عمال الموز عام ١٩٢٨ . حينئذ أدرك أن أخطر لحظة فى حياته كانت تحدث فى " عالم آخر" الذى حدثوه عنه وهو لا يزال طفلاً.

ويعد ذلك بأيام استيقظ مبكراً فى تمام الساعة الثامنة صباحاً لكى يقف فى الطابور أمام وزارة التعليم الكائنة فى ذلك الحين بشارع خيمينيث دى كيسادا لكى يسجل اسمه فى امتحان مسابقة المنح. لقد كان الطابور طويلاً ؛ معظمه من الطلاب الفقراء بالبلاد. وبالنسبة لجابيتو الذى كان يتحمل برد وحزن بوجوتا بالكاد ؛ فإن ذلك الصباح كان يبدو له لا نهائياً. ولكن حينئذ عندما كان على بُعد شبرٍ من باب الوزارة ، وعلى غير المتوقع ابتسم له الحظ: جاء الرجل المغمرم الذى كان قد كتب له الأغنية فى القطار قبيل ذلك ببضعة أيام. وسأله ماذا تفعل هنا؟ فأجابه جابرييل بأنه ينتظر فى الطابور لأداء امتحان المنحة ، وكان حزيناً بعد عدة ساعات من الانتظار. حينئذ قال له الرجل: لا تكن جبناً وتعال معى ، وقد اصطحبه إلى مكتبه مجتازاً الطابور : لقد كان المدير الوطنى للمنح^(١٣).

كان يدعى أولفو جوميث تمارا. كان ساحلياً مثله من بلدة ثينثيليخو. وكان محامياً شاباً مثقفاً ، عيّن لتولى هذا المنصب فى ذلك العام فقط. لقد كان المنصب يفرض عليه أناقة ونظافة إنجليزيتين ، كان يتسم بهما هؤلاء الهنود الحمر المتأنقين مثل كبار الموظفين من مواطنى بوجوتا. ولذلك فإن جارثيا ماركيز تذكره بعد بضع سنوات وقال عنه : إنه الهنودى الأحمر العاشق الولهان الذى ساعده فى الحصول على منحة دون مزيدٍ من الإجراءات. وقد أدى جابرييل امتحاناً ممتازاً صححه المدير بنفسه وأجازه. وقد لاحظ جوميث تمارا وهو يصحح أن خط الفتى ممتاز ، فضلاً عن جودة تعبيراته. هذا المراهق الذى لم يتجاوز ستة عشر عاماً من العمر الذى كان قد خطّ له كلمات الأغنية فى القطار لخطيبته ماريا لويسا نونيث. لم تكن مجرد تفاصيل ؛ فالتعبير

الأنيق النمق وجودة الخط كانا أكبر نقطتي ضعف هذا الموظف المثقف البالغ من العمر ستاً وعشرين عاماً.

وعندما سألّه جوميث تمارا عن أى مدرسة يريد الالتحاق بها فى بوجوتا بهذه المنحة ، لم يخطر ببال جابرييل سوى مدرسة سان بارتولومى ، إحدى المدارس الشهيرة بالمدينة منذ العهد الاستيطانى ، التى تعلم فيها معظم أبناء الطبقات القيادية والثرية بالبلاد. وقد كان مدير المنح صريحاً معه: " لن أستطيع إرسالك إلى مدرسة سان بارتولومى لأن كل ما ترى من هذه الأوراق المتكدسة عبارة عن توصيات من الوزراء وأناس مهمين. ولكن لماذا لا تفعل شيئاً؟ اذهب إلى مدرسة ثيباكيرا إنها مدرسة ممتازة وقريبة من هنا" (١٤). وقد شعر جابرييل بخيبة الأمل لأنه لم يستطع دخول مدرسة سان بارتولومى (١٥) ، واضطر لقبول مدرسة الليسيه الوطنية المتواضعة للبنين فى ثيباكيرا والتى لم يسمع عن اسمها من قبل.

إن الغربة والبرودة فى بوجوتا سيعانى منهما لأقصى درجة فى ثيباكيرا. تلك المدينة الاستيطانية الصغيرة الجميلة الواقعة على بُعد خمسين كيلو متراً شمال بوجوتا ، والتى حرارتها وارتفاعها يماثلان العاصمة تماماً. ومثل لا كانديلاريا فإن الحى الرئيسى فى بوجوتا مبنّى أسفل بعض الرُّبى ، وهو بمنزله وشوارعه وميادينه وكنائسه الاستعمارية يُشبه تماماً منازل وشوارع وكنائس وميادين بوجوتا. وبهذا الشكل بدت لفتى أراكاتاكا الحزين مدينة ثيباكيرا والتى كان تعدادها خمسة آلاف نسمة آنذاك صورة مُصَغَّرة لبوجوتا لكنها أكثر برودة وغربة منها عندما وصل مع مساعده للتسجيل بالسنة الثالثة الثانوية فى ٨ مارس (١٦) .

كانت القرية سابقة على اكتشاف أمريكا ، ويشترق الاسم من الأصل تشيكاكيتشا وهى كلمة هندية أصلية تعنى سفح الثيا ، وهى ربوة عن سفحها قام تشييتشاس (الهنود الحمر) بتشيد القرية الأصلية. آخر مقاومة واجهها رجال جونثالو خيمينيث دى كيسادا لتأكيد فتح الهضبة الأنديزية كانت على وجه التحديد فى ثيباكيرا- وليس من العجيب أن أوّل مقاومة واجهوها كانت فى أراضى أراكاتاكا وضواحيها على أيدي مؤسسيها هنود الشاميلاس الحمر المتوحشين - وكانوا قد وصلوا إليها فى أبريل عام ١٥٣٧ .

وبعد مسيرة طويلة ومؤلة من سانتا مارتا عبر نهر ماجدلينا ، بعد أن خلبتهم الطبيعة الجميلة وملح مناجمها . لقد قاوم هنود حمر التشييتشاس السيطرة الاستعمارية خلال قرن تقريباً ، وبهذا الشكل لم يتمكن الأسبان من تأكيد استغلال ملاحاتها إلا بعد أن قضوا عليهم فى ١٦٢٢ . وبالقرب من سفح ربوة ثيبا قام المستعمرون بتشيد ثيباكيرا الحالية ؛ إحدى أجمل مدن منطقة السافانا . وكان نشاطها فى تربية الماشية ، فضلاً عن ازدهارها الاقتصادى وجاذبيتها الاستعمارية ، وكنيستها تحت الأرض من الملح كانت تعتبر إحدى عجائب الدنيا ، كانت سبباً فى أن تُصبح إحدى أهم المدن السياحية فى كولومبيا .

ولكن فى ظل الظروف التى سبق وصفها لم يتمكن جابرييل من اكتشاف مفاتها السياحية ولا الاهتمام بماضيها البطولى: فبساطة شديدة كانت ثيباكيرا بالنسبة له امتداداً خطيراً لبوجوتا . ولذلك فقد حبس نفسه تماماً بين جدران المنزل القديم الذى كان يُقيم فيه ، والكائن قريباً من الميدان . وبعد ذلك بسنوات يتذكر الكاتب كئنه "دير بلا تدفئة ولا زهور" . وفى الواقع لقد كان بناءً استيطانياً رائعاً من طابقين على شكل مربع بسقف من القرميد وشُرُفات من الخشب ، وكان يتم الدخول إليه من باب كبير عمره قرن من الزمان وحول الفناء المستطيل بالمنزل وبين الأعمدة الخشبية وأصص الجرائيوم كانت توجد الإدارة وغرف المدرسين والمطبخ والحمامات . وعبر سلم خشبى كبير ومريح كان يؤدى إلى الطابق الثانى ، حيث كان يوجد المصلى والمكتبة وعناصر عُرف النوم . وفى المبنى الثانى حديث التشييد كانت توجد الفصول والفناء الأكبر المخصص للفسح والراحات .

وكان عدد طلاب المدرسة مائتين وخمسين طالباً من مختلف العرقيات الثقافية فى البلاد ، ومعظمهم حصل على منح داخلية بالمدرسة . وعموماً فإن الطلاب كانوا من أسر فقيرة ، ولكنهم كانوا على كفاءة كبيرة ، ولديهم الرغبة والحاجة فى اغتنام فرصة المنحة . إن فرصة التمكن من الاطلاع على التنوع الثقافى للبلاد ، والتمتع بمستوى أكاديمى جيد بمدرسة الليسيه الوطنية فى ثيباكيرا سيعترف بهما جارثيا ماركيز بعد ذلك بسنوات كثيرة قائلاً : " إننى أعتقد أن أهم شئ فى ثيباكيرا كانت المواجهة بين مختلف ثقافات الدولة ، وليس فقط ثقافة الداخل . وأخيراً أدركت أنه لحسن حظى أنهم أرسلونى إلى مدرسة الليسيه الوطنية فى ثيباكيرا ، لأنها كانت المدرسة الداخلية التى ضمت

المنوحين الفقراء في البلاد. أتذكر أنني كافحت كثيراً لكي أنضم إلى مدرسة سان بارتولومي في بوجوتا ، ولكن هناك لم يكن لدى شيء أفعله : لقد كانت مدرسة التوصيات الكبيرة ، مدرسة الأسر الكبيرة بالبلاد مدرسة السياسيين. ولذلك فقد أرسلوني إلى ثيباكيرا ، وكانت المدرسة الثانية في التصنيف ، وكانت أفضل بكثير. وأنا مدين بكل ما تعلمته إلى الثانوية".

وكان أهم العوامل الحاسمة جودة المدرسين. فكثير من هؤلاء المدرسين الذين قَدِموا إلى مدرسة الليسيه كانوا ماركسيين أو ذوي توجهات تقدمية ، فقد تعلموا في المدرسة العليا على يد خوسيه فرانتيسكو سوكراًس ووزارة التعليم ، وكانوا يتقنونهم في أطراف البلاد حتى لا يسمموا أفكار شباب بوجوتا. وإلى جانب التأثير أيديولوجياً إلى حد ما كانت النتائج ممتازة لأن كل مدرس كانت له سلطة مستقلة في مادته ، وكان تربوياً هائلاً ؛ فمدرس التاريخ مانويل كويو ديل ريو على سبيل المثال لم يكن فقط يُعبر تلاميذه خُفية كُتباً عن الماركسية ؛ بل كان يُدرّس لهم تاريخ أمريكا بشكل دقيق ومحيد. والمهندس إدواردو أنجولو فلوريس رفيق سابق لجارثيا ماركيز يقول عن ديل ريو: " بالفعل لقد أثر فيهم بنظرته الموضوعية عن التاريخ ، وعلى وجه الخصوص في جابرييل: ويعتقد أنه أكبر شخص أثر أيديولوجياً في فتى أراكاتاكا . وكذلك مدرسو اللغة الأسبانية والأدب والرياضيات والفلسفة ظلوا مخلصين في ذاكرة جابرييل جارثيا ماركيز ، وكذلك مجموعة بارزة من الأطباء والمهندسين المعماريين والمحامين الذين أتموا دراستهم الثانوية معه ١٩٤٦ .

وكان من بين العوامل الحاسمة في التحصيل الأكاديمي لجابرييل - بلا شك - النظام الرهباني بالمدرسة الداخلية. فبمجرد أن يدق الجرس في تمام الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً كان ينبغي على التلاميذ الاستحمام خلال ثلاثة أرباع الساعة في الحمامات بالماء البارد على ثلاث دفعات. وفي تمام السادسة والنصف يجب أن يكونوا قد لبسوا ملابسهم جيداً وانتعلوا نعالهم وأظافرهم نظيفة والأسرّة مفروشة ومرتبّة. وبعد تناول طعام الإفطار " شانجوا " (شوربة من البصل واللبن) والقهوة والبيض والخُبز وقطع الخبز المَحْمَص يدخل الطلاب حصصهم الأولى. وفي تمام التاسعة يذهب الطلاب إلى قاعة الطعام لتناول (البسكويت والبقسماط المصحوب

بالماء أو بالخبز. ثم يدرسون ساعتين أخريين لكى يتناولوا فيما بعد وجبة الغذاء فى تمام الثانية عشرة. وبعد الهضم السريع يتوجه التلاميذ فى صفوف إلى الملاعب الرياضية ، على بُعد خمسمائة متر من اللىسيه ، لتلقى حصّة التربية البدنية على مدى ساعة. وفى الساعة الثانية يعودون إلى الفصول الدراسية حتى الرابعة ، ثم يستريحون قليلاً لتناول وجبة خفيفة أو أحد المرطبات. وتنتهى الدراسة فى تمام السادسة ، ويأخذ التلاميذ نصف ساعة للاستراحة ليُستأنف اليوم الدراسى " الفترة الثانية" ومن السادسة والنصف إلى السابعة يتعشى التلاميذ ، وفى الساعتين التاليتين ؛ كان التلاميذ يستقلونها فى عمل واجباتهم الدراسية فى نفس فصولهم ، أو الراحة بالغناء والعزف على أحد الآلات الموسيقية. وأخيراً فى تمام التاسعة يأتى موعد الذهاب إلى الفراش فى عُنابر عُرف النوم بالطابق الثانى حيث يشرف عليهم أحد الأساتذة فى عُرفة نوم مخصصة له فى وسط العنبر ، ولا زال هناك المزيد: فبينما كان التلاميذ ينامون كان المدرس يقرأ بصوت مرتفع فصلاً من القصة المقررة "الجبل السحري" أو "الكونت مونتكريستو" "الجنود الثلاثة المسلحون" ، مدام بوفارى وكنتاكلارو. وعندما يُدرك أن الغالبية قد نامت يغلق المدرس الكتاب ويرقد فى عُرفة نومه.

ومع ذلك فإزاء الغربة والبرودة فى ثيباكيرا ؛ كان هذا النظام الرهبانى بمثابة سبب الخلاص لجابرييل. وعلاوة على ذلك : كانت عطلات نهاية الأسبوع تُزيد هذه الغربة والبرودة ، حيث يظل جابرييل محبوساً فى غرف النوم يقرأ القصص وكتب الشعر بينما كان المساء ينقضى بين أشجار الكافور فى منطقة السافانا. وكان يلعب كرة القدم قليلاً يوم الأحد ، وكان - فى المساء - قد اعتاد الذهاب إلى بوجوتا لكى يتعرف على المدينة الكبيرة ولزيارة اليسوعيين إجناتيو ثالديبار ولويس بوسادا مالدونادو اللذين كانا مدرسيه وصديقيه فى القسم الثانى بمدرسة سان خوسيه فى بارأنكيا. أمّا فيما يتعلق بالذهاب إلى القرية وإلى كنيسة الملح والتسلى مع الأصدقاء ؛ فقد كان كل ذلك يقتله من الملل لبُعده ألف كيلومتر عن أراكاتاكا مدينته الحارة. ولذلك - وبسبب السعادة الغامرة لدراسته الأكاديمية - سيصرح بعد ذلك بثمانية وثلاثين عاماً: إنه بعد أن فاز بالمنحة لإتمام دراسته الثانوية فى ثيباكيرا كان ذلك بمثابة كسبه لليانصيب، ويقول أيضاً إن تلك المدرسة كانت عقاباً ، وتلك البلدة الجليدية الباردة كانت ظملاً. لقد

طمست تماماً المدرسة ، والمدرسة الثانوية. إنه أمرٌ مرعبٌ أن يُخضعوا شخصاً ما لهذا العذاب ، وكطريقة للتدبير بالنظام التعليمي يستشهد بما قاله برنارد شو : منذ طفولته اضطر لقطع تعليمه لكي لا يذهب إلى المدرسة^(١٧) .

ولكن لا ينبغي أن ننساق إلى مبالغاته: فجابريل لم يتفوق فقط على باقى التلاميذ فى تلك المواد التى لم تكن تحظى بإعجابه ؛ بل كان أفضل طالب فى الدفعة من طلاب الثانوية عام ١٩٤٦ . وخصوصاً بفضل اليانصيب الذى فاز به فى بوجوتا ، والعذاب الذى عانى منه فى ثيباكيرا ، فإن حياته اكتسبت خبرة من حيث الجودة لا يمكن التنازل أو التراجع عنها: لقد كان فى المدرسة الداخلية بجنال الإنديز - وفقاً لاعتراقاته - حيث أصيب " بالحصبة الأدبية" لتظهر بكل قوة موهبته ككاتب. وكما سنرى لولا ثيباكيرا لما كان جارثيا ماركيز كاتباً مرموقاً ، وخاصة بدون بوجوتا وإن كان لأسباب مختلفة لن يكون كاتباً مرموقاً بدون أراكاتاكا .

وفى الواقع فإن فيروس الحصبة الأدبية قد أصيب به فى بارأنكيا فى مدرسة سان خوسيه ، أو ربما فى أراكاتاكا نفسها عندما قرأ وهو فى التاسعة من عمره الجزء منزوع الغلاف من كتاب ألف ليلة وليلة. وما فعله الاعتصام فى ثيباكيرا كان بمثابة المساعدة على نمو الفيروس. وبدءاً من مكتبة القرية كانت هناك مجموعة كتب ضمت المؤلفين الكولومبيين فى المحافظة ، حتى مجموعة أراوثنى التى كانت عبارة عن مواجز عن كبار الكتاب الكلاسيكيين ، فإن جابرييل جارثيا ماركيز قد قرأ المكتبة المدرسية. ومن هنا اكتسب تكويناً دقيقاً عن الأدب الكولومبى الذى اتسم بندرة مؤلفيه فى تلك الفترة ، باستثناء الذين درسوه للتخصص فى المرحلة الجامعية. لقد كان الحماس الأدبى كبيراً وكذلك الغربة ، وعندما قرأ كل كتب الأدب ظلّ يلتهم أى نص وقع فى يديه بما فى ذلك ثلاثة أجزاء ضخمة من الأعمال الكاملة لفرويد ، وكتب الماركسية التى أعارها إياه خفية أستاذ التاريخ. أما الروايات التى لم يستطع قراءتها بنفسه ؛ فقد ترك له المدرس حرية اختيار عناوين القصص التى يريدها. ومن بين الكتب الغريبة التى قرأها حينذاك كان أحدها مثمراً للغاية بالنسبة له: نبوءات نوستراداموس ، وكان هذا أحد الأحداث الجرثومية فى شخصية ميليكياديس^(١٨) . وعلى الرغم من ذلك كله فإن ولعه بالشعر ظلّ مستمراً طوال دراسته الثانوية والعام الأول من دراسته الجامعية.

وكانت فى مقابل أيام الدراسة الأكاديمية والتحمس الأدبى الحلقات الليلية حيث كان يتم فيها استعراض العادات والأساطير لمختلف مناطق البلاد على أنغام الجيتار أو الأوكورديون . ويمرور الوقت فإن الجالية الساحلية الغفيرة بدأت تخفف حدة فترة الاحتباس الأولى لفتى أراكاتاكا ، وسرعان ما أحب جابرييل حفلات الرقص فى عطلات نهاية الأسبوع ، التى كان صديقه خوسيه بالينثيا وهؤلاء الساحليون الآخرون يقيمونها فى أى مكان يدعون إليه ، ولكن فى الظروف الأكثر صعوبة فإن الحصة الأدبية لم يكن بالإمكان إخفاؤها ؛ ففى خضم الرقص كان بعض الزملاء يهجون خطيباتهن لكى يجلسوا فى أحد الأركان لتبادل الآراء بشأن الملف اللانهائى للأدب.

إن الذين درسوا مع جارثيا ماركيز أو عرفوه فى تلك الفترة ما بين السادسة عشرة والتاسعة عشرة من العمر يتذكرونه على أنه ذلك الفتى النحيل بعينه الجاحظتين، وشعره الأسود المجعد، والذى كان يحتفى من البرد بسترة كبيرة من الصوف لم يجرؤ أن يخرج منها يديه لأنه لم يتمكن من التغلب على الخوف الملازم له خشية الإصابة بالتهاب رئوى يقضى على حياته فى تلك الهضبة الأنديزية. أما فى الحصص الدراسية ؛ فقد كان جاداً للغاية منتبهاً بورع منقطع النظير . كان يوجه أسئلة كثيرة تتعلق بموضوع الدرس ، وكان يُعجبه أن يسأله المدرسون لكى يستمع الآخرون إلى آرائه ، وخاصة فى مادة الأدب. أما خارج الفصل ؛ فقد كان على العكس من ذلك تماماً كاريبياً أصيلاً؛ مازحاً وساخرأ ، وكذلك متمردأ. أما فيما يتعلق بسلوكياته ، وبعد أن كان يحصل على خمس درجات من خمس درجات فى أراكاتاكا فإن ذلك بدأ يتصدع ، إلى جانب رفاقه الساحليين فى تلك البيئة الصحراوية اعتبارأ من السنة الرابعة الثانوية ، وربما يكون ذلك رد فعل لبعده عن موطنه الأصلي ، ونتيجة للمدرسة الداخلية فى ثياكيرا . فبعضهم - مثل طبيب المسالك البولية أرماندو لوبيث الذى لم يدرس مع جابرييل - قد عرّف كل تفاصيل مغامراته وتعبساته كتلميذ فى مدرسة داخلية ؛ يؤكّون - بالفعل - أن فتى أراكاتاكا عاش فترة من عدم الانضباط التام. ففى الليالى التى كان مدرس الحراسة يرقد مستغرقأ فى نومه كان هو وأصدقائه يتدلون من أطراف ملاءات رُبّطت مع بعضها لكى يذهبوا إلى مسرح ماكدوال ، أو لرؤية

خطيباتهن. ويذكر الشاعر كارلوس مارتين المدير السابق لمدرسة الليسيه عام ١٩٤٤ أنه في بعض الليالي وأثناء غيابه حدث تمويه للقيام بتمرد قام التلاميذ فيه بتبادل إلقاء الوسادات والأحذية على حساب القراءة والنوم. وقد اتصلوا بى - على وجه السرعة - فى المنزل ، وفى رد فعل استبدادى غير متوقع واستثنائى من جانبى أمرت بأن يُشكل التلاميذ صفوفًا وينزلوا إلى الفناء دون إمهالهم كى يُغيروا ملابسهم. وبعد إلقاء كلمة موجزة وسط ظلام الممرات وفى ضوء القمر الخافت ، عاد الجميع إلى عتابر عُرف النوم فى نظام وهدهد. من الذى كان بإمكانه التفكير فى الفائز بجائزة نوبل يصعد السلالم القديمة بالملابس الداخلية رغم برودة الفناء متوجهاً إلى عُرفة النوم^(١٩).

ولحسن الطالع فإن السلوك المخالف للنظام لجابرييل إلى جانب انصياعه الأدبى الأمين لمعلمه كارلوس خوليو كالديرون إيرميذا سيكون لهما أهمية نسبية فى ميلاد الكاتب النثرى القادم.

وعلى الرغم من الحياة الأكاديمية والأدبية المكثفة لتبادل الخبرات فى المعيشة مع زملائه ، والحب والإعجاب الذى أحاط به هؤلاء جابرييل كشخص كاريبى طيب ، فإنه كان يستعيد كامل حيويته الجسدية والعاطفية عندما يعود إلى سوكرى مع الأسرة فى إجازات نهاية العام الدراسى. ولكن تذاكر الذهاب والعودة فى القطار والباخرة لم يكونا فى متناول مصروف جيبه المتواضع ؛ لذلك فقد كان مجلس آباء المدرسة يُقيم السهرات وأنشطة أخرى ، ويشترى بعواندها تذاكر لجابرييل ورفاقه الفقراء جداً للعودة إلى الساحل لرؤية نوبهم. فالحر ، والخضرة ، وشراسة تناول ثمار المانجو والجوافة ، والأغاني والرقصات الطويلة ، والشخصية المتفتحة للساحليين ؛ كل ذلك جعله من جديد فى وسط العواطف المتجددة. وكان يشعر بازواجية الحياة لأنه إلى جانب ذلك أيضاً كان ينتهز فرصة الإجازة لكى يلتهم الكتب التى لم يستطع قراءتها فى المدرسة وهو مضطجع على أريكة فى ظلال أشجار المانجو بمنزل والده الذى - فى نهاية الأمر - استطاع أن يُشيد منزلاً واسعاً بما فيه الكفاية ومريحاً وأبيض كالحمامة ؛ بل شديد البياض على ضفاف نهر لاموخانا.

وفى إحدى حفلات الرقص التى حضرها عددٌ غفير من الطلاب ، بدأ جابرييل يشعر بالحب تجاه طفلة فى الثالثة عشرة من العمر ، أنهت تَوَّادستها الابتدائية :

كانت سليلة أسرة بارشا باردو ، جيران وأصدقاء أسرة جارثيا ماركيز . لقد فتنته عيناها السوداوان الناعستان ، وجيدها النحيف وإيماءاتها ، وحركاتها الغامضة. إنَّ خجله حمله على تجاوز التعريضات الغرامية ، وفي تلك الليلة نفسها طلب منها الزواج مثلما حكاها تماماً فيما بعد في " نبأ موت مُعلن". وعلى الرغم من أنَّ الصغيرة مرسيدس بارشا لم تتأثر بذلك في البداية واضطر إلى الانتظار ثلاثة عشر عاماً. لقد كان يعلم تماماً أنه سيتزوجها. إنَّ هذه الطفلة التي تنحدر من أصل مصري ستُلهم جابرييل أحسن قصائده الشعرية وهو في الثانية.

وعندما عاد إلى المدرسة الداخلية مُتبعاً نفس خط السير لرحلته الأولى في لنش بانهار موخانا وسان خورخي وماجدلينا لكي يأخذ الباخرة - في ماجانجي الموطن الأصغر لمرسيدس - القادمة من بارأنكيا لكي تُقله إلى سالجار ، حيث سيركب القطار الصغير عبر سلسلة الجبال الأنديزية ، ولكن المسافة بينه وبين مدينة هنود حمر الكاتشاكوس كانت تتسع في كل عودة من عام إلى آخر ، حتى أنه بعد عدة أعوام في "الحب في زمن الغضب" فلورينثيو أريثا سيتخلَّى في شبابه عن السفر عبر جبال الأنديز للسفر إلى بيا دي ليا ، وترفض فيرمينا داثا السفر إلى بوجوتا لأنها كانت تعتبرها مدينة تلجبة ومكفهرة ، حيث لا تخرج النساء فيها إلا لُقْدَاس الخامسة. كما أنَّ علاقته بثيباكيرا الجميلة ستعود بعد سنوات في لقاء الآن لم يتحسن في إبداعاته الخيالية: في " مائة عام من العزلة" مدينة كاتدرائية الملح جاء ذكرها عابراً وعارضاً. إنها نفس المدينة الحزينة التي تبعد ألف كيلو متر عن البحر حيث ذهب أوريليانو سيجوندو ليبحث عن فرناندا ديل كارييو^(٢٠).

وبشحنة الاشتياق والحنين المتراكم عند كل عودة كان حتماً أن تكون الأشعار هي أوَّل تعبير عن الحصة الأدبية لجابرييل. كما أنه خلال السنوات الثلاث في مدرسة سان خوسيه في بارأنكيا كان جابرييل قد قرأ أشعاراً كثيرة ؛ تقريباً كافة الأشعار الرديئة كما يقول الكاتب ، ووقتها كان قد كتب أوَّل أشعاره المازحة ، التي نشرها له اليسوعيون في " مجلة الشباب". ولكن ما بين تلك القراءات الأولى وقراءاته عن العصر الذهبي، التي أمدته بالعدة الأساسية. فبالنسبة لي؛ الشعر والأدب سواء ، ولذلك فعندما وصلت إلى

المدرسة فى ثيباكيرا كنت أعرف عن ظهر قلب جميع الشعراء الأسبان الكلاسيكيين. لم أكن أعرفهم فقط بل كنت أتلو أشعارهم وأغنيها^(٢١)، مثلاً فعل أيضاً كايثانو ديلاورا مع جارثيلاسو دى لا بيجا فى "عن الحب وشياطين أخرى". وعلى وجه الدقة ففى العام الذى التحق فيه بالمدرسة الداخلية بجمال الإنديز كانت حركة "الحجر والسماء" الأدبية موضة إلى جانب شعر العصر الذهبى، وسيكون لهما عظيم التأثير فى قصاص المستقبل.

وقد اتخذت جماعة "الحجر والسماء" اسمها من ديوان مشابه لخوان رامون خيمينيث، وقد ضمت منذ أواخر الثلاثينيات الشعراء إدواردو كاراتشا، وخورخى ريوخاس، وأرتورو كماتشو راميريث، وكارلوس مارتين، وداريو سامبير، وتوماس بارجاس أوسوريو وخيراردو بالينثيا. وقد تغذت الجماعة على التأثير المتأخر لرويين داريو، والتأثير الحديث لخوان رامون خيمينيث، وبابلو نيرودا، وتأثير العصر الذهبى من خلال بعض شعراء جيل ٢٧. إن جماعة "الحجر والسماء" قامت بتطوير الأشكال الشعرية التى كانت متصلة بسبب البلاغة الصارخة للرومانتيكية، والبرناسيين والكلاسيكيين الجدد فى كولومبيا، فالاستعارات الشجاعة البراقة لكاراتشا، وروخاس ورفاقهما كانت بمثابة كُرّة من الأكسجين بالنسبة للشباب مثل جارثيا ماركيز الذين كتبوا قصائدهم الأولى. ولذلك يقول القصّاص عنهم: "إنهم كانوا إرهابيّ العصر" ولولا ما فعلته جماعة "الحجر والسماء" لما تأكد لى تحولى إلى كاتب^(٢٢). وقد أكد فى وقت لاحق: "إن ما قدموه لى كان عنصر التمرد ضد النظام الأكاديمى لأننى عندما رأيت ماذا كان يفعله هؤلاء الشعراء بجرأة، أحسست بالتشجيع لى أوصل مسيرتى فى الأدب، فإنه سيستحوذ على إعجابى؛ وبالتالى سأختار ذلك. لقد بدا لى - فى نهاية الأمر - أنه يمكن هز القاعدة فى بالينثيا"^(٢٣) وعبادة الشعراء البرناسيين وعلى الرغم من أنه فى السنة الثالثة الثانوية لم يُدرّس الأدب حتى الآن كان يتم تدريس اللغة الأسبانية إلا أن المدرس كارلوس خوليو كالديرون إيرميذا المولع بجماعة "الحجر والسماء" كان يقرأ لطلابه، ويعلّق لهم على هؤلاء الشعراء. لقد كان هو نفسه ناظماً محنكاً ومخضرمّاً للأشعار، وبين التلاميذ ومعلمهم كان يتم تبادل القصائد والقراءات. وفى بداية السنة الرابعة الثانوية تلقّى المدرس كالديرون إيرميذا ذات يوم وهو فى الحصة طرداً من الكتب ففتحه وشكر الإهداء الشخصى على أحد هذه الكتب، وقرأ

بعض القصائد بصوت مرتفع: كان ديوان "العبور الأرضي" لكارلوس أحد أفراد جماعة "حجر وسما" والذي وصل توأ إلى مدرسة الليسيه الوطنية كمدير جديد لها. فقرأه القصائد ، وكذلك وصول مؤلفها حمّسا كثيراً كلاً من جارئيا ماركيز ورفاقه بالمركز الأدبي "لجماعة الثلاثة عشر"^(٢٤) والذي واصل معهم مختبرات من هذه الأشعار والتقديمات الأدبية التي كان يقوم بها إنيوارو كارانتا في الملحق الأسبوعي ليوم السبت.

وكان كارلوس مارتين آخر المنضمين للحركة الأدبية ، وكان في الثلاثين من عمره ، وقد نشر كتابين ، وكان عاطلاً. وقد طرأت فكرة جيدة لصديقين من جيله بتقدمه إلى وزير التعليم لكي يجد له وظيفة تليق بمركزه ووضع. وبالصدف ففى نفس اليوم من أواخر مارس ١٩٤٤ انتحر المدير السابق لمدرسة الليسيه الوطنية فى ثيباكيرا مدرّس الرياضيات أليخاندروراموس ، وقد عُيّن الشاعر مديراً جديداً للمدرسة. وبدأ عمله بحضور جنازة سلفه فى المنصب إلى جانب تلاميذه. وقد واصل العمل على نهج سلفه ووسائله القاسية. لقد قرّر نهاية التأثير المهيمن للرياضيات الذى كان قد فرضها إليخاندروراموس وأفسح المجال للأدب ، وقام بإلقاء عدة محاضرات ، ووَزَع كتبه على المدرسين والتلاميذ وفرض عادة القراءة الليلية فى عنابر غرف النوم.

وقد حلّ مارتين مدرّس الأدب العالمى محل المدرس كالديرون إيرميديا من أبريل إلى أغسطس أو سبتمبر من ذلك العام ، ولذلك فقد احتفى التلاميذ - وعلى وجه الخصوص جابرييل وأصدقائه الأعضاء فى "جماعة الثلاثة عشر" - بذلك فى سعادة غامرة. وخلال فترة توليه منصب مدير المدرسة التى استغرقت خمسة أو ستة أشهر ركز فيها على تدريس شخصية وأعمال روبين داريو ، وكان بإمكانه أن يظلّ ساعة كاملة فى شرح قطعة شعرية لروبين داريو: موضوعات القصيدة والابتكار الاستعارى والإيقاع الشعرى^(٢٥). وما بين كل قصيدة وقصيدة كان يحدثهم عن حياة الأستاذ النيكاراجوى فى نوادر وحكايات تصويرية رائعة وموعزة وموحية. لقد حدثهم عن ذلك الطفل الحالم روبين داريو بإحدى قرى نيكاراجوا الذى نشأ فى كنف عمته الجدة ، والمفاجأة المذهلة التى حدثت ذات يوم عندما ظهرت له سيدة جميلة للغاية ترتدى ملابس سوداء إلى جانب ملابسها الجلدية ، وقُبعة كبيرة مزودة بريش ، وأكدت له أنها والدته الحقيقية. كما حكى لهم أن أبا الحدائة الأمريكية شبّ وترعرع فى كنف ورعاية عقيد عجوز كان يحكى له

قصص الحروب الماضية. وذات يوم تعرّف على الثلج كمصدر للإلهام الحقيقي. وقد درس روبين داريو على أيدي اليسوعيين ، ونشر أول أشعاره المقفأة وهو فى الثالثة عشرة من العمر^(٢٦) .

وقد ظلّ جابرييل منذ ذلك اليوم مفتوناً بشخصية وأعمال روبين داريو ، كأنه ينظر فى مرآة إلى الحكايات التى ذكرها مُدرّسه ، لأنه أيضاً كان طفلاً حالمًا فى قرية كاريبية فى كنف جدته وشقيقة جده ، وذات يوم وهو لا يزال أقل من أربعة أعوام ظلّ مندهشاً بسبب وجود سيدة شابة حسناء ترتدى ملابس وردية اللون وقد تطيّبت وتزيّنت على عادة أهل المدن وأكدت له أنها والدته. وكذلك على غرار الشاعر النيكاراجوى فإنّ جابرييل نشأ أيضاً فى كنف عقيده مُسنّ كان قد حكى له ألف قصة وقصة عن الحروب الأهلية. وقد اصطحبه جده ذات يوم لكى يتعرّف على الثلج. وعلى غرار الشاعر أيضاً نشر جابرييل أول أشعاره المقفأة وهو فى الثالثة عشرة من العمر ، كما أنه درس مع اليسوعيين. ومما لاشك فيه فإن كثرة المصادفات العديدة بين حياته وحياة الشاعر النيكاراجوى عزّزت إعجاب جابرييل بالشاعر روبين داريو لدرجة أنه أبرز ذلك بشكل خاص فى " خريف البطيريك"^(٢٧) بوصفه مؤثراً ، وبوصفه إنساناً.

ولم يكن التعريف بأبى الحداثة الأمريكية وحده هو الحاسم بالنسبة لجابرييل ؛ بل كانت هناك أيضاً الكتب التى أعارها إياه المدرس مارتين فى تلك السنة ، وعلى وجه الخصوص : الحياة العجيبة للكاتب لخورخى سلّميّا والتجربة الأدبية لألفونسو ريس^(٢٨). وقد عزّزت تلك القراءات تطلعاته الأدبية ، كما أمدّته فى نفس الوقت بأول تأسيس نظرى مهم. كما أنّ المدير الشاعر ضمّ تلميذ الثانوية الشاب إلى نادى الصداقة للشعراء الكبار الأعضاء فى حركة "حجرٌ وسماء".

وبعد وصوله إلى ثيباكيرا ببضعة أشهر تلقى مارتين زيارة قادة الحركة الأدبية المذكورة : إيواردو كارأتشا وخورخى روخاس. وفى تلك الأيام كانت جماعة " الثلاثة عشر" قد طلبت مساندته ومساعدته لإصدار " المجلة الأدبية" لكى تكون بمثابة لسان حال الجماعة. ولم تكن اللحظة مواتية فحسب ؛ بل أدت بصورة حتمية إلى طباعة اللينوتيب : ففى جميع أنحاء البلاد ، وبفضل الحوار الناشئ بين أفراد جماعة "حجر وسماء" ، كان الشعر والأدب فى أوج عظمتهم ، وقد نشرت مجلات فى جميع أنحاء

البلاد . وفضلاً عن ذلك فإنه قد بقي لجابرييل أثرٌ نظراً لدوره الرائع في مجلة "الشباب" في بارأنكيا. وهكذا نصحبهم المدير الشاعر بكيفية عمل وتمويل المجلة ، كما أسهم معهم فيها: بمقال بلاغى مُتقدٌ حيث انتقد فيه حكومة الأقلية في البلاد ودعا إلى حد ما الشباب لاحتلال قصر الشتاء الوطنى^(٢٩). وبالطبع فإن كل عضو من الثلاثة عشر أسهم بمقال له أو قصيدة شعرية أو حكاية. وقد كتب جابرييل وهو فى السابعة عشرة من العمر بكل ما أوتى من قوة ، وكان أوّل عمل صحفى له عبارة عن تحقيق مُقتضبٍ عن الشباب والتعليم والموسيقى فى كولومبيا^(٣٠) ، وبهذا الهدف حضر مع ماريو كونيرس رئيس الجماعة ومدير المجلة البرّاقة إلى مقر إقامة كارلوس مارتين فى منزل ذى طابع استيطانى بميدان ثيباكيرا مع الشعراء الكبار فى حركة " حجر وسماء": إواردو كارأنتا ، وخورخى روخاس. وبالنسبة لطالب فى الرابعة الثانوية كانت تحاصره غزالات الإلهام كان هذا اللقاء مع الشعراء الثلاثة لحظة مهمة ، وقد أبرز ساحة اللقاء على النحو التالى: صالون كبير ذو طابع استيطانى به قليل من الأثاث ، ولكنه كان زاخراً بالكتب وصُور لويس دى جونجرا ، وروبين داريو، وخوسيه أسونثيون سيلبا وباول فاليرى وخوان رامون خيمينيث.

ولكن جابرييل أسهم إلى جانب ذلك فى العدد الأوّل للمجلة الأدبية الشابة^(٣١) فقد كان يشرف على قسم : "شعراؤنا " (المخصص للشاعر خورخى روخاس) وقدم حكاية غنائية بعنوان: " لحظة نهر" ، وقد نُشرت فى باب آخر بعنوان نثرٌ غنائى لجابيير جارثيس ، وهو الاسم المستعار الذى كان يُوقع به كتاباته فى ثيباكيرا. وعلى الرغم من سذاجات فتى فى السابعة عشرة من عمره فإن النصّ الأوّل أو الافتتاحى كان مُوحياً بنبوغ الكاتب : فهو النثر الأوّل لجابرييل الذى يكشف بُعداً بدائياً إبداعياً ، ويُعلن عن صور للأعمال القادمة مثل صور النهر ومطر الأزهار ، كما أنه يرسم أحد الثوابت لقصصه وحكاياته: النقل الأدبى بانعكاس الشخصيات والأشياء فى المرايا (للماء ، والتلج ، والحلم أو للحنين والاشتياق).

وعندما كان الثلاثة عشر ينتظرون اللحظة المواتية لتوزيع المجلة الأدبية حدث شىء غير متوقّع فى التاريخ الكولومبى. قامت مجموعة الضباط المتمردين بإلقاء القبض على رئيس الجمهورية ألفونسو لوبيث روماريو- وهو قريب بعيد لجارثيا

ماركيز من جهة والدته - فى مدينة باشنو فى محاولة انقلاب عسكرى. ولقد بعث كارلوس مارتين برقية تأييد باسم المدرسين وطلاب مدرسة الليسيه لحكومة لوبيث روماريخو التى كان يمثلها بشكل مؤقت نائب الرئيس داريو إيتشانديا. وقد حضر فى نفس اليوم عمدة ثيباكيرا إلى المدرسة بصحبة العديد من رجال الشرطة لمصادرة دعاية تدعو للتمرد ، وهى التى تم إخفاؤها فى فصول المدرسة ، وأخذوا الطبعة الأولى كاملة من المجلة الأدبية. وبعد ذلك ببضعة أيام اتصل وزير التعليم - الذى كان أسند إدارة المدرسة لكارلوس مارتين - بمدير المدرسة وطالبه بالتخلى عن منصبه واستدعاه لمكتبه. ويرجع سبب إقالته وفصله من العمل ومصادرة مجلة جماعة " الثلاثة عشر " كما شرح وهو يُريه المجلة إلى المقال المتقد ضد حكومة الأقلية حيث جاء فى خمسة أعمدة فى الصفحة الأولى من المجلة.

ولكن عام ١٩٤٤ خاصة هو عام القصة الأولى والقصائد الأولى الإبداعية لجارثيا ماركيز. وهكذا لعب مدرس اللغة الأسبانية والأدب خوليو كالديرون إيرميذا دوراً مهماً بارزاً فى تلك اللحظة الحاسمة للبدايات الأدبية لجارثيا ماركيز.

لقد كان المدرس خوليو كالديرون إيرميذا رجلاً عالماً وحكيماً ومتواضعاً. كان عمره خمسة وثلاثين عاماً ، وقد قضى السنوات الخمس الأخيرة يقرأ شعر العصر الذهبى الأسباني فى مدرسة صغيرة فى قرية بمقاطعة أوپالا. وقد اشتهر بكونه رجلاً يقضى على المظالم فضلاً عن كونه منظمًا فذاً للمدارس. والقضية الحرجة التى واجهها هى حل مشكلة مدرسة كان طلابها يقضون معظم النهار فى بيوت الهوى بالقرية. لقد وصل الأستاذ وجمع التلاميذ ، وألقى فيهم محاضرة عن مخاطر الأمراض التناسلية، وقد حكى لهم عن الكتاب والفنانين الذين كانوا قد توفوا بسبب تلك الأمراض ، وقد كان هذا كافياً لكى تعود النعاج الضالة إلى جادة الطريق^(٣٢).

وينفس الحكمة والرصانة لأغريقى قديم شرح المدرس كالديرون إيرميذا الأدب فى مدرسة الليسيه الوطنية فى ثيباكيرا ، حيث أدخل فى قلوب تلاميذه حب الأدب الكولومبى والإسباني والعالمى. ويتذكره جارثيا ماركيز بكل الامتنان والعرفان مثمناً يتذكر مدرسته فى أراكاتاكا التى علمته القراءة والكتابة وتنويع الأشعار الأولى ، وقال عنه جارثيا

ماركيز : " لقد كان رجلاً متواضعاً وحكيماً حيث كان يأخذنا إلى متاهة الكتب الجيدة بون تفسيرات تعسفية أو مصطنعة^(٣٣). وفي بداية السنة الرابعة الثانوية وونهايتها استطاع أن يُقدم لهم هوميروس وسوفكليس ، وبيرخيليو ، ودانتى ، وشكسبير وتولستوى. وفي الصف الخامس الثانوى استطاع أن يعمق معلوماتهم عن العصر الذهبي الأسباني ، وعلى وجه الخصوص جاريثيلاسو وكيبينو ، وفي الصف السادس استطاع أن يُطلعهم على الأدب الكولومبى جيده وسيئهُ مع إصرار دائم على مؤلفى "حجر وسماء".

وهكذا كان العامان الأخيران لجابرييل فى الليسيه مثيرين فى القراءة وإعداد القصائد الشعرية ضمن نزعة جماعة "حجر وسماء". وكل ذلك كان يوقعه باسم مستعار وهو خابيير جارثيس ، وكذلك إسهاماته فى المجلة الأدبية. وبعضها مثل " لا إسبيجا" (السنبلة) و " دراما فى ثلاثة فصول" و "موت الوردة" ، وقد كانت كلها تُعالج موضوعات فرضها المدرس كالديرون إيرميذا ، والبعض الآخر كانت من إلهام الفتاة ميرسيدس ، التى كان يشناق إليها كثيراً ، والتى كانت تنتظره على أحر من الجمر فى سوكرى ، وكذلك من إلهام صديقتين أخريين له فى ثيباكيرا: لوليتا بورأس وثيريليا جونثاليث لا مانكيا. كانت ثيريليا شقراء جذابة ذكية وسخية ، وكانت تُضمد يدها دائماً ، وكانت ذات إعداد أدبى جيد ، وكانت تقرأ لشعراء الموضة فى ذلك الوقت ، وبالتالي لم تكن رفيقة عاطفية فحسب لجارثيا ماركيز ، بل كانت أيضاً فتاة مثقفة استطاع أن يتبادل معها الحديث عن لهفته أو ولعه الأدبى. " فاغنية" و " إذا طرق بابك أحد" " الوجود الثالث للحب" ، و"قصيدة لتلميذة منعمة الوزن"^(٣٤)، ولهذه القصائد - بالفعل - نكهة لا غموض فيها لشاعر ولهان ، ولكنه مزود بالشعر والمؤلفين الذين أعجب بهم. ومع ذلك ؛ فخلافاً لما كتبه من الأشعار عندما كان طفلاً بمدرسة سان خوسيه ، فإن الشاب جابرييل فى ثيباكيرا أصبح كاتباً ذا بال ومزوداً بالعديد من الموارد الأدبية واللغوية تسمح له - وإن كان بشكل انسجامى تنكرى - بالتعبير عن مشاعره وأحاسيسه^(٣٥) .

وكانت قصيدة " أغنية" أقلها نجاحاً ، ولكنها تشرف بأنها كانت أول نشر أدبى لجارثيا ماركيز : حيث نُشرت فى ٢١ ديسمبر ١٩٤٤ فى الملحق الأدبى لصحيفة " الزمن" فى بوجوتا ، التى كان يديرها الشاعر إدواردو كاراتنا. إن نشرها فى ملحق صحيفة

شهيرة طالبت بكافة الإسهامات والمقالات وقد كان ذلك بفضل اللقاء الذي جمع - فى منتصف ذلك العام - جابريل مع كارأناثا نفسه ، وخورخى روخاس زعيمى مجموعة "حجر وسماء". وفى تلك القصيدة جابريل نعى (خابيير جارثيس) يرثى الموت المأساوى لصديقه لوليتا بورأس الذى حدث منذ بضعة أشهر مضت.

على الرغم من أن قصائد جابريل كانت أفضل من قصائد مُعلمه ، فإن هذا كان يُلح عليه بأن مجاله هو النثر. لقد كان كالديرون إيرميذا يرى أن غالبية قصائد تلميذه كانت تنطوى على عناصر وطبيعة روائية ، أى أن قصائده كانت شعراً يتم التعبير عنه بسهولة فى عالم الأشياء التى تحدث. كلما كتب جابريل قصيدة كان يبحث عن معلمه ويقول له: "أستاذى مارأيك فى قصيدتى؟" وكان المدرس يمتدحها ويثنى عليها بأمانة ، ولكنه كان يكرر له دائماً: " لا تنس أن مجالك هو النثر" ، وحضه على كتابة الروايات ، وأن يواصل القراءة لكبار كُتّاب النثر. وبالطبع كان جابريل يقرأ لهم ، ولكنه كان مُصمماً على رغبته فى أن يُصبح شاعراً ، وفى اقتناعه بأنه فى قرارة نفسه يدافع ويمارس دائماً فكرته: إن الأدب هو فى المقام الأول شعر". ومع ذلك فإن عزم وتصميم المدرس والسلوك السئ لجابريل - خلال العامين الأولين - سيعطيان ثمارهما سريعاً لأن مُدرس الأدب كان - من قبيل الصدفة - مسئول الانضباط بالمدرسة. وفى كل مرة كان جابريل يرتكب فيها فعلة شنيعة كان المدرس يأمر بتطبيق عقوبة مثالية على التلميذ (انطوت بعضها على تهديد جاد بالفصل) ، وكانت تلك العقوبة تُخفف بأخرى أكثر مثالية أو نموذجية ، حيث كان يفرض عليه أن يكتب له حكاية أو قصة قصيرة لليوم التالى^(٣٦). هكذا كان الأمر أو على الأقل فى هذا السياق كما كتب جابريل جارثيا ماركيز ذات يوم. وفى أواخر السنة الرابعة الثانوية كتب جابريل أول قصة له: " اضطراب عقلى متسلط على الذهن"^(٣٧) .

كانت عبارة عن قصة لفتاة تحولت إلى فراشة كانت تطير وتطير ، وحدث لها كل شئ. ويتذكر كالديرون إيرميذا وبعض زملائه السابقين الحكاية تماماً لأن قصة جابريل سببت لهم متعة حقيقية. واعتباراً من تلك اللحظة بدأ البعض يرى فى جابريل قصاص المستقبل ذا خصائص استثنائية . ويفضل حماس المدرس فإن القصة انتقلت من يدٍ إلى أخرى حتى وصلت إلى أمين الليسيه الذى قرأها بالحماس نفسه ، وقال إنها تُشبه

قصة كافكا " المسخ ". ولم يكن جابرييل ولا مدرسه ولا أى من رفاقه قد سمع حديثاً عما يُسمى بكافكا الذى لم يكن معروفاً فى كولومبيا إلا لدى قلة قليلة فقط. وقد أخذت قصة الكاتب التشيكي إلى الفصل وتليت بعض أجزائها. ويذكر كالديرون إيرميذا أن الجميع ظلوا مندهشين من التشابه بين القصتين^(٣٨). والأمر الذى لا يمكن شرحه أنه فى تلك اللحظة لم يكن جارثيا ماركيز قد قرأ بعد قصة " المسخ " لكافكا والتى قرأها بعد ثلاثة أعوام لاحقة فى الصف الأول بكلية الحقوق ؛ أى فى العام الثانى أو الثالث من مسيرته الأدبية ، ومما لا خلاف عليه هو أن الجميع بالإجماع قد احتفلوا بالقصة الأولى لجارثيا ماركيز وكونه قارئاً نهماً وشرهاً .

وكانت أهم سمات جارثيا ماركيز البارزة لسنواته فى ثيباكييرا والسنوات الأولى لمسيرته الأدبية تكمن فى ذاكرته الهائلة ، وسهولة الكتابة لديه ، وقدرة كبيرة على التقليد ، وثرث لغوى ملحوظ . كان مصدره الأساسى معجم الجد والأجداد أنفسهم. كما كانت فترة نُضج لتأمل الواقع ومقابلته بما يقرأه أو العكس ، ولكن الأدب سيطر إلى الأبد تلك المادة الأكاديمية الفكرية تقريباً التى تُؤخذ من الكتب لتُعرض كزُخرفٍ للنفس فى دردشات القهوة ، حيث إن العمل الأدبى المتأصل فى الواقع والموجه إليه لم يستيقظ فيه حتى عودته إلى قرطاجنة وبارانكيا بعد المعيشة فى بوجوتا .

إنَّ ولعه بالرسم الذى بدأ فى أراكاتاكا وهو فى الرابعة من عمره ظل مستمراً فى مدرسة سان خوسيه ، وبلغ أوج ذروته - كهواية مهيمنة - فى الصفين الثالث والرابع الثانوى ، حيث بدأ يتلاشى بالقدر الذى كانت تنمو فيه الحصبة الأدبية لجارثيا ماركيز. وبما أنَّ الرسم موهبةٌ مرئية يمارسها جابرييل خلال حصص الملل والسأم ، وفى أوقات الفُسح ؛ فقد ظلت مظهراً فنياً خالداً لجابرييل بين المدرسين والزملاء. ولم ينس هؤلاء براعته فى رسم سيدات عاريات بورودهن وقططهن وحُمُرهن. وعلى الرغم من مدرس الأدب نفسه الذى كان مُقتنعاً بأنَّ الأدب هو المجال الأمثل لتلميذه ، فإنه فى أكثر من مرة قد فكَّر بأنَّ جابرييل فى الواقع سيكون مجاله الأوحى هو الرسم. وبما أنه كان يقضى الساعات تلو الساعات يرسم القطط ، والحُمير، والورود؛ كنت أعتقد أنه سيكون رسّاماً. وفى الواقع كلنا كُنَّا نعتقد أنه سيكون رسّاماً لأنه كان رسّاماً رائعاً. لقد كان بارعاً فى هذا الفن ؛ فبدون أن يرفع يده كان يرسم حماماً أو قطاً أو وردة. وكان الشخص يظل مذهولاً وهو يتأمل كيف كان يرسم دون أن يرفع يده^(٣٩) .

وذاث يوم كان قد رسم كاريكاتيراً للمدير أليخاندرى راموس، وهو رجلٌ يخشاه الجميع بسبب قسوته ، وصرامته ، وعدم تسامحه ، والذي انتحر فى وقتٍ لاحقٍ. وقد وُلِدَ الكاريكاتير إعجاباً وسروراً بين المدرسين ، والتلاميذ، وقد طلب كالديرون إيرميدا الكاريكاتير لكى يُريه لصاحبه. وقد توسل جابرييل كثيراً متضرعاً ، وقائلاً لمدرسه "كيف تجرؤ يا أستاذى على ذلك؟ إذا فعلته فسيطردونى من المدرسة"^(٤٠). وقد طمأنه المدرس بأن ذلك لن يحدث ، ولن يُطرد ، واطلع المدير على الكاريكاتير. وعلى عكس ما كان يتوقعه الجميع ؛ لقد تحمَّس المدير كثيراً لذلك ، وأبلغ جابرييل أنه إذا كان يريد أن يكون رسّاماً فهو على استعداد أن يحصل له على منحة لدراسة الرسم فى مدرسة الفنون الجميلة فى بوجوتا. وبعد ذلك بعامين سترك جابرييل دليلاً آخر على موهبته العبقرية كرسّام عندما كوّن فُسيفساء من الكاريكاتيرات تَضمُّ مدرسيه الثلاثة عشر إلى جانب أربعة وعشرين من زملائه فى التخرج تم الاحتفاظ بها فى مدرسة الليسيه الوطنية فى ثيباكيرا إلى جوار الفُسيفساء الحكومية لدفعة الثانوية عام ١٩٤٦ ، حتى استحوذ الولع على جابيتو بذلك.

وبالتعبير المتنوع لذكائه وموهبته ، فإنَّ طالب الثانوية ذا التسعة عشر ربيعاً قد أدّى إلى بثِّ الغموض لدى جميع الناس بشأن موهبته الحقيقية: فلم يكن أحدٌ يعلم عن يقين أن قارئ أراكاتاكا الشره سيكون رسّاماً أو صحفياً أو شاعراً أو قصاصاً. ومع ذلك فإن مدرسه كالديرون إيرميدا أكبر مشجعيه حينذاك قال له معبراً عن رغبته ، أكثر من كون ذلك تشخيصاً أو تنبؤاً: أنت شاعر ، ولكنك لابد أن تستمر فى كتابة نثر ، وتواصل قراءة المزيد من القصص ، والروايات لكى تكون القصص الأول فى كولومبيا^(٤١).

وبعد عشر سنوات ، عندما نشر قصته الأولى قام الكاتب بتكريم خاص لمدرسه العالم السخى جزاء ما أرشده فى متاهة الكتب الجيدة محدداً بذلك مصيره الأدبى.

الفصل السادس

- طالب الحقوق
- أثينا الأمريكية اللاتينية
- رحالة بين البارات والمقاهي
- الأصدقاء الكاشكيون من الهنود الحمر
- الحياة الجامعية
- القضية الخاسرة
- ترام الأشعار
- ليلة ساهرة مع كافكا
- الاستسلام الثالث
- نبوة أوليس
- على نهج شهرزاد ، وكافكا ، وترانكلينا

أُسِّسَت المدينة الجامعية فى بوجوتا فى عهد الحكومة الأولى لألفونسو لوبيث بوماخيرو فى منتصف الثلاثينيات ، وكانت فى ذلك الوقت بضواحي المدينة. وفى المساحات الخالية بين مبانى الكليات ، تلك المساحات الشاسعة من الساقانا البوجوتية التى كانت لا تزال جميلة ، وفسيحة ، وتكثر بها أشجار الكافور والصنوبر حيث كان يتجول جابرييل ويتبادل الأشعار مع رفاقه المحبين للشعر الغنائى خلال أربعة عشر شهراً درس فيها الحقوق بالجامعة الوطنية.

وعند العودة من سوكرى ، حيث كان يقضى الإجازة مع والديه التحق فى فبراير ١٩٤٧^(١) بالصف الأول بكلية الحقوق ، ولم يكن ذلك لحبه فى دراسة القانون ؛ بل لأن دراسة القانون كانت فى ذلك الحين الأقرب إلى اهتماماته الإنسانية ، كذلك لأن الجدول الصباحى فى الجامعة كان يسمح له أن يكتسب قليلاً من المال بالعمل فى المساء بصفة متقطعة. ولكن ربما كان لديه سببٌ قديمٌ لهذا الاختيار ، وهو أنه عندما كان جابرييل طفلاً رأى أن المحامين هم الذين كانوا يفوزون بتصفيق الجمهور فى الأفلام السينمائية ، وهم يدافعون عن قضايا خاسرة. ومن ناحية أخرى ؛ فإنَّ الوالد كان تَوَاقُفاً لكى يدرس نجله الأكبر فى الجامعة حيث إنَّ الفقر حرمه من ذلك ، وكان يتمنى أن يتخرج جابرييل صيدلانياً لكى يحل مكانه فى الصيدلية. ومع ذلك فإنَّ الأمل المكنون لدى الوالد كان أن يرى نجله قسيساً ، ليس بسبب الوازع والاقتناع الدينى بل للحاجة المادية: كان جابرييل إيلخيو يُفكر فى أن أوقات العسر العسيرة ستتحول إلى يُسرٍ تام طالما أن هناك قسيساً بالأسرة^(٢).

ولكن سرعان ما تغير شباب أراكاتاكا الخجول والحزين ، وبدأ يستبدل بالقانون الإلهى الأشعار العالمية والقشتالية ، التى استمر يطلع عليها فى بارانكيا وثيباكيرا ، وظلت تُمثل شغفه المهيمن ، وخصوصاً أن حصص الإحصاء والسكان كانت تُصيّبه بالملل إلى أقصى حد^(٣) ، وكذلك القانون الدستورى - حتى إنه رسب ذلك العام- وكان يقوم بتدريس هذه المادة صديق المستقبل ورئيس المستقبل أيضاً ألفونسو لوبيث ميتشلسن .

وهكذا ؛ فإن معظم الأربعة عشر شهراً التى قضاهما بالجامعة تغيب فيها عن محاضراته ، منتقلاً ما بين كافتيريات ومروج الكلية تحت ظلال أشجار الكافور والصنوبر أو فى المقاهى الصاخبة فى شارع ٧ ، حيث حاول الحصول على موعد ولو عابر سريع مع جرسونة المقهى ، وحيث كان دائماً يتبادل الأشعار والأشعار مع زملائه الذين أصابهم مثله الغزاة الشعرية، وهم كاميلو توريس ، وجونثالو مايارينو ، ولويس بيار بوردا الذين كُون معهم رباعياً شعرياً خاصاً .

وكانت بوجوتا حينذاك مدينة تعددها سبعمائة ألف نسمة - قبيل اغتيال الزعيم الشعبى خورخى أليسير جايتان- كانت مدينة هادئة مثل الهضبة الأنديزية بروح قرية قشتالية كبيرة لا تزال تحتفظ بطابعها الاستيطاني ، ولكن سكانها سمحوا لأنفسهم بمفارقتها والعيش بأنواق وعادات إنجليزية ، العيش دائماً متطلعين إلى لندن. وكان أحد المسئولين عن هذا الاختلاط الثقافى هو مؤسس المدرسة النفعية جيريمى بنتهام الذى أثرت نظرياته الاقتصادية والسياسية فى القانون الكولومبى فى القرن التاسع عشر. وجدير بالذكر أنه فى أوج عظمة النزعة النفعية ظهرت فى كولومبيا طبقة " الكشاكوس" التى تضم محامين وتجار ، وخطباء ليبراليين ، وقد أطلق عليها هذا الاسم نظراً لارتدائهم الزى على الطريقة الإنجليزية^(٤)، وقد تحوّلت هذه الشهرة بمرور الزمن إلى لقب يُطلق على أهل بوجوتا ، وبصفة عامة على كافة سكان الأنديز فى كولومبيا .

ولكن هذا كان أحد مظاهر الانفصام الثقافى فى جميع أنحاء البلاد ، حيث إنه على الصعيدين اللغوى ، والأدبى كان الشعب - بالطبع- أكثر قرباً من مدريد مقارنة بلندن؛ فكولومبيا ، وبوجوتا على وجه الخصوص كانت تفخر وتزهو دائماً بأنها تتحدث الأسبانية الأصلية أفضل من بقية بلدان أمريكا اللاتينية ، وقد حافظت على ثقافة المقاهى ، والتيارات الأدبية ذات الطابع المديدى. ولم يكن الأمر أقل من ذلك ؛ لقد أسس جونثالو خيمينيث دى كيسادا مدينة بوجوتا ، وهو أحد الغزاة الأسبان المثقفين القلائل فى الأمريكتين ، واستناداً لما قاله المؤرخ خيرمان أرسينيجاس ؛ فقد بدأت معه الحياة الأدبية بالمدينة فى ٦ أغسطس ١٥٣٨^(٥) عندما أعلن البدء فى تشييد المدينة كما لو كان يمثل مشهداً مسبقاً من دون كيخوته. وعندما تم اختيار المكان الذى ستقام عليه المدينة نزل الفاتح الغرناطى من فوق صهوة جواده ، وانتزع قليلاً من العُشب ،

وقد سار بعظمة كيخوتية (مزيج من الشجاعة والزهو المقترن بالطيش) وأعلن تأسيس مدينة سانتا فيه (والتي سُرعان ما أُطلق عليها سانتا فيه دي باكاتا باسم امبراطوره كارلوس الخامس) ، ثم امتطى صهوة جواده مرّة أخرى وأخرج سيفه من غمده متحدياً كل من يعارض خطته التأسيسية : بالضبط مثلما فعل العبقري النبل دون كيخوته دي لا مانشا.

ومنذ ذلك الحين والحياة الأدبية تعيش موازية للحياة اليومية والإدارية بالمدينة، وقد فرضت الشكليات نفسها على الواقع الحى للدولة. ولعزلتها عن باقى البلاد ؛ فهي تقع على ارتفاع ألفين وستمئة متر فوق مستوى البحر فى سلسلة المرتفعات الشرقية لجبال الأنديز ، وتكثر بها الكنائس ، والأديرة ، ومدارسها الدينية. إن بوجوتا التنكزية عانت من المفارقة الأخرى - حتى نهاية حقبة الأربعينيات - لكونها أقرب إلى الله والأدب أكثر منها إلى تاريخ ومصير الدولة. وقد بلغ الأمر أنه خلال الخمسين عاماً الماضية ساد العُرف بأنه يتحتم على من يُريد أن يتولى منصب رئيس الجمهورية أن يكون كاتباً أو شاعراً أو نحوياً. وبهذا الشكل؛ فإنه فى جمهورية الآداب والسياسة الاجتماعية أصبحت المقامى الأدبية فى بوجوتا - منذ الحُقب الأخيرة فى القرن الماضى- أبراجاً عاجية حيث يتصافح فيها السياسيون ، والكُتاب ، والطلّاب ، وكانوا يختبرون قدراتهم وهم يتناولون القهوة دون أن يكثرثوا بمن الذى كان يدعوهم ، ومن الذى كان يدفع الحساب. ولكن كما كان متوقّعاً فإن معظم الأدب المنتج فى ذلك الوقت كان يقوم على الحنين والاشتياق والأساليب القشتالية ، بعيداً كل البعد عن الواقع الفعلى للبلاد. ومع ذلك؛ فقد كانت مدينة بوجوتا الوحيدة بين مدن كولومبيا التى تتمتع حقيقة بالحياة الثقافية القوية والنشيطة. ولذلك؛ فقد أطلق عليها الأرجنتيني ميغيل كانيه الوصف الطنان: " أثينا أمريكا اللاتينية" ، بينما نعتها العظيم روبين داريو بأنها هى التى وجهت كولومبيا بأسرها إلى " بؤرة العقول السامية". ولم يألّف البوجوتيون فقط هذه الأوصاف المُبالغ فيها؛ بل استخدموها ، وعملوا على نشرها حتى الاستنزاف . وذلك لأنّ مكتباتها العامة والخاصة ، ومسارحها ، ومطبوعاتها الصحفية ، ومقاهيها الأدبية المتحمسة فى شارع ٧ لم تُكذّب شيئاً من تلك الأوصاف. وقد كان هذا أكبر حافز- إلى جانب الأصدقاء الكتشاكوس من المحامين ، والخطباء الليبراليين والتجار- وجده جارتيا ماركيز فى بوجوتا خلال الأربعينيات.

وكما رأينا فإن أثينا أمريكا اللاتينية كانت بالنسبة لجارثيا ماركيز تعنى "التوجس والحزن" منذ ذلك المساء المشنوم فى يناير ١٩٤٣ ، عندما وطأت قدماه رصيف محطة السافانا وهو لا يزال فى السادسة عشرة من عمره ، ذلك المساء الذى انفجر فيه باكياً أمام مبنى المحافظة فى وسط شارع خيمينث دى كيسادا . ولكن تصريحاته المتكررة التى لم تكن مبالغاً فيها قد فُسرَت حرفياً من جانب بعض الدارسين الذين أغفلوا الأهمية الإشعاعية التى كانت لبوجوتا ، وبعض أهاليها فى حياة وتكوين الكاتب لأن الحقيقة التى لا مرأى فيها هى أنه لولا لقاء وتجدد اللقاء لجارثيا ماركيز مع مدينة الكتشاكوس ، والتأثير الحاسم لبعض شخصياتها البارزة ؛ فمن المحتمل أنه لولا المدينة وشخصياتها لما كان جارثيا ماركيز الكاتب المرموق الذى نعرفه خاصة أنه حينما يعتقد بأن المدينة بالنسبة له كانت تعنى " التوجس والحزن" ، فقد منحها بذلك شيئاً جوهرياً: التعبير عن وجهة نظر. ولكن أهم شىء لاحق هو أصدقائه الكتشاكوس ، والجو الأدبى لمقاهى المدينة ، وإن كان فى سنوات لاحقة بعد عودته إلى الكاريبى قد اكتشف أن بوجوتا كانت أكثر فكرية وحرية منها حيوية ونشاطاً ، ولذلك فهى بريئة مما انتابه من أحاسيس ومخاوف وتوجسات.

وهذا الجو الذى كانت تتسم به مدينة بوجوتا الدينية الشهيرة وتُرَاماتها البطيئة ، وأمسياتها الرمادية لكثرة الدُخان فطالب يكره الجامعة مثل جارثيا ماركيز كان يقضى اليوم فى شارع ٧ ما بين ميدان بوليفار ، وشارع ٢٤ يدخل باراً ويخرج من آخر باحثاً عن كُتَاب ، وأصدقاء أو عن ركنٍ ليواصل قراءة الكتاب الذى بين يديه. وبالفعل ؛ فقد كان جابرييل يُفضل كل هذا على الجامعة. وفضلاً عن ذلك ؛ فقد كان أمام جارثيا ماركيز سلسلة من المقاهى لكى يختار أفضلها: الاستورياس والمولينو ، والجاتو نجرى (القط الأسود)، والأوتوماتيكو ، والكولومبيا ، والرین حيث كان بوسعه لقاء أصدقائه مثل قس المستقبل المحارب كاميلو توريس جونتالو مايارينو ، ولويس بيار بوردا ، وبيلينيئو أبوليو ميندوثا أو إدواردو سانتا ، وآخرين للتحديث معهم عن السياسة لقتل الوقت الرتيب البطى بمنطقة السافانا. وكانت بعض هذه المقاهى تعد موائد خاصة بالطلاب الذين كانوا يلتفون حول شخصية مهمة سياسية أو أدبية ، أو حتى لمجرد الجلوس للدرشة فيما بينهم وإنجاز مهامهم الجامعية. وكان هؤلاء يعرفون أنهم بخمسة

سنتى من البيزو يستطيعون الحصول على منضدة ، وقهوة ساخنة ، وإلى جانب ذلك جلوسهم بالقرب من الشعراء مثل ليون دى جرييف ، وخورخى ثالاميا ، وإدواردو كارانثا ، وخورخى روخاس أو رفائيل مايا^(٦). وكان جابرييل دائماً خجولاً لكى يقترب من الأسماء الكبيرة ، ومع ذلك فقد كوّن صداقة كبيرة مع الشعراء الشبان مثل دانييل أرانجو ، وأندريس أولجوين اللذين أطلق عليهما إدواردو كارانثا الجيل الشاب ، وكان جابرييل قد قرأ أشعارهما فى ثيباكيرا ؛ فقد كانت صديقتة آنذاك ثيثيليا لا مانكيتا (مقطوعة أو جريشة اليد) قارئة لأرانجو.

وفى ظلال المقاهى ، وبالاشتراك مع أصدقائه ، فإن القراءات البوجوتية لجابرييل قد أدت إلى إثراء قراءاته فى ثيباكيرا. وظل شعر العصر الذهبى العمود الفقري لقراءاته حتى عثر على كافكا فى أغسطس عام ١٩٤٧ فرومانس جارتيلاسو ، وكيبينو ، وجونجورا ، ولوبى دى بيجا ، وسان خوان دى لا كروث ، وفران لوييس دى ليون ، وكذلك بعض شعراء جيلى ٩٨ ، ٢٧ تعرّف عليهم جيداً الكاتب المبتدئ حيث ظلّ يقرأ لهم طيلة خمس سنوات. ومن بين الشعراء الأمريكيين اللاتينيين الكبار الذين قرأ لهم روبين داريو ، وبابلو نيرودا ، وللكولومبيين بورفيريو باربا خاكوب ، وليون دى جرييف فضلاً عن شعراء جماعة " حجرٌ وسماء ". ولم يكتف فقط بقراءة الأشعار تلو الأشعار ؛ بل كان يقرض الشعر أيضاً كما فى بارأنكيا وثيباكيرا. ومنهما قصيدتان " الجغرافيا الزرقاء " ، و " قصيدة من خلال قوقعة " قام بنشرها لويس بيباز بوردا ، وكاميلو توريس فى " لا بيدا أونيبيرسيتاريا " (الحياة الجامعية) وهو المحلق الطلابى الذى كانا يديرانه ، ويُسرفان عليه فى صحيفة " لا راثون " (العقل)^(٧) حتى هجر جارتيا ماركيز دراسة الحقوق، والتحق بالمعهد الإكليريكى الكبير فى بوجوتا.

وكان شاعر أراكاتاكا الشاب قد أطلق شاربه ، ودخن بشراهة وارتنى سترات ذات لياقة مغلقة. وكان من الشائع أن تقاليد بوجوتا ستقرض عليه استخدام رباط عُنقٍ تمشيًا مع الحُلل (الزّي) الكاريبى. ويتذكر بيلينيو أبوليو ميندوتا الذى تعرّف على جابرييل فى تلك الفترة ، وأصبح رفيقه فى مغامراته الصحفية ، وأصبح من بين أصدقائه الكبار يتذكره على النحو التالى: "كان شاباً ساحلياً يرتدى زيّاً مخالفاً لزي بوجوتا، حيث كان يرتدى ملابسه على الطريقة الكويتية ، كما كان يرتدى رباط عُنقٍ

وقميصاً. كان نحيلاً وشاحباً للغاية ونشيطاً وحزيناً ، وكان سريعاً مثل لاعب الكرة الأمريكية (بيسبول) أو مطرب رقصات الرُмба^(٨). وسُرَّعان ما اقتحم كالبرق المقاهى أو بعض الحفلات الاقتصادية مخالفاً بزيه الأبيض ورباط عنقه ، وجواربه الملونة الزاهية ، وجارحاً الإحساس الإنجليزي لأهل بوجوتا الذين اعتادوا ارتداء حُلل رمادية داكنة حزينة.

ويزى بعض رفاقه بالجامعة أن جابريل مواطن كاتاكا مثلما يقول بلينيو ميندوثا كان " قضية خاسرة" : فهو عندما كان يذهب إلى المحاضرات كان يذهب متأخراً لأنه ربما يكون قد سَكِرَ فى الليلة السابقة أو قضى الليلة فى بيت من بيوت الهوى. وكان يبرر عدم حبه لحضور المحاضرات بأنه يُعانى من السُّل ، وأنه يعانى من مرض الزهري ، و أنه مريضٌ بالالتهاب الرئوى ؛ وبينما البعض كان يصدق مرضه المصطنع ؛ كان البعض الآخر يعتبرونه شخصاً يتلذذ بالألم^(٩). لقد كان شخصاً ضعيف النفس منهاراً ، ولذلك لم يتوقع له أحدُ مستقبلأً واعداً إلا قلة قليلة على الرغم من أنه كان بين أصدقائه أكبر المولعين بجنوات الأدب.

إنَّ الانطباع المأخوذ عن جابريل لم يكن شيئاً آخر عما ذُكِرَ؛ فقد كان يعيش بعيداً عن أسرته وموطنه. كان يُقيم فى مدينة تصيبه بالحزن حتى نخاعه العظمى. كان يعيش بين أناس لم يشعر تجاههم بالارتياح . كان يدرس تخصصاً غريباً عليه ، وكان أحد الطلاب الفقراء جداً بالمدينة الأكثر تفرنجاً ، وتأنقاً فى البلاد. وقد أقام فى لوكاندة للطلاب الساحليين فى شارع فلورين القديم ، وحالياً شارع ٨ حيث كان يشارك صديقه دومينجو مانويل بيجا غرفة متواضعة ، وعلى الرغم من أن دخله كان متواضعاً ، فقد كان يدفع أكثر من المقيمين فى نفس اللوكاندة لكى يقدم له أصحابها بيضة مع الإفطار ؛ فقد كان الوحيد الذى يتناول بيضاً على الإفطار بين جميع نُزلاء اللوكاندة^(١٠) .

وخلال السنوات الأربع التى قضاها فى ثيباكيرا ، والعامين الأولين فى بوجوتا ظلَّ جابريل يُعانى من فيروس الوحدة ، وكان تعبيره الملحوظ هو الإحساس بأنَّ وجوده لا قيمة له، وأنه كان أجنبياً فى جميع الأنحاء باستثناء الكاريبى ، وعلى وجه الخصوص فى قرطاجنة و بارأنكيا. ومن المحتمل أنَّ الإحساس بالغربة كان قد تولَّد لديه قبل ذلك

بسنوات عديدة: فمنذ كان فى العاشرة من عمره ترك أراكاتاكا ومنزل أجداده. ومما هو صحيح يكمن فى أنه فى ثيباكيرا وبوجوتا طالبٌ فقيرٌ جداً، وقد نمتُ لديه عقدة أخرى ، وستظل تلازمه طوال حياته ، وتكمن فى إحساسه الدائم بأنه فى حاجة إلى آخر خمسة سنتى ، وكان يقول: إذا أردت الذهاب إلى السينما لم أستطع لأنه دائماً كان يحتاج آخر خمسة سنتى. وكانت السينما تساوى فى ذلك الوقت خمسة وثلاثين سنتياً، ولم يكن لديه سوى ثلاثين سنتياً. وإذا أردت الذهاب إلى حلبة مصارعة الثيران ، وكانت تساوى التذكرة بيزو وعشرين سنتياً ، وكان لديه فقط سوى بيزو وخمسة عشر سنتياً. ودائماً كان لدى ذلك الانطباع^(١١) حتى لحظات مجده وشهرته وثرائه.

وعندما كان يجد نفسه وحيداً، ليس معه خطيبته، ولا أصدقائه الغنائيون الذين اعتادوا الذهاب إلى خلواتهم فى نهايات الأسبوع، كان يبتكر أيام السبت حفلات رقص صاخبة، مثلما كان يحدث فى ثيباكيرا، مع زملائه خوسيه بالينثيا صديقه الكبير خلال تلك السنوات ، وبومينجو مانويل بيجا، وخورخى ألبارو إسبينوزا ، وخاكوبو بيريث إسترادا ، ولويس كورثيا جارثيا ، وكايتانو جنتل شيمنتى والذى سيمثله سانتياجو نصار فى المستقبل فى قصة جارثيا ماركيز : "نبا موت مُعلنٌ" وهكذا مع شاربى الخمر الساحليين الكثيرين ، والذى من المحتم أن تتسلل لهم الحصبة الأدبية. لقد حلَّ جابريل مشكلة الوحدة فى أيام السبت، ولكن المشكلة تعود مرةً أخرى أيام الأحد ؛ فقد كانت أياماً طويلة وحيدة كانت أشبه بسور عالٍ لا بد من اجتيازه للوصول إلى الأسبوع التالى. ونحن نعرف أن جارثيا ماركيز كان مستاءً من ذلك اليوم ، ولذلك فقد لجأ حينئذٍ إلى اختراع حيلة ركوب الترام ذهاباً وإياباً عدة مرّات ، وبالتالى كان جابريل بخمسة سنتى يدور فى حلقات مُفرّغة بالمدينة من الجنوب إلى الشمال ، ومن الشمال إلى الجنوب: من ميدان بوليفار إلى شارع شيلى ، ومن هذا إلى ذلك يقرأ خلالها قصائد وقصائد. إن زرقة زجاج نوافذ الترام لم تُخفف من الجو العام للمدينة الجو المطير ، والبارد والمليد بالغيوم خارج الترام مما كان يُضفى عليها جو الأشياء القريبة البعيدة مثل الكوابيس، ولكن وبينما كان الترام يطوف بشوارع المدينة كان جابريل ينقذ نفسه من ملل وسأم الأحد فى بوجوتا: "كنت أقرأ أشعاراً وأشعاراً بمعدل ديوان لكل مربع سكنى بالمدينة"^(١٢) ودون الاكتراث بأنه مرَّ على مبنى "الزمن"

حيث كان يرغب دائماً تذكّر مبنى الحكومة حيث بكى من الحزن منذ أربع سنوات مضت ، وكذلك مبنى فندق تيكينداما الذى لم يستطع حتى مجرد الإطلال عليه ، ولا حتى حلبة مصارعة الثيران التى كان دائماً ينقصه خمسة سنتى لكى يدخلها . وفى تمام الرابعة مساءً كان ينزل فى شارع شيلى حيث كان ينتظره صديقه جونتالو مايارينو ومعه كتاب شعرى تحت إبطه ليصطحبه إلى منزله الواسع الهادئ بين أشجار الكافور فى الشمال لكى يستمر فى قراءة الشعر إلى جانب تناوله وجبة خفيفة كاكاو ، وخبز وجبن: الوجبات الضرورية لأهالى بوجوتا .

ومع أول أضواء الليل كان جابريل يعود إلى مقاهى شارع ٧ بحثاً عن شخص يتعطف عليه ويتحدث معه عن الأشعار ، والأشعار التى انتهى من قراءتها اليوم . وأحياناً كان يجد شخصاً دائماً ما يكون رجلاً ، وكنا نظل حتى بعد منتصف الليل نتناول القهوة ، وندخن أعقاب السجائر التى كنا قد دخناها من قبل نتحدث عن الأشعار والأشعار ، بينما بقية العالم أو الإنسانية جمعاء تبث الحب^(١٣) .

وذات ليلة من ليالى الترام رأى جابريل رؤية أسطورية ، ولا يعرف عما إذا كان ذلك يرجع لوحده أم لتشعبه من الأشعار ، أو لكليهما ، وما هو أكيد أنه بعد ذلك بأربعة وثلاثين عاماً سيحكىها بثبات على لسان جدته ترانكلينا ، وعمته فرانثيسكا ثيموبوسيا بنفس ثبات الجأش ، ويؤكد أنه رأى وهو لا يزال طفلاً أرواحاً ، وأنه التقى بالبيت الذى كان يعيش على الناصية المجاورة لمنزل أجداده . وبالنسبة له لم يكن لديه أدنى شك لما رآه فى الترام: كان حيواناً حقيقياً بشحمه ولحمه (حيوان أشبه بالهة الحقول عند الرومان) كان يرتدى طبقاً لموضة العصر كمستشار عائد من إحدى الجنازات ، ولكن قرونيه كمجل ، ولحيته كتيس ، وأظلاف مُعنتى بها تماماً تحت السروال الخيالى^(١٤) . وقد اتصل بأصدقائه فى تلك الليلة نفسها لكى يحكى لهم ما رآه فى الترام ، ولكنه لم يجد جونتالو مايارينو ، ولا ألبارو موتيس الذى سيتعرف عليه بعد ذلك بعامين . حينئذ ذهب إلى اللوكاندة القديمة المتواضعة فى شارع فلوريان ، وكتب قصته الثانية " قصة الحيوان فى الترام " وأرسلها إلى الملحق الأدبى لجريدة " الزمن " الذى نشر له منذ ثلاث سنوات قصيدة باسم خابيير جارثيس . لم ينشروا تلك القصة ، ولم يعطوه أى رد ، وستلتهم النيران أصل هذه القصة إلى جانب بقية أمتعته بعد ذلك بعام واحد ،

عندما شبَّ حريقُ فى اللوكاندة إثر أعمال العنف التى تولدت عن اغتيال الزعيم الليبرالى خورخى أليسير جايتان.

ولكى يرى قصته الأولى منشورة تحتم عليه الانتظار بضعة أشهر حتى يلتقى بكائن خرافى آخر عند أكبر كاتب روائى فى القرن العشرين: فرانز كافكا. إن هذا اللقاء ترك جابرييل جارثيا ماركيز يعانى من الدوار التام ، وسيوجه مصيره الأدبى ، وسيحدد السلوك المستقبلى لخياله.

وقد حدث ذات ليلة فى اللوكاندة أن كان خورخى ألبارو إسبينوزا وهو مواطنٌ ساحلى يعيش فى سينثى ، وسيصبح فيما بعد المستشار الاقتصادى لشركات كبرى ، وكان قارئاً نهماً ، وعنده مكتبةٌ متكاملةٌ . حدث ذات مساء أن أعار لجابرييل - مثلما فعل من قبل- كتاب "المسخ" وأوصاه بقراءته ، وكان جارثيا ماركيز قد سمع بعض أجزاء هذا الكتاب قبل ذلك بثلاث سنوات فى السنة الرابعة الثانوية فى حصة الأدب لأن نص كافكا طُلب بسبب التشابه بينه وبين أول حكاية كتبها فتى أراكاتاكا "الاضطراب العقلى المتسلط" . وصل جابرييل حينئذٍ إلى لوكاندة الساحليين ذلك المساء فى منتصف أغسطس ١٩٤٧ ، وصعد السلم حتى الطابق الثانى ، ودخل فى الغرفة التى كان يقسمها مع مواطنه دومينجو مانويل بيجا ، حيث خلع سترته ونعليه واستراح فى سريره ، وعندما فتح الكتاب ذا الغلاف الوردى رأى أنه تُرجمَ بواسطة خورخى لويس بورخيس الذى لم يكن يعرف عنه شيئاً حتى تلك اللحظة ، وبدأ يقرأ : " وعند استيقاظ جريجوريو سامسا ذات صباح بعد حلم مزعج ، وجد نفسه وقد تحول إلى حشرة ضخمة . وقد وُجدَ مضطجعا على ظهره الصلب ، وعندما رفع رأسه قليلاً رأى صورة محدبة لبطنه المظلمة .. أغلق جابرييل الكتاب متأثراً ، وأطلق صيحة إعجاب: يا للهول!! ، وتذكر فى الحال ، وقال: " لقد كانت جدتى تتحدث بهذه الطريقة! ". لقد قضى ساهراً طوال الليلة تقريباً ، وعاد يُجربُ نفس الإعجاب الذى أحدثته فيه حكايات أو روايات ذلك الجزء غير المغلف من كتاب " ألف ليلة وليلة " ، والحكايات الفنتازية التى كانت تحكيها له جدته ترانكلينا ، التى تُوفيت فى سوكرى منذ أربعة أشهر ضريبة ، ومجنونة حيث كانت تخلط بين أسماء موتاهم المحبوبين ، وأبيات شعرية متناثرة لسيبيرو كتالينا وكاندلاريو أوبيسو^(١٥) ، وكان أول تأمل لجابرييل على الفور يتمثل فى اعتقاد

راسخ وضرورة تلقائية هو قوله حينئذ فكرت: يمكن فعل ذلك فى الأدب إن ذلك يهمنى ، إن هذا ساكون أنا لأننى كنت أعتقد أن مثل هذه الأشياء لا يمكن فعلها فى الأدب ، وكنت أعتقد أن الأدب شىء آخر، وقلت لنفسى : إذا كان بالإمكان إخراج ساحر من زجاجة كما فى ألف ليلة وليلة ، وإذا كان بالإمكان عمل ما فعله كافكا إذن فهذا ممكن فهناك خطأ آخر ، وهناك قناة أخرى لكتابة الأدب

واعتباراً من تلك اللحظة التى كانت من أبرز لحظات حياته قرر أن يكون قصاصاً ، قصاصاً كبيراً. قرر ذلك مثلما كان قد نصحه منذ بضع سنوات مدرسه للأدب بالثانوية بقراءة كافة القصص الكبيرة ، وأفضل الروايات التى كتبت فى تاريخ الإنسانية حتى ذلك الحين بدءاً من الإنجيل. إن ولعه بالشعر حينذاك تحول إلى هواية فريدة بالقصة: لا ثاريو دى تورميس ، والقوادة ثليستينا ، وسريانتس ، وكافكا ، وبوستوفسكى ، وتولستوى ، وجالوس ، وديكنز ، وفلاويرت ، وستندال ، ويلزك ، وزولا ، وفيكتور هوجو وتوماس مان.

ولكنه لم يبدأ فى قراءة كل شىء فقط ؛ بل جلس فى اليوم التالى لكى يكتب حكايته الثالثة "الاستسلام الثالث" (وهى فى الواقع أول حكاية له) وفقاً للإشعاعات التى وجدها فى كافكا. لقد كتبها كما كان يكتب كافة قصصه وحكاياته: أى ممارساً هواياته فى إزعاج أصدقائه. ويذكر جونتالو مايارينو أن جارثيا ماركيز تفاعل مع الموضوع ، وتحديث عنه فى الوقت الذى كان يكتب فيه ويصحح ما كتبه بهمة ونشاط ليس فقط باحثاً عن الكلمة الملائمة ؛ بل أيضاً عن التوازن. وهكذا كان يكتب حكايته الأولى. وعندما قضى عدة أيام فى كتابتها حدث شىء عارض جعله يسرع فى كتابتها حيث قرأ فى العمود اليومى " المدينة والعالم" للكاتب إيدوار ثلاميا بوردا (أوليس) الذى تنشره صحيفة " المشاهد" ملحوظة للرد على الكاتب أرتورو كوريا الذى ما لبث أن أرسل له رسالة اشتكى له فيها من أن الملحق الأدبى الذى يشرف عليه بعنوان " نهاية الأسبوع" لم ينشر سوى مقالات ، وحكايات لمؤلفين أجانب ، على الرغم من أن فلسفة إصداره كانت تنص على إعطاء الأولوية لخدمة الكتاب الكولومبيين الجدد. وقد رد ثلاميا بوردا على القارئ فى عموده أنه على الرغم من عدم وجود إنتاج وطنى أدبى غزير بين الشباب ؛ ففى الأيام القادمة سينشر إسهامات كتاب محدودى الشهرة ، وقد ذكر من

بين هؤلاء ألبارو موتيس ، وأن صفحات الملحق ستفضل في المقام الأول نشر إسهامات الكتاب الكولومبيين ، واختتم كلامه بقوله: " وأمل تواقاً إلى أن يُرسل إلى الشعراء الجُدد ، والكتاب ، المغمورين والمهمشين لعدم وجود نشر ملائم ولائق لكتاباتهم^(١٦) .

وعندما قرأ جابرييل ذلك ذات يوم جمعة في المساء وجد أول فرصة كبيرة في حياته لأن الصحيفة الأخرى بالعاصمة " الزمن" كانت صعبة بالنسبة للشباب المبتدئ من أمثاله (وخير دليل على ذلك كان الصمت الذي اكتنف بضعة أشهر حكايته التعيسة "حيوان في الترام" ، لذلك جلس جارتيا ماركيز حتى أنهى حكايته الجديدة ، التي كتبها بإلهام من كافكا: " الاستسلام الثالث"^(١٧). وفي يوم الإثنين التالي وضعها في ظرف وأرسله إلى إنواريو ثلاميا بوردا في صحيفة " المشاهد".

وكان جابرييل متأكدًا من أن ثلاميا بوردا سينشرها له بعد شهر أو شهرين لأن حكايته كانت ذات مذاق كافكوي ، وقد أسهمت بطريقة مختلفة للتخيل على الساحة الأدبية الوطنية. ولكن حدث له أول وأكبر مفاجأة في حياته عندما دخل المقهى يوم سبت بعد إرسالها بخمسة عشر يوماً رأى شخصاً يقرأ حكايته التي غطت ستة أعمدة من ملحق الأسبكتاتور (المشاهد). وكان أول رد فعل منطقي له هو الذهاب لشراء الصحيفة ، ولكن كانت هناك مشكلة كان ينقصه كما هي العادة دائماً خمسة سنتي فعاد إلى لوكاندته في شارع فلوريان القديم ، وحكى ذلك لصديق له ، وخرج الإثنين سوياً إلى الشارع واشتريا الصحيفة^(١٨)، وبالفعل: ففي الصفحة الثامنة من الملحق " نهاية الأسبوع" لصحيفة الأسبكتاتور ليوم السبت ١٢ سبتمبر ١٩٤٧ كانت أول حكاية منشورة لجابرييل جارتيا ماركيز مع رسم للرسم إنريكي جراو. لم تكن أول حكاية تُنشر له ، ولكنها كانت أول حكاية في وسيلة إعلام مهمة على الصعيد الوطني ، والتي بها دخل جارتيا ماركيز الأدب الكولومبي من أوسع أبوابه على الرغم من كونه لا يزال في العشرين من عمره.

وقد قُوّلت الحكاية بحماس من جانب بعض القطاعات ، ولكن أكثر المتحمسين لها كانوا زملاء جارتيا ماركيز الجامعيين، وقد قرأوها وعلقوا عليها تحت ظلال أشجار كافور كلية الحقوق. لقد نُشرت لزميل لهم في الصف الأول حكاية - في الواقع- جديدة في ملحق من الدرجة الأولى مما غمرهم بالسعادة ، مثل تلك التي شعر بها المؤلف الجديد

ليكون بداية من ذلك الحين للحماس الجماعي الذي ينجم عقب ظهور كل نص لجارثيا ماركيز ، ويذكر : أحدهم جونتالو مايا رينو أنه عندما قرأ الاستسلام الثالث ، وقد ذكر لجابرييل في طيش العشرين عاماً إن هذه ليست حكاية بل استعارة طويلة هذا الحكم اعتبره مايارينو بعد عدة أعوام حكماً مفرضاً في مرحلة الشباب . لقد كانت في الواقع حقيقة كبرى: لأنه تحت زيتها المتعصب كانت الحكاية أيضاً مثلاً للسيرة الذاتية.

فالحكاية تسرد قصة شخصية في السابعة من عمرها ماتت بسبب الحمى التيفودية (مثل العمة مارجيتا) وظلت في حالة موت - حياة طوال ثمانية عشر عاماً - محسوس تحت رعاية أمها ، وكأن جسمها ينمو حتى الخمسة والعشرين عاماً داخل تابوت الميت نفسه ، وخلال ذلك الوقت عانت من الموت ثلاث مرّات متتالية حتى أصبحت ميتاً مجرداً بلا جسد. وعلى الرغم من ذلك فإن أكبر مأساة للشخصية تكمن في جلاء الفكر الذي تحتفظ به عن الحياة وأدق تفاصيلها في عدم القدرة على القيام برد فعل إزاء الضوضاء ، وكذلك راحتها الجيفية التي تُعذبها ، أو إزاء ذلك الفأر الذي يحاول أن يُعيد لها قرنية العين والخوف المُرعب المتسلط على وجدانها خشية أن يعتبروها حية.

وانطلاقاً من طبيعته الفانتازية ، وتنوقه الغنائي ، وأسلوبه وتقنيته المستعارين فإن الحكاية أو الرواية تصل إلى أدق ألياف اللاشعور ، لتعرض ذلك الخيال الإنساني المتزايد للإنتاج اللاحق لمؤلفها كما هو الحال في تلك القصة التي كتبها جارثيا ماركيز وهو في غاية النضج: "أجمل غريق في العالم". نعم لأنه ربّما يكون لأن جابرييل مثل شخصية في "الاستسلام الثالث" لم يكن طفل الخامسة أو السادسة الذي كانت جدته ترانكلينا تجلسه دون حراك في كرسى في تمام الساعة السادسة مساءً مُهددة إيّاه بالأجداد الموتى الذين كانوا يتجولون في جميع أرجاء المنزل، وبهذا الشكل فإن المنزل كان يتحول في المساء إلى منصة هائلة للنّعوش . هل لأن جابرييل كان كشخصيته ولم يعيش حتى تلك اللحظة من العشرين من عمره حياةً من البؤس ومن الوفيات المتلاحقة مثل فقدان طفولته الذهبية في أراكاتاكا والكاريبي عندما سافر إلى ثيباكيرا لإتمام دراسته الثانوية ، ثم بعد ذلك إلى بوجوتا حيث كان يعيش تحاصره الوحدة في منطقة السافانا الباردة والبعيدة وهو يقع في شرك جذب بنود القانون؟

ولكن " الاستسلام الثالث " كانت أكثر من ذلك: البراعم والمخلص الإجمالى لبعض الموضوعات ، والموضوعات الفرعية لإنتاجه اللاحق مثل المنزل ، والوحدة ، والخوف ، والحنين ، والموت ، والتحمس لأهمية الموت ، والموت المركب ، وكون الإنسان حبيساً . لقد بدأ بتلك الخطوة الأولى فى الرحلة إلى الجذور .

وبعد ذلك بشهر ونصف فى الخامس والعشرين من أكتوبر نشرت " المشاهد " قصته الثانية: " حواء داخل قطها " التى كتبها بسهولة كبيرة ، ولكنها فى نفس الخط الفكرى ، والكابوس الكافكى لسابقتها ، وقد حكى فيها حالة من التناسخ ستعود إلى الظهور موضوعات مثل: الوحدة ، والحنين ، والمنزل ، والخوف الوجودى ، والخوف من الأجداد الموتى ، والموت ، والتحمس لأهمية الموت . ولأول مرة تطل موضوعات الأمراض الوراثية ، والجمال المقترن بالقدر المحتوم .

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، وبعد نشر قصتين أحدثتا حماساً لدى القراء أعلن إدواردو ثلاميا بوردا (أوليس) عن مولد كاتب جديد عبقرى ومختلف فى عموده اليومى " المدينة والعالم " . إن تلك الملاحظة عبارة عن علامة بارزة فى تاريخ النقد الكولومبى والأمريكى اللاتينى ، ليس فقط فى النص الأول عن جارثيا ماركيز ؛ بل أيضاً لتلك النظرة التنبؤية لما يمكن أن يصل إليه الكاتب الجديد :

" إن قراء (نهاية الأسبوع) الملحق الأدبى لهذه الصحيفة أدركوا ميلاد عبقرى جديد أصيل ذى شخصية قوية . لقد نُشرت له قصتان بتوقيع جابرييل جارثيا ماركيز الذى لم يكن معروفاً حتى الآن . والآن علمت من أحد زملائى فى تحرير الصحيفة أن مؤلف " حواء داخل قطها " طالبُ شاب فى الصف الأول فى كلية الحقوق ، ولم يبلغ سن الرشد حتى الآن . ولقد أذهلنى هذا النبأ لأنه يُلحظ فى كتابات جارثيا ماركيز نضج محيرٌ ربما يكون مبكراً . إن كتاباته جديدة ، وتصل إلى مناطق لم يتم ارتيادها فى اللاشعور ، ولكن دون الحاجة إلى اللجوء لما هو تعسفى . فبدخل الخيال يمكن أن يحدث كل شيء . ولكن القدرة على إبرازه بصورة طبيعية وتلقائية وبساطة وبدون مخاوف ، واستخراجه اللؤلؤ من الأعماق ، إنه عمل لا يستطيع جميع الشباب فى العشرين من العمر الإقدام عليه حيث لازالوا يبدؤون علاقاتهم أو صلاتهم مع الأدب .

وولّد جابرييل جارشيا ماركيز كاتبٌ جديدٌ بارزٌ. لا أشك في موهبته ، ولا في أصالته ، ولا في رغبته في العمل ، ولكن أرفض التصديق - وهذا ليس بأى حال من الأحوال - يعنى انتقاص قدره الشخصى - بأن يكون حالة فريدة بين الشباب الكولومبى^(١٩).

وعندما قرأ جابرييل هذه الملاحظة التقريظية التى خصصها له أحد الكتاب البارزين ، الذى يحظى بجمهور كبير من القراء فى البلاد أصابه الدوار واعتراه قليلٌ من القلق ، ليس فقط بسبب كبر حجم المدح والثناء ؛ بل بالمسئولية المربعة التى أُلقيت على كاهله. فقد فُكّر بأنه ينبغى عليه مواصلة الكتابة طوال حياته لكى لا يخذل أو ليس الذى - إلى جانب كونه بالنسبة له مثل كريستوفر كولبس لأنه هو الذى اكتشفه ، وأحد ناصحيه الأدبيين - سيكون بعد بضع سنوات صديقه الشخصى.

إنّ اللقاء مع كافكا ، ونشر القصتين أدبياً إلى ابتعاده شبه الكامل عن الجامعة. ومع ذلك فقد تمكّن من إتمام السنة الدراسية الأولى فى كلية الحقوق فى ذلك العام، وإن كان قد رسب فى الإحصاء والجغرافيا ، ونجح بالكاد فى المدخل إلى القانون ، وكذلك فى القانون الدستورى. وإبان العطلة الصيفية ذهب إلى سوكرى مع والديه وواصل كتابة الحكايات: وفى ١٧ يناير من العام التالى ، وقُبيل العودة إلى الكاريبي بثلاثة أشهر ، ومدفوعاً بسبب العنف المنتشر فى بوجوتا نشرت له صحيفة " المشاهد " الحكاية الثالثة " توبال قابيل يخلق نجماً " ، التى تميزت بوجود الموت فضلاً عن كونها تُمرّق القلب فهى استثنائية. وبذلك استطاع أن ينشر ثلاث قصص فى أربعة أشهر وجميعها غريبة تماماً فى إطار الأدب الوطنى ، وقد بدأ اعتباره الوعد البراق فى القصة الكولومبية.

وعندما علم والده الطبيب التجانسى والصيدلانى فى سوكرى أنّ نجله يهمل دراساته القانونية وبدأ يتفرّغ للأدب اعتبره أيضاً " قضية خاسرة " . وبينما كان البعض يرى أنّ القصص الشاب أحد الوعود الراسخة للأدب الكولومبية كان والده جابرييل إيلخيو جارشيا يرى فى نجله الإنقاذ الاقتصادى للأسرة. وعلاوة على ذلك ؛ فبالنسبة لأسرة فقيرة ومحدودة الدخل كآسرتة يُعدُّ شرفاً لها أن يكون لديها ابنٌ فى الجامعة ، وكان ذلك يعوضها عن افتقارها للامتيازات الاجتماعية والألقاب الأسرية

العريقة. وهكذا عاد جابرييل إلى الجامعة في فبراير ١٩٤٨ مُتبعاً خط السير نفسه النهري في ماجدلينا لكي يسجل في الصف الثاني بكلية الحقوق لإرضاء والده أكثر من اهتمامه الشخصي في مواصلة دراسته التي لم يكثر بها منذ العام الماضي.

لقد كانت التبعة على كافكا. ولأول مرة لم يفهم جابرييل فقط على ضوء إنتاجه أنه بفن السرد قد وجد قناة مختلفة لخياله ، وفي الوقت نفسه بدأت تبرز نوعية وجودة الكاتب الذي سيصل إلى أعلى مرتبة أدبية. وبسبب عادة التشويه الأدبية التي اكتسبها أثناء دراسته الثانوية كان جابرييل يعتقد - حتى ذلك الوقت - أن القصة كانت تصويراً أو إعادة إبداع للواقع تقريباً ، إلا أن كافكا أثبت له أن الأمر ليس كذلك ؛ بل هو نقل أو تحويل لذلك بواسطة قوانين مختلفة تشبه إلى حد كبير عالم الأحلام أكثر من تشابهها مع واقع الحياة وربما كان يجنح - لهذا السبب - تجاه الشعر أكثر منه صوب القصة.

وعلى عكس ما كان يرى بعض الدارسين مثل ماريو بارجاس يوسا فإن "الاستسلام الثالث" ، و " حواء داخل قطها " ، و " توبال قابيل يخلق نجماً " ، وعموماً فإن معظم حكايات " عيون كلب أزرق " لا تشكل على الإطلاق مرحلة ما قبل القصة لجارثيا ماركيز. إن مرحلة ما قبل القصة بالنسبة له هي ثيباكيرا تلك السنوات الأربع التي قضاه في مدرسة الليسيه الوطنية للبنين حيث أصيب بالحصبة الأدبية ، وحيث قرأ بشكل دائم ومنسق ، وكتب نثرأ وأشعاراً ساخرة يسودها الانسجام. ها هنا كاتب لا يزال في مهده ، كاتب ناشئ بالموهبة والتكوين، والعزم ، والتصميم، وحتى الحاجة لكي يكون كذلك. إن ما يفعله كافكا من خلال " الاستسلام الثالث " والحكايات الأخرى هو إعادة توجيه خطواته في متاهة الأدب إيضاح وتوضيح موهبته، ورغبة ومساعدة تعينه على العثور من جديد على نهج جدته ترانكلينا و " ألف ليلة وليلة ". وبهذا الشكل فإن المصير كان محدداً من الآن وإلى الأبد حيث سيكون جابرييل جارثيا ماركيز نجل موظف البرق في أراكاتاكا روائياً وقصاصاً لحكايات كما هو الحال مع شهرزاد ، وفرانز كافكا، وترانكلينا إجواران كوتيس.

الفصل السابع

- جايتان و٩ أبريل .
- بوجوتا تحترق .
- الكاتب إزاء أحداث التاريخ .
- ذهاب فيدل إلى الحرب .
- العالمى ومجموعة قرطاجنة .
- المنزل وقراءات (ربوة الشيطان) .
- " الورقة الساقطة " وميلاد ماكوننو .
- تحت ظلال المانجو فى سوكرى .
- لقاء مع سوفكليس .
- وداعاً لدراسة الحقوق .
- قرطاجنة مشتل لا ينضب .
- البارو موتيس وجارثيا ماركيز والغمد أو الجراب .

فى اليوم الذى التقى فيه جابريل مع ما نويل ثباتاً أو لييبا على ناصية شارع ٧ عند ملتقاه مع شارع خمينيث دى كيسادا أمام مبنى صحيفة " الزمن " اعترف له جابريل بأنه كان يفكر فى مغادرة بوجوتا وترك دراسة القانون ، ليس فقط بسبب الصعوبات الاقتصادية ، بل بسبب موهبته الأدبية التى تاكدت مؤخراً^(١). فلم أكن أتخيل أنه بعد بضعة أشهر ، وعلى بعد عدة أمتار من المكان نفسه ستندلع أعمال العنف المعروفة باسم أحداث بوجوتا الكبيرة التى دفعته للعودة إلى أرض الكاريبى التى يشناق إليها وما ترتب عليها من نتائج نهائية بالنسبة لحياته ومصيره الأدبى .

وبالفعل وعلى بعد بضعة أمتار من هناك وعند رقم ١٤ - ٥٥ من شارع ٧ بين شارعى خمينيث دى كيسادا و١٤ ، وفى تمام الساعة الواحدة وخمس دقائق مساء التاسع من أبريل ١٩٤٨ قام خوان روما سيرا وهو رجل سقيم قيم متواضع بلا عمل تبرز عليه سمات الانفصام فى الشخصية بإطلاق نيران مسدسه عن كشب على الزعيم الليبرالى خورخى إلسير جايتان وهو خارج من مكتبه للمحاماه لتناول طعام الغداء مع مساعده بلينيو ميندوثا نييرا وأصدقاء آخرين . وبعد ذلك بخمس وأربعين دقيقة توفى الزعيم فى المستشفى المركزى^(٢) ، وبهذا انتهت المسيرة البراقة - وفقاً لكافة التكهّنات - كان سيتولى منصب رئيس الجمهورية القائم ، وكان الشخص الوحيد الذى وعد باستئصال المرض العضال المزمّن للأقلية الليبرالية - والمحافطة التى قادت البلاد من جديد إلى ورطة العنف ، وهى سمة بارزة من سمات كولومبيا قبل ميلادها كجمهورية مستقلة .

وكان جايتان رجلاً مولداً تغلب عليه الملامح الهندية الجميلة ، وهونجل صاحب مكتبة متواضعة فى بوجوتا ومدرسة ذات روح إسبرطية. وكان يتمتع بانضباط حديدى صارم علمته إياه والدته. ومنذ شبابه بدأ يتدرج فى معرفته المتعمقة للقانون والسياسة ، وبعد تخرجه من الجامعة الوطنية ذهب إلى روما لكى يتخصص تحت إشراف رجل القانون العظيم إنريكو فيرى وفى تلك المدينة الألفية استطاع جايتان الحصول على امتياز مع مرتبة الشرف فى قانون العقوبات ، وكان يتميز ببعض الإيماءات الموسييقية

البارزة والواضحة للعيان ، وكان من أنصار المظاهرات الجماهيرية الغفيرة^(٣) ، التي سرعان ما عايشها وقد تزايدت شعبيته كزيد البحر في أعقاب الخطاب السياسي والقانوني والأخلاقي الذي ألقاه في البرلمان في سبتمبر ١٩٢٩ ضد حكومة المحافظين بزعامة ميغيل أباديا بسبب مذبحه عمال منطقة زراعات الموز في ديسمبر من العام السابق. وقبيل مثوله أمام البرلمان ببضعة أشهر كان جايتان قد زار عدة قرى في ماجدالينا لكي يوثق خطابه تماماً حيث عرّف تلك المذبحة بأنها أسوأ صفحة فاضحة في التاريخ الكولومبي ، وكان من الذين أخبروه بحقائق هذه الواقعة جد جابريل جارثيا ماركيز أمين صندوق بلدية أراكاتاكا ، وقسيس أبرشيته فرانثيسكو. أنجاريثا^(٤) الذي عمّد الكاتب بنفسه .

وعند وصول الليبراليين إلى السلطة في عام ١٩٣٠ بعد خمسة وأربعين عاماً من حكم المحافظين قام الرئيس الأرستوقراطي الرفيع إنريكي أولايا إيريرا باحتضان جايتان وعينه رئيساً لمجلس النواب لفترات متتالية ، ثم أصبح عضواً في قيادة الحزب والمرشح الثاني لرئاسة الجمهورية .

وهكذا فإنّ نجل المدرسة وصل إلى ذروة المجد السياسي وهو لا يزال في الخامسة والثلاثين من عمره ولكن في السياسة لم تكن هناك ذروة بعيدة المثال عليه ، وفي المجال الاجتماعي لم يستطع غزو الصالونات الأنيقة لنوادى الأرستوقراطية البوجوتية (أرستوقر أرستوقراطية العاصمة الكولومبية) ، وقد اعتبر أن أهم إهانة حدثت له في حياته تكمن في عدم استقباله في الجوكي كلوب (نادي الفارس) ، وأنهم لا يزالون يطلقون عليه في الصالونات الأرستوقراطية باحتقار " جايتان الأسود " نظراً لسمره بشرته لكونه مولداً مختلطاً .

وقد عانى جايتان في بداية مسيرته السياسية من التناقض الذاتي لحزبه الليبرالي: لكونه يمثل الحكومة والمعارضة في آن . وهكذا فإن الزعيم الطموح البارز الذي كان قد اختير نائباً في البرلمان عن الأحياء الفقيرة في بوجوتا ، والذي تمكن من تشكيل اتحاد من اليسار الثوري لم يستمر طويلاً. ولم يكن فقط الشخص المحبب إلى الرئيس أولايا إيريرا بل أيضاً تعاون فيما بعد مع حكومة إدواردو سانتوس ألفونسو لوبيث بوماريخو وزيراً للتعليم ووزيراً للعمل والصحة وبعد ذلك انتقل إلى صفوف المعارضة الراديكالية ، ليس فقط ضد حكومة الأقلية المحافظة بل أيضاً ضد حزبه الليبرالي ولذلك فإنه في انتخابات الرئاسة عام ١٩٤٥ تقدمت الليبرالية منقسمة

على نفسها بمرشحين : ترشيحه هو كزعيم جناح المعارضة بالحزب الليبرالى والمرشح الرسمى جابرييل تورباى الذى كان يتولى هزم فى النهاية حزب الأقلية المحافظة الذى تولى الحكم برئاسة المهندس ماريانو أوسينا بيريث مواطن أنطويوكيا^(٥) .

ومع ذلك فقد خرج جايتان معزراً : تولى قيادة الحزب وأخرجه إلى حيز الشارع وإلى الأحياء الفقيرة والقرى. وقد بدأت الظاهرة الشعبية لجايتان بالخطابة الرائعة والحس السياسى المرفه لزعيمه فى التزايد المطرد منذ ذلك الحين مثل زيد البحر متجاوزاً بذلك الأفاق الضيقة السياسية للكنيسة بشأن الازواجية الحزبية فى كولومبيا . وعندما اغتيل لم يكن أحد يشك فى أن جايتان سيكون الرئيس القادم للجمهورية لمدة السنوات الأربع المقبلة ١٩٥٠ - ١٩٥٤ ، لأن شخصيته السياسية اكتسبت قوة رهيبية ، فقد كان الحيوان السياسى الهائل الذى عرفته كولومبيا طوال تاريخها ولهذا فقد اكتسبت تأييد وتعاطف غالبية الشعب ؛ أغلبية من الغلاة ولكنها أغلبية مطيعة وسلسة القياد تصبح كثيراً ولكنها صامته كما ثبت ذلك من " مظاهره الصمت " التى دعا إليها وتزعمها قبل اغتياله بشهرين كرد فعل على أعمال العنف المتزايدة التى عانت منها البلاد منذ الحكومة الانتقالية لألبرتو يرأس كمارجو ، والتى ازدادت حدة مع الحكومة فى ذلك الوقت برئاسة ماريانو أوسينا بيريث .

وتلك الصيحة الهائلة للجماهير الصامته وهى تحمل الشموع الموقدة خلال ظلام ليل جبال الإنديز ، والتى من المحتمل أن تكون قد سببت الرعب للطبقات العليا بالمجتمع والسياسة ، ومنذ ذلك الحين وكان شغلها الشاغل مطاردة جايتان وأنصاره ، ومع ذلك فإن الأرستوقراطيين ارتعدوا فى صالوناتهم الفاخرة فى بوجوتا كما ارتعدت فرائص حكومة الأقلية فى مكاتب السلطة. حينئذ بدأ شك مرعب يتسلل إلى ضميرهم من هو الجايتان الذى سيتولى منصب الرئيس : هل المحرض الاجتماعى الذى أزعج الجميع أو الليبرالى المتسامح الذى تولى أرفع المناصب من جانب حكومة الأقلية فى الحزب ولا يزال يحتفظ فيها بأصدقاء ممتازين ؟ ، فهؤلاء كانت لديهم مرايا كبيرة ينظرون فيها ويرون فيها أيضاً مستقبل الوطن لأن كثيراً من الزعماء فى كولومبيا بدأوا متحمسين ثوريين وسرعان ما تحولوا إلى رجال إطفاء كناية عن التسامح والهدوء ، وكان لديهم مثال ونموذج واضح وهو الزعيم الأسطورى رفائيل أوريبى أوريبى الذى قضى نصف

حياته فى ثلاث حروب ضد نظام المحافظين ولكن انتهى به الأمر إلى أن تحول إلى أحد حصونهم الأساسيين قبيل اغتياله فى أكتوبر ١٩١٤ بالقرب من القصر الوطنى .

ويتفق المحللون الأذكىاء والمحايدين لهذه الفترة فى تاريخ كولومبيا على التأكيد أن حكومة الأقلية المؤيدة لسيادة البابا المطلقة لم تتحمل الشك الرهيب ، وأمرت باغتيال الزعيم الشعبى^(٦) المحبوب جماهيرياً ، واتخذت من الشخص الواهن خوان روسا سيرا ضحية لخطّة تم إعدادها باحكام وأشرف عليها كبار القيادات بالسلطة .

ومما هو أكيد على أية حالة فإن اغتيال خورخى إليسير جايتان لم يتضح على الإطلاق ، وكان بمثابة الفتل الذى أضرم النيران فى بوجوتا وباقى أنحاء البلاد . وكان مركز هذا نفس المكان الذى اغتيل فيه بالرصاصات الثلاث التى صوبها له روسا سيرا فى الواحدة وخمس دقائق مساء ٩ أبريل ١٩٤٨ . وفى نفس الساعة وفى لوكاندا الطلاب الفقراء بشارع ٨ حيث كان جابريل يكتسم غرفة مع شقيقه لويس إنريكي وصديقه خوسيه بالينثيا . كان الطالب جابريل فى الصف الثانى بكلية الحقوق على وشك الجلوس على المائدة لتناول الغذاء . وعندما علم بنبأ الاعتداء جرى مع آخرين إلى المكان الذى اغتيل فيه جايتان ، ولكنه كان قد حمل إلى المستشفى المركزى وهو يحتضر^(٧) . وجابريل كالأخرين ظلّ يحوم حول المكان معبراً عن تضامنه ، حتى ولو كان ذلك بالحضور فقط . وقد اشتعلت المدينة واتخذ التمرد أبعاداً هائلة وحاول جابريل أن يبحث عن ملاذ فى اللوكاندا ، ولكنها كانت تشتعل هى الأخرى . وقد التهمت النيران أمتعة جابريل الشخصية خاصة الكتب التى سببت له الحمى الأدبية (فى تلك الأيام كان يقرأ أوليس باهتمام كبير كاهتمام الجراح) وكان أعز شئ عليه هو النسخة الأصلية بخط يده لقصته "حيوان فى الترام" وكذلك الحكايات الثلاث التى كان قد نشرها فى صحيفة "المشاهد" وحكايات أخرى كان يكتبها فى ذلك الوقت . وقد أحس جابريل بأنه أعزل بدون ممتلكاته الأدبية وكان قد حاول إنقاذها إلا أن بعض الأصدقاء أقنعوه بالعدول عن دخول اللوكاندا وهى تحترق^(٨) ، وكان لويس بيار بوردا أحد الرفاق فى المجموعة الأدبية الرباعية يبحث مثل الكثيرين للاشتراك فى النضال ويتذكر أنه التقى مع جابريل حوالى الساعة الرابعة أو الخامسة مساء ٩ أبريل عند مفترق الشارع رقم ٨ مع شارع خيمينيث دى كيسادا بالقرب من مكان حدوث الجريمة .

وقد تأثر بيار بوردا عندما رأى جابرييل مهموماً عابس الأسارير وقد اشتاط غضباً ، وكان على وشك أن يجهش بالبكاء لأنه كان يعرف أنه بعد عام من المصاعب الجماعية والقراءات العامة لم يظهر جابرييل أى شغف بالسياسة حتى الآن ، ولا حتى بالسياسة الوطنية الثنائية الحزبية. وعلى الرغم من أنه تخرج من مدرسة الليسية الوطنية فى ثياكيرا بتعاطف مع الأيدولوجية الماركسية فقد كان جل اهتمامه الأدب - كما رأينا - وقد تبنى ذلك بصفة استثنائية. ولذلك فإن بيار بوردا عندما رأى جابرييل عابس الأسارير قال له مستغرباً : "سمع يا جابرييل لم أكن أعرف أنك من أنصار جايتان " فاجابه قائلاً وهو مستاء وكأنه يبكي : " لا ، ليس الأمر هكذا بل احترقت رواياتي "

وفى الوقت الذى شهد جارثيا ماركيز احتراق كتبه وأصول رواياته الأولى بسبب أحداث التاريخ اللإرادية كان هناك شاب كويى فى الحادية والعشرين من العمر رخم الصوت وذو شارب ناشئ وروح كيخوتية ، وهو الذى سيكون أحد أصدقائه الحميمين والكبار ، كان فى غاية السعادة بسبب موضوعه المفضل : "الثورات" ، وقد وحاول تزعم الجماهير الثائرة ليقودها صوب هدف محدد ودقيق ، ومع ذلك أدرك الشاب الجامعى فيدل كاسترو أن أى عمل تضامنى سيكون تضحية بلا جدوى فى عاصمة جهنم وسط هذه الضوضاء الصاخبة. فقد كانت الجماهير يتيمة وبدون أية قيادة وكانت مأساة جايتان مصيبة جماعية : بلغ عدد القتلى المئات فى الشوارع والمباني العامة ، وقد تعرضت متاجر وسط المدينة للسلب والنهب ، وظلت بوجوتا تحترق تحت المطر بتراماتها ذات الزجاج الأزرق .

وكان كاسترو قد وصل إلى المدينة فى الأيام الأولى من شهر أبريل برفقة طلاب كوبيين آخرين بغية تنظيم مؤتمر طلاب أمريكا اللاتينية ، الذى كان بمثابة الرد السياسى على المؤتمر التاسع المناصر لأمريكا التى كانت تنظمه واشنطن لمحاصرة ومحاربة "الخطر الشيوعى" ، وهو المؤتمر الذى كان سيعقد خلال تلك الأيام فى العاصمة الكولومبية تحت رقابة الجنرال مارشال. وفى يوم ٧ أبريل كان قد التقى مع جايتان فى مكتبه بشارع ٧ ، وقد تفاهم الشخصان تماماً : وقد وعد جايتان الشاب الكويى ورفاقه مساعدتهم بتوفير مكان للمؤتمر وختامه فى احتفال جماهيرى حاشد . وهكذا اتفقا على اللقاء مرة أخرى فى الثانية مساء فى نفس يوم ٩ أبريل للاتفاق على التفاصيل

النهائية كما تم الاتفاق قبل ذلك ، ولكن جايتان قُتِلَ قبل الموعد بخمس عشرة دقيقة .
ولذلك فعندما علم كاسترو بموت جايتان كان بالقرب من مكتبه يتجول هناك مع رفيق
له فى انتظار حلول ساعة الموعد معه^(٩) .

وكان الزعيم الكوبى القادم لا يزال ثورياً بلا لحية وبلا تكوين أيديولوجى ماركسى ،
ولكنه كان قد قرأ العديد من الكتب عن الثورات ، وكانت لديه رغبات هائلة لكى يبدأ
العمل الثورى . ولذلك عندما وجد نفسه وسط الجماهير الحاشدة الثائرة اليتيمة بلا
قائد أو زعيم أحس بالتضامن وشارك بكل أحاسيسه فى أول ثورة فى حياته ومع ذلك
فإنَّ أول بطولة له لم تكن عملاً ثورياً للغاية ، فقد تمثّل فى تحطيم آلة كاتبة. لم يكن ذلك
اختياره بالتأكيد ، ولكنها كانت أول شيء شاهده عندما قرّر الكفاح والنضال ؛ رأى
رجلاً فقيراً يائساً لم يستطع تحطيم آلة كاتبة كان قد سلبها من أحد المكاتب العامة ولم
يجد كاسترو وسيلة لمساعدته سوى أن يُعيره قوته وقامته الطويلة وألقى بالآلة الكاتبة
على الأرض بكتلا يديه وقد سعد الاثنان سويًا وواصل كاسترو مسيرته فى شارع ٧
ودخل متمرداً فى معسكر للشرطة ، واستولى بالقوة على بندقية طراز ماوسر ومعطف
للشرطة وحذاء وقبعة بلا رفرف وذهب إلى الحرب . وبعد يومين من انضمامه بطريق
الخطأ فى حرس الرئاسة ، بعد أن ألقى خطاباً فى الشعب والجنود أمام المعسكر ،
ولمحاويلته الدفاع عن الإذاعة الوطنية ظلَّ يحرس بعض الروابى أسفل هضبة
مونسيرات^(١٠) .

وعندما اقتنع فى النهاية بأنَّ ذلك ليس هو الثورة التى ينتظرها ، بل كان جحيماً
من الفوضى على ارتفاع ألفين وستمائة متر فوق سطح البحر ، قرر البحث عن رفاقه
والعودة إلى الفندق ، ولكى يزداد الطين بلة علم بأنَّ الشرطة تبحث عنهم لأنهم الطلاب
الشيوعيون المسئولون عن هذه الجائحة. ومن الواضح أنَّ كاسترو رأى أنهم إذا ألقى
القبض عليهم لن يبقى منهم شيء ولا حتى جلودهم لأنَّ وجودهم فى بوجوتا لغاية
سياسية جلية أدى برجال الحكومة إلى الإعداد لادعاءات للتستر على اغتيال خورخى
ألبيسيرجايتان. ولذلك فإنه إذا لم يتمكن كاسترو الطالب الجامعى من الاهتداء إلى وسيلة
للوصول إلى سفارة بلاده ربما لما تمكَّن من أن يحكى لصديقه جابريل جارشيا

ماركيز بعد ذلك بعد حقبة " القصة الحزينة التي لا يمكن تصديقها " وهي مغامرة يوم ٩ أبريل .

وبعد ثلاثة أيام من السلب والنهب والتمرد والاضطهاد وأعمال القمع تم إغلاق الجامعة الوطنية مثل باقى المراكز العامة فى بوجوتا ومدن أخرى فى البلاد ، وظلّ جابرييل بلا مأوى ولا جامعة ولا حتى قهوة يقضى فيها فترة المقيّل (القيلولة) ، فبوجوتا التي كان قد عرفها منذ خمس سنوات ، والتي كانت حتى بضعة أيام خلت يتجول بين مقاهيها ، كانت قد أصابتها الحصبة الأدبية ليست موجودة الآن ، وربما لن توجد أبداً. حينئذٍ رجع معقداً إلى الكاريبي لى يحقق ما تأقت إليه نفسه فى العام الماضى وفى دى ثى - ٣ وصل إلى بارانكيا بصحبة صديقه خوسيه بالينسيا فى ٢٠ أبريل بعد يومين من وصول شقيقه لويس إنريكي .

إنّ أحداث بوجوتا لم تكن السبب الرئيسى لما سُمى بالعنف ، ولكنها زادتّها اشتعالاً (وقد نتج عنها أكثر من ثلاثمائة ألف قتيل ٢٠٠,٠٠٠ قتيل) لى تتأصل أعمال العنف كأحد عناصر التركيبة للمجتمع الكولومبى ، لقد كان هذا الحدث أحد أهم ثلاثة أحداث خطيرة فى التاريخ الوطنى بالنسبة لجابرييل جارثيا ماركيز ، وكان الأدب حدثاً هائلاً لأنّه سمح له بالعودة إلى الكاريبي والالتقاء بوطنه الأصغر ، الأمر الذى لم يسمح له فقط باستعادة حياته العاطفية والغرامية والروحية ، بل سمح له أيضاً باكتشاف وإعادة اكتشاف الموضوعات الكبيرة لإنتاجه الأدبى بدءاً من العنف ذاته. وكان جو بوجوتا مفيداً لجارثيا ماركيز بسبب الكتب التى قرأها ، والأصدقاء الذين تعرف عليهم ، وخاصة النظرية التى منحتها إياه ، والتى تحولت فى الآونة الأخيرة الى تأثير ضار الى حد كبير بسبب المناخ الفكرى والاكاديمى الذى ساد فى العاصمة .

وهكذا عاد إلى بارانكيا مدينه عواطفه وغرامياته التى كان قد عرفها قبيل أن يتمّ الثالثه من عمره ، حيث بهرته إشارات المرور والطائرة الصغيره السوداء فى الذكرى المؤبده الأولى لوفاة سيمون بوليفار ، وحيث عاش عامين مع والديه ودرس خلالهما الصنفين الآخرين فى المرحلة الابتدائية ، والصنفين الأول والثانى فى المرحلة الثانوية. كما كانت المدينة التى كتب ونشر فيها أول أشعاره وتعليقاته الصحفية الأولى. ولكنه عندما

حضر إلى الجامعة لاستكمال دراسته في الصف الثاني بكلية الحقوق وجد أنها أيضا مغلقة بسبب آثار العنف المنتشر في بوجوتا. حينئذ ذهب إلى مدينة قرطاجنة الأمريكية حيث استطاع التسجيل في جامعتها في ١٧ يونية.

ولكن الاهتمام الحقيقي لجارثيا ماركيز لم يكن دراسة القانون بل مواصلة الكتابة والتفرغ للصحافة. وقضاء خمسة أعوام بين أهل بوجوتا جعله يتصل إلى حد كبير من ثقافته الكاريبي. وعندما عاد إلى أرضه أدرك أن حياة الشارع هي التي حازت إعجابه تماماً : الحكايات والأساطير والمعتقدات والأحلام الصغيرة والهزائم الصغيرة للناس ، والأغاني الشعبية. كل شيء . وعلاوة على ذلك فإن حدث بوجوتا الكبير فتح عينيه على أشياء كثيرة ، كما أثبت له أن الحكايات التي كُتبت ونُشرت في العاصمة كانت لها صلة بسيطة بواقع بلاده ، ولذلك فمدينة لوس كاتيتاكوس (بوجوتا) ببرودتها وأمطارها الغزيرة وأدب برجها العاجي سيظل في المقام الثاني مؤقتاً ، وكذلك المضاهاة المتتوية لكافكا وجويس وبورخيس .

وكان يسير على النهج السالف الذكر إلى أن التقى ذات يوم في أواخر مايو في أحد شوارع المدينة الاستيطانية مع الطبيب القصاص مانويل ثباتاً أوليبيا ، الذي كان قد التقى معه في العام الماضي في شارع آخر في بوجوتا ، الذو كان قد اعترف له برغبته في العودة إلى الكاريبي لكي يتفرغ للحياة هناك وللكتابة . ولم يغفل جارثيا ماركيز أنه منذ شهرين كان دو مينجو لوبيث إيسكورياثا (شقيق الشاعر الشعبي توريثو لوبيث) قد أسس في قرطاجنة صحيفة الأونيفرسال (العالمى) التقدمية ، وكان رئيس تحريرها كليمنتي ما نويل ثبالا يسارياً غامضاً وقليل الكلام ولكنه يتمتع بأستاذية وسخاء وحماس لكي يصبح راعياً وأميناً وناصحاً للصحفيين والكتاب الشبان في المدينة . ولم ير جابرييل أن هناك فقط يوجد الملاذ الذي يحتاج إليه بل أيضاً مدرسة الصحافة التي بات يبحث عنها ، والدعم المادى الذي ينشده. حينئذ وأثناء اللقاء الفجائى مع ثباتا أوليبيا الذى كان صحفياً معروفاً وهرب أيضاً من أحداث بوجوتا وتوسل إليه أن يقدمه لكليمنتي ما نويل ثبالا .

وبعد حوار طويل في إدارة التحرير بالصحيفة تحمس ثبالا للشباب جارثيا ماركيز : لحكاياته التي كان قد قرأها في " المشاهد " ، ولمعارفه الأدبية ورغبته الكبيرة للعمل في

الصحافة. وقد رأى ثبالا على الفور فى جارثيا ماركيز أحد الأشخاص الذين يحتاج إليهم لتطوير وتقديم صحافة جديدة فى الصحيفة التى أسست مؤخراً . ولذلك فتح له أبواب الصحيفة وصادقته ، وقد امتدحه فى ملحوظة تقريرية فى ٢٠ مايو. فبعد أن بدأها بشئ عن حياته والتحاقه بصحيفة الجامعة فى قرطاجنة أعلن أن الدارس المجتهد والكاتب والمفكر فى هذه المرحلة الجديدة لمسيرته لن يتحلى بالصمت ، وسيكتب معبراً فى هذه الأعمدة عن ذلك العالم من الإعجازات والإحياءات التى يقدمها الأشخاص والأشياء يوماً لخياله القلق والمضطرب^(١١) .

ومع ذلك فإن امتحان القبول كان مخيباً لآمال الصحفى المستجد . وقد طلب منه كليمنتى ما نويل ثبالا أن يقدم له المقال الأول عن موضوع حر ، وقد كتبها جابرييل برفاهية خياله وبرغبته الجامعة فى نظم الشعر ونثره حاد الذكاء . وعندما سلّمه له أخرج ما نويل ثبالا قلمه الأحمر وبدأ يعيد صياغته من جديد فيما بين السطور^(١٢). وفى تلك الليلة بدأ تحليل أسلوب رئيسه وأسلوبه فى الملحوظة نفسها ، ووجد فارقاً جوهرياً بينهما. وفى المقال التالى لم يكن هناك شطب كثير بالقلم الأحمر وبعد ذلك بأسبوعين لم يعد هناك شطب أو تصحيح واحد. وبعد مضى بضعة أشهر فرض أسلوبه وخياله على الصحيفة ، لدرجة أن كليمنتى مانويل ثبالا نفسه لم يتوان فى القول بأن جابرييل لن يصل بعيداً كصحفى فقط بل أيضاً ككاتب .

وهكذا بدأت المسيرة الأخرى لمن سيكون واحداً من ألمع الصحفيين فى اللغة الإسبانية ، وربما أفضل صحفى ومحقق. لقد كانت الصحافة إحدى هواياته القديمة إلى جانب الرسم والسينما والأدب ، ومن المحتمل أن تكون قد تولدت لديه فى طفولته فى دفء قراءات الصحيفة التى كان يقوم بها الجد لحفيده. وكما رأينا لقد حاول جابرييل دون جدوى كتابة التعليق الصحفى فى الثالثة عشرة من عمره فى مجلة (الشباب) بمدرسة سان خوسيه ، وكتب على وجه السرعة مع ماريو كونبرس تحقيقه الصحفى الأول فى ثيبا كيرا للمجلة الأدبية. وهكذا فإن العشرين شهراً التى سيقضيها فى صحيفة الأونيفرسال (العالمى) ، والتى كتب فيها ٢٨ مقالاً بتوقيعه ، وغيرها الكثير بدون توقيع كانت بمثابة البداية المهمة للصحفى والكاتب لأنه فى الوقت الذى ولد فيه الصحفى ولد فيه الكاتب الحقيقى المتأصل فى ثقافته الكاريبية .

ويعترف جارشيا ماركيز بأن المعجزة الحقيقية كانت تكمن فى استطاعته الهرب من الجو الفكرى والأدبى لبوجوتا فى الوقت المناسب لكى يستعيد ثقافته الكاريبية ، ولكى يكون كاتباً مختلفاً وكان قد نشر حكاياته الثلاث الأولى فى " المشاهد " ، وكان ذلك شيئاً جيداً لأنه كان بمثابة دخوله الأدب من أوسع الأبواب ، فقد قرأ من قبل لكافكا وجويس وبورخيس وتوماس مان وجارثيلاسو ودستوفسكى وكيبينو وآخرين ، وكان ذلك هائلاً حيث أعطاه الثقة فى نفسه وسلّحه بأسلحة الكاتب ، كما تعرّف على أصدقاء ممتازين قد مستهم الغزاة الأدبية مثله تماماً وكان ذلك إيجابياً للغاية ، لأن القراءات والمناقشات معهم أسهمت بشكل ملحوظ فى تكوينه الأدبى ، ولكن كان هناك شئ لم يقنعه شئ بدأ جابريل يلاحظه منذ دراسته الثانوية : العلاقة أو الارتباط بين الواقع والأدب. لقد رأى أن أدب غالبية المفكرين والكتاب فى بوجوتا - وإن كان منتشرراً فى الشوارع وعلى المقاهى - كان أدباً بعيداً كل البعد عن حياة البلاد وواقعها . وكان هو ذاته ضحية لهذا الوضع المرضى: لذلك فإن قصصه الثلاث الأولى (وتلك التى سينشرها أثناء تواجده فى قرطاجنة) هى قصص فكرية ومجردة استندت إلى أفكار تسلطت على عقله أثناء طفولته لأنه قبل أن يستفيد من تأثيرات كافكا ، وجويس وبورخيس كانت تلك الأفكار قد خدمت تقريباً تلك القصص تلقائياً .

وبهذا الشكل فإن الصحفى والكاتب الذى يريد الاعتداد بنفسه فقط يمكن أن يظهر أو يولد اعتباراً من لقائه الجديد مع ثقافة الكاريبي ، فها هنا سينتهى الطلاق بين الأدب والواقع بين الخيال والثقافة : فى قرطاجنة وبارانكيا حيث سيستطيع جارشيا ماركيز الإمساك ببعض المفاتيح الجوهرية التى ستسمح له بالجمع بين الأدب والواقع بسهولة وتلقائية ، حيث يدخل البحر حياة الساحليين وهؤلاء فى جو البحر. وأول بيئة على ذلك ستظهر فى تحرير صحيفة الأونيفرسال (العالمى). وأول مقال سيكون عن قرطاجنة الإستيطانية وسيكون شركاؤه الأوائل فى ذلك أصدقاءه الذين شكّل معهم مجموعة قرطاجنة المذكور كليمنى ما نويل ثبالا وهيكتور روخاس إيراثو وجوستابو إيبارا ميرلانو ، وكذلك هؤلاء الذين كانوا ينضمون إلى المجموعة أو ينسلخون عنها أو كانت لهم علاقه ملموسة معها : دونالدويوسا إيراثو ومانيول ثباتا أوليبيا وراميرو دى إسبيريا وجورج ليه بيسويل كوتيس وسانتندير بلانكو كابيثا . إنها مجموعة من

الأصدقاء ، من الشركاء الأدبيين ، والتي ستكون فى غاية الأهمية بالنسبة لـ جارتيا ماركيز مثل تلك المجموعة الأخرى من الأصدقاء فى بارانكيا فى بداية الخمسينيات .

ويؤكد الكاتب نفسه أن ثبالا كان أكثر أهمية له من رامون بنيس (١٣) ، ذلك العالم القطالونى فى " مائة علم من العزلة " وأحد الناصحين الأدبيين لمجموعة بارانكيا. ومن المحتمل أن يكون الأمر كذلك لأن إدواردو ثبالا ليس فقط هو الذى اكتشف وساعد جابريل جارتيا ماركيز فى تكوينه الصحفى كما فعل أيضاً إدواردو ثلاميا بوردا فى الأدب قبل ذلك بعام بل أيضاً أثر بثقافته الواسعة فى مجال الإنسانية والأدب والموسيقى طوال علاقة يومية امتدت طيلة ثلاث سنوات. إنّه كاتب لبعض السير الذاتية للقادة الليبراليين. ويُعزى إلى كليمنتي ما نويل ثبالا أنه الأول أو أحد الأوائل فى اكتشاف القيمة الأدبية للموسيقى الشعبية التى كان لها أكبر التأثير فى جارتيا ماركيز. لقد كان ثبالا قليل الكلام ومنعزلاً ، فى كثير من الأحيان كان ينبغى اخراج الموضوعات منه بالكاد ولكنه - على العكس من ذلك تماماً - كان متحمساً للثقافة وللشباب النابغين حيث لم تمنعه الصفات التى انطوت عليها نفسه ، والمذكوره آنفاً من إقامة علاقة سلسلة مع الشباب الذين كانوا يلتفون حوله. وعندما كان يبدأ المحادثة يُدرك هؤلاء أن قلة كلامه ترجع إلى احترامه للحدث الأدبى. وقبل أن يتفرغ تماماً للأعمال الثقافية والصحفية فى بوجوتا وبارانكيا وقرطاجنة كان قد شارك خلال العشرينيات فى الجماعة السياسية لوس نوببوس (الجدد) التى كان ينتمى إليها أيضاً خورخى إيسير جايتان ، والتى استمدت حماسها من الثورتين الروسية والمكسيكية. وسيكون ثبالا على وجه التحديد سكرتيراً لسفارة الاتحاد السوفيتى فى وقت لاحق مما سيمنعه من تحقيق أحد طموحاته الغالية : وهو تعيينه قنصلاً لكولومبيا فى بلباو .

أمّا الشاعر والقصاص والرسام هيكتور روخاس إيراثو فكان يكبر جارتيا ماركيز بستة أعوام وكان متعاوناً بارزاً فى صحيفة الأونيفرسال (العالمى) ، كان قارئاً شرها ونهماً ، ومحاوراً جذاباً يتحدث باستعارات حية وغير مألوقة. " لقد كان حدثاً أدبياً حياً ، كانه كتاب ينتقل ويتحدث ويكثر من الايماءات. " إن حيويته وخياله وأسلوبه الخالى من الشوائب ، والانسيابى والرنان مثل إحساسه بالاستعارة ، وكل ذلك كان عظيم

النفع لجارثيا ماركيز خلال فترة التكوين الأدبي والصحفي ، ولم يتوان جابرييل في الاعتراف بذلك حيث قال : " إن معرفته بهيكتور روخاس إيراثو كان بالنسبة له تجربة هائلة وواحدة "(١٤).

وكان جوستابو إيبارا ميرلانو من نفس عمر روخاس إيراثو ، وقد درس الثانوية في مدرسة نويستر اسنيورا ديل روساريو في بوجوتا ، حيث تعلم التعود على الكلاسيكين الإغريق والإسبان. وعندما عاد إلى قرطاجنة درس اليونانية في أوقات فراغه من العمل بمزرعته في ترنيرا. وبينما كان جارثيا ماركيز وروخاس إيراثو متفرغين للصحافة كان جوستابو إيبارا ميرلانو يجتهد في التدريس بمدرسة سان بيدرو كلابير وخاصة في المطالعة المنتظمة والبارزة للكلاسيكين الإغريق والإسبان والأمريكان .وسيكون إيبارا ميرلانو محامى المستقبل في الجمارك. لقد كان شخصاً ووداً عزيزاً ذا صوت انسيابي وهادئ ، وكان أكثر القراء تعمقاً بين أفراد المجموعة .

وكان هذان الاثنان يشكلان مع جابرييل ثلاثياً لا ينفصل عن بعضه داخل المجموعة ، ثلاثياً يمثل عصباً واحداً وصوتاً واحداً لخدمة الأدب وكان هذا الثلاثي متعاوناً و متماسكاً تحت قيادة أستاذهم كليمنتي ما نويل ثبالا. وكان ثبالا يقدم لهم - مثل قرائه - قصيدة مختارة من الشعر الوطني والعالمى فى ركنه بصحيفة الأونيفرسال (العالمى). وكان لكل منهم مضمماره المحدد تقريباً. وبينما كان روخاس إيراثو قارئاً شاملاً ولكن بتركيز على الشعر وإيبارا ميرلانو يحفظ أفضل الأشعار الكلاسيكية الإغريقية والإسبانية ، كان جارثيا ماركيز - دون أن يغفل على الإطلاق الشعر - دارساً دقيقاً لتقنية القصة ، وبالتالي فإن الثلاثي كان يشترك فى ثلاثة أمور : الصداقة والأدب والمدينة .

وفى مدينة صغيرة وساحرة مثل قرطاجنة حيث كان يغلب عليها الطابع الاستيطاني فى الماضى أكثر من الحاضر وكانت هذه المجموعة مولعة بالأدب لدرجة الجنون من بين الأفراد القلائل الأحياء حقيقة من سكان المدينة ذات خبرة طاغية من الذهاب والإياب بين الحياة والأدب ، ولكن مجتمع ذلك الوقت كان ينظر إلى أفرادها كأنهم أنماط غريبة. مفكرون مبهمون غامضون موجودون فى كل مكان. فقد كانوا يلتقون فى كل مكان وفى أية ساعة فى الصباح والمساء والليل فى الصحيفة أو حيث يعيش روخاس إيراثو وإيبارا ميرلانو فى بيه دى لابويا ، وفى وسط المدينة عالية الأسوار

حيث كان يعيش جارتيا ماركيز في منزل فرانثيسكو مونيرا في ميدان سانتو دومينجو في حديقة بوليفار ، وأمام باب المكتبة وعلى رصيف ميناء لوس بيجاسوس وفي المناطق الحديثة في بوكاجراندى وعند الشاطئ .

وقد اعتاد جابرييل الانتهاء من توقيع مقاله أو ذلك المجهول (بدون توقيع) في تمام الواحدة مساءً ، وما تبقى من المساء كان يقضيه في الحديث وقراءة الشعر مع روخاس إيراثو إيبارا ميرلانو وديونالو بوسا . وفي منتصف الليل كان يقوم باختيار وتنسيق أنباء البرقيات الدولية ، أو بإملاء نصوصها مباشرة على الطباعين حينما لا يكون هناك متسع من الوقت ، أو في التسامر مع الأصدقاء دون أن يدركوا أنهم يعدون في تلك الدردشات معظم طبعة اليوم التالي وهكذا حتى ينتهوا من إعداد وإنهاء طبعة الصحيفة في الساعة الواحدة أو الثانية من فجر اليوم التالي . وكما كان يعيش بالليل فقد كان يقوم بترتيب الأفكار الخاصة بالعمل مع الطباعين وكان يشهد الحياة الساخنة في الصباح عند رصيف خليج لاس أنيماس حيث يوجد السوق المركزي أو بالذهاب إلى منزل الأسرة المستأجرة لماتيلدى أريناليس أو الخمارات الاستيطانية في الميناء . وأثناء تناولهم للكنؤس كانوا يستمعون إلى قصص الطوافين ليلاً التي يَغذُّون بها جانباً من صحافتهم وجانباً من رواياتهم . ويذكر جارتيا ماركيز بامتنان خاص الحكايات التي كان يرويها له الحارس أو الخفير بينما كان يتفحص بواسطة ضربات ضعيفه أماكن من أزمنة أخرى مغلقة في مبنى الخمارات الاستيطانية . كانت كثير منها أساطير لحصوله الشخصي وكان يحكيها لهم - وعلى سبيل المثال - قصة الأمة الحبشية المدفونة هناك ، التي كان قد اشتراها ثرى البلدة بمثل وزنها ذهباً ، والتي اغتالها بنفسه للتخلص من سحر رأسها . والكاتب مثل ثرى البلدة تأثر بسحر هذه الحكاية ولم يتخلص منها إلا بعد ذلك بخمسة وأربعين عاماً عندما أدرجها في قصته " من الحب وشياطين أخرى " ، ولكن الحكاية التي سيظل جابرييل جارتيا ماركيز ممتناً لها هي للحارس أو الخفير المجهول والخيالي . هي "حكاية بلاكمان" الرجل نصف الساحر ونصف السفاح الذى أُخِذَ إلى قرطاجنة لكى يقوم بتحنيط نائب الملك الذى غرق في الجب لكى يظل يحكم بعد وفاته^(١٥) .

والكُتَّاب الذين كان يقرأ لهم أو يعلق على أعمالهم أو يتبادل الرأى بشأنهم مع أصدقائه بالمجموعة كانوا من الكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين والإسبان حتى جماعة

"حجر وسماء" التي كانت لا تزال موضة في كولومبيا وكذلك عن هاوثورن وبو وميلفيل وكبير كيجارد وكلاوديل وفوكنر ودوس باسوس وكابوتي وكولوديل وفيرجنيا وولف وجوميث دي لاسيرنا وباييخو ونيرودا والشعراء الإسبان لجيل ٢٧ وجيله. وبالصدفة في أكتوبر ١٩٤٨ سنحت الفرصة لجابرييل جارتيا ماركيز وجوستابو إيبارا ميرلانو وهيكتور روخاس إيراثو وكليمنتي ما نويل ثبا لا للحديث في فندق الكاريبي مع داماسو ألونسو العضو البارز في جيل ٢٧. إن مؤلف "أبناء الغضب" كان قد ذهب لإلقاء محاضرة عن تأثير القصة الإسبانية في الإنجليزية، وقد استمع إليهم بسخاء جم وتعرف على نصوصهم. وقد قرأ له روخاس إيراثو قصائده، وأطلعته إيبارا ميرلانو على مقالاته وجارتيا ماركيز على رواياته الأولى وخاصة إلى زوجة الشاعر الروائية أولاليا جالبارياتو. وعند عودته إلى أسبانيا تحدث داماسو ألونسو بحماس في أحد مقالاته الصحفية عن تلك المجموعة من الشباب المولعين لدرجة الجنون بالأدب على ضفاف الكاريبي، حيث وجدهم مطلعين جيداً ولديهم رغبة أكيدة في العمل. وكان أكثر هؤلاء القراء الشرهين منهجية وتواضعاً، وربما الأكثر تعمقاً من هذه المجموعة إيبارا ميرلانو الذي كان يحتفظ بكل ملاحظاته عن قراءاته، وقد أعد فهرساً منظماً لتلك الأشعار خلال العصر الذهبي، والتي كان يعتبرها مختارات ليست لتعمقها فقط بل لإعلانها عن التحديث. وهكذا عرف جارتيا ماركيز فضلاً عن مختارات إرشادية كاشفة لجارثيلاسو دي لاييجا وسان خوان دي لاكروث وفراي لويس دي ليون ولوبي دي بيجا وكيبينو وجونجورا وتأملاته حول "البيت نو السبعة أسقف" وموبي ديك وسوفكليس. وكان إيبارا ميرلانو قد أوصى أصدقائه بقراءة هذه الأشعار بعناية واهتمام كبيرين لأنها تتضمن بعض عناصر التحديث أو الحداثة. هذه الإرشادات التي اعترف بها جارتيا ماركيز فيما بعد بأنها لا تقدر بثمن لأنها سمحت له بقراءة الكلاسيكيين الإسبان مرة أخرى بمنظور مختلف عن ذلك الذي كان قد تبناه عندما قرأ عنهم في ثياكيرا منذ سنوات طويلة. إن أسرة العصر الذهبي العظيمة لن تغادر ذهنه ووجدانه مطلقاً حتى أنه كان يصطحبها معه في كل مكان؛ دائماً كان يأخذ معه مختارات جيدة من الكلاسيكيين الإسبان.

ومن بين القراءات التي كانوا يقرأونها بصوت عالٍ يذكر إيبارا ميرلانو : " موبى ديك " والسيدة دالوى " ، قصة فيرجينيا وولف التي أثّرت كثيراً وسحرت جابريل جارشيا ماركيز كانوا يقرأونها وهم يسرون على ترعة تورباكو البلدة المجاورة لقرطاجنة حيث ذهبوا لقضاء عطلة الأسبوع . لقد قرأوا القصة وعلقوا عليها بصوت عالٍ ، واستمتع بها جابريل الذى سيشق فيما بعد طريقاً جديداً . وبالطبع كان جارشيا ماركيز أكثرهم تحمساً ، وسرعان ما أثبت برهانا على حماسه هذا بإصدار قصته الأولى " الورقة الساقطة " .

وكان من الشائع أن الاشتراك والتجاور الأدبي والصحفى لكل من روخاس إيراثو وجارشيا ماركيز سيتم التعبير عنه بالمزاح الساخر ، فطلاقة الخيال هذه سمحت للكاريبيين مجابهة الحياة دون حدود ووقار وجلال لوس كتشاكوس (جماعة المثقفين المتأقنين من المحامين والتجار والنبلاء) . وكأهالى القرية يستعبرون من بعضهم الملح والشاكوش وسرج الحصان ، كان هؤلاء الجيران فى أعمدة صحيفة الأونيفرسال (العالمى) يُعبرون بعضهم الصور المجازية والاستعارات والموضوعات والشخصيات ، وعلاوة على ذلك فقد ظهر - وكشئ طبيعى تماماً - ذات مرة فى عمود جارشيا ماركيز " نقطة ومن البداية " مقال " لروخاس إيراثو عن الشاعر المفترض ثيسار جيراً بالديث^(١٦) . المفترض : فى الواقع كان مصطلحاً اخترعه روخاس إيراثو وقبلته المجموعة كان يسمح لها بوضع نموذج للشاعر الأمريكى - وفى الوقت ذاته كان أفرادها يسخرون من الحياة والناس والفكر ، ولكن فى غاية الجدية فى درذشتهم كانوا يعبرون عن رؤيتهم للتاريخ والثقافة والفن الأمريكى .

ولقد توسعت وتوثقت قراءات جارشيا ماركيز التى كان يقوم بها فى وقت واحد مع المفكر الشاب والمحامى مواطن قرطاجنة راميرو دى لا إسبيريا ، الذى لم يكن عضواً فى جماعة قرطاجنة ، ولكن كان القصاص يرتبط به فى علاقة شخصية وأدبية مكثفة ومثمرة مثل علاقته بالآخرين .

وسيصبح دى لا إسبيريا متعاوناً دائماً فى صحيفة "الاسبكتاتور" (المشاهد) بعد بضع سنوات . وكان قد أنهى دراسته بكلية الحقوق فى ١٩٤٧ فى جامعة

أكسترنادو دي كولومبيا في بوجوتا ولكن كثيراً من الجامعيين آنذاك لم يستطيعوا البقاء في العام التالي بسبب أحداث بوجوتا الدامية التي منعت الدراسة من قراءتها . وفي تلك اللحظة من الحماس الأدبي التقى لا إسبيريا ذات يوم مع جارثيا ماركيز في ركن ما بالمدينة الاستيطانية وكان قد وصل إليها مؤخراً ، ومنذ الوهلة الأولى بدأ الاثنان الحديث عن الأدب وتبادل الكتب. وظلا يقرآن لنفس مجموعة الكتاب حتى منتصف ١٩٤٩ ويعيدان القراءة لهؤلاء وهم : فوكنر ودوس باسوس وكابوتي وشتاينبيك وسارويان وهوكسلي ومالابارتى وفيرجينيا وولف. وعلى الرغم من مناقشاتهما الطويلة جداً حول كابوتي وسارويان فقد كانا متفقين على إعجابهما بفن السرد الجديد لفوكنر وفيرجينيا وولف ، وعموماً فقد كان تقاربهما بالنسبة للقصة كبيراً عما كان لجارثيا ماركيز مع الجماعة لأنهما كانا يركزان على الرواية .

وقد جمع بينهما اشتراكهما المباشر مع " جماعة المازحين " ، التي كان من الممكن أن يكون لها دور اجتماعي نشط على نحو ما حدث عندما قاما بتتويج ملكتي جمال الطالبات في يولية ١٩٤٩ بإلقاء خطابين سيئيين ورنانين حسب العادة ولكنها تضمنتا مزاحاً وسخرية لكي يضحكا بحرية تامة في الخلف ، ضحكات مشتركة انتهت بهم إلى تبادل الخطابين : قرأ جارثيا ماركيز الخطاب الذي كتبه إسبيريا كما قام الآخر بقراءة ماكتبه ماركيز مثلما حدث في ألعاب الطفولة في رواية " مائة عام من العزلة " بين خوسيه أركاديو سيجوندو وأوريليانو سيجوندو فإن الخطابين ظلّا في حالة تبادل إلى الأبد ، وانتهى الأمر بإسناد خطاب لجارثيا ماركيز كان في الحقيقة لراميرو إسبيريا وإسناد خطاب لإسبيريا كان في الواقع لجارثيا ماركيز^(١٧) .

و هناك أشكال أخرى للمزاح يمكن أن تكون سلبية ولكنها ليست أقل جدوى ؛ عندما كانا يجتمعان في ميدان بوليفار أمام قصر محكمة التفتيش وباب المكتبة للاستماع إلى الحكايات الرابيلية (نسبة إلى رابيلي الأديب الفرنسي المشهور) من صديقهما أنطونيو لويس كابراليس والمعروف باسم نيولس كابراليس ، وهو صانع أسيرة ويتمتع بخيال واسع. وكانت حكاياته تتميز بخاصية : كانت كلها تدور حول عضوه الذكرى الذي يتحول إلى شخصية ذات مغامرات مضحكة.

إنَّ أساطير العضو الذكرى التى كان يحكيها نيوليس كابرا ليس كانت لا تنتهى مثلما هو الحال فى " ألف ليلة وليلة " لأنها كانت مرة تلو المرة تزداد تنوعاً وثراءً لكثرة حظوظه السعيدة وكبواته. واستناداً لما يقوله راميرو دى إسبيريا فإن هذه الحكايات المليئة بالصور وبالأسطورة الطاغية كانت تمثل التأثير الأول لرابيلي فى جارثيا ماركيز قبل أن يقرأ جارجانتوا ويانتحرويل" بوقت طويل. وهذا العمل - بلا شك - سيؤثر فى جارثيا ماركيز عند صياغته لهذه الظاهرة الذكورية الطاغية لدى أفراد أسرة بوينديا .

وبعد قليل من انضمامه إلى صحيفة الأونيفرسال (العالمى) ، وفى دفء عودته إلى موطنه وجو الجماعة وقراءته للمؤلفين الأمريكيين ، بدأ جارثيا ماركيز يكتب على أوراق الصحف ذات القطع الكبير كتاباً غامضاً وطويلاً بنية أن يكون قصته الأولى. وكما رأينا كان يقتصر قبل ذلك على كتابة قصص كابوسيه قربه جداً من كافكا ولكنها كانت مصنعة ومجردة على الرغم من كونها مستوحاة من بعض أشباح طفولته. إن قراءته للأمريكيين علمته أن الأمر ليس هكذا ، وأن كل عالم طفولته فى أراكاتاكا ومنزل الأجداد ، وكذلك حروب الجد والاستغلال الأمريكى لزراعات الموز يستحق أن يحكى ويسرد. عندئذ بدأ يكتب قصته " المنزل " دون أن يعرف كيف وإلى أين يمشى ، وإن علم من أين بدأ. وقد احتاج إلى عامين لكى يدرك أنه تائه. واحتاج إلى ثلاثة أو أربعة أعوام لكى يقتنع نهائياً بأن هذه القصة كانت طرداً كبيراً للغاية بالنسبة لقلة خبرته الأدبية وما كان يقصد كتابته فى تلك السن هو " مائة عام من العزلة " .

وبالطريقة التى أمدها الأمريكيون إياه ، وخاصة فوكنر اجتهد جارثيا ماركيز وشمرَّ عن ساعد الجد ليكتب قصته الأولى. وكان يأخذ لفافات ورق الصحف معه إلى كل مكان : إلى صالة التحرير بالصحيفة ، إلى المقاهى والميادين والقرى ليقرأها على أصدقائه وأقاربه وشركائه الأبييين ، كما فعل مع حكاياته الأولى وسيفعل ذلك مع كل كتاب من كتبه. وفى بعض عطلات نهاية الأسبوع كان جارثياماركيز يذهب إلى توز باكو القرية المجاورة حيث كانت تعيش أسرة راميرو دى لا إسبيريا حيث ضيعة " ربوة الشيطان " وكان يقرأ خلال ساعات على صديقه إسبيريا ووالدته وشقيقته فصولاً كاملة من " الماموترتيو " المفكرة أو المجلد الكبير وهو اللقب الذى أطلقه على " المنزل " بين أصدقائه. وسرعان ما كان يتوقف عن القراءة لكى يشير بقبضة يده قائلاً : " إنَّ هذه الشخصية تحتاج إلى مزيد من الانضباط " وأثناء تلك القراءات فاجأت توماسا إسبيريا الرواى الشاب

كاشفة له عن مصادره الروائية . كان جارثيا ماركيز يقرأ وصفاً للعقيد أوريليا نو بوينديا عندما قاطعته توماسا بقولها : " إن هذا هو الجنرال رفائيل أوريبى " فسألها وكيف عرفتته ؟ فأجابته قائلة : عرفتته بالمعصمين لأن الجنرال رفائيل أوريبى كان غليظ المعصمين " وكانت جلسات القراءة الطويلة يصحبها كنووس الروم المعتق مع القراصيا المجففة التى كان والد إسبيريا يخفيها فى الجراج ، وكان جابريل وراميرو يسرقانها بأنبوبة محقن .

وفى الواقع كانت المصادر التى يستعين بها جارثيا ماركيز متنوعة : منزل الأجداد والأجداد أنفسهم ومأساة أراكاتاكا كخلفية وحروب الجد والشخصيات شبه الأسطورية للجنرالين أوريبى وأوريبى وبينخامين إيريرا ، وأساطير العقدا أوريليانو ناودين وفرانثيسكو بوينديا ورامون بوينديا . والآن وبعد أن عاد إلى عالم طفولته وثقافته الكاريبية لم تكن المشكلة عما يكتب بل كانت كيفية الكتابة كما يعترف بنفسه ، وأنه سيحتاج إلى خمس عشرة سنة لكى يتعلم ذلك .

واستناداً للأجزاء التى وصلت إلينا من هذه القصة^(١٨) ، وطبقاً للتعليمات التى أبداها راميرو دى إسبيريا وآخرون ممن قرأوا بعض فصولها ، يرى بجلاء أن الموضوع الأساسى هو المنزل والأسرة البطيريركية أسرة بوينديا التى كانت تعيش مأساتها وحدها داخل المنزل . وترى أيضاً شخصية أساسية وهى شخصية العقيد أوريليانو بوينديا وهو ينعى عزله (الناجمة عن هزائمه العسكرية) فى عالم تبدو فيه الأشياء لها حياتها الخاصة أيضاً . إنَّ الهواء الذى يتم استنشاقه فى هذه الأجزاء من "المنزل" ليس الوحدة ولا الاشتياق أو الحنين تجاه الأشخاص والأشياء والأزمة الماضية . ولكن كان هذا العمل بصفة عامة عملاً بلا شكل ومفككاً باستطرادات مبالغ فيها واستخدام غبى للزمن وواقعية ساذجة لم تسمح بالاتصال بالخيال الفانتازى . لم يستطع جارثيا ماركيز انتزاع حماس أصدقائه والأهم من ذلك حماسه الخاص . ولذلك ترك قصة " المنزل " بعض الوقت ، وكان يعود إليها من حين لآخر ، وفى تلك الاثناء كان جارثيا ماركيز يكتب " الورقة الساقطة " ويكمل حكايات "عيون كلب أزرق" واستمر فى ممارسته للصحافة ، كما سيعترف بذلك بعد بضع سنوات بأن القصة التى أراد أن يكتبها وهو فى الحادية والعشرين من العمر كانت "طرداً كبيراً مبالغاً فيه " إذا أخذنا فى الاعتبار قلة خبرته الأدبية .

إن تلك الفترة من سبتمبر عام ١٩٤٨^(١٩) قد شهدت أحد أهم الأحداث الحاسمة فى حياة جارشيا ماركيز وهو لقاءه مع جماعة المازحين فى كولومبيا وهم كبار أصدقائه فى " جماعة بارانكيا ". لقد علم جارشيا ماركيز وكليمنتى ما نويل ثبالا فى قرطاجنة أن القدر الأدبية كانت فى أوج غليانها فى عاصمة الأطلسى ، وقد استعر هذا الغليان على أيدى الصحفيين ألفونسو فوينمايور وخيرمان بارجاس والصحفى والروائى ألبارو ثيبيدا ساموديو والرسام أليخاندرو أوبريجون والمدرسان خوسيه فيلكس فوينمايور ورامون بينيس. وقد كتب بعضهم عن حكايات جارشيا ماركيز التى نشرت فى " المشاهد " .

ولا يعرف بوضوح متى حدث الاتصال الأول بين جارشيا ماركيز وأصدقائه من بارانكيا . ويكرر خيرمان بارجاس طول حياته أنه وألبارو ساموديو تعرفا على جارشيا ماركيز أولاً فى إدارة تحرير صحيفة (الوطن) . لقد جاء يسأل عنا وقد تحدثنا بعض الشيء وتبادلنا المفاهيم والآراء وفى الليل ذهبنا للنزهة^(٢٠) . ومن الممكن أن يكون ذلك هو الاتصال الأول ، ولكن يبدو أنه لا جدال حول حدوث الاتصال الأول الشكى والمتأنى خلال شهر سبتمبر من عام ١٩٤٨ بفضل الرحلة التى قام بها إلى بارانكيا كل من جارشيا ماركيز وإيباراً ميرلانو .

لقد كان اللقاء أدبياً هائلاً ، أى وديا خلال مساء وجزء من الليل ، حيث دخل جارشيا ماركيز وجوستابو إيباراً ميرلانو مع ألفونسو فوينمايور وخيرمان بارجاس وأليخاندرو أوبريجون فى مناقشات متشابكة ومعقدة لا تنتهى . وكان الصوت المهيمن فيها لفوينمايور وإيباراً ميرلانو وقادهما تبحرهما الأدبى إلى التطرق إلى شعر الملاحم الفرنسى والإسباني : وعماً إذا كانت ملحمة السيد وأغنية رولاند قد تم تأليفهما بواسطة شخص أو عدة أشخاص ، وعماً إذا كان العرف هو الذى ألفهما ثم قام شخص بتجميعهما وأعطاهما الشكل الذى وجدناهما عليه ، وعماً إذا كان عرف ملحى فى كلتا اللغتين^(٢١) ، وبين الضجيج الإتيلى الأدبى سرعان ما ظهر صوت متعقل " وصائب " دقيق كدقة الجراح فى التحليلات ؛ صوت جارشيا ماركيز وهذا إلى جانب الشهرة التى اكتسبها من حكاياته الأولى مما بهر ألفونسو فوينمايور بقوة وكذلك نجل الكاتب ، خوسيه فيلكس فوينمايور ونائب مدير صحيفة " الهيرالد " ولهذا ففى نهاية السهرة طلب جابريل بنغمة سرية ألا يذهب إلى قرطاجنة فى صباح اليوم التالى دون أن يتحدث معه أولاً .

وقد بكَر فوينمايور لكى يشيع فى صحيفته المزايا العظيمة للشباب جارثيا ماركيز الذى تعرف عليه مؤخر ، وحاول إقناع مدير الصحيفة خوان ب. فرنانديث أورتيجا بأن "الهيرالد" تحتاج هذا الواعد الجديد فى مجالى الصحافة والأدب. ولم يشك كلاهما فى أسباب هذا التحمس ، ولكنهما أطلعاها على صعوبة وقسوة الأحداث: لقد كانت الصحيفة فى ظروف اقتصادية سيئة، ولم يكن بوسعها توظيف مزيدٍ من الأشخاص. حينئذٍ فكر ملياً فوينمايور وقال لهم : " إن جارثيا ماركيز جاء ليعمل معنا وستدفعون له نصف ما تدفعونه لى " ، نظر المدير مستغرباً وأجابه بأنه لم يكن يعرف أن فوينمايور سفيهاً إلى هذه الدرجة لكى يقترح هذا. واختتم فوينمايور كلامه قائلاً : بالطبع، إننى فى غاية السفه لكى أقدم هذا الاقتراح .

ومع ذلك وعلى الرغم من أن جارثيا ماركيز قَطَنَ بأن مستقبله سيكون فى هذه المدينة مع أصدقائه الجدد ، فقد كان عليه الانتظار خمسة عشر شهراً حتى يتبلور انضمامه إلى "الهيرالد" لكى يُقيم فى بارانكيا .

وينبغى التأكيد على أن جارثياماركيز كتب " الورقة الساقطة " فى بارانكيا متنقلاً بين "الهيرالد" وبيت الهوى المسمى ناطحة السحاب^(٢٢) ، والحقيقة أنه كتبها فى قرطاجنة ، ولكنه أعاد كتابتها فى بارانكيا اعتباراً من الشهور الأولى لعام ١٩٥٠ .

وكما قلنا لقد أعطى الروائيون الأمريكان الدفعة والحافز والمنهج لجارثياماركيز لكى يحاول بلورة عالمه القصصى انطلاقاً من الخبرات الشخصية والأسرية لطفولته ولكنه فشل فى عمله " المنزل " ، حينئذٍ قام بفصل عدة فروع أو أغصان من الجذع الرئيسى لكى يقوم بزراعة كل واحد منها على حدة ويطرق مختلفة على مسافات متقاربة نسبياً حتى يستطيع ذات يوم التوصل إلى لب قصة شاملة ، وكان أول فرع مهم " الورقة الساقطة " ، وليس واضحاً تاريخ البداية فى كتابتها ، المرجح أن يكون ذلك فى الشهور الأخيرة من عام ١٩٤٨^(٢٣) بعد أن جرب حظه مع القصة الأولى وبعد أن قرأ مع روخاس إيراثو وإيبارا ميرلانو " بينما احتضر " و " السيدة دالواى " حيث سمحت له تقنياتهما المركبة من الاقتراب الأول والواسع من عالم طفولته .

وبينما كان يكتب " الورقة الساقطة " بحماس أكبر من الذى أولاه لعمله " المنزل " ظلَّ يعمل فى الأونيفرسال (العالمى) يكتب عموده العشوائى " نقطة ومن البداية "

وهو يقرأ بشراهة مع أصدقاء الجماعة فى جلسات ورشة أدبية حقيقية فى الوقت الذى يحاول فيه إتمام دراسة الحقوق فى جامعة قرطاجنة حتى ولو كان ذلك لإرضاء والده فقط ، ذلك الذى كان يحلم بمحام فى الأسرة. إن هذا العمل المفرط ، إلى جانب تردى الحالة الاقتصادية التى كان يعيشها قد أثر إلى حد كبير على صحته. ويذكر جوستابو إيبارا ميرلانو : إن جارثيا ماركيز كان يعيش فى ذلك الحين فى ظروف متواضعة للغاية على الرغم من أن الصحيفة كانت تدفع له اثنين وثلاثين سنتى من البيزو عن كل مقال ، ومع ذلك لم يسمع منه قط الشكوى من قلة النقود. لقد كان جارثيا ماركيز أشبه باستقلال ذاتى - كان أشبه برجل فوق الظروف المادية وكانت نفسه تتطوى على أناقة داخلية تهتم فقط بمشاكل الشعر والقصة. ولكن عندما علم راميرور دى لا إسبيريا بما يدفعونه له عن كل مقال قال لجارثيا ماركيز بأمانة : إنه فى صحيفة الأونيفرسال (العالمى) يستغلونه خاصة أنه كان يراه شاحب الوجه ومثقلاً لكثرة العمل ، وطلب منه الذهاب إلى مكان آخر لأداء عمله فى ظروف أكثر سخاء وسعة .

وفى تلك الظروف وخاصةً البارد الشديد فى قرطاجنة فى الصباح كان حتمياً أن يصاب الكاتب بالتهاب رئوى اضطره فى أواخر مارس ١٩٤٩ إلى الراحة التامة لمدة شهر ونصف مع والديه فى سوكرى (ومن العجيب أن جده كان قد توفى فى نفس الشهر نتيجة التهاب رئوى أصيب به من جراء ساعات الصباح الخائنة فى سانتا مارتا). ومع ذلك فإن تدهور صحته أفاده فى إثراء رصيده الأدبى : ليس فقط لأنه كان لديه متسع من الوقت فضلاً عن الهدوء اللذين مكناه من استكمال روايته الأولى " الورقة الساقطة " ، بل أيضاً لكثرة الكتب الجهرية التى قرأها أثناء فترة نقامته تحت ظلال أشجار المانجو بمنزل والديه. وعندما لم يجد ما يقرأه أرسل خطاباً إلى أصدقاءه فى جماعة بارانكيا وكان لا يزال يرتبط معهم بعلاقات صداقة وطيدة ووثيقة ، طلب منهم أن يرسلوا له شيئاً ليقرأه. لذلك قام العالم القطالونى رامون بينيس وخيرمان بارجاس وألبارو ثيبيدا ساموديو بتعبئة ثلاث كراتين من الكتب وقام الأخير بتسليمها لشقيقه لويس إنريكي جارثيا ماركيز لى يقوم بإرسالها إلى سوكرى فى الطائرة أو بالبنش . وعندما فتح جارثيا ماركيز الطرد وجد ثلاث كراتين مليئة بالقصص وقد احتوت على

كل شيء: أهم القصص الحديثة في أوروبا ، وكتباً أخرى لم يكن قد قرأها بعد لفوكتز ودوس باسوس وكابوتي أندرسون ودريسير وهوكسلي وكالدويل وفيرجينيا وولف .

اضطجع جارتيا ماركيز في شبكة للنوم معلقة بغصنى مانجو على ضفاف نهر موخانا وبدأ يقرأ ، لكنه لم يقرأ فقط ، بل أخذ في تفكير وتجزئ كل رواية وقصة مثل الذى يفك ساعة قطعة قطعة حتى يكتشف الآليات المعقدة والمتنوعة لفن السرد. وعندما أعاد الكتب إلى رفاقه في بارانكيا بعد شهرين أو ثلاثة أشهر كان قد انتهى من روايته الأولى " الورقة الساقطة" ووجد حلاً للمشكلة التقنية للقصة بصفة عامة .

وبعد نقاهة ليست بطويلة بفضل وصفات الطب التجانسي التى قدمها له والده ورعاية والدته عاد جارتيا ماركيز إلى قرطاجنة فى منتصف شهر مايو ، وانضم مرة أخرى إلى الأونيفرسال (العالمى) ، وقد حياه صديقه وجاره فى العمود الصحفى هيكتور روخاس إيراثو بملحوظة دون توقيع أعلن فيها استكمال القصة الأولى للمؤلف الشاب البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً : على ضفة نهر لاماخونا (٠٠٠) كان جارتيا ماركيز يضع اللمسات الأخيرة لقصته - التى ستصدر قريباً - بعنوان " الآن نحصد العشب " . لقد سنحت لنا الفرصة للاطلاع على أصولها ، ولدينا القدرة للحكم عليها بوصفها واحدة من أهم الجهود التى تتم حالياً فى كولومبيا لكى تضع بلادنا على دروب القصة المعاصرة (٢٤) .

إن أول من قرأ القصة كاملة فى تلك الأيام بالعنوان النهائى لا أواخراسكا (الورقة الساقطة) كان جوستابو إيبارا ميرلانو الدارس المنهجى للكلاسيكيين الإغريق. لقد قرأها بنفس الحب الذى يستحقه صديقه ورفيقه بالمجموعة ، وقد اتفق مع الحكم الذى أعلن عنه روخاس إيراثو فى ملحوظته التى نشرها بدون توقيع ، ولكن أكثر شيء أثر فيه هو أنه وجد فى هذه القصة الأولى لجارتيا ماركيز موضوعاً كان قد تناوله سِتوفكليس فى عمله " أنتيجونا " فى القرن الخامس قبل الميلاد. وسواء فى عمل الإغريقى أو فى عمل الكولومبى فإن دفن جثة إزاء معارضة شعب هو الموضوع الرئيسى الذى يقوى ويوجه طبيعة النزاع. ولذلك فعندما أعاد إيبارا ميرلانو الأصل وقال له بدهشة تغمره الفرحة : إن قصته جزء من أنتيجونا ظل جارتيا ماركيز مذهولاً

وطلب من إيبارا ميرلانو أن يعيره قصة سوفكليس وذهب إلى منزله ليقرأها على وجه السرعة التى لا يمكن تأجيلها^(٢٥) .

وهذا التوافق الموضوعى للرواى الكولومبى الشاب البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً مع الأستاذ الإغريقى جعل إيبارا ميرلانو يفكر أن صديقه يمتلك الجنى اللازم لى يصبح قصاصاً منقطع النظير ذا مميزات كلاسيكية ومنذ تلك اللحظة سيتابعه باهتمام بالغ فى كل رواية وقصة. أما جارشيا ماركيز فمن جانبه التهم كافة أعمال سوفكليس بنفس السحر والإعجاب الذى كان قد قرأ به " ألف ليلة وليلة " وهو لا يزال فى التاسعة وأخيراً أعمال كافكا وفوكنر وفيرجينيا وولف . لقد درسها بناءً على ملحوظات وتوجيهات إيبارا ميرلانو. وطبقاً لاعتراف جارشيا ماركيز فإن صديقه كان يختبره فى قراءته للأستاذ الأغرريقى^(٢٦) . وبهذه التوجيهات وتلك الإيحاءات القديمة والجديدة قام جارشيا ماركيز بإعادة كتابة بعض جوانب " الورقة الساقطة " وفى تعبير دائم عن امتنانه وإعجابه بسوفكليس (والذى سيكون اعتباراً من تلك اللحظة أستاذه الدائم والقريب إلى نفسه) فقد اقتبس من " أنتيجونا " أحد الاستشهادات. وقد كان هذا أول الكمائن التى نصبها القصاص للنقاد والمدققين المتحصين ، وبالفعل واستناداً إلى هذا الاستشهاد فإن هؤلاء النقاد قد فسروا وروجوا فيما بعد للتأثير الكبير لسوفكليس على جارشيا ماركيز.

وهو لم ينكر هذا التأثير الذى وصل إليه بدون شك عبر الثقافة الغربية وفى الواقع كان تاريخ أراكاتاكا وطفولته العجيبة على ضوء عمل ويليام فوكنر وفيرجينيا وولف هما اللذان أمداه بالنسيج الأساسى لقصته الأولى: فالمنزل الذى شهد ولادته وشجرة الياسمين والأرواح ومنزل الصيدلية التى زارها الدكتور أنطونيو باربوسا الذى سيندمج مع البلجيكى المنتحر السيد إيميليو الفرنسى لى يبدع شخصية الطبيب الغامض الذى انتحر وشخصية الجد ونزوحه من بارانكاس والهنود الحمر الفلاحين ويطولاتهم الحربية ، وصورة الأم التى تبدو سلسلة ولكنها صارمة ، والترحال شبه الدائم للوالد ، وشركة الفواكه المتحدة والتقدم الزائف الناجم عن استغلال مزارع الموز الذى أدى فى نهاية إلى الخراب والعزلة. والقطار الأصفر الذى كان يصل كل صباح الساعة الحادية عشرة بينما كان المؤلف يتعلم الحروف الهجائية فى مدرسة مونتييسورى وفى النهاية مأساة أراكاتاكا وهو يرى عاجزاً رياح التاريخ وهى تهب .

أما فيما يتعلق بعمله الفاشل " المنزل " الذى كان وليدًا ممسوخًا كبير الحجم يضم بؤراً وشخصيات هامة فى الأعمال اللاحقة لجارثيا ماركيز بما فى ذلك " مائة عام من العزلة " و" الورقة الساقطة " ، وكانت الأخيرة منهما بمثابة القصة الأولى التى كانت بها بعض العيوب التركيبية والأسلوبية ولكنها أعلنت بلا خطأ عن الأصالة والقوة الإبداعية لجارثيا ماركيز : إنها العمل الذى أعلن ميلاد ماكوندو وهى كذلك مثل " المنزل " تعلن تقريباً عن الكتب اللاحقة للمؤلف حتى " خريف البطريق " .

وبعد عام من هروب جارثيا ماركيز من عاصمة البلاد بسبب أحداث بوجوتا الخطيرة عاد إليها ليستعيد ويمتلك ثقافته الكاريبية ، والأشباح الهائلة لطفولته حيث عاش أهم اللحظات الحاسمة الفاصلة فى حياته لأن مصيره الأدبى كان سيختلف تماماً إذا لم يعد ويدرك فى الوقت المناسب أن القوة الإبداعية تأتى من الخيال المظلم للقرية ، وأن العمل الأدبى يتولد من تعاون ذكاء الكاتب مع محيطه الأسرى والتراث المجهول .

ومع ذلك فإن الحكايات الثلاثة التى نشرها فى الإسبكتادور (المشاهد) خلال العشرين شهراً التى عاشها فى قرطاجنة ، والثمانى والثلاثين مقالاً التى أسهم بها فى عموده " نقطة ومن البداية " فى الأونيفرسال (العالمى) على ما يبدو تُكذَّبُ جزئياً هذا الرأى ، وإن كان الكاتب لم يسلك سوى طريق ضيق بعمله " المنزل " وواصل السير فيه بقصته " لا أواخراسكا " (الورقة الساقطة) .

ويفسر لنا استمرار جارثيا ماركيز فى أعماله " على الضفة الأخرى من الموت " وحوار المرأة و" مرارة ثلاثة من الذين يمشون أثناء النوم " ، على نفس النهج النفسى والمجرد الذى بدأه فى الحكايات الثلاث التى كتبها فى بوجوتا ، على الرغم من أنه عاد من جديد إلى موضوعاته وثقافته ، أقول : ويفسر ذلك بأن انقطاعات جارثيا ماركيز لم تكن أبداً فجائية بل كانت تدريجية وفقاً لخطة عمل وتأمل جماليين ؛ خطة منظمة جداً ، كما يفسر أيضاً بأن موضوع الكوايس والتجزئ والانقسام الوجودى الذى بدأ مع حكايته " الاستسلام الثالث " ظل يمدّه بالشهرة والمجد حيث اعتبره البعض واحداً من أحسن كتاب القصص فى بلادنا .

وعلى الرغم من أنه دخل الصحافة فى إطار عنف التاسع من أبريل فإن جاريثا ماركيز الصحفى فى الأونيفرسال (العالمى) لا يزال أديباً أكثر منه صحفياً (وإن كان معظم عمله فى الصحيفة ضاع فى مقالات افتتاحية وملحوظات مجهولة المؤلف) ، وقد أراد منذ البداية أن يكون محققاً صحفياً ومحرراً لصفحات الحوادث ، ولكنه سرعان ما أدرك أن هذا الأمر مستحيل بالنسبة له لأن الصحفيين الثابتين المختصين بذلك كانوا يتصرفون كأنهم ملاك هذه الصفحات. ولذلك أسهم فى عموده " نقطة ومن البداية " بنوع من العمل للتفكير والتروى عن تلك المظاهر والجوانب التى كانت تهمه فى الحياة والأدب ، ولكى يجرب أسلوباً خاصاً تختفى فيه الحدود بين الأدب والصحافة . ويمكن التدليل أيضاً على أن مؤلف " مائة عام من العزلة " لم يكتب جيداً على اللوام وأن أسلوبه الواضح والمنسق والموسيقى والموعز جاء ثمرة لبحت شاق وطويل. إن مقالاته فى قرطاجنة التى أشار فيها فى مرات قليلة للغاية إلى ظاهرة العنف التى أصابت البلاد يغلب على أسلوبها كثرة الاستعارات المتكلفة والمثيرة للاستغراب التى اقتسبها من نهر جماعة " حجر وسماء " وكان الأسلوب يغلب عليه النحو المعوج الوعر وفى كثير من الأحيان يصعب احتمالاه حيث لم يستطع كاتب المقالات حينئذ إدراك الوصلة المقنعة بين الأدب والصحافة. ومع ذلك فهناك تقدم ملحوظ فى مقالاته الأخيرة ، ومن بين ذلك المضاهاة الحكيمة لأقوال الحكمة الزائدة عن الحد فى أسلوب رامون جوميث دى لاسيرنا الذى يعد أحد أساتذته الأساسيين .

وفى وسط فرحة الحياة والصحافة والأدب الذى كانت تمثله قرطاجنة والأونيفرسال (العالمى) والأصدقاء والجماعة ، كل ذلك سبب فى نهاية الأمر أكبر ملل وسأم فى حياته. وعلى الرغم من التحاقه متأخراً بالصف الثانى بكلية الحقوق فى أوائل مايو عام ١٩٤٨^(٢٧) .

وعلى الرغم من غيابه المتكرر استطاع أن ينهى ذلك العام بتقديرات ممتازة لم يحدث أن حصل عليها من قبل خلال السنوات الثلاثة التى درسها فى هذا التخصص ، وإن كان قد رسب فى القانون الرومانى حيث لم يحصل فيه إلا على درجتين فقط^(٢٨) ، وفى الصف الثالث فى العام التالى كان غيابه من المحاضرات كثيراً ومتعددًا ، وكان أدائه الجامعى أقل بشكل ملحوظ ، وقد نجح فى القانون المدنى بثلاث درجات ، ورسب فى الطب الشرعى حيث حصل على درجتين فقط ، أما فيما يتعلق بسيمينار القانون المدنى فلم

يقدم البحث النهائى الإجبارى^(٢٩). وبما أنه لم ينجح فى القانون الرومانى الذى رسب فيه فى العام الماضى أصبح راسباً فى ثلاث مواد ، ولم يعلم بذلك إلا بعد عامٍ كاملٍ عندما عاد من بارانكيا إلى قرطاجنه فى يناير ١٩٥١ بعد أن أقام فى موطنه عاماً كاملاً لكى يسجل فى الصف الرابع ، حينئذ علم بأنه اذا أراد استكمال دراسته ينبغى عليه أن يعيد الصف الثالث. وبالطبع رفض تماماً هذا الكابوس وترك الدراسة نهائياً. إن التحرر من القيود الأكاديمية - التى وصفها برناردشو ذات مرة بأنها أكبر عائق لتثقيف وتعليم شخص - كان فى غاية الفائدة والنفع لحماسه الأدبى .

والحقيقة أن الحصيلة كانت هائلة وممتازة فى أواخر ١٩٤٩ عندما ترك الجامعة عملياً فقد أصبح لديه ست حكايات منحته عبر الاسبكتادور " المشاهد " شهرة يُحسد عليها كقصاص جيد ، وقد كتب " لا أوحا راسكا " (الورقة الساقطة) برواية جديدة وبدأ يمهّد لإعداد عالم ماكوندو كما قرأ أهم الأشعار والقصص الكلاسيكية والحديثة ، كما اكتمل لديه الإلمام بفن السرد (كما يتضح ذلك من آخر مقال له فى عموده " نقطه ومن البداية " الذى خصصه لإدجار ألان بوفضلاً عن المقدمة التى كتبها لقصة " الشبورة الزرقاء " لصديقه جورج لى بيسويل كوتيس)^(٣٠) بعد أن استعاد وامتلك ثقافته الكاريبية التى لا غنى عنها بالنسبة لجارثيا ماركيز فضلاً عن عالم طفولته العجيب. كما سمح أصدقاؤه فى قرطاجنة باستعادة مصادره وإثراء العناصر الأساسية لكى يصبح الكاتب والصحفى كما كان يريد جارثيا ماركيز أن يكون منذ سنوات ثيباكيرا.

ومع ذلك فإن علاقة جارثيا ماركيز بقرطاجنة ستكون علاقة حب - كراهية خلال العشرين عاماً القادمة. يصعب على القصاص نسيان الجوع الذى كان يعانى منه والضائقة المالية والأجر الزهيد فى صحيفة الأونيفرسال (العالمى) ، وخاصة الوفرة والبهاء الذى كان يتمتع فيه بعض قطاعات الطبقة المتوسطة فى قرطاجنة ، التى أظهرت ازدياءً وامتهاًناً لصحفى من الأقاليم. ومع ذلك لم يستطع جارثيا ماركيز نسيان كل ما قدمته له المدينة خلال هذين العامين ، وما ستقدمه له طوال ما تبقى من حياته ، لأن هذه المدينة البطولية ستظل إلى جانب كل من أراكاتاكا وسوكرى وبايدوبار وبارانكيا بمثابة المشتل الأدبى الذى لا ينضب بالنسبة للقصاص. وكما يرافق الظل الجسد فإن المدينة الاستيطانية ستلاحقه من خلال كتابين من الحكايات وأربع قصص :

بدءاً من قرطاجنة المناصرة للرق والعبودية في سيرا ماريا لكل الملائكة ، والمدينة الجمهورية لبوليفار حتى قرطاجنة في القرن العشرين لمرض الكوليرا والمدينة الحديثة التي نمت فيها السياحة بشكل ملحوظ . ولقد وجد جارثيا ماركيز فجأة على وجه التحديد في دير سانتا كلارا الدافع لكتابة قصته "عن الحب وشياطين أخرى" (٣١) ، بعد خمسة وأربعين عاماً . وكان ذلك في الخمارات القديمة بالميناء عندما سمع من شفتي ذلك الحارس المجهول الحكاية التي كانت السبب في قصته "بلاكمان بائع المعجزات الطيب" . كان ذلك في قرطاجنة في أواخر الأربعينيات حيث بدأت تنضج المدينة المجهولة في "خريف البطريق" . كان ذلك في أحد المنتجعات حيث تم التعارف بين بطلي قصته "أثر دمائك على الجليد" وسيكون ذلك في المنعطفات التي لا حصر لها بالمدينة المحصنة بالأسوار العالية التي تلائم جو الحب ونظم الشعر ، حيث نما الحب بين البطالين ، ثم انفصلا عن بعضهما البعض ، ولم يلبثا أن استعدا حبهما كل من فلورينتينو أريثا وفيرمينا داثا في "الحب في زمن الغضب" .

وسوف تقدم له هذه المدينة الساحرة أيضاً قبل رحيله إلى بارانكيا في ديسمبر ١٩٤٩ لحظة أخرى من لحظات السعادة في حياته ، ألا وهي التعرف على صديقه الكبير الشاعر والقصاص ألبارو موتيس .

وقد أصبح موتيس في السادسة والعشرين من عمره جوالاً هائلاً بفضل إحساسه بمعنى الصداقه ، وبفضل سخائه منقطع النظير ، وبفضل كونه مولعاً بالموسيقى إلى حد الهوس ، وبفضل كونه مطلعاً عالمياً على الشعر والقصة والتاريخ . وخلافاً لما كان عليه والده الصيدلاني العالم خوسيه ثيليستينو موتيس فإن ألبارو لم يكن يُشرّح النباتات ويجففها بل كان يحلل القصائد والقصص . إن هوايته الحقيقية كشاعر وعالم ملم بالعصر الوسيط اعتاد اخفاءها لكي يمارس عدة مهن أخرى مثل العمل مزيّناً بالإذاعة ، ورئيس الدعاية والترويج لعدة شركات . ولذلك فبمجرد وصوله إلى ساحل الأطلسي في أوائل الأربعينيات لم يفعل ذلك بحثاً عن الإلهام ، ولكن كعميل دعائه لشركة التأمين الكولومبية . وقد التقى في بارانكيا مع ألفونسو فوينمايور وخيرمان بارجاس وأليخاندرو أو بريجون أصدقاء مجموعة بارانكيا ، وقد بدأ هؤلاء يتحدثون له عن جارثيا ماركيز ، ذلك الفتى النحيف ذي الشارب الكثيف الذي كان مثلهم تماماً يبحث

عن الصداقه والأدب ، ولكن كان أهم من تحمس لكى يتعرف ألبارو موتيس على جارثيا ماركيز هو الشاعر روخاس جابريل إيراثو. وكما قال له إيوارد ثلاميا بوردا فى بوجوتا : "ينبغى عليك أن ترى جابو(جابريل جارثيا ماركيز) ، لا ، عليك أن تتعرف على جابو " هكذا ألح عليه روخاس إيراثو. ومع ذلك فلم تتم المعرفة على يد أى منهم بل حدث ذلك عن طريق جونثالو مايارينو بمدينة قرطاجنة فى أواخر عام ١٩٤٩ ، والمعروف أن مايارينو كان أحد أفراد الجماعة الرباعية الأدبية التى تكونت خلال السنوات الجامعية ، وقد حدث ذلك لأن مايارينو لم يكن يعرف البحر حتى تلك اللحظة.

وخلافاً للقاءات أخرى فإن لقاء موتيس وجارثيا ماركيز لم يكن فجائياً بل كان حتمياً وكأن القدر قد خطط له ، فالحقيقة أن الاثنين كانا يقرآن سوياً ويحاول كل منهما ملاحقة الآخر منذ الأوقات البوهيمية فى بوجوتا ، وكانت أول مقابلة بينهما عندما كان جارثيا ماركيز يكتب حكايته الأولى . كان جارثيا ماركيز يكتب " الاستسلام الثالث " بدافع من قصه " المسخ " لكافكا ، وذلك فى ٢٢ أغسطس عام ١٩٤٧ عندما قرأ ملحوظته إيوارد ثلاميا الذى شجعه فيها على إنهاء حكايته. وفى تلك الملحوظة ظهر اسم ألبارو موتيس كأحد الصحفيين الجدد فى الملحق الأدبى^(٣٢). وبعد ذلك بأسبوعين وقبل أسبوع من نشر حكايته الأولى ظهرت القصيدة الأولى لألبارو موتيس فى القسم نفسه ، والقصيدة الثانية ستنتشر لموتيس قبل عشرين يوماً من الحكاية الثانية لجارثيا ماركيز^(٣٣). وبالتالي فإن كلاهما كان يُقرأ نظراً للاهتمام الكبير الذى منح لهذا القسم ، وكذلك كل ما يكتبه ثلاميا بوردا .

ويرجح أن يكون اللقاء الشخصى الأول قد تم بينهما فى أواخر أيام عام ١٩٤٧ أو فى أوائل ١٩٤٨ فى قاعة الحفلات الموسيقية بالمكتبة الوطنية كان جارثيا ماركيز أحد روادها واعتاد الجلوس فى المقهى. وكان الآخر فى الثالثة والعشرين من عمره له أنف عقابى وحاجب تركى وجسم ضخم ونعلان صغيران مثل نعل بوفالو بيل وكان يأتى دون تأخير فى الساعة الرابعة مساءً ويطلب عزف مقطوعة موسيقية بالكممان ليندلسون^(٣٤) ، وعلى الرغم من تكرار المقطوعة الموسيقية وصورة موتيس المميزة سليل يهود بيزا - فقد كان ينبغى أن يمر أربعون عاماً لكى يتعرف جارثيا ماركيز على أنغام تعليق عارض لموتيس عن ميندلسون أن الصوت الجهورى هو صوت هذا العازف هو صوت للشباب البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً الذى اعتاد المجيء دون

تأخير في الساعة الرابعة مساءً لصالة الحفلات الموسيقية بالمكتبة الوطنية ويطلب عزف المقطوعة ذاتها .

ومن المحتمل جداً أن يكونا قد التقيا أيضاً في المقاهي المكتظة بالناس في شارع ٧ في "المولينو" أو "الاستورياس" ، حيث اعتاد الاثنان الذهاب خلال الشهور السابقة على ٩ أبريل. وعلى أية حال فمن المؤكد أن الأحداث الجامحة والخطيرة في بوجوتا حولت إلى رماد الحكايات الأولى لجارثيا ماركيز ، وكذلك الديوان الأول لموتيس تحت عنوان (الميزان) ، ولذلك فعندما قدمها جونثالو مايارينو إلى بعضهما البعض في قرطاجنة الكولومبية في أكتوبر أو نوفمبر ١٩٤٩ كان تقديمه إياهما بمثابة لقاء معلن عملياً. فقد تعرف موتيس ومايارينو على بعضهما البعض لأول مرة في اليوم نفسه في الصباح وسط بوجوتا ، وقد اعترف له مايارينو بأنه لم يعرف البحر حتى الآن على الرغم من القصائد الكثيرة التي يستطيع أن يرددها من الذاكرة ، حينئذٍ بدا لموتيس أنه من غير المعقول أن يكون هناك شخص لم يعرف البحر حتى الآن ، لذلك اصطحب مايارينو في نفس المساء إلى قرطاجنة وتعرف على البحر من أسفل القلاع الكائنة هناك بكل مراسم الشرف. ولكن الاحتفال بالتعرف على البحر لم يكن طويلاً مثلما حدث في الاحتفال بالصدقة عندما وصل جارثيا ماركيز .

وقد ذهب موتيس ومايارينو إلى صحيفة الأونيفرسال على الفور لانتشال جارثيا ماركيز من الروتين ، إلا أنه لم يكن موجوداً هناك وقررا انتظاره في فندق صغير في بوكاجراندى ، وجلسا في شرفته يشربان ويتحدثان ويتحدثان ويشهدان مولد المساء الساحر وأفوله ، حتى انتشلتهما عاصفة إعصارية من الفردوس. وسرعان ما هاج البحر وبدأت ثمار جوز الهند تتطاير ككرات الرجبي عندما وصل جارثيا ماركيز وكان ذلك بمثابة بدء العاصفة. لقد رآه ألبارو موتيس كأنه قادم من عاصمة جهنم شاحباً نحيفاً للغاية ذا شارب كثيف وعينين جاحظتين بوسعهما اكتشاف أكثر المناطق وعورة في خبايا النفس ، وكان يرتدى قميص ترومان ذا ألوان فاقعة "عجباً ما بكما أو قال جارثيا ماركيز لصديقه: عجباً لكما !! " ثم تناول الثلاثة العديد من زجاجات المشروبات الكحولية وقضوا الليلة وجانباً من الصباح التالي يتحدثون ويتحدثون عن القضايا الإنسانية. إن الحياة ما هي إلا أيام "تتبعها أيام أخرى" وفقاً لأحد أبيات شعر

أستاذة وصديقه أوريليو أرتورو. وبالطبع تحدث الثلاثي عن الأدب وخاصة عن قصص ويليام فوكنر. ومنذ تلك اللحظة أدرك موتيس أن الأستاذ الأمريكي كان روائياً مبدعاً ، ولكنه لم يكن كاتباً جيداً بصفة عامة مثلما كان يسود الاعتقاد في هذا الشأن. إن النقاش والجدل بين الصديقين سيستمران طيلة ثلاثين عاماً حتى أنهى هذا الجدل جارثيا ماركيز ذات صباح وهو في المكسيك عندما أجرى اتصالاً هاتفياً مع موتيس. اعترف جارثيا ماركيز على الهاتف بأن موتيس كان على صواب وقال: أستاذي ؛ إن فوكنر لم يكن كاتباً جيداً !

وعلى الرغم من أنهما لم يكن لديهما قراءات مشتركة سوى عن كونراد ويورخييس ، فإن الحقيقة أنه كانت لديهما قراءات مشتركة أثناء فترة تكوينهما الأدبي ، فقد قرأ كلاهما بحماس منقطع النظير لشعراء العصر الذهبي ولبروست وروبين داريو وبابلو نيرودا وهيرمان ميلفيل. (ومن "موبى ديك" أخذ جارثيا ماركيز النفس الأسطورية لقصصه الكبرى؛ لقد استطاع موتيس أن يجد عناصر لشخصيته دي ماكرول الجابريو). وعلاوة على ذلك فقد اتبع التعاليم والتوجيهات الأدبية التي أسداها لهما إدواردو وكارانتا زعيم جماعة " حجر وسماء " ، وكان ذلك أثناء الدروس التي كان يلقيها كارانتا لموتيس في مدرسة نويسترا سنيورا ديل روساريو ، أما جارثيا ماركيز فقد استفاد من تلك التعاليم والتوجيهات من الملحق الذي كان يديره كارانتا في الصحيفة الأسبوعية "السبت".

ومع ذلك فإن الصديقين - طيلة ما تبقى من حياتهما - سيواصلان الحديث عن الأدب والحياة ، وسيظلان يهتمان بالأصدقاء والمقربين إليهما أكثر من اهتمامهما بنفسيهما ، ويحترمان كل منهما الآخر لكون أحدهما ألبارو والآخر جارثيا بدون ألقاب أو أعمال أدبية. وظلت صداقتهما منقطعة النظير ، ولا تشوبها أية ظلال أو غيوم أو سُحُب. صداقة رجلين لا يتشابهان في شيء ؛ اللهم إلا في الذكاء والحنان والكرم ، ولكونهما كاتبين مختلفين تماماً فإن كتبهما ستجمع بينها فكرة متسلطة مشتركة : النضج تجاه الأصل موتيس صوب كويو وامبيرييس وجارثيا ماركيز صوب أراكاتاكا وسوكرى .

الفصل الثامن

- بارانكيا مدينة الأطلسي المتحمسة.
- بين سائقى سيارات الأجرة وفتيات الهوى والصيادين.
- قهوة كولومبيا ومكتبة العالم.
- المازحون فى جماعة الكهف.
- أفراح وأتراح العالم القطالونى.
- أصوات.
- كاتب عمود بصحيفة " الهيرالد ".
- ساكن ناطحات السحاب.
- بيت الهوى على نهج فوكنر.
- على أنغام البرقيات.
- " الورقة الساقطة " لا تجد من ينشرها.
- الصحيفة الأسبوعية " النبأ ".
- مراهنه " السيدة التى كانت تصل الساعة السادسة ".
- كروانات أوفيميا السوداء.
- الواقع والأدب والصحافة.

كان جارتيا ماركيز قد استقر في بارانكيا خلال فترة عيد الميلاد عام ١٩٤٩، وبعد ذلك بقليل في ٥ يناير من العام التالي^(١) بدأ العمل في صحيفة الهيرالد وذلك بعموده اليومي تحت عنوان (الزرافة) وسوف يوقع معظم إسهاماته الأربعمائة تقريباً باسم مستعار هو وولفيانو دي سبتييموس ؛ الشخصية الواقعة بين العقل والجنون في قصة "السيدة دالواي".

وقد ظلت قرطاجنة لفترة في الخلفية. لقد كانت بمثابة بئر من أبار التاريخ العميقة للغاية كانت بمثابة "قبر حي" بسحرها وجمالها وهذونها. ومع ذلك بقيت مستودعاً غنياً بالنسبة للكاتب على مدى عامين هامين في مسيرته. ولكن فيما يتعلق بالجانب الاجتماعي - الثقافي كان وجودها محدداً للغاية ، وعلى الصعيد الأدبي كان شبه منعدم اللهم إلا إذا استثنينا من ذلك - بالطبع الشاعر الشهير لويس كارلوس لوبيث والأشهر خورخي أرتيل. ومن ناحية أخرى فإن البرجوازية (الطبقة المتوسطة) المحلية كانت قد عاملت الصحفي الشاب بجفاء بالغ ، كما أن العمل كان روتينياً بعد عامين ، والراتب الزهيد الشحيح في صحيفة "الأونيفرسال" (العالمى) لم يكن يكفيهِ للغذاء فقط. ولكي يزداد الطين بلة، انتقل كل من جوستابو إيبارا ميرلانو وراميرو دي لا إسبيريلا^(٢) إلى بوجوتا في أواخر يولية وتأكد أيضاً غياب هيكتور روخاس إيراثو. وهكذا فبعد تفرق الجماعة وجد جارتيا ماركيز الفرصة مواتية وسانحة لكي يستقر - في النهاية - في بارانكيا المدينة التي كان الكاتب يرغب في الإقامة بها منذ عودته من بوجوتا، حيث كان ينتظره أصدقاء "جدد" ومنجزات جديدة وحياة أكثر قوة وحيوية مع خطيبته مرسيدس بارتشا باربو الفتاة ذات الستة عشر ربيعاً وصاحبة الملامح الجميلة الغريبة الشخصية الهادئة الغامضة.

إن مدينة الأطلسي كانت تفتقر للتاريخ ولسحر قرطاجنة وجمالها ، ولكنها كانت على العكس من ذلك مدينة في حالة غليان ، وذات تجارة وحركة اجتماعية وثقافية متزايدة منذ أوائل الأربعينيات. ومع ذلك فقد نسفتها الهجرة المتعددة طوال القرن العشرين (يهود وألمان وفرنسيون إسبان وإيطاليون وعرب) كانت في ذلك الوقت المدينة العالمية في

كولومبيا ، ونظراً لكونها الميناء النهري الرئيسى بالبلاد أصبحت مدخلاً ومخرجاً فى غاية الأهمية ، فقد حلت محل قرطاجنة وسانتا مارتا حتى بوجودها نفسها التى ظلت لسوء الحظ موضوعة فى الصحافة الدولية بسبب أعمال العنف ، ولهذا السبب نفسه ظلت معزولة أكثر من أى وقت مضى.

ومع ذلك كتب جارشيا ماركيز فى منتصف الخمسينيات أن بارأنكيا كانت مدينة بلا تاريخ^(٣). وفى الواقع كان ذلك حقيقة لأن هذه المدينة لم يكن لها أساس بطولى مثل قرطاجنة أو سانتا مارتا بل كانت من بين المدن الخاملة والمتأخرة فى الكاريبى ، وفيما بعد طوال العصر الاستعماري ظلت بارأنكيا منعزلة وفى سباتها المعهود بين الحر والتراب والرطوبة.

وكما فى أية قصة رعوية نشأت على يد بعض الريفين والرعاة فى ١٦٢٩ فى لاس بارأنكيا دى سان نيقولاس على الضفة الغربية لنهر ماجدلينا ، وعندما أصبحت على هامش التجارة والاتصال البحرى والنهرى بسبب سيطرة قرطاجنة وسانتا مارتا ، ونظراً لصعوبة دوران السفن فى نهر ماجدلينا ظلت بارأنكيتاس - كما أطلق عليها فيما بعد^(٤) - منعزلة وباقية على ما هو عليه طيلة مائتى عام. ورويداً رويداً ، وخاصة بعد إعداد الميناء البحرى فى سبانياً بدأت بارأنكيا تنهض من سباتها الاستعماري حتى بدأت الملاحة البخارية فى نهر ماجدلينا فى منتصف القرن التاسع عشر ، فأصبحت الميناء النهري الرئيسى فى كولومبيا لى يكون بمثابة بداية سيطرتها وهيمنتها على ساحل الأطلسى.

وهكذا فإنه عندما عاد جارشيا ماركيز للاستقرار فى بارأنكيا فى ديسمبر ١٩٤٩ - بعد سبعة أعوام بعيداً عنها - كانت بارأنكيا - ولا تزال مقارنة بالمدن الساحلية الأخرى مدينة بلا تاريخ تقريباً ، ولكنها تحولت إلى أهم مركز تجارى وثقافى واجتماعى بالمنطقة. وكانت لذلك "المدينة الساحلية" حيث سادت الفكرة القديمة الراديكالية الواعية : إن الكاريبى الكولومبى دولة على حدة دون روابط مع الداخل المركزى بعيداً عن السياسيين والبيروقراطيين. واستناداً إلى هذا الموقف كان للأصدقاء الجدد للكاتب دور مهم وقد أطلق عليهم بصفة أخوية وإلى الأبد فى "جنازة الأم الكبيرة" اسم "المهازرون" وهم ألبارو ثيببدا ساموديو وخيرمان بارجاس وألفونسو فوينمايور وأليخاندرو

أويريجون وهم أبرز أعضاء جماعة بارأنكيا الذين كانوا يرتبطون أدبياً بالكتاب المخضرمين خوسيه فيلكس فوينمايور ورامون بينيس "العالم القطالوني" كما فى "مائة عام من العزلة".

وهؤلاء سوف يستعيد جارتيا ماركيز معهم مدينة عواطفه التى كانت لا تزال مدينة المذات نفسها فى فترة مراهقته بنهرها ماجدولينا الذى ينشر فيها رائحة كريمة قوية وساخنة لتعم جميع أرجائها ، ومن ثم تنتشر رائحة شبيهة برائحة السمك الطازج فى المنعطفات ممتزجة برائحة أخرى مهيمنة هى رائحة الجوافة العفنة. تلك المدينة المكتظة بالسان الساحلين فى خضم حر شديد لا يطاق ، وتنتشر بها الحلوى (المصنوعة من البيض والسكر) والحشيش والنزهات المتأصلة فى أهلها مثل رطوبة النهر نفسها. ولكن على الرغم من شدة الحرارة بالمدينة فإن أهلها لم يفقدوا مرحهم ومزاحهم بفضل خفة روحهم الخالدة وكرنفالاتهم التى لا تحصى كوسيلة - ربما - للحفاظ على أدنى قدر من الحكمة والرزانة اليومية.

ومن بين السكان العوام بالمدينة تمتع سائقو السيارات الأجرة بحب وصدقة الكاتب ، وهو الذى أطلق عليهم لقب " أبطال الصالح العام " ، وقد ربطته بهم صداقة مستمرة حيث كان يطوف فى لياالى الفراغ بجميع الأماكن غير المتوقعة فى بارأنكيا. كما كان صديقاً أيضاً لسيدات الهوى فى شارع الجريمة وبيت الهوى المسمى بيت ناطحة السحاب وعمال الحانات فى الكانتينات بالضواحي والحلاقين وسائقى عربات النقل وصيادى الميناء ، حيث استلهم موضوع قصته " العقيد لا يجد من يرأسه ". فاماكن مثل ميدان سان نيقولاس والحي الصينى (حى البغاء) وحارة أسرة مياو وبيت هوى الزنجية أوفيميا ومنتزه بوليفار وشارع البروجريسو (التقدم) وصيدلية ديميتريو بارتشا فى شارع عشرين يولية تمثل أهم الأماكن التى يتردد عليها جارتيا ماركيز خلال الأربعة أعوام التى قضاها هذه المرة فى عاصمة الأطلسى. ولكن أهم هذه الأماكن كانت صالة التحرير فى صحيفة الهيرالد. ومكتبة العالم ومقهى كولومبيا وحانات خابى وروما والمقيلات الأدبية للجماعة.

وبعد أن يقضى ساعات من النوم فى بيت هوى ناطحة السحاب كان جارتيا ماركيز يصل إلى مقهى كولومبيا لكى يتم اللقاء الأول مع أصدقائه. ثم يذهب بعد ذلك إلى قاعة التحرير بالصحيفة ليؤدى عمله كمحرر وكاتب افتتاحى وكاتب عمود.

وفى المساء يعود إلى المقهى ومكتبة العالم اللذين كانا متجاورين تقريباً للحديث عن الكتب ، ويلقى نظرة على المستجدات التى كانت تصل من بوينوس آيرس : الأعمال الأخيرة لكافكا وجويس وفيرجينيا وولف وفوكنر وهيمنجواى وكابوتى وكاموس وسارويان وسارتر ويورخيس ونيرودا وكورتاثار وفيليسبرتو إيرنانديث بعضها مترجمة أو قدم لها خورخى لويس بورخيس وأصدقائه ، والتى كان يُنشرُ معظمها تقريباً فى دارى نشر لوسادا وأمريكا الجنوبية. وعندما كانت صناديق الكتب المطلوبة تصل بالباخرة ، وهى التى كانوا يقومون بإعداد قوائمها مساعدة للأخوة روندون أصحاب المكتبة ، كان جارثيا ماركيز وأصدقائه يقيمون حفلاً ، وعندما تُوصد المكتبة أبوابها يعودون إلى المقهى ، وعندما يغلق المقهى أبوابه يذهبون إلى حان خابى أو روما فى منتزه بوليفار. لقد كانت المناقشات حارة وساخنة وبصوت مرتفع وبها ألفاظ وعبارات فظة ونابية لدرجة أن مجاورهم فى الحان كانوا يخلطون^(٩). وكانوا يذهبون أحياناً إلى الحى الصينى (حى البغاء) إلى بيت هوى الزنجية أوفيميا بحثاً عن طعام فى متناول جيوبهم فى حى لاس ديليثياس (حى اللذات). وبهذه الطريقة ما بين كتاب وآخر ومحادثة ومحادثة وكأس وآخر ووجبة من هذا الصنف وأخرى من ذاك النوع ، كان جارثيا ماركيز يعود فى آخر الليل أو فى أول ساعة فى صباح اليوم التالى إلى غرفة النوم فى بيت مجون ناطحة السحاب. وإذا لم تكن هناك حفلة أو جولة بين الحانات مع الأصدقاء كان يظل فى قاعة التحرير بالصحيفة يكتب عمود اليوم التالى أو يواصل كتابة قصته " المنزل " أو يصحح للمرة الألف عمله " الورقة الساقطة ".

إن المحرك لهذه الحياة المحمومة سواء الصحفية أو الأدبية كانوا من جماعة المازحين ، وعلى وجه الخصوص ثيبدا ساموديو وخيرمان بارجاس وألفونسو فوينمايور ، فهم إلى جانب القطالونى رامون بينيس وخوسيه فيلكس فوينمايور الذين أسدوا له التوجيهات لقراءاته وصححو له حكاياته وقصصه ، كما امتدحوا ذكاءه الفريد وقدموا له كل أنواع العون والمساعدة اليومية. وجدير بالذكر أن الشكليات تضاءلت بين أفراد الجماعة لكى تُحدثَ وتطورَ حالات المزاح لكى يقبلوا مفرداتها وتعبيراتها العامة التى كان يمجتها فى قرطاجنه^(١٠) ، حيث أدرك أن معجم الألفاظ النابية والفظة لأصدقائه فى بارأنكيا لم يكن سوى كلمة السر للمشاركة والحب والصداقة الحقيقية. ومع مرور الوقت

سيرفعهم إلى المحراب الأكبر اعترافاً منه بامتثانه لهم ويسمح لهم أن يتزهوا ويتجولوا على راحتهم بأسمائهم الخاصة بالحماقات نفسها ، وصنوف الجنون وسمات الكرم على صفحات عمليّة "العقيد لا يجد من يرأسه" ومائة عام من العزلة .

وكان ألبارو ثيبيدا ساموديو العضو الرئيسى بالمجموعة متحمساً لعصر النهضة وقد وزّع نكاهه الهائل ما بين الصحافة والأدب والسينما والدعاية والشركات وأنشطة أخرى غير متجانسة. وفى الظاهر كان كارييبيا فظاً بخصلات شعره التى تتدلى على جبهته كأنه سائق لسيارة نقل ، وكثرة ألفاظه النابية وضحكته المدوية التى كانت ترعب التماسيح الأمريكية " وطبيعته الخلقية فى رفضه الشكليات والرسميات والوقار والجلال. ولكنه عن قرب كان رجلاً مفعماً بالحنان والخجل والسخاء والكرم. وعلى وجه الخصوص كان شخصاً تلقائياً وأصيلاً وفياً لعواطفه ومعتقداته ، وكان يكتب قصصاً خفية وسراً دون علم أصدقائه. وكان يستيقظ فى الخامسة صباحاً ليقرا كافة الكتب الممكنة حتى بعد الفجر وهو جالس فى كرسي هزاز من فيينا^(٧). وفى الواقع كان ثيبيدا ساموديو طفلاً خائفاً ، وشخصاً وفياً لذكريات الطفولة التى كانت تطارده منذ الغرف المظلمة التى تحتوى على ملح البارود فى المنزل الكبير فى ثيناجا حيث كان يعيش وهو طفل بعد مولده فى بارأنكيا يوم ٣٠ مارس ١٩٢٦ . وقد توفى والده وهو لا يزال طفلاً. وكونه يتيماً جعله يظل قابلاً للأبد مع الأماكن التى لم يسبر غورها فى منزله بثنيناجا. ومن هنا ولدت لديه هذه الضجة الأدبية التى استطاع أن يدرجها بكل أناقة فى بعض حكايات " كنا جميعاً ننتظر " وفى قصة " المنزل الكبير " ، وهما الكتابان اللذان أسهما فى تجديد الرواية الكولومبية بأسلوبها البسيط والمضمر والموعز والواضح البعيد كل البعد عن أى مقصد بلاغى أو بيانى.

وعندما ولد ثيبيدا ساموديو كان والده جارثيا ماركيز لا يزالان يعانيان من آخر خطوط الدهر وتقلبات فترة خطوبتهما لكى يتزوجا بعد ذلك فى مدينة سانتا مارتا ، ولم يبق سوى عامين وثمانية أشهر على مذبحه عمال مزارع الموز فى السادس من ديسمبر عام ١٩٢٨ (والذى حدث فى نفس ثيناجا على مقربة من المنزل الكبير) إنها واقعة ستؤثر فيهما وستوحدهما بشكل متزايد طيلة حياتها ، إنها ستكون الموضوع الوحيد " للمنزل الكبير " ، وأحد الأحداث ، بل أكثرها دموية وتأثيراً فى مائة عام من العزلة .

وسيكون ثيبيدا ساموديو وجارثيا ماركيز أكثر من صديقين على الرغم من كونهما شخصين مختلفين وهوية وحيدة حقيقية ، فقد كانا يختلفان فى أمور كثيرة وخاصة فى الصور والأشكال ، ولكن كان يجمعهما شىء رئيسى : الصداقة والكاريبى وحب الكاريبى والأدب والصحافة والسينما والكاتب الأمريكى فوكنر وهيمينجواى وسارويان ودوس باسوس ، وشجارهما الخالد مع كُتَّاب ومفكرى بوجوتا المتأنفين. لقد كان ثيبيدا ساموديو الذى دفع صديقه إلى السينما ومدارس الأدب والصحافة الأمريكية ، التى بدأ فيها جارثيا ماركيز فى قرطاجنة مع كليمنتي ما نويل ثبالا وجوستابو إيبارا ميرلانو وهينكور روخاس إيراثو. وخلال الفترة التى تعرف عليه فيها اصطحبه إلى منزله المكتظ بالكتب وقد أطلعها عليها وقال له : " سأعيرك كل هذه الكتب " ، وعندما تحدث معه جارثيا ماركيز عن قراءاته فى قرطاجنة عن هاوثورن وميلفيل وبو ، قال له ثيبيدا الذى لم يكن متحمساً لهؤلاء المؤلفين بأسلوبه المتميز : " كل هذا ما هو إلا غائط ". إن ما ينبغى عليك هو أن تقرأ للإنجليز والأمريكيين المحدثين^(٨) : أى جويس وولف وفوكنر وهيمينجواى ودوس باسوس وكابوتى وكالدويل وسارويان الذى كان جارثيا ماركيز قد بدأ القراءة لهم مع أصدقاء قرطاجنة.

إن ولع ثيبيدا ساموديو بالصحافة وأدب هؤلاء الكتاب جعله يلتحق بجامعة كولومبيا ، حيث حصل على مؤهل صحفى فى أواسط عام ١٩٥٠ ، وإن كانت إقامته فى نيويورك لم تكن إلا مبرراً ليعرف المدينة جيداً ، وموطن الكُتَّاب الذين استحوذوا على إعجابه. ويعودته أسهم بمعلوماته وأفكاره عن السينما الأمريكية والصحافة اليومية الطازجة لتلك المدينة الكبيرة فضلاً عن أوجه التقارب الأدبية الأمريكية المنتقاة والصفافية ، مما عزز وأثرى الأفكار الجمالية للجماعة ، وفى المقام الأول لجارثيا ماركيز كأحد أفرادها.

إن ألبارو ثيبيدا ساموديو بنشاطه المكثف عن عصر النهضة لم يبد أن له اهتماماً بشىء معين على وجه الخصوص ، بل كان يهتم بكل شىء بوجه عام. ومع ذلك فقُبل وفاته بثلاثة أعوام تم اكتشاف هوايته السينمائية (التى كانت قد بدأت فى ١٩٥٤ بعمله " الإستاكوزة الزرقاء) حيث أعد العديد من الأفلام القصيرة لتوزيعها تجارياً. وعندما قضى نحبه بسبب اللوكيميا (سرطان الدم) فى مستشفى نيويورك الخالد فى ١٢ أكتوبر ١٩٧٢ ، كان مشروعه الكبير يكمن فى هجر كافة المشروعات الأخرى والتفرغ

فقط للكتابة فى بلدة سبانيا. وبوفاته اختفى العضو الاكثر عفوية وتلقائية وأصاله ولباقة فى جماعة بارأنكيا. هذا الموت المبكر أثر كثيراً فى صديقه جارثيا ماركيز. كان موتاً متوقعاً منذ خمس سنوات كما يبدو فى " مائة عام من العزلة"، وكما يُقرأ فى نهاية قصته كان ألبارو هو أول من استجاب لنصيحة مغادرة ماكوندو. لقد باع كل شىء حتى النمر الحبيس لديه ، الذى كان يسخر من المارة فى فناء منزله ، واشترى تذكرة فى قطار لم تنته رحلته قط^(٩).

أما خيرمان بارجاس المختلف فى الذوق والحس ولكنه من نفس الطينة ، فقد ولد فى بارأنكيا عام ١٩١٩ وتوفى فى ١٩٩١ ، وقد اشتهر بين أفراد المجموعة ليس فقط بقامته القارعة ونحافته وعينه الخضراوين ذات اللون الأخضر الشيطاني ، بل أيضاً بتحمسه المتأنى الذى كان يقرأ به للكلاسيكيين (قُدامى الكتّاب) ولمشاهير الكتّاب ولغيرهم من الجدد. وكان بمجرد أن يفتح كتاباً بين كل توقف وآخر قد تمر خمس أو ست ساعات ولم يكن بوسع أحد أو شىء فى العالم أن يبعده عن الصفحة التى كان يقرأ فيها. لقد كان حكيماً بين أصدقائه وتميز بتعطشه عند قراءته لبروست كاملاً فى أسبوع واحد. لم يكن قارئاً شرهاً - كما يقال - بل كان قارئاً يتذوق الكتب جملة جملة بحماس ثابت لا يفتر ولا يكل. وربما لذلك وليس فقط لسخائه فإن صديقه جارثيا ماركيز كان يرسل له بعد ذلك ببضع سنين أصول أعماله من باريس والمكسيك ومن أى مكان يتواجد فيه لكى يتلقى تعليقات الناقد الذكى الفطن ذى النظرة الثاقبة والفاحصة الواسعة التى تُعزى إلى درايته ومعرفته بأصل الحكاية والقصة.

كان ناشراً للصحف وصحفيّاً للخبر الساخن المتقد والعمود ذى الصيغة غير الشخصية ، وكان ناقدّاً ومذيعاً بالإذاعة. وقد أعار صوته للمسلسل الإذاعى " لقد أُغْلِقَتْ الطرق" للكاتبة أولجا سالتيو ميدينا ، وهو المسلسل الإذاعى الوحيد الذى أعدّه جارثيا ماركيز طوال حياته^(١٠). وكان خيرمان بارجاس أحد النشطاء فى الترويج للجماعة وأعمالها. كان التعبير العادى لتحمسه للكلمة المكتوبة والصداقة. لذلك فقد كان المراسل الأكثر اجتهداً لزملائه الذين يعيشون فى أماكن نائية ، فقد كان يرسل هو وفوينمايور الكتب المطلوبة لصديقهما جارثيا ماركيز فى باريس والمكسيك وكاراكاس ، وفى أبريل ١٩٤٩ عندما كان جارثيا ماركيز ناقدّاً فى سوكرى قام خيرمان بارجاس وثيبيدا

ساموديو ورامون بينيس بتلبية مطلب صديقهما ، وأرسلوا له كل الكتب الممكنة حيث كان جارتيا ماركيز يضطجع فى شبكة هزاة تحت ظلال أشجار المانجو ، ولم يكن لديه ما يقرأه.

إن شغفه بالكلمة المكتوبة وممارسته للصدقة دون ظلال جعلاه يرد على العالم القطالونى فى برشلونة إلى جانب أوريليايو بوينديا فى "مائة عام من العزلة" [كما حدث فى الواقع] مراسلاته المفعمة بالاشتياق والحنين وإلى إشعال النيران فى بيت هوى صغير فى ضواحي ماكوندو لكى يثبت أن ذلك لم يكن سوى اختراع محض من جانبه شخصياً ومن جانب أصدقائه.

وهناك نقطة تعارض أخرى فى الشخصية الزاخرة والفياضة والمتفتحة لثيبيدا ساموديو ، وربما لباقي أفراد الجماعة ، كانت الشخصية الهادئة العاقلة الرزينة الرسمية الوقورة لألفونسو فوينمايور الأمين والناصح الفكرى للجماعة وأكبر فتيانها الأربعة ، وهو الذى توفى عن عمر يناهز السبعة والسبعين عاماً فى ١٩٩٤ . كان قصير النظر منذ ولادته ، ودائماً يلبس نظارة غليظة الإطار ورباط عنق . وكان أشبه بمفكر فى قلب عاصمة المزاح . كان يبدو : فى الواقع ذا مزاح بربرى هائل لكونه ذكياً وراقياً قاطعاً وثاقباً كشفرة الحلاقة ، ولكنه على أية حال لم يتخل عن كونه أكثر أفراد الجماعة جدية ، جدية - بلا شك - تولدت عن الجو الفكرى والممتاز لوالده الروائى والصحفى خوسيه فيلكس فوينمايور الذى كان يمتلك مكتبة عظيمة باللغة الأسبانية والإنجليزية والفرنسية تلك اللغات التى تعلم ألفونسو القراءة بها .

ولكن المشاركة والصدقة " والمزاح الساخر " والولع بالحياة والصحافة والأدب هى الصفات المشتركة بين جميع أفراد الجماعة هذا بغض النظر عن سماتهم الخاصة . وقد حافظ فوينمايور على صلاته الطيبة مع أعضاء جماعة قرطاجنة . لقد كان الأول الذى بهر الجميع بموسوعيته الأدبية وخاصة جارتيا ماركيز ذات مساء فى سبتمبر ١٩٤٨ ، حيث رأى كل منهما الآخر لأول مرة فى خمارة بيارأنكيا فقد كان - علاوة على تنازله عن جزء من راتبه - هو الذى دعا جارتيا ماركيز للعمل فى صحيفة الهيرالد حيث كان نائب مديرها ، وهو الذى رحب به فى الصحيفة فى السابع من ديسمبر ١٩٤٩ ،

ثم أثنى عليه بأنه أحسن كاتب حكايات طال انتظار البلاد له بفارغ الصبر وبمزيد من الارتباب^(١١).

لقد أسهم الناقد والصحفى الممتاز فوينمايور للجماعة بمعلوماته الأدبية العظيمة وخاصة عن قدامى الكتاب الإغريق واللاتينيين ، وتحمسه للتوصل إلى صحافة جديدة قوية وصارمة ، سواء فى صحيفة الهيرالد أو من خلال الصحيفة الأسبوعية النبأ التى كان يديرها مع جارثيا ماركيز. كان من أنصار نشر الكلمة المكتوبة، وكان يرى بوضوح أن حيوية مليئة بمخطوطات وقصاصات صحفية من أصدقائه أو مرسلة إليهم. واستناداً إلى حكاية حقيقية حدثت ذات ليلة فى بيت هوى الزنجية أوفيميا حيث فقد فوينمايور أصول عمل مسرحى لرامون بينيس. وقد أدرج ذلك جارثيا ماركيز فى نهاية قصته "مائة عام من العزلة" هذه الخاصية المميزة له : ياليتنى تعلمت اللغة القطلونية لأترجمها (يقصد أصول العالم القطلونى) ، وقد أدخل ألفونسو لفافة من الورق فى جيوبه التى اعتاد أن يملأها بالقصاصات الصحفية وكُتِبَ عن المهنة أو الحرف الغريبة. وذات ليلة تركها فى منزل الفتيات اللاتى كُنَّ يمارسن الهوى لسد رمقهن. وعندما علم الجد العالم الحكيم بدلاً من أن يثير الفضيحة التى كان يخشاها قال بعد أن مات من الضحك : إن ذلك كان المصير الطبيعى الأدب.

وسيكون ألفونسو فوينمايور وخيرمان بارجاس وألبارو ثيبيدا ساموديو إلى جانب جابرييل جارثيا ماركيز الفتيان الأربعة الذين لا يتحدثون بوقار فهم يشربون ويتحدثون عن كل شىء ، أوريليانو بابيلونيا فى ماكوندو خلال الأيام الأخيرة ، وهم أنفسهم كما فى الواقع كان يجمعهم حب وأستاذية العالم القطلونى ، إنهم أنفسهم فى الحياة مثلما هم فى القصة كانوا يبدؤون دردشاتهم فى مكتبة ليختتموها فى أحد بيوت المجون، يشربون الروم والكحوليات الأخرى وهم يتجاوزون حدود الواقع والخيال بنفس التلقائية مثلما ينتلقون من النهار إلى الليل. كانت المدينة تجمعهم فضلاً عن الصداقة والأدب والصحافة والعالم رامون بينيس ، وكذلك خلل حياتى خصب والمزاح الساخر فى جوهره الخالص الصافى.

ولكن فى الحقيقة فإن الرباعى بذئ الكلام كان فى واقع الأمر يتكون من خمسة أفراد ، لأن لبَّ المجموعة لم يكن يمكن إدراكه كاملاً دون وجود أقل الأفراد بذاءة فى

الكلام : إنه الرسام أليخاندرو أوبريجون أبرز أعضائها وأكثرهم شهرة حينذاك على الصعيد الوطنى.

كان نجلاً لنبيل أسبانى وقد ولد فى برشلونة عام ١٩٢٠ ، لقد جرب أو بريجون المعيشة العالمية فى باريس ، كما عرف الطمأنينة الرعوية فى قرية ألبا الصغيرة ، تلك القرية الفرنسية التى أسسها الرومان. ومع ذلك فعند عودته إلى بارأنكيافى منتصف الأربعينات رفض قبول الرفاهية البيروقراطية التى عرضتها عليه الإمبراطورية الأسرية من خلال مكتب بمصنع المنسوجات ، وانتقل إلى حقول النفط فى كاتاتومبو فى شرق البلاد لقيادة جرار^(١٢) ، ولحسن الحظ فإن أول معرض له بالمكتبة الوطنية فى بوجوتا أنقذه من المصير البعيد كسائق سيارات نقل ، وكان حافزاً له لكى يواصل الرسم بولع شديد ومتزايد ، حتى أصبحت موهبته الجامعة والوحيدة دون حدود مكانية أو زمانية. وبدأ أوبريجون - فى ورشته بشارع سان بلاس - يملأ تاريخ كولومبيا وأمريكا اللاتينية بطيور العقاب السريعة بأمريكا اللاتينية (وهو طائر يبلغ طوله ثلاثة أمتار ويحلق على ارتفاعات شاهقة وهو من الطيور الجارحة) والأسماك البحرية والثيران والعصافير والأعاصير التى هى وليدة الطبيعة المدارية. إن فنه منقطع النظير سيجعل منه رساماً للأشياء والأفراد بالألوان وفى حالة الحركة. حتى الطعام الذى كان قوامه الذرة والقمح ، والذى يرجع إلى العصر الحجري ، والذى كان يعده لأصدقائه استناداً لما يقوله جارثيا ماركيز كان موضوعاً للأشكال والألوان أكثر من كونه موضوع طعام لأن أوبريجون كان قادراً على أن يدخل فى قدر عناصر الطبيعة لكى يتركها تغلى فى كمية كبيرة من المياه مع نفس الملك الذى يرسم^(١٣).

وكان هو وثيبيدا ساموديو هما أكثر أفراد المجموعة انفتاحاً على الناس ، وبينما ذلك الانفتاح لم يحدث كاستفزاز فإن أوبريجون كان يقترب بشكل خطير من هوة الانتحار. وطبقاً لعينيه الشفافتين القرصانيتين " ويديه كقشتالى قديم حنون وبربرى فى آن واحد " وكان يشبع رغبته فى العواطف القوية بالألعاب الغريبة التى كان يشاركه فيها إواروبيللا صاحب حان الكهف ، الحان التى انتقلت إليه الجماعة اعتباراً من ١٩٥٤. وكانت فى كل مرة لا تسلم الجرة. فقد كان يصاب أحياناً على الرغم من قوته البدنية الكبيرة والمعنوية اللتين كانتا بمثابة درع له ضد نواب وشدائد الدهر، وكان كمنقذ

للغرقى المفقودين فى الظلام الدامس. وينفس الجنون الشبابى كان يأكل جراداً حياً فقد تمكن أوبريجون ذات ليلة من إنقاذ جسد صاحب زوزق كان قد غرق فى لاثيناجا الكبيرة وهو يصطاد السمك فى المساء. وكان جارثيا ماركيز يحكى تلك الواقعة كل مرة يسكرون فيها. واستناداً لما يقوله له الكاتب حيث كان يشبه إلى حد كبير عمل أوبريجون (إن أوبريجون كان يرسم بهذه الطريقة وكأنه ينقذ غرقى فى الظلام الدامس) وقد قدم بذلك لجارثيا ماركيز فكرة كتابة قصته " أجمل غريق فى العالم" (١٤) بعد بضعة أعوام من حدوث تلك الواقعة. إن هذه القصة بمثابة أكبر حكاية لسيرته الذاتية.

ولعل أهم لحظة تكشف عن شخصيته وشخصية الجماعة بصفة عامة هى لقاء الرسام مع ممثل البابا الذى حاول التفاوض بشأن لوحة من أعماله لمتحف الأعمال الزيتية بالفاتيكان بعد أن نال شهرة كبيرة فى العالم أجمع كرسام. وبعد أن تعلم فن المساومة لكى يحصل على سعر ممتاز لعمله الفنى ، فقد طلب أوبريجون من الفاتيكان سعراً غالباً مبالغاً فيه مقابل لوحته. وعندما علم مبعوث البابا السعر الذى حدده الرسام استعان بدبلوماسيته المعهودة ، وأكثر من الثناء والإطراء لإرضاء غرور الفنان وقال له إن السعر المطلوب ليس معقولاً ، ولكن عمله سيكون فى صحبة ممتازة فى متحف اللوحات الزيتية بالفاتيكان وهذا - كما هو معلوم - سيمنح الرسام شهرة هائلة. وعندما أدرك بأن قلب الرسام لن يلين وأن الكلام لم يرض غروره عرض عليه مبعوث البابا علاوة على الثمن خمسة عشر ألف قُداس لإنقاذ روحه وقال له مؤكداً: لقد علمت أن حضرتك فى حاجة ماسة لذلك. ولكن أوبريجون بنفس الهدوء البهيمى الذى كان يتميز به على حافة الهاوية أنهى المفاوضات : انظر أيها الحَبْرُ ؛ فيما يتعلق بالنقود لن أخفض سنتياً واحداً ، أما فيما يخص الخمسة عشر ألف قُداس فإننى على استعداد لتخفيض كل ما تريده حضرتك (١٥). فالحكاية لا تصور جيداً شخصية الرسام فقط ، بل أيضاً تبرز إحدى السمات التى تميزت بها الجماعة ككل : تفانيها فى العمل والحياة دون الرضوخ لإطراءات وثناءات الشهرة الممكنة.

وهكذا فإن أوبريجون وثيبيدا ساموديو وفوينمايور وبارجاس وجارثيا ماركيز كانوا يمثلون أعضاء الجماعة الدائمين وقد التفوا حول المخضرمين خوسيه فيلكس فوينمايور ورامون بينيس. أما الآخرون الكثيرون الذين كانوا ينضمون إليها ويخرجون

منها على فترات متباعدة ومتقاربة مثل ألفريدو ديلجادو وأولاندو ريبيرا (فيجوريتا) وخوليو ماريو سانتو دومينجو وخوان ب. فرنانديث دينويتشكسى وروبرتو برييتو وريكاربو جونتاليث دييول وكينكى سكوييل وبرناردو ريستريبو مايا وكارلوس وراميرو دى لا إسبيريا وجونتالو جونتاليث ، ومن حين لآخر كان هناك من بين زائرى المجموعة روخاس إيراثو والشاعر ألبارو موتيس بصفته رئيس العلاقات العامة لشركة لانسا للطيران وكان يسافر إلى بارأنكيا أسبوعياً .

وقد أدلى كل من الأستاذين بدلوه فى الحياة الأدبية المتحمسة للجماعة. ولِدَ الصحفى والقصاص خوسيه فيلكس فوينمايور فى بارأنكيا عام ١٨٨٥ ، وتوفى بنفس المدينة عام ١٩٦٦ ، وكان أحد النماذج التى يُحتذى بها بنثرة البسيط والدقيق والشفاف. وفى رواياته مثل "الموت فى الشارع" التى نشرت فى الصحيفة الأسبوعية (النبأ) أظهر لفتيان الجماعة المواهب الأدبية التى لا تنضب فى الحياة اليومية البائسة فى اشتياق الناس العوام بالشارع ، وحنينهم وكذلك فى كوابيسهم ومشاكلهم فى أساطير وخرافات الشعوب. وفى ذاته الوقت علم أفراد الجماعة الطريقة الأكثر فعالية وجدوى فى السرد وهى التى تكمن فى تقديم نثر بسيط وشفاف مثل الذى نصح به هيمينجواى ، حيث الأفراد والأشياء والأعمال يتم الإعلان عنهم وتخصص لهم صفاتهم الذاتية دون ثغرات أو فجوات بلاغية أو خداع فكرى.

أما رامون بينيس " العالم القطلونى " أو " العجوز الذى قرأ جميع الكتب " والمؤلفون الذين قرأ عنهم فى كل وقت وحين كما ضبط عندهم حاسة الشم مشيراً عليهم فى دردشات المقهى بالكتب والمؤلفين الذين ينبغى عليهم القراءة لهم فى كل وقت وحين . كما علم أفراد الجماعة أيضاً فك الحكايات والقصص للروائيين العالميين العظام ، وذلك بالتحقق من الأعمال وفصل بعض الأجزاء عن بعضها كمن يفك صواميل ومسامير قلاووظ جهاز ليعود إلى ربطها من جديد وهو ينعم بمعرفة أدق أسرارهِ. وإذا تأخر الفتيان فى متاهات بعض الآداب يعتقد أنها مشكوك فيها لم يتوان لحظة واحدة فى استدعائهم ولفت نظرهم مذكراً إياهم بهوميرو بمثابة فى مكتبه العالم ومقهى كولومبيا أو فى حان خابى. وكان الجميع يوقرونه ويجلونه لأنه كان " أحلى ساعة " فى الأربع والعشرين ساعة اليومية بالنسبة لهم^(١٦) .

وقد بدأت قصة العلم والحكمة والإنسانية لرامون بينيس فى قرية بيرجا فى جبال البرانس عام ١٨٨٢. وبعد أن انتقل إلى برشلونة فى طفولته تخصص فى الآداب وهو لا يزال صغير السن ، وقد برز فى أسبانيا قبيل أن يكمل عامه الثانى والثلاثين ، واشتهر كشاعر وكاتب مسرحى وسرعان ما سجل اسمه فى موسوعة إسبانيا (دار نشر إسبانية). ومع ذلك فذات يوم عام ١٩١٣ انتهى المطاف إلى الاستياء من الجو الأدبى والفكرى فى برشلونة ، وكذلك ابتعد عن الأدب والمدينة وظهر فى ثيناجا عاصمة منطقة زراعات الموز حيث التقى برجلين لهما تأثير كبير فى حياة جارتيا ماركيز : الجد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا والجنرال بينخامين إيريرا اللذين كانا يقيمان منذ بضع سنوات فى أراكاتانكا المجاورة. وقد عمل بينيس محاسباً فى ثيناجا ولدة عام فى إحدى شركات الموز، ولكن الوحدة والبؤس الاجتماعى ورتابة العمل جعلته يعود بسرعة إلى الأدب ويتصالح معه بفضل جمال وروعة الكوميديا الإلهية ، وقد انتقل إلى بارأنكيا فى العام التالى لى يؤسس مكتبة ومجلة أدبية أطلق عليها اسم " أصوات " كان لها الأثر الملحوظ فى الحياة الفكرية الأدبية لساحل الأطلسى وعلى البلاد بصفة عامة^(١٧).

وكان بين حنينين متقابلين كمرأتين وظلّ القطالونى المؤقر طوال أربعين عاماً تقريباً ينتقل عدة مرات بين برشلونة وبارأنكيا دون أن يقرر بأى المدينتين يستقر ، حيث إن برشلونه كانت تمثل بالنسبة له الحنين الدائم والخالد ، أما بارأنكيا فكانت معقل صداقاته وعواطفه الأكيدة والصائبة ، فهنا تزوج من ابنة المدينة ماريا سالاثار.

وقد عاد رامون بينيس إلى برشلونة للمرة الرابعة فى مايو عام ١٩٣١ ، عندما سقطت ملكية ألفونسو الثالث عشر وانحاز إلى جانب الجمهورية ، وقرر البقاء نهائياً فى وطنه ، ولكن انتصار فرانكو اضطره إلى السفر إلى فرنسا فى فبراير ١٩٣٩ ، ليعود إلى بارأنكيا بعد ذلك بعام^(١٨). وتلك المرة قضى فى عاصمة الأطلسى عشر سنوات متواصلة ، تلك المدينة التى على الرغم من وجود أصدقائه بها وكثرة السنوات التى قضاها هناك لم تعجبه بسبب فوضويتها وشدة حرارتها وطابعها الترايى. كان يعيش فى غرفة مليئة بالكتب بها مكتب وآلة كاتبة وصندوق ولوحتان ودولاب للملابس وحوض لغسيل الأيدى وسرير. وكان يستيقظ مبكراً ليُدْرَس التاريخ والأدب فى مدرسة الأنسات وعند الظهر كان يلتقى بأصدقائه بالجماعة فى مقهى كولومبيا لتناول الكوكاكولا ، وليتحدث لهم عن مؤلفيه وكتبه المفضلة ، وفى المساء كان يرتدى البيجامة ويجلس بجوار

النافذة ليكتب أعمالاً مسرحية ومقالات ورسائل لأصدقائه الأوروبيين، وفي الليل كان يمر على مكتبة العالم ومقهى كولومبيا أو حان خابى لكى يواصل الحديث مع أصدقائه ويتناول الكوكاكولا^(١٩). وهكذا انقضت سنواته العشر فى بارأنكيا حتى انتابته ذات يوم أول أحاسيسه بالموت ، فحزم حقائبه وركب الطائرة فى ١٥ أبريل ١٩٥٠ متجهاً إلى مدينته التى حن إليها ، إلى برشلونة فقد انتابته الهواجس والمخاوف خشية أن يدفنه فى بارأنكيا ، تلك المدينة الفوضوية شديدة الحرارة. ومع ذلك فبعد أشهر قليلة أدرك أن برشلونة مدينة أحلامه لم تعد موجودة فلم تكن سوى خدعة فى حنينه واشتياقه ؛ فقد أحس بأنه كولومبيا من الكاريبى أكثر منه قطالونياً إسبانياً ، وأن ما هو أكيد حقيقة بالنسبة له - إلى جانب قرب وفاته - هى تلك المدينة الفوضوية الحارة والترابية مدينة بارأنكيا على الجانب الآخر من الأطلسى حيث يريد - فى الحقيقة - الموت بين حب أصدقائه الكبار وبالفعل وقبيل وفاته فى ٥ مايو ١٩٥٢ كان قد طلب تذكرة باخرة ليعود ويستقر نهائياً فى كولومبيا^(٢٠).

وعلى أية حال ظل هناك. ولم يكن ذلك فقط لأنه سيُخلدُ فى "مائة عام من العزلة" بعد خمسة عشر عاماً ملقّباً "بالعالم القطالونى" ، بل أيضاً بفضل أستاذيته التى أدار بها "الهيرالد" ومجلة "أصوات" إحدى أهم المجالات الطليعية فى كولومبيا وأمريكا اللاتينية ، وكذلك بفضل دردشاته المميزة فى الحانات والمقاهى.

وفى مجلة "أصوات" التى استمرت ثلاث سنوات فى أواخر الحقبة الثانية، وقد نشر بينيس الترجمات الأولى بالأسبانية لتشيسترتون ، وأثرى بذلك الثقافة الأدبية لكولومبيا بنصوص لكلوديل وجايد وميلوث أبولينير وليون دى جريف وريفيردى وماكس جاكوب وإيودو برو وخوسيه أويستاسيو ريبييرا وآخرين. ولقد اهتم بوجه الخصوص بنشر أفكار جمالية حديثة لكى يساعد كولومبيا على الخروج من الإقليمية الأدبية، كما انتقد بشدة الأصالة العقيمة للإسبان والبوجوتيين (مواطنى بوجوتا من الأدباء والمفكرين وبوجوتا هى عاصمة كولومبيا). كما انتقد عُقد وبساطة وجهل أدباء ومفكرى أمريكا اللاتينية^(٢١) ومع ذلك فلم يكن يعتقد أن قبلة الحداثة ينبغى أن تكون حتماً وبالضرورة مدينة باريس أو لندن أو نيويورك. وكان يفكر فى أنه من داخل محافظة أو قرية أمريكية لاتينية يمكن أن يكون الشخص حدثياً وعصرياً تماماً فى القراءات والأعمال الأدبية. وهذه الفكرة الأساسية سيتم تغذيتها ونشرها اعتباراً من حقبة

الأربعينيات وستكون فلسفة جماعة بارأنكيا فى قراءاتها وأفكارها وأعمالها. وعلى وجه الخصوص كانت ملائمة جداً لجابرييل جارشيا ماركيز تلك الفكرة التى توصل إليها وعمل على نشرها الكاتب القطالونى عن القرية العالمية ؛ هذا العالم العبقري المصغر حيث اتسع لاحصائيات الجغرافيا والتاريخ والإنسانيات وثقافة أمريكا ، وهذا هو على وجه التحديد ما جاء جارشيا ماركيز يبحث عنه بجهد جهيد منذ عودته للكاريبي بعد جائحة بوجوتا أولاً فى (الورقة الساقطة). وعلاوة على ذلك : كان أحد مقالاته الأولى فى قرطاجنة حيث كان قد حاول إيجاد تعريف غنائى وقريب مما ستكون عليه " ماكوندو " (٢٢).

ومع أستاذين كاملين مثل رامون بينيس وخوسيه فيلكس فوينمايور أصدقاء كالأخوة متحمسين وساخرين ، كما هو الحال فى أعضاء مجموعة بارأنكيا فى أوائل الخمسينيات ، فليس من المستغرب أن يعترف ويقرر جارشيا ماركيز بعد سنوات كثيرة حتى المبالغة بأن أهم السنوات خصوبة وبريقاً فى حياته هى تلك السنوات الثلاث أو الأربع التى قضاها مع أصدقائه فى تلك المدينة ، وأنه كما يقرأ فى " مائة عام من العزلة " كانوا أول وآخر أصدقاء له فى حياته (٢٣). إن هذا الإطراء من جانب الكاتب - مع ذلك - سيكون له تأثير ضئيل على أصدقائه فى مجموعة قرطاجنة والإنجازات التى حققها ، إلى جانب كيميئتى ما نويل ثبالاً وهيكتور روخاس إيراثو وجوستابو إيبارا ميرلانو ، حيث إن الثمار التى قطفها الكاتب المستجد إلى جانب أصدقائه فى بارأنكيا كانت نتيجة منطقية لما كان قد غرسه وبدأه فى قرطاجنة. لقاءه الجديد مع ثقافته الكاريبية واكتشاف - من خلال عالم طفولته - الموضوعات الكبيرة المهمة فى إنتاجه الأدبى والبحث عن أسلوب ومنهج روائيين مناسبين لموضوعاته ، والبحث عن كيفية صياغة " ماكوندو " (القرية العالمية التى اشتملت على كل حدث عاشه وكل شئ كان يحلم به الكاتب) ، واكتشاف الكتاب القدامى الكلاسيكيين الإغريق واللاتينيين ، وعلى وجه الخصوص سوفوكليس : والعثور على طريقة معاصرة لقراءة الكلاسيكيين الإسبان فى العصر الذهبى ، وأخيراً كل شئ كان حاسماً فى مسيرته الأدبية مثل لقائه مع كافكا وسوفوكليس : اكتشاف ويليام فوكنر وفيرجينيا وولف وهيرمان ميلفيل الذين لم يكشفهم - على عكس ما يقال - مع أصدقائه فى بارأنكيا بل كان مع أصدقائه فى قرطاجنة منذ تلك اللحظة التى بدأ فيها العمل بصحيفة الأونيفرسال (العالمى).

وهذا يعنى أن فترتى قرطاجنة وبارأنكيا ليستا لحظتين منفصلتين فى حياة وتطور جارئيا ماركيز ، بل إنهما مرتبطتان تماماً لأن احدهما هى استمرار للأخرى. وعلاوة على ذلك فإن أعضاء الجماعتين كانت لديهم اتصالات فكرية وأدبية ، وكان بين البعض صداقة وطيدة ، وثمة شىء لا يمكن إنكاره وهو الإسهام الكبير الذى قدمته بارأنكيا ومفكروها لجارئيا ماركيز المؤلف القادم لرواية " مائة عام من العزلة " وذلك بفضل الطابع الكونى الذى كانت تتميز به المدينة ومفكروها وبصورة خاصة الصداقة الأخوية لأصدقاء جماعة بارأنكيا. وبعد أن نضبت البيئة الإقليمية شبه القروية للمدينة البتلة ، وبعد تفرق جماعة قرطاجنة فى أواخر الأربعينات أصبحت بارأنكيا وفتيانها بمثابة المهدي والسند الآخرين الذين سمحوا لجارئيا ماركيز ببلوغ حالة النضج الاجتماعى والإنسانى والصحفى والأدبى اللازمة للبدء فى خطواته البطيئة لصياغة عالمه الروائى الخالد.

وقد بدأت القفزة النهائية فى الرسوخ بصالة تحرير صحيفة الهيرالد، وعندما كسب ألفونسو فوينمايور المعركة بإدراج صديقه جارئيا ماركيز فى الصحيفة ، وذلك بالتنازل عن نصف راتبه خلال بضعة أشهر لكى يتحقق له ما أراد. وقد عهد إلى الكاتب بالإشراف على القسم الدولى : وكانت مهمته تكمن فى وضع العناوين للبرقيات التى كانت تصل عبر أجهزة التلكس أو عبر أجهزة وكالات الأنباء. ومع ذلك ومثلما حدث فى قرطاجنة ، فإن جارئيا ماركيز كان يتوق إلى أن يصبح مجرد محقق بسيط (صحفى يعد التحقيقات الصحفية) لصفحات الحوادث. وكما حدث فى صحيفة العالمى أدرك جارئيا ماركيز بنفسه أن الصحفيين المختصين بالصفحات المذكورة لم يكونوا مجرد محققين ، بل كانوا يتصرفون وكأنهم أصحاب هذه الصفحات ، وبالتالي لم يكن الأمر ممكناً لجارئيا ماركيز. ولذلك قنع بأن يكون كاتباً للمقالات الافتتاحية، وكاتب عمود دائم ، وافتتح فى ٥ يناير ١٩٥٠ سلسلته الخصبية الطويلة التى اشتملت على أربعمئة مقال تحت عنوان الزرافة.إنه الصمت الثدى (كما عرفه رامون جوميث دى لاسيرنا بأنه مثل الحصان الطويل بحثاً عن الفضول). ومن خلال عموده كان يرقب ويعلق على كل شىء دون ضوضاء ، ومثل الزرافة نفسها ستكون أبهى نظراً لسمو أسلوبها وعظمة الخيال. ولكن نجاحه تجاوز كل الحدود حتى أدى ذلك للامتناع عن العمل فى تحرير الصحيفة. فقد اكتسب جارئيا ماركيز عادة الذهاب إلى الناحية

القريبة لشراء السجائر ولتناول بعض الكنؤوس ليوصل كتابة قصصه ، وبهذا الشكل اتبعه معظم المحررين بالصحيفة. وذات يوم صرخ المدير وفصله من الهيرالد. وقد ذهب فوينمايور من جديد كما سبق أن قام بدور المحامى والراعى لجارثيا ماركيز لكى يواجه نجل عمه قائلاً : انظر يا كارلوس إن جابرييل هو أهم صحفى بجريدة "الهيرالد" ألم تدرك أن الفتى كالماس الخام فلاتكن غيباً^(٢٤) وكان خوان فرنانديث رينو يتنكى يشارك فوينمايور الرأى عندما اقترح على والده صاحب الصحيفة بأن يجعله شريكاً لتاكده من أن ذلك سيكون أفضل استثمار للمستقبل^(٢٥).

ولقد كان جارثيا ماركيز - فى ذلك الحين وهو فى الثالثة والعشرين من عمره - فى حالة بين العقل والجنون ، ولذلك وقع كافة مقالاته بعنوان الزرافة باسمه المستعار وولفيانو دى سبتيروس. لقد كان طموحاً وتوَّاقاً لكى يصبح كاتباً حقيقياً بدون أوصاف. كان مدركاً للحظة الأساسية التى يعيشها ، وللأصدقاء الوحيديين الذين لا يمكن استبدالهم فهم ينقلون له أفضل شئ عن أنفسهم ، وقد زاد ذلك من نشاطه وحماسه وحوله إلى عامل خارج على المؤلف : فهو إلى جانب كتابة عموده اليومي والافتتاحى من حين لآخر كان يعمل فى قصتين ويكتب حكايات ، يعد وحده صحيفة النبأ ويقرأ كتاباً على الأقل يومياً. وكان يسكر مع أصدقائه ليلاً ، مثلما كان فى قرطاجنة حتى يتوج بسرعة ملكة جمال ما. ولعل عام ١٩٥٠ . كان العام الأخصب والكثف والمبهر فى حياة جارثيا ماركيز. عام لا يتكرر. كان خلاله قريباً من خطيبته مرسيدس بارتشا وهذا غاية سعادته، تلك الفتاة الحسنة من أصل مصرى التى كانت تنتظره فى الإجازات خلف منضدة صيدلية والدها عند ملتقى (شارع عشرين يوليه) مع شارع ٦٥.

ولكن بالنسبة للأشخاص الذين لم يعرفوه حق المعرفة أكثر من الإيماءات والتحيات والأمور التقليدية مثل سائقى سيارات الأجرة وعمال الحانات وبنات الهوى وقوادى شارع الجريمة ، فإن الكاتب لم يبدُ لهم فى أحسن أعوامه ، فقد كان بالنسبة لهم المهذب ترابولوكو (الخرقه المجنونة)^(٢٦) شاب شاحب الوجه ونحيف ذو شعر مجعد وعينين جاحظتين ، أشبه بالتائه الشارد سريع الخطوات ، وكان يرتدى بنطلونات مجسمة وقمصان ذات ألوان زاهية فاقعة تفقده أناقته ورونقه وينتعل نعلين مستهلكين ، ومع ذلك كانا أقل جذباً للانتباه من جورابه ذات الألوان الصارخة.

وفى الظاهر كان جارثيا ماركيز يتسم بمزيد من الجنون والتلذذ بالألم الرومانتيكى فى الطريقة التى عاش بها فى بارأنكيا لكى يستطيع الاستمتاع باللحظات السعيدة هناك ، ولكى يبدأ اضطر للنوم فى أحد بيوت الهوى قرابة العام ، وبما أنه كان يتقاضى ثلاثة بيزو فى عموده ، وأربعة لمقاله الافتتاحى من صحيفة الهيرالد ، لم تكن تكفيه للطعام والشراب فقد أضطر للبحث عن وسيلة رخيصة للنوم مع الفتيات اللاتى كن يمارسن الحب بسبب الجوع فى (شارع الجريمة) حيث بدأ يكتشف رخص حياته : كانت الغرفة تُستأجر ببيزو ونصف فى الأربع والعشرين ساعة. وكان المكان فى مبنى قديم مستطيل الشكل مكون من أربعة طوابق بلا مصعد ، وكان يعرف بالاسم الساخر (ناطحة السحاب) ، الكائن بشارع ريال أمام صحيفة الهيرالد. وكانت بالطابق الأول مكاتب توثيق العقود ، أما الطوابق العليا فقد كانت لبيوت الهوى. وفى الطابق الأخير كانت توجد الحمامات العامة حيث يستخدمها القواصين والمتربصون على المكان وبنات الهوى ولكل بوره فى الاستخدام، وكانت غرفة جارثيا ماركيز فى بيت الهوى مربعة الشكل مساحتها ثلاثة أمتار. وكانت تُطل على الشارع. وأما ضوضاء وجلبة الشارع المخجلة فقد كانت تتسلل إليه عبر النوافذ ومع ذلك كانت سلواه. فأمامه شجرتا لوز كبيرتان تشفيان حنينه، وكانت إحدى الزائرات المترددات دائماً على بيت الهوى هذا سيدة تدعى ماريا إنكارناثيون سيدة بدينة، تتطيب برائحة كولونيا الخزامى ، وكانت تغسل له سرواليه الوحيدين والقمصان الثلاثة الصارخة الألوان التى يمتلكها وتكويها له وكانت تسلمها له ، برفقة عاشقات المهام المستعجلة^(٢٧).

كانت هناك علاقة عُرفية بين الكاتب وحارس " ناطحة السحاب " : كان جارثيا ماركيز يصل كل مساء ويسلم الزنجى داماسو رودريجيث بيزو ونصف البيزو فى المساء أو بالليل ، فيقوم هذا بتسليمه مفتاح الغرفة. وبعد عدة أسابيع أصبحت العلاقة آلية تلقائية ، ولكن ذات ليلة وليال أخر لم يتوفر لجارثيا ماركيز البيزو ونصف البيزو أجرة الغرفة ، حينئذ كان يصف لداماسو مأساة حياته. كان يخرج له أصول قصصه المكتوبة على ورق الصحف التى كانت معه دائماً فى جراب من الجلد تحت إبطه وقال للحارس : أنظر إن هذه الأوراق التى تراها تساوى بالنسبة لى أكثر بكثير من البيزو والنصف بيزو ؛ سأتتركها لديك وغداً سأدفع لك^(٢٨)، ولم يقبل داماسو هذا فقط

بل اعتبره قاعدة : وعندما كان جارثيا ماركيز يتوفر له البيزو والنصف بيزو كان يدفعها لداماسو ، وعندما لا يتوفر له ذلك كان يسلم الجراب الجلدى للحارس كضمان رغم أنها تتضمن أصول (الورقة الساقطة).

وهكذا ضمن غرفة رخيصة وثابتة طيلة عام تقريباً ، وكانت ماريا إينكارناثيون تعتنى به وتسهر على مصالحه، كما أنه أصبح صديقاً لداماسو ولباقى فتيات الهوى اللاتى لم يَكُنْ يَشْعُرُنَّ نحوه بآى احترام وتعاطف أخوى ، بل كُنْ يطلبن منه النصائح لكى يَسْتَطِيعْنَ مجابهة الحياة ، فضلاً عن قيامهن بكتابة رسائل علاقاته الغرامية المستحيلة، ولم يستطعن التعرف على هويته الذاتية ولا مَنْ هو وإن كان يبدو لهن مثقفاً وله أصدقاء بارزون كانوا يأتون إليه لاصطحابه فى سيارات حكومية. وفى الصباح كُنْ يُعرنه الصابون ، فلم يكن لديه صابون قط ويدعونه على الإفطار المصحوب بالجة والبيض المحمر. وأحياناً أخرى كان الكاتب هو الذى يدعوهم إلى غرفته للاستماع إلى أغانٍ لحنها بنفسه بصافرة كان قد أهداها إياه خيرمان بارجاس.

وفى الحقيقه لم تكن الحياة فى " ناطحة السحاب "سيئة للكاتب الشاب الذى اقترح على نفسه الحياة بمفرده معتمداً على ما يخطه قلمه فى مدينة لم يكن بوسع أى شخص فيها الإقدام على هذه الرفاهية. وبقدر ما كانت جحيماً إلا أن فتيات الهوى كانت بالنسبة له فردوساً عظيماً لروحه العفنه كفنان. هذا على الأقل ما كان يفكر فيه أستاذه ويليام فوكنر فى مقابلته مع "داباريس ريفيو" : "إنَّ أفضل مكان يعمل فيه الفنان هو أحد بيوت الهوى لأنه فى الصباح يسود الهدوء وسكينه للكتابة وأثناء الليل حفلة وأناس للدرشة"^(٢٩). ولكن جارثيا ماركيز وصل إلى أبعد من هذا لأن الحوائط الفاصله كانت رقيقه وقد سمح له هذا بالاستماع إلى أسرار العملاء الذين كانوا يفضون بها إلى فتياتهن أجيرات المتعة ، وكان النزلاء غالباً من المفكرين والسياسيين والبيروقراطيين الأجلاء بالمدينة. وهناك تعلم كثيراً من عفة فتيات الهوى والمتعة والظروف الإنسانية للنزلاء ، لظروفهم الإنسانية الخفية ، ومنها على سبيل المثال أنهم لم يكونوا يذهبون فى كثير من الأحيان لبث الحب بل لكى يتحدثوا إليهن عن أنفسهم فى تلك اللحظات^(٣٠). وليس عبثاً أن ينقل بيت الهوى هذا كما هو إلى قصة "خريف البطريق" وسيكون النموذج الذى سيتحذى لبيوت أخرى نشطة فى حكاياته وقصصه ، وليس من العبث

أن حارسه داماسو رودريجيث سيكون شخصية داماسو الذى يسرق كرات البلياردو فى حكايته" فى هذه القرية لا يوجد لصوص".

وطبقاً لنظرية فوكنر كان جارثيا ماركيز يرعى مهامته فى بيت هوى ناطحة السحاب. كان يجلس على سرير خشبى فى الغرفة الصغيرة التى كانت تطل نافذتها على شجرة لوز هَرْمَة ليصبح ما كان قد كتبه فى اليوم السابق حتى ساعات متأخرة من الليل فى صالة تحرير صحيفة الهيرالد ، وهى صالة تغطيها أنوار النيون ومزودة بمراوح قديمة كانت تدور عبثاً لتخفيف حدة الحر ، وكانت الصالة خالية وكان يُصَحِّحُ على أنغام آلات التلكنس وعلى ضوضاء وجلبة المطبعة الرحوية فى الطابق السفلى. وعندما تتوقف جميعها فجأة كان عقل جارثيا ماركيز يفرغ تماماً من الأفكار وكأنه استنصل تماماً ، وبمجرد أن تستأنف الطابعات البرقية أمطارها البردية سرعان ما تعود الصور والقصص إلى ذهنه. وبينما كان شارع الجريمة يعج بالضوضاء الصاخبة بحاناته وموسيقاه كان جارثيا ماركيز يدخن بشراهة أمام ماكينة ريمنجتون (آلة تلكنس) التى كان يمتلكها ألفونسو فوينمايور يحاول إخراج شياطين أراكاتاكا من جسده ؛ من طفولته فى قصته (الورقة الساقطة)^(٣١). أو فى عمله المؤجل " المنزل " القصة الأولى التى كان قد بدأ كتابتها فى منتصف ١٩٤٨ بقرطاجنة فى الوقت الذى بدأ فيه حياته الصحفية فى الأونيفرسال (العالمى). وفى بعض الليالى بعد أن يكون قد أنهى يوميته المزوجة فى الصحيفة كان يرافق المونودى جيرا وهو سائق تاكسى كمساعد له لى يتجولا فى متاهة المدينة ويرفقتهما العملاء الذين يستقلون التاكسى ليلاً حتى فجر اليوم التالى، وعندما كانت المدينة تستيقظ على رائحة السمك الطازج والفواكه الفاسدة التالفة. حينئذ كان جارثيا ماركيز يعود إلى غرفته فى بيت هوى ناطحة السحاب محملاً بالقصص والنوادر للركاب المجهولين ومُحيّاً روح تثير الشفقة^(٣٢).

فقد كان كذلك إلى حدٍ ما. ففى أوائل ١٩٥٠ كانت (الورقة الساقطة) قد عرفت طبعتين سابقتين وبالتالى كانت تحبو بين جنابات العالم، ولكن بناءً على اقتراح من ألبارو موتيس سلم جارثيا ماركيز قصته لمنسوب دار نشر خوليو ثيسار بيبجاس لى ينشرها فى بوينوس آيرس بواسطة دار نشر لوسادا. وبعد أن تخلص من هذه القصة (كما كان يعتقد جارثيا ماركيز) عاد مرة أخرى إلى قصته "المنزل" وخلال الشهور

الأولى من ذلك العام عمل جارثيا ماركيز بقوة وجدبة منقطعة النظير فى قصته "المنزل" ، هذا المجلد الضخم تزايد حجماً وبعد ذلك تقلص حجمه ثم عاد مرة أخرى إلى النمو المفرط : لقد كان عالماً رحباً فسيحاً متقلباً لا يمكن استيعابه.

وعلى الرغم من ذلك فإن المُطَهَّرَ الأول للرواى الشاب لم يكن استحالة كتابة "المنزل" بل كان رفض دار النشر قصة " الورقة الساقطة " خلال الشهور الأولى من ذلك العام. لقد تم إرسال هذه القصة بواسطة بيبجاس إلى لوسادا برفقة " السيد المسيح مستقيماً على ظهره " لإدواردو كبايرو كالديرون بغية اكتساب كُتَّاب جُددٍ للرواية الكولومبية ، ولم يخالط الشك لحظة واحدة أصدقاء جارثيا ماركيز الذين كانوا قد قرأوا كتابه من أنه سيتم اختياره لأنه وإن لم تكن القصة المتقنة للمؤلف الكولومبى ، فقد كانت - فى ذلك الحين - قصة ثورية تماماً على الساحة الروائية المحلية والأمريكية اللاتينية لمعالجتها موضوعاً لسوء على ضوء ذكريات طفولة المؤلف بتقنيات مركبة لفوكنر وفيرجينيا وولف ؛ ولكن لجنة القراءة لدار النشر الأرجنتينية لم ترفض فقط العمل الأول لجارثيا ماركيز؛ بل أرسلت له بخطاب مدمر موقعاً من جانب رئيسها جيرمو دى تورى صهر خورخى لويس بورخيس^(٣٣).

وقد جاء القصاص ذلك اليوم حزيناً أسفاً إلى الهيرالد ، وتوجّه إلى ألفونسو فوينمايور وقال له هامساً : أودُ الحديث معك ولكن هناك فى محلٍ بالسوق ، وفى وسط الجزارين فى بارأنكيا وهم يتناولون الجعة أخرج خطاب دار النشر الأرجنتينية ووضعه أمام النظارة السميكة لصديقه وقال له: " اقرأ حضرتك هذه الرسالة " ^(٣٤). لقد تجمد أيضاً فوينمايور: فرسالة الإسبانى جيرمو دى تورى بعد أن اعترف لكاتب " الورقة الساقطة " بمهارة أدبيه ما ، أنكرت له أى مستقبل أدبى وأوعزت إليه بأن أفضل شيء يستطيع القيام به هو التفرغ لشيء آخر.

إن جارثيا ماركيز الذى نال نجاحاً فورياً منذ أن كتب أعماله الأولى وهو لا يزال فى الثالثة عشرة من عمره انتابه المرض تماماً. وقد اعترف بعد ذلك ببضع سنوات بأنه لولا موهبته القوية ككاتب لترك الأدب للأبد^(٣٥). ولم تنقذه فقط موهبته الأدبية التى لا تُقهر؛ بل أيضاً بفضل الانتقادات الأخوية والصادقة لأصدقائه ، فقد استطاع

الأصدقاء بالتعاون معاً أن يخرجوه من هذه الأزمة. وقد شجّعهُ ألفونسو فوينمايور مذكراً إياه - بأنّ الكتاب الأول ليس الأفضل على الإطلاق - وأنّ قصته جيدة على الرغم من كل شيء وأنّ السلطة الأدبية للناقد جيرمو دى تورى قد حكمت ذاتياً بعدم صلاحيتها بحكم غبى للغاية. أمّا رامون بينيس فمن جانبه علّق على القصة فقرة فقرة وفصلاً فصلاً، وأطلعه على النقاط التى وفق فيها ونقاط ضعفه. إنَّ بعد نظر بينيس وأمانته وصراحته لم تساعد جارثيا ماركيز على تجاوز ذلك الاكتئاب الرهيب والإقدام على الطبعة الثالثة للقصة بعد بضعة أشهر (من المرجح أن يكون ذلك فى مايو أو يونيه من تلك السنة) فى وسط اليتيم الأدبى والصداقة اللذين تركه فيهما العالم القطلونى الذى شرع فى سفره الأخير إلى برشلونة فى ١٥ أبريل ، ولكن ماركيز لم يفقد الحماس المحموم للجماعة ، وفى أواخر ذلك الشهر افتتح لسان حال تعبيره الخاص الصحيفة الأسبوعية النبأ.

لقد كانت النبأ مشروعاً قديماً لألفونسو فوينمايور وُلِدَ فى أحد الاجتماعات المعتادة للجماعة فى مقهى كولومبيا ، وقد حمله معه فى حان خابى ومقهى روما ومكتبة العالم والمقيلات الأدبية الأخرى للجماعة ، وكذلك فى قاعة تحرير الصحف ونصف بارأنكيا. وكان راميرو دى لا إسبيريا قد عيّن حديثاً قاضياً للشرطة لمكافحة النشل والتسول والصعلكة والماريجوانا ، وقد أوعز إليهم أن يكونوا شركة توصية وقد أطلق على الصحيفة مؤقتاً اسم الكومانديتاريو (الشريك الموصى) حتى ذات مساء من أبريل ١٩٥٠ تبلور المشروع فى أحد الاجتماعات المسائية " بمكتبة العالم " حيث أصرَّ ألفونسو فوينمايور على تسميتها النبأ وتم تشكيل مجلس التحرير تحت إدارته وجارثيا ماركيز رئيساً لتحريرها. وقد كان الجميع أعضاء فى لجنة التحرير بدءاً من الأعضاء الأساسيين فى المجموعة حتى المترددين عليها بينيس وخوسيه فيلكس فوينمايور وخيرمان بارجاس وألبارو ثيبيدا ساموديو وخوان ب. فرنانديث رينويتشى وألفريدو ديلجادو وبرناردو ريستريبو مايا وخوليو ماريو سانتو دومينجو وألفونسو كاربونيل ورفائيل ماراياجا وميرا ديلمار وجوتثالو جوتثالث. كما تم تكليف الرسامين أليخاندرو أوبريجون وألفونسو ميلو وأورلانو ريبيرا فيجوريتا بالرسومات وأحياناً جارثيا ماركيز نفسه بالرسومات أو بتقليد بعضها استناداً إلى هوايته كرسّام جيد.

ويذكر ألفونسو فوينمايور أن ذلك المساء كان هناك حماس خاص لدى أفراد الجماعة وأنهم بينما كانوا يسيرون في الشارع بعد الخروج من " مكتبة العالم " توقف جارتيا ماركيز وأمسك بذراعه وقال سعيداً للغاية : " أستاذي نحن جماعة هائلة " وكانت هذه المرة طبقاً لما قاله فوينمايور هي المرة الأولى التي يتبلور فيها تشكيل الجماعة وإن كان سبيرو موراليس هو الذي سيطلق عليها اسم " جماعة بارأنكيا " في مقال بصحيفة الاسبكتادور (المشاهد) في بوجوتا^(٣٦). وتشير الحكاية بصفة عارضة إلى أن إحدى السمات الرئيسية للجماعة تكمن في تلقائيتها. وقد كانت جماعة بارأنكيا تتكون من مجموعة أصدقاء يشتركون في عدة أمور في مقدمتها الصحافة والأدب مثل جماعة قرطاجنة " المازحون " كانوا يجتمعون بشكل غير رسمي تجمعهم الصداقة والإحساس بالتسلية والترفية وهو الإطار الذي فهموه من تفرغهم للفن والثقافة ، ويكرر فوينمايور نفسه قبيل موته بست سنوات أن أفراد الجماعة هم الذين علموا ووجهوا جارتيا ماركيز في قراءاته ولكن بصورة فردية وليس كجماعة منظمة لأننا لم نكن أبداً كذلك وإن كان بعض الدارسين يرون عكس ذلك^(٣٧)، وعلى الرغم من أن جماعة بارأنكيا كانت إحدى الجماعات الأكثر نشاطاً وثقافة واطلاعاً في القارة بأسرها ، والهدف الرئيسي لأية جماعة من الفنانين والمفكرين يتبلور بالعديد من الأعمال الخالدة مثل أعمال ألبارو شيبدا ساموديو وأليخاندرو أوبريجون وجابرييل جارتيا ماركيز. فواقع الأمر أنها جماعة في نهاية المطاف التفت حول المجلة الأسبوعية " النبأ " حيث قام جميع أعضائها بنشر عمل أو عدة أعمال لهم وكانت ترفع شعار الفصاحة قائلة : إن كونها تقتقر إلى الشكل والمناخ الأكاديمي لا يعنى أنها ستغفل أو ستهمل الهدف الرئيسي : العمل الأدبي وتوجهه الاجتماعي.

كما أن الطبيعة المختلطة أو المتنوعة " النبأ " لكونها أسبوعية رياضية وأدبية في الوقت نفسه تكشف عن فلسفة الجماعة وهي عدم أخذ الحياة مأخذ الجد، كما علمهم العالم القطالوني وإعطاء كل الجلال والوقار للأدب والصحافة والثقافة. لقد ظهرت المجلة لحظة أوج مجد كرة القدم الكولومبية ؛ فالمجلة ذات التقديم المتواضع والشجاع والجريء كانت تستخدم الرياضة كسبالة تجارية للعمل على نشر ما يهمهم في الواقع : الصحافة والأدب. وبهذا الشكل كان القراء يجدون في النهاية تحقيقاً صحفياً عن

الصرف الصحى بالمدينة أو مقابلة مع الأبطال الرياضيين أو لقاء مع شىء أكثر جدية مثل قصة لكافكا وسارويان ويورخيس وهيمينجواى وكورتاتار وفليسبرتو إيرنانديث أو جارثيا ماركيز نفسه.

وفى بداية طبع مجلة " النبأ " فى التاسع والعشرين من أبريل كان هناك حماس وطوفان من المقالات الصحفية لفوينمايور وجارثيا ماركيز ؛ كانت وافية بالغرض لكى يتلقاها القراء وتجد المكان المناسب الذى تستحقه. أرسل الجميع أنباءهم وتعليقاتهم وتحقيقاتهم وقصائدهم وروايتهم وكان رامون بينيس قد عاد إلى إسبانيا قبل صدور مجلة " النبأ " بخمسة عشر يوماً وكان يرسل حكايات وتعليقات من برشلونة مثل خوان ب. فرنانديث رينويتكى من باريس وبرناردو ريستريو من الولايات المتحدة الأمريكية. ونشر ثيبدا ساموديو حكايات ممتازة، كما قدّم الأستاذ الآخر للجماعة خوسيه فيلكس فوينمايور سبع روايات إبداعية من " الموت فى الشارع " التى كان لها تأثير كبير فى ثيبدا ساموديو وجارثيا ماركيز، كما نشر الأخير أجزاء من قصته المستحيلة " المنزل " وأفضل حكايات " عيون كلب أزرق " مما جعلهم فى كل مرة فى حاجة إلى مادة للنشر^(٣٨).

لقد كانت تنشر فى صحيفة " الهيرالد " وكان يشرف عليها كاملة جابرييل جارثيا ماركيز ويتقاضى منها خمساً وعشرين بيزو أسبوعياً (أول راتب مهم فى حياة الكاتب) وقد استقبلت مجلة " النبأ " استقبالاً جيداً وحافلاً فى أعدادها الأولى لأن القراء اعتقدوا أنها مجلة رياضية ، ولكنهم عندما اكتشفوا الخدعة من أن طابعها الرياضى لم يكن سوى تغطية لتوجهها " الليبرالى المارق الذى يضم عناصر يسارية " ، ومدخلاتها الأدبية عزفوا عن شرائها تدريجياً. حينئذ عزز المسئولون عنها القسم الرياضى بها حتى أن جارثيا ماركيز نفسه كتب تحقيقاً رياضياً كان أول تحقيق فى حياته بعنوان " الرياضى الأنيق " وهو عبارة عن ترجمة للاعب كرة القدم الأورجوانى براسكويتشيا (أى نبذة عن حياته) وكان يلعب فى صفوف فريق جينيور. ولكن مصير " النبأ " مثل كافة المجلات فى عصرها كان معروفاً: وعندما وجد فوينمايور وجارثيا ماركيز أنفسهما مضطرين للكتابة عن الرياضة ، ولم يكن ذلك من تخصصهما، ولم يحظ باهتمامهما كما وقع على عاتقهما وحدهما إعداد المجلة وتوزيعها وتحصيل ثمنها^(٣٩) فإنهما بعد وقت

قصير شعرا بالإجهاد وتدهورت المجلة رويداً رويداً حتى أُغلقت بعد أربعة عشر شهراً من جرّاء المشاكل الاقتصادية والافتقار إلى إسهامات صحفية خصيصاً للمجلة وحدها.

ولكن جارشيا ماركيز ابتعد عن المجلة قُبيل إفلاسها بوقتٍ كبير ، حيث تركها في يناير ١٩٥١ عندما انتقل إلى قرطاجنة مع والده وشقيقه جوستابو وبدأ تدريس اللغة الأسبانية في مدرسة ملحقة بجامعة قرطاجنة، وفي نفس الوقت أراد أن يسجل في الصف الرابع بكلية الحقوق لاستكمال دراسته التي كانت قد هجرها في أواخر عام ١٩٤٩.

وعلى الرغم من التشبع النهائي فإن مجلة " النبا " ظلت مرتبطة بشكل أساسي - ليس فقط بأنشط عام في حياة جارشيا ماركيز الذي قضى معظم وقته إلى جوار أصدقاء جماعة بارأنكيا - بل أيضاً بتطوير الشكل الثاني في تعبيره الأدبي : الأكثر إضمراً وشفافية وموضوعية - رواية غريق " و " العقيد لا يجد من يراسله " ومعظم حكايات "جنازة ماما الكبيرة " التي ستكون بمثابة المقابل والتكملة لأسلوبه الأول الغنائي الباروكي للروايات الست الأولى في " عيون كلب أزرق " و " الورقة الساقطة " و "جنازة ماما الكبيرة " و "مائة عام من العزلة " و "خريف البطريق".

إنّ الحكايات الأخيرة - لـ... عيون كلب أزرق " التي نشرت في مجلة النبا خلال ذلك العام : " السيدة التي كانت تصل في السادسة " ليلة الكروانات و " شخص ما يبعثر هذه الورود " تمثل بداية الأسلوب الثاني لجارشيا ماركيز إنها وثبة هائلة منبثقة عن التأكيد النهائي للمؤلف في ثقافته الكاريبية. ولعامين من خبرته في الصحافة ولقراءاته لكتاب مثل هيمينجواي ودوس باسوس وكابوتي وكذلك للقصة والرواية البوليسية. إنّ قصة تأليف الروايتين الأولىين تكشف ليس فقط عن التلاحم الحيوي والأدبي بين جارشيا ماركيز وأصدقائه؛ بل أيضاً العبقرية المُعلن عنها آنفاً للروائي والصحفي الشاب بالنسبة للواقع الفوري كمصدر أساسي لعمله الأدبي.

وأحياناً عندما كانت الروايات البوليسية التي كان يترجمها أو يقرصنها فوينمايور من المجالات الأجنبية - طويلة للغاية - كان يطلب من جارشيا ماركيز أن يختصرها بعض الشيء دون إيجازها مع الحفاظ على طولها المناسب ؛ حينئذ كان الكاتب يأخذ قلماً رصاصاً ليحذف الجمل والعبارات التوضيحية أو الوصفية فحسب حتى

يختصر الرواية إلى لبها الأساسى والجوهري وبهذه الطريقة فإن هذا العمل المتكرر تحول إلى ورشة أسلوبية لجارثيا ماركيز. وكان أفراد الجماعة يقرأون - خلال هذه الشهور- القصص البوليسية من سلسلة أو جماعة سيبيتيمو ثيركولو (الدائرة السابعة) التى كان يديرها خورخى لويس بورخيس وأدولفو نيوى كساريس عندما ظهر الرهان بين فوينمايور وجارثيا ماركيز عما إذا كان مؤلف "مائة عام من العزلة" قادراً على كتابة رواية بوليسية وقبل الكاتب التحدى وقام بعمل البحث اللازم وأعد خطة العمل وجلس يكتب الرواية^(٤٠).

وعندما توغلَّ فى الواقع الفورى بحثاً عن مادة لقصته تذكر جارثيا ماركيز قصة الموديل التى تركت الرسام أليخانдро أوبريجون منتظراً. كان أوبريجون أستاذاً فى مدرسة الفنون الجميلة، واقترح اختيار موديل حتى يقف أمام تلاميذه ولكن فى الجو المتزمت بالمدينة كان ذلك يمكن تحقيقه فقط فى القطاع سبى السمعة لبنات الهوى. وبدأ أوبريجون يبحث عن الموديل حتى وجدها ذات يوم بمساعدة فوينمايور وخيرمان بارجاس وأورلاندو ريبييرا فيجوريتا ؛ الشخصية الأكثر تلقائية وحيوية فى الجماعة. إنها المرأة التى استطاعت أن تقع أوبريجون بكتابة رسالة لها باللغة الإنجليزية لكى ترسلها إلى بحار فى بريستول ولم تفهم جيداً اقتراح الرسام ، ولكنها وافقت على الذهاب فى اليوم التالى الساعة الثالثة مساءً إلى مدرسة الفنون الجميلة ، ولكنها لم تأت على الإطلاق^(٤١). إنَّ هذه الحكاية مثل حكايات ونوادر أخرى سرعان ما أصبحت بمثابة مسابقة بين أفراد الجماعة ، وقد استغل جارثيا ماركيز فتاة الهوى تلك لكى تصبح شخصية روايته البوليسية التى تَعَيَّن عليه كتابتها لكى يكسب الرهان من صديقه فوينمايور. والحقيقة أنه فى الواقع لم يكن فى حاجة لذلك لأنَّه كان يعيش بين فتيات الهوى فى ناطحة السحاب يشاركهن السراء والضراء وكان على علم تام بالجو الذى يعيش فيه والملل والسأم الذى لا يسبر غوره من جراء مهنتهن.

وكما سيشرح بعد ذلك فى رسالة لصديقه ومواطنه جونتالو جونتاليث جوج سرعان ما استحوذت عليه رومانتيكيته القديمة وهجر رواياته نظراً لافتقاره للخبرة البوليسية وترك قصة الرهان نهائياً لتذهب حيث يعوى الذئب ، وفى مقابل ذلك كتب جارثيا ماركيز روايته " المرأة التى كانت تصل الساعه السادسة " وهى أول قصة تشبه " عيون كلب

أزرق " وعلى الرغم من عيوبها كانت من أفضل الروايات التي كتبها فى حياته ، وإن كان المؤلف قد اعترف بأن تلك الرواية تبدو كأنها لهيمينجواى أكثر من كونها لجارثيا ماركيز ، على الرغم من وجود المناخ وبعض العناصر المشتركة بين قصته ورواية هيمينجواى القنلة^(٤٢) ، والحقيقة أن رواية المؤلف الكولومبى لا تحتوى فقط على بنية مستديرة متكاملة ؛ بل أيضاً حققت سمات جمالية فاقت ما تضمنته رواية أستاذه الأمريكى. وذلك لأنه فى رواية " المرأة التى تصل الساعة السادسة" يظهر بجلاء الروائى الدقيق المنظم والإضمارى والشفاف لرواية " غريق " والعقيد لا يجد من يرأسله .

وفى هذا الخط الجديد وانطلاقاً من نواذر وحكايات أخرى عاشتها الجماعة كتب جارثيا ماركيز بعد ذلك بقليل " ليلة الكروانات " ؛ وهى رواية حازت على التصفيق الفورى للقراء مثل الشعاعين خورخى ثلاميا وألبارو موتيس.

وكليال أخريات كثيرة حضر جارثيا ماركيز مع أصدقائه إلى بار الزنجية إوفيميا ؛ وهو عبارة عن بيت هوى فى حى لاس ديليثياس ، نفس بيت هوى بيلار تيرنيرا فى ماكوندو المتهورة وكان هذا البار بالنسبة لهم ذا جاذبية خاصة لا يمكن استبدالها ؛ وكان يباع به الروم بكاردى المهرّب والأرخص سعراً فى المدينة بأسرها ، وعلى عكس ما تؤيده الأسطورة فإن فوينمايور يؤكد أنه لم يكن لأحد من أفراد الجماعة أى اتصال جنسى مع الفتيات اللاتى كنّ يمارسن من أجل سد رمقهن فى بيت الهوى المذكور ، وأنهم كانوا يذهبون فقط لتناول زجاجة الروم بكاردى مقابل ثلاثة عشر بيزو ، ولرؤية البحارة الأمريكين وهم يرقصون ويلهون ويترنحون بأجسامهم كأطفال كبار تحمّر وجوههم خجلاً فى صالة الرقص ، حيث كانت كروانات الزنجية أوفيميا يتنزهن كالدجاج. ومما هو أكيد أن جارثيا ماركيز ذات ليلة ظل نائماً وقد جذبه فوينمايور من كتفه وقال له : " ماذا سيحدث لو أن الكروانات أخرجن عيوننا ؟" كما هو معروف إن هذه الطيور بوسعها استئصال عيون الأطفال لأنها ترى أن شيئاً يتحرك فى مقلاتهم وتعتقد أنه سمك. وقد نهض جارثيا ماركيز مذعوراً على مزاح صديقه ورأى الكروانات فى صالة الرقص. إن عفريته الحال لم يتوان فى إدراك صورة أصدقائه الثلاثة الذين سيفقدون بصرهم فى أحد بيوت الهوى يتخبطون هنا وهناك لأن الكروانات استأصلت عيونهم.

وكان هذا أصل أو مصدر " ليلة الكروانات " قصته الثانية العظيمة التى كتبها فى جلسة ليلاً فراغاً باقياً فى مجلة " النبأ " .

إنَّ العلاقة المغذية مع الواقع الفورى لهذه القصص هى بعينها علاقة الشاب الصحفى بالواقع وليست هى التى ستغذى روايته التالية " شخص ما يبعثر هذه الورود " لأنَّ هذه الرواية تستند إلى تجربة الكاتب القديمة مع الأرواح المستوطنة بمنزل أراكاتاكا ، وفى الفكرة الشخصية المتسلطة على عقله لأنهم سيحملون له الزهور وأدلة وبراهين الحب حتى القبر نفسه^(٤٣) . وفى هذه القصة التى كتبها بأسلوب سابقاتها كانت الوثبة من نوع آخر : فلأول مرة فى رواية جارثيا ماركيز لا يكون الموت كابوساً بل حالة من حالات النعيم والرفاهية يقدم إمكانية ما وحتى حافزاً ما لمواصلة الموت - الحياة . وهكذا فإن روح الطفل التى كانت تود سرقة الورود من محراب منزلى لكى تضعها فى قبره ليس بميت منعى ومتلذذ بالألم وممزق بسبب التفتت الوجودى واستحالة اتصاله بعالم الأحياء ، بل هو ميت حى هادئ بحوافزه الذاتية ووجدان إمكانياته وحدوده . فمعه تبدأ أسطورة الأموات الأحياء الذين تمت تغذيتهم بالقراءة اللاحقة لبيدرو بارامو وسيعمرون " مائة عام من العزلة " وذلك بفرض قوانينهم وأهوائهم .

الفصل التاسع

- عندما كان سانتياجو نصر هو كاتيانو جنتيل.
- ازدهار قرية سوكرى وتدهورها .
- تاريخ الأمهات الكبيرات
- الطفلة أليخاندرينا ثيربانتييس
- وفاة كاتيانو جنتيل
- من سوكرى إلى قرطاجنة
- تنويج فى بانوراما
- قرص دواء
- لقاء رفائيل إسكالونا
- الأغاني الشعبية ، والمصدر الغنائى
- بحثاً عن الاوقات الضائعة
- العودة إلى الجنود
- منزل الصيدلية
- تأكيد ماكوننو
- بائع الكتب فى بايدوبار ولا خواخيرا
- مع هيمنجواى وفيرجنيا وولف ورفائيل إسكالونا وليساندرو باتشيكو
- فى جنود الجنود.
- الاوقات المستعادة .

وبينما بدأ الموتى يهدأون فى روايات جارثيا ماركيز معلنين عن الملكة الحيوية للمكباديس وبرودينثيو أجيلار كان الكاتب - على العكس من ذلك - مُحاطاً بشظايا الموت حيث إن اغتيال صديقه كايثانو جنتيل شيمنتو الذى وقع فى سوكرى فجر يوم ٢٢ يناير ١٩٥١ كان تقريباً أخطر لحظة فى شبابه. وقد أدخل هذا الموت فى ذاكرته أشياء منها الصعوبات الأولى التى خلّفها له موت جده ، والطفولة الأسطورية فى أراكاتاكا ، إضافة إلى أحجار التعذيب والتكيل التى لم يتمكن من طردها إلا بعد ثلاثين عاماً فى روايته " نبتة موت مُعلن".

وعندما وقعت المأساة كان جارثيا ماركيز قد ترك بارأنكيا ، وعاد إلى قرطاجنة لمقابلة القس جابرييل إيلخيو وشقيقه جوستابو الذى كان مرافقاً فى الخامسة عشرة من عمره. وبينما كان القس وجوستابو يبحثان عن منزل وينهيان الاستعدادات الأخيرة للانتقال الوشيك والنهائى للأسرة من سوكرى ، ظلّ الكاتب يرسل مقالات عموده وافتتاحياته إلى صحيفة الهيرالد ، وبدأ يعطى دروس اللغة الأسبانية فى مدرسة ملحقة بجامعة قرطاجنة ، وفكر فى إعادة قيده لإكمال دراساته القانونية^(١) ، وفى واقع الأمر نعلم أنه كان قد هجر الدراسة منذ أواخر ١٩٤٩ . ومما هو أسوأ من ذلك أنه لم يأخذ نتيجة ودرجات الصف الثالث. وقد أدرك فقط عندما ذهب لقيد اسمه فى الصف الرابع أنه رسب فى ثلاث مواد ، وبالتالي ينبغى عليه إعادة الصف الثالث إذا كان يرغب فى أن يكون محامياً. ولكن جارثيا ماركيز صرف النظر عن هذا العذاب ، وهجر الدراسة للأبد. وعندما علم جابرييل إيلخيو أن نجله صرف النظر عن دراسة الحقوق ، فى حل مهنى لحياته متشبهاً بالصحافة والأدب حزنَ حزنًا شديداً ، وعنّفه بلا هوادة قائلاً له: " ستاكل ورقاً"^(٢). وسيكون الأمر كذلك طيلة خمسة عشر عاماً على الأقل.

وفى الواقع لم يعب جابرييل بذلك على الإطلاق ؛ بل على العكس : أصبح حراً طليقاً لكى يراهن على آخر ورقة رابحة كانت تهمه. أما حزنه الحقيقى وخسارته الفادحة مثله مثل أسرته ، ومدينة سوكرى بأكملها ؛ فقد تمثل فى الحدث المشنوم

لصديقه كايتانو جنتيل شيمنتو ، لدرجة أن التأثير الأول للمأساة تحول لديه إلى ضرورة لا تقاوم لسرده في تحقيق موسع ، وفكر في الذهاب إلى سوكرى لكي يُعيد تمثيل الجريمة بكل تفاصيلها الدقيقة . ولكن موضوع الجامعة والعمل وسرعة قدوم الأسرة أدى إلى تأجيل السفر إلى أجل غير مُسمى . ومع ذلك ؛ فقد يعزو ذلك إلى افتقاره إلى وجهة النظر لكونه صحفياً مبتدئاً في صحيفة إقليمية ، هو في الواقع الذي أثناء عن عزمه لكي يتحول ذلك إلى فكرة أدبية متسلطة على عقله تُطهى على نار هادئة (تتطور في غاية البطء) طوال ثلاثين عاماً .

وقد انتشر العنف في سوكرى ، كما في معظم قرى الساحل الأطلسي ، وخاصة على الصعيد السياسي والاقتصادي والأخلاقي ، ووجد هذا العنف مدهاء في إحدى وسائل التعبير في المنشورات الشهيرة التي كان يتبادلها أهالي سوكرى على جدران منازلهم في أواخر الأربعينيات . إن هذه المنشورات أو الإعلانات ستكون سبباً في قصة " الساعة المشنومة" ، فقد كان الناس يوجهون بعض الاتهامات بشكل مجهول مما أدى إلى العديد من الحوادث وبعض الأعمال الدموية وإن كانت عشوائية ، وقد أدت إلى تسميم الجو العام في القرية . وكان هذا في إطار الشكوك المشتركة والاتهامات المتبادلة والعنف الخفي ، حيث قام الشقيقان تشيكا سالاس باغتيال كايتانو جنتيل شيمنتو صديق جارثيا ماركيز لرد الشرف الممتن ؛ واستناداً إلى هذا المناخ الذي لا يُطاق قررت أسرة جارثيا ماركيز الانتقال إلى قرطاجنة في فبراير من نفس العام بعد شهر بالضبط من اغتيال كايتانو .

وكانت الأسرة مُقيمة في سوكرى منذ نوفمبر عام ١٩٣٩ ، وكانت المرة الأولى التي تعيش فيها أسرة جارثيا ماركيز وقتاً طويلاً في مكان واحد تتمتع بالهدوء والرخاء النسبي . ففي سوكرى ولِدَ الأبناء الأربعة الصغار من أنجال موظف البرق وكريمة العقيد الذين بلغ عددهم أحد عشر شخصاً ، وهؤلاء الأربعة هم : خايمي ابن عشر سنوات ، وإيرناندو سبع سنوات ، وألفريدو خمس سنوات ، وإليخيو جابرييل ثلاثة أعوام^(٣) ، وقد عَمِلَ الوالد وكيلاً للمستشفى ، وفي نفس الوقت كان يمارس الطب التجانسي فضلاً عن كونه صيدلانياً ، وبهذا حقق النجاح الذي كان يحلم به دائماً ، وبعد أن عاش في عدة منازل بالإيجار استطاع في نهاية المطاف أن يُشيد منزلاً

للأسرة، منزلاً فسيحاً واسعاً - أبيض كالحمامة البيضاء - فى غابة بين أشجار المانجو على ضفاف نهر لا ماخونا ، وكان جارثيا ماركيز الطالب الكاتب الشاب والصحفى حُرّاً طليقاً سعيداً أثناء الأجازات تحت ظلال أشجار المانجو يلتهم الكتب التهاماً ، ويكتب قصصاً وروايات وهو مضطجّع فى شبكة معلقة فى تلك الأشجار ؛ فقد درس بتعمق هنا المشاكل التقنية للقصة وأنهى كتابته الأولى - للورقة الساقطة - . وهنا فقد عُذريته فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره ؛ فقد عرف خدمات بيت هوى ماريّاً أليخاندرينا ثيربانتييس. كان قد عرف - القصة الحزينة التى لا تُصدّق لطفلة سيطلق عليها مع مرور الزمن اسم إيرينديرا ، وكذلك قصص شخصيات أخرى ستمثل إبداعاته الأدبية. وستظل سوكرى مثل أراكاتاكا بارأنكيا وبايدوبار وقرطاجنة أحد المشاتل الخصبة لخيالاته الإبداعية. وعلاوة على ذلك فإنها مثل أراكاتاكا التى ستكون نموذجاً لماكوندو لأن سوكرى ستكون موديلاً للقرية التى ستظهر فى قصته "العقيد لا يجد من يرأسه" ، و "السبعة المشنومة" ومعظم روايات "جنازة الأم الكبيرة" ، و "نبأ موت مُعلن".

ومن العجيب أنه خلال العشرينيات والثلاثينيات كانت سوكرى قد شهدت ازدهاراً مثل الذى شهدته أراكاتاكا خلال حقبة العشرينيات ، كما ستعانى من تدهور كبير وسريع لسبب مشابه ، مما أجهز على ازدهار الوطن الصغير للكاتب.

فبعد مائتى عام من تأسيسها ؛ بدأت سوكرى تتحول فى أوائل هذا القرن إلى حلقة الوصل المهمة فى اقتصاد منطقة الحوض الغنية بالمياه ، إذ كانت تروى أراضيها عدة أنهار هى ماجدلينا ، وكاوكا وسان خورخى ولا ماخونا. وكانت سوكرى سخية فى إنتاج الماشية وقصب السكر والأرز والذرة ، وشهدت هذه القرية نمواً ملحوظاً اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً بفضل هجرة الألمان والإيطاليين واللبنانيين والسوريين والمصريين التى استمرت طيلة الحُقب الأولى من القرن العشرين ، وقد بدأوا فى أول الأمر باعة جائلين ثم أصبحوا بمرور الوقت تجاراً مزدهرين ، وكان منهم مربو الماشية والمزارعون. فالإيطاليون مثل أسرة جنتيل ، وتشيمينتو وجاريبالدى وباريسى ، ومن العرب مثل أسر نصر وبارتشا ، وكورى وهانى لم تعرف سوكرى فقط العصر الذهبى لاقتصادها ؛ بل أيضاً نموها الثقافى حيث جعلت من الرياضة والمسرح والموسيقى والسينما تعبيرات

ومظاهر ثقافية يومية فى بيئة ندرت فيها هذه الأشياء ، أو ببساطة لم توجد أصلاً. وكان لسوكرى فى أوج مجدها مطارات تُقلع منها وتهبط ست طائرات أسبوعياً. وكانت إحدى قرى كولومبيا الأولى التى تُنشأ بها محطة لتوليد الكهرباء ، وأول قرية يُقام بها مصنع للجليد^(٤) .

إن مشكلة سوكرى الكبيرة إلى جانب جوها غير الصحى تكمن فى عزلتها الناجمة عن وسائل المواصلات المتردية ؛ ففي الصيف نجد أن جفاف نهر لا ماخونا الطريق الرئيسى للوصول إليها كان يتسبب فى وقف الملاحة ، أما فى الشتاء فإن سيارات النقل كانت تغمرها المياه تماماً ، ولكى تُحل هذه المشكلة التى كانت تعم جميع قرى ضفاف نهر لا ماخونا ، فإن المبشّر الأسباني وراعى الأبرشية بالقرية المجاورة ماخاجوال ، خوسية جبالدا أقنع الأهالى بضرورة شق قناة جديدة طولها كيلومتران لسحب مياه نهر لا كاوكا فى الصيف وتوصيلها إلى نهر لا ماخونا. وكما فى أوج ازدهار عصور خوسيه أركاديو بوينديا تم تنفيذ المشروع الهندسى عام ١٩٣٨ بمشاركة الجميع ، إلا أن أرتجالية المشروع تسببت فى المساءة : وبسبب الارتجال ، وعدم وجود دراسات مُسبقة ، ولا بنية أساسية مناسبة فإن المياه المتدفقة من نهر لا كاوكا وسّعت المدخل المبدئى الذى كانت فتحته متر ونصف المتر (وكانت تسمى لا بوكاديل كورا " فم القسيس ") حتى بلغ خمسين متراً خلال عشر سنوات^(٥). وبدأت الفيضانات تصب جام غضبها عاماً بعد آخر لتدمر وتقضى على المزروعات والمصانع والمنازل ، ولذلك فإن تدهور سوكرى كان أشبه بالاحتضار البطئ دون هواده مثل الذى عرفته أراكاتاكا اعتباراً من عام ١٩٣٢ عندما حدثت فيضانات أكتوبر من جراًء القناة التى شقتها شركة الفواكه المتحدة بين النهرين مما أدى إلى القضاء على ازدهار زراعات الموز بها .

وعندما استقرت أسرة جارشيا ماركيز هنا فى نوفمبر ١٩٣٩ ؛ فإن المصير الأساوى لسوكرى كان قد بدأ ومع ذلك؛ فقد عاشت الأسرة فى ظل ازدهار ورخاء إلى حد ما كان كافياً لكى يتذكر الجميع أنه من المرجح أن حقبة الأربعينيات هى التى غمرتهم جميعاً بالسعادة. وبفضل عدم صحة المكان ؛ فقد شيد جابريل إيلخيو صيدلية، وقدم وأفضل استشارة طبية بالمنطقة مما أدرُ عليه ربحاً كافياً لكى يستطيع الإنفاق

على أسرته كثيرة العدد وتشبيده لمنزله الخاص الفسيح والمريح فى الجانب الشمالى من النهر. وكان الكاتب وأشقائه هنا سعداء على وجه الخصوص - فى أواخر العام وأوائله - عندما كان شباب سوكرى يعوبون من أحسن المدارس وجامعات البلاد لقضاء إجازاتهم مع أسرهم. وبما أن جابرييل عاش طالباً فى بارأنكيا وثيباكيرا ويوجوتا كان يتسرع فى العودة لكى يعيش فى سعادة خلال فترة الإجازة بعد الانتهاء من العناء والتزمت الاكاديمى ومن قسوة البرد ، ومن تمسك أهالى الإنديز بالشكليات العامة ، وكان شهر ديسمبر ويناير بمثابة الحرية المستردة لجارثيا ماركيز. فالحر، والخضرة ، وتناول المانجو والجوافة بإفراط ، والأغاني الشعبية وحفلات الرقص الممتدة بشكل لا نهائى والحكايات والأساطير والشخصية الكاريبية المفتحة ؛ كل ذلك كان يُعيدُ جارثيا ماركيز إلى مركز الجاذبية لثقافته وحياته الروحية والجسدية.

وكانت مرسيدس بارتشا باردو الفتاة التى تنحدر من أصل مصرى هى التى تعرّف عليها جارثيا ماركيز أثناء حفلة رقص للطلاب ، كانت مبعث سعادة قلب ذلك الشاب. وكانت أسرته تعيش فى أحد منازل الميدان أمام منزل كايثانو جنتل. وكانت الفتاة تعود أيضاً كل الإجازات من مومبوكس وإينتيجادو لبدء فترة خطوبة أكيدة وبطيئة ومتقدمة مع طالب الثانوية فى ثيباكيرا والصحفى الشاب فى صحيفة الأونيفرسال " العالمى " بقرطاجنة.

وفى الواقع كان الجميع يتوافقون فى هذه المواعيد: مرسيدس ، وجابرييل ، وأشقائه ، وخوسيه بالينثيا وكايثانو جنتل (أفضل أصدقائه بالقرية ، الذين كان يرافقهم فى رحلتى الذهاب والإياب عبر نهر ماجدلينا وسان خورخى ولا ماخونا) ، وكذلك جميع أفراد أسرة سالاثار وسايت. وكان الجميع يلتقون فى الميدان الوحيد الواقع ما بين الميناء والكنيسة لإقامة الحفلات وممارسة الألعاب ، وعقد الاجتماعات وخاصة حفلات ومسابقات نهاية العام عندما كانت سوكرى تتزين فى أحلى ثيابها ، وتعيش الانقسام الحزين لقطاعيها الكبيرين: الثوليا أباخو ، والجوجوبيو أريبا (الثوليا السفلى والجوجوبيو العليا)، ولكن فتیان الجانبين كانوا يعدون اللقاءات السرية بملابسهم التنكرية وألعابهم واستعراضاتهم. وكان الجميع يحضرون فى اليوم والساعة المحددة للتجمع فى الميدان ، حيث تتواجد لجنة أو هيئة التحكيم للتقائية لإعطاء الجوائز للفائزين.

كان جواً متعدد الألوان يحضره جمع غفير من الناس فضلاً عن كونه حيواً حيث كان الأثرياء والفقراء يستمتعون على حدٍ سواء ؛ فأهالي سوكرى كانوا يعتبرون أهل سلام وشرف.

وتكتسب حفلة الحياة المستردة تجمعها النهائى فى منزل جارثيا ماركيز الفسيح الذى كان جابرييل يُطلق عليه اسم " المستشفى " ، وتبلغ ذروتها فى الحلقات الليلية التى كان فيها جابرييل وأشقاؤه وأصدقاؤهم يتحدثون عن الساحرات والأشباح ، وكانوا يحكون أساطير التراث المحلى^(٦). فحكايات مثل حكاية اليهودى التائه ، وحكاية ماركيزة دى لاسيربى ستمدان جارثيا ماركيز بما هو جوهرى وأساسى وخاصة الحكاية الأخيرة ؛ تلك الأسطورة التى استمع إليها جارثيا ماركيز أكثر من مرة فى أسفاره فى طرق الضواحي إلى أن ذهب فى أواخر الأربعينيات إلى لاسيربى ليرتب أحداثها من جديد ويحكيها فى وقت لاحق فى عمله " دولة ساحل الأطلسى " ^(٧) ، وهو أول تحقيق روائى كان بمثابة التعريف الأكثر وضوحاً لمكونه الروائى الذى سيؤدى به إلى كتابة "جنازة الأم الكبيرة" وفيما بعد " مائة عام من العزلة " .

وطبقاً للأسطورة ؛ كانت الماركيزة الصغيرة شقراء وببيضاء ، ولم تعرف زوجاً فى حياتها . وقد عاشت أكثر من مائتى عام فى ضيعتها ، التى كانت تقع فى عدة مراكز . كانت طيبة محبة للخير ، لأنها كانت تعرف جميع الصلوات السرية لفعل الخير والشر ، لذلك كانت " الأم الكبيرة " لكل من كانت تُقدم لهم الخدمات فى لاسيربى . إن الماركيزة الإسبانية الصغيرة كانت تعيش بمفردها فى منزلها ، ولكنها كانت تقوم برحلة طويلة فى جميع أنحاء المنطقة لزيارة من تكلؤهم برعايتها ؛ لمعالجة المرضى ، ولحل كل أنواع المشاكل المادية . وقُبيل أن تموت قامت بتوزيع جزء من ثروتها الإنسانية وغير الإنسانية على الأسر الست من أقرب المعاونين لها ، كما طلبت بأن تطوف ماشيتها حول منزلها ، وقد استغرق هذا تسعة أيام حتى تم إنشاء ثيناجا دى لاسيربى التى تقع أبعد من مستنقعات دلا جواريبا جنوب شرق سوكرى وبين نهري سان خورخى وكاوكا . وفى وسط لا ثيناجا تم دفن كافة كنوز الماركيزة الصغيرة وسرَّ حياتها الخالدة ؛ وهكذا استناداً إلى الأسطورة والخرافة ظلت الشقراء الإسبانية مستمرة فى ممارسة هيمنتها^(٨) .

إنَّ الخبرة المزدوجة الصحفية والأدبية التي تضمنتها قصة جارثيا ماركيز - دولة على ساحل الأطلسي - ستسمح له بعد سبع سنوات بتوسيع - فى - جنازة الأم الكبيرة - وجهة النظر الأسطورية الخرافية لقصة ماكوندو فى بدايتها - الورقة الساقطة - ، والإعلان عن مجئ - مائة عام من العزلة - بأسلوبه المبالغ فيه ويغزاته الروائية . إن أسطورة الماركيزة الصغيرة دى لا سيربى ستبرز بوضوح لجارثيا ماركيز ما كان يعرفه من قبل (والتي كان قد أسماها واقعية ما هو خيالى - أو - الخيال الإنسانى المفرط) . إن الأساطير والخرافات والمعتقدات والخزعبلات تُشكل البنية الخيالية القوية أو الأقوى من الواقع الموضوعى نفسه ، وذلك بتحديد تصرفات عقلية وحالية للناس . وهكذا فإن مفهوم الواقع سيتسع وسيكون أكثر تعقيداً فى عمله ، فضلاً عن التزامه ككاتب مع الواقع نفسه .

وعلى الرغم من أن الماركيزة الصغيرة كانت حاسمة فإنها لم تكن الموديل الأوحد لشخصية - الأم العظيمة . وخلال هذه الحقبة أعنى حقبة الأربعينيات ؛ فإن جارثيا ماركيز تعرف على امرأة ثرية فى سوكرى نفسها : ماريًا أماليا سامبايو دى ألباريث (الأم العظيمة تُدعى ماريًا ديل روساريو كاستانيدا إى مونتيرو) والتي يتكون منزلها من طابقين ، وهو ذو طابع هولندى ، ويقع فى الميدان ، ويجاور منزل كايثانو جنتيل تشيمينتو ، الذى سيطلق عليه مستقبلاً سانتياجو نصر . لقد كانت أمًا بمعنى الكلمة ، وكانت أسرتها من أغنى أغنياء الأسر بالقرية تمتلك الأراضى والعقارات الكثيرة ، وعدداً كبيراً من قطعان الماشية . ولم تكن تفخر بترائها الفاحش فقط ؛ بل كانت تزهو بجهلها المركب أيضاً ، وكانت تقول إن المعرفة والعلوم وخاصة الحساب لا فائدة لها ولا جدوى منها ؛ بل كانت ضارة ، وكانت تزهو دائماً بثقافة الملكية والثراء على ثقافة المعرفة . وعندما توفيت ماريًا أماليا سامبايو دى ألباريث شُيعت فى جنازة كبيرة مهيبة اتسمت بالبذخ والأبهة ، لدرجة أن أنجالها وأقاربها ظلُّوا يتحدثون عن ذلك فى كل مكان طيلة السنوات المقبلة^(٩) .

ولكن نماذج ، أو موديلات الشخصية لدى جارثيا ماركيز لم تقتصر على هاتين السيدتين فيما يتعلق بالأسطورة والخرافة ، لأن أراكاتاكا التى عاش فيها الطفل جابيتو كانت قد أسهمت ببعض الفنانات لاستكمال بنيته الفنية فضلاً عن شركة الفواكه

المتحدة والجدة العمة " يعنى شقيقة جده " لأمه "فرانثيسكا ثيمودوسيا ميخيا. وكما رأينا فإن الشركة الأمريكية كانت الحوت الكبير فى تجارة الموز بقوانينها ومملكتها المستقلة تمارس سلطاتها بلا قيود أو حدود على قرى عديدة بأكملها ، وكذلك على أرفع المناصب الحكومية ، وعلى الأراضى الشاسعة والمياه ووسائل الاتصال. لقد كانت تهيمن حتى على الهواء الذى يستنشقه سكان منطقة الموز ، ولذلك كانت تعرف بين العوام مامايتا يونائى " الأم المتحدة". فالسلطة الإقليمية الهائلة للشركة أدركها الطفل جاييتو على الصعيد الأسرى فى شخصية الجدة العمة فرانثيسكا ثيمو دوسيا ميخيا ، الأم العمة أورية المنزل الكبيرة فهى التى بحق كانت صاحبة الأمر والنهى فى الأسرة. كانت تأمر وتنهى ، وبأشرت سلطة بلا حدود. كما فعلته الأم العظيمة ؛ فقد ماتت وهى تصدر آخر أوامرها المتعلقة بما ستكون عليه مراسم جنازتها.

ولذلك فإن الاستعارة فى " الأم العظيمة" تم إدراكها أو فهمها فى منتصف ١٩٥٩ وهى إحدى الروايات الرائدة فى أدب أمريكا اللاتينية ، فهى تستند إلى عدة نماذج ، أو موديلات فى الزمان والمكان ، وستكون كتابتها نتاجاً لتفكير وتأمل طويل ومتأن. فهى مثل العمة الأم فى منزل الأجداد ، وكذلك مامايتا يونائى " الأم المتحدة" فى منطقة زراعات الموز ، ومثل ماريا أماليا ألباريث سامبايو فى سوكرى أثناء مرحلة شباب الكاتب ، ومثل الماركيزة الصغيرة فى قرية لا سيربى المجاورة. هكذا كانت تأمر وتنهى وتنسق وترتب الحياة الوطنية خلال القرن التاسع عشر " وعلاوة على ذلك فإن الأرستقراطية من أبناء المهاجرين الأوروبيين فى أمريكا كانت أرستقراطية إقطاعية ، ومالكي الأراضى قائمة على البقايا الاستيطانية التى ستتطور بين كل حرب وأخرى حتى وصلت إلى التواطؤ مع الليبراليين المقربين والمتقاربين معها فكرياً ، وإدراك الأم العظيمة للسياسة الوطنية فى أواخر القرن التاسع عشر: النظام القائم على الحزبين أثناء مرحلة الإصلاح.

فالعمة الأم - التى إلى جانب أنها ربّت جارثيا ماركيز - كانت - قبل والده - الشخص الذى قدم له أثناء طفولته عناصر ثقافة مقاطعة بوليفار الكبيرة (التي كانت أيضاً سوكرى الحالية) ، فقط كانت من الكارمن دى بوليفار هى حقل خصب للثقافة الكاريبية وإقليم السافانا. وقد نشأت وترعرعت هناك مع جدّ الكاتب فكانت ابنة عمه.

لقد حملت إلى منزل أراكاتاكا عناصر كثيرة من قرى بوليفار مثل تلك التي حملها جدّاه من لا جواخيرا . وبهذا الشكل فإن جارثيا ماركيز شُبَّ على أنه يعرف أن جنوره العميقة كانت تمتد سواء إلى الشرق في جواخيرا ، أو إلى الغرب منطقة السافانا حيث كانت تمتد أصول والده والجدة العمة ، وحيث عاشت أسرته خلال حقبة الأربعينيات .

وعلى الرغم من أن لويس إنريكي وليخيا جارثيا ماركيز ذكرا أن الماركيزة المعجزة ذات الإثنى عشر ربيعاً - التي أشار إليها شقيقه في الملحوظة التمهيدية في قصة " عن الحب وشياطين أخرى " - لم توجد بهذا الشكل ، ولا حتى في خيالات الجدة ترانكلينا ؛ فمن السهل أن هذه بخيالها الفياض قد أعدتها له كمغايير أو كبديل للماركيزة لا سيربي ، التي من المحتمل أن تكون العمة الأم قد قدمت أسطورتها من واقع تراثها الثقافي الذي استمدته من قرى بوليفار . ومما هو أكيد أن جارثيا ماركيز كان قد زار سينثي (قرية والده) لأول مرة وهو في التاسعة من عمره ، وسوكرى في الثانية عشرة ، وقد أظهر منذ الوهلة الأولى اهتماماً كبيراً بشخصيات وقصص وأساطير هذه القرى بصورة طبيعية وكأنها امتداد أو تكملة لشخصيات وأساطير وقصص أراكاتاكا .

وإحدى هذه القصص التي ستظل عالقة في ذهنه وذكرته كانت وفاة الموسيقار خواكين عضو الفرقة الموسيقية بالقرية ، الذي كان يأكل صفار الحمام - كما يُقال - حتى قام زوج عشيقته بذبحه ذات مساء في مسرح سوكرى بينما كان يعزف الموسيقى لتحسيس وتشجيع المشاهدين^(١٠) ، وكان أول موت رأته أسرة جارثيا ماركيز في سوكرى (أما الأخير فقد كان لكايثانو جنتل) في مايو ١٩٤٠ خلال الفترة التي كانت الأسرة قد استقرت خلالها بالقرية . وسيتحول هذا الموسيقار التعيس بعد خمسة عشر عاماً إلى الراعي عازف الكلارينت الذي اغتاله ثيسار مونتيرو بينديته في " الساعة المشنومة " .

ولكن القصة التي ستؤثر فيه إلى حد كبير كانت قصة الطفلة المجهولة والنحيلة ، التي عرفها جارثيا ماركيز في تلك الفترة عندما أدرك بأنه سيكون كاتباً أجلاً أم عاجلاً . وكانت القابلة تستغلها أسوأ استغلال وبلا رحمة ، وقد تخيلها الكاتب كجدته القاسية في إحدى رواياته الشهيرة " كانت تنتقل في بيت هوى رحال أو متجول من قرية إلى قرية ، وفقاً لمواعيد الأعياد والمهرجانات وأماكنها ، تحمل خيمتها الخاصة وفرقتها

الموسيقية وحتى أكشاك الكحوليات والمأكولات (...) وقد أقامت الفتاة بالقرية ثلاثة أيام ، ولكن الذكرى التى خلفتها بعد رحيلها ظلت لوقت طويل^(١١). وستستمر هذه الذكرى لدى الكاتب طوال حياته: أولاً ستطارده عبر صفحات "مائة عام من العزلة" ، ثم ستبحث عن سيناريو سينمائى ، وفى النهاية ستجد مكانها القصصى فى روايته "القصة الحزينة التى لا تُصدق للساذجة إيرينديرا أوجدتها القاسية".

وهناك شخصية أخرى من بيوت الهوى ؛ شخصية قريبة ومألوفة ستترك أثرها وبصماتها على الكاتب: ماريا أليخاندرينا ثيريانتس قابلة قصة "نبأ موت مُعلن". فبعد التاسع من أبريل حيث عمُ العنف وسط وشرق البلاد وامتد إلى الشمال حتى وصل إلى مقاطعتي قرطبة وبوليفار ، وخاصة المنطقة الواقعة بين نهري كاتاكا وسان خورخي حيث توجد سوكرى. وبمجرد وصول أحداث العنف إلى هذا المكان: تمت محاصرة القرية ووصلت إليها فى نهاية عام ١٩٤٨ قوة من رجال الشرطة لتعزيز حالة القمع والاضطهاد. حينئذٍ ظهرت ماريا أليخاندرينا ثيريانتس كحبيبة لضابط شرطة ، وبمرور الوقت ذهب الحبيب وبقيت هى هناك لتؤسس بيت الهوى الوحيد فى ذلك المكان. وقد حلُ بفراشها وفنونها الغرامية جارثيا ماركيز وجميع فتيان سوكرى ، ولكنها كانت أغرب قابلة فى العالم لأنها لم تكن فقط بمثابة أم ثانية لهؤلاء ؛ بل أيضاً لأن بعض الأمهات كُنَّ يشعرن بالهدوء والاطمئنان عندما يعلمن بأن أنجالهن فى منزل ماريا أليخاندرينا ثيريانتس. فهناك كانوا يعقدون اجتماعاتهم بمختلف أنواع الأطعمة ، وكانوا أيضاً يقيمون الحفلات وأعياد الميلاد ، ويلعبون ألعاب الورق ويسألونها النصح والإرشاد. وعلاوة على ذلك ؛ فباتباع أماكن وطرق الأعياد العامة كانت تأخذ فتياتها من بيت الهوى وتذهب مع جابرييل وخوسيه بالينثيا وكايتانو جنتل وأصدقاء آخرين إلى ماخاجوال وسان ماركوس وكايميتو لتصارع الثيران فى حظائر الماشية ، لأن ماريا أليخاندرينا ثيريانتس كانت - إلى جانب ذلك - أول مصارعة ثيران فى ساحل الأطلسي^(١٢) ، ولكنها ذات يوم عادت كما ذهبت: فى نفس اللش عبر نهر لا ماخونا حتى انتشلها جارثيا ماركيز من طى النسيان فى "نبأ موت مُعلن" بنفس اسمها وبيت مجونها وفنونها الغرامية وقلبها الكبير.

وفى تلك الأوقات كانت أعمال العنف فى كولومبيا قد بلغت ذروتها. وأول علاماتها التى تبعث على القلق حقيقة فى سوكرى وصول طبيب أسنان من بوجوتا ، حيث جاء

إلى القرية فأراً من العنف الوحشي بالعاصمة. لقد وصل باكتئاب كبير ، وفى غاية الاستياء من النظام السياسى فى بلاده ، وأسس عيادته فى القرية. وعرفه جارثيا ماركيز لأنه كان موجوداً فى سوكرى عند وصول طبيب الأسنان خلال فترة نقاهته من الالتهاب الرئوى الذى أصيب به أثناء فصل الصيف فى قرطاجنة . وبالطبع فإن طبيب الأسنان سيدخل ضمن قائمة شخصياته الخيالية كطبيب الأسنان فى قصته فى " يوم من هذه الأيام " و " الساعة المشنومة " (١٣).

وفى هذا الإطار من العنف نجد أن شبح المنشورات الحائطية قد استحوذ على شوارع سوكرى فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات ، مما أيقظ الوعى فى وجدان أهالى سوكرى ، وكان أحد هذه المنشورات قد وضع أسفل باب ميغيل بالينثيا (وهو الشخصية المستقبلية التى ستحمل اسم باياردو سان رامون فى " نبأ موت مُعلن ") لإبلاغه بأن خطيبته مارجريتا تشيكا سالاس التى سيطلق عليها فى القصة مستقبلاً اسم أنخيليا بيكاريو) ليست بكرأ " يعنى أنها قد فقدت عذريتها " ، ولذلك فإن شقيقها فيكتور مانويل وخوسيه خواكين تشيكا سالاس (التوأم القادم فى القصة: بيدرو وبابلو بيكاريو) سيغتلان كايثانو جنتل تشيمينتو صديق جارثيا ماركيز (والذى سيطلق عليه فى القصة اسم سانتياجونصر) صباح الثانى والعشرين من يناير ١٩٥١ (١٤).

إن حالة الحصار التى فُرضت على القرية ، وما تبعها من حملة القمع والاضطهاد ، وتقشى الفساد بين السلطة المدنية والعسكرية ، والموضوع المُبهم للمنشورات الحائطية التى أدت إلى إفشاء فضائح بعض الأسر ؛ كل هذا جعل المناخ فى سوكرى لا يُطاق على الصعيدين السياسى والاجتماعى ، ولذلك بدأت أسرُ بأكملها فى مغادرة القرية بالضبط مثلما حدث فى أراكاتاكا بعد مذبحه عمال مزارع الموز وفيضانات أكتوبر ١٩٣٢ . وفى أواخر ١٩٤٩ - على سبيل المثال - هاجرت أسرة بارتشا ، وهى أسرة مرسيدس بارو من سوكرى واستقرت فى بارأنكيا. وبعد ذلك بأربعة عشر شهراً خرجت أسرة جارثيا ماركيز من سوكرى متوجهة إلى قرطاجنة ، وعلى الرغم من أن اغتيال كايثانو جنتل تشيمينتو يمكن أن يكون قد عجلَ بانتقال أسرة جارثيا ماركيز إلى قرطاجنة ، فإن الحقيقة أن قرارَ الانتقال كان قد تم اتخاذه من قبل ، ولذلك فعندما وقع الحادث كان الكاتب موجوداً بالفعل فى قرطاجنة مع والده وشقيقه جوستابو لإنهاء استعدادات الانتقال إليها.

وتحديداً ففي صباح الاثنين ٢٢ يناير حضر كل من لويس إنريكي ، ومارجوت جارتيا ماركيز إلى الميناء برفقة كايثانو جنتل تشيمنتو لتسليم رسالة من والديهما لويسا سانتياجا إلى والدهما جابريل ايلخيو. وقد أبحر اللنش في تمام الثامنة والنصف متجهاً إلى ماناجيه ، ولقد رأى الثلاثة اللنش وهو يتحرك رويداً رويداً في هذه المياه المنخفضة الراكدة ، وأزهار اللوتس النهرية بأزهارها البنفسجية قد فاح عبيرها وانتشر شذاها بإعجاز في أول نص غنائى للروائى المبتدئ فى عمله: " لحظة فى نهر " .

وبعد ذلك بربع ساعة قَتَلَ الشقيقان تشيكا كايثانو جنتل. فمنذ الصباح الباكر كانا يبحثان عنه فى جميع أرجاء القرية ، وقررا انتظاره أمام منزله وهما يتعاقران المسكرات على الجانب الآخر من المروى وأشجار اللوز بالحديقة الصغيرة. لقد كانا صديقين حميمين لصحيتهما ، ولكن الأخلاقيات المتزمتة للقرية بفعتهما للإقدام على المأساة واغتياه ، وقد أُعيدت شقيقتهما مارجيتا إلى المنزل بصحبة ميجيل ريبس بالينثيا الذى كان قد تزوجها السبب الماضى ، حيث اعترفت له بأنها ليست بكرأ لأن كايثانو جنتل خطبها السابق قد اغتال شرفها وقض بكارتها. وأسرة تشيكا - مثل باقى الأسر - فى ذلك المجتمع كانت تؤمن بأن العار لا يغسل إلا بالدم كما حدث قبل ذلك بعشر سنوات مع الموسيقار خواكين بيجا ، ولذلك فلم يكن أمامهما إلا بديلان: أحدهما قتل صديقهما أو اختيار موقف الجبن ، وبذلك يكونان غير جديرين بالاحترام أمام سوكرى بأسرها. وبما أنه كان إيطالياً فارغ القامة حسن الطلعة غنياً وسخياً فضلاً عن كونه دارساً للطب بالجامعة الخابيرية فى بوجوتا ؛ فقد كان أحد العُزّاب المرغوب فيهم فى القرية. إنه صديق كبير فى شباب جارتيا ماركيز وأشقائه ، كما كان محبوباً من جميع أهل سوكرى حتى من جانب قاتليه إلا مارجيتا تشيكا خطيبته السابقة التى حولت حبها القديم إلى ضغينة وكراهية دموية. ولذلك، فإنها وإن كانت قد أشارت إلى كايثانو بأنه هو الذى اقتض بكارتها ، فإن الحقيقة أن قليلين هم الذين صدقوا روايتها واتهامها لكايثانو جنتل الذى كان يعرف ذلك مثل كل أهل القرية بأنه لم يكن الوحيد الذى نهل من مياه عذريتها .

وعندما قام كايثانو جنتل بوداع لويس إنريكي ومارجوت جارتيا ماركيز فى المطار فى تمام الساعة الثامنة وثلاثين دقيقة ، ثم ذهب ليغير ملابسه ، لأنه كان قد اتفق على

الذهاب إلى منزل أسرة جارثيا ماركيز ليصطحب أحد أبنائها إلى منزله الذي يطلق عليه بيردون ، ولكنه لم يذهب إلى المنزل مباشرة الكائن في نهاية الشارع ؛ بل ذهب إلى منزل ماريا أماليا سامبايو دي ألباريث " الأم العظيمة " لكي يرى خطيبته أولاً وتُدعى نادبة نصر. وعندما عاد من حيث أتى كانت قد مرت خمس عشرة دقيقة ، وعندما عرّج على الناصية لكي يدخل الحديقة ليتوجه مباشرة إلى باب منزله رأى كيف توجه إليه خوسيه خواكين تشيكا من الناحية الأخرى للحديقة وهو يوجه له كافة أنواع السباب وشاهراً مُديته. وقد أصاب الهلع كايثانو جنتل فطرق باب منزله بشدة وبضربات مأساوية ، ولكن والدته بدلاً من أن تفتح الباب أغلقتة بالملزاج ظناً منها أن أفراد أسرة تشيكا جاءوا للانقضاض على المنزل لاغتتيال نجلها بالداخل: لقد كانت تعتقد أن نجلها في غرف الطابق العلوى ، وبعد أن تم القبض على القاتل المحبط ، ظل كايثانو يجرى على نفس الرصيف الكائن به منزله ليصل إلى منزل مونيبي جيريرو وخلفه فيكتور مانويل تشيكا أصغر القاتلين سنّاً ، ولكنه أقواهما بنية وجسداً ، وقد استطاع اللحاق به في آخر المنزل بجوار البركة ، في الوقت الذي كان كايثانو يحاول جاهداً فتح باب الحارة الخلفية للوصول إلى منزله^(١٥). وكانت والدته جوليتا تشيمنتو تعاني من مخاوف مغلنة طوال أسبوع بسبب رؤيا سيئة ، وقال سيءٌ ؛ فمئذ عشرة أعوام ذات سبت ليلاً كانت هناك حفلة رقص بمنزلها. كانت الليلة مطيرة ، وجاء شخص ما بالمظلة السوداء ، وتركها لتفرغ ماءها في أحد الأركان ، وكانت هناك فتاة هائجة مثيرة للفتن من بين الجوقة الموسيقية ، وأخذت المظلة وفتحتها وبدأت ترقص بها بين الناس. حينئذٍ انتزعتهما منها والدّة كايثانو وهى مذعورة وقالت لها: "ألا تدري أن هذا يجلب سوء الحظ"^(١٦). ولذلك فعندما علمت بأن أسرة تشيكا تبحث عن نجلها لقتله تملكها الخوف والهلع ، وأشرفت على الأبواب بنفسها لحراستها ، وأحكمت النوافذ المطلة على الشارع ، وأخذت تراقب القاتلين اللذين كانا في الناحية الأخرى من الحديقة ينتظرانه ، ولذلك فعندما طرق نجلها الباب بضربات مأساوية قوية أسرع إلى إغلاق الباب بالملزاج معتقدة أن الشقيقتين تشيكا كانا يريدان دخول المنزل لقتله.

وفقط عندما سمعت الضوضاء في المنزل المجاور وصرخات تقول: " قتلوا كايثانو " خرجت لتجد المأساة قد حلت ، ولكنها عندما لم تجد نجلها عادت كما جاءت ، فوجدته في

الصالة الرئيسية مستلقياً على وجهه محاولاً الإمساك بأمعائه التي خرجت من بطنه بكتنا يديه. لقد استطاع كايثانو الوصول إلى منزله عبر المطبخ حيث سار بالشارع الموازي لنهر ماخونا بعد أن تلقى سبع عشرة طعنة قاتلة طعنها إياه فيكتور مانويل تشيكا بشكل جنوني بجوار بركة منزل مونيبى جيريرو^(١٧).

إن وصف الجريمة فى قصة " نبأ موت مُعلن " ، وكذلك مسرح تنفيذها ودوافعها ونتائجها تتشابهان إلى حد كبير مع الأحداث الحقيقية ، ولكنها تختلف فى القصة فى الآتى: إن الذى قتل سانتياجو نصر لم يكن شقيقاً واحداً لمارجريتا تشيكا ؛ بل كانا الاثنان يطعنان ضحيتهما بالتناوب ، كما أنهما لم يغتالاها فى فناء المنزل المجاور ؛ بل أمام باب منزل الضحية ، الذى لم يُفتح له كما هو الحال فى الواقع. وقد سجل جارثيا ماركيز آخر كلمات صديقه كايثانو جنثل قبيل وفاته هكذا : " صبراً يا أماء ! الرضا والهسوء فإبنتى برئ " ، وأن ما قاله فى النهاية وهو ينظر إلى أشقائه: " انتقموا لدمائى "^(١٨). وعلى العكس كان جارثيا ماركيز على وشك إرسال قصته للطبع ، بعد ذلك بثلاثين عاماً عندما عَلمَ بحكاية المظلة كان ذلك بالنسبة لكاتب يقظ وحذر ومؤمن بالخزعات مثل جارثيا ماركيز بمثابة النبوءة التى تلامت تماماً مع هذا الجو المشئوم ؛ لذلك الموت الحتمى الذى لا فرار منه.

وقد دُفِنَ كايثانو تشيمنتو بسرعة فى مقابر سوكرى وسط آلام وصمت الجميع ، وقد زُيِّنَت أسرته مقبرته الرخامية بلوحة تحيطها شراشيب الزينة وأوراق وزهور رصاصية وقصديرية ، وكذلك بعذراء الكارمن ومَلَكى الصمت. وقد دون على اللوحة " شاهد القبر " تاريخ ميلاده ٢ مارس ١٩٢٧ ويوم وفاته ٢٢ يناير ١٩٥١ . وكانت مقبرته مزودة بزهور متنوعة دائماً إلا زهور المارجريتا الممقوتة بسبب اسم المسئولة عن موته. ومع ذلك ؛ فإن الفكرة التى كانت سائدة فى سوكرى حتى بين أفراد أسرة جارثيا ماركيز هى أن مارجريتا تشيكا سالاس لم تكن المسئولة عن مقتل خطيبها السابق ؛ بل كانت القرية بأسرها بسبب تزمّت قانونها الأخلاقى. وفى الواقع لم يكن الشقيقان تشيكا يريدان قتل صديقهما كايثانو ، كما لم يكن يريد ذلك - قبل ثلاثة وأربعين عاماً - جد جارثيا ماركيز عندما اضطر إلى قتل صديقه ميدرانو باتشيكو روميرو ، ولكن الضحايا والقتلة كان قد حُكِمَ عليهم مُسبقاً. وفى هذا الصدد ؛ كان ما قام به

الشقيقان تشيكا جريمة ومأساة ذات مسئولية جماعية ، كما يشرح جارثيا ماركيز ذلك بعد ثلاثين عاماً فى قصة " نبأ موت معلن" منتقداً ومفنداً ذلك القدر المحتوم لأستاذه سوفكليس. وربما لذلك عند إعادة وتجسيد اغتيال كايثانو جينتل أخفى جريمة كايو خوليو ثيسار تلك الجريمة التاريخية التى سحرت وأثرت كثيراً فى الكاتب^(١٩).

إن المأساة الشخصية والتسلط أو الاستحواذ الأدبى لموت صديقه كانا قويين وخالدين لدرجة أن الكاتب - بعد طبع القصة - أشار بصورة خاطئة إلى أن هذه الجريمة وقعت قبيل أن أعرف بقليل ماذا ساكون فى هذه الحياة. كنت أشعر برغبة ملحة لسردها وربما كان الحدث الذى حدد بجلاء وإلى الأبد موهبتى ككاتب^(٢٠). وفى الواقع لم تحدث الجريمة قبل أن يعرف أنه سيكون كاتباً ، كما أنها لم تكن الحدث الذى حدد موهبته وإن كان من الممكن أن يكون كذلك.

إن العوامل التى حددت موهبة الكاتب ، والأسباب التى عضدتها وعززتها من خلال إنتاجه هى عموماً ، وفى الوقت نفسه متنوعة ومعقدة وبسيطة واضحة وخفية خطيرة وصغيرة شعورية ولا شعورية ، وكثيراً ما تكون غامضة مبهمة لأنها لم تتبلور كأحداث محددة ؛ بل كانت خطأ فى الظل التقت فيه مختلف المواقف والظروف. ففىما يتعلق بجارثيا ماركيز سبق أن أشرنا إلى بعض اللحظات الحاسمة لأصل وتعزيز وتعصيد هذه الموهبة أهمها (أو أبرزها) : الجدُّ والجدَّة ، وألف ليلة وليلة والخروج من أراكاتاكا والوحدة فى كل من بوجوتا وثيباكيرا وشعراء العصر الذهبى الإسبانى والجماعة الكولومبية " حجر وسماء " وقصة " المسخ " لكافكا ، ولقاء العودة مع ثقافة الكاريبى وقراءاته لليلفيل وفيرجينيا وولف وخاصة فوكنر وسوفكليس. كل ذلك إلى جانب عوامل أخرى كثيرة حدثت قبل أن يُغتال كايثانو جينتل الذى سيطلق عليه مستقبلاً سانتياجو نصر. وعلاوة على ذلك : عندما حدثت تلك المأساة كان جارثيا ماركيز قد كتب حوالى خمسمائة صفحة فى الصحافة وروايات " عيون كلب أزرق " ، وعلى الأقل ثلاث روايات مختلفة لـ " الورقة الساقطة " ، كما ظلَّ عازماً على كتابة " مائة عام من العزلة " فى تلك السن المبكرة تحت عنوان المنزل. ولذلك ؛ فقد كان كاتباً قبل تلك الواقعة ، وكاتباً جيداً. وكان ما ينقصه فى ذلك الحين عالمه الأدبى ، وإطار عمله الخيالى ، وقد تمثل فى رحلة العودة إلى أراكاتاكا برفقة والدته فى مارس من العام التالى وأسفاره مع صديقه رفائيل إيسكالونا إلى مقاطعتى ثيسار ولا جواخيرا لترسيخ وتعصيد موهبته ككاتب.

إن السنوات الأولى لأسرة جارثيا ماركيز في قرطاجنة كانت مرحلة عذاب ومعاناة طويلة استمرت طوال الحقبة. فمستوى الحياة اليومية وكثرة أفراد الأسرة الذين يدرسون أدى إلى ضرورة إعادة تنظيم اقتصاد الأسرة ، حيث إن رب الأسرة جابريل إيلخيو لم يستطع مواجهة الأعباء وحده ، ولأول مرة اضطر إلى الاستعانة بتعاون أبنائه الكبار للتمكن من الإنفاق على الأسرة التي كانت تضم أحد عشر شخصاً من أبنائها ، فضلاً عن الأبناء الأربعة غير الشرعيين للوالد: (أيلاريو وكارمن روسا قبل الزواج وأنطونيو وإيمي بعد الزواج) حينئذٍ أسهم جابريل ولويس إنريكي ومارجوت وجوستابو على الرغم من حداثة سنه - خمسة عشر عاماً - في الاقتصاد المنزلي. وبفضل اتصالات الوالد السياسية استطاع لويس إنريكي ومارجوت الحصول على وظيفتين ثابتتين في وزارة الزراعة وخزانة المقاطعة ، بينما حصل جابريل وجوستابو على وظائف مؤقتة في بلدية قرطاجنة. وكانت وظيفة الكاتب هي المساعدة في إعداد الحصر الوطنى للسكان في مقاطعة بوليفار ولكن جابريل على الرغم من الحاجة وتوسلات والده له لم يرد قبول أول وآخر وظيفة حكومية^(٢١) ، وقرر " أكل ورق الصحف " ، ولذلك تمسك بآلته الكاتبة. واستبعد دراسة القانون وضاعف من جهودة الصحفية ، وعاد يعمل بشكل مجهول في صحيفة الأونيفرسال " العالمى " ، وظل يرسل مقالاته تحت عنوان الزرافة " نعى أعمدته التي تراجع عددها " إلى مجلة الهيرالد . وكان ذلك في الوقت الذي طلبت منه والدته نقوداً لتأثيث المنزل الجديد بشارع ريال فيخى بيبه دى لا بوبا. جاء جابريل جارثيا ماركيز لالفونسو فوينمايور الذى أعاره ستمائة بيزو من رصيد الصحيفة شريطة أن يدفع مقابلها بالمقالات الافتتاحية التى يكتبها ، وكان الكاتب يرسل له سبع مقالات افتتاحية أسبوعياً طوال خمسة أشهر فضلاً عن أعمدته الأخرى " الزرافة " حتى سدد له الدين كاملاً^(٢٢).

وبهذه النقود استطاع جارثيا ماركيز شراء بعض قطع الأثاث من ملكة الكرنفال فى بارونا وتُدعى إيستر أبيلا ، التى كان الكاتب قد توجّها منذ عام مضى ، وقد أرسل بقطع الأثاث مع شقيقه جوستابو إلى والدته. وبما أن شراء واقتناء قطع الأثاث هذه كان غريباً عجيّباً ، سيكون أيضاً مصيرها التجوال والتنقل من مكان إلى آخر على مدى أربعين عاماً مع أسرة جارثيا ماركيز اعتباراً من منزلها الأول فى ضاحية بيبه دى

لا بوبا حتى المنزل الفسيح الهادئ والمريح فى لامانجا بعد المرور بتوريشيس وتوريل ولوأما دور.

إن مهنة تنويع وإلقاء كلمات تنويع ملكات الجمال تُعدُّ بمثابة لحظات غير مألوفة وغريبة فى حياة الكاتب. لقد كان دائماً ناقداً ، دون هوادة للخطابة الوطنية ، وفى 'انتشار ممالك الجمال كما يرى فى " جنازة الأم الكبيرة " ، ولهذا يمكن فهم ولعه العارض بالخطب وتنويع ملكات الجمال نتيجة لتلك المزاحات الخالدة التى كان قد بدأ فى ممارستها مع راميرو دى إسبيريا فى قرطاجنة فى يولييه ١٩٤٩ عندما توجأ ملكتى جمال الطالبات. ولذلك ربما يكون قد كرر تنويع السيدة إيستر أبيلا " سيدة السعادة الكاملة دى بارونا ، وهو نفس ما قاله قبيل ذلك بعام فى ألبيرا بيرجارا أو ألبيرا بريميرا دى قرطاجنة ، التى كانت تضع شهوداً لجمالها ومملكتها كلاً من تاليس دى ميليتو وإيسكيلو وسوفكليس وإيسوبو ورمسيس وإيراسمو دى روتردام وخوبال ودافيد ، وذلك بإعادة فقرتين كاملتين من أول خطبة ، ولزید من المزاح فإن تلك الخطبة كان قد كتبها راميرو دى إسبيريا^(٢٣).

وإذا كانت هذه حكايات سرعان ما نسيها الكاتب كشقاوات شباب ؛ كان شراء الأثاث من السيدة أبيلا- على العكس من ذلك تماماً - حدثاً لم ينسه أبداً ، ولكى يسدد لفوينمايور ستمائة بيزو اضطر لكتابة كمية من المقالات الافتتاحية رغماً عنه ، وربما ضد رغباته ومعتقداته السياسية والفكرية ، وقد ترك ذلك لديه مرارة كبيرة ، مما جعله يفقد الاهتمام بالمقالات الافتتاحية .

وبعد أن سدّد السلفة أوقف تعاونه مع الصحيفة فى بارأنكيا فى أوائل شهر يولييه ، وعاد للكتابة المحمومة فى مجلده الخالد " المنزل " ، وقام بالعديد من الأسفار لأهداف صحفية وأدبية دائماً ، وأعد العدة لإصدار أول صحيفة له مائة بالمائة : السريعة الزوال والضئيلة صحيفة كومبريميدو " قرص الدواء " ، صحيفة أصيلة تتكون من ثمانى صفحات يومياً وطولها ٢٤ بوصة وتطبع ٥٠٠ عدد كل يوم ، ولم تستمر سوى من ١٨ إلى ٢٣ سبتمبر ١٩٥١ ، وكان هو ومعاونوه يقومون بتوزيعها شخصياً ومجاناً كل مساء فى قرطاجنة.

وكانت الصحيفة الصغيرة على هامش أى توجه سياسى ، وكانت تبحث عن تقديم أنباء سريعة ومسلية وموجزة لقرائها عن أهم الأحداث المحلية والوطنية والدولية. وعلى الرغم من صغر حجمها وضالة تمويلها (فقد كانت تكلفة الطبعة الواحدة ثمانية وعشرين بيزو) ، إلا أنها كانت صحيفة جسورة وجريئة أو ربما مبالغاً فيها ببساطة شديدة مثل أسلوب ملهمها ومديرها الذى فتح حصالة مدخراته لكى يطبع العدد الأول: " عند بدء أعمالنا نتوجه بالتحية إلى الصحافة الوطنية والتجارة والمجتمع بصفة عامة ونتعهد بتقديم - وفقاً لإمكاناتنا - بهذه المغامرة اليومية ، التى تكمن مهمتها كل مساء فى تقديم برقية عاجلة للرأى العام". ومع ذلك فلم تصدر الصحيفة سوى ست مرأت ، لأن الأتراك والعرب وباقى التجار بالمدينة تركوا الإعلان عن سلهم فى هذه الصحيفة الصغيرة الحجم. حينئذ قام جارثيا ماركيز ومديره جيرومو دابيلاباغلقها بمقال بهلوانى أدبى ميتافيزيقى فى افتتاحية العدد الأخير للصحيفة: "إزاء المستقبل الذى يبعث على الراحة والاطمئنان لم نجد بداً لائقاً ومناسباً سوى إيجاز هذه الصحيفة إلى أصغر حدٍ تصعب معه الرؤية تماماً. وفيما بعد فإن صحيفة كومبروميدو ستظل متداولة فى شكلها المثالى الذى تستحقه كثير من الصحف. ومنذ تلك اللحظة تبدأ هذه الصحيفة (...) لتكون أول صحيفة ميتافيزيقية بالعالم"^(٢٤).

وبعد أن أملت به المشاكل الاقتصادية ، ملأ من العمل الصحفى الذى أصبح روتينياً ، قرر جارثيا ماركيز حينذاك معرفة الفن الشعبى وتاريخ قرى طفولته وأجداده ، ولذلك تفرغ فى الفترة من أواخر ١٩٥١ وفبراير ١٩٥٢ للسفر إلى محافظات ماجدلينا والثيسار ولا خواخيرا. وقد رافقه فى بعض الأسفار صديقه الجديد الموسيقار رفائيل إيسكالونا الذى - على الرغم من حداثة سنه - كان شهيراً كمؤلف مبدع للموسيقى الشعبية.

وكان جارثيا ماركيز ورفائيل إيسكالونا قد تعارفا فى بارأنكيا فى أواخر مارس ١٩٥٠ ، فى نروة الحماس الأدبى والصحفى للجماعة ، ومنذ الوهلة الأولى عززاً ووطدا صداقة عميقة ودائمة سيكون لها نتائج أدبية ملحوظة فى الكاتب. ذلك اليوم وصل الكاتب فى المساء إلى مقهى روما للقاء الملحق وهو يغنى أغنية "جوع مدرسة الليسية" وهى أغنية لاييسكالونا يتحدث فيها عن سانتا مارتا ومنطقة زراعات الموز فى فونداثيون وبايدوبار ، وتصف الوحدة والجوع اللذين عانى منهما المؤلف فى تلك المدينة وهو طالب

فى الثانوية بمدرسة ليسيه ثيليدون^(٢٥). ومن الناحية العملية كانت هى الأماكن التى عاش فيها الكاتب ، وهى إلى جانب الوحدة والجوع اللذين عانى منهما أيضاً فى ثيباكيرا وبوجوتا لكونه طالباً مُعَوَّزاً. كما أن الأغاني الشعبية كانت إحدى المظاهر الثقافية والأدبية الخصبة لجارثيا ماركيز ، والتى لم يكن يحفظها ويغنيها فقط عن ظهر قلب بفضل ألحان إيسكالونا على صافرة ، بل أيضاً كافة المقطوعات الكلاسيكية من هذا النوع.

إن حبه واهتمامه بهذه الأنماط الشعبية (ميرنجيس وباسيوس رسونس وبوياس وتامبوراس) يرجع إلى مرحلة طفولته ، وقد تزايد فى ثيباكيرا وبوجوتا. وعندما عاد إلى بارانكيا وقرطاجنة بعد أحداث بوجوتا الخطيرة ، حيث اقتنع بأن هذا النوع من الموسيقى لاغنى عنه كهواء الكاريبى تماماً ليس فقط لكى يعيش بل أيضاً لكى يكتب .

ومثل القصص والأساطير ومثل النُصب التذكارية الأسطورية لفرانثيسكو الأومبرى ، وكعادات وأحلام وإخفاقات الساحليين كانت الأغاني الشعبية بأنماطهما المتعددة منتشرة فى الشارع تملأ الجو الجغرافى الثقافى الأكثر رحابة واتساعاً من ذلك الذى ولدت فيه الأزمات السحيقة. وعلى الرغم من ، هذه الأنماط الشعبية نُسبت إلى بايدوبار عاصمة مقاطعة ألتيسار فإن مهدها كان عدة أماكن تبدأ من ريو هاتشا (حيث يسود الاعتقاد بأن الأكورديون دخل عن طريقها) ، وينتهى بمنطقة زراعات الموز مروراً بـأماكن رئيسية مثل تومارثون وبارانكاس وفونسيكا وبيانويبا وأوروميتا وبايدوبار وماناورى والباسو ومنطقة ثيجانا دى ثباتوثا القديمة (مولد رقصة وأغنية لا كومبيا) وألبانكورموبوكس وبلاتو وثيناجا^(٢٦) : منطقة مترامية الأطراف على شكل مثلث تُحيط به أحواض أنهار أريجوانى وثيسار وماجدلينا ؛ المنطقة الثقافية لجذئ وطفولة جارثيا ماركيز وبالتالى " لمائة عام من العزلة" ومعظم أعمال الكاتب.

وكانت الأغاني الشعبية المعروفة باسم بايناتوس كما تعرف على الصعيد الشعبى فى البداية أغاني المديح الطويلة ؛ وهى أنشودة كانت تُغنى فى إطار إنتاج الأبقار قديماً. وقد رجع تطورها إلى عملية التكامل العرقى والاقتصادى والثقافى للهنود الحمر والزنجى والأسبان حول هذا النشاط ، مثلما يتضح من الآلات الموسيقية الثلاث التى تُلحن بها.

الأكورديون الأوروبي ، والطبلة الأفريقية ولاكارأسكا (آلة موسيقية لمواطني البلاد الأصليين من الهنود الحمر كانوا يستخدمونها لتقليد ومحاكاة العصافير. وبما أن أصولها ترجع إلى أغاني المديح ، فإن دليل قطيع الأبقار كان يسير أمام القطيع في مناطق السافانا المترامية الأطراف وهو يغنى بصوت واحد على أنغام آلات موسيقية بدائية للغاية وما يصاحب ذلك من المغامرات والمخاطر لهذه المهنة ، حيث يأتي في المقام الأول من حيث الأهمية ما يُحكى أكثر مما يُغنى. وبعد ذلك عندما اقترنت الأغاني الشعبية بالآلات موسيقية مثل الأكورديون والطبلة الأفريقية ولاكارأسكا (آلة عزف الهنود الحمر) ازدادت أهمية تنفيذ العزف الموسيقى وخاصة الأكورديون^(٢٧). وكان عازف الأكورديون تقريباً في معظم الأحيان الملحن والمطرب ، وبالتالي فإن جمال التنفيذ الموسيقى كان مقترناً بالشعر الجيد وجرعة فلسفية يونانية قديمة. وفي هذا الصدد ؛ فإن مؤلفاً مطرباً لهذه الأغاني الشعبية كان يؤلف ويُحّن فقط بناء على حاجته الداخلية التي تحرك الفنانين الحقيقيين .

وفيما يبدو ؛ فإن المؤلف المطرب الأسطوري لهذه الأغاني الشعبية هو فرانثيسكو موسكوتى داثا الشهير بفرانثيسكو الأومبرى . وتنوب سيرته الذاتية بين الأسطورة والخرافة ، ولكن هناك بعض المعلومات القابلة للتصديق: وُلِدَ في ٢٤ أبريل ١٨٨٠ في توماراثون ، ومنذ صغره أظهر براعة خارقة في العزف على الأكورديون ، وفي المستقبل سيحكي أو سيفنى أغانيه أو أخباره في هذه الأسفار الطويلة من ريوهاتشا إلى بارأنكيا ماراً ببايدوبار وكل منطقة إنتاج الموز. ويؤكد رفائيل إيسكالونا أنه تعرف عليه في ١٩٤٨ بالقرب من ريوهاتشا ، بينما نجد أن فرانثيسكو الأومبرى بالنسبة لجارثيا ماركيز لم يكن سوى مزيج شعبي من الأسطورة والأدب والموسيقى والفولكلور ، وبهذا الشكل صورّه المؤلف في " مائة عام من العزلة". وكان باتشورادا وييدرو نولاسكو مثل فرانثيسكو الأومبرى قد هزما الشيطان في مهام أكوردونية وحشية. وهذان الاسمان إلى جانب فرانثيسكو الأومبرى يكونون الثلاثية الأسطورية للأغنية الشعبية المعروفة باسم "بايناتا".

وعندما بدأ جارثيا ماركيز يهتم بهذه الموسيقى في أواخر الأربعينيات ليس فقط بحماس فنى ؛ بل أيضاً لحماس شبه علمي بتأثير من كليمنتي مانويل ثبالا ، ومانويل

ثباتاً أوليفيا كانت الأغاني الشعبية المعروفة باسم بايناتا تنحصر في بيتتها الأصلية ، على الرغم من أنها كانت تعيش أوج عصرها الذهبي مع سبعة من الشعراء المدّاحين الأسطوريين ، وهم أبيهيتوبيا وكريسنتيو سالسيدو وميجيل كناليس وإيميلانو ثوليتا ولياندرو دياث ولويس إنريكي مارتينيث ورفائيل إيسكالونا ، على الرغم من حداثة سنه. وعند دراسة نصوصها اكتشف الكاتب أنها لا تشتمل فقط على حكمة عظيمة وشعر هائل ، بل كانت أيضاً تسرد حكايات ونوادر بكل تلقائية بنفس الوجه الصارم لجذته وبأسلوب ألف ليلة وليلة ، والشعر الشعبي. وبمزيد من التعمق وجد أن هذه القصص ترجع أصولها الحقيقية إلى المحيط الشخصى والأسرى والاجتماعى للشعراء المدّاحين ، وهى التى كانت تُعدُّ تُراثاً فنياً وثقافياً وأخلاقياً لمنطقتى بايدويار ولا جواخيرا لمنطقتى جدّيه ، وقد أمدّه ذلك بأفكار عديدة لكتابة عدة أعمال وخاصة " مائة عام من العزلة " ، وكما سيعترف بعد ذلك بثلاثين عاماً أن مصدرها قصيدة شعرية شعبية على شكل قصة ، أى أنها قصة أدبية طويلة عن طفولته والأجداد والمنزل الذى وُلِدَ فيه وأراكاتاكا ومنطقة زراعات الموز والكاريبي بصفة عامة^(٢٨).

وبهذا الشكل فإن اهتمام جارتيا ماركيز بالموسيقى الشعبية كان مرتبطاً تماماً لإيجاد مصادر لمؤلفاته ، كما كان مرتبطاً أيضاً - بشكل خاص - بصداقته مع الملحن رفائيل إيسكالونا الذى استمر فى مناقشات متعمقة عن هذه الأغاني ، لذلك شرعاً فى الأسفار المشار إليها أنفاً فى شهر أبريل ١٩٥٠ وأنهوا فى منتصف عام ١٩٥٢^(٢٩).

وكان عمر إيسكالونا يماثل عُمر الكاتب: فقد وُلِدَ فى ٢٧ مايو ١٩٢٧ فى باتيال بالقرب من بايدويار ، وكان كاتباً للأشعار مثل جارتيا ماركيز وهو عاشق فى سن المراهقة كما كان أيضاً مُزوَّغاً من قاعات المحاضرات ، وكانت إحدى غرامياته قد اختلسته من ليسيه ثيليدون فى سانتا ماريا عندما كان فى السنة النهائية مما اضطره إلى العودة إلى بايدويار للإشراف على مزارع وممتلكات والده. ولم ينته التشابه هنا بين هذين الشخصين ، بل إن الزمن والصدف تجعل هذا التشابه كبيراً إلى أبعد حد. فكلاهما يشتركان فى لقب واحد (جابرييل هو فى الواقع مارتينيث ماركيز ورفائيل هو إيسكالونا مارتينيث) ، كما أنهما مناهضان للدراسات الأكاديمية ، كما أنهما من أنصار التمسك بثقافة مناطقهما ، وكان جدُّ الكاتب ووالد الملحن عقيدتين فى حرب

الألف يوم^{٢٠} ، وظلا ينتظران ما بقى من حياتهما - معاش التقاعد ، وكانا حنونين ، وعاشقين ، وسخيين ، وصديقين كبيرين لأصدقائهما فأول أغنية للملحن ، وثانى كتاب للمؤلف سيخرجان إلى حيز الضوء فى نفس مدينة ميدايين ، كما أن أعمال كليهما سيكون لها نوى دولى .

وعن الموسيقى الشعبية وأماكنها المشتركة وأوجه التشابه بينهما تحدثا فيما بينهما عن ذلك فى أول لقاء لهما وهما يتناولان الجعة المتلجة فى مقهى روما . وقد حدثه جارثيا ماركيز عن أراكاتاكا وعن أسرته ، وأصدقائه . كما حدثه إيسكالونا عن آخر مؤلفاته الموسيقية ، وعن باتيال وبايدوبار ولا باث ، حيث كان والده يمتلك مزرعتين للأرز . كما دعاه لزيارته فى أسرع وقت ، وهكذا كان الأمر . وعندما كان الكاتب مانويل ثبالا أوليبا طبيباً فى لا باث (صديقهما المشترك الذى أعد ترتيبات لقائهما ، كما أنه قد التقى بجارثيا ماركيز فى بايدوبار منذ بضعة أشهر) ولم يتوان جارثيا ماركيز فى العودة إلى عاصمة إلتيسار ، وأقام فى منزل والدى رفاثيل إيسكالونا .

ويوجد نوع من الغموض بالنسبة للسنوات التى قام فيها الكاتب بهذه الأسفار الأساسية فى قرى ماجدلينا وإلتيسار ولا جواخيرا ، وهذا الغموض لا يتولد فقط لندرة وضعف المصادر (إنها اللحظات الأقل توثيقاً فى حياته) بل أيضاً لنفس التأكيدات المتناقضة التى كان يدلى بها جارثيا ماركيز هنا وهناك^(٢٠) ، إن معظم الدارسين يشيرون إلى رحلة أو رحلتين وينفون أن تكون هذه الأسفار كثيرة ومتعددة ، وهى التى يمكن توثيق بعضها بصورة مباشرة أو غير مباشرة لن تتعدى الخمس رحلات . وأولها هى التى قام بها فى أواخر ١٩٤٩ أو أوائل ١٩٥٠ إلى بايدوبار ولا باث بدعوة من مانويل ثبالا أوليبا الذى كان يبحث عن قرية على الحدود تنقذه من الاضطهاد السياسى ، وقد عُين طبيباً فى هذه القرية^(٢١) . أما الرحلة الثانية ؛ فقد كانت إلى بايدوبار فقط حيث قام بها تلبية لدعوة من إيسكالونا بعد بضعة أسابيع من تعارفهما فى بارأنكيا فى عام^(٢٢) ١٩٥٠ . ويرفقة عازفى الاكورديون ومنغمسين فى تلك الأغانى الشعبية التى ذكرناها من قبل (لوس باسيوس دسونس وميرينجيس قام الصديقان على مدى أسبوع بزيارة بايدوبار وقراها ونجوعها لجمع الحكايات والنوادر والأساطير ، فضلاً عن زيارة الشخصيات الأسطورية بالمنطقة ، وبعضها كانت تشكل جانباً من ذاكرة الكاتب التى كان يعرفها

منذ طفولته من خلال حكايات وقصص عماته وجدته . ولكن معظم الوقت قضاه فى منزل مضيفه رفائيل إيسكالونا يستمع إلى قصص وحكايات العجوز كليمنتى إيسكالونا الذى كان عقيداً مثل جد الكاتب فى "حرب الألف يوم" . حينئذ عاد حفيد العقيد نيقولاس ماركيز يستمع إلى نفس النواذر عن القائد الليبرالى الأسطورى رفائيل أوريبى أوريبى نفس قصص الشجاعة والتضحية للمحاربين فى معارك ريو هاتشا وكاراتوا وإيلبانكو وشيناجا وآلام مئات الجرحى فى مستشفى الإسعاف والطوارئ ، ونفس الشكاوى من ذلك المعاش المنتظر معاش التقاعد والذى لم يتقاضاه أى من المحاربين القدامى رغم انتظارهم خمسين عاماً تقريباً بعد خوضهم تلك الحرب بين الأشقاء . إن معنى الشرف لدى إيسكالونا ، وعدم الارتشاء السياسى لهذا الليبرالى العجوز الأصيل ومظهره النبيل والمتكشف لم تجعل جارتها ماركيز يسترجع صورة جده ؛ بل أيضاً إلى تعزيز تلك الصورة المثالية التى ستنبثق عنها شخصية "العقيد لم يجد من يرأسه" (٢٣).

وقد أفادت هاتان الرحلتان إلى بايدوبار وقراها فى تعزيز الفضول لدى الكاتب لى يتعرف على أرض الأغاني الشعبية (لوس بايناتوس) وكذلك لتتبع مسيرة أجداده ، ويرى بنفسه مسارح حرب الألف يوم ، وليجد خيوط الأوقات المفقودة . ولهذا فبعد تركه لصحيفة الهيرالد (بمجرد أن انتهى من سداد دينه لفوينمايور أى الستمائة بيزو) ، وبعد أن جرب حظه كناشر وصحفى مستقل مع صحيفة كومبريميديو الصغيرة التى أغلقت بسرعة عاد إلى بايدوبار ولا باث وماناورى ، وقرأ أخرى مجاورة فى أول جولة متأنية استغرقت عدة أشهر يمكننا تحديد وقتها على وجه التقريب فيما بين أكتوبر أو نوفمبر عام ١٩٥١ إلى أوائل فبراير عام (٢٤) ١٩٥٢ . وكان يرافقه فيها دائماً كشريكين وراعيين رفائيل إيسكالونا وثباتا أوليبيا وخاصة إيسكالونا الذى كان يعرف جيداً منطقته ، كما كان ملحناً شعبياً ، وقد تجول جارتها ماركيز بهذه الأماكن شبراً شبراً وسجل ملحوظات غزيرة لا تُحصى ، وهو يعى تماماً أنه يكتشف جنود نفسه المتناهية فى العمق لإنتاجه المستقبلى .

وقد رأى فى ماناورى نفس القرية بشارعها الوحيد الطويل ، وكان قد عرفها وهو طفل من حكايات الأسرة وهى كائنة فوق مضبة خضراء جداً يحيطها صمت وسكون يمتدان لألف عام ، حيث أخذت والدته تنسى حب موظف برق أراكاتاكا (أى والد جارتها

ماركيز) وحيث ولدت ريبكا بوينديا الطفلة الشريرة التي وصلت إلى ماكوندو ، وهي تحمل في جوال عظام والديها وجراثيم وباء الأرق. وفي لا باث - مثل بايدوبار- ظل يبحث ويكتشف مصير أجداده والعقدها الذين شملهم النسيان ويجمع الأساطير والخرافات إلى جانب تسليته مع الموسيقيين المحليين ، الذين كانت أغانيهم الشعبية تحكى المفاخر والبطولات الحربية والغرامية على غرار القصائد الشعبية الإسبانية. وكان ذلك هو الذى فتنه وأسرته فى لا باث : ففي قرية ذات مزارعين هادئين اكتشف منبت الموسيقى الشعبية للبايناتا فى حالته الخام أو البكر^(٣٥) ، فهناك أكثر أساتذة العزف على الاكورديون مثل الشقيقتين خوان ودا جوييرتو لوبيث ، كما كان هناك الكثيرون الذين غنّوا ولحنوا هذه الأغاني الشعبية المتنوعة كأمر طبيعى ويومى. ويتذكر مانويل ثباتا أوليبيا - كطبيب لعازفى الاكورديون ، كما كان أيضاً وجدانهم النظرى - يتذكر أن جارثيا ماركيز كان مسروراً فى هذا الفردوس للموسيقى الشعبية مستمعاً ومغنياً لهذه الأغاني فضلاً عن العزف على الطبل، وينفس السرور ، وينفس العزم - للبحث عن المواد الموسيقية الخام - أعاد الكرّة فى العام التالى عندما عاد إلى المنطقة كبائع للموسوعات والكتب الفنية بالتقسيم.

وبانتهاء هذه الجولة عاد إلى بارأنكيا ، وإلى صحيفة الهيرالد لكى يستأنف كتابة عموده " الزرافة" فى الثامن من فبراير ١٩٥٢ ، فخبرة السفر حركت فى نفسه الاشتياق لكتابة تحقيقات صحفية ولممارسة الصحافة التى كان تواقاً دائماً لممارستها ، وفكر فى استخدام المادة التى جمعها لكتابة تحقيق كبير. كما فكر منذ عام مضى فى كتابة تحقيق عقب اغتيال صديقه كايثانو جنتل تشيمينتو. ومع ذلك سرعان ما أدرك أن خبرة السفر تجاوزت بكثير أمر كتابة مجرد تحقيق صحفى، فالأمر يتعلق بجنوره وأصوله ، وبذاكرته فى مرحلة الطفولة. وترك ذلك كمادة أدبية خام لقصته المنزل تلك القصة الكبيرة ذات السبعمئة صفحة التى فكر فى الانتهاء منها خلال عامين^(٣٦). كان الكاتب يعتقد ذلك. وحقيقة عاد إلى قصته الأولى لكى يكملها ، ولكن بعد شهر أى فى الأسبوع الأول من مارس عاد مع والدته إلى أراكاتاكا لبيع منزل جدّيه^(٣٧): إن هذه الرحلة فضلاً عن سفره اللاحق إلى لا جواخيرا كانا لهما أكبر الأثر فى تحديد مدى وإطار العمل الخيالى.

وبعد وفاة الجدين والعمّات ظل منزل أراكاتاكا وحيداً تحت تصرف الأعشاب الضارة والأشباح . وكانت أسرة جارثيا ماركيز قد أجرتة لأسرة أكونيا كوستا لوالدى زوج معلمته التى علمت القصاص القراءة ، ولكن بمرور الوقت نسي هؤلاء سداد قيمة الإيجار، كما أن الحالة المادية لأسرة جارثيا ماركيز تفاقمت مع انتقالهما مؤخراً إلى قرطاجنة. حينئذٍ قررت الأسرة بيع المنزل مقابل سبعة آلاف بيزو إلى زوجين مزارعين فقيرين للغاية كانا قد كسبا اليانصيب مؤخراً. وبهذا المبلغ شيدت أسرة جارثيا ماركيز منزل قرطاجنة الكائن بين حى بيه دى لا بويلا ولو أماور.

وعندما كانت لويسا سانيتاجا تتوجه إلى أراكاتاكا قادمة من قرطاجنة التقت مع نجلها فى بارأنكيا الذى كان قد وصل لتوه من بايديوار، وبما أنه كان قد هيّج شياطينه القدامى قرر مرافقة والدته. وقد استقلا اللنش حتى ثيناجا ، حيث التقيا بلويس إنريكي الذى استقر مؤخراً هناك موظفاً بوزارة الزراعة وواصل رحلتهم إلى أراكاتاكا فى نفس القطار الصغير الذى كان الكاتب يراه فى طفولته يوماً كل صباح.

وعندما وصلا إلى المحطة كان قيظ شهر مارس فى ذروته وشرعا فى التجول بشوارع أراكاتاكا المتربة باحثين عن ظل أشجار اللوز ونبع الحياة ، وهو ظل لا جدوى منه لشدة القيظ. وكان جارثيا ماركيز قد غادرها وهو فى العاشرة أو الحادية عشرة من العمر، ولما عاد وجد كل شيء كما هو ، ولكنه فى الوقت نفسه متدهوراً بعض الشيء^(٢٨) فمن ناحية ، أراكاتاكا لم تتغير كما كانت فى طفولته نفس محطة القطار ، ونفس مدرسة مونتسورى بين أشجار المانجو ، ونفس المساقى، الشوارع ، وأشجار اللوز المتربة، ونفس منازل الزنك الذى أصابه الصدأ ، ونفس المحلات والكاتينات الفقيرة ، ونفس الناس الحزانى. ومن ناحية أخرى بدت له الشوارع كأنها أضيق مما كان يعتقد ، والمنازل أكثر قديماً ، وأقل ارتفاعاً مما كان يتذكره ، وأشجار اللوز أكثر عراقة وملينة بالتراب ومختلفة تماماً عما اختزنته ذاكرته ، كما أن عالم النواصى الأربع لم يكن واسعاً فسيحاً بهذا الشكل ، كما كان فى ذاكرته، كما لم يكن برج الكنيسة التى عمّده فيها عالياً لهذه الدرجة ، كما أن الأطفال الذين تعلم معهم الحروف الأولى فى مدرسة مونتسورى أصبحوا الآن رجالاً فى الخامسة والعشرين من عمرهم مثله تماماً ، ولكن معظمهم ليس له مستقبل ، ولا طموحات ، وكثير من أهل

البلدة دمرهم الفقر ، وأجهزت عليهم الوحدة ، والرجل فظيع الهيئة الذى كان يخيفه فى طفولته أصبح هَرِمًا نحيفًا بلا أسنان منزويًا فى أرجوحة نومه ، وعلى وجه الخصوص منزل جديه الرحب الفسيح الرطب العليل الهواء حيث وُلِدَ الكاتب أصبح فردوساً من الأطلال ، أصبح كاريكاتيراً ممسوخاً لما كان عليه من روعة وبهاء خلال صباه. لقد دمرت أرواح الزمن الشريرة المنزل و أراكاتاكا مقارنة بما ارتسمت فى ذاكرته بروعتها وبهائها. وهذا الزمن الذى أصاب أراكاتاكا ومنزل جديّ لم يتعد أربعة عشر عاماً وهى التى عاشها جارثيا ماركيز فى بارأنكيا وثيباكيرا وبوجوتا وقرطاجنة ومرةً أخرى فى بارأنكيا: وخلال تلك الفترة أصبح جارثيا ماركيز كاتباً واكتسب ثقافة ومنظور المدينة الكبرى.

وعندما وصلا إلى الناصية حيث منزل الجدين فى شارع مونسنير إيسبيخو توقفا أمام صيدلية الطبيب الفنزولى أنطونيو باربوسا. وخلف المنضدة كانت زوجة الطبيب تحيك الملابس عل ماكينة خياطة على الرغم من شدة الحر. وقد حيتها لويسا سانتياجو بعبارة مقتضبة " كيف حالك يا أمي؟ " بعد اضطراب أدريانا بيردوجو تعانقت السيدتان وبكىتا فى صمت، ولم يقلوا شيئاً أكثر من ذلك ، بل انهمرت دموعهما فى صمت^(٣٩). وفى هذه الأثناء سُمِعَ سُعال خفيف متكرر خلف ستارة بداخل الصيدلية: لقد كان سُعال الطبيب العجوز أنطونيو باربوسا. وقد أجلس الدكتور باربوسا الكاتب إلى جواره، وحكى له على مدى عدة ساعات كل ما حدث فى القرية منذ رحيله. وقد تساءل جارثيا ماركيز عما إذا كان ما كتبه حتى الآن له علاقة مع ما حكاه له الدكتور باربوسا الصيدلانى العجوز ، ومع ما كان يراه حوله وخاصة ذلك الزمن الذى انقضى. وكانت هذه هى المشكلة الرئيسية: "لقد انتابه الإحساس بأنه ترك الزمن خلفه" وأن ما كان يفصله ويبعده عن القرية لم تكن المسافة بل الزمن^(٤٠) ، وهذا الزمن المنصرم زمن الطفولة والجدين كان بمثابة لب إنتاجه القصصى المبتدئ ، ولكن بشكل غير ناضج وفوضوى.

وبعد منزل جديّ كانت صيدلية الدكتور باربوسا أحد الأماكن الرئيسية فى ذاكرة الكاتب: فقد كان المنزل الذى تزاور فيه والداه عن بُعد وتبادلا أيضاً الرسائل الغرامية أثناء فترة الخطوبة المحظورة ، وكان المكان الذى تعلم فيه الأسماء الأولى لبعض الأنوية ، وقد كان هذا المنزل بمثابة بيته الثانى ، والآن سيصبح المكان الذى سيضع فيه نهاية لواحدة من أهم تجارب مسيرته الأدبية: الإثبات القاطع الذى تبلور بهذا العناق بين

والدته وزوجة الدكتور باربوسا ؛ هذا فضلاً عن الدردشة الطويلة مع الصيدلانى حيث إن هناك هوة بين الكاتب و أراكاتاكا ؛ هوة حفرها الزمن ويصعب تفاديها ، وإن إنتاجه الأدبى كان فى حاجة إلى إعادة توجيه من جديد اعتباراً من هذا الإثبات أو البرهان.

وبالطبع كان الأمر كذلك، ولكن القفزة النوعية التى سيسجلها عمله القادم (بما فى ذلك كتابته الرابعة لقصة " الورقة الساقطة ") لم تكن مرتبطة فقط بعودته لأراكاتاكا ، بل أيضاً بالأسفار الأخرى التى قام بها الكاتب. إن هذه الخبرات هى التى أمدته بالعمق الزمنى والمكانى الذى افتقر إليهما فى قصة المنزل ، أى الأفكار الكبيرة الراسخة فى طفولته والتى كانت ستحدث تغييراً نوعياً فى عمله الصحفى ، كذلك جعلته رويداً رويداً أكثر روائية وحيوية وأقل تأملاً وركوداً وجموداً (كما يتأكد ذلك من عموده "الزرافة" شىء أشبه بالمعجزة والتحقيق الموسع " دولة على ساحل الأطلسى").

وإذا كان جارثيا ماركيز قد مجّد من جديد عودته إلى أراكاتاكا ، واعتبرها الخبرة والتجربة الحاسمة لمسيرته الأدبية ؛ فإن ذلك مرجعه إلى الانطباع الكبير الذى نجم عن تلك العودة وإلى إطار التفكير والضبط الذى قدمته له تلك العودة. ولذلك - فعلى سبيل المثال - فى سبتمبر ١٩٦٧ ، وفى جامعة الهندسة فى ليما اعترف لصديقه الجديد ماريو بارجاس يوسا أنه اعتباراً من تلك العودة واعتباراً من ذلك العناق الطويل الصامت بين والدته وزوجة الدكتور باربوسا فى الصيدلية عنّ له أن يحكى كتابةً كل الماضى فى تلك الواقعة^(٤١) ، مما يفهم منه أنها كانت البداية الحقيقية لإنتاجه الأدبى. وبعد ذلك بستة عشر عاماً سيكون الكاتب أكثر وضوحاً فى مقابلة مع مجلة بلاى بوى: " أدركت فى ذلك اليوم أن جميع القصص التى كتبتها حتى ذلك الحين كانت ببساطة شديدة أعمالاً أدبية، ولم يكن لها أية صلة بالواقع"^(٤٢).

والحقيقة أنه لم تكن له - فى ذلك الحين - فكرة سرد الماضى بأكمله كتابةً لتلك الواقعة ، كما لم يكن كل ما كتبه حينذاك - ببساطة شديدة - أعمالاً أدبية فواقع الأمر أن محاولة الشروع فى السفر إلى الجذور لاستعادة الزمن المفقود وقت الطفولة ، ومزمل جديّه ونفس جديده كانت قد بدأت - كما رأينا- قبل ذلك بخمسة أعوام مع عمله " الاستسلام الثالث " ، والحكايات الأخرى فى " عيون كلب أزرق" قد استكملت بفصل

عودته إلى الكاريبي وإلى قراءته لفوكنر ، وباستحالة كتابته "للمنزل" ، وبعد أن حقق نجاحاً جزئياً في كتاباته الثلاثة الأولى لـ "الورقة الساقطة". إن ما حدث وهو لا يزال يشحذ أسلحته الخاصة وهو لا يزال منبهراً بالكتاب الذين كان يقرأ لهم (فوكنر وفيرجينيا وولف وسوفكليس) ، وكونه لا يزال يفتقر للمنظور الكافي للتطرق إلى عالم الطفولة لم يستطع جارثيا ماركيز حتى ذلك الحين إعطاء رواياته الأولى الاستقلال الذاتي والرجحان الكاملين ، ولذلك فعند عودته إلى أراكاتاكا بدا له (فى واقعة ظلم مع نفسه) أنه لم يعد بعيداً عن الكتابة الجادة ، وأن ما كتبه حتى تلك اللحظة " كان بعيداً كل البعد عما أراه هنا " ، وبالتالي كانت تطبيقات أدبية بون أدنى اتصال مع الواقع والزمن الماضى.

إن لحظة الوضوح هذه كانت لحظة قدرية بالنسبة للكاتب لأنها سلحته بصبر لا نهائى وأنارت له الطريق لى يصل إلى المكان الذى بدأ فيه ، والتعرف عليه حقيقةً لأول مرة كما قال إيليوت: لقد كان طويلاً ومحفوظاً بالمخاطر أكثر مما كنت أعتقد. فممنزل جديّ الذى باعاه مؤخراً بسبعة آلاف بيزو كان نقطة الانطلاق والوصول معاً. كان البداية والنهاية لكل شيء حتى " مائة عام من العزلة" على الأقل، ولكن خلف المنزل كانت هناك عدة منازل ، وخلف أراكاتاكا كانت هناك مدن أخرى مثلها ، وخلف الزمن المتوقف والمألوف وشبه اللزج ، والذى جاء جارثيا ماركيز محاولاً إدراجه فى رواياته الأولى كان زمناً آخر ؛ زمناً حيويّاً ومكتنفاً ومتحاوراً ، وقد انتابه الغموض والإبهام من زمن التاريخ وثقافة الساحل: كان زمن الجدّين فى لا جواخيرا ونزوحه إلى بارأنكاس وإلى أراكاتاكا ، إنه زمن "حرب الألف يوم"، إنه زمن معارك ريوهاتشا وثيناجا. إنه زمن فرانتيسكو الأومبرى والأغاني الشعبية (لوس بايناتوس) ، إنه زمن يوليغار الذى مات مهاناً ومضطهداً ومهجوراً ووحيداً فى أبعادية سان بيدرو أليخانوينو ، وأبعد من ذلك كان زمن فرانتيس دراك وهو يعتدى على ريوهاتشا وقرطاجنة فى القرن السادس عشر.

ولذلك ؛ فقد أحس بالحاجة الملحة للتعرف تماماً على لا جواخيرا وتاريخ جديّ، وفى نفس قطار العودة إلى بارأنكيا بدأ يسأل والدته عنهما: ومن هما فى الواقع ، ومن أين هما ، ومتى وصلا إلى أراكاتاكا ، ومن هو ذلك الرجل الذى اضطر جده لقتله فى مبارزة تحدٍ منذ أربعة وأربعين عاماً ، ومن هم فى النهاية الذين أعادوا تأسيس أراكاتاكا إلى جانب أسرة الماركيز دى إيجواران اعتباراً من عام المذنب هالى^(٤٣).

وقد كرّر جارتيا ماركيز من جديد ، وفى وقتٍ لاحقٍ أنه عندما وصل إلى بارأنكيا أخذ يكتب على وجه السرعة "الورقة الساقطة" ، أى أنه هجر مجلده الكبير المستحيل لقصته الأولى ، وبدأ فى طريق آخر^(٤٤). وكما يحدث بكثرة فإن ذاكرته لم تتوافق مع التاريخ الزمنى للأحداث ، لأن هذه القصة لم يكتبها آنذاك بل أعاد كتابتها (للمرة الثالثة)لأنها كُتبت لأول مرة فى منتصف عام ١٩٤٩ ، كما أكد ذلك جوستابو إيبارا ميرلانو ، ويمكن تعضيد ذلك بتحليل بسيط لتطور أسلوب الكاتب. وعلاوة على ذلك: عندما رجع إلى أراكاتاكا منذ عامين كانت القصة قد رُفِضت بعد كتابتها للمرة الثانية من جانب دار نشر لوسادا فى بوينس آيرس^(٤٥).

ومن الواضح أن جارتيا ماركيز أخذ مأخذ الجد هذه المجموعة من الأخطاء ، أو الالتباسات ، ولهذا فإنه فى رسالة إلى خيرمان بارجاس فى أعقاب "مائة عام من العزلة" وقع مرة أخرى التباس آخر عندما أكد خلال نفس الرحلة مع والدته (وهو يحدده دائماً فى عام ١٩٥٠ وليس فى ١٩٥٢ تذكر ضيعة الموز ماكوندو ، وقرّر اختيار اسمها ليطلقه على المكان فى أعماله ، وقد قال فى ذلك: فى الواقع إن اللافطة التى تحمل اسم الضيعة أعتقد أنني رأيتها بالتأكيد عدة مرّات فى طفولتى عند مرور القطار ، ولكننى نسيت ذلك تماماً إلى أن رأيتها من جديد فى عام ١٩٥٠ ،وقد قررت اتخاذها عنواناً لذكرياتى فى أراكاتاكا^(٤٦). وفى المقابلة التى منحها مجلة "بلاى بوى" عاد ليؤكد هذا الالتباس مرة أخرى قائلاً: بالمناسبة خلال الرحلة مع والدتى مررنا أمام ضيعة الموز التى كنت أعرفها منذ طفولتى. وكانت اللافطة التى تميزها مكتوباً عليها ماكوندو^(٤٧). ولا شك أن هذا الاسم كان قد رآه فى طفولته ، ثم شاهده عدة مرات وهو كبير عندما كان القطار يمر بجوار كامايال ، ولم يكن ذلك فى عام ١٩٥٠ عندما استرجع وقرّر استخدامه لأول مرة فى قصته " الورقة الساقطة" ، اللهم إلا إذا كان ذلك عند كتابته القصة للمرة الثانية، ولكن هذا ليس محتملاً لأن جوستابو إيبارا ميرلانو أكد - بذاكرته القوية والمنتعشة والمرتبطة - أنه يستطيع أن يشهد بأنه عندما كان يقرأ " الورقة الساقطة" كانت بها كلمة " ماكوندو" ، أى قبيل يولييه ١٩٤٩^(٤٨) ، عندما كان جارتيا ماركيز لا يزال فى قرطاجنة ، وما لبث أن عاد إلى سوكرى بعد فترة من الالتهاب الرئوى .

وما رآه الكاتب - فى الواقع - عبر القطار فى مارس ١٩٥٢ هى اسم ضيعة انتاج الموز ماكوندو بحروف بيضاء على أرضية أو خلفية سبيكة من الرصاص والقصدير زرقاء مائلة إلى اللون الرمادى ، كان تأكيداً لاختياره عند كتابة " الورقة الساقطة" للمرة الرابعة التى شرع فيها بعد ذلك بقليل^(٤٩). وكانت ماكوندو لسهولة ورخامة وعذوبة لفظها العميق المبهم هى بالفعل الاسم الذى ينبغى أن يحدد مكانه الأسطورى ، الذى أدركه اعتباراً من أراكاتاكا ومن طفولته^(٥٠). ولأن الشكوك قد انتابته ، وكان قد فُكر فى أن ماكوندو ربما ينبغى أن يُطلق عليها بارأنكيا ، ولكن رامون بينيس العالم القطالونى نصحه ألا يستخدم اسم بارأنكيا لأنه اسم مشهور ولا يصلح للأدب ، وسيفقد قصته مصداقية ورجحاناً. وكان بينيس مثل تلميذه الموهوب نصيراً للفكر الجمالى أيضاً للقرية العالمية حيث سيظل كل شيء مُشْفِراً.

وبعد بضعة أيام من رجوعه من أراكاتاكا كتب جارشيا ماركيز رسالة إلى مواطنه جونتاليث "جوج" فى صحيفة الاسبكتادور "المشاهد" ، حيث وصف له فيها حالة الخراب والعزلة التى وجد عليها أراكاتاكا مسقط رأسه: لا زالت هذه قرية متربة مليئة بالصمت والأموات. وربما تكون مضطربة للغاية بعقدائها القدامى الذين ماتوا خلف الفناء تحت آخر شجرة موز ، وكمية لا حصر لها من البكارى ذات الستين ربيعاً قد عفى عليهم الزمن يعرقن من آخر آثار الجنس تحت قيظ الساعة الثانية ظهراً". وأشار بعد ذلك إلى هذا قائلاً: "فى هذه المرة غامرت بالذهاب ، ولكننى لن أعود وحدى مطلقاً ، وخاصة بعد صدور " الورقة الساقطة" ، وبعد أن قام العقدا بآشهار بنادقهم لكى يخوضوا معى حرباً أهلية شخصية واستثنائية^(٥١). وكان قد اعترف له قبل ذلك بأنه يفكر فى طبع قصته بالاككتاب الشعبى. هذه القصة ، ويضع لها كمقدمة تلك النصيحة التى أسدتها له دار النشر بمفهومها الرث التى بعث بها مجلس إدارة لوسادا بعد أن كانت الدار قد رفضتها من قبل .

ولم يتعد المشروع ذلك لأن التصحيح وإعادة صياغة وإعداد الأصول على ضوء الخبرة المهمة للعودة إلى أراكاتاكا جعلته يستغرق وقتاً أكثر مما كان متوقعاً ، ربما لأنه ما لبث أن أدرك أنه - على العكس مما يحدث - ينبغى عليه أن يكتب لكى يحفظ نصوصه فى الدرج ، على أن يخضعها للتصحيح العادى من الجان وطبقاً لنوع أصدقائه الرفيع وشركائه الأدبيين ، أو ببساطة لم ينشر قصته الأولى لأنه لم يجد العدد الكافى من المشتركين فى الاككتاب.

إن الحماس الذى دفع جارثيا ماركيز للعودة مرة أخرى لقصة " المنزل " وإعادة كتابة " الورقة الساقطة " يُستنتج من تضائل أعمدته الصحفية فى " الهيرالد " من فبراير إلى ديسمبر عام ١٩٥٢ . وخلال هذه الشهور فإن الثلاثين أو الأربعة والعشرين عموداً الشهرية خلال السنوات الماضية انخفضت إلى اثنى عشر أو ثمانية أعمدة فقط ، ولم ينشر سوى عمودين فقط فى ديسمبر فضلاً عن فصل كان قد فصله من قصة " الورقة الساقطة " ، " الشتاء " ، وهو الذى سينشر بعد ذلك بخمسة أعوام بالعنوان النهائى " إيسابيل تشاهد هطول المطر فى ماكوندو " ، ولكن فتور إسهاماته فى الهيرالد يفسر أيضاً بالتعب والملل من الروتين من عمل لم يكن له محفزاً ومشجعاً ، لأنه لم يقدم له ما كان يبحث عنه منذ أربع سنوات : تحمس وشحذ أسلحته كصحفى وقصاص ؛ الأمر الذى كان يتوق ويتطلع إليه دائماً . ولذلك ؛ فعندما سُنحت له الفرصة لترك الصحافة هجر الصحيفة والمدينة وهو فى غاية السعادة ، وذهب إلى قرى ماجدلينا وألتيسار ولا جواخيرا كمنسوب لبيع الكتب .

لقد سُنحت له الفرصة هذه المرة ، كما سُنحت له فى مرأت أخر ، وواتته اللحظة المناسبة ، وستظل تواتيه اللحظات الحاسمة ؛ كأنَّ القدر كان يرتب له الأفكار المشتتة لحياته . إنَّ خوليو ثيسار بيجاس المندوب السابق لدار نشر لوسادا ، الذى كان جارثيا ماركيز قد أرسل له بقصته " الورقة الساقطة " فى بوينوس آيرس منذ ثلاث سنوات قد افتتح مؤخراً متجرأ لبيع الكتب بالأجل فى بارأنكيا ، وأقنع جارثيا ماركيز بأن يكون واحداً من مندوبى مبيعاته . هذا البيروانى الجوال كان وزير الحكومة فى عهد الرئيس بوستامنتى إى ريبيرو حتى اضطرت ديكاتورية الجنرال أودريا إلى اللجوء لكولومبيا حيث مارس عدة مهن كرجل أعمال . إنه محاور ممتاز ومفكر ومثقف للغاية . كان بيجاس رجلاً جلدأ وحالماً ومخالفأ للقوانين على طريقة الصعاليك ، فقد كان تواجهه فى بارأنكيا أشبه بالمنفى داخل المنفى ، فقد قَدِمَ من بوجوتا فارأً من اتهامات الاختلاس الخطيرة التى ارتكبها وهو يعمل مندوبأ لدار نشر لوسادا فى بوينوس آيرس^(٥٢) .

وعندما رأى جارثيا ماركيز أنه بوسعهُ أن يكسب مزيداً من المال مع بيجاس أكثر من صحيفة الهيرالد ، خاصة أن حجته كانت قوية فى تلك الآونة ، ألا وهى التوغل بعمق وتأنٍ فى قرى لا جواخيرا حيث قَدِمَ جدأه . ولذلك لم يفكر فى الأمر مرتين . وتنقل من

قرية إلى أخرى فى ديسمبر من ذلك العام^(٥٣) ، لبيدأ عمله الجديد بائعاً للكتب بالأجل. وفجأة التقى بشقيقه لويس إنريكي فى سانتا مارتا وهو يمارس مهنته الجديدة ، حيث ذهباً سوياً إلى ثناجا ، وبدأ الكاتب يعمل فى عاصمة الموز القديمة ؛ نفس المدينة التى قتلوا فيها عمال مزارع الموز فى ديسمبر عام ١٩٢٨ ، وحيث عاش جداه قبل الاستقرار فى أراكاتاكا ، كما جربَ حظه هناك العالم القطلونى رامون بنيس ، الذى ما لبث أن جاء إلى كولومبيا .

وقد وسع جارتيا ماركيز منطقة نشاطه فى هذه المهنة الجديدة ، حيث سافر برفقة شقيقه لويس إنريكي فيما بعد إلى بايدويار ولا باث وماناورى ماراً بجواكاميال وأشبيلية وأراكاتاكا وفونداثيون والكوبى . وقد زار فى هذه القرى المحامين والأطباء والقضاة وكاتبى العدل والعُمد ، وحاول إقناعهم بأن الكتب الفنية من كل نوع وفى جميع أفرع المعرفة - التى كان يُخرجها من حقيبته الكبيرة السوداء - أنها خير حليف لهم فى عملهم اليومى ، وأن الاثنى عشرة ألف صفحة المزودة بالرسومات للعشرة أجزاء للقاموس الموسوعى "أوتياها" كان الأكسير العلاجى لسد ثغراتهم الثقافية. وبالطبع كان خجله ، وقلة خبرته أكبر من عمله الجديد. وعلى الرغم من ذلك استطاع بيع بعض النسخ ، التى لا تمثل شيئاً فى هذه الجغرافية الواسعة. لذلك فبعد أن انتهى الحماس المبدئى بدأ جارتيا ماركيز يشعر فى كل مرة أنه مُتَعَبٌ ومُثَقَلٌ من مهنة الاغتراب هذه كبائع للكتب بالأجل. وعلى العكس من ذلك ، فإن كل الذى كان يهيمه حقيقة من هذه القضية هو التحدث والتحاوُر مع أناس القرية والعُداء القُدامى الذين ظلوا ينتظرون معاشهم الحربى بون جدوى ، وكذل التنزه مع عازفى الاكورديون فى بايدويار ولا باث أو ماناورى إلى جانب رفائيل إيسكالونا ومانويل ثباتا أوليبيا وشقيقه لويس إنريكي.

وعندما عاد لويس إنريكي إلى ثناجا توغل جارتيا ماركيز برفقة رفائيل إيسكالونا ولساندرو باتشيكو اللذين رافقاه على مدى أسبوع فى جميع أرجاء لا جواخيرا حتى ريو هاتشا ، متوقفاً فى قرى جديّة مثل أوروميتا وبيانيويا والمولينو وسان خوان ديل التيسار وفونسىكا وبارأنكاس وتوماراثون وماناورى جواخيرو^(٥٤). أما أوقات الفراغ شديدة الحرارة ؛ فقد قضوها فى فنادق متواضعة يطالعون القصص البوليسية ، وروايات الجيب. وعندما تنتهى هذه القصص يلجأون إلى الموسوعة والكتب

الفنية من عيناته كبائع. وفى بعض هذه الكتب حدثت لجارثيا ماركيز أمورٌ حاسمةٌ فى مسيرته ككاتب ، وفى بعضها الآخر ظل يروى بذور الأسطورة. ويتذكر فيكتور كوهين صاحب فندق ويلكوم فى بايدوبار أن ماركيز كان نحيفاً جداً وشعره مُجعّداً وإذا شارِب رفيع وعينين جاحظتين وخطوات وثيدة متائية ، وكان يتناول طعامه فى الموعد المحدد وبشهوة كبيرة ولكن بقليل من المال. وعند مغادرته للفندق لم يستطع سوى سداد ثلاثة وخمسين بيزو لكوهين من إجمالى مائة واثنين وعشرين بيزو ، وثلاثة وخمسين سنتاً مقابل الإقامة والطعام على مدى عدة أسابيع. وقد ترك له جارثيا ماركيز بعض الكتب من عيناته كبائع كتب فاشل ، ووقع له إيصالاً بالمبلغ المتبقى من الدين ، ونسى الموضوع تماماً. ومع ذلك فإن فيكتور كوهين لن ينساه على الإطلاق ؛ بل احتفظ بالإيصال طيلة ثلاث حقبٍ لكى يريه إياه فى عام ١٩٨٣ أثناء رحلة للأصدقاء وكان جارثيا ماركيز قد فاز قبلها بقليل بجائزة نوبل فى الأدب^(٥٥). ومنذ ذلك الحين ، وهذه المبادرة ستدرج ضمن القصص المحببة على أنغام الموسيقى والأغاني الشعبية (لوس باينانتوس) التى تُشَنَّف أذان الزوار.

ومن المحتمل أن يكون الكاتب قد قرأ مفتوناً فى هذا الفندق إحدى رواياته التى كانت لها أهمية قصوى فى مسيرته الأدبية. فمنذ ثلاثة أشهر ومجلة لايف "الحياة" تصدر باللغة الأسبانية ، وفى بابها الأدبى كانت تُنشر قصصاً لأهم الكتاب الأمريكين فى ذلك الحين. ومن هذا المنطلق كان جارثيا ماركيز وأصدقائه فى بارأنكيا يتابعون هذه المجلة بشغف متزايد. وذات يوم والحر الخانق يحاصر الكاتب تلقى فجأة طرداً من أصدقائه: كان العدد رقم ٧ من مجلة "لايف" بالأسبانية وفيه رواية "العجوز والبحر". إن النص كان يُقرأ بسهولة فى عشرين صفحة من عمودين كبيرين مزوداً بالصور. وفى الصفحة الأولى ظهرت صورة لهيمنجواى شاباً وبلاحية وبشارب وشعر أشمط أشيب ، وخلفها تُرى قرية الصيد الكوبية كوخيمار التى استخدمت نموذجاً للقصة . وكما حدث لجارثيا ماركيز مع نصوص جوهريه انكب على قراعتها ونسى درجة الحرارة التى بلغت الأربعين درجة مئوية فى الظل فى بايدوبار^(٥٦). وكانت هذه القراءة "كعلبة من الديناميت" ، حيث إن تأثير فوكنر وجد ما يعادله. ومن ناحية أخرى؛ فطول القصة والبناء والأسلوب الشفاف عند هيمنجواى زودوا جارثيا ماركيز بعمل مناسب لفحص

الحيل الشكلية للقصة القصيرة ، والتي سيجيدها بأستاذية بعد فترة وجيزة اعتباراً من "رواية غريق" و "العقيد لا يجد من يرأسله" .

وهناك مغامرة قراءة أخرى فى الظاهر أقل أهمية ، ولكنها ذات نتائج حاسمة لمؤلف ماكوننو ، كانت إعادة قراءة "السيدة دالواى" لفيرجينيا وولف ، وهو يطرد الذباب ويهذى من شدة الحر فى فندق آخر ، أثناء تواجده فى إحدى البلدان الداخلية فى لاجواخيرا . فمنذ أن قرأها لأول مرة قبل خمس سنوات مضت فى تورياكو مع روخاس إيراثو وإيباراً ميرلانوفان القراءة الثانية تحولت إلى بوصلة وموديل لا يمكن الاستغناء عنهما أو استبدالهما مثل "أوديب ملكاً" لسوفكليس ، "المسخ" لكافكا أو "صحيفة عام الطاعون" لديفوى. ولكن هذه المرة لم تكن إعادة قراءة القصة كلها هى التى فجرت المعجزة ؛ بل كانت فقررة واحدة فى البداية هى "ولم يكن هناك شك فى أن بداخل السيارة كان يجلس شيء كبير : إنها عظمة كانت تضى خفية فى متناول أيدي سوقية كانت لأول ولآخر مرة على مقربة من ملكة إنجلترا ، رمز الدولة الخالد الذى كان على علماء الآثار الطموحين المجتهدين التحقق من حفريات أطلال الزمن ، عندما لم تكن لندن سوى طريق مغطى بالعشب ، وعندما كان الناس الذين يسيرون فى شوارعها فى صباح ذلك الأربعاء كومة من العظام فى معاصمهم دبل الزواج يغطيهم ترابها ، وتكثر فى أفواههم الأسنان التى نخرها السوس ، وغطتها طبقات الحشو.

وبعد ذلك بعشرين عاماً سوف يعترف بأنه كان يمكن أن يكون كاتباً مختلفاً ؛ بل رجلاً مختلفاً لو لم يستوعب خلال تلك الرحلة المضمون القدرى لهذه الفقرة ، لأنه غير تماماً مفهومه الزمن ، وسمح له بأن يرى فى لحظة واحدة عملية التحلل فى ماكوننو ومصيرها النهائى^(٥٧). وعلاوة على ذلك؛ ولعله لم يعرف ذلك إلى الآن ، فقد تكون هذه الفقرة هى التى أمدته بالأصل البعيد لـ "خريف البطريق" والفصل التمهيدى لرواية "عن الحب وشياطين أخرى". ولكن التباس جارشيا ماركيز يحتوى على حقيقة جزئية. ففى الواقع كانت إعادة قراءة تلك الفقرة إلى جانب خبرة الأسفار إلى بايدوبار ولا جواخيرا والعودة مع والدته إلى أراكاتاكا هى التى فجرت فيه نظرة حيوية ونافذة للزمن الراكد الذى استخدمه فى قصة "المنزل" ، وفى رواية "الورقة الساقطة" ، وفى قصص "عيون كلب أزرق". إن هذه القصص والروايات كانت تتحدث عن شخصيات ووقائع حبيسة أربعة جدران ، وزمن راكد متوقف بون انقطاع وذكريات وحنين واشتياق لأزمة مجردة. ففى

المنزل ذكريات العقيد أوريليانو بورينديا حبس منزل طفولته لم تكن سوى غثاء أو زيد الحنين غير المرتب ، تطفو في خضم الأزمنة الماضية ، ولكنها غير موجودة فعلاً. وفي " الورقة الساقطة " دار الحديث عن أسرة تسهر على جثة ، وأسرة قادمة من الجبال حيث عانت من ويلات حرب غير واقعية لعدم وجود خلفية تاريخية تتوافق مع الزمن.

وبفضل فقرة " السيدة دالواي " وهذه الأسفار بدأ جارثيا ماركيز يتزود بالوعى الأدبي حول الأزمنة التاريخية والأسطورية وحول الحاجة (أو الحتمية إلى ربط ذلك بالزمن الأسرى ، وبث الحيوية في هذه الأزمنة. وكأن الكاتب عندما قرر أن يتجول بنفسه في القرى والطرق التي سار فيها أسلافه كان مدفوعاً من جانب شخصياته التي بدت كأنها هي الأخرى جرّبت ذلك ، ولهذا انتهى به الأمر إلى إدراك أهمية التجوال في الطرق المتربة والجهنمية في بايدوبار وجواخيرا. وكل طريق سار فيه وكل قرية زارها كانت مسرحاً لماضي أسرى وتاريخي مثل بارأنكاس التي عاش فيها أجداده خمسة عشر عاماً ، وحيث وقعت أحداث ساعتها المشؤمة ذات مساء في ١٩ أكتوبر ١٩٠٨ ، أو كاراثوا وريو هاتشا حيث ناضل العقيد نيقولاس ريكارو ماركيز ميخيا في "حرب الألف يوم" ، وهنا وهناك كانت لا جواخيرا دائماً التي ينتمى إليها فرانثيس دراكي والمكتشفون وفرانثيسكو الأومبري.

وبهذا الشكل ؛ فإن أسفاره مع رفائيل إسكالونا ، ولقائه مع ليساندرو باتشيكيو حفيد ميدرانو باتشيكيو روميرو لم تكن فقط اكتشافاً لزمان أجداده وأصول ثقافته الأولية ؛ بل أيضاً كان لقاءً مع أزمنة التاريخ. وفي جذور الجذور كان قد وجد الأزمنة المفقودة مركبة ، وهي التي غدت إنتاجه الخيالي وخاصة في " مائة عام من العزلة ".

وعند العودة إلى بارأنكيا في مايو أو يونيو ١٩٥٣ تم وقف هذه الجولات فجأة ، وكذلك بيع الكتب بالتقسيط ، لأن الوزير البيرواني السابق خوليو تيسار بيجاس قد تم إلقاء القبض عليه وأودع سجن النموذج في بوجوتا. ومع ذلك فإن جارثيا ماركيز القوي ، جارثيا ماركيز المفعم بالقراءات والخبرات والتجارب الشخصية واللاشخصية ، والشخصيات ، والقصص ، والأساطير والخرافات كان قد بلغ نضجه. وبالطبع جاءت بعد ذلك خبرات عظيمة مكلمة. ولكن العنصر الإنساني الأساسي كان متراكماً في ذاكرته وحساسيته. وسيظل الباقي على وجه الخصوص عملية تركيز وتفكير وتسليح أدبي دائم ومحموم.

الفصل العاشر

- العودة إلى بوجوتا
- محرر مقابل تسعمائة بيزو
- رفاق الاسبكتانور " المشاهد "
- كونراد وييدفورد والمجموعة
- روخاس بينيا والديكتاتورية المسيحية
- فى خلية شيوعية
- ناقدُ سينمائى
- " اليوم اللاحق للسبت "
- التقارير الكبيرة
- رواية غريق "
- عُنفُ وديكتاتورية وصحافة
- صدور " الورقة الساقطة "
- إهداءُ معلنُ

عندما عاد جارثيا ماركيز إلى بوجوتا فى أواخر يناير ١٩٥٤ بغية الانضمام إلى صحيفة الاسبكتادور "المشاهد" وصل إلى مطار تيتشو ومعه حقيبة كجوال ، وطردان فى يده سلمهما إلى الشاعر ألبارو موتيس ، لكى يضعهما فى شئمة السيارة: لقد كانا يضممان أصول قصتيه " المنزل " و " الورقة الساقطة " ، وكانت الأخيرة قد شهدت أربعة كتابات أساسية على الأقل ، وكانت مثل روح حزينة تبحث لها عن ناشر. أما الأولى فعلى العكس من ذلك ظلت فى مهدها تنتظر فرصتها ، على الرغم من أننا إذا نظرنا إلى الأمور جيداً؛ نجد أنها وجدت فرصتها لأن مصير " المنزل " لم يكن سوى مشتل أدمى خرجت من أحد ضلوعه بشكل متماسك رواية " الورقة الساقطة " ، ومن الأضلاع الكثيرة الباقية خرجت كلياً أو جزئياً روايات " العقيد لا يجد من يرأسه " ، و " الساعة المشنومة " ، و " جنازة الأم الكبيرة " ، و " مائة عام من العزلة ". لقد كانت بمثابة القصة النهر التى تضمنت وتآلفت منها هذه الأعمال حتى تولد من رواسبها ومن بين طياتها الكثير والكثير.

إن الأصلين كانا يمثلان البداية الراسخة والحافلة بالوقائع لهذا السفر الذى قام به المؤلف إلى العالم الأسطورى لطفولته ولوالديه وجدّيه. ورغمما عنه كانت بوجوتا الأنديزية النائية - من جديد- بعد ستة أعوام من الغيبة هى التى ستمده بالمنظور الكافى لمواصلة هذه الرحلة إلى الداخل التى أثمرت خطوتها الأولى عن " الاستسلام الثالث " منذ سبعة أعوام فى نفس الصحيفة والمدينة ذاتها.

ولكن فى هذه المرة ، وإلى جانب شرف العمل فى صحيفة الاسبكتادور " المشاهد " ، ستمده بوجوتا بالمنظور المتكامل على وجه الخصوص للتفكير والتروى وترسيخ كل التجارب التى عاشها وقرأها وكتبها وتحرى بشأنها ، والتى بلغت ذروتها بالأسفار الأخيرة إلى بايديوار ولا جواخيرا^(١) ، ومع ذلك فإن هذه الفرصة الحاسمة كانت على وشك الضياع لأن جارثيا ماركيز لم يكن يرغب فى ترك بارأنكيا وأصدقائه على الرغم من انتهائه من آخر مغامرة صحفية وجيزة له فى الساحل مع ألبارو ثيبيدا ساموديو رئيساً لتحرير صحيفة " الوطنى " الجديدة.

واستناداً لما قاله ألبارو موتيس وجيرمو كانو ومدير الاسبكتادور " المشاهد " وإدواردو بوردا ، ونائب مدير الصحيفة والمكتشف الأدبي لجارثيا ماركيز فإنهم جميعاً حاولوا فى بارأنكيا إفتكاع الكاتب بالعمل معهم. فموتيس لثلا يصيب الصداً نكاءً وقريحة وعبقرية صديقه بسبب بوهيمية الساحل قال لهم: تعاقدوا معه لكونه جديراً بهذا الأمر ، ولم يتردد هؤلاء حيث قاموا بنشر حكاياته " عيون كلب أزرق " وأثنوا عليها. ولكن جارثيا ماركيز لم يُظهر بالفعل تحمساً كبيراً للعودة إلى بوجوتا ، على الرغم من أنه سيكون محرراً لصحيفة شهيرة. حينئذٍ طلب جيرمو كانو وإدواردو ثلاميا من موتيس إقناعه شخصياً لكى ينضم إلى صحيفتهم ، وكان موتيس مسئول العلاقات العامة بشركة إسو للنفط. وقد ذهب إلى بارأنكيا ودعا الكاتب للحضور إلى بوجوتا ، وترك له تذكرة طائرة ، ولكن جارثيا ماركيز فقد التذكرة ، حينئذٍ أرسل له أخرى عرفاناً بالجميل أكثر من اهتمامه بالعودة إلى العاصمة ، وقد تغلب على خوفه الفطرى من ركوب الطائرة ، وظهر ذات يوم فى أواخر يناير بمطار تيتشو القديم.

وعندما رآه جابرييل كانو صاحب الصحيفة تملكته الدهشة ، ولم يستطع إدراك أن ذلك الشاب القادم توأ من بارأنكيا الذى يرتدى ملابس ذات ألوان فاقعة، والشارب والعينين الجاحظتين والشحوب والنحافة المفرطين هو الكاتب الذى تحدث عنه ألبارو موتيس وإدواردو ثلاميا اللذان كانا يساندان ويشجعان رواياته ومقالاته الصحفية ، حينئذٍ صبَّ العجوز كانو كل حيرته على ألبارو موتيس قائلاً له: عجباً ياسيد ألبارو هل ذاك الفتى يتمتع بذكاء خارق؟. ولكن مظهره ..ياإلهى ! .. ولكن موتيس بدد شكوكه فى الحال قائلاً: إنه أفضل عامل سيكون فى هذه الصحيفة لأن حضرتك ليس لديك عاملٌ مثله ويعد ذلك ببضعة أيام استدعاه إلى مكتبه وقال له: اسمع ياسيد ألبارو إن حضرتك على صواب تماماً: إن هذا الفتى درجة أولى ، ألف شكر^(٢).

وفى ذلك الحين ظلت مكاتب صحيفة الاسبكتادور " المشاهد " فى الطابقين الأول والثانى من المبنى بشارع خيمينيث دى كيسادا قريبة من منافستها "الزمن" بالفعل فى القلب السياسى للدولة. وفى الطوابق العليا من هذا المبنى كانت مكاتب شركة إسو للنفط حيث يعمل ألبارو موتيس. وفى الأيام الأولى جلس جارثيا ماركيز فى مكتب

صديقه انقاء لشدة البرد والوحدة. ومن حين لآخر كان يكتب مقالاً تلبية لطلب مديري صحيفة المشاهد. وكان الشقيقان كانوا على يقين من زكائه ونبوغه ككاتب ، ولكنهما لم يجرؤا على التعاقد معه حتى يتأكدوا من مواهبه كصحفي. وعندما فكر جارثيا ماركيز في العودة إلى بارانكيا عندما شعر بصعوبة إمكانية الحصول على وظيفة ثابتة عرضت عليه الصحيفة عقداً كمحرر مقابل تسعمائة بيزو شهرياً^(٣). كانت ذروة المجد الاقتصادي في حياته. فالآن يستطيع العيش بمزيد من الراحة والهدوء ، ومساعدة والديه وأشقائه بشكل أفضل ، وكانوا يعانون من ضائقة مالية منذ ثلاث سنوات في قرطاجنة. وبالتالي استطاع ترك منزل والدة موتيس في أوساكن والاستقرار قريباً من الصحيفة في لوكاندا قابلة فرنسية ، وهي اللوكاندا التي كانت قد نزلت بها إيبيا بيرون خلال فترة عملها كراقصة.

وبين هذه اللوكاندا ومكتب موتيس وصالة التحرير بالصحيفة وصالات السينما بالمدينة استطاع جارثيا ماركيز أن يقضى ثمانية عشر شهراً عمل خلالها كاتباً للمقال الافتتاحي ، ومعلقاً سينمائياً ومحققاً صاحب نجومية في هذه الصحيفة المسائية في بوجوتا.

وكانت صحيفة الاسبكتادور "المشاهد" تطبع في ذلك الحين خمسة وسبعين ألف نسخة في الطبعة الواحدة ، وكانت الجريدة الثانية بعد صحيفة "الزمن" ، كما كانت أقدم صحيفة بالمدينة: فقد تم تأسيسها في ميدياين في أواخر القرن التاسع عشر بواسطة أسرة كانوا. وكانت مثل منافستها تحكمها المبادئ الليبرالية الديمقراطية ، ولكنها كانت تختلف في أنها احتفظت بهامش نسبي من الاستقلالية إزاء حكومة الأقلية العلمانية ، في الوقت الذي كانت تبحث فيه جاهدة لضم الشبان الجدد المبدعين في مجال الصحافة والأدب. وكان معظم محرريها والمتعاونين معها من المفكرين والكتاب التقدميين أو اليساريين المتخفين تقريباً. وقد استفاد كاتب أراكاتاكا الشاب من هذين الطرفين الحاسمين ، حيث كان يتمتع بحرية التعبير في الصحيفة. أما قريحته ونبوغه فقد تكفلا بالباقي: اكتساب مزيد من المساندة والثقة يومياً من جانب رؤسائه وزملائه.

وكما كان يحدث له دائماً لكي يصل إلى ما وصل إليه كاتباً شهيراً مرموقاً ، فإن جارثيا ماركيز لم تسبقه الطبول الخاصة عندما انضم إلى صحيفة الاسبكتادور

"المشاهد". فعلى الرغم من الشهرة التي منحتها إياه رواياته المنشورة في الصحيفة على مدى سبع سنوات في البداية لم يكن رجلاً مرثياً بين محرريها ، ويتذكر خوسيه سالجار رئيسه في تحرير الصحيفة أن علاقته معه لم تتعد مثيلاتها مع جيرمو كانو وإدواردو ثلاميا بوردا (أوليس) ومواطنه جونتالو جونتاليث (جوج) . ومع ذلك رويداً رويداً فرض الصحفي الخجول شخصيته الساخرة وأسلوبه في الصحيفة ، وخارجها حتى أصبح محققها اللامع والنجم الساطع. وكانت علاقاته الإنسانية والمهنية مع رؤسائه دائماً على درجة كاملة وممتازة. فقد كان جيرمو كانو مديراً خجولاً بسيطاً ومُكزماً في نفس الوقت ، حيث أمده بكل أنواع المساندة (وإن لم تكن كافية دائماً على الصعيد المالي) إلى صديقه ومحرر الطابق. كان خوسيه سالجار رئيس التحرير - الذي لا يكل ولا يمل - يعمل يداً بيد مع جارثيا ماركيز طوال أربع وعشرين ساعة تقريباً ، وكان سالجار خبيراً محنكاً في الصحافة ، لكنه لم يكن يُولى أى اهتمام للجانب الأدبي أو المغامر ، وذات يوم تجرأ وأوصى جارثيا ماركيز بالتخلي عن النزعة الأدبية، وأن يلوى رقبة طائر الأدب من أجل الصحافة^(٤) ناسياً أن قريحته الأدبية هي بالتحديد التي كانت تعضد إلى درجة كبيرة إنتاجه الصحفي. وكان ذلك واضحاً - على العكس من هذا - دائماً مع رئيسه الآخر وأستاذه إدواردو ثلاميا بوردا نائب المدير ، وهو رجل نظراً لقريحته وقدرته الفائقة على العمل وإلهامه الخاص ككاتب وصحفي ، فضلاً عن ثقافته الواسعة كان كياناً جديراً بالتوقير والتبجيل بالصحيفة ، وليس ذلك فقط بسبب التقارب الأدبي ؛ بل أيضاً بسبب التشابه الجسدي مع جيمس جويس . كان ثلاميا بوردا ينشر على مدى سنوات طويلة عموداً باسم مستعار " أوليس " تطرق فيه إلى كافة الموضوعات الثقافية والأدبية. وكان هذا العمود طبقاً شهياً لنيذاً يتنوقه يومياً قرأوه بصحيفة الاسبكتاتور " المشاهد " وخاصة الكتاب الشبان. وكما رأينا ؛ فقد كان بالنسبة لجارثيا ماركيز أكثر من هذا بكثير ، فقد كانت قراءته أحد الدوافع التي حفّزته على كتابة أول قصة له " الاستسلام الثالث " . وكان في نفس العمود " المدينة والعالم " حيث أعلن ثلاميا بوردا بعد ثلاثة أيام من نشر القصة الثانية لجارثيا ماركيز: إنه مع جارثيا ماركيز ولّد شيء أشبه بالعبقريّة المستقبلية للأدب الكولومبي.

وعندما جاء جارثيا ماركيز إلى صحيفة الاسبكتاتور " المشاهد " كان ثلاميا بوردا يتمتع بالشهرة بوصفه مؤلف رواية "أربع سنوات على عاتقي" ، وهي القصة الشعرية

التي استقاهها من أحشاء مدينة لاجواخيرا . كان ذلك خلال حقبة الثلاثينيات التي شهدت أعمال البحث والتحري فى الإقليم الذى عاش فيه جداً جارثيا ماركيز وهى الفترة التي حاول فيها إدواردو ثلاميا أن ينتحر بتصويب رصاصة فى مقهى روما بمدينة بارأنكيا .

ولحسن الحظ فإن روايته الوحيدة سمحت له بتصفية حساباته مع ماضٍ عاصف ، ومنحته الحكمة والمعرفة والعادات والتقاليد لأستاذ مخضرم ومحنك . وهذا ما كان يعرفه جارثيا ماركيز وحده عندما اتصل به هذا المكتشف الذى كان بمثابة والده الأدبى ، ولكنهما كانا قبل كل شيء صديقين وزميلين فى نفس المركب . وعلى الرغم من أنهما كانا صديقين فى بارأنكيا عندما كان جارثيا ماركيز يتعاون مع صحيفة الهيرالد حيث كانا قد تعارفا فى أواخر حقبة الأربعينيات فى بوجوتا بواسطة جونتالو جونتاليث (جوج) مواطن جارثيا ماركيز وقريبه من بعيد . وفى هذه الفترة الجامعية جاء جارثيا ماركيز مع صديق له لى يقدم أول قصصه ، ولكن خجله كان مريعاً ، ولم يجرؤ على الصعود إلى الصحيفة ، وأرسل صديقه بالقصة ، وظل ينتظر على ناصية شارع خيمينيث دى كيسادا عند التقائه بشارع ٧ ، عندما نزل (جوج) ليدعوه للصعود لى يقدمه لثلاميا بوردا ، فوجده فتى حزيناً نحيفاً شاحباً على وشك أن يذوب فى ضوء النهار واقفاً على الناصية بشارع خيمينيث دى كيسادا ينتظر على استحياء ما ستسفر عنه الأحداث^(٥) .

ومنذ ذلك الحين وثلاميا بوردا وجونتالو جونتاليث أصبحا الراعيين والرفيقين لجارثيا ماركيز فى الصحيفة ، وقد كانت تربطه بالثانى منهما قرابة بعيدة ، ورائحة الجواقة مثل القصاص تماماً . ولد جوج فى أراكاتاكا ، وقد تعلم فى بارأنكيا ، وكان عضواً متعاوناً فى مجلة " النبأ " ، وكان مدافعاً عن حقوق السُجناء السياسيين ، وانتهى به الأمر إلى أن يكون صحفياً بارزاً بجريدة الاسبكتاتور " المشاهد " . ولكنه خلافاً لما كان عليه مواطنه جارثيا ماركيز كان جونتالو جونتاليث (جوج) عداءً وطنياً وبطلاً فى الشطرنج ، وأنهى دراسته فى كلية الحقوق ، وأصبح أستاذاً للصحافة . ومتلمفاً فعل جارثيا ماركيز فى صحيفة الأونيفرسال (العالمى) مع الشاعر والرَّسام هيكتور روخاس إيراثو سيكر ذلك مع جونتالو جونتاليث بتبادل الرأى فى المقالات ، حتى بلغ به الأمر

إلى اختراع اسم مستعار لكى يقوم جوج فى عموده " أسئلة وأجوبة" بالرد على مخاوفه المتنوعة عن المؤلفين والكتب^(١).

وهكذا ؛ فإن الجو العام فى ذلك الحين داخل الصحيفة المسائية فى بوجوتا قد ساعد على تعميق الصداقة والمشاركة ورقى الذوق المهنى الذى وجدته فى صحيفة الأونيفرسال " العالمى" وفى الهيرالد. وبمرور الوقت انتشرت الأسطورة بأن جارثيا ماركيز عاش فعلاً فى صحيفة الاسبكتادور " المشاهد" طيلة الثمانية عشر شهراً التى عمل فيها بالصحيفة. ومع ذلك فقد ظل على علاقة مكثفة مع أصدقائه ، ومع الأدب خارج الصحيفة . ويذكر خوسيه سالجار أن جارثيا ماركيز كان يصل أحياناً إلى الصحيفة فى الصباح وتحت عينيه سواد وشحوب بالوجه كالمهملين طوال الليل ، وذلك لأنه كان يقضى معظم الليل فى بوجوتا فى كتابة القصص ، وقراءة الكتب التى يشتهيها أو فى بعض الليالى الحمراء التى كان يقيمها من حين لآخر مع أصدقائه الساحليين من أصدقائه القدامى فى بوجوتا.

وعلى الرغم من أنه استرجع فى هذا الوقت بعض أصدقاء السنوات الجامعية قبل أحداث بوجوتا الخطيرة ؛ مثل جونثالو مايارينو ولويس بيار بوردا ، كما صادق الكثيرين من الوسط الصحفى والأدبى ، وتكثفت لقاءاته مع ألبارو موتيس ونانسي ولويس بيتشس أحد مؤسسى نادى السينما فى كولومبيا ؛ فكل هذا كان بمثابة ضرورة يومية ملحة لجارثيا ماركيز ، وخاصة لقاءاته مع موتيس ، لأن تلك اللقاءات كانت تعبر عن صداقة الجوار الخالد الممتد عما كان كلاهما له مدافعاً ونصيراً وخاصة أمور الحياة ، وهذا التتابع يوماً تلو الآخر فى بحر الحياة. وعلى الرغم من أن ذلك يبدو غريباً فإن صداقة موتيس بجارثيا ماركيز ينبغى أن تكون صداقة أكثر تدفقاً على الصعيد الشخصى منها على الصعيد الأدبى ، ولكن على أية حال كان موتيس بين كل حديث وآخر ، وكل كأس وكأس أخرى ، وبين كل حفلة وحفلة يجلس صديقه فى مملكة الموسيقى الكلاسيكية ، ومع صفحات ديكنز وكونراد الخصبه بادئاً بذلك أستاذية سرية تقريباً كان يمارسها شاعر كويو على قصاص أراكاتاكا. وبعض الأمور المشتركة فى الحياة جعلتهما يتعديان حدود الصداقة والشراكة الشخصية. وكان من بين الأمور المشتركة الخالدة وفاة المليونير الأمريكى بيدفورد فى بارأنكيا فى العام السابق.

وكان بيدفورد عبارة عن نسخة طبق الأصل من جسد هيمنجواي ، قد وصل في ذلك اليوم قادماً من نيويورك على متن طائرته الخاصة كمندوب لشركة ستاندرد أويل ، وقد عُهِدَ إلى ألبارو موتيس شاعر الأقليات ومسئول العلاقات العامة في شركة إسو النفطية بأن ينظم حفل استقبال له على أعلى مستوى ، ولكي يضيف مزيداً من الديكور على الحفل دعا موتيس الصحفيين وبعض أعضاء جماعة بارأنكيا مثل جارثيا ماركيز وفوينمايور وخيرمان بارجاس ، ولكن الموت لم يمهل المليونير الأمريكي الرائع حيث وافته المنية إثر سكتة قلبية تركته بلا حراك وسط غائطه وبرازه ، في إحدى غرف فندق براو. حينئذ تلقى ألبارو موتيس التعليمات من رئيسه بضرورة إخراج المتوفى من الفندق في أسرع وقت ممكن ، وإعادته إلى نيويورك في الليلة نفسها. وبما أن الإجراءات البيروقراطية جعلت من المستحيل تنفيذ ذلك ، فقد اتصل موتيس بجارثيا ماركيز وفوينمايور لمساعدته في هذه المهمة الشاقة، وذلك بالحصول على إعفاء من المحاضر وتصريحات رفع الجثة وإعادتها إلى وطنها^(٧). لقد كانت تجربة مهمة غيرت جارثيا ماركيز تماماً. ومن ذلك الحين أدرك جارثيا ماركيز وموتيس أنهما سيظلان مرتبطين بشراكة تتعدى كثيراً حدود الصداقة: إنها شراكة المعدن الأدبي المشترك. وبالفعل ، وكما يعترف بذلك موتيس نفسه ؛ إن هذا الموت المحدد لرجل في غاية الثراء ، وذى سلطات في ظروف شبه مجهولة ، وفاحشة نبهت الكاتبين كل واحد منهما على حدة إلى أن موضوع الموت ظاهرة جديرة بالاكشاف بكل فحشه وبكل بهائه وجلاله.

ولذلك فإن أعمالهما المختلفة تماماً سيهيمن عليها قاسم مشترك ، وفكرة أساسية متسلطة: الوصول إلى الجذور ، وإلى أعماق الذاكرة ، وربما لذلك استطاع كلاهما الحفاظ طيلة حياتهما على إطار صداقة تجنح قليلاً صوب ما هو أدبي. والحقيقة أن هذه الصداقة القوية الراسخة مع موتيس تشبه تلك التي ربطته مع الشقيقين بيتش وإيرناندو موتيس (الذي كان يقضى معهما أيام الأحاد كاملة ينشد أشعار المجون والخلاعة) . لقد كان ذلك ملاذاً مريحاً لا غنى عنه لجارثيا ماركيز أثناء الثمانية عشر شهراً التي عمل فيها بصحيفة الاسبكتاتور المشاهد ، وليس ذلك فقط لأن بوجوتا ظلت هي المدينة الغزيرة الأمطار الحزينة والملبدة بالغيوم التي توغلت داخل عظام جارثيا

ماركيز كمرض مزمن ؛ بل أيضاً لأنها المدينة التي كانت تعاني من سرطان العنف وويلات الدكتاتورية العسكرية. فمدينة بوجوتا الأنديزية المجيدة في منتصف الأربعينيات ، حيث الترام البطئ ، والأمسيات الرمادية بفعل الدخان المتطاير هي المدينة التي انفجر الكاتب فيها باكياً من جرأ الحزن وهو لا يزال في السادسة عشرة من عمره ، كانت في ذلك الوقت موضوعاً من الماضي إذ بدأ يتضاعف عدد سكانها لأن الأحداث التي وقعت بها وأعمال العنف الممتدة جلبت إليها هجرة جماعية غير منظمة أدت إلى القضاء على عاداتها بوصفها قرية قشتالية كبيرة من العهد الاستيطاني ، وبدأت تحولها إلى حاضرة مشتتة. ومتناقضة من حواضر المستقبل. وعلى الرغم من أنه سيني في ذلك بعد بضع سنوات ، فإن جارتيا ماركيز عاد يرتاد أماكنها الشهيرة ومقاهيها التقليدية مثل الأوتوماتيكو وأستورياس ، ولكن بدون الرغبة الحية والأدبية مثلما كان في سنواته الجامعية البوهيمية ؛ بل كان ذلك لضرورة مهنية ، كما كان يفعل أيضاً مع صالات السينما بالمدينة. أما ساعاته الخسبة والهادئة ، فكان يقضيها في لوكاندته وفي مكتب موتيس أو في صالة تحرير جريدة الأسبكتابور "المشاهد" ، بينما اقتصرت لحظات الترفيه والتسلية على أواخر الأسبوع مع خوسيه سالجار وإيواريو ثلاميا بوردا ، عندما كانوا يستقلون السيارة ويذهبون إلى الشمال لكي يتناولوا الجعة ، ويتشبعون من الخضرة والسكينة بمنطقة السافانا إحدى أجمل الأماكن الهادئة على كوكب الأرض ، لدرجة أن محادثة وحزن الهنود الحمر كانا يبدوان كأنهما نمطان من أنماط الصمت والسكون. وعلى الرغم من ذلك فإن الأصدقاء الثلاثة لم يتخلوا عن مهنتهم تماماً ؛ فقد كانوا يستمعون إلى مذياع السيارة تحسباً لحدوث نوب يضطرهم للعودة تَوّاً إلى صالة التحرير بالصحيفة.

وعندما وصل إلى تلك الصالة أصبح صحفياً ناضجاً ، وأحد أفضل المحققين الصحفيين من الناحية اللغوية. وكانت كولومبيا تزح منذ ثمانية أشهر تحت طغيان الجنرال جوستافو روخاس بينيا ، ولهذا يمكن القول بأن جارتيا ماركيز بدأ العمل صحفياً في أواخر الأربعينيات عندما كان العنف سائداً ومهيماً ، ولذلك فإن نضجه الصحفي سيتحقق عند تشريع هذا العنف في ظل حكم الطاغية روخاس بينيا ، مما سيكون له نتائج نهائية حاسمة في إنتاج الكاتب.

لقد وصل روخاس بينيا إلى الحكم فى ١٣ يونيه ١٩٥٢ بتشجيع القطاعات الرئيسية للأقلية الليبرالية المحافظة المعروفة ، وإن كان قد أعرب عن رفضه لحل عسكرى للوضع الخطير والمتأزم الذى كانت تعاني منه البلاد قُبيل توليه السُلطة بأسبوع واحد (مما يبرهن على أن الانقلاب كان مغامرة من جانب الأقلية السياسية أكثر من كونه من جانب الجيش) ومع ذلك فقد ظل الجنرال فى السلطة أربع سنوات تقريباً .

وبعد مضى خمس سنوات على اغتيال الزعيم الليبرالى ذى الهيبة الشعبية خورخى إلييسيرجايتان عمُ العنف واستفحل فى جميع أنحاء البلاد ، حتى أصبح أحد العوامل الحاسمة ، بل القوام النيابى الذى طبقته الحكومات المحافظة لماريانو أوسبينا بيريث ولاوريانو جوميث وخاصة حكومة الأخير منهما ، استمر فى ثياب مدنية ، ولكنه مارس حكماً استبدادياً ربما أكثر وحشيةً من طغيان روخاس بينيا . وتشير الإحصائيات إلى أن أكثر من ثلاثمائة ألف قتل على مدى خمسة عشر عاماً من فترة العنف نصفهم تقريباً قتلوا خلال الخمس سنوات من ١٩٤٨ - ١٩٥٢ التى تولى الحكم فيها أوسبينا بيريث ولاوريانو جوميث^(٨) . وكانت المشكلة تكمن فى كيفية وقف المحافظين المؤيدين للسلطة المطلقة للبابا ، والذين كانوا يغذون أعمال العنف من خلال السلطة ، وإن كان هذا العنف قد تأصل بشكل تقليدى . وقد دفعت هذه الظروف الأقلية الليبرالية والقطاعات الأكثر اعتدالاً من المحافظين إلى التوصل لاتفاق للإطاحة بالطاغية لاوريانو جوميث ، ووقف الخطر الثورى الذى تزعمته العصابات الأولى من المحاربين المناهضين للحكم . وكانت الإجابة هى اختراع طاغية لكى يصل إلى عرش بوليفار ، وليكون بمثابة المنقذ الذى يقوم بالتوفيق والمصالحة بين جميع الكولومبيين فى تلك الساعة المشنومة ، ولكى يمارس طغياناً حميداً فى المرحلة الانتقالية .

ولكن روخاس بينيا ارتكب خطأ كبيراً ضد الوطن: لقد أخذ دور طاغية الأورا مأخذ الجد ذلك الدور الذى عهد إليه به ، ولكنه اختلس السلطة من رؤسائه على مدى أربعة أعوام تقريباً ، وقد كان هذا التعسف الأكبر الذى لم تسمح به الأقلية السياسية الحاكمة فى كولومبيا . ولذلك فإن الطاغية الذى جاء إلى الحكم بتأييد من الجميع قد قام بجميع أفراد السلطة بعزله . وقد أحاطت به سيرة ذاتية وفترة حكم شملت قطاعات لا حصر لها ، مما جعلته العدو الأول للكولومبيين ، حيث كان العدو الأول للديموقراطيين عن

جدارة واستحقاق ذاتيين. ولذلك تمكنوا من عزله فى ١٠ مايو ١٩٥٧ من خلال إضراب مدنى وطنى ، ولكن سخریات العمل السياسى شجعت وأدت بالزعيم الليبرالى ألبرتو بيراس كامارجو المؤيد للسيادة المطلقة للبابا والمحافظ لاوريانو جوميث ؛ أدت إلى وصولهما إلى الحكم على الرغم من كونهما عدوين لبلدين حتى عهد قريب. وقد اتفق الجانبان على المؤامرة ضد الطغيان قُبيل ذلك ببضعة أشهر فى سيتخيس ، ولكن من المفارقات أيضاً أن هذا الاتفاق كان مناهضاً للديموقراطية ، لأنه أفرز ميلاد الجبهة الوطنية. بهذا الاتفاق الكبير المنافى للشرعية والأخلاق لحكم الأقلية ثنائية الحزب كان الهدف فى المقام الأول هو استرداد وتوزيع السلطة بالتناوب ، والإنصاف بين الحزبين الليبرالى والمحافظ طوال ستة عشر عاماً بأفراحها وأتراحها .

وبعد المساعى الأولى صوب وقف النزيف الوطنى الناجم عن تفشى العنف ، كشرّ جوستافو روخاس بينيا عن أنيابه - كما كان متوقعاً - وأشهر سونكى البندقية والرصاص لحل المشاكل. واستناداً لجارثيا ماركيز الذى اعتبره بمثابة أخف الضررين إزاء الطغيان الوحشى للاوريانو جوميث ؛ فإن البطولتين الخالدين لروخاس بينيا تلخصتا فى مذبحة الطلاب فى قلب العاصمة ، عندما فضّ الجيش مظاهرة سلمية بالرصاص ، واغتيال عدد لا حصر له من محبى مصارعة الثيران أيام الأحد على أيدي الشرطة السريّة^(٩) ، عندما احتجوا بالصغير على نجلته فى حلبة مصارعة الثيران. وقد شهد جارثيا ماركيز شخصياً - بمحض الصدفة - مذبحة الطلاب فى ٩ يونيه ١٩٥٤ فى شارع خيمينيث دى كيسادا عند عودته من زيارة خوليو ثيسار بيجاس بالسجن ، وذلك الوزير البيروانى السابق الذى عمل معه الكاتب فى العام السابق بائعاً للكتب بالأجل^(١٠). وقد كانت المذبحة بمثابة انقلاب أو تحول ، ليس فقط فى تاريخ البلاد بل أيضاً فى الوعى السياسى والأدبى للكاتب لأنه فى إطار هذه الديكتاتورية ، وفى عمق هذا العنف الذى وُلدت فيه قرر جارثيا ماركيز تجربة الانحياز نهائياً اليسار. وبهذا الشكل عكس ذلك فى معظم إنتاجه الصحفى ، وكذلك فى أعماله مثل " الساعة المشنومة " و " العقيد لا يجد من يرأسه " و " جنازة الأم العظيمة " ، واعتباراً من هذه الأعمال ستتسع السلطة والعنف .

إن الفكر الاشتراكى المناهض للرأسمالية لجارثيا ماركيز ، والمتأصل بلاشك فى شخصية جده ازداد قوة فى المرحلة الثانوية فى شيباكيرا فى ظل مدرس التاريخ ، وقد

ظل ينضج سرّاً وتدرجياً فى قرطاجنة و بارأنكيا ، لذلك لم ينتبه إلا نفرٌ قليلٌ من أصدقائه أنه كان يسدد حصته تضامناً مع الحزب الشيوعى الكولومبى ، عندما كان يعمل فى صحيفة الهيرالد ، وبالسرية نفسها استمر ذلك فى بوجوتا مع بعض زملائه فى الاسبكتادور "المشاهد"^(١١).

وقد حدث خلال تلك الفترة مزيد من التقارب بين الكاتب والحزب الشيوعى ، الذى كان لا يزال فى حيزُ السرية آنذاك حتى أنه انضم إلى إحدى خلاياه ، ولكن عضويته كانت خاطفة وانحسرت فى المناقشات السياسية والأيدولوجية مع بعض زعماء الحرب. وعندما علم بذلك الأمين العام للحزب خيلبرتو بييرا أرسل يستدعيه من منزله ، وقال إنه لا مغزى أن يكون عضواً بإحدى خلايا الحزب إذا لم ينضم إلى عضويته ، وإنه سيتفاهم معه مباشرة ، وسيقدم له كل المعلومات اللازمة لعمله الصحفى^(١٢). لقد كان مسلك بييرا فى الواقع وسيلة لكسب تأييد وتعاطف الكاتب الذى كان يتزايد ثقله يوماً بعد يوم. ولقد كان الشيوعيون يعون الأهمية المتزايدة لهذا النجم الصحفى اللامع لجريدة الاسبكتادور "المشاهد" ، وعندما رأوا قامته الأدبية التى تزايدت شموخاً بعد صدور قصة " الورقة الساقطة" عام ١٩٥٥ ، حتى أنهم أزعجوا أنفسهم وأرسلوا له بإيعاز عقائدى يضر بالأدب ، وهو أن الجو الأسطورى والأسلوب الغنائى لقصته لم يكونا الملائمين للتوغل داخل الواقع الحالى فى كولومبيا^(١٣). هذا الإيعاز سينعكس فى حصيلة الكتب التالية لجارثيا ماركيز مما سيزج به فى غموض نسبي حتى يسترد فى " مائة عام من العزلة " حريته الإبداعية الشاملة.

ومع ذلك لم يترك جارثيا ماركيز الشك فى أن التزامه مع الواقع ككاتب لا يمكن أن يكون التزاماً عقائدياً واستثنائياً ؛ بل كان على العكس من ذلك ؛ حيث ينبغى أن يكون التزاماً مفتوحاً وشاملاً للواقع بأسره. وخير دليل على ذلك ستكون قصصه ورواياته ، وكذلك إنتاجه الصحفى الهائل الذى نضج تماماً خلال هذه الفترة فى بوجوتا ، منذ تلك اللحظة التى بدأ فيها التعاون بشكل مجهول فى فبراير عام ١٩٥٤ فى الافتتاحية تحت عنوان " يومٌ بيومٌ " ، لكى ينتقل فيما بعد إلى التعليق السينمائى لينتهى به الحال كصحفى من الطراز الأول.

وكانت افتتاحية "يومٌ بيوم" مثل جوهرة التاج فى الصحيفة ، ففيها كان يكتب المدير جيرمو كانو ، ونائب المدير إدواردو ثلاميا بوردا ورئيس التحرير خوسيه سالجار ، وجونثالو جونثاليث (جوج). وبما أن جارثيا ماركيز دخل الصحيفة وشارك فى الكتابة بهذا القسم ، فإن ذلك يُعد خير دليل على التقدير والحفاوة التى قُوبل بهما التلميذ الجديد من جانب مديره ورؤسائه. وبالفعل فعندما نشر مقاله الرابع "الملكة وحدها" قال له أوليس: بهذا المقال يمكنه المشاركة فى هذا الباب بجدارة^(١٤). وقد أثبت المقال أيضاً أن صحافة التعليق ستظل كما كانت فى صحيفتى "الأونيفرسال" و"الهيرالد" معملاً لتحديد موضوعاته الأدبية: الحب والموت ، الوحدة والحزن والاشتياق والسلطة وعزلة السلطة والزمن الأصلي ومرور وجمود الزمن والعالم كقرية شاملة والأسفار الطويلة ، وفى وسط كل هذا الأهمية الحاسمة لسرد أدق تفاصيل الحياة اليومية. ولذلك فعلى الرغم من انشغاله كمعلق سينمائى وكصحفى ، ليس فقط لأنه لم يترك صحافة التعليق ؛ بل كان يوفر الوقت دائماً كلما طلب منه رؤساؤه القيام بذلك. ويذكر جارثيا ماركيز أنه فى كل مرة كان يوجد فيها فراغ فى قسم الافتتاحية ، كان جيرمو كانو وخوسيه سالجار يتوجهان إليه يطلبان منه إعداد مقال عن أى موضوع ، مشيرين عليه بالإبهام والسبابة المساحة التى سيكون عليها المقال^(١٥).

وبالتحديد كان ذلك انطلاقاً من بعض المقالات المتفرقة عن السينما نُشرت فى باب "يومٌ بيوم" ، وعندما طلب منه رؤساؤه كتابة مقال أسبوعى عن الفن السابع "السينما" لكى يقوم بهذا الشكل بعمل موازٍ لباب السينما فى بوجوتا. فعروض "الأسبوع الأول" كان باباً رائداً فى هذا النوع لكولومبيا. وعبر هذه النافذة المفتوحة قدّم جارثيا ماركيز تعبيراً عنيداً فى أكثر من كونه مهنيّاً لولعه القديم بالسينما ، وهو ولع يرجع إلى الأيام السعيدة للطفولة إلى جانب جده العقيد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا الذى كان قد اصطحبه ممسكاً بيده فى أراكاتاكا لمشاهدة أفلام توم ميكس وأفلام أخرى أقل سذاجة. ولذلك فإن اهتماماته بالسينما كانت قديمة مثل اهتماماته بالأدب والرسم والصحافة. وفى قرطاجنة وبارأنكيا كان دائماً شغوفاً بالسينما ، وقد اكتسبت خبرة كبيرة كمشاهد جيد ، وقد وصل به الاعتقاد والافتقار إلى جانب رفاقه فى بارأنكيا وخاصة ألبارو ثيبيدا ساموديو إلى أن السينما وسيلة تعبير عجيبة مثل الأدب نفسه .

وقد أثر فيه ذلك كثيراً ليس فقط عودته من الولايات المتحدة الأمريكية ؛ بل أيضاً الصداقة الحديثة مع القطالوني لويس بيثينس والتأثير والانطباع الكبيرين اللذين تركهما في نفسه " لص الدراجات " لبيتوريد دى سىكا في أكتوبر ١٩٥٠ . وقد كان لهذا الفيلم عظيم التأثير على الكاتب من جانب الواقعية للواقعية الإيطالية الجديدة ، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بما هو " مهم إنسانياً " (١٦) ، الذى سيكون أحد العناصر الجوهرية فى عالمه الروائى . ولذلك فعندما بدأ تعليقاته الأسبوعية عن السينما فى ٢٧ فبراير ١٩٥٤ لم يكن جارثيا ماركيز مشاهداً جيداً ذا خبرة كبيرة فقط ؛ بل كان أيضاً ذا تأثير بالغ ومُلمّاً بالمعلومات الجمالية والفلسفية للفن السابع " السينما " . ومع ذلك لم يتعد عمله فى هذا المجال التعليق الفنى والعبرى فى النقد السينمائى نظراً لنقص خبرته وعدم درايته بالجوانب التقنية ، وقد حاله التوفيق فى فهم المواقف والتفاصيل القريبة من اهتماماته وتحرياته الأدبية .

ومن الأشهر الثمانية عشر التى عمل خلالها جارثيا ماركيز معلقاً أسبوعياً يرجع له الفضل الإضافى ليس فقط لكونه أحد رواد النقد السينمائى فى كولومبيا ؛ بل أيضاً لكونه أحد المشجعين الراسخين لتأسيس سينما وطنية . لذلك ذهب إلى مركز السينما التجريبى فى روما ، لى يصبح فيما بعد كاتب سيناريست سينمائى فى منتصف الستينيات فى المكسيك ، وينتهى به الأمر بإنشائه وإدارته لمؤسسة السينما الأمريكية اللاتينية الجديدة ومقرها هافانا بعد ذلك بعشرين عاماً .

ولكن لى يصل إلى روما كان لا يزال تنقصه النصوص العظيمة لمرحلته الأولى كصحفى . وليس ثمة شك فى أنه لى يُقدم على هذه الخطوة الحاسمة فى مسيرته الصحفية والأدبية كان ينبغى على مديرى الاسبكتاتور " المشاهد " أن يأخذوا فى الحُسابان تفننه فى المهنة الذى أثبتته خلال الشهور الأولى ؛ بل أيضاً للجائزة الوطنية الرئانة للرواية التى منحها إياه اتحاد الكتاب والفنانين فى كولومبيا فى شهر يوليه عن قصة " ذات يوم بعد السبت " .

وبعد خمسة أعوام من البيات الشتوى لإعداد روايته " الورقة الساقطة " ، وصدمته الكبيرة بسبب رفض دار النشر طباعتها ، كانت هذه الجائزة بمثابة أكبر تكريم واعتراف

حصل عليه جارشيا ماركيز ككاتب . تلك الجائزة التى سينتقص من قدرها وشأنها بعد ذلك بسنوات طويلة عندما تذكر إنه تقدم للمسابقة - فى الواقع - لأن أمين اتحاد الكتاب والفنانين كان صديقاً له ، وطلب منه التقدم للمسابقة حيث إن مستوى المتقدمين كان هابطاً للغاية ؛ لذلك قرر جارشيا ماركيز المشاركة ، وأعطاه الرواية التى لم تكن قد اكتملت بعد حتى ذلك الحين^(١٧). ولكن الشاعر كارلوس مارتين الذى كان مدرّسه للأدب فى مدرسة الليسيه الوطنية فى ثيباكيرا يذكر أنه وإيرناندو تيبث كعضوين بلجنة تحكيم الجائزة اضطرا إلى بذل أقصى مساعيهم - إزاء اختلاف الآراء والأهواء - لدى لجنة التحكيم لكي تمنح الجائزة لقصة جارشيا ماركيز " ذات يوم بعد السبت". هذه القصة التى كتبها قبل ذلك ببضعة أشهر فى أوقات فراغه من العمل الصحفى تؤكد أن جارشيا ماركيز عندما انضم إلى الاسبكتاتور "المشاهد" كان كاتباً ناضجاً بما فيه الكفاية ، حيث برز لديه الحس الروائى والمعرفة الأسلوبية لأفضل أعماله. وقد دارت أحداث القصة فى ماكوندو مثل " الورقة الساقطة" ، و " قيلولة الثلاثاء" ، و " جنازة الأم الكبيرة " و " مائة عام من العزلة". إنه النص الماكوندى الثانى المنشور الذى يبرز القرية الأسطورية فى مرحلتها النهائية غارقة فى الفقر والعزلة. إنها ماكوندو التى شهدت - كما هو واضح - صنوف الأوبئة والكوارث الاجتماعية والطبيعية .

أوبئة وكوارث : هذه المصطلحات بدءاً من الوباء الأعظم ، وهو العزلة سيتم سردها فى الإنتاج الصحفى والأدبى لجارشيا ماركيز.

وفى حكايات الجد ، وفى روايات التراث الساحلية والمتعلّقة بأراكاتاكا وكامى ، وفى صفحات التاريخ الوطنى كان جارشيا ماركيز يرى - بمساعدة الإنجيل وسوفكليس وديفوى كامى - أن قريته ووطنه أصابتهما كل أنواع الكوارث وصنوف الأوبئة مثل الحروب والعنف الوحشى المُقنّع ونهب الثروات الطبيعية والتهميش الاجتماعى والاقتصادى والفيضانات والجراد والتدخلات السياسية والتقليد والانفصام الثقافيين. والآن وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، وعلى أعتاب النضج كان جارشيا ماركيز يعيش هذا كله ويعانى منه: وعادت البلاد من جديد تعاني من كارثة عامة ، هى العنف ، وكأنها التعبير المباشر للشكل الخاص لممارسة السياسة فى كولومبيا: ليس كإسلوب للتعايش وقيادة البلاد ، بل كوباء يومية ودائم كما كان فى العصور الوسطى.

وتظهر في "الورقة الساقطة" أولى المدلولات السياسية عن العزلة ، فقد تناولت القصة هذه الأوتار الحساسة والعميقة للمجتمع الكولومبي ، وبعد ذلك على وجه السرعة في "الساعة المشنومة" ، "والعقيد لا يجد من يرأسه" فقد تطرق إليها جارثيا ماركيز بصورة فورية ومباشرة. إن معظم تحقیقات ذلك العام قُبل سفره إلى أوروبا ستواصل نفس السلوك السياسي والفكری فی إطار إعداد جمالی قیم.

بالصدفة ؛ وطبقاً لقراءاته وموضوعاته المفضلة ، فإن أول تحقیق لجارثيا ماركيز كمبعوث خاص لصحيفة الاسبكتاتور "المشاهد" صبَّ فيه الكاتب كل تركيزه على كارثة طبيعية (وأيضاً) اجتماعية: الانهيار المأساوی لمیديالونا (الهلال) ، وهو اسم حی فی مدينة میدایین. وكان الكاتب قد أغرى بالسفر إلى هايتی مدعواً من صديقه ألبارو موتيس ، وعندما وصل إلى میدایین كان على وشك العدول عن ذلك والعودة إلى بارأنكيا^(١٨) .

وعلى الرغم من أنه لم يكن مستجداً في هذا النوع (فقد سبق له أن كتب السلسلة الهائلة من ماركيزة لا سيربي ، والرياضی الأنيق ملبساً ، وتعليقات أخرى ريفية عن أسفاره من قرى ومدن الساحل) ، فقد كان هذا التحقیق أول تحقیق له كمبعوث خاص للصحيفة ، ومثل هذه المسئولية جعلته يشعر بخوفٍ مرعب سيتذكره بعد ذلك بسنوات طويلة بأنه شبيه بالخوف من الأشباح الذي عانى منه وهو طفل في منزل أراكاتاكا^(١٩) . ولذلك فعندما وصل إلى فندق میدایین فكر في التخلي عن ذلك والعودة إلى بارأنكيا. وعندما رأى أن السماء تمطر سعد أيما سعادة ، لأن المطر سيمنعه من مواجهة الأحداث ، وسيتركه جامداً غير قادر على الحراك كما لو كان في كرسي مخاوفه من الأشباح. ولكن عندما كف المطر عن النزول لم يكن لديه ما يتعلل به من أعذار للتخلي عن مهمته. حينئذٍ خرج واستقل سيارة أجرة متوجهاً إلى میديالونا "الهلال". وقد علم وهو في الطريق أنه بعد أسبوعين لم يعد هناك أحد في مكان الكارثة ؛ لذلك غير اتجاهه وذهب إلى استانتشاس ؛ الحى الذى سقط فيه أكثر الضحايا من جرأ تلك الكارثة. وهناك وجد قدراً مأساوياً من النوادر والقصص. وكان أهم العناصر المأساوية والقصصية يكمن في أن أغلبية الضحايا لم يكونوا من أهالى میديالونا "الهلال" ، بل كانوا فقراء ساروا على أقدامهم عدة كيلومترات لكى يلقوا حتفهم ، والنبأ الصحفى يغلفه عبء سياسى لأنه اشتمل على شكوى ضمنية بسبب الإهمال

الإدارى الذى تركز فى أن الانهيار الأرضى كان قد بدأ منذ ستين عاماً مضت بسبب تجمع المياه الغزيرة دون تُرع أو قنوات لصرفها ، وأن معظم الضحايا لقوا حتفهم ليس بسبب الانهيارات المتتالية والمتلاحقة ؛ بل بسبب التضامن الذى تجاوز كل الحدود بين الأهالى دون أدنى مساعدة حكومية.

وبعد المقابلات والتحريات التى لا حصر لها وجد جارثيا ماركيز مادة كبيرة وحسيلة من القصص والنوادر والشخصيات والمعلومات ، حينذاك تذكر التوصيات التى كان قد سمعها من صديقه ألبارو ثيبيدا ساموديو ، التى استخلصها من الصحافة الأمريكية بشأن كيفية ترتيب مادة كبيرة بهذا الحجم فى رواية منسقة وشفافة^(٢٠). وتذكر أيضاً كتاباً من أفضل الكتب المحببة إلى نفسه "يوميات عام الوباء" لدانييل بيفوى ، واستعان فى المقام الأول بخبرته الأخيرة كباحث خاص عن واقع القرى الساحلية.

إن النجاح الصحفى والأدبى للتحقيق المعنون "مراجعة وإعادة ترميم كارثة أنطويوكيا" ، الذى نُشر على ثلاث مرأت فى أوائل أغسطس من ذلك العام ، جعل من مؤلفه الشاب صحفياً لامعاً بين يوم وليلة. وعقب هذا التحقيق الأول توالى تباعاً التحقيقات الكبيرة لجارثيا ماركيز خلال تلك الفترة مثل "مقاطعة تشوكو التى تجهلها كولومبيا" ، و"من كوريا إلى الواقع" ، و"البطل الثلاثى يكشف الأسرار" ، وأهم الأحداث رنيناً وأهمية ، ويكمن فى : "الحقيقة بشأن مغامرتى" ، وعن "الفريق لويس أليخاندرو بيلاسكو" .

إن التحقيق عن مقاطعة تشوكو كان بالنسبة لجارثيا ماركيز بمثابة العودة الحرفية إلى الجنور ، لأنه منذ نزوله من الطائرة وجد نفسه وسط عالم عاد به إلى الوراء ، إلى أراكاتاكا مسقط رأسه لأسباب كثيرة. وكما عايش فى تقريره الأول الخوف المرعب لفترة طفولته ، ولكنه فى ذلك كان قد توصل إلى اتفاق سرى للتعایش. فهو على خلاف فرانثيس ماكومبير ؛ الشخصية التى لا تُنسى لهيمنجواى نجد أن جارثيا ماركيز لم يحاول القيام بأية بطولة لكى يطرد الخوف من جسده ؛ بل تعايش معه وألفه ، وفى كل مرة كان يتزايد إدراكه لذلك حتى جعل منه - أى من الخوف - عدواً محبوباً كما تعايش اللؤلؤة داخل الصدفة . مدركاً إلى جانب ذلك أن خوفه كان هو الخوف الوجودى لجميع الرجال فى الأوقات الحاسمة للحياة ، ولذلك فلا طائل من محاولة استئصاله.

إن أصل تحقيق مقاطعة تشوكو يرجع إلى قصة مُضحكة تُظهر إلى أى مدى فتن جارشيا ماركيز بالجانب المغامر لهذا النوع، وكيف أن التحقيق كان بالنسبة له - مثل القصة تماماً - عملاً من أعمال الخيال والواقع.

وقد بدأ كل هذا عندما قررت حكومة الطاغية روخاس بينيا حل وتوزيع المقاطعة النائية المهمة والمنسية لزنوج المحيط الهادئ بين المقاطعات المجاورة. وإزاء هذه النظرية ، وإزاء سلبية أهالى مقاطعة تشوكو أنفسهم قام مراسل صحيفة الاسبكتادور فى كيبو بإرسال برقية عاجلة إلى بوجوتا لإفادتها بالمظاهرة التى عُتِ المدينة ضد هذا القانون ، أو المرسوم الجائر والتعسُفى للحكومة المركزية. وبالبرقية الثانية أقنع مدير الصحيفة جارشيا ماركيز بالذهاب لتغطية ذلك الحدث على الصعيد الوطنى. وعندما هبط جارشيا ماركيز من الطائرة برفقة المصور ، وبدأ يجوب ويطوف شوارع كيبو وسط حرٍ لا يُحتمل - مثل أراكاتاكا تماماً - لم يجد أدنى مؤشر لأية مظاهرة ؛ بل وجد أهالى تشوكو هادئين كالعادة ، وقد تغلبوا على نوم الساعة الثالثة بالاضطجاع فى شبكاتهم ، أو بالجلوس على المقاعد المكسوة عند مدخل الشارع.

وعندما التقى فى النهاية مع بريمو جيريرو وَجَدَهُ المراسل جارشيا ماركيز مضطجعاً بلا اكتراث فى شبكته ، وأخبره بأن ما يتعلق بالمظاهرة الدائمة اختراعٌ من بنات أفكاره ، والحقيقة أنه لم يحدث هناك أى شئ لأنه لم يحتج أحدٌ على شئ. وقد قال له جارشيا ماركيز إنه احتاج ليومين كاملين لكى يأتى إلى كيبو هو ومصوره ، وليساً على استعداد على الإطلاق للعودة إلى بوجوتا بخفى حُنين ، وبالتالي يتحتم الدعوة لمظاهرة دائمة لكى يستطيع إرسال التحقيق الذى ينتظرونه بالجريدة على أحرَّ من الجمر. حينئذٍ توجهوا إلى المحافظة وشرحوا الوضع للمحافظ حيث قام بالدعوة للمظاهرة الدائمة من خلال فرقة موسيقية مهيبه^(٢١).

وبعد يومين خرجت صورة المظاهرة فى الاسبكتادور. وبعد بضعة أيام وصل صحفيون آخرون ، وكذلك السياسيون من أهل المنطقة الذين أفسدتهم مركزية الحكومة فى بوجوتا. ويوماً تلو الآخر تحولت المظاهرة إلى نهر متزايد ، فى الوقت الذى كان جارشيا ماركيز يتجول فيه بجغرافية مقاطعة تشوكو ، ويتحرى أخبار اقتصادها وتاريخها وثقافتها لكى يستطيع نشر تحقيقه الصحفى على أربع مرأت ذلك التحقيق

الذى يُعد أحسن التحقيقات التى أعدها طوال مسيرته الصحفية: " تشوكو المقاطعة التى تجهلها كولومبيا"^(٢٢). وقد اعتمد فى ذلك على وثائق غزيرة ، كما كان معتاداً ، ويتضامن واضح استطاع أن يقدم مقاطعة تشوكو بأراضيها الخصبة والغنية ، ولكن أناسها فقراء معدمون نسيتهم أيدى السلطة المركزية.

لقد كان التاريخ الويائى المتناقض نفسه مثل أراكاتاكا تماماً ، وبلدته الكاريبية بشكل عام. فثراء وخصوبة أراضيها دفعا أهاليها إلى الضياع: ففى أراكاتاكا ومنطقة زراعات الموز كان الهلاك والضياع بسبب زراعة الموز ، وفى تشوكو كان نتيجة استغلال الذهب والبلاتين. ولكن لم يكن التشابه فى الوضعين السياسى والاقتصادى فقط ؛ بل أيضاً فى الجغرافى على وجه الخصوص ، وفى الاجتماعى والثقافى. وعندما وجد نفس الخضرة ونفس الأشياء التى تُؤكل ، وعندما رأى نفس المنازل الخشبية ، والأسقف من الزنك الذى أصابه الصدأ ، وعندما رأى أهالى تشوكو يتغلبون على نعاس الساعة الثالثة ظهراً ، وهم يضطجعون غير مُبالين أو مكترئين فى شبكات استراحتهم ، أو يجلسون على مقاعدهم المكسوة عند مدخل الشارع. وعندما دخل المنازل ووجد نفس مضارب الذباب ونفس المراوح العتيقة ذات الأجنحة المتعامدة ، وخاصة عندما رأى فى عيون الأهالى عزة النفس والكرامة الرفيعة أدرك جارثيا ماركيز وكأن الوقت لا يمر ؛ بل يدور حول نفسه ، كأنه عاد من جديد إلى أراكاتاكا : نعم لقد عاد جزئياً إلى الجذور ، وسوف يعضد هذا ويقوى مفهوم ماكوندو كاستعارة لا تُخطئ واقع الأجداد والواقع الدائم لكولومبيا.

وفى تحقيقه الكبير التالى " من كوريا إلى الواقع"^(٢٣) ، كان الإحساس مماثلاً أو ربما أسوأ لأنه عاد ليلتقى بتاريخ جده وجميع قُدامى المحاربين الذين شهدوا آخر حرب أهلية كبيرة.

وبعد ثلاثة أعوام من قرار حكومة لاوريانو جوميث المحافظة بإرسال أربعة آلاف متطوع إلى حرب كوريا ، عاد كثير منهم بعد أن تحولوا إلى ألف كيلو جرام من الرماد ، وآخرون عابوا كمواطنين غير متوائمين ، مدموغين بصليب الرماد الذى خلفته الحرب والعزلة. كما أن وعود المنح والمعاشات الدائمة كانت عبارة عن وعود إنشائية لتحفيزهم على خوض مغامرة لا جدوى منها. إن تحقيق جارثيا ماركيز أثبت أيضاً أن

الذين ظلوا على قيد الحياة من حرب كوريا ظلوا يعانون من مأساتين: حيث إن معظمهم كانوا من الفلاحين الفقراء والريفيين الذين أُخرجوا من ديارهم وأرضهم وانتزعوا من حرفتهم طوال أسوأ سنوات العنف ، رأوا أنفسهم ، وقد رُجَّ بهم فى تلك الحرب التى لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، فضلاً عن كونها فى بلد ناء وكأنها مخرج لمآسيهم اليومية. لقد كانت نفس مأساة العقيد نيقولاس ريكاردو ماركيز وقُدّامى الحرب الآخرين حرب الألف يوم ، ولكنها تزيد ضعفين أو ثلاثة أضعاف من حيث الحجم. لقد امتلأت كولومبيا من جديد بالجنود والعُداء الذين لم يرأسلهم أحد.

إن التحقيق المسلى والمنازع عن المثال رودريجو أريناس بيتانكور ، الذى ما لبث أن نجحت أعماله فى المكسيك ، كان بمثابة التقاط الأنفاس فى تحرياته الماكوندية الدؤوبة ، ولكن على الرغم من ذلك فإن الرسالة الضمنية ستكون نقدية : فلم يُقدم الواقع الوطنى مزيداً من الحوافز المشجعة للمفكرين والفنانين الذين اضطروا للهجرة من وطنهم. وفى ذلك الحين كان جارثيا ماركيز يراوده حلم السفر إلى أوروبا ، كما أن قصة أريناس بيتانكور أبرزت بعض أوجه الشبه مع حياته وتحريات الكاتب. ولذلك فإن التحقيق الصحفى فى هذا الشأن كان يُطرح بصورة جزئية كتحقيق ذاتى. إنه كأريناس بيتانكور رحالة بين المدن يعيش بالكاد ويأكل ما استطاع ، ولكن لم يفارقه إصراره وعناده المهنى لتحقيق مآربه ، كما سيحدث للكاتب بعد قليل فى باريس ، حيث كان يحظى بمساعدة أصدقائه فى أحلك الأوقات الحرجة ، وذلك بكتابة مقالات لصحيفة الكولومبى فى ميديين تحت اسم مستعار هو " براب PRAB " (لرودرىجو أريناس بيتانكور). كان جارثيا ماركيز ، وسيظل صديقاً للفنانين والمفكرين والسياسيين المهمين الذين تعلّم منهم أو تعاون معهم وفقاً للظروف. كما كان كالمثال عضواً سرياً بالحزب الشيوعى ، بعد بضع سنوات وصل إلى ذروة المجد فى المكسيك نفسها^(٢٤). وقُبيل موته بثلاثة أعوام فى مايو ١٩٥٥ يتذكر أريناس بيتانكور أنه عندما التقى مع جارثيا ماركيز فى مقهى الأوتوماتيكو فى بوجوتا لإجراء المقابلة كان الكاتب على علم بمعجزاته ومصائبه ، ولم يوجه له سوى قليل من الأسئلة وكأنَّ التحقيق مختزنٌ فى ذهنه: وفى الواقع كان التحقيق لديه بصورة جزئية فى مسيرة حياته الذاتية^(٢٥).

ويتذكر أريناس بيتانكور الكاتب حينذاك كرجل نحيف شاحب الوجه عصبى، كان مدخناً شَرِهاً ذا شارب كثيف محدد جيداً ، دخل مقهى الأوتوماتيكو بشارع خيمينيث

دى كيسادا بحلة قاتمة تتمشى مع الجو العام ، بمعطف على طراز بوجوتا . وقد اختفت مؤقتاً الملابس الزاهية الألوان التى أفرزت صاحب جريدة الاسبكتاتور "المشاهد" . إن الجو العام فى الصحيفة ومقهى الأوتوماتيكو ، حيث كان يجتمع كبار المفكرين والأدباء فى بوجوتا ، وكانوا يطلقون عليها اسم جابو ، حيث كان فى ذلك الوقت كاتباً مرموقاً ، ومرشحاً لنيل جائزة نوبل مستقبلاً . هكذا كان أصدقاؤه المقربون ومعجبهه مخاطبونه مثل إدواردو ثلاميا بوردا ولويس بيثينيس المفكر والسينمائى القطالونى ، الذى كان له دور بارز فى التوجه السينمائى للكاتب .

إن النجاح الكبير الذى حظى به تحقيق الغريق لويس أليخاندرى بيلاسكو والترحيب والحقاوة النقدية للطبعة الأولى " للورقة الساقطة " سيؤكدان ويعمقان هذا الاعتقاد .

وعندما وصلت قصة مأساة الغريق إلى أيدي جارثيا ماركيز كانت موضوعاً قد تناولته الصحافة الوطنية بإسهاب ، ولم يكن أحد يتوقع له مزيداً من النجاح ، وقد استقبله مدير جريدة الاسبكتاتور "المشاهد" جييرمو كانو بقليل من الحماس ، واثقاً ربما فى ذكاء محققه الصحفى فى أن يعد تحقيقاً يحطم الرقم القياسى فى مبيعات الصحيفة . وسرعان ما تحولت القصة المنشورة على مراحل إلى حدث صحفى وأدبى وسياسى من الدرجة الأولى .

لقد سرد جارثيا ماركيز بشكل دقيق الظروف التى كانت وراء كتابة ونشر هذا التحقيق ، وكذلك نتائجه بالنسبة له شخصياً وللجريدة^(٣٦) . لقد استطاع جارثيا ماركيز وهو يتناول القهوة تلو الأخرى ، بعد أربع عشرة جلسة عمل استغرقت كل واحدة منها ثلاث ساعات ، تجسيد مغامرة لويس أليخاندرى بيلاسكو . وقد تمكن خطوة خطوة ، ويوماً تلو الآخر فى عمل شاق لمحرر صحفى ومحلل نفسى . وقد حالفه الحظ فى أن البطل كان يتمتع بذاكرة عجيبة ، وإحساس استثنائى هائل بالسرد . وفى البداية أصر البحار على سرد كافة الأحداث البطولية : صراعه مع الأمواج ، والتحكم فى القارب المطاطى ، ومشاجراته مع أسماك القرش ، وضبط نفسه ، والتحكم فى عقله ، حتى قال له الصحفى : ألا تدري أنه مررت حتى الآن أربعة أيام ولم تتبول؟^(٣٧) . فالصحفى - بناءً على تعليمات من القصاص الذى يوجد بداخله - كان يريد معرفة كل شئ : فيما كان يفكر ، ماذا يتذكر من الغريق فى أوقات الفراغ ، كيف بدأت علاقته مع المكان الضيق فى القارب ، متى

رأى أول طائر نورس وأول سمكة قرش. وبعد كل جلسة - فى مقهى ضيق - بشارع خيمينيث دى كيسادا ؛ كان جارتيا ماركيز يخرج حاملاً ما كتبه تحت إبطه بعد أن يكون قد حل المساء بوقت كافٍ ويذهب إلى صالة تحرير الصحيفة ليحبس نفسه مع أלתه الكاتبة ، ويكتب فصلاً كل يوم. وأحياناً يحين موعد الانتهاء من طبع الصحيفة ، فكان رئيس التحرير خوسيه سالجار ينتزع الأوراق من الآلة الكاتبة دون تصحيح لى يسلمها بسرعة لرجل المطبعة^(٢٨).

لقد نُشرت الرواية فى أربع عشرة حلقة ، وحقت توزيعاً كبيراً ، وفى اليوم السادس قام جابرييل كانو العجوز تقمره الغبطة من عثوره على الدجاجة التى تبيض ذهباً واقترب من الصحفى وسأله "أخبرنى بشئ، يابنى : هل ما تكتبه قصة أم حقيقة؟" وأجابه جارتيا ماركيز: "إنها قصة لكونها حقيقة ، وكل شئ فيها سرٌ بدقه بالغة" سأله : "هل تُقسم لى ؟" ، قال له : " أقسم لك " ، حينئذٍ سأله العجوز كانو السؤال الذى يهمه : " كم فصلاً تعتقد أنك ستكتبه فى هذه القصة ؟" قال له جارتيا ماركيز : " حوالى أربعة عشر فصلاً " ، قال له كانو : " لا ؛ بل ينبغي أن يكونوا خمسين فصلاً على الأقل^(٢٩). ففى تلك اللحظة كانت صحيفة الاسبكاتادور " المشاهد " قد ضاعت من عدد النسخ فى الطبعة الواحدة.

ويعترف الكاتب بعد ذلك بسنوات طويلة أنه - أثناء كتابة " الحقيقة حول مغامرتى " - لم يكن يدرك ماذا يفعل سوى أنه كان يسرد للقراء ما حدث بالضبط للبحار لويس أليخاندرو بيلاسكو فى قارب مطاطى أوشك على الغرق طوال عشرة أيام فى البحر الكاريبى. لذلك فقد قرّر هو والبحار سرد ذلك بضمير المتكلم ، ونشرها باسم البحار ، ولذلك فإن اسم جارتيا ماركيز لم يرفق بالتحقيق الصحفى (باستثناء الملزمة الخاصة المرفقة مع الأربعة عشر حلقة) إلا بعد ذلك بخمسة عشر عاماً ، عند إعادة طبعه فى كتاب تحت عنوان " حكاية غريق"^(٣٠)، ولكن النجاح الاقتصادى والصحفى الذى حصده الجريدة والنجاح الأدبى حصل عليه لويس أليخاندرو بيلاسكو. وبعد ذلك كما هو ثابت بمقدمة الكتاب أهدى جارتيا ماركيز حقوق الطبع باللغة الإسبانية إلى البحار ، " لأن هناك بعض الكتب ليست لمن يكتبها ؛ بل للذى عاش وعانى من أحداثها" ، وقد ظلّ البحار يستمتع بحقوق الملكية والطبع طيلة اثنتى عشرة سنة ، حتى سحبها منه الكاتب دون أى تبرير^(٣١). إن المغامرة الغريبة للبحار التى حكاها جارتيا ماركيز تضمنت - مع

ذلك - عنصرين مُدَوَّين: أحدهما ذو طابع أخلاقي وسياسي ، والآخر ذو طابع أدبي. الأول أدى إلى خلطة العلاقة بين الصحيفة وديكتاتورية روخاس بينيا ، والثاني أعطى للنص سموً وقدرة على الاقتناع جعل القراء يَقْبَلُون الحكاية المطورة على أنها نمط جديد من القص ، وقد أدى ذلك عرضاً إلى تقوية العنصر السياسي.

لقد كان لويس أليخاندر بيلاسكو بطلاً قومياً حيث منحه رئيس الجمهورية نيشاناً ، وقد طاف بجميع أنحاء البلاد ، ولكنه كان يحكى ما سُمِعَ له أن يحكى: إن سبب بطولته في البقاء على قيد الحياة في البحر ، طوال عشرة أيام دون طعام أو شراب في قارب مطاطي أشرف على الغرق ، بعد أن دفعت به العاصفة مع سبعة من رفاقه إلى بحر الكاريبي في ٢٨ فبراير ١٩٥٥ ، عندما كانت المدمرة كالداس بعد أن تم إصلاحها في موبيل بالبهاما في طريق عودتها إلى قاعدتها في قرطاجنة الأمريكية ، ولكن البحار عندما ملّ من صمته كشريك في الجريمة ، ومن سأمه من قُبَلات ملكات الجمال له ، ومن استضافتهم له في التليفزيون كبطل قومي وقوة ، ومن استغلاله في كافة الخزعات الدعائية ؛ ذهب إلى صحيفة الاسبكتاتور "المشاهد" وحكى الحقيقة تماماً : في الواقع لم تكن هناك أية عاصفة في يوم الكارثة: ولكن ما حدث ببساطة يكمن في أن السفينة جنحت بسبب شدة الرياح ، وأن حمولتها المهربة لم تكن مرصوفة جيداً ، فسقطت في البحر ومعها البحارة الثمانية، وهذا التفسير أو الإيضاح ينم عن جنابة خطيرة وجنحتين خطيرتين.

واعتباراً من تلك اللحظة لم يعد الفريق لغزاً أو بطلاً قوياً ، حيث فقد وظيفته في البحرية ، بينما تعرضت الصحيفة والصحفي لضغوط شديدة. ومع ذلك عجزت هذه الضغوط عن إثناء الصحيفة عن إعادة نشر التحقيق كاملاً بعد ذلك بأسبوع في ملحق خاص مقترناً بصورة تثبت بالأدلة ما أفصح عنه الفريق مؤخراً.

ولم يكن ذلك استثناءً ؛ بل كانت هذه السمة العامة للمواجهة بين الصحيفة والديكتاتورية ، حتى تم إغلاقها في يناير من العام التالي. إن معظم تحقیقات جارثيا ماركيز الصحفية كانت انتقاداً أساسياً وجوهرياً للنظام ، واتهاماً ملموساً للديكتاتورية. وبدرجة أكبر أو أقل برز ذلك في أعماله الصحفية عن "انهيار أنطويوكيا" ، و " تهميش تشوكو" ، و " قدامى محاربي كوريا" ، و " المثأل أريناس بيتانكور" ، و " حكاية غريق "

ومأساة الثلاثة آلاف طفل الذين كانوا قد انتقلوا من جرأ أعمال العنف والقمع العسكرى. وفى الواقع كانت تحقيقات جارتيا ماركيز الصحفية ذات صبغة سياسية وثورية أكثر من تحقيقات معظم معاصريه اليساريين ، وإذا كانت نصوص تحقيقاته قد أجازتها رقابة النظام الحاكم ؛ كان ذلك خلافاً لزملائه لم يمارس ديموغاجية " غوغائية" ولم يدعُ لاجتماعات سياسية ، كما أنه لم يتوغل فى مناقشات فكرية خاصة بالماركسية التى تشجعها موسكو ؛ بل كان يكرس جهده ووقته لتقصى الحقائق ، والتفكير ، وسرد الواقع الكولومبى فى كل سطر يخطه بقلمه ، وفى كل صفحة يُسطرها (وذلك باستخدام المعلومات التى يُمدّه بها رفاقه بالحزب فى معظم الأحيان). وهذا فى المقام الأول ما كان يفعله فى قصصه ورواياته ولكن بشكل مركب.

إن الدقة الجمالية التى أعدُّ بها تحقيقاته كانت - بلا شك - حصان طروادة الذى مكّنه من الوصول إلى قرائه فى ظل رقابة متزايدة. ففى " حكاية غريق " بلغ الذروة ، حيث كانت عبارة عن تركيبة موزجة تجمع بين الصحافة والأدب وتحرى الحقائق بشأن الواقع ، والتمكن من توصيل ذلك فى أطر جمالية خالدة ، تلك الأطر التى كان جارتيا ماركيز قد بدأ فى إعدادها فى القصص الأخيرة " عيون كلب أزرق" وعلى وجه التحديد اعتباراً من " المرأة التى كانت تصل الساعة السادسة" ، وفى العديد من المقالات والتعليقات الصحفية بجريدة الهيرالد. لقد كانت السينما الإيطالية والصحافة الأمريكية والكتاب من أمثال ألبرت كامى ، وإيرنست هيمنجواى ، وترومان كابوتى ، كانوا بمثابة تكملة وتوازن مقابل تأثير فوكنر ، فضلاً عن كونهم نماذج إلهامه فى معارضة الجمالية الثانية مروراً بالدروب المكابرة " للعقيد لا يجد من يُراسله" ، و " الساعة المشنومة" بلغ بها الذروة الهادئة والملساء " لنبا موت مُعلن" ، و " عن الحب وشياطين أخرى".

ولذلك فإن صدور " الورقة الساقطة" فى مايو ١٩٥٥ بدت غريبة ، ولكنها كانت فى تلك اللحظة اقتحاماً لنهجه الروائى. وفى الواقع كانت البداية الراسخة للطريق الأسطورى والخيار الجمالى ، الذى من خلال " ذات يوم بعد السبت" ، و "جنازة الأم الكبيرة" سيؤدى به إلى " مائة عام من العزلة" وكان قد بدأ هذه القصة فى قرطاجنة منذ ست سنوات مضت تحت تأثير هيرمان ميلفيل ، وويليام فوكنر وفيرجينيا وولف ، ولقائه من جديد مع ثقافته الكاريبية وأشباح طفولته.

ولم تستطع الطبعة الأولى " للورقة الساقطة " القضاء تماماً على اللعنة التى كانت تطارد جارتيا ماركيز بشدة فى مادته الخام بعد أن رفضتها دار نشر لوسادا فى بوينوس أيرس ، ولكن يهودياً مغامراً يُدعى صمويل ليسمان باون قام بنشرها بشكل متسرع فى بوجوتا ، وبموارد قليلة لدرجة أن إدواردو ثلاميا بوردا و جارتيا ماركيز نفسه اضطر للاتصال بأصدقائهما من أصحاب المكتبات لكى يقوموا بشراء الكتاب من خمس إلى عشر نُسخ من مخازن مطبعة سييا . وفيما يبدو أن ليسمان باون قد اشترى بقية هذه الطبعة الفقيرة التى لم تتعد الألف نسخة ، على الرغم من الأربعة آلاف التى جاءت فى هذه الطبعة^(٣٢) . ويذكر القصاص مانويل ثباتا أوليبيا الصديق القديم ، وشريك جارتيا ماركيز أنه نال جانباً من الغنيمة ؛ فقد ترك له ليسمان خمسمائة نسخة من " الورقة الساقطة " ثمناً لحقوقه عن كتابه " الصين الساعة السادسة صباحاً " الذى كان قد طُبِع قُبيل هذه المجموعة بقليل . وخلال بضع سنوات ظل كاتب قرطاجنة يتحمل عبء بيع هذه الكتب هنا وهناك بقدر استطاعته لكى يحصل على حقوق ملكيته الفكرية عن الكتاب المذكور . بينما سينبغى على جارتيا ماركيز الانتظار طيلة أربع سنوات لكى يتقاضى حقوقه من ليسمان حتى أغسطس ١٩٥٩ ، وذلك أثناء المهرجان الأول للكتاب الكولومبى عندما صدرت الطبعة الثانية " للورقة الساقطة " ، حيث بلغت نسخ هذه الطبعة رقماً فلكياً ؛ عشرة آلاف نسخة .

ومع ذلك فإن الطبعة الأولى التى كانت النسخة منها تُباع بخمسة بيزو خرجت إلى حيز الضوء بشيء من الكرامة . وقد زينتها رسوم فنان قرطاجنة ثيثيليا بورأس (وعليها صورة طفل جالس على مقعد مُنتظراً) ، ومُهداة إلى خيرمان بارجاس أحد الأصدقاء الأعزاء بجماعة " المازحين " ، وقد لقيت الطبعة الأولى للقصة نقداً ممتازاً فى الأوساط الفكرية والأدبية فى بوجوتا ، وباقى أنحاء كولومبيا . وقد حيّاها . (أى الطبعة) كل من إدواردو ثلاميا بوردا وإيرناندو تيبث بمقالات كلها إطراء فى صحيفة الاسبكتادور " المشاهد " ، وقد قام بنفس الدور جونثالو أرانجو المؤسس المستقبلى لتيار " العدمية " " Nadaismo " الكولومبى بينما قام أصدقاؤه فى جماعة بارأنكيا بتقديمها والتعليق عليها فى اجتماعات وولائم^(٣٣) .

ونظراً لكونها أول وأعز قصص جارشيا ماركيز وأول كتاب مطبوع له قام الكاتب كما كان متوقعاً بالإسراف في الإهداءات والتوقيعات الخطية الأوتوجرافات لأصدقائه القدامى وشركائه الأدبيين. وقد تمّ البحث عن أحدهم على وجه الخصوص وتكريمه من جانب المؤلف الشاب. وقد ذهب يحمل نسخة تحت إبطه إلى أمانة التعليم في مقاطعة كوندينا مركا ، وسأل عن مكتب الرئيس الجديد لقسم المرحلة الثانوية ، وسلمه النسخة بالإهداء التالي: إلى أستاذي كارلوس خوليو كالديرون إيرميذا الذي حثني على كتابة هذه الأحداث الحياتية اليومية^(٣٤). ومنذ أن رآه يدخل مكتبه أدرك لماذا جاء تلميذه القديم. لقد كانت لحظة يترقبها منذ منتصف الأربعينيات ، حيث سبق له أن وجهه وأرشده داخل متاهة الكتب الجيدة في مدرسة الليسيه الوطنية في ثياكيرا ، ونصحه بالابتعاد عن أشعار التلميذ الولهان، وأن يتفرغ للنثر ، ويقرأ قصصاً وروايات كثيرة لكي يصبح أحسن قصاص في كولومبيا.

إن احتفاء النقاد بقصة " الورقة الساقطة " ، إلى جانب النجاح المدوي لحكاية الغريق لويس أليخاندرو بيلاسكو قد أديا إلى تعزيز اسم جارشيا ماركيز أدبياً على الصعيد الوطني ؛ بينما وضعت صحيفة الاسبكتادور في أرفع المناصب الوظيفية بين المحررين. وقد كان ذلك نهائياً لكي يُقرر أصحاب الجريدة أنه حان الوقت لإرسال صحفيها ذي النجم الساطع كمراسل خاص إلى القارة العجوز (أوروبا).

الفصل الحادى عشر

- صوب أوروبا مع " أفضل مهنة فى العالم".
- جنيف وقطار أراكاتاكا.
- مؤتمر الأربعة الكبار.
- صحفى فى روما والبندقية.
- فى براغ ووارسو عبر فيينا .
- فرناندو بيرى ، شيشرون فى ثينيثيتا .
- بيلينيو مينوتو ومعجزة الجليد.
- فى جناح بفندق فلاندرى .
- نعم العقيد لديه من يرأسه.
- باريس كانت وحشاً .
- خلف الستارة الحديدية.
- جييرو أنجولو وإقامات سيزيف.
- لندن ، ثم الرحيل.

إنَّ الأسباب القوية التي حملت جارشيا ماركيز على الذهاب إلى أوروبا كمراسل لصحيفة المشاهد في يولييه ١٩٥٥ حامت حولها كافة التكهنات. ويُقال استناداً إلى الأسطورة الذاتية للكاتب إنَّ السفر كان نوعاً من النفي الإجبارى بسبب الحقد والعداوة السياسية الناجمين عن نشر رواية " الغريق " من جانب النظام الديكتاتورى لروخاس بينيا^(١) . ويُقال أيضاً - وطبقاً لروايات قريبة من أصحاب الجريدة - إنَّ السفر كان فى الواقع مكافأة لنجاحه فى عمله كمحرر ومحقق صحفى طيلة عام ونصف العام^(٢) ، ودون استبعاد هذين السببين ؛ فإن تلاخُط الأحداث يمكن معه استنتاج أن حقيقة سفره كانت ترجع لطابع شخصى ومهنى: فمن ناحية كان جارشيا ماركيز يداعب هذا المشروع منذ وقتٍ طويل ، لأنه كان يريد دراسة السينما فى روما ، وكان يحتاج إلى توسيع آفاقه الثقافية ، وتكوين نظرية كافية عن كولومبيا وأمريكا اللاتينية. ومن ناحية أخرى ؛ فإن أصحاب جريدة المشاهد ؛ بنظرتهم البراجماتية الحذرة كرجال أعمال ، أدركو أن إرسال صحفيهم ذى النجم الساطع إلى أوروبا كان من أفضل الاستثمارات التى يستطيعون القيام بها فى تلك اللحظة^(٣). وكانت المرَّة الأولى التى تجرأوا فيها على إرسال مبعوث شخصى إلى القارة العجوز " أوروبا " .

وربما يكون أصحاب الجريدة قد أدركوا أيضاً أن محققهم الصحفى قد أُلْمَ به التعب والإرهاق طوال ثمانية عشر شهراً من العمل المكثف والمتواصل والمتنوع ، بالعديد من الأسفار ، والأبحاث المستفيضة ، المضيئة والمقاتلات الافتتاحية ، والتعليقات السينمائية ، والتحقيقات المسهبة. وربما يكونوا قد أرادوا التخفيف عن كاهله المثلث بالأعباء وإراحته من عناء التعب والإرهاق بهذه الإرسالية الفخمة ، وبراتب شهرى ثلاثمائة دولار.

كان الإرهاق واضحاً جلياً ؛ فعندما رحل جارشيا ماركيز إلى جنيف لتغطية مؤتمر الأربعة الكبار كان قد نشر منذ ثلاثة أيام فقط سلسلة طويلة عن البطل الذى فاز ببطولة الدراجات ثلاث مرات وهو رامون أويوس ، ولعله كان ينوى من هذا التحقيق تكرار ما فعله مع "حكاية الغريق" ، ولكنه سرعان ما رأى أنَّ المنتج ، وإن كان مكتوباً

بشكل جيد فإنه لم يكن مماثلاً ، وكان من المستحيل أن يكون مماثلاً لأسباب منها أنه كان عملاً لصحفي يجهل عالم وتقنيات هذه الرياضة ، ولأنه كان أيضاً بادی الإرهاق. وبعد عام ونصف العام من العمل المفرط ؛ بلغ جارثيا ماركيز ذروة المجد كصحفي خلال مرحلة بوجوتا. ويذكر ألفونسو فوينمايور ، وألبارو موتيس ذلك الإرهاق الكبير والملل الذي كان يُعاني منهما الكاتب خلال الشهور الأخيرة ، وكان هذا أحد الأسباب التي من أجلها كان يفرُّ إلى بارأنكيا كلما وجد الفرصة سانحة لذلك. وكان يفعل هذا مدفوعاً من الشقيقتين كانتو تفادياً لتعسف النظام العسكري ، وكان يقوم بذلك أيضاً بدافع الحاجة إلى استعادة رائحة الجواقة (إنها الاستعارة التي كان يُشير بها إلى الحنين والحاجة إلى الكاريبي) ، ولرؤية أصدقاء جماعته الذين كانوا يترددون في تلك الأونة على بار لا كويبا " الكهف " ، ولزيارة خطيبته الخالدة مرسيدس بارتشا باربو " التمساح المقدس " ، التي لا زالت تنتظره دون جزع وتكتب له الرسائل خلف منضدة صيدلية والدها .

ومع ذلك ؛ يبدو أن الصحفي مُنْهَك القُوَى كان قد وجد راحة مؤقتة للاسترخاء ، قُبيل أن يُعرض عليه السفر إلى أوروبا. واستناداً لما يذكره خوسيه سالجار إنهم كانوا يُعدون موضوعاً قديماً قدمَ ذاكرة الإنسان ، موضوعاً لم يدع لهم لحظة للهدوء ، كما لم يدعها لفاتحي ومؤسسي المدينة أنفسهم: كنزُ هائل. لقد سرت الشائعة في جميع أنحاء بوجوتا: يوجد تحت ميدان بوليفار أمام القصر الوطني كنز كبير كفيل بإيقاظ روبرت لويس ستيفنسون نفسه من رقادهِ في مقبرته. وقد قام جارثيا ماركيز وألونو سالجار عملاقا الصحافة آنذاك بالسير في الطريق المعاكس للشائعات ، واستطاعا العثور على الأسطورة ، التي بدأت بالفعل تتحول إلى حقيقة ، لأنه في منزل بشارع خيمينيث دي كيسادا عثروا على النفق - الذي مازال تحت الإنشاء - الموصل إلى مكان ذلك الكنز الهائل⁽⁴⁾. ولكن سرعان ما تم السفر إلى أوروبا دون أن يستطيع استكمال التحقيق الصحفي ، الذي لو تم لكان من أروع التحقيقات التي كتبها جارثيا ماركيز في إطار قصص المغامرات. ولكن كانت هناك كنوزُ أخرى ، وبعض أصناف الشقاء تنتظره على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي .

واستناداً لما يقوله جارثيا ماركيز ؛ فإنه قُبيل السفر قام رفاهه وأصدقائه بالصحيفة بإعداد حفلة وداع عاصفة جعلته يستيقظ متأخراً في اليوم التالي ، وقد

تخلف جارتيا ماركيز عن الطائرة التي كانت ستقله إلى باريس في زمن يربو قليلاً على الثلاثين ساعة. ولحسن الحظ؛ فإن الطائرة سوبر كونسيشن تعطلت في أول توقف لها في بارانكيا وتمكن جارتيا ماركيز من اللحاق بها في طائرة أخرى عبر مدينة ميديان بعد ذلك بثلاث ساعات^(٥). وفي الواقع كانت ثلاثة أيام عاصفة من الاستعدادات والفزع ومواقف الوداع. وكالعادة دائماً؛ فإن ألبارو موتيس من مكتبه بشركة أسو كان صديق المهام الصعبة، حيث سلم الكاتب إلى أيد أمينه خبيرة، فأنهت كل أوراق السفر لمغادرة البلاد خلال ثمان وأربعين ساعة فقط. كما ودعته الصحيفة في صفحتها الأولى، وأعطته التذكرة وقليلاً من الزاد مما اضطره إلى اقتراض نقود من هنا وهناك من أصدقائه المقربين. وقد حذره الرسام أليخاندرو أوبريجون - الذي كان موجوداً في بوجوتا آنذاك - من شدة البرد، وأهداه جوارب طويلة من النايلون كانت لديه منذ وجوده في باريس، ولكن جارتيا ماركيز كان نحيفاً للغاية، وقد بدت له الهدية نوعاً من السخرية أكثر من كونها عملاً تضامنياً من صديقه. وقد أعطاه ألبرتو ثلاميا ابن شقيق أوليس - الذي كان قد قام بتغطية المؤتمر السابق عن السلام في الهند الصينية، أعطاه رسالة توصية للسينمائي الأرجنتيني فرناندو بيرى في ثينيثيتا. وقد ودَّعه أوليس نفسه في عموده اليومي "المدينة والعالم" بأطيب التمنيات والتوفيق لأفضل مشاعر الحب والصداقة والإعجاب، معترفاً بأنه سيكون من الصعب جداً عليهم التأقلم في غيبة "جابو". وقام الشاعر خورخي جايتان نوران - أول من نشر "العقيد لا يجد من يرأسه" - بالذهاب إلى غرفة جابو قبيل السفر لتوديعه، وفتش في أوراقه حيث استعاد "مناجاة إيسابيل وهي تشاهد مطول المطر في ماكوندو" لكي ينشرها فيما بعد في مجلته "ميتو" (أسطورة)^(٦). وألبارو موتيس الذي اعتاد على رؤيته يومياً تقريباً على مدى عام ونصف العام كان قريباً منه في تلك الآونة يتحدث له عن أوروبا وتاريخها وأدبها بين كل عشاء وآخر، إلى جوار زوجته ماريًا لوث مونتانيه. وبالنسبة لصديقين يبدوان مثل شقيقين كانت هذه اللحظة أول أخطر لحظة في صداقتهما، أما الثانية؛ فقد كانت بعد ذلك باثني عشر عاماً عندما ترك القصاص مدينة المكسيك للانتقال إلى برشلونة.

وفي بارانكيا، حيث قضى الليلة الأخيرة لكي يأخذ الطائرة المتجهة إلى باريس، لم تكن الأمور على ما يُرام؛ فمرسيدس خطيبته التي تنتظره منذ عشرة أعوام، وبينما

هى تنمو ويقوى عودها كان هو يحاول الاستقرار ، وكان قد وعدها بالزواج منذ وقت قصير. كانت حزينة وقلبها مقبوض ، ولكن على أية حال قالت له لا توجد أدنى مشكلة لتأجيل الزفاف بضعة أشهر ، طالما أن جابيتو سيتحقق له حلم معرفة أوروبا. أما أصدقاء الجماعة مثل البارو ثيبيدا ساموديو وألفونسو فوينمايور وخيرمان بارجاس ؛ فقد أعربوا عن بالغ حزنهم لفراقهم لجارثيا ماركيز ، ولكنهم كانوا يدركون مدى الأهمية الحاسمة لهذا السفر بالنسبة للنبوغ الإبداعي الخلاق لصديقهم. وقدموا له بعض الكتب ، وأهدوه مقالات وداعهم فى صحافة بارأنكيا ، وقد احتفلوا به فى حانة لا كويبا " الكهف" التى كانوا قد انتقلوا إليها منذ رحيله إلى بوجوتا ، ورافقاه حتى طائرة السوبر كونسيشن بعد إصلاحها مؤخراً صباح الجمعة ١٥ يولييه ١٩٥٥ .

وبعد ثلاثين ساعة وصلت إلى باريس فى مساء اليوم التالى ، وقد هبطت الطائرة وهى فى طريقها إلى باريس فى برمودا وجزر الآزور ولشبونة ومدريد ، وفى أكثر من مرة تم تغيير المراحل لها. وكما كان نجماً للصحافة ، ومراسلاً خاصاً لصحيفة المشاهد ، فقد سافر ماركيز فى الدرجة الأولى ، حيث كان هناك مسافر آخر فى نفس الدرجة: فرناندو جوميث أجوديلو مدير التليفزيون الكولومبى الذى تم إنشاؤه مؤخراً ، والذي كان متوجهاً إلى فرانكفورت لشراء تكنولوجيا تكميلية ، والذي كان جارثيا ماركيز يرتبط معه بصداقة من جرأء ولعهما المشترك بالموسيقى ، التى تحدثا عنها بين كأس وآخر حتى أبلغتهما المضيئة فى باريس أن الطائرة على وشك الهبوط ، وعليهما ربط أحزمة الأمان والجلوس فى وضع الاعتدال مثل الجنين فى بطن أمه لأن الطائرة كونسيشن المرهقة لم تستطع فرد عجلاتها على ممر الهبوط.

وفى اليوم التالى استقل جارثيا ماركيز القطار إلى جنيف حيث وصل إليها مساء يوم الأحد ١٧ يولييه ، أى بعد يومين من مغادرته بارأنكيا. وعلى الرغم من أن درجة الحرارة كانت ٢٠ درجة مئوية ، وكان هذا وجه الشبه الوحيد بين العالمين فى فصل الصيف فإن نظرتة الكونية ستظل مثل الثعبان الذى يعُضُ ذيله: " عندما كنت أسافر فى هذا القطار كنت أرى الطريق ، وأدركت أن العشب كان تماماً مثل العشب الذى كنت أراه عبر نوافذ قطار أراكاتاكا ، وقلت لنفسى : ساعات سفر طويلة ، ومزيد من الشراب ، وتغيير مراوح الطائرة ، ومع ذلك يستمر العُشب تماماً مثلما كان فى

قطار أراكاتاكا^(٧). إن طريقة المقارنة هذه للواقع الأجنبي مع الواقع الكولومبي والواقع الأصلي لم تكن فقط عادة من نظرتة الكونية كقصّاص ؛ بل كانت أيضاً طريقة أو وسيلة حتى لا يترك نفسه للانتبهار بما هو جديد فى القارة العجوز " أوروبا".

وفى الظاهر لم يترك نفسه للانتبهار ، ولكن عندما اضطر لإرسال برقيته الأولى شعراً بالذعر المرعب ، مثل الذى عايشه قبل عام عندما اضطر لكتابة أول تحقيق له كمراسل عن انهيار حى ميديا لونا (الهلال) فى ميدياين. وبمجرد أن نزل من قطار جنيف ، ودخل أول فندق رآه ، وغيّر ملابسه ، وخرج إلى الشارع ، ونظر إلى الساعة ، وتذكر أن الوقت الآن فى بوجوتا الساعة العاشرة أو الحادية عشرة صباحاً فكر حينئذٍ أنه لا يزال لديه مُتسع من الوقت لإرسال أول برقية له، ولكن كيف؟. لم يكن يعرف كيف يصل إلى قصر الأمم المتحدة ، وما هو أسوأ أنه لم يكن يعرف التحدث بلغة أخرى غير الإسبانية ؛ فقد كانت فرنسيته بدائية ، وكان يتحدثها بصعوبة بالغة. وهكذا ؛ بدأ يسير فى الشارع ، وسُرعان ما شاهد قسيساً ألمانياً ذا ملامح باسكية كان يتحدث الإسبانية بطلاقة ، وكان ذلك بمثابة إنقاذ له. وفى قصر الأمم المتحدة انتهى من التقاط أنفاسه عندما التقى مع مندوبى الصحافة من أمريكا اللاتينية ، ومع بقية الكولومبيين: الصحفى كارلوس بويو ديلجادو ، قنصل كان حراً طليقاً فى أوروبا ، وكاتب المقالات والمؤرخ خيرمان أرثينيجاس ومراسل صحيفة " الزمن" ، ومؤلف كتاب خالد: سيرة ذاتية للكاريبى ، الذى علمه جماله الظريف كثيراً عن وطنه ، كما عزّز فيه ولعه القديم بقراصة إيميليو سالجارى^(٨).

وكما هو منطقى فإن مؤتمر الأربعة الكبار بين الجنرال أيزنهاور وبولجاتين ، وإيدن ، وفاورى عقد فى جنيف وسط درجة حرارة بلغت ٢٠ درجة مئوية ، وقد مثلت الحرارة الشديدة الحياة فى جنيف. وقد فهم جارتيا ماركيز هذا - فى بادئ الأمر - على أنه عدم اكتراث من جانب المدينة إزاء الحدث العظيم حيث أن الحر الشديد فى بارأنكيا لا يُصيب المدينة بالشلل ؛ بل على العكس من ذلك تماماً يجعلها تعجُ بالناس بين الذاهبين والغادين فى مختلف أنحاءها. ولذلك فقد أخذ المعلومة بحرفيتها ، بطيش الكاريبى الخام الذى ما لبث أن وصل إلى المدينة واخترع البرقية الأولى: " جنيف تنظر بلا اكتراث للاجتماع" ، وقد تصدّرت هذه البرقية صحيفته فى اليوم التالى.

وعن المؤتمر الذى استغرق أسبوعاً ، وحضره أكثر من ألف مُراسل من جميع أنحاء العالم كتب جارثيا ماركيز برقيتين أُخريين وستة تحقيقات^(١) ، ومع ذلك فإنَّ الصحفي الشهير واللامع لم يكن كما هو معهود فيه فى أول اتصال له مع العالم القديم. وباستثناء قدرته على عرض المعلومات وسرد الحكاية ، يصعب علينا الاعتقاد أن التقارير الأولى لنفس الصحفي الذى كان قد كتب تحقيقه الشهير " تشوكو التى تجهلها كولومبيا " ، و " الحقيقة حول مغامرتي " فإن البرقيات الثلاث والتحقيقات الستة كانت تفتقر للإعداد الجيد لدى جارثيا ماركيز ، فضلاً عن كونها مفعمة بالنوادر والحكايات السطحية ، لدرجة أن الكاتب وجد نفسه صحفياً محدوداً وإقليمياً فى عاصمة العالم السياسية ، بينما كان يعمل فى كولومبيا من إحدى المحافظات ، وكان صحفياً كلاسيكياً وعالمياً مرموقاً. ولكن هذا يُفسَّر بضيق الوقت ، ولكنه مثل باقى المراسلين ليس له دراية بأغوار السياسة العالمية التى يتداول حولها الزعماء الأربعة الكبار ، فضلاً عن كونه لا يعرف المدينة ويجهل اللغات الأخرى مما عذَّر عليه توسيع مصادره. حينئذٍ وبمهارة ما ظلَّ على هامش الأحداث وتفرَّغ للمزاح وسرد النكات ويرسل مغازلات لخطيبته فى ماجانجى ، وإلى أصدقائه فى صحيفة الاسبكتادور " المشاهد " ، وإلى أصدقائه المقربين فى بارأنكيا وهو يحاول أن يبرز لهم أن أوروبا العجوز لم تبهره.

لقد كان هذا تدهوراً عارضاً: وبمجرد أن استقر فى روما وبعد ذلك فى باريس ، وكانت لديه فسحة من الوقت ، وبدأ يجوب ويطوف مدناً أوروبية أخرى ويتعلم الإيطالية والفرنسية عاد إلى كتابة التحقيقات الكبيرة التى تليق " بأحسن مهنة فى العالم " ، بروايات هائلة مثل اغتيال الشابة الرومانية. ولما مونتيسى ، التى بسبب فاتورتها الممتازة جعلنا نتذكر رواية الغريق لويس أليخاندرى بيلاسكو. ومع ذلك فإن الخبرة فى جنيف ستترك مؤشرات مثمرة سيستغلها بعد ذلك فى سنوات لاحقة فى إحدى قصصه بعنوان " اثنتا عشرة قصة غريبة " ، وكانت عبارة عن مذكرات سُردت فى أسلوب قصصى للصحفى والكاتب والسينمائى الذى ذهب إلى أوروبا. الرودانو وبحيرة ليمان والبورج ليه فور ، وتمثال كالبينو ، وزهور ياسمين فصل الصيف ، ونكرى المحطة ورائحة المدينة فى الصيف ومقاهيها ، ستكون له أكبر عون فى إعداد قصة المخلوع والنفى الرئيس لا مارتينيكا بعد ذلك بخمسة وعشرين عاماً فى قصته " سفرٌ سعيداً ياسيادة الرئيس ".

وطبقاً للخطة المتفق عليها مع صحيفة الاسبكتادور ، انتقل جارثيا ماركيز من سويسرا إلى إيطاليا ليغطي المعرض السادس عشر للفن السينمائي في البندقية. ويمزاحه المعهود والدائم يذكر أنه في أعقاب انتهاء مؤتمر جنيف أرسلت له الجريدة تلغرافياً تطلب منه الذهاب إلى روما خشية أن يموت البابا من الغُصة " الزغطة" (١٠). لقد أصيب البابا بيو الثاني عشر بنوبة غُصة خطيرة في الخريف الماضي ، عندما كان جارثيا ماركيز لا يزال في بوجوتا، ولكن الآن قد تحسن ولن يموت إلا بعد ثلاث سنوات. ومما هو أكيد أن روما كانت أحد الأهداف التي كانت تتوق لها نفس جارثيا ماركيز : فهناك سينيستا ، وربما يستطيع التعرف هناك على الذين يحوزون إعجابه ؛ بيتوريو دى سيكا وثيسارى ثباتيني. إن الذين تعاملوا معه في ذلك الحين يؤكدون جميعاً على أن حصبته السينمائية كانت قارصة أو أشد وطأة من حصبته الأدبية والصحفية.

إن شدة الحرارة التي باغته في المحطة في آخر يوم أحد من يولييه لم تكن مقترنة بالرطوبة كما في بارأنكيا ، ولكنه مع ذلك كان حراً جهنمياً. وربما يكون أسوأ لأن درجة الحرارة بلغت خمساً وثلاثين درجة فضلاً عن الغبار الألفى للمدينة. " إنه مثل أراكاتاكا تماماً " قال لنفسه ، بينما كان يبحث عن حمال يساعده في حمل الحقائب الرحالة في تلك المدينة المشلولة. لقد وجد حملاً ، ومعه أول مُرشدٍ قاده إلى فندق متواضع قريباً من شارع بيا ناثيونالي (الطريق الوطني) (١١).

"كان طريقاً قديماً ، وقد أعيد تمهيده وتعبيده بمواد متعددة" ، ويذكر جارثيا ماركيز أنه كان في كل دور من طوابقه فندق مختلف. لقد كانت نوافذه قريبة من أطلال المسرح ، ولم تكن تُرى من خلالها إلا آلاف الآلاف من القلط التي كانت تنام في مدرجاته اتقاءً للحر ؛ بل كانت تُشم منها أيضاً رائحة البول المتخمر العفن. وقد نصحنى مرافقى الطيب الذي كان يحصل على عمولة من جرأء جلبه لنزلاء للفنادق بأن أنزل بفندق في الطابق الثالث ، لأنه الوحيد الذي كان يتضمن سعره الوجبات الثلاث (.....) كانت الساعة الخامسة مساءً ، وكان بالبهو سبعة عشر إنجليزياً جالسين ، كلهم رجال ويرتدون السراويل القصيرة ، وكلهم يراودهم النعاس. وعند النظرة الأولى كانوا جميعاً يبدون سواسية كئن شخصاً واحداً تكرر ست عشرة مرة في ممر المرايا، ولكن أهم ما لفت نظري كانت رُكبهم العظمية والوردية اللون (.....) ، ومع ذلك لا أدري أى مقدرة خفية للكاريبي

همست لى فى أذنى بأن تتابع هذه الرُّكب الوردية كان عبارة عن رسالة مشنومة. حينئذٍ قلت لرفيقي خذنى إلى فندق آخر لا يوجد فيه إنجليز كثيرون جالسين فى فناء الفندق، وقد حملنى نون أن يسألى إلى الطابق التالى. وفى تلك الليلة تسمم ستة عشر إنجليزياً وجميع نزلاء فندق الطابق الثالث من طعام العشاء^(١٢). وبهذه الخبرة الرومانية الغذائية الأولى كانت قصة أخرى من قصصه الغربية " ستة عشر إنجليزياً فى حالة تسمم " ، وقد حدث ذلك فى الخيال فى نابولى فقط إحدى المدن الإيطالية الأخرى التى تركت أثراً لا يُمحى فى جارتها ماركيز ، ولكن روما كانت بمثابة فسقية أو نافورة لا تتضب من القصص والشخصيات خلال شهر أغسطس الشديد الحرارة والمهجور ، ومع ذلك لم يرسل جارتها ماركيز سوى تحقيقين قصيرين: أحدهما عن إجازة البابا بيو الثانى عشر فى كاستيلجا ندولفو ، وثانيهما عن المؤتمر العالمى لشهود الرب^(١٣) (جماعة دينية مسيحية تقترب من تعاليم الديانة اليهودية ، وهى مجموعة نشطة جداً فى أوروبا) . إن الاهتمام بالبابا الذى خصص له خمسة تحقيقات فى خمسة أشهر كان له تفسيره المزدوج ، نظراً لاهتمامه الشخصى والأدبى بشخصيات السلطة العليا والتى ستكون صحبتها وصداقتها إحدى الأمور التى كان الكاتب يفخر ويزهو بها ، لاهتمامه الصحفى بشخص أصبح أكثر شهرة منذ الخريف الماضى بسبب نوبة الغصة الحادة مما جعل الكاتب وخوسيه سالجار لا يقر لهما قرار طيلة ثلاثة أسابيع فى تحرير صحيفة الاسبكتاتور " المشاهد " . ولذلك فقد تابعه إبان الأيام الأولى لذلك الشهر حتى قلعت الصيفية فى كاستيلجاندولفو ، حيث حضر جلستين عامتين إلى جانب المظهر الطاهر الناصع لقداسته. فالرؤية القادمة للبابا وتفاصيل " يديه الطفيليتين اللتين كانتا تبدوان كأنهما غُسلتا بالبطاس " واعتباراً من ذلك الحين أصبح البابا شخصية عابرة ، ولكنها دائمة فى قصص وروايات جارتها ماركيز .

وأول مرة ظهر فيها البابا فى قصة " جنازة الأم الكبيرة " ، حيث أخذه حتى ماكوندو فى زورق أسود ، وعلى وجه التحديد من كاستيلجاندولفو لحضور جنازة الأم الإقطاعية^(١٤) . وكانت آخر مرة ظهر فيها باسمه العادى فى قصة " القديسة " : إحدى قصصه الغربية ، والتى حكايتها الحقيقية كان قد عرفها جارتها ماركيز خلال هذه الأيام المجنونة فى روما .

وطبقاً لإحدى مقالاته الصحفية الخالدة^(١٥) ، فقد كان يقيم بالحجرة المجاورة لغرفة مغنى الأوبرا الكولومبى رفائيل ريبيرو سيلبا فى لوكاندا بحى باريولى الهادئ

بالقرب من فيلاً بورخيس عندما ظهر المدعو مارجاريتو دوارتى كأنه شخصية تبحث عن مؤلفها ، ومع ذلك فإن ما جاريتو دوارتى كان قد وصل من قريته النائية فى جبال الأنديز الكولومبية بفضل تبرع عام لسبب جاد: هو الحصول على الاعتراف الكنسى بطهارة جسد ابنته التى توفيت فى السابعة من عمرها . وكان القنصل الكولومبى قد أرسله إلى المكان الموجود به ريبيرو سيلبا لكى يبحث عن مأوى فى اللوكاندا . وفى ذلك اليوم حكى دوارتى للاثنتين حكاية معجزة القديسة كما كان يقول عنها ، فضلاً عما حدث له فى رحلته ، وأسباب وجوده فى روما . والذى لم يشك فيه مارجاريتو دوارتى هو أن هذه الرحلة ستجعله أسيراً لروما باقى حياته ، وأنه مصمم على عمل عملاق ويأهظ التكاليف كهذا ، وأن غاية مراده هو أن يلتقى شخصياً مع البابا .

وإذا كان مارجاريتو دوارتى قد ظل شخصاً مجهولاً فى روما القديمة ؛ فإن جارثيا ماركيز أخذ يسافر ويكتب ويستكمل نضجه ليكتب عمله الكبير ، ولكن دون أن يجرؤ تماماً على أن يغرس أنيابه فى حكاية هى فى ذاتها قريية جداً من الأدب ونهايتها غير متوقعة، وقد تبدو غير واقعية فى الأدب ، وهى بالفعل ستكون ذات عائد أدبى متواضع بعد ثلاثين عاماً من تلك اللحظة^(١٦).

وقد أسهمت قصة القديسة بنوع ما من الشراكة فى الصداقة الحديثة بين جارثيا ماركيز ومغنى الأوبرا رفائيل ريبيرو سيلبا ، وهو شخص كولومبى متواضع ، كالكاتب تماماً ، أعد نفسه بالمثابرة والصبر والانضباط. وبينما تفرغ الصحفى لمتابعة البابا خطوة خطوة خلال شهر أغسطس ؛ فإن الحكم فى قضية اغتيال فتاة روما ويلما مونتيسى (فضيحة أقضت مضجع إيطاليا قبل عامين) ، فقد كان المغنى الأوبرالى يستيقظ مبكراً لكى يسخن صوته ويغنى على سطح المنزل فى ذلك الحى الهادئ حى يارولى. وبعد تناول الطعام ، عندما كانت روما تنام القيلولة ، كان الاثنان يقومان بالطواف والتجوال على دراجة بخارية معارة فى شوارع وأحياء المدينة (روما) يشاهدان فتيات الهوى الحزينات فى فيلاً بورخيس ، يرتدين الأورجانزا الزرقاء والبولين الوردى ، وبعد ذلك يقومان بتناول جيلاتى فى الناصية المجاورة.

إن الصداقة مع المغنى الذى كان قد قضى ست سنوات بالمدينة ، والذى خصص له جارثيا ماركيز تحقيقاً عن نجاحه الباهر فى أوروبا^(١٧) ، كانت له خير سند وعون خلال

الشهور الأولى للكاتب ؛ فقد أصبح لسانه الفصيح ، ومترجمه التلقائي فى ذلك الوقت الذى كان يجهل فيه الإيطالية ، وكان عمله يضطره للتحرك بين الناس من جميع الأصناف والأيدولوجيات ، واستشارة كثير من المصادر كما حدث له فى التحقيق التفصيلي عن اغتيال ويلما مونتيسى ، الذى خصص له شهر أغسطس وجزءاً من سبتمبر. وكان هذا التحقيق أول أهم الأعمال التى بعث بها جارتيا ماركيز من أوروبا إلى صحيفته فى بوجوتا. لقد قضى شهرين تقريباً منذ وصوله ولم يكن بعد قد نشر شيئاً ذا بال ؛ فقد كانت التحقيقات الأولى فى الواقع التزامات عاجلة للمراسل ، وكثيراً من الحشو الذى لا طائل وراءه. ولذلك فقد بذل جهداً جهيداً فى أحد أعماله المعقدة والكاملة. وكان يعرف أفضل من الآخرين أن صحيفته أرسلته إلى أوروبا لى تستمر الدجاجة التى تبيض ذهباً فى إرسال أفضل التحقيقات من القارة العجوز. " فضيحة القرن" (١٨) كانت بالفعل نجاحاً صحفياً آخر ، وكانت علاوة على ذلك عملاً ممتازاً لإثبات المهارات التقنية لمؤلف " نبأ موت مُعلن". وعلى الرغم من أنه لم يصل إلى الأسلوب الناعم الصافى والمؤثر لقصة " حكاية غريق" ، فإن قصة " قضية اغتيال فتاة روما وويلما مونتيسى " وإعادة تجسيد وتمثيل الجريمة ، وكذلك التحقق من هوية القتلة وكشف الاسم الحقيقى لويلما ، تبرهن بجلاء على أن جارتيا ماركيز أصبح روائياً ناضجاً ذا مصادر هائلة ، يستطيع الشروع فى كتابة أعماله الكبيرة. ولكن القصاص سيظل شاردًا غارقاً لبضعة أشهر أخرى فى أحلامه السينمائية ، وفى تطلعاته الحميمة فى أن يُصبح ثيسارى زفانتيني ، أو ربما بيتوريو دى سىكا.

إن منصب المراسل المرموق لتغطية أحداث المهرجان السادس عشر للفن السينمائى فى البندقية ، فيما بين أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر ، أسهم كثيراً فى هذا الشرود. لقد ظل يشاهد أفلاماً سينمائية طيلة أسبوعين ليلاً ونهاراً مما أصابه بأول سُكرٍ سينمائى فى حياته. ولكن الظروف كانت مواتية ؛ فالخريف الدائم والبرودة سرعان ما استحوذا على مملكة الزوارق ؛ بينما كانت الوفود تصل تباعاً من جميع أنحاء العالم. وكان الجديد فى الأمر وصول وفود من الدول الاشتراكية الشرقية ، الذين قدّموا مُلهمين بروح مؤتمر جنيف الأخير حيث شاركوا لأول مرة فى المهرجان منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وكان تحمس جارتيا ماركيز كبيراً (مثلما كان عليه الحال فى

تحقيقاته الكبيرة) ، ففي الأسبوع الثاني اقترح على مخرج فرنسى شاب أن يُعانى ويصور فيلمه فى كولومبيا ، حيث يوجد أناس مهتمون بإنتاج أفلام مشتركة مع فرنسا وإيطاليا انطلاقاً من أن الأفلام ينبغي أن تُقدم مناحاً كولومبياً حقيقياً ، ولكى تسهم أيضاً فى إعداد وتكوين ممثلين وفنيين كولومبيين^(١٩). لقد كانت مبالغة ، ولكنها كانت متبلورة جيداً فى خياله القديم للإسهام فى تأسيس سينما وطنية فى بلاده.

ومن بين النتائج الإيجابية الأخرى لهذا المهرجان تلك الاتصالات التى أجراها للسفر إلى تشيكوسلوفاكيا وبولندا بعد ذلك بعشرة أيام عبر النمسا. فقد كان حتى ذلك الوقت قريباً من الحزب الشيوعى الكولومبى ، ومدفوعاً بفضوله للتعرف على الاشتراكية الحقيقية على الطبيعة ؛ هذا أحد الأحلام القديمة التى كانت تراوده خاصة وأن جارثيا ماركيز كانت تساوره الشكوك حول أن أى نظام مثل أى ديانة يقوم على الاعتقاد ، وكان يُدار بصورة عملية على أساس بيروقراطية مُهلكة. إن السفر إلى بولندا كان ينطوى على اهتمام إضافى ، وهو التمكن من حضور مهرجان وارسو للسينما الذى كان قد دُعِيَ إليه كممثل لكولومبيا. وقد سافر فى قطار من تريستي ، حيث وصل إلى فيينا ليلة ٢١ سبتمبر ، وكان ذلك أحد الشروط التى فرضتها معاهدات ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ومع ذلك فإن اتصاله الأول مع الاشتراكية الحقيقية كان قد أضطر إلى كتمانهِ طيلة أربع سنوات. إن مناهضة الشيوعية كانت أمراً أخرق فى كولومبيا كما فى إسبانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية، وأن مجرد معرفة أن شخصاً عبر حدود الستارة الحديدية يمكن أن يجر عليه تبعات وويلات لا حصر لها ، وعلى صحيفته ، وخاصة فى دولة ترزح تحت حكم الديكتاتورية العسكرية ؛ ولذلك فقد تحدث هذه المرة عن وجوده فى فيينا فقط حيث أرسل ثلاث تحقيقات تاركاً موضوعات بولندا وتشيكوسلوفاكيا إلى ما بعد ذلك بعامين ، عندما كتب فى باريس سلسلة بعنوان " تسعون يوماً أمام الستارة الحديدية" ^(٢٠) .

لقد سحرته فيينا . فبعد أن تنزه فى البندقية المدينة المائية البرّاقة ؛ فإن مدينة الرجل الثالث كانت أشبه بغابة ذهبية بها منازل يعيش فيها سُعداء وبودين ، مليون شخص من أهالى فيينا فى سعادة حديثة تولدت عن الحرية الشاملة التى حصلوا عليها فى النهاية ، دون وصاية القوى التى انتصرت فى الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك ؛ فقد

بهرته أكثر مدينة فيينا بسبب فيلم كارول ريد . كما غمرته السعادة عندما زار الأماكن التي سار فيها أورسون ويلز ، وجوزيف كوتين ، وهذا دليل آخر على أن جارشيا ماركيز قدّم إلى أوروبا بحثاً عن السينما أكثر منه عن الأدب . ولكن ذلك كان حتمياً لا يمكن تفاديه لأن الأدب كان ملازماً له يرافقه كظله : فقبيل العودة إلى روما بيوم واحد ، وفي خمارة يتردد عليها الطلاب اللاتينيون التقى بالسيدة التي سيلقبها بعد ذلك بفراو روبرتا (ثم بفراو فريدا في " أستأجر نفسي لكي أحلم ") . إنها مواطنة أنديزية كانت أدباً صافياً بمعنى الكلمة . وبالفعل كانت تؤجر نفسها - لتكسب قوتها - لتحلم في أحضان أسرة في فيينا .

وكما في كل قصصه ورواياته ؛ فإن القصص الاثنتي عشرة الغريبة كانت تُغذى بشخصيات واقعية عرفها جارشيا ماركيز خلال هذه السنوات في نصف أوروبا . ولكن من المستحيل عملياً معرفة إلى أي درجة كانت هذه الشخصيات واقعية ، وفي أي نقطة بدأت تتحول إلى أدب حيث إنه على خلاف ما كان يحدث في اللحظات الإبداعية لأعماله ، ففي هذه الحالة نستعين بشهادات جارشيا ماركيز ذاته التي أدلى بها في مقابلات هنا وهناك ، وفي مقالاته الصحفية ، وبالطبع فإن هذا لم يتعد كونه مجرد اهتمام لثقافة بيزنطيين لأن ما هو ثابت هو أن القصة السعيدة الغير قابلة للتصديق لفراو روبرتا ستكون منذ ذلك الحين - وإلى الأبد - بسيطة وصافية في أيدي ساحر أراكاتاكا .

وعلى أية حال ؛ فإن فراو روبرتا - طبقاً لما يحكيه لنا جارشيا ماركيز نفسه - كانت تحلم في ذلك الخريف : في آخر ليلة تحادثاً فيها وهما يسيران على ضفاف نهر الدانوب ، اعترفت له بأن آخر حلم لها مرتبط به ، وطلبت منه مغادرة فيينا فوراً وألا يعود إليها قبل خمس سنوات . وهو بما يحمل من خزعبلات وخرافات الكاريبي المركبة أخذ أول قطار وعاد إلى روما ، ولم يعد بعد ذلك أبداً إلى مدينة الرجل الثالث^(٢١) .

وبينما كانت صحيفة الاسبكتادور تنشر له تحقيقاته الثلاثة عن فيينا طوال نوفمبر وديسمبر ، وثلاثة أخرى عن جينا لو بريجيديا ، وصوفيا لورين ، وأربعة تحقيقات أخرى عن البابا^(٢٢) ، اجتهد جارشيا ماركيز في دراسة الإخراج في مركز السينما التجريبي ، حيث سجّل في أواخر أكتوبر على أيدي ملاكه ونصيره الجديد : السينمائي الأرجنتيني فرناندو بيرري .

وقد اضطر بيرى إلى الفرار من الحكم البيرونى بسبب معتقده اليسارية ، وقد أمضى فى سينيسيتا خمس سنوات بعد امتحان شاق عن المواطن كانى ، وحيث نال جانباً من الشهرة كمساعد لبيتوريو دى سيكا وئيسارى زفاتينى. وبهذا الشكل لم يجد جارثيا ماركيز أفضل منه راعياً لكى يحاول بلورة تطلعاته السينمائية القديمة فى قبلة السينما الأوروبية حيث تخرج جيل من السينمائيين العباقره من أمريكا اللاتينية.

إن الصورة الخالدة التى احتفظ بها بيرى عن الكاتب هى نفسها عندما تعارفنا خلال ذلك الخريف فى ثينيثيتا: إنه رجل ذو قامة عادية نحيف للغاية ، وشاحب الوجه ، ذو شارب كثيف ، وطاقية ومعطف طويل كان يصل إلى عقبه. وفى رسالة التوصية التى سلّمها له ألبرتو ثلاميا من الشاعر خورخى ثلاميا وابن شقيق أوليس ، والموقعة فى بوجوتا ، طلب فيها بإلحاح من بيرى مساعدة صديقه الكاتب والصحفى الذى يريد غزو عالم السينما. ولم ييخل الأرجنتيني بيرى على جارثيا ماركيز بأى شئ ؛ فقدم له كل شئ منظمًا ومرتبًا ومنسقًا ، وقد اصطحبه فى جميع أنحاء مركز السينما التجريبي ، كما قدّمه إلى جميع الأشخاص الذين يهتمونه^(٢٣).

وقد وجد جارثيا ماركيز منذ الوهلة الأولى فى بيرى صديقاً آخر من أصدقائه وشركائه طوال حياته ، كما أن مدينة روما الشخصية فى حى بارىولى ، حيث كان يعيش مع المغنى الأوبرالى الكولومبى رفائيل روبرتو سيلبا قد اتسعت أمامه حتى رقم ٩ فى ميدان إسبانيا ، حيث كان يعيش الأرجنتيني بيرى فى غرفة تغطى جدرانها قصاصات المجلات والصحف وحتى المقهى المجاور مقهى إسبانيا ، حيث كانا يتناولان الكؤوس ويتحدثان طوال ساعات عن مستقبل السينما الأمريكية اللاتينية ، وحيث كانا يحلمان بالعمل سوياً فى السينما ، وهذا ما تحقق لهما بعد ذلك بثلاثين عاماً فى مدرسة سينما سان أنطونيو دى لوس بانىوس.

ولهذا ؛ فلم يكن دافعه إلى الدراسة لمدة شهرين فقط فى مركز السينما التجريبي هو الافتقار إلى الصداقة ، أو وقوعه منذ البداية فى أسر روما ذات الألف عام ؛ بل كان الدافع هو طريقة التدريس الأكاديمي العقيم التى كانت سائدة فى المركز.

وكمولع بالسينما وكاتب يعرف تقنيات السرد كان جارثيا ماركيز يفهم جيداً الخيط الخفى الذى يُقوى السينما ذات الموضوع وهو السيناريو ، ولذلك كان إعجابه

بلا حدود بزاباتيني ، هذا الصانع السرى الذى كان وراء نجاح أفلام دى سىكا ومخرجين آخرين. كان السيناريو لذلك ، الأقرب إلى اهتماماته وأبحاثه كأديب وقصاص ، ولذلك كان هدفه واضحاً جلياً: دراسة السيناريو والسيناريو فقط، ولكن هذه المادة لم تكن موجودة كتخصص فى المركز ؛ بل كانت بالكاد مادة ضمن المواد التى كانت تُدرّس فى دورة الإخراج ، وقد وجد نفسه مضطراً للتسجيل فى هذه الدورة.

إنّه بما لديه من حساسية مزمنة تجاه التعليم الأكاديمى سرعان ما انتابه السأم ، وبدأ يتغيب عن المحاضرات ، كما كان يفعل من قبل فى بوجوتا وقرطاجنة ، عندما كان طالباً يدرس القانون. كانت المحاضرات نظرية مفرطة ، وكان الأساتذة يعتقدون أن الأكثر نفعاً وفائدة بالنسبة لخريجى المستقبل وكاتبى السيناريو هو معرفة فن جماليات السينما ونظرية اللغة السينمائية أو التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للسينما. ولذلك فقد استاء جارثيا ماركيز بسرعة ، وإذا كان قد تحمّل لمدة سبعة أو ثمانية أسابيع ، فقد كان ذلك بسبب سروره لتقدمه فى دراسة اللغة الإيطالية ، ولأنه وجد أيضاً فى الأدوار الأرضية محفزات أخرى: إمكانية رؤية كلاسيكى السينما فى مكتبة السينما ، وكذلك لكونه إلى جوار الدكتوروسادا ، وهى سيدة لم يُعرها الطلاب وكتاب السيناريو إلا قدراً متدنياً من الاهتمام ، على الرغم من أنها أستاذة المونتاج ، وكانت ساحرة المويولا (فن العرض البطئ والمشاهد المشكوك فيها). وكانت تُلحّ عليهم فى أنه بدون معرفة قوانين المونتاج التى هى بمثابة القواعد النحوية السينمائية لا يمكن للإنسان أن يكون كاتب سيناريو جيد على الإطلاق. ولذلك تحمّس وقضى الأسابيع الأخيرة يدرس مع هذه الأستاذة جانب استمرارية الحكاية السينمائية^(٢٤). وبعد ذلك بعام عندما جاء المصور جييرمو أنجولو يسأل عن جارثيا ماركيز ، فإنها كانت لا زالت تتذكره بوصفه الشخص المتحمس لما يفعله، وأسِفّت لأنه ذهب لكى يعيش فى باريس^(٢٥).

وخلال هذه الأشهر عانى جارثيا ماركيز من تجربة قصيرة ، حيث عمل مساعداً ثالثاً للمخرج أليكساندرى بلاسييتى فى فيلم " خسارة أن يكون وغداً" مما سبب له فى البداية سعادة كبيرة ليس من جرأء الدور الذى عُهِدَ إليه فى المركز ؛ بل للفرصة السانحة لرؤية الممثلة الأولى للفيلم: صوفيا لورين، ولكنه لم يرها. ويتذكر ذلك قائلاً: إن عمله كان يقتصر- خلال ما يزيد على الشهر - على الإمساك بحبل فى أحد النواحي لمنع مرور الفضوليين^(٢٦).

ومع ذلك؛ ففي هذه الحالة لم تكن خسارة بالنسبة له أن عاملوه كوغد ، حيث إن دوراً أكثر جاذبية في فريق التصوير السينمائي سيفتح له شهيته السينمائية ، ولعل هذا كان يمكن أن يغير للأبد مسار حياته بتأجيل ، أو ربما إلغاء مواعيده مع " العقيد لا يجد من يرأسه" في باريس ، ثم " مائة عام من العزلة" في المكسيك ، ثم " خريف البطريق" في برشلونة ، ومع كتب أخرى أساسية سيتمكن من كتابتها ربما بفضل إخفاقاته المتكررة في مجال السينما .

ولكن باريس كان من غير الممكن أن تغيب عن خط سيره الحياتي والأدبي . فعندما وصل في قطار روما في تلك الليلة من شهر ديسمبر ١٩٥٥ ، كان جارثيا ماركيز يعتقد - مثل أستاذه هيمنجواي - أن باريس بالفعل عيد" ليس بسبب كونها مدينة عالمية ، ولا بسبب أسطورتها الأدبية وأضواء وزينات أعياد الميلاد ؛ بل لأنه وجد فيها المحبين يتبادلون القبلات في جميع الأنحاء: في القطارات ، والحافلات ، والميادين ، والحدائق ، وصالات السينما والمقاهي^(٢٧) . فبالنسبة لمواطن كاريبي خام ، وخيالي وحسي ؛ فإن المتعة المتكررة للحب في مقهى عام جعلته يشك أن مدينة النور ، التاج الذي " يتوق له كل الرجال" كانت أكثر بكثير مما قاله أستاذه الأمريكي: إنها جنة عدن الخالدة ، حيث يستطيع الإنسان أن يرتكب الخطيئة دون أن تطبق عليه فكرة الخطيئة الأصلية ، لأنه حتى في مدينة روما الألفية بتاريخها العريق في فنون الغرام بدا له فيها أن الحب لا يزال شيئاً نادراً يلفه الحياء والرزانة .

إن باريس هي باريس تلك المدينة التي قال عنها نيرودا " إن الزمن يمرُّ وباريس باقية" . إنها المدينة القادرة على تحويل بعض الموضات البسيطة إلى حركات أدبية وفنية مثل السريالية ، أو على تحويل الولادة المؤلمة إلى حرب الجزائر ، وأحداث مايو ٦٨ ، وتظل هي خالدة تضطجع على ضفاف نهر السين ، إنها مدينة التدفقات الطليعية والعطور التي لا تتبدل ولا تتغير ، وربما لهذا كانت تتعلق بها آمال الغريب ، وقد يعاني فيها الدخلاء من الجوع . وسوف يعاني جارثيا ماركيز من ذلك بعد وقت قليل سواء في حالة اليقظة أو في حالة النوم . ولكن على الرغم من ذلك ، وفي هذا التناقض العجيب للحضارة الأوروبية ؛ فإن قصاص ماكوندو - حيث يحدث كل شيء حقيقة - سيعيش عامين بين النُعم والملذات والظلال (ظلال عميقة ومقلقة) ، لكي يكتب إحدى قصصه الممتازة ، ولكي يكتسب منظوراً حراً وواضحاً لكولومبيا وأمريكا اللاتينية .

ولم يستطع أن يجد - حينذاك - مكاناً أفضل من شارع كوجا فى الحى اللاتينى - وهو شارع كان يعيش فى فنادقه كثير من مواطنى أمريكا اللاتينية المنفيين اضطرارياً أو اختيارياً ، وقد بدأ هذا الشارع يُعرف باسم قبيلة آل كوجا - ذلك أنه كان عصر الديكتاتوريات المنتشرة فى أمريكا اللاتينية مثل روخاس بينيا فى كولومبيا ، وخوان دومينجو بيرون فى الأرجنتين ، ومانويل أودريا فى بيرو ، وأناستاسيو سوموثا فى نيكاراغوا ، ورفائيل ليونيداس تروخيو فى سانتو دومينجو ، وفولخينثيو باتيستا فى كوبا ، وبيريث خيمينيث فى فنزويلا. وبعد الأيام الأولى فى مقرات الإقامة بالائتلاف الفرنسى فى البوليفار استقر جارتيا ماركيز فى الفندق التالف المسمى فلاندرى ، الذى يُديره الزوجان لا كرويكس ، ويقع أمام فندق جراند سان ميتشيل ، حيث كان يعيش مواطنون آخرون من أمريكا اللاتينية مثل الشاعر الكوبى نيقولاس جيين ، بالإضافة إلى الطالب الشاب الذى كان قادماً اليوم من مايوركا وهو بيلينيو أوليو ميندوثا ، الذى سيصبح أحد أفضل أصدقائه ، وسيكون صحفياً كولومبياً بارعاً. وعلى الرغم من أن لويس بيار بوردا كان قد عرفهم عليه منذ سبع سنوات فى مقهى مغمور فى بوجوتا ؛ ففي الواقع أنهما كانا يعرفان بعضهما البعض عن طريق الصحافة والأصدقاء المشتركين أكثر من التعرف فى ذلك اللقاء العابر فى أواخر الأربعينيات.

إن بيلينيو ميندوثا هو نجل الصحفى الشهير والسياسى الأشهر بيلينيو ميندوثا نيرا (المساعد الوثيق للزعيم الليبرالى خورخى إليسر جايتان ، ومدير المجلة التقدمية " السبت ") ؛ وقد شهد إلى جانب والده مقتل جايتان على أيدى السقيم خوان سيراً ، مما ترك بصمات إنسانية وسياسية لا تُمحى على بيلينيو. وقد بدأ بيلينيو وهو لا يزال مُراهقاً فى نشر نثرياته الغنائية الأولى فى مجلة " السبت " ، وقد قرأ هذه النصوص الطالب الجامعى جارتيا ماركيز^(٢٨) فى الفترة التى رآه فيها لأول مرة. كان جارتيا ماركيز فى الصف الثانى بكلية الحقوق وما لبثت صحيفة الاسبكتاتور " المشاهد " أن نشرت له قصصه الأولى. إن نشر النثرية الغنائية الأولى لبيلينيو كان بفضل والده ، وقد قرأها الشاب الساحلى وهو فى العشرين من عمره ودهش لإنتاج بيلينيو ميندوثا وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر.

وما كان يجهله بيلينيو هو أن الشاب الساحلى كان منذ سنوات ثيباكيرا قارئاً مواظباً لمجلة والده ، وخاصة الملحق الأدبى الذى كان يديره عضو جماعة " حجرٌ وسماءٌ "

الشاعر إدواردو كاراتشا ، وعلى غرار هذا الملحق قام جارثيا ماركيز طالب الثانوية بإعداد صحيفته الأولى " المجلة الأدبية " ، وقد أفرد قسمًا أو بابًا فيها تحت عنوان "النثرية الغنائية لخايبير جارثيس" ، حيث كان قد نشر أيضاً في يولييه ١٩٤٤ أول نص غنائي له " لحظة نهر" (٢٩).

وهذا يعنى أنه نفس ما حدث مع أصدقاء كبار لجارثيا ماركيز (موتيس وثييدا ساموديو وفوينمايور بارجاس) حيث إن الأدب والصحافة سبباً التقارب بينهم قبل أن تجمعهم الحياة فى صداقة قبيل عيد الميلاد فى حانة لا تشوبى الباريسية بالحي اللاتينى. وقد تحدثا هذه المرة عن الحياة والصحافة والأدب على وجه التحديد.

لقد كان بيلينيو ميندوتا مع مواطنين كولومبيين آخرين : الكاتب أرتورو لاجوادو أستاذ الرياضيات والأديب كارلوس أوبريجون ، وعندما رآه يرتدى معطفه ذا اللون الجملى المزود بقطع من الجلد ، ونفس الشعر الأسود والمجد ، ونفس الشارب المشذب جيداً ، ونفس الزائدة الجلدية خاصة ، وأنهما كانا معروفين فى الصحافة الكولومبية بعد نشر " الورقة الساقطة". وتحدثا عن القصة ، وعن فوكنر ، وعن منصبه كمراسل فى جنيف وروما والبندقية. ولكن جارثيا ماركيز بالنسبة لبيلينيو لم يكن ظريفاً خفيف الظل: لقد بدا له رجلاً متغطرساً من طريقة كلامه ، حيث يتحدث عن بعد وبكثرة لدرجة أن بيلينيو ميندوتا اعتقد أن أمجاده الأولى استولت على عقله ، وربما يكون قد أصابته عدوى هؤلاء المختارين. التى تصيب بعض مواطنى بوجوتا (٣٠).

ومع ذلك ففى الليلة التالية لعيد الميلاد تبذدت هذه الإحياءات عندما دعاه بيلينيو على العشاء مع أصدقائه فى منزل المثل الكولومبى إيرنان بيبكو فى شارع جينجاود ، ويجوار دفء المدفأة تناول الجميع فخذ خنزير لذيذاً وشهياً مع سلطة وخمور بورديو ، حيث خلع الصحفى القناع ، وبدأ يغنى على أنغام الجيتار أغانى والده فى التعميد رفائيل إيسكالونا. وكان جابو أخويا ودوداً بسيطاً ومتواضعاً يتحرك بحريته الحقيقية ، وهذا الأمر لم يعرفه بيلينيو ميندوتا إلا بعد ثلاثة أيام بعد ذلك عندما كسا الجليد الشوارع وأسطح المنازل وحدائق باريس. فقد تساقط الجليد بغزارة ، وقد غيّر شكل العالم ، وقد غيّر بالمرّة صورة جارثيا ماركيز التى كوّنها بيلينيو عنه. ويتذكر حينئذٍ بيلينيو أن

مواطن أراكاتاكا القريب فى السعادة ، والسعيد فى الانفتاح على الآخرين بدأ يجرى فى ميدان لوكسمبرج ، وفى بوليفارد سان ميتشيل محتفلاً بمعجزة الجليد الذى لم يكن موضوعاً أدبياً فى بطاقات تهنئى أعياد الميلاد وقصص الجان ؛ بل كان معجزة حقيقية للماء المتجمد مثل الثلج الذى عرّفه فى الخامسة من عمره بواسطة جدّه فى إدارة الأمن بشركة الموز.

وقد سعدَ بيلينيو ميندوثا بالأمرين: " الحمد لله أنه مجنون " ، وفكر باقتناع بأن ذلك كان بداية صداقة طويلة وعميقة^(٣٦). وبمرور الوقت أصبح والده فى العماد ورفيق مغامراته الصحفية وأفكاره السياسية فى باريس وكاراكاس وموسكو وبوجوتا وهافانا وبرشلونة. وقد قضى الاثنان هذا الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر ويناير كاملاً جنباً إلى جنب ، حيث طافا بكافة الأماكن العالمية بالمدينة الخالدة ، وزارا الأصدقاء الجدد حتى عاد بيلينيو ميندوثا إلى كاراكاس ، حيث كانت تعيش أسرته نقياً طويلاً ، وبدأ يعمل فى مجلتي " الصفوة " و " اللحظة " .

ومع ذلك فلم تكن باريس هذه الحسناء النجيبة الأصلية المدينة الأولى التى حدث من نشاطه ككاتب ؛ بل ديكتاتورية بلاده؛ فقد رفعت صحيفة الاسبكتادور " المشاهد " ، مثل باقى الصحافة الديموقراطية العديد من الدعاوى القضائية ضد روخاس بيلينيو ، وقد اضطرت إلى إغلاق أبوابها طيلة - ما يربو على العامين. إن نَبأ إغلاقها قرأه الصديقان جارتيا ماركيز وبيلينيو ميندوثا فى صحيفة لوموند فى مقهى بشارع إيكويس. ولم ينتب القلق جارتيا ماركيز مؤقتاً لأن هدفه كان البقاء فى فرنسا أطول وقت ممكن ؛ فهو يريد التفرغ لكتابة قصصه ورواياته التى تم تأجيلها أكثر من مرة. ولكن الرسائل لم تعد تحمل الشيكات من الصحيفة ، وفى أوائل فبراير لم يكن معه ما يدفع إيجار غرفته لدام لا كرويكس؛ فقامت بإرساله إلى غرفة صغيرة فى الطابق السابع حتى يستطيع سداد الإيجار ، وفعلت ذلك لما رأتها يكتب دائماً حتى الصباح.

ويبدو أن الوضع الاقتصادى بدأ فى التحسن عندما صدرت فى ١٥ فبراير صحيفة " المستقبل " ، وهى الصحيفة الجديدة التى حلت محل الاسبكتادور " المشاهد " ، وقد أشرف عليها خلال شهورها الأولى الرئيس السابق ، والرئيس القادم ألبرتو بيراس كمارجو ، وهو سياسى صبور ومثابر يُجيد عدة لغات ، وكاتب وصحفى هائل.

وفى الصحيفة الجديدة نشر جارثيا ماركيز تحقيقه الجديد فى ستة عشر جزءاً " عملية أسرار فرنسا" (٢٢) ، ومع ذلك ؛ فقد كانت الشيكات تصل متأخرة على الرغم من الرسائل التى لا حصر لها المرسلة من الصحفى إلى رئيس التحرير ، والتى سرد له فيها أدق التفاصيل المساوية لمغامراته وظروفه المادية المتعثرة. واعتباراً من شهر أبريل أشد الشهور قسوة توقفت الشيكات عن الوصول إلى الصحفى فى باريس. وعند إغلاقها فى ١٥ أبريل أرسلت الصحيفة تذكرة العودة بالطائرة إلى كولومبيا، ولكن جارثيا ماركيز استرد ثمنها وقرّر البقاء للعمل فى فرنسا فى " قصة المنشورات" (٢٣) ، حيث قضى ثلاثة أشهر من المعاناة والكروب.

وكان جارثيا ماركيز قد اعترف لبيلينيو ميندوثا ذات مساء فى ديسمبر عندما التقيا فى حانة لا تشوبى الباريسية أنه عازمٌ أخيراً على كتابة " قصة المنشورات" ، قصة قديمة تطارده منذ سوكرى ؛ تلك القرية التى عاشت فيها أسرته اثنى عشر عاماً ، وحيث قضى الكاتب أعظم أجازاته الهادئة والسعيدة خلال مرحلة دراسته. كانت القصة غامضةً مبهمَةً ، ولكنها تتعلق بكرامة وأمن أهل سوكرى ، كانت كسيف داموكليس. لقد بدأت تظهر أواخر الأربعينيات المنشورات المجهولة على حوائط سوكرى ، حيث تبادل أهلها كافة صنوف الاتهامات. إن هذه المنشورات التى تبعث على القلق ، خاصة فى حالة فرض الأحكام العرفية فى البلاد لتكميم الأفواه ، والقضاء على العنف الذى كان قد اجتاح البلاد ، وأدى إلى ظهور هذه المنشورات ، وإلى حالة من الذعر الأخلاقى والاجتماعى والسياسى ، مما اضطر كثيراً من الأسر للهجرة كإسرتى بارتشا و جارثيا ماركيز. وقد أدرج الكاتب أيضاً فى القصة حادثة أخرى وقعت فى الشهور الأولى لعام ١٩٤٠: ذُبِحَ خواكين بيجا قارع الطبل فى فرقة سوكرى الموسيقية على أيدي زوج عشيقته، وبهذه الواقعة ، والصورة الحرفية للقرية ودرجة حرارتها التى تبلغ ثلاثين درجة مئوية فى الظل ، ونهرها الذى تكسو النباتات شاطئيه. حبس جارثيا ماركيز نفسه ليلة فى غرفته بفندق فلاندرى حتى كتب عشر صفحات ، حينئذٍ أدرك أن الذى بين يديه ليس حكاية بل قصة. حينئذٍ وضع خطة تفصيلية ، وبدأ العمل بحماس فى كتابتها ، وقد ظهرت بعد ذلك بوضع سنوات باسم "الساعة المشنومة".

كان يكتب دائماً بالليل مرتدياً الملابس الثقيلة ، وقدماه قريبتان دائماً من فتحات التدفئة ، وذلك لأن البرد والضجيج كانا يعوقانه عن العمل. وكانت صورة خطيبته

مرسيدس أمام عينيه إنها "تمساحه المقدس" ، وعبر النافذة كانت تلمح من بعيد أسطح منازل الحى اللاتينى كعيون الزمن القديمة ، مما كان يعوضه نفسياً عن الغرفة الضيقة ذات السقف المنخفض والمائل. وكان الأثاث متقشفاً: دولا ب صغير وسرير بسيط وكمودينو عليه مصباح ؛ فضلاً عن المنضدة التى كان يكتب عليها بآلته الكاتبة الحمراء المتقلبة ، تلك التى كان قد باعها له بيلينيو ميندوثا بأربعين دولاراً^(٣٤). وكانت ساعة جامعة السوربون تسرع فى مرور الوقت ، ولكن ماركيز كان يتتبع وقت شخصياته البطى ، ورويداً ورويداً يكتب الصفحة تلو الصفحة ، ويدخن سيجارة تلو الأخرى حتى الصباح الباكر عند مرور عربة جمع القمامة ، أو يسمع أصوات الدعاية لبائع الخرشوف: حينئذ كان يعود من الزمن الخيالى ليأوى إلى فراشة ، ليستمر فى استنشاق الهواء المفعم بدخان علبتى سجائر زهيدتى الثمن.

وكان يستيقظ فى منتصف النهار ، ويستحم فى حمامات الفندق العامة ويرتدى أحد بنطلونه الجينز ، وسترة قديمة من الصوف وتلفيحة ، والمعطف ذا اللون الجملى المزين بقطع من الجلد. وكانت السيدة الطيبة مدام لا كروكس - فى بهو الفندق - تتحدث معه دائماً وتسلمه مراسلاته ؛ بينما كان يداعب قططها المقعية على المكتب.

وفى أزقة الحى اللاتينى كانت هناك دائماً رائحة القسطل المشوى " أبوفروة " ، الذى اختلطت رائحته برائحة القرنبيط المسلوق ، وكانت تُسمع موسيقى الاكورديون التى كان يحن إليها من قبل ، حيث كانت تُذاع أغانى جورج براسنيس التى يفضلها الأسويون والأفارقة ومواطنو أمريكا اللاتينية الذين كانوا مثل جارثيا ماركيز تماماً يقفون فى طوابير طويلة ليتناولوا طعامهم فى مطاعم الحى زهيدة الثمن: الكابولادى والاكروبولى^(٣٥).

وعندما يحل الليل ، وبعد زيارة الأصدقاء والأماكن ، وبعد تناول الوجبة الثالثة " العشاء " فى أى مكان ، يعود إلى فندق فلاندرى فى شارع كوجا تطارده روائح القرنبيط المسلوق (إنها رائحة ظلت تطارده حتى " مائة عام من العزلة " ، و " أثر دمك على الجليد ") ثم يصعد الطوابق السبعة درجة ليجلس نفسه من جديد فى غرفته الصغيرة جداً ليعمل فى قصة المنشورات الحائطية. ولا زالت ساعة جامعة السوربون تطارده ساعة تلو الأخرى ، ولكن هذا لم يكثرث به على الإطلاق: لقد عاد ليستقر فى الزمن الأكثر بطناً ، والأكثر دفئاً لشخصيات خياله.

إن قصة "المنشورات" - مثل قصة - "المنزل" كانت انفجاراً مليئاً بالحكايات والشخصيات التي تضاعفت تطالب بفسحة من المكان والزمن لها. وبالنسبة للورقة الساقطة؛ فإن القصة الجديدة كانت تنطوى على صعوبة إضافية، لأنه يريد كتابة قصة لكى يقدم إجابة من خلال معالجة مباشرة للواقع ولغة على أعمال العنف المتفشى فى بلاده منذ عشر سنوات، مثلما اقترح عليه زملاؤه اليساريون فى العام الماضى. وفى الجو العام لقرية كسوكرى، وفى وقائع تحقيقاته التى كان قد كتبها لصحيفة الاسبكتادور، والساعة المشنومة لتصبح قصة عن ديكتاتورية روخاس بينيا بدرجة محدودة، حيث إن الرئيس هو العمدة ووزير العدل هو القاضى والكاردينال هو القس الأبرشى راعى الكنيسة أو الأبرشية، أما ممثل حكومة الأقلية هو ثرى القرية^(٣٦).

وبعد عدة أشهر من العمل المكثف؛ بدأت إحدى الشخصيات الثانوية تنمو وتكتسب ثقلًا ذاتيًا، حتى خرجت من القصة وطالبت بمعالجة على حدة. كان عقيداً عجوزاً من "حرب الألف يوم" نفى من ماكوندو والورقة الساقطة لأن رائحة الموز كانت تتبع أمعائه، وقد وصلت إلى "القرية" (لم تظهر سوكرى باسمها الحقيقى)، وقد جلس ينتظر معاشه كمحارب قديم، بينما كان يرعى ديكاً للمصارعة، كان أمله الوحيد فى الحياة. وفى ربيع ١٩٥٦ اضطر جارتيا ماركيز إلى هجر الخمسمائة ورقة لقصة المنشورات بعد ربطها برباط عنق ملون لكى يتفرغ للاهتمام بمطالب العقيد الشخصية القنوعة والمكثفة والمحبة إلى قلبه من جميع الشخصيات التى ابتكرها خيال جارتيا ماركيز. وعندما جهز كتابته الأولى لروايته "العقيد لا يجد من يُراسله"، حلَّ فصل الصيف كرمصاص ذائب فوق أسقف الحى اللاتينى؛ كما تراكمت ديونه المستحقة عليه لمدام لا كرويكس شهراً تلو الآخر^(٣٧).

وخلال هذه الأشهر - التى كانت أصعب شهور قضاها فى حياته، حيث كان قد طلب مساعدات من جميع أصدقائه. وقد تلقى خيرمان بارجاس فى بوجوتا؛ علاوة على ذلك مطلباً غريباً بعض الشيء: لقد طلب صديقه منه كتاباً عن ديوك المصارعة؛ أفضل الكتب فى هذا الصدد وفى أسرع وقت ممكن، حيث يتحدث عن مختلف السلالات ومميزاتها وسماتها، وكذلك كيفية سير العمل فى حلبات مصارعة الديوك. ولم يكن

هناك كتابٌ فى هذا الصدد. والشخص الوحيد الذى يستطيع كتابة ذلك كان كيكي سكوييل وهو فى هافانا. وقد طلب خيرمان بارجاس ذلك من كيكي سكوييل ، وبعد بضعة أشهر كان لدى جارثيا ماركيز أفضل كتاب فى غرفته الباريسية عن مصارعة الديوك كُتِبَ فى كولومبيا^(٣٨).

ويلا شك! كان هذا العام هو عام البؤس بالنسبة للكاتب. وبمقارنة هذا العام بأعوام الشقاء والبؤس والفقر فى قرطاجنة وبارأنكيا ، كانت هذه سنوات بؤس ذهبية لأنه كان بطول وعرض الكاريبى هناك أصدقاء فى كل مكان يستطيع الاقتراض منهم ؛ فقد كان قريباً إلى قلوبهم. ولكن باريس هى باريس. فقد كان يراها تنتقل من البرد إلى الحر ، ومن الحر إلى البرد طوال العام من خلال نافذة غرفته الصغيرة ؛ كما أن مرور الفصول الأربعة لم يترك أدنى بصمة أو أثر فى مملكة أمتعته الجوهريّة التى لا تتغير. لقد كان ماركيز يتاكل حياً كشخصية قصته.

وكما يتذكر جارثيا ماركيز نفسه اضطر للمعيشة على المعجزات اليومية ، لأنه استحال عليه إيجاد عمل فى باريس: فقد كان يتحدث الفرنسية قليلاً ، ولم تكن لديه أدنى إمكانية لكى يمنحوه تصريح العمل؛ ولذلك فبينما كان يكتب قصصه كان يخترع ويبتكر يومياً طرقاً للدفاع عن حياته ، وكيف يعيش حياته يوماً بيوم. وعندما أنفق ثمن تذكرة العودة إلى بوجوتا اضطر لاستبدال الزجاجات الفارغة والمجلات والصحف القديمة مقابل بعض الفرنكات الفرنسية. ولحسن الحظ لم تنقصه على الإطلاق زجاجة خمرٍ ورغيف خبز على المائدة ، وكان دائماً يجد مطبخ أحد الأصدقاء تحت تصرفه لكى يعدّ المكرونة الاسباجيتى ليسد بها رَمَقَه. ودائماً كانت هناك حيلة ؛ ذلك أنه ومواطنيه من أمريكا اللاتينية الذين كانوا يعيشون نفس ظروفه اكتشفوا أنه اذا اشترى أحدهم شريحة من اللحم يقوم الجزار بإهدائه قطعة من العظام لإعداد الحساء ، وأحياناً كان الواحد منهم يستعير قطعة عظم لإعداد حسائه ثم يردّها فيما بعد^(٣٩).

وكان يُفكر حينذاك بأن كل يوم يمكنه فى باريس يستطيع إضافة صفحة إلى كتابه ، وبالتالي كان يحقق انتصارات صغيرة فى التغلب على الصعوبات متمسكاً فى كل مرة بأحلامه التى لا تتزعزع لكى يكون كاتباً. ولكن جاء اليوم الذى اضطر فيه إلى أن

يطلب فرنكاً في المترو. فقد استيقظ في الصباح وأيقن أن وضعه خطير . وقد كان الحماس الذي يعمل به في كتابة قصصه حماساً كبيراً ، والنتيجة مُرضية للغاية، وأن كرامته يقظة في المقام الأول ، مما جعله يتحمل أحلك الظروف السيئة للبقاء على قيد الحياة ، ولكنه عندما اضطر للسؤال ليطلب فرنكاً لأن المحطة كانت قد فاتته دون أن يُدرك ، وليس معه ما يسدد به تذكرة العودة. أحس حقيقة بحرج بالغ لأن المواطن الفرنسي مختل المزاج الذي أعطاه الفرنك لم يرد الاستماع إلى مبرراته^(٤٠).

ومع ذلك فإلى جانب عمله كصحفي ، الذي سيستأنفه في سبتمبر من نفس العام بمجلة "الصفوة" في كاراكاس ، وجد فرصة كريمة ليكتسب قوت يومه وذلك في الغناء في " لا أسكالي" نادى ليلي بشارع مسييه ليه برنثيس ، حيث كان يتجمع المطربون والهواة الأمريكيون اللاتينيون الموجودون في باريس ، ولكنه لم يغن الأغاني الشعبية على الجيتار والناي كأفضل عمل يُجيده بعد الكتابة ، ولكن أغاني ريفية مكوّناً ثنائياً مع الرسّام سوتو دى الفنزولى . ومقارنة بما حدث في مجمع الجرائد ؛ فإن الليلة في النادي الليلي كانت سخية : فقد كان يحصل على خمسمائة فرنك في الليلة أى ما يربو قليلاً على دولار أمريكي^(٤١).

كان ذلك خلال العام الصعب الذي ملأ فيه جارثيا ماركيز صناديق بريد أصدقائه بالرسائل التي تعبر عن حالته المادية التي يرثى لها: لألبارو موتيس ، وخيرمان بارجاس في بوجوتا ، وإلى رودريجو أريناس بيتناكور في المكسيك ، وإلى بيلينيو ميندوثا في كاراكاس، وإلى ألفونسو فوينمايور وألبارو ثيبيدا ساموديو ، وأليخاندرى أوريجون في بارأنكيا. وكان يرفقها أحياناً ببعض المقالات لكى ينشرها له فى أى مكان مقابل بعض النقود^(٤٢). وبالطبع كان أصدقاؤه يساعدونه فى تلك الظروف الصعبة ، ولكن البريد فى ذلك الحين لم يكن سريعاً ، إلى جانب أن ضوائقه المالية اليومية ساعدت أيضاً على التباطؤ فى الرد على مراسلاته. ومع ذلك ؛ فإن الأسباب الحقيقية للتأخير هو أن أصدقاءه كانوا يضطرون لشراء الدولارات ، ولم يكن ذلك بالأمر اليسير حينذاك، وهناك ما هو أصعب حيث كانوا يضطرون إلى إيداعها فى رسالة محاولين بكل السبل تفادى رقابة النظام الديكتاتورى الذى كان بكل تأكيد قد وضع اسم جارثيا ماركيز فى قائمته السوداء.

وبمجرد أن تلقى بيلينيو ميندوثا طلب النجدة فى كاراكاس ، وكانت لديه مسئوليات فى إدارة مجلة الصفوة ، بدأ ينشر له مقالات وتحقيقات عاجلة مخففاً عنه تلك الظروف الصعبة وحالة الاحتياج التى كان يمر بها . أما ألفونسو فوينمايور ، وخيرمان بارجاس ، وألباروثيبيدا ساموديو ، وأليخاندرو أوبريجون ؛ فقد قاموا من جانبهم بتأسيس ساجا " جمعية الأصدقاء لمساعدة جابيتو " ، واشتروا ورقة فئة المائة دولار واجتمعوا فى مكتبة الموندو " العالم " ليتشاوروا فى كيفية إرسالها لصديقهم فى باريس . وقد أعطاهم خورخى روندون صاحب المكتبة وعضو الحزب الشيوعى الحل ، شارحاً لهم كيف أنه تعلم فى البيت الشيوعى فى بوجوتا فتح بطاقات المعايدة البريدية نصفين لإرسال رسائل سرية . وبالتالي اتبع أصدقائه نصائحه حرفياً ووضعوا العملة الورقية فى بطاقة المعايدة البريدية وأغلقوها بدقة بالغة ، وأرسلوها إلى جابيتو إلى جانب تحياتهم الحارة إلى فندق فلاندرى بشارع كوجا رقم ١٦ . وعندما كانوا فى مكتب البريد انتبهوا إلى احتمال ألا يدرك صديقهم هذه الحيلة فلن يعرف بأية حالة من الأحوال أن فى البطاقة المرسلة مائة دولار ؛ ولهذا أرسلوا له على الفور رسالة يشرحون له فيها الحيلة التى لجأوا إليها . وبعد أسبوع ، وعندما كان جارثيا ماركيز يهبط من غرفته الصغيرة بالفندق ليتناول طعام الغداء قامت مدام لا كرويكس بتسليمه بطاقة المعايدة ؛ وكما ظن أصدقائه لم يجد فيها سوى التحيات والأشواق الحارة وأطيب التمنيات التى لن تخدمه فى ظل هذه الظروف الصعبة استاء أشد الاستياء وقال : يا سفلة ! أو ياقوادون ! ، وألقى بالبطاقة فى سلة القمامة ، ولكن لحسن حظه وصلته فى نفس المساء الرسالة الأخرى ، وأسرع جارثيا ماركيز على الفور للبحث عن البطاقة الغالية بين القمامة: ووجدها كما هى^(٤٢).

وقد وجد المؤلف من يكتب له على الأقل ، حتى ولو كان ذلك متأخراً ، لأنه كان فى أمس الحاجة لذلك ، ولكن العقيد العجوز فى قصته ، فى الوقت الذى كان يكبر فيه كان يتغذى من نفس الجوع الذى عانى منه الكاتب ؛ لقد ظل ينتظر طوال ما تبقى من حياته معاش التقاعد الذى لم يصل على الإطلاق.

إن الصورة المحددة التى رسمها جارثيا ماركيز لشخصيته كانت لرجل فى أوائل الخمسينيات ينتظر مركباً فى سوق السمك ببارأنكيا " بنوع من القلق والكره

الصامت^(٤٤). ويمرور الزمن أصبحت تلك الصورة مقترنة بشكل طبيعي بحكاية جده نيقولاس ماركيز ، الذى ظل ينتظر طوال خمسة وثلاثين عاماً معاش التقاعد ، نظراً لاشتراكه فى " حرب الألف يوم ". لقد كانت أيضاً قصة الجنرال خوسيه روساريو دوران فى أراكاتاكا ، والعقيد كليمنتى إيسكالونا فى بايدوبار ، وعُقداء وجنرالات آخرين فى طى النسيان ، والذين تعامل معهم الكاتب بعمق أثناء أسفاره إلى قرى الكاريبى فى كولومبيا ، وستعود لتكون قصة قدامى محاربى حرب كوريا التى حكى لنا عن مأساتها فى تحقيقات ممتازة.

وفى فبراير ١٩٥٥ وهو فى بوجوتا ظلت صورة هذه الشخصية تتضج ملامحها وسماتها ومصيرها ، عندما شاهد ماركيز فيلم أومبرتو لبيتوريو دى سىكا وثيرسارى زفاتينى. وطبقاً لما سيعترف به جارتيا ماركيز ؛ فإن شخصية أومبرتو ، دومينيكو فيرارى " ذُكرته بجده تماماً "^(٤٥) ، بسبب مأساوية الكرامة وطول الانتظار، الانتظار الذى كان فى حالة العقيد نيقولاس ماركيز أسبوعياً ، وفى وقت محدد دون سابق إنذار ، وكان يسبب للحفيد مزيداً من الضحك عندما كان يرافقه دائماً كل خميس إلى مكتب البريد ولذلك فإن شخصية العقيد العجوز انفصلت بنفسها عن قصة المنشورات الحائطية مطالبةً بمكان خاص لها. ففكر جارتيا ماركيز بأن ذلك أشبه بالمسرحية الفكاهية ، ولكنه عندما وجد نفسه أيضاً منتظراً رسالة للاستغاثة فى غرفته بفندق فلاندرى وهو يعيش معانياً من نفس مأساة جده ، أدرك سريعاً أنها ليست بمسرحية كوميدية ؛ بل مأساة صامته ، وأن القصة التى يكتبها أيضاً هى نفس ما كان يراه وكان الأحداث بدأت تنطلق بين صفحات الخيال^(٤٦).

وكما هو الحال فى قصة "المسخ" لكافكا ، و "الأجنبى" لكامى ، و "العجوز والبحر" لهيمينجواى ، استطاع جارتيا ماركيز أن يعبر بدقة عن أعظم استعارات الإنسان فى القرن العشرين ، مبتكراً شخصية من نفس أحشائه الشخصية والثقافية. إن هذه الخطوة الراسخة صوب الجذور تبلورت بشكل واضح فى غرفته الصغيرة فى فندق فلاندرى ، حيث تعلّم الكاتب على مدى عام ١٩٥٦ أنه لا شىء ولا حتى الجوع يستطيع قتل أحلام وتطلعات كاتب حقيقى.

وفى منتصف ذلك العام وأوائل العام التالى كتب جارتيا ماركيز القصة تسع مرّات حتى تمكن من إعداد كتاب دون شروخ أو تصدعات. كان عملاً صغيراً فذاً ليس فيه زيادة ولا نقصان ، سواء فيما يُقال أو فيما يدخل فى دائرة الصمت ، ولكن أصدقاؤه وقرأه انتبهوا لذلك لأن الكتاب ظل لمدة عام ونصف العام ينتقل من مدينة إلى أخرى ، ومن ناشر إلى آخر دون أن يجرؤ أحد على نشره. وقد أرسل نسخة منه على ورق الصُحف إلى جيريرو أنجولو فى روما ، الذى وصل إلى مركز السينما التجريبي ليلتبع خطواته، وإلى بيلينيو ميندوتا فى كاراكاس ، وإلى خيرمان بارجاس فى بوجوتا. إن خيرمان بارجاس مثل بيلينيو نفسه أخذ النسخة وطاف بها على جميع الناشرين بحثاً عن ناشر يقبل نشرها ، ولكن دون جدوى. إنّه فيما يبدو كتاب مُبهم وغامض ، وقد قالوا له ذلك مراراً وتكراراً ، ولكن لن نستطيع المغامرة والمخاطرة إلا إذا قمنا بدفع تكلفة المطبعة حينئذ سنطبعه^(٤٧)، والمبلغ المطلوب كان مبلغاً فلكياً مثل المستحق على الكاتب لدام لا كرويكس الكريمة فى نهاية العام.

لقد احتضنته فى الغرفة الصغيرة بالطابق السابع دون أن تقبض منه شيئاً ولو لمرة واحدة ، معتقدة بأنه طالما يكتب كل يوم طوال الليل دون توقف ، فإنه شخص مهم ويُعد شيئاً مهماً وليس كبقية مواطنيه من أمريكا اللاتينية الذين تخصصوا فى الغناء والسُكر كل ليلة. ولكن كرمها تعدى ذلك بكثير : عندما توجه إليها جارتيا ماركيز ليسد لها مائة وعشرين ألف فرنك قيمة متأخرات الإيجار بفضل كرم صديقه إيرنان ببيكو بدا لها المبلغ كبيراً ، وقالت له : لا ، المبلغ كبير ، وما عليك إلا أن تدفع جزءاً الآن والباقي فى وقت لاحق.

لن ينسى جارتيا ماركيز أبداً طيبة مدام لا كرويكس صاحبة القلب الكبير ومحادثاتها عن الطقس ، وقططها السمينة التى تحيط بها. أما هى فإنها تتذكره بحب وود كما كانت دائماً: "وتتذكره على أنه السيد/ ماركيز الصحفى الذى يقطن الطابق السابع".

وفى أواخر عام ١٩٥٦ ترك فندق فلاندرى فى الحى اللاتينى ، وانتقل إلى شارع أساس ، حيث شارك تاشياكينتاننا وهى مواطنة باسكية متهورة نشيطة وسخية كانت تحاول إيجاد فرصة لها بالمسرح ، بينما كانت تقوم بالخدمة فى المنازل. لقد كان حباً

عابراً لفترة وجيزة ، ولكنه كان مكثفاً ومتناقضاً بسبب اختلاف الأمزجة والمفاهيم المختلفة عن الحياة ، وسيؤدي في النهاية إلى صداقة أبدية بينهما ، ولكنها كانت في ذلك الوقت خير عون له في أحلك الظروف ، حيث ساعدته في وقت شدته. لقد كان الأصدقاء يلقبونه بالجنرال ، ووجد فيها جارثيا ماركيز الحب والعطف والطعام ومأوى مجانياً لكي يستطيع استئناف كتابة قصته في هدوء وسكينة واطمئنان ، قصة " المنشورات الحائطية" حتى صيف ١٩٥٧ . وعلى الرغم من اختلاف الطباع. وأول خلاف حاد بينهما حدث عندما انتهرته الباسكية وقالت له: لماذا يُضيع وقته في كتابة قصص لا تُباع ؟ ، ولماذا لا يبحث عن مهنة أخرى مُربحة؟. وكان هذا التوبيخ بالنسبة لكاتب عنيد كجارثيا ماركيز أثره الضار. ومنذ تلك اللحظة أصبح من الصعب عليه قبول رعايتها^(٤٨). حينئذ أدركت أن هذا العاشق المنزلي المولع بالأدب إلى درجة الموت سوف يتخلى تماماً عن أن يردد في حجرة الخادمة الأغاني الشعبية " لرفائيل إيسكالونا " : " جوع الليسية " و " سارة العجوز " ، و " ملاعيب إبليس " .

وفي تلك الفترة تضاعف عدد أصدقائه الأمريكيين اللاتينيين والعرب والفرنسيين: عاد بيلينيو ميندوثا من كاراكاس في أوائل مايو ، ويتذكر أن جارثيا ماركيز كان له زمرة تضم اثني عشر صديقاً كولومبياً أوفياء وبوهيميين كانوا يعيشون بأى شكل يجتمعون يوم الجمعة في غرفة صغيرة في شارع شيريبيني، ولكنه مع المقربين الكولومبيين فقط ومواطنيه من أمريكا اللاتينية كان يجتمع بهم في غرفة تاشيا حول وجبة إسبانية قوامها اللحوم البحرية والأرز والمنتجات مخلوطة في إناء واحد ، فضلاً عن الخمر الممتازة للاحتفال بمعجزة أنهم لا يزالون على قيد الحياة يحلمون. وكان من الشائع أن يحمل كل منهم زجاجته من الخمر وقطعة من السجق وقطعة من الجبن: هكذا كان يفعل بيلينيو ميندوثا ، وإيرنان ببيكو وأرتورو لا جوانو ، ولويس بيّار بوردا عندما كان يأتي من ليبيزج لتجديد تأشيرته.

وبين كأس وآخر ، وبين الحنين والحنين كانت هناك بصفة دائمة أغاني أتوالبا يويانكي ورفائيل إيسكالونا وجورج براسينس ، كما كان جارثيا ماركيز يغنيها على أنغام الجيتار " القيثارة". وفي ذلك الوقت لم يتمكن فقط من فك طلاسم التلاعب بالألفاظ في أغاني براسينس ؛ بل كان ذواقة لمختلف أنواع الجبن والخمر ، وأصبح خبيراً في لغة التورية

فى باريس . وقد دُهِش بيلينيو ميندوثا كيف أن جارثيا ماركيز بهذه السرعة ، وفى عام ونصف فقط ، استطاع على ما يبدو أن يستحوذ على المدينة على الرغم أنه كان لديه وقت كافٍ يثبت ويتأكد من أن باريس لم تكن عيداً ؛ بل كانت وحشاً: كانت أشبه بأرقام اليانصيب.

ويغض النظر عن الأحلام ، وعن أصناف الجوع الذى عانى منها الغريب ، فلا زالت باريس تستأثر بكيمياء زمنها بالموضات والرجال ، تجعل الوجودية جاذبية سياحية اعتباراً من مقاهى سانت جيرمان دى بريس حيث كان سارتر يعرضها وكأنها فضول عالمى ، حتى أستاذة إيرنست هيمنجواى العاشق الأبدى لأفراح باريس بدا لجارثيا ماركيز شخصاً نحيفاً عندما رآه مع زوجته فى شارع بوليفار سانت ميتشيل ذات يوم فى فصل الربيع. وقد نظر إليه وأطال النظر إليه مثلما فعل مع أستاذه الأمريكى ويليام فوكنر ، ولكن خجله الجم جعله يتجمد بلا حراك على الرصيف المقابل دون أن يعرف ماذا يفعل ، واستطاع فقط أن يصيح واضعاً يديه على فمه قائلاً : أستاذى ولكن هيمنجواى التفت رافعاً يده إلى أعلى وردّ عليه دون أن يراه تقريباً: مع السلامة يا صديقى^(٤٩). وبالطبع لم يشك الأستاذ أبداً فى أن الرجل الصغير المجهول الذى حيّاه من على بُعد انتهى من كتابة عمل صغير رائع بتأثير أستاذه جدير بأن يُوضع إلى جانب "العجوز والبحر" ، وأنه بمرور الوقت سيُصبح تلميذه الأكثر تفوقاً وعالمية من بين كافة تلاميذه وأقرانه .

ومع ذلك لم تكن حرب الجزائر حتى تلك اللحظة موضة ؛ بل كانت واقعةً محدداً ، وقد عانى جارثيا ماركيز الأمرين من جراء ذلك بسبب قسمات وجهه العربية ، وذات ليلة عند خروجه من السينما اعتقلته الشرطة الفرنسية على أنه جزائرى ، وضربوه ، واقتادوه إلى قسم شرطة سان جرمان دى بريس مع الجزائريين الحقيقيين الذين ارتسمت على وجوههم علامات الحزن ، كما تميزوا بكثافة شواربهم ، وقد ضربوا أيضاً مثلما حدث لجارثيا ماركيز. ولكى يخففوا عن أنفسهم آلام الضرب فى تلك الليلة ظلّوا يغنون حتى الصباح أغانى جورج براسنيس ؛ حينئذٍ أصبح صديقاً لهم وخاصة مع الطبيب أحمد سيبال الذى استطاع أن يُقربه ويُطلعه على قضية بلاده^(٥٠). وكانت تلك الفترة التى كتب فيها عدة تحقيقات عن حرب الجزائر ومشكلة قناة السويس.

وعلى الرغم من ذلك لم تكن تلك اللحظة هي اللحظة الخالدة أثناء إقامته القاسية في باريس ، بل كانت تلك اللحظة التي عبر فيها كوبري سان ميتشيل في اتجاه ثيتي ، ورأى رويداً رويداً في الضباب وجهاً وعينين كانتا تبكيان :حينئذٍ تجمد قلبه لأنه اعتقد نفسه عائداً من إحدى مجاعاته^(٥١).

هكذا وجد بيلينيو ميندوتا جارثيا ماركيز في أوائل مايو : وقد فقد ماركيز خمسة كيلو جرامات من وزنه ، كما أن بشرته تؤكد أنه عانى الأمرين من الجوع ، كما أن حروف آله الكاتبة قد تاكلت أيضاً^(٥٢) ، ولكنه وجد معه عملاً صغيراً رائعاً أكثر عالمية يطغى عليه الطابع الكولومبي واللاتيني الأمريكي ، أكثر حكمة ، وأكثر صبراً ، ولكن بفضل هائل تجاوز كل الحدود. وهكذا اضطررا للسفر سوياً خلال الصيف إلى الألمانيتين (الشرقية والغربية) وروسيا وأوكرانيا.

إن السفر إلى ألمانيا الشرقية كان تأكيداً لما رآه جارثيا ماركيز في بولندا وتشيكوسلوفاكيا خلال خريف ١٩٥٥ : إن الاشتراكية المصدرة من الاتحاد السوفيتي كانت بمثابة قميص للمجانين يخنق هذه الشعوب ، لأن الثورة لم تنبع من احتياجاتها التاريخية الخاصة ؛ بل جلبوها من موسكو " في صندوق ليفرضوها عليهم دون استشارتهم". وفي ليبزج - على وجه الخصوص - تعززت تأكيدات الكاتب.

وكانت الفكرة تكمن في اجتياز الألمانيتين للوصول إلى برلين الشرقية مروراً بهایدلبرج وفرانكفورت ويمار وليبزج ، حيث كان ينتظرهما لويس بيّار بوردا الذي كان منفياً منذ عام في تلك المدينة. وكان بيّار بوردا قد درس الحقوق في الجامعة الوطنية في بوجوتا مع جارثيا ماركيز ، والقس كاميلو توريس ، وجونثالو مايارينو ، وكانوا يشكلون الرباعي الأدبي الجامعي في ذلك الحين حول " الحياة الجامعية " ، وهو ملحق صحفي بجريدة " العقل " التي كان يُديرها بيّار بوردا وكاميلو توريس. وعندما أصبحت ديكتاتورية روخاس بينيا أكثر وحشية وشراسة قام بيّار بوردا ، مثل جميع اليساريين - بنفى نفسه إلى ليبزج بمنحة تُعينه على مصاعب الحياة. ومن هناك كان يزور جارثيا ماركيز في كل مرة يذهب فيها إلى باريس. وفي ليالي فندق فلاندرى وحجرة الخادمة

بشارع أساس تحادثاً طويلاً عن " الاشتراكية الحقيقية " وعن بلاد الشرق الأوروبى ، وعن القيود القاتلة للبيروقراطية ذات الطابع الكافكوى ، ولذلك فإن فكرة زيارة ألمانيا الشرقية كان أملاً قديماً ينضج رويداً رويداً كلما زار بيار بوردا صديقه جارثيا ماركيز .

وقد سنحت الفرصة عندما جاء بيلينيو ميندوثا من كاراكاس برفقة شقيقته سوليداد ، واشترى سيارة رينو قديمة لقضاء فترة الصيف ، وذهب الثلاثة فى السيارة بسرعة مائة كيلومتر فى الساعة عبر الطرق السريعة الواسعة التى كانت قد عبّدها هتلر من أجل الحرب . وبعد أن طافوا بالمدينة الجامعية النظيفة الشفافة فى هايدلبرج ومعسكر الإبادة النازى فى بوتسينولد بالقرب من ويمار وفرانكفورت الشهيرة فى أعمال جوته (حيث زاروا الشاعر الكولومبى إدواردو كوتى لاموس) ، ووصلوا إلى ليبزج ليأخذوا بيار بوردا الذى رافقهم حتى برلين ، ولم يستغرق السفر سوى أسبوعين ، ولكن بالنسبة لجارثيا ماركيز كان بمثابة عدة سنوات من الخبرة .

ومنذ أن عبروا حدود الألمانيتين ذات مساء انقسم إلى شطرين (أى شطر قضوه فى ألمانيا الغربية والآخر فى الشرقية) ؛ كان من الواضح أيضاً أن الاشتراكية الحقيقية " اشتراكية التصدير " ليست فقط غير صالحة للتطبيق فى هذه الدول ؛ بل أيضاً كانت على طرف نقيض من اشتراكية ماركس ، ومناهضة للثورة الغنائية والفكرية التى تمكنت من قلب جارثيا ماركيز وجيله . إن حرس الحدود بدا له كأن أفراد " غير أكفاء ونصف أميين " ، وكان مدير الجمارك ريفياً فظاً فى طباعه وأسلوبه ، وقد بدا له الألمان الشرقيون فى الصباح أنهم " أناس فاسدون يعانون من المرارة ، وكانوا يتناولون - بدون حماس - وجبتهم الشهية الرائعة فى الصباح المكونة من اللحم والبيض المقلّى " ، كما أن الطرق الواسعة السريعة التى مهدها لهم هتلر كانت هائلة إلا أن الروس ملأوها بالعزلة وبلون سيارات النقل الرُمادية ، وكانت هذه الطرق تخترق مناطق شاسعة من الحقول غير المزروعة ؛ فبرلين من جانب كانت اشتراكية ؛ ومن الجانب الآخر رأسمالية ، وقد بدا ذلك لجارثيا ماركيز ضرباً من السفه ، وكانت برلين الشرقية كارثة ، باستثناء الشارع الواسع الفسيح شارع ستالين ، حيث كان يعيش أحد عشر ألف من العمال المتميزين بيروقراطياً ، وأغلب أهل برلين الشرقية كانوا لا يزالون يعيشون فى المباني التى لم يتم إعادة إعمارها حتى الآن ، وكانت مباني قذرة ، وكانوا

يتناولون أطعمة وسلعاً تنمُّ عن تدنى ذوقهم فى الأطعمة ، فضلاً عن جودتها المتدنية للغاية. لقد بدت له برلين نفسها مدينة مكفهرة عبوسة تعكس واقع البلاد الاقتصادى إذا ما قورنت بمدينة هايدلبرج النظيفة الشفافة ؛ بدت له مدينة ليبزج حزينة بها عربات الترام القديمة المتهاكة المليئة بالناس المهمشين المكتئبين ؛ فهناك تنظيم للطوابير ، وتوزيع الحصص التموينية بالبطاقات ؛ كما بدا له كل ذلك غير فعّال ؛ بل كان أشبه بالفوضى فى ليبزج نفسها. وقد بدا له ذلك أمر محير ؛ إنه فى العالم الجديد كل شىء يبدو قديماً وتالفاً ومتهاكاً ، وبدا له غير مفهوم أن شعب ألمانيا الشرقية استولى على السُّلطة وعلى وسائل الانتاج والتجارة والبنوك والاتصالات والمواصلات ، ومع ذلك كان شعباً حزيناً ؛ بل يمكن القول بأنه أشد شعوب الأرض حزناً من كل الشعوب التى رآها على وجه الأرض^(٥٢).

لقد كانت هذه تأكيدات مؤلمة ليس فقط بالنسبة لجارثيا ماركيز ؛ بل أيضاً بالنسبة لمرافقيه الثلاثة لويس بيّار بوردا ، و بيلينيو ميندوثا وسوليداد ميندوثا الذين تحدث معهم ليالى وأياماً بأكملها فى برلين وفى ليبزج عن المأساة غير الخفية للشيوعية المصدّرة ، وكذلك لموسكو المصدّرة لهذا النظام ، المدينة الأسطورية التى سيسافرون إليها فى أغسطس بعد عودة قصيرة إلى باريس.

وفى روما حاول جارثيا ماركيز عدة مرّات الحصول على تأشيرة للسفر إلى الاتحاد السوفيتى كمراسل لوكالة صحفية ، ولكنهم رفضوا منحه التأشيرة أربع مرّات ، لأنه كان من المستحيل الوصول إلى معقل الشيوعية إذا لم يكن ذلك بصورة رسمية. ولا يزال الوضع على ما هو عليه حتى الآن. ولكن مرور الفرقة الفولكلورية ديليا ثباتا بباريس التى دُعيت للمؤتمر العالمى السادس للشبيبة فى موسكو أتاح له الفرصة لى يكون إلى جانب بيلينيو ميندوثا بين أفرادها.

إنّ الفرقة الكولومبية كانت برئاسة الطبيب والقصاص مانويل ثباتا أوليبيا ، الذى أدرجه فى الفرقة " كمروض للوحوش " فقد كان جميع أفرادها من الزوج من بلدتى بالينكى ومالابيه. والحقيقة أن ثباتا أوليبيا كان أحد هؤلاء الأصدقاء الذى منذ أن تعارفا فى بوجوتا كان المُنقذ لجارثيا ماركيز فى اللحظات الحاسمة من حياته: ففى

قرطاجنة الهندية كان قد ضمه إلى صحيفة الأونيفرسال " العالمى " وفى مدينة السلام ، وفى بايدوبار كان قد طاف معه إلى جانب رفائيل إيسكالونا فى فردوس الموسيقى الشعبية ، والآن من باريس كان له بمثابة حضان طروادة مع فرقته الشعبية لكى يدخل فردوس الشيوعية. ولحسن الحظ فإن فرقة " ديليا ثباتا " قد تخلف عنها فى آخر لحظة عازفًا الساكسفون والاكورديون ، وقد حلَّ محلهما جارتيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا كعضوين مزيفين بالمجموعة أو الفرقة الموسيقية^(٥٤). وفى تلك الحالة كانت عملية التزييف بيان شكلى ، حيث إن الحقيقة تكمن فى أن جارتيا ماركيز كان عازفًا جيدًا للناي والطبلة ، وكان مغنيًا جيدًا للأغاني الشعبية.

وقد زاد عدد الوفد بانضمام الرّسّامين إيرنان بييكو وبابلو سولانو ، وبوليدورو بينيتو ، وتريسا سالتيدو ، وماتيلدى موخيك ، وبيّار بوردا الذى انضم إلى الوفد فى برلين. وقد كان خط السّير طويلاً وببيروقراطياً ، من باريس إلى برلين وبراغ ويراتيسلافا وكيف إلى موسكو ، والذى كانت بدايته حتى براغ عذاباً استغرق ثلاثين ساعة بالنسبة لجارتيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا ، اللذين اضطرا للسفر واقفين ، أو مضطجعين أمام باب دورة المياه ينالان قليلاً أحدهما على كتف الآخر. أما بقية الرحلة ؛ فقد كانت مريحة نسبياً عبر حقول القمح الأوكرانية الواسعة ، وقرى العصور الوسطى فى روسيا بفضل المحادثات الطويلة ، إلى جانب طاولة المشروب الكحولى التى كانت تتجول بين عربات القطار ، وإلى جانب أنغام الأغاني والموسيقى الشعبية. وعلاوة على ذلك ؛ فقد كان جارتيا ماركيز يشارك فى القرع على الطبلة ضمن الفرقة الموسيقية الفولكلورية. هذا وقد أثنى جارتيا ماركيز طوال الرحلة على الكافيار الروسى مما أيقظ شهية رفاقه فى السفر ، وخاصة لدى زنوج الفرقة ، وبالفعل بعد أربعة أيام من السفر تناولوا الكافيار بوفرة فى فندق موسكو على الإفطار ، وحمامات المياه الساخنة التى حنّوا وتاقوا إليها خلال رحلة السفر الطويلة.

وبعد ذلك انفصل جارتيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا وأصدقائهما عن الوفد مضحين بالمهرجان العالمى للشباب لأن كل ما يهمهم هو مواصلة تتبع أخبار الآخرين لمعرفة أنباء فشل ونجاح ومعجزات " الاشتراكية الحقيقية " فى معقل فردوسها؛ وبالتالي لم يكفوا عن سؤال كل من قابلوه طوال خمسة عشر يوماً موزعة بين موسكو

وستالينجراد. وكما هي العادة جمع الكاتب معلومات وفيرة وغزيرة ومحايدة حولها خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر إلى تحقیقات فى سلسلة تحت عنوان (تسعون يوماً عند الستارة الحديدية).

وأثناء رحلة العودة انفصل الكاتب عن رفيقه بيلينيو ميندوثا فى كیف ، وتوجّه إلى المجر. ففى موسكو استطاع الانضمام إلى مجموعة تتكون من ثمانية عشر فرداً من المراقبين الغربیین المدعویین من قبل بودابست ، وذلك لاستكمال جولته بالدول الاشتراكية التى كان قد بدأها أو شرع فیها منذ عامین؛ وكما قضى فى الاتحاد السوفیتى أسبوعین ، أمضى فى المجر خمسة عشر يوماً ، محاولاً جمع أكبر قدر من المعلومات متفادياً كل صنوف الرقابة لكافة المرشدين لكى يعرف النبض الحقیقى لدولة كانت لا تزال بها حتى عهد قريب بصمات وأثار التمرد والغزو السوفیتى فى أكتوبر ١٩٥٦ . وفى الأيام الأولى من سبتمبر ، وقبل أن يعود بيلينيو ميندوثا إلى كاراكاس اتصل به جارثیا ماركیز من بودابست ، واعترف له والخوف یتملكه قائلاً : كل ما رأیناه كان باهتاً وشاحباً مقارنة بالمجر^(٥٥).

وفى الحقيقة أن كل ما رآه فى هذه الدولة كان انعكاساً أخطر بكثير لما شاهده فى كل من الاتحاد السوفیتى وألمانيا الشرقية. إن إصراره على مدى سنوات طويلة على السفر والتوغل إلى قلب السلطنة السوفیتية ، والدول التى تنور فى فلكها كان الشكل أو الصورة الواضحة التى ستقضى على المناقشة التى تمحورت حول إخفاقات ومعجزات الاشتراكية الحقیقية وملاعة أو عدم ملاعة تصديرها إلى بلدان أخرى.

إنّ القراءات عن الماركسية التى قام بها هو ورفاقه مع مُدرس التاريخ والكیمياء والجبر أثناء دراستهم للثانوية فى ثیباکیرا ، والأفكار الرئیسية لمذهب ماركس علّمَهم أنّ الاشتراكية ما هى إلا مرحلة انتقالية بین الرأسمالية ، والشيوعية ، إنها فترة سيتم خلالها تطوير الظروف الموضوعية والذاتية لتحقيق قمة الرخاء المتكامل للفرد والمجتمع فى مرحلة أو عصر الشيوعية لتخليصهم من مملكة الحاجة والعوز ، ونقلهم إلى مرحلة أو عصر مملكة الحرية. وهذا كان يفترض أنه خلال عصر الاشتراكية الحقیقية التى تآصلت وقويت فى ظلّ طغیان الطبقة الكادحة كان ينبغى أن تحول هذه الطبقة ودولتها

المركزية الحديدية إلى صور من العمل الذاتى للمجتمع (وكما يقول ماركس تخليد الأفراد ، وتخليد الظلم التاريخى الموروث من الرأسمالية) بوسائل إنتاج فعّالة ، وبتراكم الثروات الكافية ، وتطور اجتماعى راقٍ وثقافى وروحى للإنسان الجيد .

ولكن لا: إن ما رآه جارتيا ماركيز فى الاتحاد السوفيتى والدول التى تسير فى فلكه كانت اشتراكية عبارة عن حثالة ، عبارة عن فُتات ، وكانت أشبه بالسخرية المأساوية للاشتراكية التى كان يُروّجُ لها كارل ماركس ، وفيدريكو إنجلز ؛ فلم تكن هناك هذه الديكتاتورية أو حكومة البروليتاريا أو الطبقة الكادحة ؛ بل ديكتاتورية بيروقراطية فظة ، تميل إلى السلب والنهب ، ترأسها مجموعة من المسنين كانت خاضعة لرئاسة طاغية: الأمين العام المناوب للحزب الشيوعى السوفيتى ، فلم تكن هناك دولة ترعى مصالح الطبقة الكادحة ؛ بل كانت هناك دولة مهيمنة على كل شىء مُدجّجة بالسلاح عن آخرها ، مكرسة لخدمة أساسية ألا وهى البيروقراطية ، ولم يكن هناك أدنى مؤشر لتحويل الدولة فى أشكال للعمل الذاتى لنفس المجتمع المدنى ، بل كانت هناك دولة مركزية تتزايد هيمنتها باستمرار ، دولة قوية وخاوية فى كل المعانى الإنسانية. لم يكن هناك أدنى تنمية وتراكم للثروات ؛ بل كان هناك توزيع للفقر يتزايد باستمرار ، وقد كانت التقنيات الوحيدة التى تزدهر مثل الرأسماليين التى هى التقنيات الخاصة والعسكرية.

إنّ هذا الفساد التاريخى والسياسى للاشتراكية ذات الوجه الإنسانى الحالم من جانب آباء الماركسية كانت تغذى التناقضات التى لاحظها جارتيا ماركيز فى الاتحاد السوفيتى ، كما يمكن أن يُفهم عند قراءة تحقيقاته من سلسلة " تسعون يوماً أمام الستارة الحديدية". وأدت هذه التناقضات إلى انهيار نظام الاتحاد السوفيتى بعد ذلك بثلاثة وثلاثين عاماً.

وبهذا الشكل ، وخلال تلك الأيام الخمسة عشر التى شاهد فيها الكاتب الكولومبى جارتيا ماركيز كل شىء وسأل خلالها عن كل شىء فى موسكو وستالينجراد ، واستطاع أن يستنطق الواقع بحياء وهدوء وتعمق ، الواقع المعقد للاتحاد السوفيتى تعقيداً لم تتسع له الدعاية الجوفاء الخاصة ، ولا فى الدعاية المضادة من جانب الأعداء. فقد بدا له جميع الناس سواسية فى موسكو فى نفس المستوى ؛ يرتدون الملابس

القديمة ، والأحذية زهيدة الثمن ، ولكنهم كانوا أناساً جديرين بالاحترام كُرماء ،
وتلقائين بعد أربعين عاماً من الانغلاق التام والصارم ؛ كان الناس يأسين لأن لديهم
أصدقاء وأنه أبعد من الفترينات ، والواجهات الزجاجية للتأثير على الزائرين .

كان هؤلاء الناس يعيشون وهم يعانون من مُرْكَب نقص رهيب إزاء الولايات
المتحدة الأمريكية. إنَّ العاصمة نفسها بدت له نظيفة للغاية ، وكذلك المترو فيها ، وصلات
السينما وحاناتها ، وفنادقها ، ومطاعمها ، ولكن أهالي موسكو بملابسهم القديمة
وتفصيلها السيئ للغاية كانوا لا يتلاعبون مع مدينتهم، ويعطون انطباعاً أشبه بقائد
السيارة النقل الذى ربح اليانصيب. فأحد المواطنين السوفيت يمكن أن يكون ملبسه
سيناً ، وحذاءه أسوأ ، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يرافق خطيبته ، ويتناول طعامه ،
ويستحم فى الشمبانيا فى مطعم ممتاز. كان العمال يعيشون بأعداد كبيرة فى غرفة ،
ولم يكن لهم الحق سوى فى شراء طاقمين من الملابس سنوياً ، وكانوا يشعرون بغاية
السعادة والغبطة عندما يعلمون بأن مركبة فضاء سوفيتية وصلت إلى القمر . وكانت
المبانى الشاهقة الخرافية تبهرهم ، إلا أنَّ الهندسة المعمارية من وجهة نظر جارشيا
ماركيز كانت متدنية مثل طريقتهم فى اللبس. إنَّ التكنولوجيا العسكرية والفضائية بدت
لجارشيا ماركيز متقدمة كما فى الغرب ، ولكن موظفى البنوك ومكاتب الدولة كانوا
يقدحون زناد فكرهم بأجهزة حسابية بالية ترجع إلى ما قبل التاريخ (على الرغم من
أن لديهم سبعة عشر صنفاً وموديلاً من الآلات الحاسبة المتنوعة) ، كما أن سير الحياة
اليومية كان متعزراً ، حتى أنَّ دورات المياه لم تكن تعمل بشكل جيد. وخلاصة الأمر أنَّ
جارشيا ماركيز رأى النظام متناقضاً ؛ فال مواطن السوفيتى يحق له فقط أن يمتلك حذاءً ،
ولكنه يستطيع شراء جهازى تليفزيون لمنزله ، وقد بدا له أن المواطنين الروس يدركون
جيداً مجريات السياسة الداخلية ، ولكنهم كانوا يجهلون تماماً أمور السياسة الخارجية.
ونظراً لعزلة نظام إنتاجهم ؛ فإن السوفيت كانوا يقضون وقتهم فى اختراع وابتكار
ما تم اختراعه وابتكاره فى الغرب ، بنفس الفخر والإعزاز المشروع لكل الرواد فى هذا
المجال (كما سيفعل خوسيه أركاديو بوينديا فى " مائة عام من العزلة ") ، وكانت إحدى
الظواهر التى لفتت نظره هى أنَّ موسكو أكبر قرية فى العالم كانت تتميز بنفاق
قروى ربما يكون قد انبثق عن عادات وأساليب الأب ستالين ، هذا الريفى من جورجيا الذى

حكم البلاد وأدارها كأنها محل " صغير " إن الأخلاقيات السوفيتية كانت تشبه الأخلاقيات المسيحية: فالفتيات فى علاقاتها بالرجال لهن نفس الحيل ، ونفس الظنون ، ونفس الإرب السيكولوجية المتأصلة فى الإسبانيات^(٥٦).

وبعد أربع سنوات من وفاة ستالين ، ويعد التقرير التاريخى لخروشوف أمام اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى. كان ستالين ظلًا هائلًا ممزقًا ، ومع ذلك كان هو الذى لا يزال يخطط فى هذا البلد المترامى الأطراف ، قاذفًا الرعب والشلل فى الملايين من السوفيت. ولم يكن عبثًا أن يمكث أربع سنوات ينام فى الظل المشنوم للينين فى ضريح الميدان الأحمر ، حيث شاهده جارثيا ماركيز ليس من ينام نوم الموت الخالد ؛ بل كمن يتمتع بحياة أخرى جديدة منعمة وهادئة: حياة السُلطة فيما بعد الموت فى جثته المتآزة والمهيمنة على كل شىء. يقول جارثيا ماركيز: "إنه لم يكن هناك أى تائب للضمير ، أمّا شاربه وبقية أجزاء جسده المحنط كان هناك خلود حقيقى مثل صورته كحاكم له حضور فى كل مكان ومهيمن على كل شىء. وفى زمنه الخالد فى السلطان المطلق الذى حكم به البلاد أكبر دولة فى العالم طوال ثلاثين عامًا ، وفى يديه الرقيقتين الناعمتين النسائيتين كمارشال محنط " بدأت تتبلور الشخصية الأسطورية للطاغية - الآخر: غير الرزين ذى الوجود فى كل مكان والخالد كما فى خريف البطريق.

ولذلك ؛ فإن نظامًا مليئًا بالمتناقضات الصارخة ، ومفعماً بكل صنوف العجز اليومية عند تصديره لدول أخرى سيسفر عن كارثة كبرى مثل التى شاهدها جارثيا ماركيز فى ألمانيا الشرقية وبولندا والمجر. وكان الاستثناء الوحيد فى كل هذا تشيكوسلوفاكيا " الديمقراطية الشعبية " الوحيدة والمتماسكة ، حيث لم يلاحظ الكاتب التأثير السوفيتى الخانق مثل الدول الأخرى ربما لأن هذا الشعب كان شعباً بناءً وتاجراً ، لا يغتر ولا ينخدع بالشعارات والحيل والخدع السياسية والفكرية . إن شخصيته الوطنية القوية والمستقلة تتضح جلية فى الهندسة المعمارية ، وفى الثقافة ، وفى عادات التشيكيين. فبراغ مهد أستاذه فرانز كافكا كانت مدينة " يمكن مقارنتها - على سبيل المثال - بباريس . فالمدينة يسودها النظام والذوق الرفيع والصالح العام ، وشعب بهذه الصفات سمحت له رفاهيته بأن تكون لديه صناعة متوازنة بين مختلف شعوب أوروبا . إن التشيكيين بصفة عامة " كانوا راضين سعداء بقدرهم "^(٥٧).

وعلى الرغم من النظرة الانتقادية " للاشتراكية الحقيقية " ، فإن جوهر اعتقاد جارتيا ماركيز ظل كما هو راسخاً لا يتزعزع : إن الاشتراكية المعروفة كنظام تقدم وحرية ومساواة نسبية يمكن - بل ينبغي - أن تكون مصير البشرية جمعاء ، ولكن إزاء وضوح الأحداث - ورفض أن تكون اشتراكية الاتحاد السوفيتي - اشتراكية ستالين هي النموذج الحقيقي للاشتراكية ؛ كما أنها ليست نموذجاً قابلاً للتصدير . وبعد ذلك بعامين نُشرَ في مجلة كروموس " الألوان " في بوجوتا ضمن سلسلة " تسعون يوماً أمام الستارة الحديدية " (٥٨) . ولقد أحدثت تحقيقاته - مشاعر متناقضة لدى أصدقائه من الجانبين ؛ فبينما اتهمه اليساريون بأنه باع نفسه لوكالة الاستخبارات الأمريكية ، وصف الليبراليون الصحفي الشهير بأنه أصبح بوق دعاية للاشتراكية ، ولكن أول من دُهِش من ذلك كان صديقه وزميله وأستاذه إواربو ثلاميا بوردا " أوليس " في خريف ١٩٥٧ ، وقُبيل أن يسافر جارتيا ماركيز إلى لندن تسلم في بوجوتا تلك السلسلة من التحقيقات الصحفية ، حيث كان قد كتبها لدى عودته من باريس بغية نشرها في صحيفة الاندبندينتي " المستقل " . إن ثلاميا بوردا الكاتب الكبير والرجل اليساري كان نائب مدير الصحيفة " التي كانت جريدة مؤقتة بديلة لصحيفة الاسبكتادور " المشاهد " ، مما منعه من نشر التحقيقات المناصرة للاشتراكية لصديقه القديم ومساعدته ، ولكن في نفس الوقت أدرك أن الحقيقة التي كشفت عنها تحقيقات صديقه تعتبر ضربة قاصمة اليسار المتناغم ، وغير الحذر في بلاده ، ولذلك حفظها في مكتبه ، حيث وجدها جارتيا ماركيز بعد ذلك بعامين لدى عودته إلى بوجوتا (٥٩) .

وبينما كان يكتب هذه التحقيقات في أكتوبر ١٩٥٧ في غرفة الخادمة دي نويلي وصل مواطن رحالة من أنطيوخيا كان والده بغالاً وسيكون آخر أصدقائه الكبار والخالدين : " المصور دميم الحيا " جييرمو أنجولو . كانا صديقين قديمين ، وكان أنجولو يبحث عن صديقه في أوروبا طيلة عام كامل ، ولكن هذه هي المرة الأولى التي رأى فيها كل منهما شخصياً .

لقد أصبحا صديقين من خلال رسالة بين المكسيك وبوجوتا بفضل وساطة المثال رودريجو أريناس بيتانكور ، الذي أرسل للكاتب نماذج من صور أنجولو لكي ينشرها له

فى الاسبكتادور. وبعد العديد من الرسائل وصل أنجولو إلى بوجوتا ليتعرف على جارثيا ماركيز، ولكن أصدقائه أبلغوه بأن الصحيفة عيّنته مراسلاً لها فى جنيف والبندقية وروما ، حيث اتفقا على التعارف خلال صيف ١٩٥٦ ، ولكن عندما ذهب أنجولو إلى العاصمة الإيطالية بغية دراسة الإخراج فى مركز السينما التجريبى كان جارثيا ماركيز يعيش فى باريس منذ ستة أشهر ، ولذلك اتفقا على اللقاء فى برلين للقيام بالرحلة المنتظرة سوياً إلى الاتحاد السوفيتى ، ولكن هذا الموعد كان مصيره الإخفاق أيضاً ، لأن أنجولو لم يستطع الوصول إلى برلين لأن الألمان الشرقيين منعه من اجتياز الحدود. وعند عودته إلى روما وجد نسخة من " العقيد لا يجد من يرأسه " على ورق صُحف ورسالة من جارثيا ماركيز تُفيد بأنهما سيلتقيان فى باريس لدى عودته من الاتحاد السوفيتى.

وعندما وصل أنجولو إلى فندق فلاندرى قالت له مدام كرويكس "إن السيد/ ماركيز ليس موجوداً ، لأنه مدَّ إقامته فى بلدان شرق أوروبا ، حيث انتقل من كييف إلى بودابست. وقد قرر أنجولو انتظاره فى نفس الفندق لأنه لم يكن على استعداد للاستمرار فى هذا العذاب اللانهائى بحثاً عن صديقه دون أن يجده، وطلب من المديرة أن تُؤجر له أرخص غرفة بالفندق. فأُجرت له الغرفة الصغيرة ذات السقف المائل فى الطابق السابع ، حيث سيشم رائحة القرنبيط المسلوq ، ولكى يستمع كل ساعة إلى دقات ونغمات ساعة جامعة السوربون. وبينما كان المصور ينتظر صديقه وهو يشاهد الأفلام القديمة فى صالات السينما القريبة جاء مواطن ساحلى شاحب الوجه نحيل الجسد نو شارب كثيف ، ونظرة ساخرة ، ورحالة مثله ملتقاً فى معطفه السميك وتلفيحته الصوفية ليقطع عليه قيلولته ، وقال له: يا أستاذ ماذا تفعل فى غرفتى ؟^(٦٠) أخيراً انتهت صداقة امتدت عبر الرسائل فقط لمدة عامين لتبدأ صداقة شخصية حقيقية من الحب والود والعادات والكلام والحديث المباشر ، مثل تلك التى جمعت بين كل من ألبارو موتيس ، ورفائيل إيسكالونا و بيلينيو ميندوتا وألفونسو فوينمايور وخيرمان بارجاس ، وألبارو ثيبيدا ساموديا ، وأليخاندرى أوبريجون و جارثيا ماركيز ذاته.

لقد اعتادا على رؤية بعضهما البعض فى كل مساء لتناول الوجبة الثالثة " العشاء " مع مواطنيهم الآخرين فى مطعم كابولادى زهيد السعر ، ثم يتنزهان باسترخاء دون

موعد أو خط سير معين أو ثابت في شوارع الحى اللاتينى ، وأحياناً أخرى كانا يذهبان للسهر ليلاً مع المثلّال إيرنان بيبكو والشينسى رويث ، ثم تنتهى بنزهات ووجبات عشاء وكؤوس لمدة ساعات ، حيث كانوا يغنون ويتحدثون عن كل شيء. وقُبيل الانتقال إلى لندن فى نوفمبر ، وكانت هذه آخر سهرات اللهو والأكل والشرب للكاتب مع أصدقائه فى باريس ؛ المدينة الجميلة الخيالية الضمنية التى - مع ذلك - أبقت على حياته بشكل هائل فى أحلك الظروف على حبل ضعيف من أوهن الأحوال الضعيفة البالية.

وعند الانتقال إلى لندن كان هدفه الحياة - أو البقاء على قيد الحياة - أطول وقت ممكن ، كما فعل فى باريس وروما لدراسة الإنجليزية ويواصل كتابة التحقيقات ، وقصة المنشورات الحائطية . إن الرحلات إلى أوروبا والاتحاد السوفيتى أثبتت له أن إنجليزيتة تحتاج إلى مجهود عميق كبير ، ولذلك فإن أفضل وسيلة لذلك هى الإقامة فى مهد اللغة. ففكر جارثيا ماركيز فى أنه يستطيع العيش فى لندن بما تدفعه له صحيفة الإندبندنتى مقابل تحقيقاته عن الدول الاشتراكية ، ولكن أوليس حفظها فى مكتبه ، وقد تجرأ بيلينيو ميندوثا ، ونشر له تحقيقين فقط - عن روسيا والمجر - فى مجلة مومينتو " اللحظة " فى كاراكاس^(٦١) ، التى تولّى رئاسة تحريرها مؤخراً.

إن إقامته فى عاصمة المملكة المتحدة لم تستغرق أكثر من شهرين ، والأسابيع الستة أو السبعة التى مكثها هناك كان فيها حبيب غرفته بالفندق فى سوٲ كينسينجتون متظاهراً بأنه يدرس الإنجليزية ، ولكنه فى الواقع كان يقرأ ويكتب بعض القصص التى انفصلت عن قصة " المنشورات الحائطية " التى لا زالت فى حقيقته مربوطة برباط عنق ملون. إن الذكرى الوحيدة الحية التى بقيت لدى جارثيا ماركيز من زيارته للندن تكمن فى الجماهير الغفيرة فى ركن الهاید بارك ، حيث كان يذهب يومى السبت والأحد أسبوعياً ليشاهد السوق المجانى للخطباء ، وللتمتع بأشعة الشمس النادرة وغير الضارة التى تخرج على استحياء خلال الخريف.

وعلى الرغم من هذه المنظورات المتشابهة ؛ فإن جارثيا ماركيز كان على استعداد لمد إقامته فى أوروبا لكى يستطيع كتابة قصته غير القابلة للتصديق والحزينة قصة " العقيد لا يجد من يرأسله " ، وإذا كان قد استطاع البقاء فى باريس ليكتب فلماذا

لا يستطيع ذلك فى لندن ؟ ففى هاتين المدينتين بمزيد من الحماس والجرأة أكثر من سُبُل المعيشة كان يشعر بقرب حلول أعياد ميلادٍ أخرى وشتاء آخر ، وهو وحده عندما تلقى برقية من كاراكاس تقول: إن مدير مجلة " مومينتو " بفضل وساطة بيلينيو ميندوتا قدّم له تذكرة طائرة لكى يعود ليعمل معهما محرراً. وفى غضون ثمانية أيام وصل جارتيا ماركيز ومعه أمتعة قليلة إلى مطار مايكتيا قبيل أعياد الميلاد ، بعد عامين ونصف العام من الذهاب إلى جنيف للعمل مُراسلاً لصحيفة الاسبكتاتور " المشاهد ".

الفصل الثانى عشر

- ما بين كاراكاس التعيسة لبوايفار، وكاراكاس السعيدة لخوان دى فريتس.
- سقوط وهروب ماركوس بيريت خيمينيث.
- الإطلاات الأولى لخريف البطريرك.
- مرسيديس خطيبة الصيدلية.
- قيلولة الثلاثاء.
- نيكسون فى كاراكاس.
- انتصار فيديل فى هذه الأمور.
- " عملية حقيقة " وحقائق الكاتب.
- رائد الصحافة اللاتينية.
- كاميلو توريس وقصة اللص الصغير.
- جنازة الأم العظيمة.
- طبع " العقيد لا يجد من يُراسله".
- كاتبنا فى هافانا.
- جارتيا ماركيز مُراسلاً فى نيويورك.

وأخيراً ، وبعد أن ظلَّ يتخيلها منذ طفولته وجدَّ أمام عينيه "كاراكاس التعيسة" بلد بوليفار التى كانت فى نفس الوقت كاراكاس السعيدة فى قصص الحوريات لخوانا دى فريتس، ولكنه لم يرها فى الوقت الذى كان يجتازها من طرف إلى طرف (من أولها إلى آخرها) ، ذلك المساء الحار فى ٢٣ ديسمبر ، وقد سأل بيلينيو بجدية مفطرة وشقيقته سوليداد مينوثا - اللذين ذهبا لمقابلته فى السيارة الصغيرة إم جى - سألها أين توجد المدينة^(١) ، وعلى الرغم من أن تلك تصعب رؤيتها من بعيد بسبب طبوغرافيتها المتعرجة الملتوية ، ربما لأنَّ صورتى باريس ولندن كانتا لا تزالان فى وجدانه ، أو ربما لكونه قد رسم فى مخيلته وقلبه شيئاً خيالياً عن المهد الأسطورى لمحرر أمريكا اللاتينية سيمون بوليفار، وكاراكاس الأسطورية لخوانا دى فريتس. وسُرَّعان ما بدأ يكتشف العاصمة الفنزويلية الحقيقية ، المتناقضة التى تجمع بين الريف والمدينة والتى فى فجر ٢٣ يناير ١٩٥٨ شاهدت فرار الطاغية ماركوس بيريث خيمينيث إلى المنفى.

إنَّ علاقته بكاراكاس كانت قد بدأت منذ الطفولة ، بمجرد الاستماع إلى كلمات الإطراء والثناء على سيمون بوليفار ، وقصص المنفيين الفنزويليين الذين كانوا قد وصلوا إلى أراكاتاكا بسبب جاذبية زراعات الموز ، مثل أسر باربوسا وفريتس وبيتانكور. ولكن زوجة الجنرال ماركوس فريتس المعارض القديم للطاغية خوان بيثينتى جوميث هى التى أصابت ذاكرة جارتيا ماركيز ، سواء ذاكرة الحنين ، أو الذاكرة الأدبية لمدينة كاراكاس بقصص وحكايات الأطفال الدائمة التى كانت تحكيها مراراً وتكراراً فى أمسيات أراكاتاكا لى تتابع واحدة تلو الأخرى فى "كاراكاس التعيسة" لذاكرته. وكما رأينا ؛ فإنَّ نفس خوانا دى فريتس كانت هى أيضاً القابلة لوالدة الكاتب ، منقذة إياهما من موت محقق (الأم وجارتيا ماركيز)، ولذلك فعندما وصل جارتيا ماركيز إلى كاراكاس قبيل أعياد الميلاد عام ١٩٥٧ ، لم يفعل ذلك فقط لأنَّ بيلينيو مينوثا وجدَّ له عملاً فى مجلة " اللحظة" ؛ بل لأنَّه انصاع لذلك النداء الخفى لقدره ومصيره ، فهو الآن مثل مرأت أخرى كثيرة سيسمح له بمواصلة المعرفة وترتيب أفكار حياته وإنتاجه الأدبى.

قد رافقه بيلينيو ميندوثا ذلك المساء إلى صالات التحرير بالمجلة مباشرة ، وجلس جارتيا ماركيز على مكتبه فى صالة فسيحة بدون نوافذ ، ولكنها مضاءة بلمبات النيون حيث سيقضى معظم الوقت خلال الشهور الخمسة الأولى فى كاراكاس . لم يكن يعرفه كارلوس راميريث ماكجريجور صاحب المجلة ، مثلما كان الأمر أيضاً مع صاحب الاسبكتادور (المشاهد) قبل ذلك بأربع سنوات ، والذي استحال عليه التوفيق بين الشخصية النحيفة رثة الثياب التى جاءت من أوروبا مؤخراً ، والكاتب الصحفى العظيم الذى حدثه عنه بيلينيو ميندوثا . ويتذكر بيلينيو ميندوثا أن " المجنون " راميريث ماكجريجور لم يرد عليه تحيته الأولى^(٢) . ولم يتبرم جارتيا ماركيز ، وظل صامتاً حتى اليوم التالى ، حيث حبس نفسه مع بيلينيو ميندوثا لمدة أسبوع لإعداد عدد المجلة ذات الموضوع الواحد فى نهاية ذلك العام. كان الاثنان يعيشان فى حى سان بيرناندينو: جارتيا ماركيز فى لوكاندة مهاجرين إيطاليين تغلب عليها رائحة المعكرونة المسلوقة ، أما بيلينيو ميندوثا فكان يعيش فى شقة مريحة فى أحد المباني المرتفعة فى الحى حيث تُسمع أصوات البلبال والطيور مما يذكرنا بالحنين والاشتياق الحى لحياة الريف. وتقريباً فى ساعات الفجر الأولى كان بيلينيو ميندوثا يمر لياخذ صديقه فى سيارته إم جى المكشوفة ، ثم بعد انتهاء العمل يعيده إلى اللوكاندة ليلاً.

وأثناء الاحتفال بأعياد الميلاد والعام الجديد سنحت للكاتب فرصة العودة لكى يلتقى من جديد مع رائحة الجواقة فى كثير من محلات أهالى كاراكاس. وكان أول يوم للراحة هو الأحد أول يناير عندما قرر بيلينيو ميندوثا الذهاب إلى الشاطئ لكى يفقد صديقه هذا اللون القاتم الذى اكتسبه خلال الأوقات التعيسة التى قضاها فى باريس. ولكن جارتيا ماركيز أصبح ذلك اليوم ومزاجه معتلاً كجذته ترانكلينا إجواران كوتيس ، أو ربما بزمان أساطير خوانا دى فريتيس ، لأنه سرعان ما قال لبيلينيو ميندوثا فى الصباح. لدى إحساس بأن أمراً ما سيحدث ، وبالفعل فبعد دقائق كان جارتيا ماركيز وأصدقائه وجميع الجيران فى كاراكاس يطلون من النوافذ والشرفات يشاهدون تحليق القانقات على ارتفاع منخفض ، بينما استمعوا إلى طلاقات المدافع الرشاشة غير المنتظمة : إن قاعدة ماراكاي الجوية شهدت تمرداً ، وقامت بقصف قصر رئاسة ميرافلوريس فى أول محاولة جادة للإطاحة بالطاغية ماركوس بيريث خيمينيث^(٣) ، ولكن المحاولة باءت

بالفشل لأنَّ القوات الموالية للطاغية بيريث خيمينيث قضت عليها ، ولكن الديكتاتور الذى تمَّتْ بالسلطة المطلقة ستة أعوام أُطِيعَ به بعد ثلاثة أسابيع فقط من تلك المحاولة.

لقد كانت أسابيع غمٍ وكربٍ فى كاراكاس ، وفنزويلا بأسرها حيث انطلقت موجة من الاضطهادات ، وحالات فرار واختفاءات واجتماعات للمتأمرين. كان الناس يغفلون من الهتافات والمنشورات السريّة والشائعات المضادة ، وفى كل الأماكن كان الضغط الشعبى واضحاً ضد الطُغيان الذى أوشك على السقوط والانهار. أمّا أجهزة الأمن فكانت تقوم بالمطاردات فى جميع أنحاء المدينة ، وتعتقل السياسيين والقساوسة، والمفكرين، والصحفيين. وذات مساء بينما كان جارثيا ماركيز وبيلىنيو ميندوتا فى الخارج ، وعندما وصلت أجهزة الأمن إلى مجلة " اللحظة" ألقوا القبض على طاقم التحرير بالمجلة ، واقتادوهم إلى مبنى الأمن القومى ، ولم يعرف جارثيا ماركيز وبيلىنيو ميندوتا ماذا يفعلان ، وقام الصديقان - إلى جانب مدير المجلة فى نيويورك - بالطواف بجميع أنحاء المدينة فى السيارة إم جى المكشوفة حتى ساعة حظر التجول يتنقلون ما بين شارع وآخر وسط ضجيج السيارات والمركبات ، والمنشورات التى كانت تتساقط من كل مكان ؛ فضلاً عن الغضب ، الاستياء الشعبى ، الذى كان أشبه بنهرٍ فى حالة فيضان.

لقد كانت ثلاثة أسابيع اتسمت بقلة النُوم أمّا ليلة ٢٢ إلى ٢٣ يناير لم تكن هناك وسيلة للنوم لبرهة واحدة ؛ فقد سهر جارثيا ماركيز ، وبيلىنيو ميندوتا إلى جوار المذيع فى شقة الأخير فى حى سان بيرناندينو حتى الساعة الثالثة فجراً. شاهدا أضواء الطائرة التى كانت تُقل الطاغية ماركوس بيريث خيمينيث فوق مدينة كاراكاس ، وهو يفر هارباً إلى سانتو دومينجو. وبعد ذلك بساعتين وصل ميندوتا وماركيز إلى مقر مجلة "اللحظة" ، وقاما باستدعاء عمال ومحررى المجلة عبر موجات الإذاعة. وبدون استراحة ، وبمساعدة القهوة المضبوطة والمركزة عمل الجميع كفريق متكامل حتى استطاعوا إعداد طبعة اليوم التالى التى نشروا فيها مقالاً افتتاحياً (أول مقال للمجلة) ، وتحقيقاً سريعاً حيّوا فيه عودة الديمقراطية ، وسردوا فيه سقوط الديكتاتورية^(٤). ودون أن يستشير المدير أمراً بإصدار طبعة كبيرة بلغت مائة ألف نسخة بيعت جميعها فى غضون ساعات قليلة ، واستطاعوا أن يجعلوا المجلة أكبر وسيلة إعلام شعبية وانتشاراً فى كاراكاس .

وبعد ذلك بثلاثة أيام ، وبينما كان الصحفيون الشُّبَّان المتحمسون ينتظرون إلى جانب زملاء آخرين في صالة القصر الرئاسى ميرا فلوريس ، حدث شيء لم يكن معروفاً حيث ذهب قصاص أراكاتاكا يبحث عن مهد بوليفار ربما ترشده الإرادات الخيالية التي كانت تسردها خوانا دى فريتس خالدة الذكر.

كانت الساعة الرابعة صباحاً ، والعسكريون ما بين ديموقراطيين وانقلابيين يُناقشون طوال الليل تشكيل مجلس الحكومة. وسرعان ما فُتحت صالة السُلطة ، وخرج أحد العسكريين المهزومين ، وهو يُشهر مُسدساً رشاشاً ؛ بينما كان يسير للخلف ، وترك حذائه بقايا من الوحل فى سجاجيد القصر قُبيل ذهابه إلى المنفى. لقد كانت هذه صورة مثمرة فى ذاكرة جارثيا ماركيز ، حيث إنه فى هذه اللحظة على وجه التحديد تذكّر أن لديه الوعى والإدراك الواضح لكى يكتب قصته خريف البطيريك قصة الطاغية اللاتينى الأمريكى: " كانت فى هذه اللحظة ، التى خرج فيها ذلك العسكرى من الغُرفة حيث كان يتم مناقشة تشكيل الحكومة الجديدة بشكلٍ نهائى . فى تلك اللحظة أدركت حقيقة كُنه السُلطة ، ولغزها"^(٥). وقد تعززت هذه الفكرة بعد بضعة أيام أثناء محادثة طويلة أجراها هو وصديقه بيلينيو مينوثا مع كبير الخدم بقصر الرئاسة ، وهو رجل ظلّ على مدى خمسين عاماً فى خدمة جميع الرؤساء والعسكريين والمدنيين والطُغاة والديموقراطيين ، منذ بداية عهد خوان بيتينتى جوميث النموذج الرئيسى فى خريف البطيريك ، ونفس الطاغية الذى كان قد طرد معارضه ماركوس فريتيس لكى ينتهى به الأمر بنفى نفسه وأسرته فى أراكاتاكا. وأصبحت زوجته خوانا دى فريتيس بعد ذلك القابلة لجارثيا ماركيز ؛ فضلاً عن كونها أيضاً قابله الأديبة.

ومع ذلك فإنّ عملية الطاغية لدى جارثيا ماركيز كانت قد بدأت فى التبلور منذ شهر أغسطس من العام الماضى ، (أو ربما خلال السنوات الأولى لديكتاتورية روخاس بينيا) ، عندما تأمّل الكاتب فى ضريح الميدان الأحمر فى موسكو - الجسد المحنط- لستالين. كما أنّ التحقيقات الصحفية التى أَعَدّها عن الاتحاد السوفيتى كانت مخطّطاً إجمالياً واضحاً لما سيكون عليه البطيريك فى قصته. عن إدراكه للسُلطة ، وعزلة السُلطة ، وعلى العكس من ذلك ، وفى الطريق أوغل بذاكرته فى الطفولة إلى ظلّ الجدّ لخضرمى الحرب ، والمنفيين الكبار الذين انحسر دورهم فى أراكاتاكا المتربة. وليس

من الغريب أن نرى صورة السلطنة فى عمل جارتيا ماركيز مرتبطة بالقائد والزى العسكرى. إن هذا أمر يأتى للكاتب من العالم الطفولى ، ومن ذاكرة جده. إن الأسطورة العسكرية والشهرة المدنية والأخلاقية للعقيد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا، والجنرالين خوسيه روساريو دوران ، وماركوس فريتيس بين آخرين قد أمدت الكاتب بالفكرة الأولى عن السلطنة وهو لا يزال فى طفولته، وهذه الشخصيات المنسية أو المنفية فى شيخوختها كانت بمثابة الفكرة المعاكسة لتلك الفكرة الأساسية عن السلطنة : عزلة السلطنة . وهكذا ينبغي أن يكون أساساً متأسلاً ، ومهماً للشخصية المهزومة والمحتضرة لبوليفار فى ضيعة سان بيدرو أليخاندرينو : المعبد الوطنى الذى زاره جارتيا ماركيز وهو لا يزال طفلاً صغيراً برفقة جده ، وهو فى السابعة أو الثامنة من عمره.

وهكذا فإن الكاتب عندما اهتم عن عمد بالسلطنة والطاغية الأمريكى اللاتينى كموضوعات لإحدى قصصه يومى ٢٥ ، ٢٦ يناير عام ١٩٥٨ كان ذلك - مثلما حدث فى كل الموضوعات الكبيرة فى قصصه ورواياته - صوراً يخترنها منذ الطفولة. ويتذكر بيلينيو ميندوتا أن صديقه تفرغ تماماً خلال تلك الأيام للغوص فى حياة الطغاة الأمريكىين اللاتينيين ، وفى كل يوم كانا يتناولان طعام الغداء فى مطعم عمالى بالقرب من مجلة اللحظة ، أو يتناولان طعام العشاء فى منزل ميندوتا كان جارتيا ماركيز يحكى له الأحداث الغريبة التى وجدها فى سيرهم الذاتية: فكثير منهم كانوا يعانون من اليأس لوفاة والدهم والاعتماد الكلى على أمهاتهم وطموحاتهم الحيوانية. ومن قراءاته فى تلك الأيام: فضلاً عن التحريات والتأملات ؛ كل هذا سيعطيه صورة أساسية: صورة طاغية عجوز جداً، عجوز لا يمكن تصوره ، بقى بمفرده فى قصر كبير ملئ بالابقار^(٦). وكان فى ذلك الحين عندما سمعه بيلينيو ميندوتا يتحدث عن مشروع كتابة قصة ذات يوم عن الطاغية الأسطورى الأمريكى اللاتينى.

إنه نفس السر الذى أفشى به إلى مرسيدس بارتشا باربو بعد ذلك بشهرين أثناء شهر العسل ، عندما كانا فى الطائرة من بارانكيا إلى كاراكاس ، وقد كشف لها عن أمرين آخرين: إنه سيكتب قصة عنوانها المنزل وهو فى الأربعين من عمره (كان لا يزال فى الحادية والثلاثين) سيكتب عملاً فذاً ؛ أهم عمل فى حياته^(٧) ، وقد صدقته كما صدقته فى كل شئ من قبل ، ليس فقط لأنها كانت تُدرك ميوله وقدراته الأدبية ؛ بل

أيضاً لأنها كانت تعرف جيداً تصميمه الدؤوب: وعندما كانت فى الثالثة عشرة من العمر ، وقد بدأ يغازلها فى سوكرى النائية أثناء فترة المراهقة كانت قد سمعته يقول لوالده: " أنا أعرف من سأتزوجها"^(٨). كانت مرسيدس قد أنهت فى ذلك العام المرحلة الابتدائية ، وكان جارثيا ماركيز فى الفصل الخامس الثانوى ، وفى نفس الليلة التى تعارفا فيها أثناء رقص الطلاب اقترح عليها الزواج دون مقدمات ، كما يحكى ذلك فى "نبأ موت مُعلن" وإن كان قد ظل مقتنعاً من أن ذلك سيكون زواجاً أكيداً ، والحقيقة أن الطفلة لم تُعِر اهتماماً لذلك فى البداية (كما سينبغى أن تقوم به ريميديوس موسكوتى مع أوريليانو بوينديا) ، وربما تكون قد رأت فيه آنذاك عصفوراً صغيراً عندما طلب منها ذلك.

وُلدت مرسيدس راكيل بارتشا باردو فى ٦ نوفمبر ١٩٣٢ فى ماجانجى ؛ قرية شديدة الحرارة أرضها منبسطة سهلية ، ومنازلها مبعثرة تُحيط بها المستنقعات وفرع من نهر ماجدلينا. وهى ابنة ديمتريو بارتشا وراكيل باردو ، ويجرى فى عروق مرسيدس دم شرقى من ألف ليلة وليلة: فقد وُلدَ والد جدها فى سوريا ؛ أما جدها إلياس بارتشا فقد وُلدَ فى الإسكندرية ؛ ولذلك فإن الكاتب فى نهاية "مائة عام من العزلة" يصف جمال وحسن زوجته " بثعبان من نهر النيل" ، وقد وصل جدها إلياس مع والدها إلى كولومبيا فى أوائل القرن العشرين ، وحصل على الجنسية فى نفس العام الذى وُلدت فيه مرسيدس^(٩). وقد عاش جدها حوالى مائة عام ، وكانت هوايته إلى جانب التجارة قراءة الطالع للرجال فى أحد المقاهى.

أما والدها ديمتريو بارتشا ؛ فقد كان أحد أفراد جيلٍ تاريخى من العرب الكولومبيين المغامرين ، أينما حلَّ كان يتبع خطوات وروح والده فى الصيدلة أو فى البقالة. كان رحالة كجارثيا ماركيز ؛ فقد عاشت أسرة بارتشا باردو فى ماجانجى ، وماخاجوال ، وسوكرى وبارانكيا. وكانت مرسيدس الابنة الكبرى بين ثمانية أشقاء ، ولقد تعلمت فى مدرسة لوس نينىوس دى لا كروث فى ماجانجى ، وفى مدرسة الساجرانوبوكوارثون (القلب المقدس) فى مومبكس ، وفى مدرسة لابرسنتاشيون دى إينبيجافو وفى مدرسة ماريا أوكسيليا دورا فى ميدياين ، حيث أتمت دراستها الثانوية فى ١٩٥٢^(١٠). وعلى الرغم من أنها كانت تريد دراسة علم البكتريا، وقد شجّعها خطيبها على ذلك وأهداها كتاباً عظيماً عن الميكروبات والجراثيم كان يبدو هائلاً فى ذلك الوقت ، فإن الزواج الذى كان وشيكاً على ما يبدو أجّل دراستها الجامعية.

وفى أواخر الأربعينيات ، فى أصعب اللحظات وأحلك الظروف فى ظل أحداث العنف انتقل أفراد أسرة بارتشا باردو من سوكرى - بعد أن عاشوا فيها خمس سنوات تميزت بصداقتهم الوطيدة مع أسرة جارثيا ماركيز - إلى بارانكيا ، حيث أنشأ والد مرسيدس صيدلية فى نفس ناصية شارع عشرين يوليه عند تقاطعه مع شارع ٦٥ ، وقد تلقت فيها المقطوعات الموسيقية والأغاني على أنغام الناي التى كان يرسلها لها بكثرة خطيبها ، عندما كان يعمل فى صحيفتى الهيرالدو والناثيونال. وكانت هذه الأعوام الوحيدة التى عاشا فيها فترة خطوبة قرييين من بعضهما ، وبعد ذلك - عندما رحل جارثيا ماركيز - ظلت تكتب له الرسائل المليئة بزهور الباليانا المتعددة الألوان الوردية والبيضاء والحمراء ، وكانت ترسلها له إلى بوجوتا وروما وباريس. كانت رسائل طويلة آمنة ، وهادئة مثل رسائله تماماً. لقد كانا خطيبين قديمين ، وكانا على يقين لا يتزعزع من زواجهما ، وكانا يتصرفان بوعى وحس الأزواج الذين يطول بهم العمر ، وفى النهاية ينتهى بهم الأمر إلى الحب الخالص كخطيبين.

وعلى عكس آخرين ؛ خضعت هذه الخطوبة لتنقلات مهنة الجواله لجارثيا ماركيز ، ومع ذلك لم تشبها شائبة، ولم يؤثر فيها الزمن ولا المسافة ؛ بل على العكس من ذلك ؛ فقد قويت وترسخت لهذين العاملين ، كما أن الصداقات والغراميات التى عاشها الكاتب قبل الزواج لم تكن فى أية لحظة بديلاً للخطيبة البعيدة ، للتمساح المقدس ؛ بل كانت جسوراً عبر الزمن للعودة إليها ، والبقاء معها ، لدرجة أن هذه الغراميات كانت سريعة الأفلو ، وإن كانت فى الظاهر غراميات قوية ، كما كان الحال فى شأن علاقته المجنونة مع تاشيا كيتانا المواطنة الباسكية المتهورة الحيوية النشيطة والسخية التى ساعدته فى أوقات الشدة أثناء وجوده فى باريس. " إن الجمال الصامت الشرقى ، وذكاء المشاعر والأحاسيس والسحر والرزانة والرصانة والكتمان والجرأة والصبر عند مرسيدس بارتشا باردو ؛ كل هذه الصفات جعلته يحسها ويشعر بها مهما كان بعيداً عنها. وقد قال ذلك للمواطنة الباسكية عندما ودّعها فى باريس متجهاً إلى كاراكاس: إنه سيتزوج خطيبته فتاة ماجانجى ابنة الصيدلانى ديمتريو بارتشا^(١١). وعلاوة على ذلك: جاء هذا فى لحظة كان الكاتب لا يريد - حتى ذلك الوقت - العودة إلى أمريكا ، وكان هذا هو السبب الرئيسى وراء استقراره فى كاراكاس متعللاً بمبرر العمل الذى وفره له بيلينيو ميندوثا فى مجلة "لحظة" .

ولذلك طلب تصريحاً بعد ثلاثة أشهر لمدة أربعة أيام ، وسافر إلى بارأنكيا ، حيث كانت تنتظره مرسيدس بكل التأكيد والصبر المعتادين فيها دائماً لكى يتزوجا فى ٢١ مارس فى تمام الساعة الحادية عشرة صباحاً بعد أربع سنوات من وعده إياها بالزواج ، وبعد ثلاثة عشر عاماً من خطبته لها بعد أن أعد هذه الخطوبة على نار هادئة دون تسرع أو توقف.

وفى مبنى كنيسة بيريتو سوكرؤ (النجدة الدائمة) كان أصدقاء الكاتب الدائمون أعضاء جماعة الساخرين يُحيطون بالعروسين والديهما . وبعد أربع سنوات من الفراق عادوا ليلتقوا سوياً مع جابيتو ، ولكنهم وجدوه متغيراً بعض الشيء ، ربما لهيبة اللحظة التى يعيشها ، ولخافته المفرطة ، وكان أشبه بدون كيشوت ، بيد وكأنه يظهر فى صورة جانبية على الرغم من كونها صورة أمامية . فلم يعهده جاداً أبداً ، وكان يرتدى حُلّة غامقة اللون ، وقد ربط رباط عُنقه بطريقة هائلة ، وخاصة أنهم لم يروه ينتظر انتظاراً صامتاً ومكثفاً كالذى استقبل به خطيبته ، التى وصلت متأنبة ذراع والدها وعلى وجهها حجاب العُرس ، وفُستان أزرق اللون . ويتذكر ألفونسو فوينمايور " انتظاره المكثف " إنه انتظار يانس تقريباً ، حتى أن والد العريس جابرييل إيلخيو جارثيا ماركيز تذكر ما حدث له منذ اثنين وثلاثين عاماً فى كاتدرائية سانتا مارتا ، وكذلك فإن جارثيا ماركيز نفسه استدعى إلى ذاكرته واقعة مواطن بارأنكيا الذى لم يعرفه . كان قد رآه منذ ثمانية أعوام فى سوق المدينة ذاتها وسوف يصبح هذا إحدى الشخصيات الرئيسية التى ستظهر فى " العقيد لا يجد من يُراسله " .

إن الإجازة القصيرة التى منحوها له فى مجلة " لحظة " لم تكن كافية للاحتفالات الطويلة التى كان الأقارب والأصدقاء قد فكروا فيها للاحتفاء بالعروسين . وفى اليوم التالى للزفاف رحل المتزوجان حديثاً إلى كاراكاس ، بعد أن توقفوا قليلاً فى ماراكايبو . وكانت هذه اللحظة وهما يحلقان سوياً فى السماء عندما تحدث جارثيا ماركيز إلى زوجته عن أحلامه الغالية ، مثلاً ستفعل أيضاً أمارانتا أورسولا مع البلجيكي جاستون على ارتفاع ٥٠٠ متر فوق المجال الجوى لسانتو دومينجو ، وعلى وجه التحديد فوق أراضيها السهلية) : وهى قصة تحت عنوان " المنزل " ، وأخرى عن الطاغية أمّا عمله الهائل فسيكتبه فى الأربعين من عمره . وقد صدقته لا لأن ذلك سيحدث فقط ، بل لأنها

كانت فى حاجة إلى التصديق؛ فقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذى يستطيع أن يقدمه لزوجته ؛ يقدم لها كلاً سيكون أكبر من الكل نفسه ، لأنّ هذا سيكون المستقبل الناضج لإصراره الذى لا يتزعزع ، ولذا كانه ونبوغه الهائل.

كما أنها صدقته - علاوة على ذلك - لأنها كانت تعلم قبل هذا أن زواجهما سيكون مشاركة ، ليس فقط لخدمة الحب بل أيضاً لخدمة الأدب. ووسط هذه الكوكبة من أصدقاء زوجها الذين قدّموا له كل عون ، وأمدوه بالسعادة ، وعلى رأس هؤلاء ألبارو ثيبيدا ساموديو ، ألفونسو فوينمايور ، وخيرمان بارجاس ، وألبارو موتيس ، ورفائيل إيسكالونا ، بيلينيو ميندوثا ، جييرمو أنجولو. جاءت العروس لتكون لبّ الاهتمام ؛ جوهر وبؤرة الاهتمام الذى كان ينقصه لكى يتزايد نضج أحد كبار كُتّاب القرن العشرين على أوسع نطاق فى جميع المجالات ، ولكن مرسيدس ستكون - من ناحية أخرى - إحدى السيدات الأساسيات فى حياة وإنتاج جارتها ماركيز ، كما هو الحال فى الرؤية الكونية لأهل بابل ، فقد جاءت هى لإكمال رقم التمام للنظام الكامل: الرقم سبعة بعد لويسا سانتياجا ماركيز والدته التى منحته الحياة، وترانكلينا إيجواران كوتيس - ذات الوجه الصارم ، تلك الجدة التى أغرقته بالقصص الفانتازية وأعارته وجهها الصارم لكى يسرد قصصه ، وثيموديسا ميخيا العمة التى ربته فى الحقيقة وفتحت عينيه على الثقافة الشعبية، وخوانا دى فريتيس مواطنة كاراكاس التى أنقذت حياته وأمدته بكثير من حكايات العفارىت، وروسا إيلينا فيرجسون مدرسته فى ريو هاتشا التى علمته القراءة وحب الشعر ، وفيرجينا وولف السيدة الإنجليزية التى أمدته بالمفاتيح الأساسية لكى يفهم عالمه الأدبى . ولكن الوحيدة التى كان لها أكبر الفضل فى معظم أعماله هى مرسيدس بارتشا باربو ابنة الصيدلانى ، التى أدرجها باسمها الحقيقى فى ثلاثة أعمال من إنتاجه ، كما أهدها اثنين آخرين .

وبالطبع كما يتذكر بيلينيو ميندوثا لم تكن أول خبرات مرسيدس فى إعداد الطعام مشجعة ، فقد شاط أرزها ، وعمّت رائحته المساكن المجاورة، كما أن اللحم الفيليه والبيض لم تُجد طهيهما ، ولكنها سرعان ما أخذت بزمام المنزل مثملاً فعلت أورشولا إيجواران ، ونظمت ورتبت السكن الصغير الذى استأجره فى نفس حى سان بيرناندينو. لقد نظّمت " الخلل المنظم" لزوجها ، وعثرت على كل النسخ الأصلية المكتوبة

بخط اليد ، ووجدت قصاصات المقالات والتحقيقات الصحفية ، والقصة المستعرة " العقيد لا يجد من يرأسه " ، والمجلد الضخم الخالد " للمنزل " وبعض القصص الحديثة ، ورزمة تضم ما يقرب من خمسمائة ورقة يحزمها رباط عُقْ أزرَق ، وخيوط صفراء ولم يكن لها عنوان حتى ذلك الوقت ، وقد سألته عن كُنْه ذلك فقال لها حافظي عليها جيداً إنها " قصة المنشورات الحائطية " فى سوكرى ، وقد بدأ فى كتابتها منذ عامين فى باريس وأوصاها بالاهتمام بها والمحافظة عليها لأن لديه عملاً كثيراً الآن فى مجلة " لحظة " وأولويات أدبية أخرى^(١٢).

وفى الحقيقة كانت الأولويات الأدبية هى قصة المنشورات الحائطية ، لأنه فى لندن كان يكتب بعض الحكايات التى انفصلت عن جسد القصة ، كما سبق أن انفصلت عنها أيضاً قصة " العقيد لا يجد من يرأسه " ، ولكن بمجرد أن أخذت مرسيدس بزمام المنزل فإن الكاتب أصبح بوسعه التفرغ بالليل وفى عطلات نهاية الأسبوع للعمل فى كتابة القصص التى يتكون منها مجلد " جنازة الأم الكبيرة " ، وخلال أسبوع الآلام اقترح عليه بيلينيو مينوثا فكرة المشاركة فى مسابقة القصة والصحافة التى أعلنت عنها صحيفة الناثيونال (الوطنى) مؤخراً ، الصحيفة الأولى بالدولة ، والتى يُشرف عليها القصاص ميغيل أوتيرو سيلبا . إنه أمرٌ مسلٍ للغاية ، وقد وجد جارثيا ماركيز الأمر سهلاً ، وبدأ العمل بعد أن شَمُرَ عن ساعد الجد . حينئذٍ ، وبالعودة إلى عالم " الورقة الساقطة " و " ذات يوم بعد السبت " كتب فى جلسة واحدة تقريباً قصته الرابعة عن ماكوننو " قبيلة الثلاثاء " . لقد كانت بمثابة تطوير لصورة كانت تلاحقه منذ الطفولة فى أراكاتاكا ذات يوم ، ومن خلال الغبار والشمس الحارقة جاءت إلى القرية سيده ومعه باقة من الزهور ، وطفلة فى يدها : " أمُّ اللص قادمة " ^(١٣) . إن صورة تلك الأم كانت وقورة للغاية (ويمكن أن تكون ذكرى استعادتها ذاكرة جارثيا ماركيز نفسه عندما كان يسير مع والدته فى شوارع أراكاتاكا من أجل بيع المنزل الفسح الذى وُلِدَ فيه) وكانت السيدة ترتدى فستاناً أسود ومعهما الطفلة وباقة الزهور متجهة إلى المقابر لزيارة قبر ابنها الذى اغتيل منذ بضعة أيام ، ولم تُمح هذه الصورة من ذاكرته أبداً مما سمح له بأن يكتب خلال نفس أسبوع الآلام واحدة من أفضل حكاياته . واستناداً لما يقول الكاتب " إنها الأفضل " ومع ذلك ، فإن لجنة التحكيم بصحيفة الناثيونال (الوطنى)

برئاسة ميجيل أوتيرو سيلبا قالت إنَّ القصة لا تستحق حتى مجرد الترشيح ، ولا التحقيق الروائي الذي تقدّم به بيلينيو ميندوتا عن حياة ومعجزات جوستابو ماتشادو مؤسس وأمين عام الحزب الشيوعي الفنزويلي^(١٤).

واستمر جارثيا ماركيز يعمل دائماً طوال الليالي ، وكذلك فى عطلات نهاية الأسبوع على مدى عام ١٩٥٨ فى قصص أخرى من " جنازة الأم الكبيرة " و " ذات يوم من تلك الأيام " ، وقد سلّمه فى بارأنكيا إلى نيسطور مدريد مالو لمجلة الأطلسي (حيث نُشرت فى يناير من العام التالى): " لا يوجد لصوص فى هذه القرية " ، و " المساء العجيب لبلنثار " ، و " أرملة مونيل " ، " ورود صناعية " التى كانت عنواناً للكتاب الذى سبق "مائة عام من العزلة" الذى سيكتبه فى بوجوتا فى منتصف عام ١٩٥٩ .

ويفضل زيارة ريتشارد نيكسون لكاراكاس ما بين مايو ويونيه استطاع الحصول على ستة أسابيع أجازة كى يواصل كتابة قصصه وحكاياته ، حيث إنَّ وجود نائب الرئيس الأمريكى عجلٌ بخروجه هو و بيلينيو ميندوتا من مجلة " لحظة " .

لقد وصل نيكسون فى ١٢ مايو أى بعد أربعة أشهر من سقوط بيريث خيمينيث ، ولم تكن القطاعات الفقيرة بالمدينة قد نسيت النياشين التى منحتها حكومة الرئيس أيزنهاور للطاغية، ولهذا فإنَّ سيارة نائب الرئيس تم الاعتداء عليها عند مدخل كاراكاس بالأحجار والعصى والبصاق. ومثلما فعل آخرون من وسائل الإعلام ؛ رأى مدير مجلة " لحظة " أنه ينبغى تقديم اعتذار عام لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، وبالتحديد كتب مقالاً افتتاحياً للعدد القادم. ولم يكن جارثيا ماركيز و بيلينيو ميندوتا راضين عن الألفاظ المهينة لاعتذارات مدير المجلة ، وقد نشرنا المقال بالحروف الأولى لكارلوس راميريث ماكجريجور موضحين تماماً منُ المسئول عن هذه الافتتاحية، وعندما رأى المدير ذلك اشتاط غضباً وصبَّ جام غضبه الصبيانى لكراهية الأجانب على الثنائى الكولومبى اللذين يرجع لهما الفضل فى رفع شأن المجلة. حينئذٍ قام بيلينيو ميندوتا بسبه ، وأوصد الباب فى وجهه نهائياً ، وعلى السُّلم قابل جارثيا ماركيز الذى كان قد جاء متأخراً ، ولذلك كان يصعد السُّلم درجتين بدرجتين فقال له : " اذهب حيث يعوى الذئب أى إلى الجحيم " ، وقد أكّد له جابو أنه ليست هناك أدنى مشكلة ؛ فقد كان هو الآخر سيقوم بنفس الصنيع^(١٥).

وبالتالى توفرُ مزيد من الوقت لجارثيا ماركيز لكى يتقدم فى كتابة قصصه والتمتع طيلة خمسة أشهر بزيارة مختلف أنحاء المدينة والشاطئ ، والذهاب إلى السينما والمسرح بصحبة مرسيدس ؛ فضلاً عن تعميق صداقته من الكتّاب الشبان بجماعة سارديو (سلفادور جارمينديا ، وأدريانو جونتاليث ليون وجارثيا موراليس ، ورامون بالوماريس ، وفرانثيسكو بيريث بيردومو) متناولاً الجعة فى مقهى إيرونيا أمام مسرح البلدية ، والحديث عن وليم فوكنر ، وعن اثنين من الكلاسيكيين الفنزويليين على الرغم من كونهما سابقين على خورخى لويس بورخيس ، وكان لا يعرفهما أحدٌ تقريباً : خوسيه أنطونيو راموس سوكرى ، وخوليو جارمينديا .

وبما أن جارثيا ماركيز كان كاتباً فقيراً وحديث الزواج؛ لم يكن بوسعِه أن يظلّ بلا عمل لفترة طويلة ، واضطر بمساعدة بيلينيو ميندوتا للعودة إلى سلسلة كابريليس ، وفى إحدى مجلاتها وهى (الصفوة) ، التى كان قد تعاون معها من قبل من باريس بخمسة عشر مقالاً وتحقيقاً صحفياً ، ومع ذلك فقد عيّنهُ ميغيل أنخيل كابريليس رئيساً لتحرير أتفه مجلات السلسلة : فنزويلا جرافيك (فنزويلا بالصور) والمعروفة على الصعيد الشعبى بمجلة فنزويلا للدعارة ، نظراً لنشرها صور فتيات بالملابس الداخلية الشفافة. ولم يبد ذلك عملاً سيئاً لجارثيا ماركيز يكتسب منه قُوت يومه طالما أنه ليس مُضطراً لتوقيع أى شىء باسمه ، وقد بلغ به الأمر أن وقّع تحقيقين - بصفة استثنائية - بالحروف الأولى من اسمه ؛ كانت نصوصاً مؤيدة ومناصرة لذلك أو للتعبير عن الإحساس ، وعن معتقداته السياسية والاجتماعية مثلما كان عليه الحال فى مجلة " لحظة " ولكن بدون إلهام مقالات هذه المجلة .

ومن وجهة النظر التشكيلية ؛ فإنّ مقالات وتحقيقات مجلة " لحظة " قد تُعتبر الأفضل خلال السنوات العشر الأولى من عمله كصحفى ، باستثناء تحقيق " حكاية غريق " ، وقد تزوج جارثيا ماركيز مؤخراً وأتم العام الحادى والثلاثين من عمره ، وقد اكتسب نضجاً كبيراً (ويتفق أصدقاؤه وأقاربه على أن جارثيا ماركيز ولدَ ناضجاً) على مختلف الأصعدة: الإنسانى، والفكرى، والسياسى ، والأيدولوجى، والأدبى ، والصحفى ، وكان يكتب بسهولة وإسهاب وانسيابية وجمال ، مُعالِجاً أهم الموضوعات جديّةً بالغة كبيرة ، ويدون مهابة أو إجلال. فنصوص مثل " كيلى يخرجُ من الظل " ، و " رجل الدين

المكافح" ، و "جيل المضطهدين" ، و "اثنتا عشرة ساعة لإنقاذه" ، و "كاراكاس بلا ماء" ، أو تلك التي أهداها لبلاده خلال ذلك العام: "كولومبيا: أخيراً تتحدث أصوات الناهخين" ، و "يراس" (١٦) ؛ تلك المقالات التي تضع القارئ أكثر قرباً من مؤلف "مائة عام من العزلة" أكثر من كاتب "الساعة المشؤومة" ، وإذا كان جارتيا ماركيز الناضج قد بلغ درجة قريبة من الكمال إذن لماذا تأخر حقبة من الزمن لكي يكتب رائعته القصصية ؟ . والإجابة ليست شيئاً سهلاً أو بسيطاً . فمن بين الأسباب الأخرى كان ينبغي تفسير هل حقيقة تأخرت كتابة "مائة عام من العزلة" ، أو ببساطة هل كُتبت عندما كان الوضع يقتضى كتابتها . ومع ذلك فإن الانطباع (وأحياناً الاعتقاد) المعروف هو أن القصة تأخرت طوال كل هذه السنوات لأسباب خارجة عن الأدب أكثر منها أسباب تتعلق بالأدب . وإذا كان الأمر كذلك فإن أول سبب يجب البحث عنه في كوبا حيث قضى الملتحون في سيراً مايسترا على طغيان فولخينثيو باتيستا ، مما أدى إلى بزوغ نور الفجر في أمريكا اللاتينية بأسرها مع قدوم أول ثورة اشتراكية في القارة .

ولأسباب تتعلق بمعتقداته السياسية ومهنته كصحفي فإن جارتيا ماركيز و بيلينيو ميندوتا قد وجدا هويتهما دائماً مع حركة ٢٦ يولية منذ ذلك المساء في باريس ١٩٥٦ عندما كانا يتناولان القهوة مع الشاعر نيقولاس جيين في غرفته بفندق جراند هوتيل سان ميتشيل ، وحكى لهما نيقولاس جيين بأن الأمل الوحيد الذي تراه كوبا يكمن في شاب فارغ القامة عنيد ونصف مجنون يُدعى فيديل كاسترو ، كان يتحرك سريعاً في مختلف أنحاء المكسيك ، ولم يكن الاسم غريباً عليهما تماماً أى بالنسبة للمواطنين الكولومبيين فقد اشتهر كاسترو منذ ثماني سنوات في بوجوتا بسبب أحداث ٩ أبريل ١٩٤٨ عندما أرادت الحكومة المحافظة في ذلك الحين تقديمه إلى جانب طلاب كوبيين آخرين كانه المسئول عن اغتيال خورخي إليسير جايتان ، أما الآن ففي أول يناير ١٩٥٩ استطاع كاسترو أن يقود الثورة إلى شاطئ الأمان الأمر الذي تعذر عليه في بوجوتا . وقد احتفل جارتيا ماركيز و بيلينيو ميندوتا بهذا الحدث سعيدين في شرفة بيو موتني (الجبل الجميل) كما احتفلت به كاراكاس أيضاً والقارة بأسرها .

وبعد حقبة من الديكتاتورية والظلم ، بدأ الطغاة يتساقطون كثرات فاكهة ناضجة تتساقط من شجرتها ، وكان أولهم خوان دومينجو بيرون في ١٩٥٥ وبعد ذلك مانويل

أودريا في ١٩٥٦ وجاء الدور على جوستابو روخاس بينيا في ١٩٥٧ ثم ماركوس بيريث خيمينيث في ١٩٥٨ ثم أصاب الدور فولخينثيو باتيستا ، ولكن الثورة الكوبية كانت الحركة الوحيدة ذات الطفرة النوعية الهائلة ، تختلف تماماً عما حدث في الدول الأخرى: فالأمر الآن لا يتعلق بالطبقات البرجوازية وحكومة الأقليات المعروفة التي أسقطت الطاغية عندما أصابه الدور ؛ بل انتزعت منه السلطة . إن الأمر يتعلق بمجموعة من المحاربين الملتحين على رأس الشعب غزت السلطة من الجبال ، مما أثار الإعجاب والتضامن والقلق الكبير في كل أنحاء أمريكا اللاتينية .

وشأن كثير من الأمريكيين اللاتينيين رَغِبَ بيلينيو مينوثا و جارتيا ماركيز في الذهاب إلى هافانا لمشاهدة هذا الحماس الثوري؛ ذلك الانفجار المليء بالأمال والأحلام المؤجلة. وقد سنحت لهما الفرصة بعد ذلك ببضعة أيام في ١٨ يناير عندما كان جارتيا ماركيز يرتب مكتبه وينظمه في مجلة " فنزويلا المصورة" لكي يعود إلى منزله إذ دخل مواطن كوبي من الحركة الشيوعية في ٢٦ يولية. دخل المجلة وقال له: " لقد جاءت طائرة سريعة من كوبا لكي تُقَلَّ الصحفيين الذين يريدون الذهاب إلى هافانا للاطلاع على عملية حقيقية" ، تلك التي تزعمها فيدل كاسترو ليحاكم على المُلأ مُجرمى الحرب أثناء حكم الطاغية باتيستا. وبالنسبة لجارتيا ماركيز الذي كان قد كتب من قبل عن العملية الثورية الكوبية ، حيث التأييد الواضح الذي أبداه والتعاطف الذي أظهره ، وذلك من خلال تحقيق بعنوان " إيمان كاسترو" شقيقة كاسترو ، فقد كانت هذه الدعوة مناسبة سعيدة بالنسبة له ، واتصل على الفور ببيلينيو مينوثا ، وذهبا في نفس تلك الليلة بأمتعة قليلة على الطائرة الكوبية ذات المحركين، طائرة قديمة تم اختطافها من جيش باتيستا ، وكانت لها رائحة البول العفن^(١٧) ، وبعد هبوط اضطرارى في كاماجوي وصل الجميع إلى هافانا ، وشاهدوا رجالاً كثيرين يرتدون زياً موحداً أخضر ، لون الزيتون ، وجماهير غفيرة لم تنم لأنها لم تجد وقتاً للنوم لأن الاحتفال بالحرية منعهم من ذلك ، وكان فيدل كاسترو بكل بساطة فيدل الزعيم الذي لا جدال بشأنه ، وهو أمل الجميع لدرجة أن الذين كانوا من غير أنصاره أخذوا يهتفون باسمه سعداء به في قلوبهم ، ووثقوا فيه لتحقيق أفضل أحلامهم.

وبعد الطواف في هافانا يتحدثان ويتحاوران مع الناس ، ويجسدان نبض الثورة ، ويستمعان إلى فيدل كاسترو ، وهو يخطب في مليون شخص من مواطنيه. استطاع

جارثيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا مشاهدة " عملية حقيقة " ، ولكي يعرف العالم أن المحاكمة وإعدام مجرمي الحرب كانت موجهة فقط لهؤلاء المجرمين وليس إلى كل أنصار باتيستا كما تقول الصحافة الأمريكية. لقد دعا كاسترو صحفيين ومراقبين من عدة دول لحضور هذه المحاكمات العاجلة. وكانت المحاكمات تتم خلال هذه الأيام في استاد سوسا بلانكو الرياضى ، وهو أحد مجرمي الحرب أثناء عهد النظام السابق المخلوع. لقد اتهم باغتيال العديد من الفلاحين الذين اعتبرهم شركاء الجيش المتمرد، وقد حاكمته محكمة الملتهين موحى الزى. لقد كان الاستاد مليئاً عن آخره ، وفى المستطيل الأخضر كان المتهم موجوداً أمام المحكمة يرتدى حُلته الزرقاء كسجين. وكان بيلينيو ميندوثا و جارثيا ماركيز فى الصف الأول تقريباً عند قدمى سوسا بلانكو وهو يرتعد خوفاً من الموت القريب. لقد كان مكبلاً بالأغلال ، وكان على وشك الفناء بسبب الصباح والهتافات التى تصم الأذان ؛ فضلاً عن السباب وضحكات الجماهير الساخرة التواقة للقصاص ، وقد جمّد المتهم نظرته ، وركّز نظره صوب حذائه الإيطالى الصنّع حتى الصباح ، حيث سمع النطق بالحكم الذى يقضى بإعدامه.

وقد وقع بيلينيو ميندوثا و جارثيا ماركيز وصحفيون آخرون طلباً بإعادة المحاكمة بناء على طلب من عقيلة المتهم وكريماته ، ولكن دون جدوى. ولم يكن هناك أدنى شك فى مسئولية المتهم عما نُسبَ إليه من تُهم ، ولكن المحاكمة انطوت على كثير من الأخطاء الواضحة الجلية نظراً لأنّ المحكمة كانت تفتقر إلى الخبرة ؛ فضلاً عن كونها متسربة. حينئذٍ وقّع الصحفيون فى اليوم التالى الطلب الذى تقدمت به زوجة سوسا بلانكو^(١٨). كما أن كريمته التوعم الجميلتين البالغتين من العمر اثنى عشر عاماً كانتا قد طالبتا بالتضامن من أجل الإبقاء على حياة المتهم ولو كان مجرم حرب قاسى القلب ، والذى أصبح فى غيبة العدالة الثورية أصبح صيداً شهياً وكرنفالياً للموت.

ولقد تركت المحاكمة والحكم أثراً لا يُمحى لدى الصحفيين الكولومبيين ، ولم يكتب جارثيا ماركيز بصورة مباشرة عن ذلك أبداً ، مما يعكس بجلاء هذا الانطباع العميق والمؤثر^(١٩). إنّ المحاكمة والشهادات والوثائق الوفيرة التى جمعوها لإثبات التهمة على سوسا بلانكو ساعدت الكاتب على إعداد خطة أولى إجمالية لبنية وهيكلى " خريف البطيريريك " ؛ تلك القصة التى كانت فى البداية عبارة عن مناجاة بين الطاغية ونفسه ، فى الوقت الذى

يُحاكم فيه بالاستناد . وبعد ذلك بعشر سنوات تغيرت البنية تماماً وأثريت حيث دار الحديث كما في " الورقة الساقطة" على شكل مناجاة حول جثة.

وعلى الرغم من هذا الانطباع الذي لا يُمحى الذي تركته هذه التجربة المريرة والذي يُشبه ما كان يحدث في السيرك الرومانى ، فإن الصحفيين الكولومبيين عادا إلى كاراكاس بعد ذلك بأربعة أيام ومعنوياتهما مرتفعة ، وعلى استعداد تام لمواصلة إسهامهما كى تحقق الثورة الكوبية أهدافها المعلنة وغاياتها المنشودة: تحقيق العدالة والديموقراطية والسلام والمساواة والتعليم والصحة ؛ هذه الدعائم الراسخة التى ينبغى أن يكون عليها " الإنسان الجديد" فى أمريكا اللاتينية.

وبينما استمر جارثيا ماركيز يعمل فى مجلة " فنزويلا المصورة" ؛ فضلاً عن مواصلة كتاباته الأدبية ليلاً عاد بيلينيو ميندوثا إلى كولومبيا فى أواخر فبراير ، بعد أن أضنته الغربة لسنوات طويلة بعيداً عن وطنه - وذلك على الرغم من أنهم عرضوا عليه مؤخراً الإدارة الفنية لمجلة "الصفوة" - فضلاً عن تزايد ظاهرة النفور من الأجانب وكراهيتهم فى سلسلة كابريليس التى كان يعمل بها ، حتى أصبحت وباء قومياً تفشى فى فنزويلا. أما جارثيا ماركيز ، على الرغم من إدراكه للوضع الصعب الذى سيعانى منه ، استمر فى كاراكاس لكن لفترة ليست طويلة: كانت فكرته تكمن فى الذهاب إلى المكسيك حيث يوجد صديقه ألبارو موتيس سجيناً ليكرس وقته للكتابة ويتفرغ للسينما^(٢٠).

وبدون عمل ثابت فى بوجوتا أصبح بيلينيو ميندوثا صحفياً حراً يكتب مقالاته من حين لآخر فى مجلتى كروموس (ألوان) و" الشارع" إلى أن حلّ شهر أبريل ، وذات يوم ، وبواسطة جييرمو أنجولو تعرّف على مواطن مكسيكى سَكَّير بذئ القول ، وعرض عليه أن يكون مُراسلاً لها فانا فى أمريكا اللاتينية كلها ، تمهيداً لإنشاء وكالة الأنباء الخاصة بالثورة الكوبية" الصحافة اللاتينية " ، وقد أجابه بيلينيو ميندوثا بأنه على استعداد تام للعمل ، وأن له صديقاً آخر فى كاراكاس على أتم الاستعداد أيضاً لقبول وممارسة هذا العمل. وقد تعاقد الاثنان شفهيّاً ؛ بيلينيو كمدير وجارثيا ماركيز كمحرر ، ولكنهما سيتقاضيان نفس المرتب. وبعد قبولهما الميزانية الأولى التى بلغت عشرة آلاف دولار أسرع ميندوثا فى الاتصال بصديقه فى كاراكاس. وطلب منه العودة بسرعة

إلى كولومبيا ، وأنه الآن لن يستطيع أن يشرح له الأمر بالتفصيل ، وأن الأمر يتعلق بوكالة جديدة للأنباء سيرأسانها سوياً . وقد بدا ذلك أمراً هائلاً بالنسبة لجارثيا ماركيز^(٢١) . فلأول مرة على مدى أحد عشر عاماً من ممارسته للصحافة تسنح له الفرصة للقيام بعمل مستقل عن المراكز الرأسمالية الدولية للرأى ، ويتلاءم مع معتقداته الفكرية والسياسية ، وسيكون بمثابة تعويض كبير عن تضحيته بالعودة للعمل صحفياً فى مدينة بوجوتا الإنديزية الباردة .

وبراتب جيد وميزانية كبيرة أعد الاثنان مكتبهما فى شارع ٧ ما بين شارعى ١٧ و ١٨ ، وقد حبسا نفسيهما إلى جانب جهاز تلكس وجهاز استقبال راديو على مدى الأربع والعشرين ساعة وعدة آلات كتابة ، وزاولا مهمتهما التى كانت تكمن فى استقبال وإرسال الأنباء إلى هافانا . وهناك عمل آخر موازٍ كان يكمن فى الخدمات الخاصة ، والذى من خلاله كانا ينبغي عليهما إرسال تحقيقات عن التاريخ والسياسة ، والثقافة الكولومبية . وقام جارثيا ماركيز بإزاحة التراب عن عدد من تحقيقاته الصحفية منذ أن كان يعمل فى صحيفة الاسبكتادور^{٢٢} "المشاهد" ، وأرسلها إلى هافانا بصورة موجزة ، ولكن مهمته الشاقة والجديرة بالاستحقاق كانت خارج الوكالة بواسطة الصداقة والدهاء الدبلوماسى ، كان عليهما أن يقهرا عناد الصحافة الكولومبية لكى تقبل برقيات وأنباء وكالة الأنباء اللاتينية ، هذه المهمة التى كانت تزداد تعقيداً كلما تزايدت شدة الثورة الكوبية .

وفى تلك اللحظة من الحماس الثورى سرعان ما أصبحت الوكالة قبلة اليسار الكولومبى ، حيث مرَّ بها وزراء المستقبل والسُفراء ، وقادة المحاربين المناهضين لنظام الحكم خلال حقبتى الستينيات والسبعينيات عندما كانوا يشاركون نفس أحلام الثورة الكوبية . لقد عُقدت الاجتماعات ، والمؤتمرات ، والمحاضرات ، وكثرت المناقشات التى كانت تصل إلى المقهى المجاور . ولكن كان من الصعب الاقتصار على النظرية البسيطة والمناقشات البسيطة ، ولهذا فقد تم تنظيم كل هذه الاجتماعات فى نفس مكاتب الوكالة ، وخاصة لشبيبة الحركة الثورية الليبرالية (إم . آر . إل) بقيادة ألفونسو لوبيث ميتشيليسين الذى كان بمثابة الابن الضال والعاق لحكومة الأقلية الليبرالية ، ولكن كانت هناك أعمال أكثر تحديداً وملزمة فى مكاتب وكالة أنباء الصحافة اللاتينية مثل تجنيد المتطوعين للذهاب إلى جمهورية الدومينيكان للإطاحة بالطاغية تروخيو مولينا . كل هذه

النشاطات الموازية والمتكررة والمتصلة ، وكذلك فى تضامنها مع كوبا مما أدى بجارثيا ماركيز و بيلينيو ميندوثا إلى إنشاء مجلة تحمل اسماً قديماً ، ولكنها ذات إلهام جديد هو "العمل الليبرالى" حيث تقاسما إدارتها^(٢٢) .

وعلى الرغم من أن جارثيا ماركيز كان لا يزال شاباً فإنه تميز بنضج خالٍ من أدنى الثغرات فعمله متماسك مترابط يكافأ عليه جيداً ، فهو صحفي بارع وكاتب منقطع النظير. لقد كان جارثيا ماركيز رجلاً سعيداً مقارنة بالعام الماضى عندما كان مثل الكثير من المواطنين الكولومبيين فى كاراكاس مواطناً كولومبياً "سعيداً بلا هوية" . ولم يستطع الوهم المزمّن الذى سببته له مدينة بوجوتا ذات السماء الملبدة بالغيوم ، وبأمطارها الدائمة وقدرها المشنوم وعاداتها المتبسية أن يُعكر صفو وسعادة الكاتب. فلأول مرة كانت له شقة مؤثثة تائناً جيداً فى شابينيرو عند التقاء شارعى ٥٩ و كاريرا ٣ ، حيث علق بها لوحة لصديقه أليخاندرو أوبريجون وبها سمكة فضية اللون لتعادل المدينة الرمادية الحزينة التى كانت تُطل من النافذة. وكما كان فى باريس وكاراكاس ارتدى جارثيا ماركيز الجينز وسترة صوف ذات ألوان فاقعة زاهية ، وحذاء بكعب صغير وحُللاً غامقة ورباط عُقْ أنيق فى المناسبات الخاصة. وعلى الرغم من كونه نحيلاً نحيفاً للغاية وشعره المجعد ، وشاربه الأسود ، فقد كان دائماً مُحاطاً بدخان السجائر الكبيرة زهيدة الثمن التى كان يدخنها، وكان النيكوتين يتراكم بين أصابع يده اليمنى ، وكانت مرسيدس قصيرة الشعر عقب الولادة ، شعرها أسود فاحم كلون عينها ، وكانت تنقى برد بوجوتا بارتداء السراويل الطويلة والتفريحة. إنها سيدة محترمة وقورة جادة لطيفة ومهذبة وشامخة ، ولكن كان يغلب عليها طابع الشقاوة النسائية. لقد كانت مرسيدس سيدة رابطة الجاش ، عاقلة ومُطلعة على بواطن الأمور: إنها خير رفقة للكاتب.

وفى الشقة الصغيرة كان لدى الكاتب كُتُبٌ قليلة (ومعظمها كان قد تركها هنا وهناك) ، ومن أبرزها طبعات شارلز ديكنز المغلفة بالجلد وجارثيا لوركا ، وجراهام جرين ، والى جوار المكتب - حيث كان يعمل كل ليلة - توجد أكوام متراسة من مئات الأوراق الصفراء من ورق الصُحف. لقد كان دائماً مُسرفاً فى استخدام الورق ، وعندما يرتكب خطأ بسيطاً على الآلة الكاتبة ينزع الورقة ليبدأ الكتابة من جديد. هكذا كانت عادته منذ قصة " الورقة الساقطة" القصة الأولى ، والبعيدة عن الوقت الحالى ، وفى منتصف أغسطس أنقذت من طى النسيان بفضل المهرجان الأول للكتاب الكولومبى.

وكانت الفكرة هي دعم وترويج مهرجانات ومعارض الكتاب للقصاص البيروانى مانويل سكورثا ، الذى طاف بالقارة من البرازيل وبيرو إلى كوبا والمكسيك. وبمعيار جيد ودعم ممتاز اختار المهرجان عشرة كُتُب أدبية من كل دولة من بين الكُتُب القُدَامى والمعاصرين ، وطُبِعَت كُلُّ منها فى طبعة فردية بلغت عشرة آلاف نسخة. لقد قُوبِلَت الفكرة بحماس منقطع النظير فى جميع الدول ، وقد أصبح مانويل سكورثا رجلاً ثرياً حتى حظر فيدل كاسترو خروج رؤوس الأموال من البلاد ، حيث فاجأ الكاتب وهو يستثمر كل ثروته الدولارية فى أوّل مهرجان أو معرض للكتاب فى كوبا. واستناداً لما قاله الصحفى ألبرتو ثلاميا منسق دور النشر فى هذا المهرجان: " إنَّ هذه المصيبة الاقتصادية كانت سبباً فى أنَّ يصبح مانويل سكورثا قصاصاً فى وقت لاحق. وعلى أية حال فإنَّ " الورقة الساقطة " خرجت مستفيدة من فكرة الكاتب البيروانى ، حيث طبعت ثلاث مرّات بلغ إجمالى عدد نسخها ثلاثين ألف نسخة^(٣٣) . حينئذٍ اكتسب جارتيا ماركيز شهرة كبيرة على الصعيد القومى كقصاص ، وحقق شعبية مابعد كتابته لأول قصة له بتسع سنوات ، وبعد أن نشرها بأربعة أعوام. وكانت هذه المرة الأولى التى يقوم بتوقيع نسخ من قصته على الملأ ، إلى جانب صديقه وأستاذه وزميله إدواردو ثلاميا بوردا (أوليس) نائب مدير صحيفة الاسبكتادور " المشاهد " ، الذى كان قد نشر له أول حكاية وتنبأ له بأنه سيكون عبقرى المستقبل فى القصة الكولومبية.

ولكن علاوة على هذا الاعتراف المتأخر للكاتب فإنَّ أكبر شىء أسعد جارتيا ماركيز فى تلك الأيام تمثل فى ميلاد نجله الأوّل فى ٢٤ أغسطس. كان النجل قوى البنية مرّحاً ، وقد أصبح أفضل لعبة لدى والديه، لعبة كان يشاركهما فيها بيلينيو ميندوثا كأنه أحد أفراد الأسرة. كان ميندوثا دائماً بين الأصدقاء كما يحلو للكاتب ، وقد تمّ تعميد رودريجو فوراً على يد كاميلو توريس الذى - إلى جانب كونه راعياً للأرواح وعمد النجل الأكبر لجارتيا ماركيز - كان شاعراً حالمًا.

لقد كان كاميلو القس الوحيد الصديق لجارتيا ماركيز حقيقة. لقد تعارفا فى الجامعة ، وقبل دراسة القانون والسياسة كانت تجمعهما هواية الولع بالشعر مع كل من جونتالو مايارينو ، ولويس بيّار بوردا. لقد كانوا يكوّنون الرباعى الأدبى بالجامعة فى ذلك الحين ، حتى أنَّ الصحيفة الليبرالية لا راثون (العقل) خصصت لهم صفحة

أسبوعياً لكي يفصحوا فيها عن مخاوفهم واهتماماتهم الأدبية والإنسانية. ولكن كاميلو توريس انتابته نزعة التصوف والزهد في منتصف عام ١٩٤٨، حيث ترك الجامعة وهجر خطيبته والتحق بالكنيسة. وبعد أن لحقت والده القس به في محطة القطار، حيث أثنته عن عزمه لمدة أسبوع آخر. وقد ذهب جارثيا ماركيز وزملاء آخرون إلى منزل كاميلو لتوبيخه، واعترف لهم أنه لا مناص من ذلك لأن رغبته لا تشوبها شائبة، وأنها صادقة أكيدة ومتعمقة، وأنه سيذهب إلى الكنيسة بلا رجعة^(٢٤). وقد تخرج كاميلو توريس قسيساً عندما كان الكاتب يعمل في صحيفة "الاسبكتاتور" المشاهد، وبعد ذلك درس علم الاجتماع في جامعة لوفينا، والتقى مع جارثيا ماركيز في أوروبا، وكذلك لويس بيار بوردا وبيلينيو ميندوتا. وعند عودته إلى كولومبيا جمع بين ممارسة التدريس كأستاذ لعلم الاجتماع بالجامعة القومية لخدمة فقراء الأحياء المهمشة جنوب مدينة بوجوتا. وعندما التقى به الكاتب من جديد في عام ١٩٥٩ كان كاميلو توريس قسيساً متفرغاً بكافة حواسه وأحاسيسه لخدمة الفقراء والمعوزين. وكان يتردد بكثرة على منزل جارثيا ماركيز ليتناول مع الأسرة طعام الغداء، ولحضور حفلات نهاية الأسبوع. وذات يوم ظهر له لص صغير وتوسل إليه أن يخفيه في منزله. إنها قصة توضح إلى أي مدى بلغت طيبة قلب كاميلو توريس، والواقع الذي يغذي خيالات الكاتب.

وكان اللص الصغير يسطو على المنازل يسرقها، ولكن بطريقة صحيحة أشبه بلصوص ألف ليلة وليلة. وكان في كل مرة يذهب فيها إلى السجن تطارده الشرطة وتنتزع منه كل ما سرق، وحتى لو لم يسرق من جديد كانت الشرطة تودعه السجن مرة أخرى. وفي نوع من أنواع الابتزاز المستمر. ولكي يحميه كاميلو توريس أخذه إلى منزل جارثيا ماركيز حتى يجد له عملاً، وكان الرجل يتميز بالصمت، وذا طابع سوداوي مع ما يتمشى ومهنته، وكان يحكى لمضيفه على المائدة أفراح وأتراح مهنته بالمنزل. ومما هو غريب أن أسرة جارثيا ماركيز كانت تخرج وترك اللص في حراسة المنزل. وفي يوم من الأيام وجد كاميلو توريس عملاً واصطحبه لياشر عمله. وبعد ذلك ببضعة أيام فتحت خادمة جارثيا ماركيز الصحيفة ووجدت صورة في صفحة الحوادث لرجل ميت وصاحت: "ولكن هذا هو حذاء سيدى"، وكان التحقيق عن وفاته بعد أن قتله أحد رجال الشرطة. قام كاميلو توريس بأخذ الجثة ودفنها عل نفقته الخاصة^(٢٥).

واستناداً لما يقوله جارشيا ماركيز فإن هذه الواقعة بدأت تُغير الوعي الخيري للقسيس إلى وعي ثوري راديكالي ؛ هذا الوعي الذي جعله يذهب إلى الغابة حيث مات وهو يقاتل كمحارب في صفوف جيش التحرير الوطني. وبعد ذلك هاجرت والدته إيسابيل ريستريبو إلى كويا وأصبحت أم فيدل كاسترو بالتبني ؛ الذي سيُصبح صديقاً كبيراً من بين الأصدقاء الكبار للكاتب.

ومن هذه الوقائع الدورية التي تُشبه الثعابين التي تعض ذيلها لم تُنشر حياة الكاتب فقط وحياة أقاربه ، وأصدقائه ؛ بل كانت أيضاً تاريخ كولومبيا ، كما هو الحال على سبيل المثال في تحالف الجبهة الوطنية ، بالتواطؤ غير المشروع بين الليبراليين والمحافظين الذي شجعه في مايو ويونيه من نفس العام على كتابة " جنازة الأم الكبيرة" (٢٦).

وقد ظهرت الجبهة الوطنية عندما أرادت حكومة الأقليات أن تُزيح عن كاهلها الطاغية جوستابو روخاس بينيا ، الذي وصل إلى السُلطة بفضلها لتحقيق مآربها ، ولخدمة مصالحها ، ولإبعاد المحافظين مؤيدي السُلطة المطلقة للبابا لا وريانو جوميث ، ولوضع حواجز صد لإنهاء الأعمال النيابية والاجتماعية التي أغرقت البلاد في بحرٍ من الدم. وعلاوة على ذلك؛ فإن الجبهة الوطنية ظهرت كاستراتيجية لتفادي حدوث ثورة ستُطيح بحكومة الأقلية من الخريطة الوطنية ، ولكن التحالف أُعدَّ بغباء وأنانية منقطعي النظر ، وبمرور الوقت أضر بالبلاد أكثر مما أفادها. ففي المقام الأول عاق التطور الديمقراطي ، وحوّل السياسة إلى شللية تخدم مصالحها ؛ كما أدى إلى زيادة راديكالية القوى السياسية على هامش الحزبين التقليديين. وكان الزمن لم يتوقف فقط؛ بل تراجع إلى عصر الإصلاح ، عندما قام الليبراليون بزعامة رفائيل نونيث والمحافظون بقيادة ميغيل أنطونيو كارو بتأسيس جبهة مماثلة لسد الطريق أمام الليبراليين الإقطاعيين ، والمفكرين الأحرار ، أو عند السنوات الأولى من مطلع هذا القرن العشرين عقب انتهاء حرب " الألف يوم " ، عندما عاد الليبراليون الإقطاعيون والمحافظون للاتفاق من جديد لتقوية نظام حكم الأقلية ، مما جعل من الممكن التواطؤ غير الشرعي للجبهة الوطنية.

وفي الوقت الذي استعبدت فيه الديمقراطية في فنزويلا وبلدان أخرى بالقارة ، وتمّ تعزيز الثورة الكوبية ، فإن الجبهة الوطنية - في رأى جارشيا ماركيز - كانت خذلاناً كبيراً

وخيبة أمل لا مثيل لهما، ومن المحتمل أن يكون قد حدث ذلك فى الوقت الذى عكف فيه الكاتب على دراسة التاريخ السياسى والعسكرى لبلاده بمزيد من التركيز والتعمق ، لتوثيق خلفية قصته "مائة عام من العزلة" ، وقد انتهى به الأمر فى التقاط هذا المعنى الثابت الجامد لتاريخ كولومبيا^(٢٧). وفى هذا المعنى ، أو فى معانٍ أخرى ، كانت "جنازة الأم العظيمة" التى كتبها وسط الغليان وغضب الجبهة الوطنية ، الذى كان بمثابة الحلقة الحاسمة التى قادته إلى كتابة رائعة أعماله.

وقد صَهَرَ التاريخ والسياسة والأسطورة والذاكرة المحلية والأسرية ، واستعاد جارتيا ماركيز فهمه لصورة خالته فرانثيسكا ثيموديا ميخيا (العمة الأم التى ربته ، وكانت الأمرة الناهية فى منزل جدِّية كعقيدة بكل بالمعانى) ، والأم المتسلطة فى سوكرى ماريا أماليا سامبايو دى ألبارث (التى أعارت للقصة ممتلكاتها، ومنزلها المكون من طابقين ؛ فضلاً عن أخطائها فى سلسلة الأحداث التاريخية وجهلها المركب). وقد أخذ من العرف المحلى أسطورة الماركيزية الصغيرة دى لا سيربى (الأم الكبيرة الاستيطانية الأسبانية) وتاريخ الهيمنة واستغلال شركة الفواكه المتحدة (الأم الأمريكية) ؛ بينما انتشل من التاريخ الوطنى المؤامرات أو التواطؤات السياسية فى عهد الإصلاح والجبهة الوطنية.

وبالنسبة لجارتيا ماركيز، فإنَّ العزلة أو الوحدة مُصطلح مُضاد للتضامن . وفى كافة المظاهر التاريخية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية نجد أنَّ عزلة أو وحدة جارتيا ماركيز تبدو جاهزة ومهيأة فى " الورقة الساقطة " ، والآن فى " جنازة الأم الكبيرة " حاول التعمق فى مظهريهما التاريخى والاقتصادى: الآن نعرف أنَّ الوفاء الأعظم للعزلة هو - قبل كل شيء - مرض تاريخى وهيكلى يرجع إلى العهد الاستعمارى. إنَّ ثروة الأم العظيمة الأولى كانت قد بدأت بالحصول على ثلاثة أوسمة بمرسوم ملكى ، بمقتضى مشاكل وخصومات عائلية تتعلق بالزنا بالمحارم ، وزواج المصالح مما سمح للأم العظيمة الأخيرة بتكوين ثروة مادية وأخلاقية هائلة مرئية ، وغير مرئية كانت تضم خمسة مراكز أو بلديات ، حيث كانت تعيش ثلاثمائة وخمسون أسرة من المزارعين الأجراء حتى الأحزاب التقليدية ، والأخلاقيات المسيحية ، والسيادة الوطنية استناداً إلى ألوان العلم ، ونقاء اللغة ، وأثينا الأمريكية اللاتينية، والحظر الشيوعى ، وحقوق الإنسان ، وملكات الجمال ، وكل ما حدث وما سيحدث فى الدولة...

وعلاوة على ذلك فإنه فى " الورقة الساقطة " نجد هذه القصة تُروى من وجهة نظر الشائعة الشعبية ، التى بولغَ فيها وتمَّ تحريفها ، مما حوّلها فى الواقع إلى أسطورة وخرافة مبالغ فيها بإفراط فياض ، حتى أصبح لها هذا الرنين الكرنفالى. ومع ذلك ؛ فقد تكون هذه القصة هى أخطر ضحكة ساخرة يجدها إنتاج جارتيا ماركيز لأنها تتضمن فى نفسها الغضب المقنع والمتخفى ، والنظرة الانتقادية للكاتب عن تاريخ وسياسة البلاد. وبعيداً عن الحكاية فإنَّ ما نطالعه فى " جنازة الأم الكبيرة " هو أنَّ زمن قصة ماكوندو قد تجمّد بفضل جبروت السُلطة الاقتصادية والسياسية والروحية للأُم العظيمة وأقاربها ، لكى تظل فقط فى زمن متناقض دون علة أو تبرير تاريخى وصول ويجول ويقتل ويفتك ويبطش لكى يستمر الحال على ما هو عليه دائماً. ولذلك فإنَّ خلفية هذه الرواية ، وقصة "مئة عام من العزلة" ليس العُنف القريب أو الوشيك كما يحدث فى " العقيد لا يجد من يُراسله " ، و "الساعة المشنومة" ومعظم حكايات "جنازة الأم الكبيرة" ؛ بل كما جاء بصفة أصلية أساسية فى " الورقة الساقطة " الذى يتميز بالواقع الرحب الفسيح الأسطورى - الخرافى الأساسى الخاص بالسلف ، والذى يُترجم فى الحياة الواقعية على أنه أمرٌ يومى جامدٌ لا حراك فيه ، حيث يبدو دائماً كأنه يوم الاثنين أى مرور الأيام نون أن تمر حقيقة.

إنَّ الالتزام السياسى والانتماء الأيدولوجى يتم التعبير عنهما داخلياً بعد أن تحولا إلى خيال. وبهذا الشكل ، وبعد هذه الطفرة النوعية الهائلة التى تمخضت عنها " جنازة الأم العظيمة " فإنَّ جارتيا ماركيز الناضج أصبح نضجه شبه كامل ، وكان على وشك كتابة رائعة أعماله ، وهذا ما يلاحظ أيضاً فى تأملاته أثناء مقالين موجزين فى تلك الفترة " أُمّان أو ثلاثة أمور عن قصة العُنف " و " الأدب الكولومبى : خداع للأمة " ومع ذلك فإنَّ هذه لن تتأخر فقط سبعة أعوام؛ بل إنَّ الكاتب فى منتصف عام ١٩٥٩ عاد إلى القصة المؤجلة قصة المنشورات الحائطية لينهى مرحلة من إنتاجه فى كاراتاكاس ويتذكر بيلينيوم ميندوتا أنَّ الكاتب نفّض الغبار عن الخمسمائة ورقة التى لا عنوان لها حتى الآن ، وقد قام بتقليم الشخصيات والحكايات المبعثرة ، وتقادى التأثير المبدئى لويليام فوكنر ، وكما هى عادته ظلَّ يعمل طوال الليالى ، وفى عطلات نهاية الأسبوع ، وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر استطاع أن يخط هذا المجلد الضخم^(٢٨). وكان ذلك هو اللقب

المعروف لهذه القصة ، وإن كان لديه عنوانٌ مؤقت : " أيام الأسبوع الأربعة عشر " . وبعد فترة من الحجر الصحى ظلَّ يعمل حتى أواخر سبتمبر ١٩٦٠ ، عندما مرَّ بمدينة بوجوتا خورخي ريكارو ماسيتى مؤسس وكالة أنباء برنسا لاتينا (الصحافة اللاتينية) ، واتفق على أن يذهب الكاتب إلى هافانا لكي يتم إرساله من العاصمة الكوبية إلى مكانٍ آخر .

ومع ذلك فقد ظلَّت السينما إحدى أولوياته الكبيرة ، وقُبيل أن يسافر إلى هافانا كان يفكر فى إمكانية ترك وكالة الأنباء اللاتينية ليعود إلى بارأنكيا لينشئ مدرسة للسينما على غرار مركز السينما التجريبي فى روما ، لدرجة أنه أعدَّ مخططاً لما ستكون عليه هذه المدرسة ، ونشر الفكرة بين الأوساط الفكرية فى بوجوتا^(٢٩) . حدث ذلك أثناء تلك الأيام التى ذهب فيها إلى بارأنكيا مدعواً من قبل المركز الفنى بالمدينة الذى يديره صديقه ألبارو ثيبيدا ساموديو لى يناقش مع موفدين آخرين لوائح الاتحاد الكولومبى لنوادى السينما ، الذى سينشئونه مستقبلاً بالاشتراك مع إيرناندو سالثيدو سيلبا مؤسسه وممِّله . وكان باقى الموفدين من كالى وميداين وبارأنكيا .

وقد حبس الموفدون أنفسهم ليلاً ونهاراً فى المركز الفنى ، وتوصلوا إلى اتفاق مبادئ ولوائح الاتحاد الكولومبى لنوادى السينما ، وعهدوا بمهمة تحرير هذه المبادئ واللوائح إلى كلٍ من جارتيا ماركيز ، وألبرتو أجيرى موفد نادى السينما فى ميدياين . وفى الاجتماع الأخير تم اختيار بارأنكيا لى تكون مقراً لهذا الاتحاد ، واختير أيضاً ألبارو ثيبيدا ساموريو أميناً له . ولكن الأمر لم يتعد ذلك لأن ألبارو ثيبيدا ساموديو فى حفلة السكر التالية فقدَّ اللوائح واتفاق المبادئ فى سيارة أجرة .

ويذكر ألبرتو أجيرى أنه فى اليوم التالى بعد أن ملَّوا من انتظار ألبارو ثيبيدا ساموديو ، الذى كان قد دعاهم لمنزله لتناول وجبة من السمك ، قرر جارتيا ماركيز وأجيرى البقاء لتناول طعام الغداء فى فندق البرادو ، وأثناء الغداء قال له الكاتب إن مرسيدس اتصلت به من بوجوتا ، لتخبره أنها تحتاج إلى ستمائة بيزو لأنهم سيقطعون عنها الخدمات (كهرباء ، ومياه وهاتف) . وكان ألبرتو أجيرى محامياً ومولعاً بالسينما ، وصاحب مكتبة ، وناشراً ذا نية طيبة : كان قد نشر بعض الكتب ، وكان بصدد طبع الأعمال الكاملة للشاعر ليون جرييف ؛ حباً فى مهنته أكثر من كونه عملاً تجارياً . ومنذ

عامين كان قد قرأ باستمتاع حقيقى " العقيد لا يجد من يرأسه" عندما نشرتها مجلة ميتو (الأسطورة) فى بوجوتا. وبما أن النص لم تقبله دور النشر ، وبما أن مؤلفها كان محتاجاً ؛ فقد بدا الأمر مناسباً لسببين : الأول النشر ، والثانى صنع معروف فى صديق عزيز لديه، لذلك عرض على جارثيا ماركيز طبع قصته. حينئذٍ ، وبعد الغداء أخبره بذلك: جابو، أود طبع " العقيد لا يجد من يرأسه". وقد دُهِش ماركيز، وقال له: هل أنت مجنون ؟ أنت تعلم أن الكتب لا تباع فى كولومبيا! تذكر ما حدث للطبعة الأولى " الورقة الساقطة ". كما كان هناك عائق قانونى: كان جارثيا ماركيز قد وقّع عقداً مع دار نشر بيرو لطبع نفس العمل، ولكن بما أن تلك الطبعة كانت قديمة جداً ، أصر ألبرتو أجيرى على عزمه قائلاً له: " لن أطبعها فقط ؛ بل سأقدم لك شيئاً من حقوق المؤلف". وقد انتهيا من التعاقد فى نفس اللحظة مقابل ثمانمائة بيزو إجمالاً ومائتى بيزو مقدماً.

وبعد ذلك بعام - عندما أبلغه الناشر بالانتهاء من طبع الكتاب - اشتكى لألبرتو أجيرى من كونه الوحيد الذى يتعاقد شفهيّاً قريباً من رائحة المانجو ، ومضطجعاً فى كرسي هزّاز من البامبورغ الحرّ المدارى الشديد^(٣٠). وعلى الرغم من حُسن نية الناشر ، والاحتراف الممتاز للنقد بهذه القصة على الصعيدين الوطنى والدولى ، فإن تكهنات المؤلف تحققت لسوء الحظ: لم يشتر من هذه الطبعة الأولى التى بلغت نسخها ألفى نسخة إلا ثمانمائة فقط.

إن مرور خورخى ريكاردو ماسيتى ببوجوتا فى أواخر سبتمبر كان سيعوق (أو سيوجه جيداً) مرةً أخرى مصير الكاتب. لقد كان ماسيتى صديقاً ، ومواطناً لتشى جيفارا ، وقد منحه فيدل كاسترو ثقةً مطلقة منذ أن تعرّف عليه فى سيرا مايسترا (سلسلة الجبال الرئيسية)، وعلى وجه التحديد أدى تعليق تليفزيونى له بالتليفزيون الكوبى خلال الشهور الأولى للثورة إلى تأسيس وكالة الأنباء اللاتينية ، وكان ماسيتى أول مدير لها. وكان ماسيتى نشيطاً خيالياً مثل جيفارا تماماً ؛ فضلاً عن كونه شجاعاً ، وعلى خصومة مع البيروقراطية التى تميّز بها الشيوعيون الموالون للاتحاد السوفيتى. ومنذ الوهلة الأولى راوده حلم أن تكون وكالة الأنباء اللاتينية أحسن وكالة أنباء فى العالم أجمع ، محاولاً بكل السبل ألا يكل ولا يمل فى خدمة الثورة

الكوبية. وكان كثير الرحلات إلى الدول اللاتينية لكي يتعرف شخصياً على مندوبي الوكالة ، وليعطيهـم التعليمات الجديدة ، ولذلك فقد مكث يومين في بوجوتا وهو لا يزال في طريقه إلى البرازيل. ويذكر بيلينيو ميندوثا أن ماسيتي قال لهما وهما في منزل جارتيا ماركيز ذات ليلة إنه لا يستطيع أن يجمع بينهما في الوكالة نفسها ، لأنه في حاجة ماسة إلى أناس آخرين في مكان آخر، وأنه يتحتم عليهما أن يختارا من منهما سيذهب مع ماسيتي. وتقرر أن يذهب جارتيا ماركيز ، لأن بيلينيو ميندوثا كان يريد الاندراج والاندماج من جديد في حياة بلاده بعد عدة سنوات من الغياب عنها^(٣١).

وكانت الفكرة أن يبقى الكاتب بضعة أشهر في هافانا ، يتعرف على كيفية سير العمل بالوكالة قبل إرساله إلى مكان ثابت. سافر جارتيا ماركيز في أواخر سبتمبر عبر بارانكيا ، وقد توقف قليلاً في كماجوي ، حيث رأى فيدل كاسترو لأول مرة. وقد جاء القائد من داخل الجزيرة ، حيث كان يفتح بعض مزارع الدواجن، وقد وصل إلى المطار الصغير ، وقد أضناه الجوع ، وطلب أن يُعَدوا له دجاجة ، ولكن لم يكن هناك دجاج. حينئذ انبرى في خطبة طويلة عن عدم وجود دجاج في ميناء حيث ينزل المسافرون الأمريكيون. وقد حياً جارتيا ماركيز فيدل كاسترو من خلال ثيليا سانثيث ، وقال له بإيجاز إنه من وكالة الأنباء اللاتينية^(٣٢).

ونظراً لجدية جارتيا ماركيز ، وقدرته الهائلة على العمل ، وأجادته التي لا مرأ فيها ككاتب فقد استطاع أن يوثق صداقته مع خورخي ريكاردو ماسيتي، وروبولفو ولش الكاتب الأرجنتيني المسئول عن الخدمات الخاصة. وفي الواقع فإن أكثر ما أسعد جارتيا ماركيز هو إمكانية أن يكون قريباً من كاتب كان مُعجباً به منذ سنوات عمله بصحيفة "الهيرالد". وقد حدث بينهما اتصال في العام الماضي عندما توقف ولش في بارانكيا قادماً من الأرجنتين وأوروغواي والبرازيل ، وقد حضر جارتيا ماركيز من بوجوتا لمقابلاته ، لكي يتلقى تعليماته عن كيفية استخدام موضوع الخدمات الخاصة، ولكن هذا لم يكن أهم شيء ؛ بل الأهم يكمن في التعرف عليه والتحاور معه عن قصصه ورواياته البوليسية "منوعات حمراء" ، التي كانت بنيتها المتقنة تُلهب فيه الحماس منذ سنوات طويلة ، ومع ذلك تجنب ولش الحديث عن رواياته ، وأعطى تعليماته المقتضبة والوجيزة إلى تلميذه ومروّسه ؛ بينما كانا يتناولان القهوة في المطار^(٣٣).

وعلى الرغم من خذلانه ككاتب، فإن جارتيا ماركيز أدرك أن روبولفو ولش كان إلى جانب ذلك صحفياً ممتازاً ، ولم يفقد الأمل فى أن يراه مرةً أخرى . والآن وداخل الوكالة ستتحقق آماله وأحلامه ، عندما فتح الكاتب الأرجنتيني أبواب تحفظاته ، وبدأ يقبله كمؤلف للورقة الساقطة ، و" العقيد لا يجد من يُراسله" . وبين الحماس الثورى ، والولع بالعمل ، والحصبة الأدبية كانت الأيام والليالي تمر سريعة كالبرق الخاطف على الكاتب الشاب خلال الثلاثة أشهر التى قضاها فى هافانا .

وكانت المدينة قد تحولت إلى متاريس وعوائق كبيرة ، لأن الثورة المضادة كانت بمثابة السرطان اليومى ، وكان الكوبيون ينتظرون غزواً أمريكياً ما بين لحظة وأخرى، وقد وضعت أكياس الرمال أمام مداخل المباني ؛ فضلاً عن الحوائط الأسمنتية على الأرصفة ، وكانت البنادق دائماً على أهبة الاستعداد ، وكانت الرامبا - حيث يوجد مقر وكالة أنباء أمريكا اللاتينية - أشبه بخندق فى وضع استعداد للنضال دائماً أكثر منه شارعاً ، وكانت كوبا مدينة لا ترى النوم مثل باقى أنحاء كوبا - مثل جميع الصحفيين الوطنيين والأجانب، وكان العاملون فى وكالة أنباء أمريكا اللاتينية لا يرون النوم بالطبع ، وكان منهم من يخر نائماً من كثرة الإرهاق ودوام سهر البعض أمام أجهزة التلكس أو الآلات الكاتبة أو بكاميرات التصوير.

وكان أنخيل أواخر محرراً مُقرباً إلى ماسيتى ، ويوجه جارتيا ماركيز ، وكان الكاتب الكولومبى يقيم فى نفس مبنى الريتيرو ميديكو (الاستراحة الطبية) ، حيث يوجد مقر الوكالة مشاركاً الصحفى البرازيلى أرولفو فى الشقة رقم عشرين. كانت شقة صغيرة بها صالون يُستخدم كغرفة استقبال إلى جانب كونه غرفة سفرة ؛ فضلاً عن حجرتى نوم وشُرْفَة تُطل على بحر المالكون الساحر وعلى خليج الموى ؛ بينما كانت تُطل من الناحية الشرقية على هافانا القديمة ، التى يوجد بها مبنى الكابيتول الفخم كأنها تورتة عيد ميلاد.

وخلال فوضى تلك الأيام كان جارتيا ماركيز ورفاقه يأكلون فى أى ساعة فى مطعم لا ثيبليس فى الطابق الأرضى بالمبنى ، أو فى مطعم الماراكاس على مقربة من مبنى الاستراحة الطبية. إن هذه الأماكن - إلى جانب الطابق الخامس حيث مقر وكالة

أنباء أمريكا اللاتينية - هي التي عرفها الكاتب على مدى ثلاثة أشهر ! فقد كان الوقت ينقضى في العمل بجِدٍ واجتهاد ، بينما كان بمزاحه الكاريبي يقول لماسيتي : " إذا كان هناك شيء سيغرق هذه الثورة سيكون استهلاك الكهرباء"^(٢٤). كان الصحفيون بإمكانهم النوم في الخامسة فجرًا والاستيقاظ في الخامسة مساءً ، وكان العمل هو أهم شيء طالما أن الجسم يتحمل.

وكان جارثيا ماركيز صحفيًا لا يكل ولا يمل ؛ كان صحفيًا متنقلًا يدون كل شيء عن سير العمل المعقد بالوكالة كي يستطيع القيام بعمله على خير وجه عندما يؤسس مكتباً أو مندوبية للوكالة في المكان الذي سِيرسلونه إليه ، ولكن ماسيتي كان يُريد الإبقاء على جارثيا ماركيز في النشرات الإخبارية ، بينما كان ولش يرغب في اختياره مساعداً للخدمات الخاصة. وقد أصبح الثلاثة أصدقاء حميمين، وعندما فك ولش شفرة الرسائل التي كانت تبعث بها وكالة الاستخبارات الأمريكية (لا ثيا) عن الاستعدادات لغزو خليج الخنازير ؛ استدعى ماسيتي جارثيا ماركيز لكي يشاركهما هذه السعادة العظمى الغامرة كصحفي. لقد كانت نشوة كبيرة ، ويتذكر جارثيا ماركيز تلك اللحظة كواحدة من أسعد لحظات حياته.

وقد تم الاكتشاف بمحض الصدفة ، في الوقت الذي كان ماسيتي في غرفته يُتابع مختلف وكالات الأنباء لتقييم عمله، ولتحسين وكالة أنباء أمريكا اللاتينية ، وفجأة ظهرت فقرة غامضة في وكالة أنباء تروسيكا كابلي التابعة لشركة التليفونات الأمريكية في جواتيمالا، وقد أدرك ماسيتي ، على عكس ما كان يتصوره بعض المحررين ، حيث اعتقد أن هذه الفقرة تحتوي على أمرٍ منطقي خفي ، وحينئذٍ أرسلها إلى رودولفو ولش الذي استعان بكتاب عن الشفرة استطاع أن يفك مفاتيح هذه الشفرة كاملة بعد ليالٍ كثيرة من السهر المستمر: كانت الفقرة تتعلق بالفعل بتقرير لوكالة الاستخبارات الأمريكية مُرسل من جواتيمالا إلى واشنطن يتناول الاستعدادات للإنزال المسلح في (شاطئ خيرون) في شهر أبريل من العام التالي. لقد كان حماس ماسيتي كبيراً ، ولم يسترح حتى للطريقة التي يرسل بها ولش إلى مُعسكرات تدريب المناهضين للثورة مبتكراً في زى قسيس بروتستانتي بائع للأناجيل في المنازل، ولكن الخطة لم تتبلور أي لم تخرج لحيز التنفيذ ، لأن الحكومة الكوبية أبلغتهم بأن لديها خطتها الخاصة^(٢٥).

ومن المفهوم أنه خلال أيام الطوارئ يُهمل الأدب ، تكون أهميته فى المرتبة الثانية أو الثالثة من حيث الأولوية. ويذكر أنخيل أوخيرا أنه سمع جارتيا ماركيز يتحدث فى تلك الأيام عن استيائه من الأدب كوسيلة تعبير عن الإنسان فى عصره. وكانت اهتماماته الأولى فى ذلك الوقت بالسينما ، ومع ذلك فإن جارتيا ماركيز لم يستطع التخلص من الحصة الأدبية بسهولة، ولذلك كانت أهم تسلياته فى تلك الأيام الصاخبة هى التحدث عن الأدب ، وعلى وجه الخصوص عن التركيبات الروائية مع رودولفو ولش وزوجته بوبى بلانشارد فى محادثات شبه سرية. لذلك لم يتذكر أحد تقريباً فى وكالة أنباء أمريكا اللاتينية أن جارتيا ماركيز تحدث عن الأدب خلال الأشهر الثلاثة التى قضاه بالوكالة. ومع ذلك لم يتحدث فقط عن الأدب ؛ بل أيضاً ظل كما هو دائماً يتتبعه نقطة نقطة خلال ساعات الراحة القليلة فى شقته رقم ٢٠٢ فى مبنى الاستراحة الطبية. وعلاوة على ذلك زار بطريقة شبه سرية أيضاً المؤلف الشهير فيليكس ب. كايخينير ، وكان فى تلك الأيام هو مؤلف المسلسلات الإذاعية مثل "حق الميلاد" التى كان الكاتب الكولومبى يستمع إليها فى طفولته ومراهقته.

وكان كايجنيت أحد أساتذته السريين ، وقد نصحه بأن تكون رواياته ليست فقط مقروءة ؛ بل أيضاً قابلة للسمع ؛ كما فى القصص الشفهية، ولذلك فإن جارتيا ماركيز بكل إعجابه بأستاذ القصص الإذاعية حضر إلى منزل كايجنيت ومعه المجلد الضخم "المنزل" الذى لم يكن قد بلغ هذا الانسجام إلى تلك اللحظة، وإن كان قد انفصلت عنه كلياً أو جزئياً قصص "الورقة الساقطة" ، و "العقيد لا يجد من يرأسه" ، و "الساعة المشنومة" ، ومعظم حكايات "جنازة الأم الكبيرة". لقد استمع إليه كايجنيت، وقرأ له وأعجب به ، ولكنه أسدى إليه نصيحتين اعتبرهما جارتيا ماركيز أهم سريين كبيرين فى فن السرد ، وقال له: لكى تستأثر باهتمام القارئ لابد أن يحدث شئ فى كل فقرة (ذبابة تطير فى الهواء ، كوبٌ يتهشم) ، لأن ما يهم الناس هو أن تحكى لهم حكايات ، وليس أن تقدم لهم أوصاف مسهبّة مستفيضة وتفصيلات مُملة. والنصيحة الثانية التى أسداها وأهداها له هى: "إن عملية التقديم والتأخير لا تتفق دائماً مع متعة السرد الروائى مما يجعل المؤلف والقارئ يجدان فى كل فقرة جُملاً غير مُريحة وعائقة ، وهى التى نتجاهلها أو نتخطاها. وعندما يحدث ذلك فليس هناك بُد من وضع الجُمْل وفقاً

لترتيب النحوى الصارم والدقيق للغة الأسبانية، وأن المفاعيل الظرفية (ظروف الزمان والمكان) ينبغي وضعها تدريجياً من الأصغر إلى الأكبر وفقاً لعدد كلماتها. وعلى سبيل المثال؛ لا ينبغي أن تكتب " فى منزل ماريا أمس " ، بل " أمس فى منزل ماريا " ، واختتم كايجنيت كلامه قائلاً له: " إن هذا الذى يبدو كأنه أمر تافه هو فى الحقيقة ليس كذلك ؛ حيث يتم تجنب قيام القارئ بإجهاد نفسه لكى يتجاهل أو يتفادى هذه الجمل غير المريحة التى تتناقض مع الإيقاع الطبيعى للتنفس ، ويجعله يقبل الفقرة بكاملها بصورة انسيابية وطبيعية" (٣٦) .

وبلا شك فإن جارتيا ماركيز كان يلتزم بذلك فى أحسن صفحاته، ومع ذلك كانت نصائح فيلكس ب. كايجنيت ستبدو ثمارها جلية اعتباراً من "مائة عام من العزلة".

وقد كان الشيء الوحيد الذى استاء منه جارتيا ماركيز أثناء تلك الشهور المحمومة فى هافانا هو كيف أن أنصار الشيوعيين الموالين لأنيبال إيسكالانتى استولوا تدريجياً على الثورة ، على الرغم من الدور الضئيل الذى قاموا به ، ولكن لن يكون هناك مناص من ذلك لأنه كان اغتصاباً مُعلنًا منذ اللحظة التى دُفعت فيها كوبا بسبب العدوان الأمريكى إلى أن ترتدى فى أحضان الأم ؛ يعنى الاتحاد السوفيتى.

وكان جارتيا ماركيز يعرفهم جيداً وهو فى بلاده. كانوا ثوريين فى الصالونات ، وشيوعيين برباط العنق ، وكانوا خطباء موسكو يبشرون وينشرون الماركسية المخرّبة ، ويحاولون أن يدرجوا من خلالها - كما فى سرير بروكوستو - الواقع الوطنى دون أن يكثرثوا عما إذا كان ذلك سيكفى أم لا ، أو عما إذا كان ذلك قانونياً أم مجرد أمر عقائدى من الموالين والمناصرين. وقد أطلق عليهم اليسار الخيالى فى كولومبيا على سبيل التحقير لقب " الجبناء " ، ربما لعجزهم عن التفكير فى الواقع الفعلى كماركسيين حقيقيين ، أو ربما لعدم قدرتهم على القيام بأى ملحمة أو عمل بطولى ثورى. وكان جارتيا ماركيز قد اقترب من صفوفهم على استحياء ، حتى تجرأوا فى الإعزاز له بكيفية الكتابة ، ومضى يكف عنها ، حتى تعرّف فى صيف ١٩٥٧ - على الطبيعة - على الاشتراكية الحقيقية فى بلدان أوروبا الشرقية.

وعلى عكس كثير من معاصريه وزملائه لم يقل ، ولم يفعل شيئاً ضد الشيوعيين ، ولكن ارتباطه بهم لم يتعد تعاطفه وتأييده لهم أثناء شبابه. وإذا كان الآن يؤيد بلا

تحفظات الثورة الكوبية ؛ فقد كان ذلك لأنه يعمل منذ عامين كاملين فى وكالة أنباء أمريكا اللاتينية ، لأنه كان يعتقد أن زعماء مثل فيدل كاسترو وتشى جيفارا وجدوا درياً - مختلفاً عما تسلكه موسكو - لكل من كوبا وأمريكا اللاتينية.

ومع ذلك ظهر هؤلاء الجبناء مرةً أخرى يقولون المناصب دون هوادة ، وفى صمت فى مختلف طبقات المجتمع فى السياسة ، والثقافة بسماع من حركة ٢٦ يولييه ، لأنه إذا لم يكن هناك حزب على الطراز السوفيتى لن تكون هناك مساعدات سوفيتية. وهذا أمر واضح غاية الوضوح ؛ ولذلك فإن وكالة أنباء أمريكا اللاتينية كانت هدفاً أساسياً وأولياً للطبقة الموالية والمناصرة لأنيبال إيسكالانتى ، وبدأوا حصارهم التدريجى والمنظم لتحقيق هذا الهدف. وبالنسبة لجارثيا ماركيز وبيلىنيو ميندوتا ؛ فقد كان ذلك متوقعاً منذ أن أبلغهم ماسيتى بأن الحزب يراقبهم ويتتبع خطواتهم من خلال جاسوس فى مكتب بوجوتا ؛ فقد كان أنصار أنيبال إيسكالانتى يعلمون تمام العلم أن ماسيتى وولش وجارثيا ماركيز وبيلىنيو ميندوتا - مهما كانوا يساريين - لن يكونوا أبداً ضمن مذهبهم البيروقراطى ، لأن روحهم تمنعهم من ذلك وحتى أجسادهم. وذات ليلة احتلوا وكالة أنباء أمريكا اللاتينية بحجة عقد اجتماع سياسى ، ولكن ماسيتى الذى ما لبث أن أغلق المكاتب مع جارثيا ماركيز قال لهم إنه لا يريد أى اجتماع دون حضور باقى الزملاء ، وأمرهم بالذهاب ليناموا. وبعد ذلك ، واستناداً لما يقوله بيلىنيو ميندوتا ، فإنهم فصلوا الكثيرين من الوكالة ، وقاموا بإرسال آخرين كمراسلين إلى بلدان أوروبا الشرقية^(٢٧). ولكن الهوة بين هؤلاء الجبناء والثوريين الذين يمثلون الأغلبية العظمى كانت تتزايد اتساعاً بشكل لا رجعة فيه. وبما أن رياح التاريخ كانت فى صالحهم (فإن مناهضة الثورة ظلت حيوية ونشطة أكثر من أى وقت مضى فى الوقت الذى يعد العم سام العدة للغزو) كانت أسماعهم ، وعيونهم منتشرة فى كل مكان ، وقد غرسوا ثقافة الشكل كنول شكل للسلوك الاجتماعى. كل شىء : سواء كان كلمة أو نكتة ، أو مزاحاً صغيراً أم كبيراً ، أو رباط عنق أمريكى ، أو أحذية إيطالية كانت سبباً فى الشك والارتياح لهؤلاء الجبناء. وقد بدأت وكالة أنباء أمريكا اللاتينية تمتلئ بالصمت والنظرات ذات المغزى ، مما جعل المزاح ، والطبيعة الانفتاحية للكوبيين ينحسر إلى أقصى درجة. إن اطلاعهم على كل شىء حيث كانوا يسمعون ، ويرون ، ويحتاطون لكل

شيء . ولهذا فإنَّ جارثيا ماركيز نفسه ذُهِلَ عندما علم أنهم كانوا قد عرفوا في نفس الوقت أنَّ مصيره الجديد كمراسل هو مونتريال.

ويعد أنَّ تدربَّ جارثيا ماركيز خلال ثلاثة أشهر على كل الأعمال الدقيقة بالوكالة ، أوعز له ماسيتي بأنَّ يذهب إلى كندا لكي يفتتح مكتباً لوكالة أنباء أمريكا اللاتينية هناك. وكان جارثيا ماركيز شأنه شأن ماسيتي يعلم أنهما لن يستمرا في منصبيهما كثيراً ، ومع ذلك فقد عاد إلى بوجوتا في أواخر ديسمبر لكي يصبح مرسيدس ورودريجو في السفر إلى نيويورك في أوائل ١٩٦١ ، ثم إلى مونتريال بعد ذلك. وقبيل أن يترك هافانا بقليل سافر إلى المكسيك لمدة ثلاثة أيام لكي يرى صديقه القديم ألبارو موتيس ، الذي ما لبث أن خرج من سجن ليكومبري ، والذي لم يره منذ خمسة أعوام ونصف العام. وفي منزله بشارع أدولفو برييتو في حي الوادي تحدثا سوياً عن الأمور الحياتية كما كانا يفعلان دائماً ، وقد فكر جارثيا ماركيز في الاستقرار ذات يوم في المكسيك: وسيتحقق له ذلك بسرعة أكثر مما كان يعتقد.

إنَّ الإقامة في نيويورك كانت مرحلة ترانزيت بسيطة حتى يمنحوه التأشيرة ، وأسرته لمواصلة السفر إلى مونتريال. وظلَّ هناك في مكتب الوكالة بلا عمل أو مساعدين^(٢٨). وفي ١٣ مارس ١٩٦١ سُنحت له الفرصة - كمراسل للوكالة للاستماع في البيت الأبيض إلى خطاب الرئيس جون كيندي الذي أعلن فيه عن مشروعه العملاق ، للتحالف مع التقدم وهو مشروع طارئ لسد جميع المنافذ أمام الرياح الجديدة للثورة الكوبية^(٢٩). ولكن الستة أشهر التي قضاها في الولايات المتحدة الأمريكية كانت في نيويورك حيث عاش أكثر أوقات حياته صعوبة وتوتراً. وفي الوقت الذي تزايدت فيه راديكالية الثورة الكوبية ، وكشفت فيه اللثام عن وجهها الفكري الحقيقي تزايدت الحملة المناهضة لكاسترو شدة واستعاراً من جانب الصحافة والحكومة الأمريكية ، التي كانت هيستيرية حيث ألهمت حماس وتلاحم وتماسك الجالية الكوبية بالمنفى ، مما جعلها تهدد يومياً مراسلي وكالة أنباء أمريكا اللاتينية. وكان على جارثيا ماركيز العمل هو ورفاقه وهم عزَّل من السلاح في حماية أسياخ الحديد التي كانت بحوزتهم. وقد اشتملت التهديدات الهاتفية كل صنُوف البذاءات والفُحش من القول ، وكانت هذه التهديدات كثيرة ومستعصية ، وقد اعتاد جارثيا ماركيز أن يرد عليها هو ورفاقه بشكلٍ روتيني وبفتور: قُلْ ذلك لوالدتك

ياديوث . وكانوا يستمرون فى عملهم وكأن شيئاً لم يحدث، ولكن ذات يوم ذهب التهديدات إلى أبعد من هذا حيث ذكروه بأن له زوجة ونجلأ ، وأنهم يعرفون جيداً أين يعيشان ، وأن أفضل شيء هو أن يرحلوا عن الولايات المتحدة^(٤٠).

ومع ذلك ظل جارثيا ماركيز يعمل نهاراً فى هذا المكتب الكئيب بالمبنى القديم لمركز روكفلر ، بينما كان يُنقح ويصحح أصول قصة "الساعة المشنومة" فى غرفته بأحد فنادق مانهاتن بالقرب من الشارع الخامس. إن استقالة جارثيا ماركيز لم تحدث بسبب تهديدات المناهضين لكاسترو ، كما سيدعى البعض فى سنوات لاحقة ؛ بل بسبب التهديدات الداخلية لأنصار أنيبال إيسكالانتى ، الذى استحوذ على المناصب الرئيسية والقيادية فى الحكومة الكويتية ، مما جعل من المستحيل معه تحمل هذه التهديدات والضغط الداخلية ، الأمر الذى اضطر ماسيتى إلى الاستقالة .

وبعد ذلك بقليل فى ١٨ أبريل تم غزو خليج الخنازير (عقب يومين من المبايعة الاشتراكية للثورة) ، واضطر فيدل كاسترو إلى التنديد على الملأ بالشللية ، وغطرسة وهيمنة الشيوعيين القدامى ، وطلب من ماسيتى الاستمرار مزيداً من الوقت فى منصبه ، وطالبه بالمشاركة فى المقابلات العامة فى التليفزيون مع أسرى شاطئ خيرون؛ وبالتالى فإن جارثيا ماركيز لم يقدم استقالته ليس فقط تضامناً مع صديقه ورئيسه ماسيتى ؛ بل لأنه مل العمل فى ظل هذه الدسائس والمؤامرات الخبيثة والدنيئة ، ولكن عندما تم الغزو لم يقدم استقالته حتى لا يبدو أنه ترك السفينة عندما أشرفت على الغرق، وقرر البقاء حتى تمر الأزمة^(٤١). ولذلك فعندما وصل بيلينيو ميندوتا إلى نيويورك فى أواخر مايو قادماً من هافانا ، وأخبره بأنه قدّم استقالته للمدير الجديد فرناندو ريبويلتاس رد عليه جارثيا ماركيز بأن استقالته أيضاً جاهزة ، وكان ينتظر مجيئه لى يقدمها. وبمرور الوقت أصبحت رسالة الاستقالة الخطية فى يد كونشيتا دومويس أرملة ماسيتى التى أعادتها للكاتب فى ١٩٨٨ بمناسبة عيد ميلاده الستين (فى الواقع الحادى والستين). إنها الوثيقة الوحيدة التى تم انقاذها على مدى عامين من العمل فى وكالة أنباء الصحافة اللاتينية ، لأن الجبناء قاموا بعملية تنظيف وتطهير شاملة لعصر ماسيتى حتى أنهم حرقوا كل أعماله وأعمال روبرتو ولش أيضاً. ومع الأخذ فى الاعتبار بأنه عمل لمدة عامين من العمل الشاق والمكثف ؛ فقد كان المكلف بإرسال التحقيقات

والتقارير من كولومبيا للخدمات الخاصة (المخابرات) ، وهذا يجعلنا نفترض أن جانباً مهماً قد اختفى من الإنتاج الصحفى لجارثيا ماركيز. لقد كان إنتاجاً غزيراً وخصباً ، وعلى درجة هائلة من الجودة ، لدرجة أن الكاتب أراد أن ينقذه وينتشله بعد سنوات طويلة عندما أصبح أكثر مجداً وشهرة ككاتب عالمي ، ولكن شخصاً ما قدم تفسيراً لا مبرر له: إن أرشيفات عصر ماسيتي وروبولفو ولس فُقدت عند انتقال مقر الوكالة إلى مكان آخر^(٤٢).

وعندما أراد الانتقال إلى المكسيك ، ولديه ابن وزوجة طلب من الوكالة اللاتينية أن تدفع له تعويضاً عند تركه العمل ، وتقدم له تذاكر السفر له ولأسرته ، ولكن المسؤولين الجدد أخبروه بأنه ذهب بمحض إرادته ، وليس لأنهم فصلوه أو طردوه من العمل ، وأن التذاكر للمكسيك ليست ممكنة لأنه لم يتم التعاقد معه هناك ، وبالنسبة لتذاكر كولومبيا : فهذا أمر وارد ، وربما شئ من المعاش قد يعطونه إياه ، ولكنه ينبغي أن يطالب بذلك فى مكتب بوجوتا الذى كان بلا مدير فى ذلك الحين. وعندما أدرك الكاتب أنهم يماطلونه لانهم لم يجسروا على أن يقولوا له: لا. لذلك أخذ مرسيدس ورودريجو ، ومائتى دولار فى جيبه، وركبوا حافلة جريهوند متجهين إلى نيو أورليانز حيث أعد له بيلينيو ميندوتا مائة وخمسين دولاراً آخرين فى بوجوتا^(٤٣).

لقد كان طريقاً جهنمياً مُحاطاً باليأس والإحباط فى طرق هامشية حزينة وغير مُعبدة جيداً ، لدرجة أن المسافة كانت أو كادت لا تنتهى أبداً. وفى أطلانطا ، وألاباما عاشوا التفرقة العنصرية فى أقصى صورها اللإنسانية ، فهناك آلات المياه العامة للبيض فقط ، وهناك آلات أو مضخات مياه خاصة ومحددة للزنج. ولقد أضاعوا ليلة كاملة فى مونتجومرى بحثاً عن مكان ينامون فيه ، فلم يستطع أحد أن يؤجر لهم غرفة ظناً منهم أنهم مكسيكيون ، وفى بعض القرى الجنوبية وجدوا لافتات مكتوب عليها : ممنوع دخول الكلاب والمكسيكيين، وعندما وصلوا إلى نيو أورليانز كانوا منهكى القوى بسبب الوجبات الصناعية من الهامبورجر والسُجق ، واللبن المختلط بالجة ، ويعد أن أخذوا المائة والخمسين دولاراً من القنصلية الكولومبية بالمدينة ، التى كان قد أرسلها لهم بيلينيو ميندوتا دخلوا مطعماً فرنسياً كبيراً بيوكس كاريه لكى يسدوا رمقهم الذى عانوا منه أثناء السفر^(٤٤).

وعندما وصلوا إلى لا ريدو المتربة ؛ المكان الذى يتم فيه تصوير الأفلام المكسيكية ، كانوا قد أمضوا أسبوعين فى السفر بالحافلة بالمقاطعة الواقعية ، والخيالية التى تُعرف باسم يوكناباتاوييها ، التى كان يعرفها الكاتب عن ظهر قلب ، كما يعرف راحة يده فى قصص ويليام فوكنر، ولذلك فإن هذه الرحلة ليهودى ضال لم تخدمه للوصول إلى المكسيك أرض الميعاد ؛ بل لكى يكتشف إلى أى مدى توجد واقعية مؤثرة تضمنتها قصص أستاذه ، ولكى يصف بعد ذلك بخمس سنوات فى "مائة عام من العزلة" السفر بالقطار دون عودة لصديقه ألبارو ثييدا ساموديو. وعلاوة على ذلك ؛ فليس من الغريب أنه للوصول إلى رائعة إنتاجه تحتم على جارثيا ماركيز السفر مرتين عبر أراضي مقاطعة يوكناباتاوييها: السفر الواقعي والسفر الأدبي.

وكما يتذكر ذلك بعد بضع سنوات أنهم وصلوا يوم ٢ يوليه عام ١٩٦١ (نفس اليوم الذى انتحر فيه صديقه وأستاذه الآخر إيرنست هيمنجواي) ، وفى محطة مركزية شديدة الحرارة فى ذلك المساء بمدينة المكسيك مثل الحر الشديد فى كاراكاس عند سفح جبل أبيلا والذى رافقت صورته الكاتب فى رحلته إلى المكسيك كبرهان لا مرأى فيه على الحنين. ومع ذلك فإن العاصمة المكسيكية كانت تذكره بمدينتى نابولى وباريس إلى حد ما. وقد كان فى انتظار المواطن البوجوتى بمحطة القطار بمدينة المكسيك الشاعر والقصاص ألبارو موتيس؛ فالصداقة التى جمعت بينهما صداقة لم تشبها شائبة ، ولم يبق لدى ماركيز فى جيبه سوى عشرين دولاراً أمريكياً. وقد بدأ جارثيا ماركيز حياة جديدة ، وإن كانت فى واقع الأمر هى نفس الحياة دائماً .

الفصل الثالث عشر

- ألبارو موتيس وولادة اللبوة .
- المكسيك أرض الميعاد .
- بحثاً عن رائحة الجواقة .
- الأسيرة والأحداث : صحافة متعلقة بالمعدة .
- الإقامة في كوماالا .
- " بحر الزمن المفقود " .
- جائزة إسو و " الساعة المشنومة " .
- السينما والدعاية .
- سيناريوهات واختبارات دومينيكانية مع كارلوس فوينتيس .
- "مائة عام من العزلة" .
- لقاء مع لويس هارس .
- زيارة كارمن بالثليس .
- إهداء إلى ماريا لويسا إليو .
- كهف المافيا .
- بذل الجُهد الجهيد حتى آخر نفس .
- لياالى سان أنخيل إن .
- باكو بوروا أو " القارئ المجهول " .
- هذا الغلاف لبشيتتى ريوخو .

- بونوس أيرس كانت فى عيد.
- زجاجة للزمن.
- مع ماريو بارجاس يوسا فى كاراكاس وليما وبوجوتا.
- عن السفر والجنور.

عندما وصلت أسرة جارثيا ماركيز إلى المكسيك كان ألبارو موتيس يعيش فيها منذ خمس سنوات ، ومنذ عام ونصف العام كان قد خرج من زنانات لوثبيل سجن ليكومبرى ، حيث قضى به خمسة عشر شهراً تركت فيه أثراً واضحاً لا يمكن وصفه ، مقارنة بتلك السنوات التى عاشها فى أمبيريس وكويو ، والتى بلورها الشاعر فى نشر انسيابى فى صحيفة ليكومبرى.

ومرّة أخرى أصبح ألبارو موتيس الصديق المنقذ لجارثيا ماركيز ؛ فبدون مساندته وتوجيهه وأصدقائه الإسبان والمكسيكيين لما تمكن ماركيز من الصمود طويلاً أمام الجفاء المبدئى للمدينة الاستيكية (نسبة إلى حضارة مكسيكية قديمة) . ولم ينكر جارثيا ماركيز ذلك ، ولهذا فقد اتصل بألبارو موتيس من نيويورك لكى يبلغه بقرار الاستقرار فى المكسيك. وجدير بالذكر أن موتيس كان دائماً تواقاً لرؤية أصدقائه الكولومبيين ، وقال لماركيز إنه ينتظره على أحرّ من الجمر سعيداً فرحاً ، وأنهم سيكافحون سوياً ، وسيكونون يداً واحدة للمضى قدماً .

وهكذا أصبحوا مرّة أخرى ، كما فى يناير ١٩٥٤ ، عندما كان الشاعر فى منصبه مديراً للعلاقات العامة فى شركة إسو النفطية ببوجوتا ، حينما أنقذ صديقه من بوهيمية بارأنكيا ، وبعث له بتذكرتى طائرة ، وجعله يُقيم معه فى منزله ، حتى تعاقد معه مالكو صحيفة الاسبكتادور "المشاهد" كمحرر ؛ والآن ومن واقع منصبه الجديد كمندوب مبيعات لمنتجات بارياتشانو بونثى تفانى فى سخائه ودبلوماسيته لكى يوظف صديقه وزميله ؛ ليس فى ظروفٍ شبيهة ؛ بل فى مدينة كانت من جميع النواحي تبدو مشابهة تماماً لنفس مدينة ببوجوتا .

ولم يكن شىء من هذا متوقعاً فى أفق حياتهم ، صباح ٢١ أكتوبر ١٩٥٦ . ففى الوقت الذى كان فيه جارثيا ماركيز يصحح قصته "العقيد لا يجد من يرأسله" فى غرفة صغيرة سقفها مائل فى باريس ، كان ألبارو موتيس يغادر كولومبيا بشكل متسرع بلا متاع تقريباً ، كما نصحه بذلك أستاذه الشاعر الأسبانى أنطونيو ماتشادو. ولم يكن

الدافع وراء هذا السفر المبالغت والمتسرع سوى الصداقة التي كانت لا تقل أبداً عن ولعه بالأدب والبللياردو لدى ألبارو موتيس ذلك المواطن البوجوتي.

وكرئيس للعلاقات العامة بشركة إسو النفطية ب كولومبيا استطاع أن يُخصّص طيلة ثلاث سنوات ميزانية لأشياء متنوعة: من بينها أندية ومراكز خيرية ، وكل صنوف المساعدات الخاصة. وسرعان ما بدأ الشاعر يستثمر جانباً من هذه الميزانية فى أشياء تنبع من ضمير روحه ؛ فضلاً عن رعايته للأمور الأدبية، وكذلك لنجدة ومساعدة أصدقائه الذين عانوا من طُغيان روخاس بينيا ؛ هذا إلى جانب رعاية المعارض الفنية لبعض الرسّامين الفقراء ، وكذلك طبع أول كتاب لشاعر معوز ، أو لإعطاء تذكرة طائرة لصديق محتاج ، أو للاحتفال بالذكرى المائتين ليلاد الكاتب بريات سفارين والذي أحضر من باريس الخُبز والزُبْد خصباً لهذا الاحتفال. وعندما دعاه رئيسه للانضباط قدّم له موتيس تبريرات غريبة ، مما أدى إلى تقديمه بضعة مرات للقضاء. وبفضل مشاركة أصدقائه وشقيقه ليوبولدو استطاع الشاعر تفادى عقوبة السجن عندما سافر إلى المكسيك عبر ميدياين وبِنما.

وقد بدأ حياة جديدة فى العاصمة المكسيكية قوامها سبعمائة دولار أمريكى ، وخطاباً توصية أحدهما موجهاً للويس بونيويل. لقد سحرته المدينة بثقافتها النابضة ، ولكونها تمثل الطليعية فى أمريكا اللاتينية. وكانت المكسيك لا يتعدى سكانها الأربعة ملايين نسمة ، ولذلك كانت مدينة هادئة قليلة التلوث ، وكانت تتمتع بخلفية بركانية كانت تشق سماعها المقعرة ، وهى التى كان يقرأ فى لياليها المليئة بالنجوم موكتيزوما والعودة المربعة كيتثالكواتيل كورتيس. إن شوارع المكسيك فسيحة رحبة مثل منتزه الريفورما (الإصلاح) بزهورها وورودها السخية التى كانت أشبه بمدينة باريس مدارية ، بينما كانت هندستها المعمارية تعود للعصر الاستيطانى الإشبانى ، وكانت شوارعها المرصوفة بالبلاط فى وسط العاصمة تُذكرنا بمدينة نابولى الإيطالية ، ويمراكزها الثقافية ، ومسارحها ، وبُور السينما ، وأنديتها ، ومطاعمها التى كان يتردد عليها الوافدون من مختلف أنحاء العالم. ولذلك فإن المدينة فُتِحَتْ كالفردوس أمام الشاعر الهارب ، ولذلك لم يفكر ألبارو موتيس فى الأمر مرتين (أى لم يتردد لوهلة واحدة). وقد عجز عن المجئ إلى منزل لويس بونيويل السينمائى الأسطورى صديق جارثيا

لوركا ، وسلفادور دالى ، واستغل خطاب التوصية الثانى أفضل استغلال ، وبينما كان يحل ضيقاً فى منزل الرسّام فرناندو بوتيرى وزوجته جلوريا ثيا بدأ العمل كمدير تنفيذى للدعاية والإعلان مع أوجوستو إلياس ، حيث انتقل بعد عام إلى شركة الإنتاج السينمائى لمانويل بارباتشانو بونثى.

وعندما قرّر أن يُقدّم خطاب التوصية للويس بونيويل كانت تجمع بينهما صداقة ما ؛ فضلاً عن أنه كانت له مجموعة من أفضل الأصدقاء فى كل العاصمة المكسيكية: أوكتافيو باث الذى علق على ديوانه الشعرى " عناصر الكارثة " وكارلوس فوينتيس ، وخوان رولفو ، وخوان خوسيه أريولا ، وخايمي جارثيا تيريس ، وفرناندو بينيتيس ، وبينثينتى ريوخو ، ورامون إكسيراو ، وخومى جارثيا أسكوت ، وماريا لويسا إليو ، وإيلينا بونياتويسكا ، وخوسيه دى لا كولينا: خيرة رجال الفن والفكر المكسيكى آنذاك. وبفضل مشاركة هؤلاء الأصدقاء لم يستطع فقط العمل لكونه بلا وثائق ؛ بل بدأ التعاون مع مجلّات مثل مجلة جامعة المكسيك، ومجلة الأدب المكسيكية تحت إشراف خايمي جارثيا تيريس وكارلوس فوينتيس على الترتيب. وبينما كان يتناول المشروبات الكحولية ، ظلّ يتحدث مع لويس بونيويل عن السينما والسيدات والقصص. وبهذه الطريقة حبس نفسه أسبوعين لكى يثبت للسينمائى الأسطورى أنه من الممكن كتابة قصة قوطية فى مناخ مدارى فى الأرض الحارة ، وكتب النسخة الأولى من بيت أراوكايماء. ولم يكن بونيويل على اتفاق معه فقط ؛ بل تحمس أيضاً لقصته حتى بلغ به الأمر أن وعده بتقديمها ذات يوم للسينما^(١).

ولكن وسط هذا الكرنفال من الصداقة والأدب ، وبعد حمّاء شمس فى أكابولكو من الثانى والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٨٥٩ ظهر الدلال الأسود فى ليكومبرى ، واعتقل ألبارو موتيس ، وأودع السجن كمرحلة تمهيدية لتسليمه لكولومبيا. ولحسن الحظ - أولسوته - فقد استطاع أصدقاؤه وقف ذلك فى بوجوتا خمسة عشر شهراً طويلاً ، وهى نفس المدة التى قضّاها فى ليكومبرى حيث عاش جهنم السجن الوحشى. وبفضل تحمسه الشديد للحياة والصداقة والأدب لم يستطع فقط البقاء بعد ولادة اللبؤة (كما كان يطلق السجناء على السجن الجديد الذى يحلّ بالسجن) ؛ بل استطاع التهام كل الكتب التى أحضرها له الأصدقاء الكولومبيون ، والمكسيكيون ، ويكتب أيضاً

نصوصاً وضأة ؛ كما فى صحيففة لىكومبرى وموت الاستراتيجى. وكان خلال هذه الفترة الثأرىة (قُبىل بضعة أشهر من الإفراج عنه فى ٢١ ديسمبر ١٩٥٩) ، عندما كتب لجارثىا ماركىز فى بوجوتا لى يرسل له شىئاً من كتاباته لىقرأه. وقد أرسل له ماركىز نسخة من قصته " جنازة الأم الكبىرة" التى ما لبث أن انتهى منها فى منتصف ذلك العام ، ثم أرسلها فىما بعد إلى الصحفية إىلىنا بوىناتوىسكا ؛ حىث زارها برفقة أوجوستو مونتيروسو لى تقدمها لدار نشر جامعة بىرا كروث فى خالابا ، ولكن الصحفية فقدت هذه الأصول. ومع ذلك فقد حدثت المأساة بعد ثلاثة أسابىع من استقرار جارثىا ماركىز فى مدىنة المكسىك ذهب مع ألباروموتىس إلى بىراكروث بحجة تسليم القصص المفقودة للناسر عندما قرر جارثىا ماركىز الاستقرار فى المكسىك.

إن هذه الأيام الأولى التى زاد من خطورتها إصابة مرسىدس بالدوسنتارىا كانت أياماً عصيبة بالنسبة لجارثىا ماركىز ، ولكنها كانت أقل مأساوية بفضل التضامن الأخوى لألبارو موتىس الذى استأجر له شقة مؤقتاً فى بونامباك بشارع مىرىدا بالقرب منه ، ثم استأجر لهم شقة ثابتة فى شارع رىنان ٢١ فى حى أنتورىس. وهناك بمرتبتىن على الأرض له ولمرسىدس ، ومهد لرودرىجو فى الغرفة الأخرى بدأ قصاص ماكوندو بغزو أرض الميعاد مثل موسى، وكان عىه أن ينحت فى الصخر لى يحصل على الماء والقوت اللازمىن له ولأسرته.

وعلى الرغم من أن معظم المفكرىن المكسىكىن كانوا يعرفون قصصه ورواياته التى نُشرت حى ذلك الوقت ، بفضل حماس ألبارو موتىس وتضامن ثلاثة أصدقاء آخرين فى المدىنة: المثأل رودرىجو أرىناس بىتانكور ، وصاحب المكتبة والسىنمائى لوىس بىثىنس ، والكاتب خوان جارثىا بونثى ، فإن جارثىا ماركىز لم يستطع الحصول على أى عملٍ خلال الشهرىن الأولىن ، وكان معظم الوقت يهدره الكاتب وزوجته مرسىدس فى الوقوف بطابور أفنىة سكرتارىة المحافظة لاستكمال أوراق إقامتهما. وإزاء هذه الديون المتراكمة خلال ذلك الوقت فقد استطاع العىش بفضل الراتب الضئىل الذى لا يُسمن ولا يُغنى من جوع مقابل تعاونه من حىنٍ لآخر مع مجلة "جامعة المكسىك" ، وكذلك مقابل تعليقاته فى إذاعة الجامعة التى كان يقرأها على الهواء ، وكان يشرف على هذه الإذاعة الكاتب الأسبانى ماكس أوب^(٢).

وأول ما كتبه فى الأراضى المكسيكية كان مقاله الرّثان والمؤثر تكريماً لأستاذه هيمينجواى. كان مقالاً طويلاً يُبرز مدى إعجابه بالكاتب الأمريكى ، وكيف كان يعرفه كُنه المعرفة ، وكيف تعلّم منه الكثير والكثير. وفى المقال المعنون " مات رجلٌ ميتةً طبيعية" الذى نشره فرناندو بينيتيث فى ملحق "المكسيك فى الثقافة " تحت عنوان " المستجدات " ، ترك جارثيا ماركيز هذه النبوءة الصائبة عن أستاذه: إنّ الرّمن سيثبت أيضاً أنّ هيمينجواى ككاتب صغير سيلتهم كتاباً كباراً لمعرفته عن عمق بالدوافع الإنسانية وأسرار مهنته" واختتم قائلاً : إنّ أهمية هيمينجواى تكمن فى الحكمة الخفية فى إنتاجه الموضوعى ذى التركيبية أو البنية المباشرة والبسيطة وأحياناً المقتضبة حتى فى مأساويته^(٣).

وفى الأيام التى تلت تتويجه فى استكهولم اعترف جارثيا ماركيز بأنّه فى اليوم التالى لوصوله فعلاً إلى المكسيك اتصل به خوان جارثيا بونثى لكى يقول له: إنّ كربون مقال هيمينجواى قد مرّفته رصاصاً فى اليوم السابق الساعة السابعة وثلثين دقيقة صباحاً فى قرية كيتشوم فى إيداهو. وظلت هذه الواقعة فى ذاكرته " كبداية لعصر جديد"^(٤). وبالنسبة لألبارو موتيس كان الأمر على العكس من ذلك فإنّ اللحظة التى قابل فيها جارثيا ماركيز فى المكسيك كانت فى الواقع بعد بضعة أسابيع ، عندما قاما سوياً بالسفر إلى بيراكروث.

وعلى الرغم من جاذبية مدينة المكسيك وحجمها الإنسانى فى ذلك الوقت وحيويتها الثقافية والحب ومساعدة أصدقائه ما لبث جارثيا ماركيز أن دخل فى نوع من الذهول والشروء الضار. وقد أدرك موتيس بسرعة أنّ هذا أحد أعراض مرض المكسيك . إنها صدمة مواجهة مدينة وثقافة معقدتين، وقد بدا انغلاقها نسخة طبق الأصل من انغلاق نبات الصبّار ، وأهرامات الهضبة ؛ فقد جاء جارثيا ماركيز من الكاريبى ، ومن ثقافة غير انغلاقية مفتوحة مثل البحر نفسه ، الذى فتح له مساحته الرحبة الحيوية الأفاق حتى كوبا ، وفنزويلا خلال السنوات الثلاث الأخيرة. ولكنه الآن أدرك أنّه بعيداً عن مجموعة الأصدقاء الإسبان والمكسيكيين الذين ينحدرون من أصول إسبانية - نعى أصدقاء موتيس - لم تكن هناك إمكانية للتوغل أو لاختراق المتاهة المكسيكية، وهذا اليقين جعله يطفو على حافة الغربة أو العزلة ؛ فضلاً عن الدليل المحزن على أنّه ليس من

السهل على الإطلاق دخول مجال عالم السينما المغلق في المكسيك ، وكان ذلك أحد الدوافع التي جعلته يقرر الإقامة في المكسيك. وفكر موتيس بأنه لتفادي مرض المكسيك لا يوجد سوى علاج واحد ونهائي : مرافقته إلى الكاريبي إلى بيراكروث لكي يتنفس رائحة الجوافة.

ويحجة تسليم سيرخيو جاليندو في خالابا أصول قصته " جنازة الأم الكبيرة " ذهب جارتيا ماركيز ، وألبارو موتيس صباح يوم سبت في السيارة الفورد الحمراء - سيارة موتيس - وكان معهما فرانثيسكو ثيرباننس ، وهو شاعر شاب يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً ، الذي تلقى في هذه الرحلة تعميده البحري ، حيث طلب منه جارتيا ماركيز صائحاً أن يفسحوا الطريق فمعهم عذراء البحر، وبالفعل كما توقع موتيس حدثت المعجزة في بيراكروث أمام البحر الذي سحر القصاص في طفولته ، وبعد أن جرب طعماً حريفاً على مائدة مع المحافظ خرج عن صمته وشروده ، وقال: " إذا كانت بيراكروث موجودة فانه يمكننا الحديث عن الكاريبي ؛ لذلك سأظل في المكسيك. لا توجد أدنى مشكلة ، وظل هناك . وهنا غرس أشجاره ومد جذوره ، وربى أولاده ، وكتب أكثر أعماله الخالدة من رواياته ، ليقفز القفزة النهائية إلى عالم الشهرة والمجد العالميين.

ولكن الوثبة العظيمة التي ستنقذه إلى الأبد من زمن البقرات العجاف كانت عملية بطيئة ، وشاقة مليئة بالمرارة ، وبالترك ، والهجر لأعماله الأدبية. ولكي يبدأ ويأقل مجهود بأدنى رغبة اضطر للعودة إلى الصحافة الطائشة ، التي لا تكفى لسد الرمق إزاء استحالة أن يشق طريقه صوب السينما. وكان جوستابو ألا تريستي تاجر أثاث ناجح ، وما لبث أن اشترى مجلتي الغيبة والنميمة وهي مجلة (أسرية) ، وأخرى للحوادث الدامية في شهر سبتمبر وهما : " الأسرة " و " حوادث للجميع " ، وكان يبحث عن يديرهما. فقال له ألبارو موتيس لا تهتم ، فلديه الشخص الكفء للقيام بذلك. وعندما قرأ ألا تريستي بعض الأعمال للمدير المرشح مثل " حكاية غريق " بدت له ممتازة ، وشك في أن يكون جارتيا ماركيز هو الشخص المرشح لإدارة المجلتين، ولكن ألبارو موتيس هدأ من روعه قائلاً: لا ترفضه إنه أديب، فهو أديب بالفعل، وهو أيضاً صحفي ، إنه فنان ذو نظرة عملية. وتم التعاقد حينئذ مع جارتيا ماركيز لكي يدير في أن واحد مجلتى

" الأسرة " و " حوادث للجميع " ، ولكنه وضع شرطين: أولهما ألا يظهر اسمه فى المجلتين بين مجموعة الصحفيين ، وثانيهما: ألا يضطر للتوقيع باسمه الشخصى فيهما. وبالفعل لم يدرج اسمه فى أى شىء يتعلق بهاتين المجلتين، وقد أدارهما لمدة عامين دون أن يكون له آلة كاتبة فى مكتبه. لقد كان المدير الأقل بيروقراطية يتحاور مع المحررين مباشرة ، وكذلك مع المصححين والطبّاعين والمصورين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المقالات الافتتاحية فى المجلتين تعكس بجلاء مدى الملل والسأم الذى استحوز على القصاص من جرّاء ممارسته لهذا العمل الذى لم يكن كافياً لمطالب أسرته الغذائية.

وفى المبنى نفسه أيضاً توجد "مجلة سنوب" ، التى كان يمتلكها جوستابو ألا تريستى ذاته ، ويديرها سلفادور إلثوندو ، وإيميليو جارثيا ريبيرا. كانت مجلة ممتازة تتعلق بالإفراط ، والتكلف فى اللبس والرّى ، وكانت تتناول الموضوعات التافهة بمزيد من الأهمية ، والموضوعات المهمة بمزيد من الطيش ، ولكنها لم تكن تحقق مبيعات مرضية ، وكانت تعيش على هامش نجاح شقيقتها " الأسرة " و " حوادث للجميع " ، مما جعل جارثيا ماركيز يشكو قائلاً : حضراتكم المتميزون المرفهون تعيشون على حسابى، وأنا الذى أعمل هنا لكى أتحمّل رفاهية حضراتكم. وكان ذلك صحيحاً ؛ ففى أشهر استطاع زيادة عدد نسخ مجلتيه " الأسرة " و " حوادث للجميع ". وينظرته وذكائه الصحفى استطاع إخراج المجلتين من التكلف والبذاءة ، وجولّهما إلى مجلتين مسليتين تثيران الاهتمام إلى حد كبير. وبصفة عامة فقد حسن توزيع أبوابهما وشكلهما ومضمونهما: ومن بينها النصائح الأصلية لربّات البيوت ، وحصص إعداد الوجبات والأطعمة والتطريز ، والقليل والقال الاجتماعى ، والجرائم ، والأخبار الحسية ؛ كما أدرج قصصاً وسيراً ذاتية على فصول أو أجزاء من أعمال أجاثا كريستى ، وتحقيقات عن ثقافات شعوب أخرى ، ومقالات عن بوذا ، والسيد المسيح ، وخوليو بيرنى ، وألبرت أينشتين. بينما تضمنت " الأسرة " - علاوة على ذلك - باباً للشعر نُشرت به مختارات من شعر (لوركا ، وماتشادو وموسيت) ، وكانت مجلة حوادث تبدأ بعبارة شهيرة لأحد الشخصيات التاريخية ثم جانباً من سيرته الذاتية^(٥).

ولكن على الرغم من إدراج الشعر والأشياء النادرة الغريبة فى هاتين المجلتين ، فإن جارثيا ماركيز ظلّ غريباً فى مجلات جوستابو ألا تريستى. وفى الوقت الذى كان

يبحث فيه عن مفتاح سمسم لكى يشق طريقه فى السينما المكسيكية ؛ فقد لاذ سعيداً فى الأراضى الغربية بمقاطعة كوماالا. وذات يوم - وهو لا يزال يعيش فى شارع رينان - جاء ألبارو موتيس لزيارته كالعادة ، وسأله جارثيا ماركيز من هم الكتّاب الذين ينبغى عليه أن يقرأ لهم ، وما هى الأعمال التى ينبغى عليه أن يقرأها فى المكسيك. فقال له موتيس : " لا تقرأ شيئاً حتى يعود " ، وبعد قليل رجع موتيس بطرد من الكتب ، وبعد أن نحى الكتّابين النحيفين جانباً ، قال له : " اقرأ هذه المجموعة عن الحياة اليومية ، ولا تزعج نفسك لكى تتعلم كيف تُكتب هذه الأعمال"^(٦). كانت " بيدرو بارامو " و " السهل يحترق " لخوان رولفو. ولم ينم تلك الليلة حتى قرأ بيدرو بارامو مرتين ، ثم تسرع فى اليوم التالى لقراءة " السهل يحترق ". لقد فُتِنَ جارثيا ماركيز بخوان رولفو ، وقد حفظ أعماله عن ظهر قلب ، وقرأها على كل من أراد سماعها. وخلال ما تبقى من ذلك العام اعترف - فى وقت لاحق - أنه لم يستطع قراءة شيء آخر لأن الباقي بدا له متدنياً. إن سحر القراءة فى أعلى درجاته من الفتنة عاد ليتكرر من جديد لدى الكاتب منذ ذلك اليوم عندما كان لا يزال فى التاسعة من عمره ؛ حيث قرأ فيه " ألف ليلة وليلة " فى أراكاتاكا، وفى العشرين قرأ قصة " المسخ " لفرانز كافكا فى بوجوتا ، وفى الثانية والعشرين قرأ سوفكليس فى قرطاجنة ، وكذلك أصبح خوان رولفو أحد أساتذته الأساسيين إلى جانب شهرزاد ، وسوفكليس ، وميلفيل ، وفوكنر ، وفيرجينيا وولف وكاربنيتير.

وبعد ذلك بعشرين عاماً ، وفى مقال لتكريم خوان رولفو تذكّر جارثيا ماركيز أنه منذ أن جاء إلى المكسيك " مرّت ستة أشهر دون أن يكلمه أحد عن مؤلف بيدرو بارامو"^(٧). ويرى ألبارو موتيس أن هذه الفترة لم تكن سوى بضعة أيام أو ربما عدة أسابيع. والدقة أو التحديد لا أهمية لهما إذا لم يكن ذلك خلال شهرى يولية وأغسطس عام ١٩٦١ ، وهى الفترة التى لم يجد فيها جارثيا ماركيز أى عمل ، وقد كتب فى ذلك الوقت " بحر الزمن المفقود " ، وهو أوّل نص يعتمد فيه إلى التأثير التحويلي لخوان رولفو ، وكان هذا العمل " بحر الزمن المفقود " هو آخر ما كتبه قبل الشروع فى اجتياز طريق الصحراء الذى سيؤدى إلى كتابة "مائة عام من العزلة" بعد ذلك بأربع سنوات.

وكان أحد الدوافع التى جعلته يسافر إلى المكسيك هو إعداد شيء للسينما. أمّا الدافعان الآخران فكانا البحث عن دار نشر ذات توزيع على مستوى القارة ،

والاستمرار فى الكتابة. لقد ملّ كونه كاتباً للأقليات ، وفكر فى أن يكون كاتباً ذا شعبية عريضة وقُراء كثيرين ؛ فقرر كتابة قصص وحكايات للأطفال ، وقد بدأ ذلك بقصته " بحر الزمن المفقود " ، وعندما انتهى منها أخضعها لرأى صديقه بيلينيو ميندوثا. وقد ردّ عليه بصراحة قائلاً : إنَّ القصة لم تُعجبه لأنه يكره الخيال. وكان جارثيا ماركيز قد تفادى دائماً جانب الفانتازيا ، وقبل أيضاً رأى صديقه كشىء لا رجعة فيه ، وهجر مشروع كتاب حكايات للأطفال^(٨).

ومن المحتمل ألا يتمكن الكاتب عبر هذا الدرب من إسعاد قُرَّائه من الأطفال ليس لأن صديقه بيلينيو ميندوثا قال له إنه ملئ بالفانتازيا ؛ بل على العكس من ذلك تماماً : ففي الواقع إنَّ هذه القصة كانت أكثر القصص واقعية لدى جارثيا ماركيز ، بهذه الواقعية الرمزية والخيالية الهائلة التى تتميز بها أيضاً أعمال فرانز كافكا.

وعلى عكس ما أكده ماريو بارجاس يوسا بشأن " بحر الزمن المفقود " فإن جارثيا ماركيز لا يختتم مرحلة من حياته ككاتب^(٩). بل على العكس من ذلك يستمر فى هذه الفترة أو يبذلها ، ولذلك فإنَّ هذه القصة ليست همزة أو حلقة الوصل بين "الساعة المشنومة" و "مائة عام من العزلة" ، بل إنها مقدمة لهذه. وعلاوة على ذلك إنها نفس القصة فى حالتها الجنينية، و " قبيلة الثلاثاء ".

وحدث فى قصصه " الورقة الساقطة " و " يوم بعد السبت " و " جنازة الأم الكبيرة " ، وهى حلقة الوصل الفعلية بين "الساعة المشنومة" و "مائة عام من العزلة" ؛ كما أنها مقدمة " لخريف البطريق " ، حدث أنه حتى الآن لم يتم بلورة سلوك ونفسية وفلسفة ماكوندو تماماً. وبالطبع هناك مخططات موجزة وتقدم هائل ، فقد تكاملت العناصر المناخية ، والجغرافية ، والمعمارية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والثقافية الأساسية لتكوين وتشكيل مستقبل ماكوندو ، ولكنها بما أنها ليست حتى الآن مرتبطة بما فيه الكفاية بديناميكية داخلية فى إطار بنية كاملة لذلك لم يتبلور سلوك ماكوندى أصيل (نسبة إلى ماكوندو) ، وهذا المسلك سيبدأ فى التبلور مع قصة " بحر الزمن المفقود " ، وإن كانت لا تدور أحداثها فى ماكوندو ؛ بل فى قرية ساحلية حيث توجد أراضٍ قليلة ، ولذلك يُلقى بالموتى فى البحر. ومع ذلك ، فى هذه الرواية إلى جانب "مناجاة إيسابيل ترى

المطر فى ماكوندو" يظهر بشكل متطور نمط ماكوندو متبلور، ولهذا فعلى سبيل المثال نجد الآن قسيساً لاوياً ورجلاً يرافق زوجته لكى ترى الثلج^(١٠) ، وشخصاً مجهول الهوية ، كما أنها قرية حقيقية أو مجرد سراب أو أضغاث أحلام (مثل التى يحلم بها خوسيه أركاديو بوينديا قبل تأسيس ماكوندو) حدث هائل يفوق الوصف ، يغير ملامح القرية لكى يتركها مثل أو أسوأ مما كانت عليه ، وهناك قرية وهمية غارقة فى البحر بها رجال ونساء يمتطون صهوة الحصان: إنها مقاطعة كوما لا المائنة.

ولذلك فإن " بحر الزمن المفقود " تمثل تحت تأثير رولفو (تأثيراً فى المفهوم والنغمة) ؛ إنه الإنجاز الأول أو الثانى فى بلورة واقع ماكوندو ذى الاكتفاء الذاتى والسؤال الذى يطرح نفسه مرة أخرى لماذا تأخر جارثيا ماركيز أربع سنوات لكى يجلس لكتابة "مئة عام من العزلة " ، والإجابة واحدة من إجابتين، إنه لم يكن فقط فى شروده وذووله السينمائيين ؛ بل كان أيضاً غارقاً فى الظروف الاقتصادية الصعبة خلال العامين الأولين فى المكسيك. كان ذلك فى أغسطس أو سبتمبر ١٩٦١ ، عندما قرر إرسال "الساعة المشنومة" إلى مسابقة القصة التى كانت ترعاها الشركة النفطية إسو فى بوجوتا .

إن هذه القصة مثلها مثل " الورقة الساقطة " مرت بطريق شائك طويل خلال السنوات الأخيرة؛ فقد بدأت فى صيف باريس عام ١٩٥٦ ، واستمرت فى شتاء العام التالى ، وقد سافرت ما بين باريس وكاراكاس وبوجوتا فى حقبة سفره مربوطة برباط عنق أزرق اللون ، وبه خطوط صفراء حتى أخذها الكاتب فى عامى ١٩٥٩ ، ١٩٦٠ بهذه المدينة بعد الانتهاء من قصته " جنازة الأم الكبيرة " ، وظل ينقحها فى نيويورك ، وفى المكسيك أيضاً ؛ فى الوقت الذى كان يقرأ فيه ويعيد قراءة رولفو ، وكتب " بحر الزمن المفقود " ، ثم أجرى بها آخر التنقيحات والتصحيحات. وإلى جانب " العقيد لا يجد من يرأسه " ، وعلق جارثيا ماركيز كل آماله على "الساعة المشنومة" ، وكان هدفه أن يسلمها لدار نشر لها توزيع على مستوى القارة ، وطبعها إذا أمكن بعدة لغات فى آن واحد ، وكان هذا ضمن الأسباب التى جعلته يأتى المكسيك ليقيم فيها^(١١) ، ولكن جييرمو أنجولو ، وألبارو موتيس اقترحا عليه الاشتراك بها فى مسابقة شركة إسو الكولومبية ، وتكفل موتيس بنفسه بعملية إرسالها بالبريد. وعندما استلم مسئولو إسو المجلد بدون عنوان ، حيث استبعد جارثيا ماركيز العنوان السابق " أيام الأسبوع الأربعة عشر "

والعنوان الوحيد الذى عَنْ له " هذه القرية المنفرة " كان فضيحة بكل المقاييس ، ولقد ذهل الجميع ، واعتقدوا أنَّ هذه التسمية من اقتراح ألبارو موتيس ؛ فقد جاء من المكسيك، والمشكلة التى طرأت لهم لم تكن سهلة ، لأنَّ القصة إذا فازت بالمسابقة فكيف يعطون الجائزة لكاتب اضطهدهه بقسوة ؟ ، وقد وصل لهم الحل من أكاديمية اللغة فى كولومبيا عندما علمت المسئولة عن منح الجائزة بأن الفائز ليس موتيس ؛ بل صديقه جارثيا ماركيز. ولقد تمَّ تسليم الجائزة أمام السادة الأكاديميين المثقفين مثل خيرمان بارجاس ، الذى أرسل لصديقه قيمة الجائزة ، وهى ثلاثة آلاف دولار ، أمَّا دبلوم الجائزة فقد تركه له فى حانة لا كويبا المقر المفضل لجماعة بارأنكيا المازحة.

ولم ترض جائزة القصة التى قدمتها شركة إسو تطلعات المؤلف فقط ؛ بل عاقت مشروع نشرها ، ثم قامت مطبعة لويس بيريث فى مدريد بطبع "الساعة المشنومة" فى ديسمبر من العام التالى (وقد خرج العنوان من جملة بالقصة " لا يوجد لصوص فى هذا البلد" ، وقد تم تنقيحها على غرار أسلوب مدريد ، وحُذِفَتْ منها الكلمات والمصطلحات المحلية والإقليمية والتعبيرات العامية والفجة تحت مبرر تنقية اللغة من الشوائب. ولم يوافق جارثيا ماركيز على ذلك فى رسالة له عبر صحيفة الاسبكتادور " المشاهد" فى بوجوتا ، واعتبر أنَّ أوَّل طبعة لقصته تلك هى التى ستصدرها دار نشر إيرا (العهد) فى المكسيك فى أبريل ١٩٦٦ ، لأنه كان قد قام بإعادة كافة الأخطاء اللغوية ، والفظاعات الأسلوبية بدافع من إرادته المطلقة والمتعسفة^(١٢).

وعلى الرغم من اعتراضات الأب فيلكس ريستريبو رئيس أكاديمية اللغة فى كولومبيا (الذى عذبه كلمتان : العازل الطبى ، والاستمناء بالكف) ، فإنَّ قصته "الساعة المشنومة" تُعد واحدة من أفضل ما كتب جارثيا ماركيز من القصص حيث تحقق له فيها الدقة والإيجاز ، والنقاء الأسلوبى كما فى قصته " العقيد لا يجد من يُراسله". لم تكن تستطيع الساعة المشنومة بمفردها الدخول فى سباق بسبب تدنى موضوعها الجزأ ، وبالفعل فإنَّ موضوعها يقتصر على سرد أحداث العنف السياسى والرُعب الاجتماعى والنفسى ، والمواقف المتنوعة التى تورطت فيها شخصيات نموذجية من " القرية " ، ذلك المنزل المجهول على ضفاف نهر ؛ ونموذجه هو قرية سوكرى. إنها القصة الأكثر سينمائية التى كتبها جارثيا ماركيز مع أنها تترك إحساساً بأنها رواية

ناقصة أو غير كاملة. ولذلك فإن هذه القصة إلى جانب " عيون كلب أزرق " لا تحظيان بتقدير مؤلفهما . لقد بلغ الأمر أنْ شعر بالاحتقار والازدراء تجاههما ، واعتبرهما أكثر عقلانية ومحدودية، ولكنه سيخطئ عندما يدرجها (أى الساعة المشنومة) فى نفس التصنيف مع " العقيد لا يجد من يرأسه " ، التى سيقول عنها إنها إلى جوار كثير من حكايات "جنازة الأم الكبيرة" تمثل نوعاً أو نمطاً من الأدب القائم على القصصية والتفكير والتروى ، الذى يعكس نظرة ثابتة وجامدة ومحددة للواقع ، وسواء كانت هذه الأعمال جيدة أو رديئة فهى كُتبت تنتهى مع الصفحة الأخيرة^(١٣). أمّا فى حال العقيد العجوز ، فإنها على العكس من ذلك تماماً ، لأن بعض الأعمال القليلة من نسج الخيال تبدأ فى التواجد لكى تصبح حقيقة فى الصفحة الأخيرة ، وعلى وجه التحديد فى الكلمة الأخيرة من الصفحة الأخيرة.

إن سبق الإصرار مع النظرة الاستاتيكية والمقيدة للواقع لهذا النقد الذاتى لجارثيا ماركيز فى هذه الأعمال ترجع فى المقام الأول إلى عزمه فى منتصف الخمسينيات ، وبناء على تشجيع وحض أصدقائه اليساريين أراد الاقتراب من الواقع الاجتماعى والسياسى الذى كانت تعاني منه البلاد والمعروف باسم العنف ، والذى دليلها الأدبى غير الصحيح هو انتشار ما يُسمى بـ " قصص العنف " ، ولكنها جاءت أيضاً بسبب التأثير القوى والمهيمن للسينما الواقعية الجديدة فى إيطاليا ولمؤلفين مثل هيمنجواى وكامى ، وكذلك من جرّاء الحاجة التى أحسّ بها جارثيا ماركيز نفسه لارتياح واكتشاف الطريق الروائى الذى بدأه فى ١٩٥٠ بقصص وحكايات " السيدة التى كانت تصل الساعة السادسة " و " ليالى الكروانات ". مهما كان أسفه لهذا الخيار الروائى الثانى لم يكن خياراً ضرورياً وشبه حتمى فى تطور إنتاجه الأدبى ؛ بل كان مثمراً للغاية لأن جمال وكمال " العقيد لا يجد من يرأسه " يبرران ذلك تماماً ، ولكن هناك أمراً إضافياً ، إذ لو لم يتوغل جارثيا ماركيز فى هذا الطريق الواقعى لمعالجة أو لتناول الواقع واللغة بشكل مباشر لما تمكن من أنْ تتبلور لديه نظرية صحيحة لكى يأخذ فى اعتباره وينتبه للرب الملائم للوصول إلى قصته الشمولية " الورقة الساقطة " ، وقد أدرك ذلك فى منتصف عام ١٩٥٩ عندما كتب روايته " جنازة الأم الكبيرة " ، حيث سار فى اتجاه معاكس لكى يجد من جديد طريق ماركوندو: الأكثر رحابة واتساعاً ، الطريق الاكيد والصائب صوب الجذور.

وعلى الرغم من أن روايته "الساعة المشنومة" أعيدت كتابتها خلال العامين الأخيرين فإنها تنتمي إلى مرحلة انتهت فعلاً بين كاراكاس وبوجوتا ، كأنها فترة أو مرحلة ماضية انتهى منها الكاتب دون حماس كبير .

وعلى أية حال فإن هذه القصة أسهمت بمنجزات ملحوظة للغاية بالنسبة للإنتاج العام لجارثيا ماركيز ، ليس فقط " لجمال أسلوبها الرائع وبهاء نثرها " ، بل لأنها كانت أول محاولة للمؤلف للتطرق إلى السر الخفى ، وعزلة السلطة ولو كان ذلك على مستوى متواضع تمثل فى عمدة قرية . إن خبراته ومعاشاته وملاحظاته للدكتاتورية عند روخاس بينيا ، وبيريث خيمينيث ، وكذلك قراءاته البطيئة المتأنية " لأوديب ملكاً " والراحلون فى مارس " بدأت تؤتى ثمارها الأولى .

وعلى الرغم من ذلك فإن أحد مصادر السعادة الكبيرة الذى ينبغى أن تقدمها لمؤلفها القصة الأسطورية " قصة المنشورات الحائطية " كانت الجائزة التى قدمتها شركة إسو الكولومبية قيمتها ثلاثة آلاف دولار ، والتى بها عرف الكاتب الرخاء لأول مرة فى حياته ككاتب ، ولذلك قام بثلاثة أمور أساسية وضرورية : شراء قمصان وبيجامات لألبارو موتيس ، الذى لم يتأقلم فى المكسيك على الرغم من الأعوام الستة التى قضاها فى بلاد الأستيك . ثانياً : شراء سيارة أوبيل لمواجهة الحالة الإنسانية المتزايدة لمدينة المكسيك . ثالثاً : سداد مصاريف ولادة نجله الثانى جونثالو للمستشفى حيث وُلِدَ فى ١٦ أبريل ١٩٦٢ ورزقه تحت قدميه .

وبميلاد جونثالو عندما بلغ رودريجو الثالثة من عمره اكتملت الأسرة ، وغمرت السعادة عائلة جارثيا ماركيز مما جعلها تنتقل إلى منزل فسيح ومريح فى ٨٨ شارع اكستالتيوال بحى فلوريدا ، وتركت الشقة الصغيرة فى ٢١ شارع رينان ، ولكن كانت سنة ١٩٦٢ سنة التوأم الأربعة ، حيث تلقت أسرة جارثيا ماركيز الطبقات الأولى لثلاثة من أنجاله الأدبيين : " العقيد لا يجد من يرأسله " ، وإن كانت قد طُبِعَت فى سبتمبر من العام الماضى فإنها لم تصل إليهم حتى مارس من عام ١٩٦٢ ، و " جنازة الأم الكبيرة " التى رأت النور فى نفس الشهر الذى وُلِدَ فيه جونثالو ، مما أسهم بألف بيزو مكسيكى لمنزل الأسرة ، و " الساعة المشنومة " التى لم تكن ترغب فيها مطبعة لويس

بيريث فى مدريد: وباستثناء الأربعة آلاف نسخة من هذه القصة لم يتجاوز عدد نسخ القصتين الآخرين الألفى نسخة ، وستأخر أعواماً لكى تنضج فى السوق^(١٤).

وربما كان قد تعب من كونه كاتباً للأقلية ، أو ربما لقسوة الأعباء الأسرية ؛ لذلك بات مؤكداً أن جارثيا ماركيز فى تلك الفترة بدأ يجتهد أكثر لكى تترجم كتبه وتوزع بشكل أفضل ، وتصل إلى النقاد والصحف البارزة فى أمريكا اللاتينية. وبدأ يتحدث عن مشروعات كبيرة فى رسائله لبيلينيو مينوثا وأصدقائه فى بارانكيا ، وعن التراجم والتعاقدات الممكنة مع الناشرين ومخرجى السينما. وعندما أبلغه ناشره ألبرتو أجيرى من مدينة ميدياين فى أغسطس ١٩٦١ أن طبعة " العقيد لا يجد من يرأسه " على وشك الصدور ؛ كان جارثيا ماركيز قلقاً لأنها ستتزامن مع صدور " جنازة الأم الكبيرة " ، وطلب منه أن يتفق معه لحشد الآليات الصحفية علّه يحصل على شئ أكثر من المائتى بيزو من الفئة الورقية المزيفة التى كان قد أخذها منه فى بارانكيا^(١٥). وعندما تسلم النسخ الست الأولى فى مارس ١٩٦٢ بواسطة لويس بيثيس كتب يشتكى لأجيرى أنه بهذه النسخ القليلة لن يستطيع أن يفعل شيئاً ، وأنه ينتظر الحصول على خمسين نسخة على الأقل لكى يبدأ توزيعها على الصحافة ، وعندما علم بأن مجلة مارتشا (المسيرة) فى مونتفيديو كانت قد قدمت تعليقاً على الكتاب مليئاً بالثناء والإطراء اعتقد أنه يحتمل أن يكون توزيع الكتاب جيداً فى الجنوب ، ولكن الحقيقة كانت عكس ذلك: إن ناشر الكتاب فى بوينوس آيرس توريس أجويرو ببساطة كان قد أرسل نسخاً من تلقاء نفسه إلى بعض النقاد فى الأرجنتين وشيلي وأرجواى.

ولذلك ؛ فقد تمّ ترويج الكتاب من جانب المؤلف والناشر والأصدقاء (فضلاً عن ذلك كان خيرمان بارجاس موزعاً للكتاب فى كولومبيا) ولذلك قُوِلَت قصة " العقيد لا يجد من يرأسه " باحتفاء كبير من قبل النقد فى البلدان الرئيسية فى أمريكا اللاتينية ، وترجمة سريعة إلى الفرنسية أعدّها الناشر جوليارد فى باريس، ولكن ما هو مُحزن أن الألفى نسخة التى طبعها ألبرتو أجيرى لم يَبِعَ منها سوى ثمانمائة نسخة فقط. وإذا ما طرحنا المائة والخمسين نسخة التى تلقاها جارثيا ماركيز ، ومائة وخمسين آخرين قام الناشر بتوزيعها على النقاد والصحافة القومية ، وبقيت تسعمائة نسخة اضطر أجيرى لسدادها بقدر استطاعته مع باقى الأعمال الكاملة لليون دى جرييف ، وكتاب لفرناندو جونتاليث.

وإذا كان دخول جارثيا ماركيز الأوساط الأدبية والصحفية سريعاً نسبياً بفضل ألبارو موتيس ، والاحتفاء الرائع الذى قُوِّلَ به كتاب " العقيد لا يجد من يُراسله " وكتبه الأخرى ، فإن توغله فى أوساط السينما المكسيكية كان بطيئاً وصعباً. إن مفتاح سمس الذى سمح له مؤخراً بالتوغل فى هذه الأوساط ، كما هى العادة دائماً كانت الصداقة وعزمه وتصميمه ؛ فإلى جانب أوجوستو مونتيرُوسو ، وخوان جارثيا بونثى وفرناندو بينيتيث فإن أصدقاءه الأوائل كانوا أشخاصاً من السينما أو قريبين من المحيط والوسط السينمائى مثل خومى جارثيا أسكوت ، وماريا لويسا إيليو ، وإيميليو جارثيا ريبيرا ، وبيثينتى روخو، وخوسيه لويس جونثالث ليون ، وخوسيه كولينا ، وألبرتو إسحاق ، ولويس الكوريثا ، وأرتورو ريبستين . كانوا جميعاً أصدقاءً لألبارو موتيس.

وكان جارثيا ماركيز قد تعرَّف على خومى جارثيا أسكوت ، وماريا إيليو فى أواخر ١٩٦٠ ، وقد أهداهما فيما بعد قصته "مائة عام من العزلة" ، وذلك عندما قضى فى هافانا ثلاثة أيام لزيارة موتيس ، وسمحت له هذه الصداقة الأصلية الوفية منذ الوهلة الأولى لوصوله إلى المكسيك بالحضور أثناء عطلات نهاية الأسبوع تصوير فيلم " الشُرقة الخالية" ؛ وهو الفيلم الذى سيسجل علامة بارزة فى تاريخ السينما الجديدة فى المكسيك.

إن الثنائى جارثيا - إيليو نشأ وترعرع فى ظل مناساة أغلبية الأطفال الأسبان فى المهجر: هاهو الحنين الجريح للطفولة ، وهذه الأرض التى لا صاحب لها ويعيشون فيها عندما فقدوا جذورهم دون أن يغرسوا أخرى بديلة لجذورهم الأصلية. ظلَّ أغلب هؤلاء المهاجرين فى دوائهم الأسبانية يعيشون على أمل أن يسقط فى العام القادم فرانثيسكو فرانكو ، وبينما كانوا ينتظرون ويتحسرون على الوطن الأم ، كانوا يوسعون نشاطهم التجارى ، وينمون شركاتهم سواء النشاط السينمائى أو الجامعى أو الصحفى أو النشرى أو الأدبى أو الفنى ، مُثْرين ومحوِّلين الثقافة المكسيكية أثناء حقبة الأربعينيات والخمسينيات والستينيات.

وكثير منهم كانت ماريا لويسا إيليو قد كتبت رواياتها السرية لى تخفف عن نفسها مرارة الهجرة والحنين الجريح للطفولة الأسبانية ، وبين زوجها خومى جارثيا أسكوت ، وهو شاب مديدى تعلَّم فى باريس ، وإيميليو جارثيا ريبيرا من جزيرة إيبيقا

الأسبانية عاش في فرنسا أيضاً ، وقد صمموا على تقديم أعمالهم للسينما بميزانية قدرها أربعة آلاف دولار ، والتعاون الأسبوعي للأصدقاء. وخلال كل عطلات نهاية الأسبوع عام ١٩٦١ أسهم كل من كارلوس فوينتيس ، وألبارو موتيس ، وخوان جارتيا بونثي ، وسلفادور إيثوندو ، وتوماس سيجوييا ، وجون ستانتون إلى جانب أصدقاء آخرين ، وممثلين حسنى النية استطاعوا جميعاً تقديم فيلم " الشُرْفة الخالية " . لقد أشار الفيلم إلى السبب الحقيقي للوحدة والغربة والحنين ، وقد صوروا هذا الالتزام العام والمشارك للكتاب المكسيكيين والأسبان فى المنفى مع السينما الجديدة ، حيث إنَّ فيلم جارتيا أسكوت قد حصل على جائزتين دوليتين ، وكان بمثابة علامة مميزة للسينما الوطنية ، حيث افتتح إحساساً جديداً واقترح لغة جديدة مستوحاة من القصة المبهمة أو الغامضة^(١٦).

إنَّ حضور تصوير فيلم " الشُرْفة الخالية " كان أوَّل اقتراب لجارتيا ماركيز من السينما المكسيكية ، وإن كان بشيء من الخجل. وتذكر ماريا لويسا إيليو أنه بعد كل جلسة تصوير ظلَّ الكاتب خلف الأعمدة أو أى مانع لكى لا يرويه. لقد ظلَّ جارتيا ماركيز رجلاً خجولاً وحزيناً إلى حد ما ، ومنطوياً على نفسه ، وإحساسه بأنه لا جدوى منه فى بعض الأماكن كانت إحدى عُقده الدائمة ، ومع ذلك كان عزمه واضحاً غاية الوضوح : إثبات أنَّ له فائدة فى السينما المكسيكية ، وبدأ بمساعدة ألبارو موتيس ، ولويس بيثينس زيارة جماعات الكُتَّاب والصحفيين والفنانين والسينمائيين الذين كانت تجمعهم هواية الولع بالسينما ، والذين كانوا يرغبون فى تغيير اتجاه وطريق السينما المكسيكية. ولم يكن ألبارو موتيس مواظباً على هذه الاجتماعات لأن السينما لم تكن أبداً ضمن هواياته الأساسية، ولأنه دائماً كان مولعاً بالحياة الاجتماعية ، وسعيداً بها خاصة بالحياة الاجتماعية للمفكرين ؛ ومع ذلك لم يبخل فى مساعدة صديقه. وهكذا بدأ جارتيا ماركيز يجتمع مرَّةً فى الأسبوع للتحديث عن السينما فى مأدبات غداء دورية مع أرتورو ريبستين، بيثيتى روخو ، وإيميليو جارتيا ريبيرا ، وخوسيه لويس جونثاليت دى ليون ، والممثلة أدريانا رويل. وبعد ذلك سيجتمع كل يوم جمعة مع لويس ألكوريثا ، وألبرتو إسحاق ، وألبارو موتيس. ولكن اجتماعاته السينمائية الحقيقية كانت تتم كل يوم سبت فى مكتب الموقر لويس بيثينس فى حضور خومى جارتيا أسكوت ، وخوسيه

لويس جونثاليت دي ليون ، وإيميليو جارثيا ريبيرا ، وخوسيه دي لا كولينا وسلفادور إلثوندو.

وجدير بالذكر أن لويس بيثينس هو راعٍ للمولعين بالسينما والرسمين والكتاب ، وكان قد استقر بالمكسيك في سبتمبر ١٩٥٩ قادماً من كولومبيا ، حيث عاش هناك سنوات كثيرة وترك أثراً لا يُمحى في ترسيخ السينما الوطنية بها فقد أسس هيئة نادي السينما بكولومبيا ، وعلم السينماتيكاً أو علم الحركة المجردة في السينما بكولومبيا ، كما أعدّ مونتاج فيلم " الجراد الأزرق " ، الفيلم الذي أعدّه ألبارو ثيبيدا ساموديو وأصدقائه على نفقتهم عام ١٩٥٤ . وكان جارثيا ماركيز قد حضر هذا المونتاج باهتمام بالغ ، وقد انتبه منذ ذلك إلى أهمية أن يعرف كاتب السيناريو تقنية المونتاج نفس العلم الذي درّسته له الدكتورة روسادو أثناء دراسته القصيرة في مركز السينما التجريبي بروما . وعندما وصل بيثينس إلى المكسيك ، فإن أول شيء قام به كان البحث عن السينمائيين الشبان الذين بدأوا يشقون دروباً وطرقاً جديدة في السينما المكسيكية ، ووجدهم يجمعهم تأثير " القصة المبهمة " و " كراسات السينما " . وفي هذا الجو المشجع والملائم ولدت مجلة السينما الجديدة التي على الرغم من قصر حياتها فقد كان لها تأثير وطني كبير وصدى دولي إلى حد ما . كانت المجلة تحت إشراف وتشجيع لويس بيثينس الذي دفع السينما الجديدة بالمكسيك نحو المجد بأفلام مثل " في الشرفة الخالية " ، و " الصيغة السرية " ، و " في هذه القرية لا يوجد لصوص " الذي أُعدّ استناداً إلى قصة جارثيا ماركيز .

وفي اجتماعات أيام السبت حول صاحب المكتبة والسينمائي القطالوني كان الحديث يدور عن كل شيء ويُقترح كل شيء . هناك اقترح ألبارو موتيس تبني اسم مستعار يمكن للجميع استخدامه دون تمييز لتوقيع مقالاتهم بالمجلة . وقد قبل الآخرون ذلك ، ووافقوا على الاسم الذي اقترحه موتيس زاكاري أنجلو . إن هذا اليهودي الكامل في هوليود كانت له شهرة إلى حد ما ليس فقط في التعليقات على السينما ؛ بل في علاقاته المشبوهة مع الممثلات الحسنات . وذات مرة تجرأ حتى في سرد مشاجرة مع أحد الحمقى بسبب فيلم للويس بونيويل ، وعندما علّم بذلك الأستاذ والرائد الأراجوني (نسبة إلى إقليم أراجون في إسبانيا) أسف لعدم التعرف عليه شخصياً^(١٧) .

وبهذا الشكل ووسط العمل والدراسة كان هناك نوع من المزاح للجماعة مما يبرهن على الصداقة والشرافة التي تجمع هذه المجموعة من الكولومبيين والإسبان والمكسيكيين ، فضلاً عن ولعهم المشترك بالسينما . هذا هو الجو العام الذي وجدته جارثيا ماركيز في يولييه عام ١٩٦١ حيث أحس بالراحة ، وهناك وجد هذه الإمكانيات بالنسبة للمستقبل ، ويعد عامين وجد ثغرة في النهاية لكي يدخل عالم السينما ، وفكر أكثر من مرة في إغلاق صنوبر الأدب والتفرغ تماماً جسداً وروحاً للفن السابع " السينما " .

وبالفعل كانت أول فرصة ذهبية سنحت له هي : العمل مع المنتج مانويل بارياتشانو بونثي لتهئية " الديك الذهبي " للسينما ، وهو موضوع لخوان رولفو الكاتب الذي يعرفه جيداً والمُعجب به لدرجة الفنتة في تلك الآونة . ولذلك ترك العمل بوكالة الدعاية والإعلان ولتر تومسون التي كان قد بدأ العمل بها في سبتمبر ١٩٦٢ هرباً من الصحافة الغذائية العقيمة ، التي لم تكن كافية لسد رمقه وأسرته ، والتي اضطرت للعمل بها خلال عامين في مجلتي " الأسرة " و " حوادث للجميع " . ولذلك فقد كان السأم والملل شاملاً ، وكانت البصعوبات الاقتصادية وحدها في البداية تُفسر أن الكاتب أضاع عامين للعمل من أجل سد رمق الأسرة . وقد زاد الطين بلة أن راعيه وصاحب عمله جوستابو ألا تريستي جعله أكثر حزناً ومأساوية ، واضطر لمطاردته في كل مكان من خلال متاهة كافكا . ويتذكر إيميليو جارثيا ريبيرا على سبيل المثال أنه لم يدفع له راتبه لمدة ثلاثة أشهر ، وقد طارده الكاتب وتتبعه في كل مكان حتى قال له صاحب العمل : لا تهتم . سأدفع لك رواتبك . وقد أدخله في سيارته ورافقه حتى حمّام تركي حيث أعطاه الشيك وسط بخار الحمّام . وعندما خرج جارثيا ماركيز أدرك أن حروف الشيك قد طُمِسَتْ لذلك عاد لمطاردته في رواية جديدة لعذاب سيزيف الأبدي^(١٨) .

ولذلك عندما وصل إلى عالم الدعاية بمساعدة ألبارو موتيس فإن الكاتب شعر بالحرية مرتين ، وعندما ترك الدعاية بعد ذلك ببضعة أشهر لكي يتفرغ تماماً للسينما مع مانويل باريستانو بونثي اعتقد أنه بلغ المجد لأن هذا ما كان يبحث عنه منذ أيام روما : تكريس قلمه لخدمة السينما حتى يستطيع كتابة القصة ذات الصور الكاملة . لقد كان الكاتب مقتنعاً آنذاك بأن السينما بقوتها الإبصارية يمكنها أن تكون وسيلة التعبير الأكثر ملائمة لسرد مشكلة الإنسان في عصره . إن هذا الاعتقاد سيتلاشى لديه في

منتصف عام ١٩٦٥ ، إن لم يترك بصمات واضحة فى أعماله السابقة ؛ بل كان يعوقه بشكل ما ، وإن كان قد أثرى البعض الآخر عملية نُضجِه صوب القصة الشمولية تجاه هذا " الفيلم الكامل " الذى سيكون "مائة عام من العزلة " ، ولكن كان ينبغى عليه الانتظار عامين آخرين مليونين بالآمال وخيبات الأمل إلى أن استطاع إدراك ذلك.

لقد كان ماتويل بآبارتشانو كياناً له وزنه وثقله فى المكسيك. كان رجلاً سخياً ، حيث لم يعترض مجرد الاعتراض على الاستمرار فى أن يدفع لألبارو موتيس راتبه خلال الخمسة عشر شهراً التى قضّاها فى سجن ليكومبرى. وقد جُمع بآبارتشانو حوله مجموعة من السينمائيين ، والرُسامين والكتّاب. إنه منتج بعض روائع أفلام لويس بونيويل وأحد مؤسسى السينما المستقلة بالمكسيك، وكان يعتقد أنه إزاء نقص الموضوعات الأصلية الجيدة ينبغى على السينما أن تتغذى من الأدب ، وقد لجأ إلى كتاب مثل بنيتو بيريث جالدوس ، ورامون ماريّا ديل بايى إنكلان أو خوان رولفو الذى كان يشعر بالإعجاب تجاهه. إن تأييده للسينما الجديدة إلى جانب إنتاج الكتّاب الجُدد كان المنتج الوحيد المستقل الذى شارك عام ١٩٦٤ فى المسابقة الأولى للسينما التجريبية، وذلك بإنتاج خمسة أفلام متوسطة استناداً إلى أعمال ونصوص لكل من كارلوس فوينتيس ، وخوان جارتيا بونثى ، وخوان دى لا كابادا.

إن فكرة تقديم أعمال رولفو للسينما كانت الجوهرة الكبيرة لأحلامه ، ولكنه لم يجد كاتباً جيداً للسيناريو. كان بآبارتشانو بونثى يبحث عن كاتب سيناريو جيد يكون مفتوناً مثله بأعمال رولفو ، وأن يكون على الأقل كاتباً جيداً مثله. حينئذ تذكر ألبارو موتيس صديقه جارتيا ماركيز حيث كان مُعجباً أشد الإعجاب بكاتب لاكوما لا ، وقدّم ماركيز بآبارتشانو ، وبالعَمَل بين الأدب والسينما ، وبتركيز أكبر وقت لذلك (ترك جارتيا ماركيز عمله فى الدعاية والإعلان) ، وقد استطاع جارتيا ماركيز أن يكتب أوّل سيناريو له استناداً لقصة " الديك الذهبى " الذى أبدى عليه بآبارتشانو اعتراضاً بسيطاً لأن الحوار كان بالكولومبية وليس بالمكسيكية. وفى هذه اللحظة دخل فى اللعبة تعاون وصداقة كارلوس فوينتيس الذى ما لبث أن عاد من سفره الطويل بأوروبا. وقد عرفه عليه موتيس فى نفس صالة العروض التى كان يمتلكها بآبارتشانو بونثى. وكان الشخصان قد عرفا بعضهما من خلال الرسائل ، وكذلك من بعض الأصدقاء المشتركين

كما قرأ كل منهما أعمال الآخر ، وبلا أدنى شك كان كل منهما معجباً بالآخر ، ولكن الاستلطاف لم يكن فورياً .

وكان كارلوس فوينتيس فى الخامسة والثلاثين من عمره أحد كبار الروائيين المبدعين المكسيكيين ، وكان من بين أهم وأفضل قصصه روايتان : " المنطقة الأكثر شفافية " و " موت أرمينيو كروث " اللتان جعلتا يتربع على عرش القصة الأمريكية اللاتينية الجديدة الى جانب أليخو كاربنتيير وخوليو كورتار وخوان رولفو وماريو بارجاس يوسا . لقد كان كاتباً عالمياً تأسل فى الأساطير المكسيكية كما كان كاتب مقالات للجيل ورجلاً رقيقاً كما يقول ثيسار بايخو وبكل هذا العتاد الأدبى والفكرى والإنسانى كانت أعماله تجوب نصف العالم فى ثلاث لغات بخطى وثيدة وثابتة وأكيدة وطلاقة ساحرة وضحكة تلقائية وإيماءات أكثر إنسانية فى كل مرة ، ومن أسلوب ودى ومسهب وقوى أصبح أسلوبياً مقنعاً ومفحماً .

وعلى الرغم من أن جابرييل جارتيا ماركيز كان أحد أفضل كُتاب أمريكا اللاتينية فقد كان - على العكس من ذلك - لا يزال يعانى من نعمة بانسة ، حيث إن كتبه الأربعة أو الخمسة الأوائل كانت عبارة عن درر خفية قاصرة على أصدقاء وعلى قلة أخرى من القراء ، فكل الأمور لم تكن فى صالحه فى البداية باستثناء براعة الأدبية وحبه لمرسيدس وعلاقاته الطيبة دائماً مع أصدقائه ، وكان يعيبه أن طلاقة لسانه لم تكن ساحرة وفاتنة وأخاذه لكونه رجلاً حزيناً إلى حد ما وخجولاً ومنطوياً على نفسه وكان يعتقد بأنه لا فائدة له فى بعض الأماكن .

وفى منتصف الخمسينات كان كارلوس فوينتيس قد قرأ القصة الأولى للكولومبى بفضل ألبارو موتيس ، ونشرها له فى المجلة المكسيكية للأدب التى كان يديرها مع إيمانويل كاربايو ، وبعض الحكايات التى تنازلت عنها مجلة ميتو (الأسطورة) فى بوجوتا مثل " مناجاة إيسابيل ترى المطر فى ماكوندو " . واعتباراً من ذلك بدأ الشخصان المراسلة بينهما ، وهذا لأن كارلوس فوينتيس تخيل أن الكولومبى جرى منطلق ذو حيل وواثق من نفسه مثل نثره تماماً . وفى الواقع أنه كان كذلك ولكن لم يكن كذلك - بالتحديد عندما تعارفا - بين الجرأة والثقة بالنفس وطلاقة المكسيكى والكتمان

وانعدام الثقة بالنفس وكبت الكولومبي ، فليس من الغريب أن تكون هناك بينهما منطقة محظورة حيث ظل أحدهما بتحفظاته جانباً وبقي الآخر في الجانب المقابل بصنوف خجله واستحيائه ، ولكن هذا الجفاء كان مؤقتاً وسرعان ما أدى الى إحدى الصداقات والشراكات العميقة والسعيدة في حياة كلا الكاتبين .

وطبقاً لبيثينتي روخو فإن أحد العوامل التي غدت هذه الصداقة كانت النشر في دار نشر إيرا (العهد) في سبتمبر ١٩٦٣ الطبعة الثانية من ألف نسخة " للعقيد لا يجد من يرأسه " ؛ تلك القصة التي علّق عليها كارلوس فوينتيس بحماس منقطع النظير في يناير في العام التالي بملحق " الثقافة في المكسيك " في مجلة " دائماً " ، ولكن الأمر الذي قرّبهما بشكل نهائي كان خوان رولفو والسينما ، فعملهما سنوياً في " الديك الذهبي " سمح لهما بالتعرف على بعضهما ككاتبين بصورة أفضل، هذا إلى جانب كونهما مولعين بالسينما وصديقين مما بدد آخر ظلال علاقتهما . وكان السيناريو عملاً جديراً بالثناء ووفياً لقصة خوان رولفو وإن كانت كفيفاً أخرجه ريكاردو جبالدون وعرض في ديسمبر ١٩٦٤^(١٩) قد لقي فشلاً ذريعاً . لقد كان جبالدون مخرجاً تجارياً عجوزاً مليئاً بالعادات السيئة ويفتقر للخيال ، واستناداً لما يقوله جاريثا ماركيز جعل حياة كاتب السيناريو مستحيلة طوال عدة أشهر ، حيث طلب منهم إعادة كتابة السيناريو عدة مرات، وجعلهما يدوران في حلقة مفرغة (كما سيفعل ذلك العقيد أوريليانو بوينديا بالحلي الذهبية على شكل أسماك صغيرة أثناء العزلة) حتى سئما منه وقالوا لبارياتشانو بونثي أنهما تركا السيناريو لكي يفعل به جبالدون مايشاء^(٢٠) .

وبعد ذلك ببضعة أشهر عادا ليلتقيا مرة أخرى بدافع الولع بالسينما وأيضاً بقصة لخوان رولفو ألا وهي تهينة " بيدو بارامو " للسينما ، وهو المشروع الكبير لبارياتشانو بونثي الذي كان على وشك أن يتسبب في إفلاسه تماماً ، لقد كانت قصة السيناريو الأصلية قد كتبها كارلوس فوينتيس، ولكن المخرج كارلوس بيلو لم يكن متأكداً ، وأراد سيناريو شبه علمي وأخضعه لرأي عدد لا حصر له من الفنانين والكتاب من بينهم خومي جاريثا أسكوت وخوان جاريثا بونثي وألبارو موتيس وفرناندو بينيتيس وخوسيه دي لاكولينا وجاستون جاريثا . وعندما وصل السيناريو إلى جاريثا ماركيز كان الأصل الذي أعده كارلوس فوينتيس يستحيل التعرف عليه لطمس معاملة وملاحمه :

فقد أضاف كل من هولاء أوحذف أجزاءً من هنا وهناك. وقد تدخل الكولومبى هنا كمحامٍ ذى نية حسنة للدفاع عن رولفو ، وعلى الرغم من ذلك فإن فيلم كارلوس بيلو كان من أكبر الكوارث والنكبات فى تاريخ السينما المكسيكية^(٢١). وعلى العكس من ذلك فإن العمل الدقيق خلال عدة أشهر فى قصة السيناريو هذه كانت مفيدة للغاية لكى يتعرف بعمق وتعمق على الأسرار الخفية للبنية الأدبية لخوان رولفو حتى توصل إلى المفاتيح التى مكنته من كتابة " مائة عام من العزلة " بعد ذلك بقليل .

وفى نفس الوقت خطى جارتيا ماركيز خطواته الأولى فى السينما ، وباع الحقوق السينمائية لقصة العقيد لايجد من يرأسه (التى لم تُصوّر كفيلم لافتقارها إلى الشخصية ذات الطابع التجارى) ، وأفسحت المجال لقصته الأخرى (لا يوجد لصوص فى هذه القرية " لكى يقوم ألبرتو إسحاق وإيميليو جارتيا ريريا بتقديمها للسينما . وبتهينة الاثنين للقصة وإخراج إسحاق وصل الفيلم إلى النهائى وحصل على جوائز فى التهيئة والإعداد والتصوير فى المسابقة الأولى للسينما التجريبية^(٢٢) ، وكانت الجائزة الأولى من نصيب فيلم " الصيغة السرية " لروين جاميث الذى كتب قصة الجميل خوان رولفو. وكلا الفيلمين استوحيا من فيلم " فى الشرفة الخالية " ، وقد شارك فيها أيضا نخبة من السينمائيين والكتاب كممثلين من ذوى النيات الحسنة فى تصوير فيلم " لا يوجد لصوص فى هذه القرية " ، وقد شارك جارتيا ماركيز ذاتة بفعالية فى المونتاج كما عمل بائعاً لتذاكر السينما وقام لويس بونيويل بدور القسيس الواعظ ولويس بيتشس فى دور السيد أو بالدو وخوان رولفو وكارلوس مونسيبياس قاما بدور لاعبى الدومينو وخوسيه لويس كوبياس وإيميليو جارتيا ريريا قاما بدور لاعبى البلياردو^(٢٣). إن الوجود الخجول لرولفو فى هذا الفيلم جاء تنويجاً لصداقته الحديثة مع ماركيز صداقة كانت قد بدأت دون تفاؤل كبير فى نوفمبر من العام الماضى عندما قدمهما للتعارف ألبارو موتيس أثناء زفاف صديقه (وعلى وجه التحديد فى اليوم الذى قتل فيه روبى أوسفالد ؛ قاتل أو مغتال كينيدي) ، وعلى الرغم من أن الكاتب المكسيكى كان قد قرأ للقصاص الكولومبى فإن تحفظات وخجل واستحياء وكتمان ذلك ، فضلاً عن عملية علاجه من إدمان الكحوليات أدى كل ذلك إلى عدم تبلور الصداقة فوراً ، لكن بمجرد أن قويت وترسخت عرى هذه الصداقة كان وجود رولفو مستمراً فى الدردشات الأدبية إلى جانب

السينمائية التي كان جارثيا ماركيز يشارك فيها مجموعة من الكُتّاب والأصدقاء ومن بين هؤلاء: لويس كاربوتا وأراجون وإيرنستو ميخيا سانشيث وأوجوستو مونتيروسو وخايمي جارثيا تريس وخوان جارثيا بونثي وخوسيه إيميليو باتشيكو ، وبدرجة أقل ألبارو موتيس.

ويتحمسه بالإنجازات الأولى بدأ جارثيا ماركيز فى نفس العام ١٩٦٤ إلى (عامه الذهبى فى السينما) فى كتابة أول قصة سيناريو له كاملة : " زمن الموت " . لقد كانت فكرة قديمة باسم " الفلاح " ، وهى التى كانت قد ولدت من صورة ذلك القنّاص العجوز الذى تعلم حرفة الحياكة بعد أن مكث سنياً طويلة سجيناً. تلك الصورة التى تولدت عن حكاية أونادرة عاشها جارثيا ماركيز عندما عاد ذات يوم إلى منزله ووجد البواب وهو قاتل أو سفاح قديم يُحكى ستره^(٢٤). إن قصة السيناريو التى هياها وأعدّها كارلوس فوينتيس كُتبت خصيصاً لكى يقوم الشاب أرتورو رييستين البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً لكى يشق طريقه كمخرج فى ظل والده ، وقد أصّر منتج الفيلم على أن تتنكر هذه فى اسم ويسترن (الغربية) لكى يجد سوقاً أكيداً ومضموناً فى ألمانيا الغربية. وقد تم تصوير الفيلم فى باتشكوارو فى الفترة من ٧ يونيو الى ١٠ يولية عام ١٩٦٥ فى حضور جارثيا ماركيز وقد عرض الفيلم فى نفس العام^(٢٥).

ولم يكن فيلم " زمن الموت " أول قصة سيناريو أصلية يكتبها جارثيا ماركيز ، بل كان تأثره الثانى بخوان رولفو ، وكان عملاً أوضح للكاتب ماكان يبحث عنه فى السينما: صياغة وإبلاغ الأفكار المتسلطة فى عمله الأدبى. وعلاوة على التقنيات فإن كاتب قصة السيناريو يتصرف من الناحية العملية مثل مؤلف " الساعة المشنومة " والعقيد لا يجد من يرأسله " وفى نفس الوقت أدرج عناصر مهمة لعمله المستقبلى ، وكانت قصة السيناريو يمكن أن تُسمى أيضاً " الساعة المشنومة " و "خوان ساياجو لا يجد من يساعده " و " عشرون عاماً من العزلة " أو " نبأ موت معلن " ، ولم يكن الزمن والبنية دوريين ومتكررين فقط بل حتى فى الأوصاف التى يصرُّ بها عند إنتاج الأدب أى أدبه الشخصى ، ولينسى أن كلمات قصة السيناريو ماهى إلا أدوات لخدمة آلة التصوير وليست هيئات أو كيانات أدبية مستقلة .

وعلى الرغم من أن جارثيا ماركيز ظل يعمل بالتناوب بين السينما والإعلان (أحيانا فى ولتر ثومسون وأحيانا أخرى فى ستانتون بريتشارد أند وود) وكانت هذه السنة أكثر خصوبة : فإلى جانب مشاركته فى قصة السيناريو لفيلم " لولا حياتى " وهو فيلم صغير لميجيل بارباتشانو بونثى ، فقد كتب قصتى سيناريو بموضوعين أصليين له " باستى حبى " الذى أخرجه مانويل ميتشيل و" ألعاب خطيرة " الذى تم تقديمه فى جزئين : " إتش أو (H.O) إخراج أرتورو ريبستين و " تسلية " من إخراج لويس الكوريثا^(٢٦).

وعلى الرغم من أن الفردوس الحقيقى للسينمائى جارثيا ماركيز بدأ يتحدد معالاه فى أفقه (أى فى أفق الكاتب) عندما قام المنتج أنطونيو ماتوك اقترح عليه وعلى لويس الكوريثا ، كانت قصص السيناريو الشهير للويس بونيويل أن يتفرغا لكتابة قصص سيناريوهات براتب ثابت. ويعد كتابة ثلاث قصص سيناريو والعديد من القصص الإجمالية استسلما^(٢٧) وتمكن الكاتب من الإثبات حينذاك أن فردوس كاتب قصص السيناريو لم يكن سوى واحة ضيقة وصغيرة ، لأن حولها كانت الصحراء تمتد فى صناعة تجارية معقدة ومتناقضة لم يكن فيها كاتب قصة السيناريو سوى قطعة بسيطة دائماً ما تنتهى بفقدان هويتها. ويات من الواضح أن السينما لم تكن وسيلة " التعبير الكاملة " لصياغة وإبلاغ مايدور بعالم الكاتب الداخلى منذ أيام الطفولة حيث قام الجد باصطحابه إلى السيرك أو لمشاهدة أفلام توم ميكس ، بينما كانت الجدة تكلمه ليلاً بالأرواح المستوطنة فى منزل أراكاتاكا.

ويتذكر كارلوس فوينتيس بعد ثلاثين عاماً لحظات الفشل المشترك فى السينما وهما يجلسان على العشب فى حديقة منزله فى شارع سيرا دا جاليانا بالحي السكنى "سان أنخيل إن " ، حيث تجن المكسيكى وتعجب أنه لم يستطع أن يتحمل أكثر من ذلك ، وأنه سيعتزل أو أن الكاتب الكولومبى هو الذى سئم العيش فى المكسيك قائلاً : سأنهب إلى كولومبيا. لن أستطيع العمل أكثر من ذلك ككاتب قصة سيناريو إنه عمل مزرى مهين " إننا نعمل مع أميين " حينئذٍ قام فوينتيس الذى سبق أن واساه صديقه جارثيا ماركيز هو الآخر بالتسرية عن صديقة جابو : "لاتنس أن الذى نفعله الآن فى السينما هو من أجل تمويل القصص التى نود كتابتها ، تذكر أنك ينبغي عليك أن تكتب قصة

رائعة " ، ولكن لم تكن هذه هى المشكلة بل كانت تكمن فى أن جارثيا ماركيز كان يفكر دائماً فى أن السينما هى الوسيلة الأكثر ملائمة لكل ما يريد أن يرويه ، والآن وبعد عامين من العمل فى السينما كان ينبغي أن يسلم بكل تواضع أنه إزاء القصة، فإن السينما لم تكن فقط وسيلة محدودة للتعبير ، ولكنها كانت وفقاً للأهواء والأنواق ومصالح المنتجين والمخرجين ، لذلك كان كل ما يستطيعان عمله قليل للغاية .

وبالنسبة لكاتب ذى طموحات عادية فإن منجزات جارثيا ماركيز حتى منتصف عام ١٩٦٥ لم تكن المثلى ، بل كان يبدو أنه يسبح على قمة الموجة . فقد كان يتمتع بشهرة كبيرة فى كولومبيا كصحفى وقصاص ، وفى المكسيك كان يُشار له بالبنان ككاتب قصة سيناريو وكان يُهتَف باسمه كمؤلف وإن اسمه خارج دائرة الأصدقاء والنقاد بدأ الاهتمام به فى عدة دول فى أمريكا اللاتينية . لقد كان كاتب سيناريو ورجل دعاية ذا راتب كبير. وبدأ يسبح فى بحر من الرخاء والرفاهية ، مما انعكس على جودة مسكنه (فبعد قضاء فترة فى حى برادو إيرمتيا ترك منزل حى فلوريدا واستقر فى " حى سان أنخيل إن " الوضاء والمريح الهادئ) ، وكذلك على تنوع وجودة ملابسه كما انعكس ذلك بشكل واضح على الأسرة أيضاً وعلى علاقاته الاجتماعية مع المنتجين والمخرجين والصحفيين والكتاب والرسامين والمطربين والممثلين المشهورين والممثلات الحسنات . لقد كان رجلاً يرتدى الملابس المتناسقة بشكل تقليدى كما كان يتزين برباط عنقه الأنيق لكل من كان يراه بكثرة ، أحياناً بمفرده وأحياناً مع مرسيديس أو عندما يلتقى بمختلف المجموعات من أصدقائه فى الحانات والمقاهى والمطاعم والأندية فى المنطقة الوردية (ذلك البازار الهائل للعادات الاجتماعية المكسيكية) ، وفى غيضة من أشجار الحور (المكسيك الاستيطانية) وشارع بوكاريلي أو فى الألف مكان ومكان فى (منتزه الإصلاح) ، أوفى (شارع المتمردين) . ومع هذا كله فقد كانت شعيرته المفضلة هى المجرى إلى جلسات الشاي المفتوحة أيام الأحاد مساءً التى كان يقيمها كارلوس فوينتيس وزوجته ريتا ماثيو فى منزله ، حيث كانت الحياة الاجتماعية مع المدعوين الكثيرين كانت فى الواقع امتداداً ترفيهياً للعمل الأدبى والسينمائى والصحفى الذى كان دائماً يقض مضجعهم ، وبين الحل والسترات الجلدية التى كان يرتديها المفكرون المكسيكيون كان من الشائع ارتداء الكاتب الكولومبى سترة من الصوف بها مربعات بيضاء وسوداء حيث كان يحتفظ بها جارثياماركيز كحجاب من أيامه الغنائية كسينمائى فى روما .

ولكن الآن وبعد عشر سنوات شعر بالخذلان من جانب الفن السابع (السينما) وكذلك بالإرهاق والنضوب ككاتب ، وقد سمعه أصدقاؤه مثل ألبارو موتيس ، وهو يقول مراراً وتكراراً : لن أكتب فى هذه الفترة ، فلم يكن لديه مايقدمه أو ما يقوله . وقد اعترف لبيلينيو ميدوثا فى رسائله الكثيرة التى كان يرسلها له فى ذلك الحين أنه كان يتناول المهدئات حيث كان يدهن بها الخبز مثل الزبد^(٢٨) " وقد شهد بحالة تدنى قواه وإنهاكه اثنان من المراقبين الأمريكيين اللاتينيين وهما الناقد الأورو جوانى أمير روبر جييث مونيغال والكاتب التشيلى الأمريكى لويس هارس تلك الحالة التى كان يعانى منها الكاتب الكولومبى^(٢٩). ولكن ألبارو موتيس الصديق المقرب لجارثيا ماركيز ، الذى كان يعرفه كُنه المعرفة لم يصدق حقيقة أسف وحزن الكاتب إن كانت قد بدت له صادقة إلا أنه لم يصدق على الإطلاق بلوغه سن العقم الأدبى ، وبالنسبة للشاعر كويو لم يكن ذلك إلا مظاهر خارجية وخاطئة لعملية هضم بطيئة وعميقة : لا ، إننى لم أصدق على الإطلاق هذا العقم الأدبى لجابو الذى كثر الحديث عنه لأنه كاتب فطرى وخلال الأعوام التى سبقت " مائة عام من العزلة " كان يدير كثيراً من الأمور : فى المقام الأول صدمته المكسيكية التى كانت أمراً بطيئاً وصعب الهضم ، وفى المقام الثانى إنتاج رولفو إلى جانب صدمته المكسيكية لأن رولفو هو المكسيك الأصلية ، وفى المقام الثالث كان مشغولاً بالسينما الذى اعتقد أنه اكتشف هنا كل احتمالاتها وإمكاناتها القوية " .

ولذلك يشكك ألبارو موتيس فيما يتردد من أن جارثيا ماركيز كان يكتب النسخة الأولى من روايته " خريف البطريق " خلال تلك السنوات^(٣٠): لم يقل لى جابو على الإطلاق إنه يكتب "خريف البطريق" قبل أن يجلس ليكتب " مائة عام من العزلة " ، وعلى الرغم من أن ذلك مع جابو غير معروف فهو حرى بالمفاجآت لأن جابرييل جارثيا ماركيز لديه ترسانة من الصور والأفكار لطفولة لا تزال بكراً ، فمن المحتمل أن يكون قد بدأ العمل فى فكرة " خريف البطريق " ولكنه لم يذكر لى شيئاً عن ذلك مطلقاً . إنه أمر غريب للغاية أن يكون قد بدأ العمل فعلاً فى ذلك دون أن يخبرنى به لأننا فى تلك الفترة كنا نلتقى دائماً كثيراً باستمرار ، كان كل منا يذكر للآخر ما يفعله. لا ، وما يقال من أنه كتب ثلاثمائة صفحة من قصة الطاغية قبل "مائة عام من العزلة" لا أصدقه. لا ،

لأنه فى تلك الفترة كان يكتب قصص سيناريو ، ويدير مجلات لكى يستطيع كسب قوته وأسرته. وبالإضافة إلى ذلك فإن جارثيا ماركيز كان قد قال فى تلك الفترة إنه لن يكتب لأنه سيتفرغ تماماً للسينما. لقد قال ذلك عن اقتناع تام، وإن كان قد خُدع من السينما دون أن يعرف أنه سيُخدع ". إن تأكيدات ألبارو موتيس كانت تقصدها مُسبقاً تصريحات للجارثيا ماركيز نفسه فى نوفمبر ١٩٦٥ ، عندما كتب للويس هارس لإعطائه معلومات تكميلية عن قصة "مائة عام من العزلة" لكتابه "كتّابنا: "إنى سعيد سعادة محمومة. فبعد خمس سنوات من العقم المطلق جاء هذا الكتاب الذى تم إعداده بسرعة كبيرة دون مشاكل من جانب الألفاظ ". وبعد أن كشف له أن قصة الطاغية ستكون بعنوان " خريف البطريق " أشار عليه قائلاً : " لن تكون القصة كما كنت أعتقد كتاباً طويلاً؛ بل أطول بقليل من قصة " العقيد لايجد من يرأسه " ولا أدرى لماذا لم يدر بخلى هذا قبل الآن : قد ينبغى ذلك بسبب مفاجأة الطاغية لحظة المحاكمة من جانب المحكمة الشعبية. إننى أنون للملاحظات (٣١).

وبالفعل فمنذ أوائل ١٩٥٨ حتى منتصف عام ١٩٦٥ استطاع جارثيا ماركيز فقط البحث عن مادة وجمع ملحوظات لقصته " الطاغية " ، فخلال تلك السنوات السبع لم يجد الوقت ولا الهدوء ولا المنظور الكافيين لكى يُقدِّم على كتابة عمل كبير مثل هذا فضلاً عن أن إلهامه كان هناك صولجائاً أدبياً أكثر قَدَمًا ومن العيار الكبير : " المنزل " الذى ظل يجمع مادته ويدون ملحوظاته أثناء سبعة عشر عاماً ، وقد أخفق فيه عدة مرات كما فصل منه عدة أجزاء بمناهج وسُبل مختلفة فى محاولات للاقترب - فى مرات متلاحقة - من صلب الموضوع الأساسى .

وبما أنه كرّس وقته لشروحاته السينمائية ، وبما أنه تكيف مع خوان رولفو بتعمق كبير وتجاوز صدمته المكسيكية بفضل مجموعة ممتازة من الأصدقاء ، ووضع اقتصادى مستقر سرعان ما وجد الطريقة التى يكتب بها قصة " المنزل " وهو يقود سيارته الأوبيل البيضاء ترافقه أسرته من مدينة المكسيك صوب أكابولكو ، حيث تمكن من تحويلها إلى منزل صالح للسكن وذات ليلة فى منتصف عام ١٩٦٥ قام كل من ألبارو موتيس وخطيبته آنذاك كارمن ميرالكى بزيارة لأسرة جارثيا ماركيز فى منزلها بحى " سان أنخيل إن " ، قال الكاتب لصديق ما عنُّ له تَوْأ : " أستاذى ؛ سأكتب قصة. وسأبدأ غداً

ذلك هل تتذكر ذلك المجلد الضخم الذى لم أطلعك عليه أبداً ، والذى سلمتكَ إياه فى مطار تيتشو فى يناير ١٩٥٤ لكى تدخله فى شنطة السيارة ؟ ، إنه هذه القصة ولكنها بطريقة أخرى . وبالفعل بدأ فى اليوم التالى العمل فى "مائة عام قبل العزلة" بشكل حماسى وجنونى ، ولكن البداية كانت محفوفة بالصعوبات وعانت من التوقف خلال الشهور الأولى.

يوجد غموض أسطورى بشأن اللحظة التى بدأ فيها كتابة هذه القصة . ويقول ماريو بارجاس يوسا فى " قصة متمرد " بعد ذلك بستة أعوام بدأ ماركيز على وجه التحديد كتابة القصة فى يناير ١٩٦٥ ، ويشير جارتيا ماركيز إلى ذلك بعد سبعة عشر عاماً فى صباح أحد أيام شهر أكتوبر عام ١٩٦٥ " عندما جلس أمام الآلة الكاتبة كما هى عادته يومياً ، ولكن فى تلك المرة لم أنهض إلا بعد ثمانية عشر شهراً^(٣٢). ومع ذلك فإن بعض الأحداث والنوادر تشير إلى أن بداية هذا العمل الخالد لكاتب ماكوندو لم يبدأ مبكراً كما أشار ماريو بارجاس يوسا ولا متأخراً كما ذكر جارتيا ماركيز نفسه .

وأول حدث واضح هو لقاءه مع كاتب المقالات والكاتب الشيلى - الأمريكى لويس هارس فى منتصف ذلك العام . ومنذ وقت مضى كان هارس يتجول فى القارة من الولايات المتحدة الأمريكية حتى الأرجنتين ، حيث أجرى مقابلات كثيرة لكتابه الجديد بعنوان " كُتَّابُنَا " مع تسعة كُتَّاب آخرين اعتبرهم رواد القصة فى أمريكا اللاتينية : خورخى لويس بورخيس وميخيل أنخيل أستورياس وأليخو كاربنثير وجواو جيمارايش روسا وخوان كارلوس أونيتى وخوليو كورتثار وخوان رولفو وكارلوس فوينتيس وماريو بارجاس يوسا . وعندما وصل إلى المكسيك ورأى فوينتيس قال له المكسيكى : ضع فى حسابك جابريل جارتيا ماركيز وهو كاتب كولومبى شاب ليس مشهوراً بالقدر الكافى ولكن إنتاجه شخصى وهائل ، فبالنسبة لكارلوس فوينتيس كان صديقه روائياً كبيراً يماثل أقرانه من الكتاب فى أمريكا اللاتينية ، إنه " أحد كتابنا " وعندما فُتِنَ هارس بقراءة أعماله الأربعة انتقل الكاتب الشيلى الأمريكى إلى باتتكوارو على بعد ثلاثمائة كيلو متر غرب المكسيك حيث وجد جارتيا ماركيز مع المخرج أرتورو ريبستين يصوران فيلم " زمن الموت " فى الفترة من ٧ يونية الى ١٠ يولية من ذلك العام^(٣٣).

وفى المقابلة التى تمت فى شهر يونية فى لوكاندة قديمة على ضفاف إحدى البحيرات قام جارثيا ماركيز لأول مرة على الملأ بسرد أدق التفاصيل عن حياته وإنجازاته الأدبية ، ولكنه لم يتحدث حتى ذلك الوقت عن مشروع قصته الكبرى ؛ فهو على الرغم من سروره وغبطته من كتبه السابقة كان يشعر بأنه فى حارة بلا مخرج يسوط نفسه بانتقاد ذاتى لا هوادة فيه ، وكما يعترف بذلك أنه لم يفكر حتى الآن فى " مائة عام من العزلة " ، وبما أننى تكلمت مع هارس عن هذه القصة وبعد ذلك بوقت طويل أخبرته فى رسالة أن القصة ستكون جاهزة فى مارس أو إبريل عام ١٩٦٧^(٢٤) . وفى تلك الرسالة قدم لهارس مزيداً من التفاصيل عن مضمونها وعملية كتابتها بتاريخ نوفمبر ١٩٦٥ .

وهناك مؤشر زمنى آخر يقودنا إلى التاريخ التقريبى الذى بدأ فيه جارثيا ماركيز قصته المذكورة آنفاً ، وهو زيارة كارمن بالثليس وزوجها لويس بالوماريس للكاتب الكولومبى فى الأيام الأولى من شهر يولية من ذلك العام. وجدير بالذكر أن بالثليس كانت مندوبته الرسمية منذ نوفمبر ١٩٦٢ . وقد عادت لتوها من الولايات المتحدة الأمريكية منتصرة بعد أن حصلت على عقد بألف دولار للكتب الأربعة السابقة لجارثيا ماركيز ، وفكرت فى أن هذه اللحظة المواتية للتعرف عليه شخصياً . وعندما وصلت ذكرت له أنها حصلت على عقد له مع دار نشر هاربر أندرو ، إلا أن زهوها وانتصارها تلاشيا كقلعة من الرمال لأن الكاتب قال لها بصراحة وببساطة ماكان يفكر فيه : أنه عقد "تافه" وبالطبع لم يكن ينتقص من قدر أعماله الأدبية ، بل معبراً عن حالة عدم الحماية التى تتعرض لها حقوق المؤلف وعلى الرغم من احتفاء النقد الدولى به لم يكن يتمتع حتى ذلك الوقت باسم تجارى : فألف دولار مقابل أربع كتب ومن بينها أحد أعماله الكاملة والجميلة التى صدرت باللغة الأسبانية وبالتالي فإن تعاقداً مثل هذا لن يعدو كونه عقداً شحيحاً ضئيلاً .

وقد استقبل لويس بالوماريس وكارمن بالثليس على مدى ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ من قبل أسرة جارثيا ماركيز بالمندبات والحفلات والجولات الليلية بمدينة المكسيك. وكما هو معتاد وتقليدى مع المواطنين القطالونيين كان الحب والود كبيرين ، وإن كان هذان قد ظلّا حائرين فى البداية نظراً للكبرياء والمكابرة اللذين يحير بهما الكاتب الذين يتعاملون معه لأول مرة. ولكن خلف هذه المظاهر الخداعة بدأ مندوباه يكتشفان بسرعة شخصاً

مناهضاً للمهابة وبعيداً عن الشكليات ، شخصاً مرحاً ومازحاً خطيراً ومضيفاً يقظاً وممتازاً. وفي النهاية وقّع لهما عقداً آخر مضحكاً بتاريخ ٧ يولية ١٩٦٥ ، حيث سمح لهما فى حضور لويس بيثينس بتمثيله كمنوبيين أدبيين لكافة اللغات طوال مائة وخمسين عاماً " ، وكما تذكر كارمن بالثليس أن القصة التى ستحول هذا المزاح إلى واقع لم تبدأ كتابتها حتى تلك اللحظة : وسيبدأ ذلك فى الأيام التالية للتاريخ المذكور آنفاً .

إن هذه الأحداث والتواريخ تسمح لنا بالتوصل إلى استنتاج بأن " مائة عام من العزلة " لم يكن من الممكن أن يبدأ جارثياماركيز فى كتابتها فى يناير ١٩٦٥ ، كما أكد ماريو بارجاس يوسا بل من المحتمل فى منتصف يولية من ذلك العام بعد زيارة لويس بالومارس وكارمن بالثليس وفى أعقاب تصوير فيلم " زمن الموت " .

إن البداية لايمكن أن تكون فى تاريخ متأخر جداً فى شهر أكتوبر كما ذكر الكاتب نفسه ، ويبدو من الثابت بالدليل أيضاً من واقع الأحداث التى حدثت ذات ليلة فى أول شهر سبتمبر من العام ذاته ، عندما أهدى جارثيا ماركيز القصة لما رىا لويسا إيليو .

لقد بدأ كل شىء فى ذلك المساء بقصر الفنون الجميلة حيث ألقى كارلوس فوينتيس محاضرة عن قصته الأخيرة " تغيير الجلد " ، وقد قام بتكريم أفضل أصدقاءه على الملأ بتقديره لهؤلاء ومن بينهم جابرييل جارثيا ماركيز. "الذين تربطنى بهم شعائرنى ولقاءاتنا أيام الأحد هذا فضلاً عن إعجابى الخاص بشاعر أراكاتاكا الحماسى^(٢٥) " ، وفى نهاية الدردشة دعا ألبارو موتيس إلى منزله عدداً من الأصدقاء : كارلوس فوينتيس وريتا ماثيدو وجابرييل جارثيا ماركيز وزوجته مرسيدس وخومى جارثيا أسكوت وماريا لويسا إيليو وإيلينا جارو وفرناندو بنيتيث وفرناندو ديل باسو ، حتى تم تشكيل مجموعة من عشرة أفراد أو من اثنى عشر فرداً وملهماً بهذا الجو الخصب ، وبعد الخروج من قاعة الفنون الجميلة بدأ جارثيا ماركيز يحكى لهم حكايات بوينديا فى الشارع والسيارة وعلى درجات السلم ، حتى وصلو إلى شقة ألبارو موتيس فى ريو أموى ، حيث تحولت المحادثات والدردشات - كما يحدث فى مثل هذه الأحوال - إلى حفلة صغيرة . ومن بين المستمعين الى شاعر أراكاتاكا الحماسى كانت الإسبانية ماريا لويسا إيليو التى نجحت فى أن يحكى لها فى ثلاث أو أربع ساعات أحداث القصة كاملة ، وعندما أشار

الكاتب إلى حكاية القسيس الذى يخدم المعبد خرجت مستمعة عن فتنة وسحر السرد ، ووجهت له سؤالها الأول لانعدام المصادقية : ولكن هل يخدم المعبد حقيقة يا جابرييل؟ حينئذ قدم لها تفسيراً ينطوى على مزيد من الفانتازيا : ضعى فى حساباتك أنه لم يكن يتناول شايًا بل كاكاو على الطريقة الإسبانية . وعندما وجد مستمعه خاضعة سألها ماركيز : هل أعجبت بها القصة ؟ . وقد ردت عليه ماريا لويسا إيليو ببساطة : " إذا كنت قد كتبت ذلك فإنها ستكون جنوناً ، جنوناً هائلاً وعجيباً " فرد عليها ماركيز قائلاً : " إنها لك ، إنها مُهداة إليك ، " إن النادرة ليست عبثاً : تؤكد أنه فى أوائل سبتمبر من عام ١٩٦٥ كان جارثيا ماركيز قد قطع شوطاً كبيراً فى كتابة مائة عام من العزلة^(٣٦) ، مما يجعلنا نستبعد أن يكون قد بدأها فى أكتوبر أى فى الشهر التالى لهذا اللقاء .

ولذلك فمن السهل أن يكون جارثيا ماركيز قد بدأ كتابة قصته هذه فى منتصف شهر يولية عام ١٩٦٥ ، وأن الكتابة المستمرة والمتواصلة والمتفرقة لم تبدأ حتى أكتوبر عندما تقلب على الصعوبات الأولية ، وعندما تخلص من ارتباطاته التى قيدته بالسينما والدعاية ، مما يفسر التاريخ المعتم والغامض للأحداث ، ومع ذلك فإن الكاتب متشبث بشهر أكتوبر كتاريخ لبداية كتابة " مائة عام من العزلة " .

ومما لاشك فيه إن لقاءاته مع لويس هارس وكارمن بالثليس ، إلى جانب العدوى وتشجيع كارلوس فوينتيس والإجهاذ والإرهاق من ولعه بالسينما ، ومثله كرجل دعاية وإعلان كانت كلها مُحفِّزات هامة لكى يُقرر الجلوس لىكتب القصة التى ظلَّ يُعدُّ لها طوال سبعة عشر عاماً . ويات من الواضح أن إدراجه فى " كُتَّابنا " إلى جانب الروائيين فى أمريكا اللاتينية كان بمثابة اعتماده على مستوى القارة ، فضلاً عن اعتباره بمثابة مقصورة للترويج لإنتاجه الأدبى (ولم يكن درباً من العبث قيام جارثيا ماركيز بإعطاء معلومات موسعة إلى لويس هارس عن قصته التى لا تزال فى المهد فى نوفمبر ١٩٦٥) . فكتبه الأربعة المنشورة لم تكن فقط ترتقى لمرتبة كتب الروائيين الآخرين بل كان ماركيز قد بدأ الكتابة قبل كارلوس فوينتيس نفسه وكذلك ماريو بارجاس يوسا . ومع ذلك استمرت تعاسته المستوطنة: فقد ظلَّ بين هؤلاء الكُتَّاب أقلهم نشرًا وترجمة وشهرة ، على الرغم من أن بعض كبار الناشرين المكسيكيين كانوا أصدقاءه ، ولكنهم لم يجرؤا على نشر كتبه لاعتباره كاتباً للأقلية من القُرَّاء ، وكان هذا لا مناص منه . ولذلك فبغريزته

لاقتناص الفرص الحاسمة لكي يُقدِّمَ على الخطوة العملاقة وجدنا جارتيا ماركيز يغتتم فرصة إدراجه في كتاب "كُتَّابنا" لكي يجلس ليكتب "مائة عام من العزلة".

ولم يكن اللقاء مع لويس هارس هائلاً فقط كحافز خارجي ، بل أيضاً لأن هارس هو الذي سيأخذ كتبه بنفسه ليقدمها إلى المدير الأدبي لدار نشر أمريكا الجنوبية في بوينوس أيرس ؛ فرانثيسكو بوروا وهو الشخص الأساسي الذي اعتمد عليه لنشر "مائة عام من العزلة" ، وإلى جانب كارمن بالثليس شارك هارس في الترويج للكتب السابقة التي كان قد أعدّها جارتيا ماركيز .

كما كانت زيارة المندوب القطالوني بمثابة حافز آخر على درب الإقدام على الخطوة العملاقة التي كان الكاتب يرغب فيها ، وليس ذلك فقط لأن جارتيا ماركيز استطاع إثبات سماته وخصاله الإنسانية والمهنية (نفس الخصال والسمات التي تقصوا بشأنها في برشلونة عندما سألوا عنه لويس بيثينس وبيثينتي روخو) ، بل أيضاً لأن نبأ العقد المشار إليه أنفأ ذى الألف دولار كان بمثابة تأكيد لإحباطه ويأسه الباعث على الأمل: فعلى الرغم من النقد الممتاز ، فإن كتبه السابقة لم تستطع المنافسة وتجد رواجاً كبيراً وعلى وجه الخصوص "العقيد لا يجد من يُراسله" ، ولكي يكون كاتباً ذا رواج كبير ، وهذا ما كان يتوق ويبحث عنه لم يكن كافياً أن يكون كاتباً كبيراً وأن أصدقائه يحبونه حباً جماً ، بل كان يفتقر إلى شيء أكبر من ذلك أو شيء آخر ، وعليه هو أن يحققه الآن وإلى الأبد بكتابة قصته العظيمة عن ماكوندو.

ومن المحتمل كما يقول ألفونسو فوينمايور أن يكون الكاتب في تلك الأيام قد قام برحلته إلى بارانكيا بغية جمع معلومات تكميلية لاستعادة رائحة الجوافة ، وقضاء عدة أيام مع أهله وأصدقائه. ومع ذلك وضد ما كان ينويه في البداية هو قضاء شهر هناك ، فإنه بعد مرور أسبوع غير رأيه وفكرته وعاد إلى المكسيك. وعندما ذكره ألفونسو فوينمايور بأن هذا خلافاً لما كان قد وعد به في البداية قال له جارتيا ماركيز : إنه رأى الليلة البارحة (قصة المنزل في غاية الوضوح) ، لذلك يتعين عليه العودة إلى المكسيك وأنه في وضع يسمح له الآن بإملاء القصة كلمة كلمة على ناسخة الآلة الكاتبة. وفي الباخرة التي أقلته من قرطاجنة إلى بيراكروث اتضحت له القصة كاملة ، ولكنه عندما

وصل إلى المكسيك كانت المشكلة الأساسية لا تزال قائمة: النغمة. وكان ذلك عندما بدأ الكاتب وأسرته السفر إلى أكابولكو وهو شبه مذهبول. وخلال هذه الرحلة اتضح له الأمر تماماً وهو يقود سيارته الأوبيل البيضاء ؛ وهو كيفية كتابة قصته البعيدة - النهر^(٣٧) ؛ نفس القصة التي كان قد شرع في كتابتها على أوراق الصحف في قرطاجنة الهندية في منتصف عام ١٩٤٨ . ونظراً لأنه كان يحتاج إلى نغمة مقنعة تماماً تجعل عالم ماكوندو غير المتجانس قابلاً للتصديق . وقد أدرك توأ أن حل المشكلة كان في أصل " مائة عام من العزلة " ، وأنه ينبغي أن تُروى بنفس " الوجه الصارم " الذي كانت جدته ترانكلينا إجواران كوتيس تحكى له به وهو طفل قصص وحكايات الفانتازيا ، وكانت الصورة التي تذكر أنه رأى عليها عمته فرانثيسكا ثيموبوسيا ميخيا وهي تصدر أوامرها وتعليماتها لمجموعة من الأطفال لكي يشعلوا ناراً في فناء منزل أراكاتاكا لإحراق " البيضة المشوهة " . وبالطبع كان أيضاً نفس " الوجه الصارم " الذي ملا به خوان رولفو مقاطعة كوما لا بالأشباح والأرواح التي تذهب وتجي . وفي خط موازٍ لحل مشكلة النغمة رأى الكاتب إلى أين ينبغي عليه الوصول منذ أن كتب قصته الأولى: ليس فقط إلى المنزل الذي ولد فيه بل إلى اللحظات المفقودة عندما اصططحبه جدّه إلى السيرك والسينما والقدّاس أو للزّمة. وفي الواقع كان يحاول الوصول إلى أبعد من هذا وحل مشكلة النغمة التي تحلّ بصورة طبيعية وتلقائية في رواياته السابقة.

إن محاولة الاعتكاف للشروع في أطول رحلة له فشلت بعد أيام قليلة من الشروع في المحاولة ، بسبب ارتباطاته التي لا فكاك منها مع السينما والدعاية والإعلان. وكانت هذه الارتباطات بمثابة أكبر عائق على هذا الدرب فرمّل حماسه الخلاق ، وقد أصيب الكاتب طوال بضعة أسابيع بصداغٍ شديدٍ في رأسه لأن جسده وروحه كانا مشغولين تماماً من جانب القصة. حينئذٍ ابتعد عن الحياة الاجتماعية وعن الجماعات الأدبية والسينمائية ، وتحذّث مع رؤسائه ، وتخلص من الأعمال التي لم تكن تسد الرموق ؛ تلك الأعمال التي وصفها تهكمًا بأنها أعمال غذائية. ويتذكّر ذلك إيميليو جارتيا ريبيرا كاتب قصة سيناريو " لا يوجد لصوص في هذه القرية " أنه اضطر أن يحل محله في والتر ثومسون ، وعندما ودّعهم أخبرهم بأنهم سيرونه قليلاً ، وأنه سيحبس نفسه ليكتب قصة وسيتفرغ لذلك تماماً^(٣٨). وقد تحدّث جارتيا ماركيز مع ألبارو موتيس لكي يساعده إلى

جانب القليل من المدخرات التي كانت لديه ومبلغاً تركه له صديقه استطاع أن يجمع خمسة آلاف دولار أعطاها لزوجته مرسيدس ، وتوسَّل إليها أن تتكفل بكل شيء ، وألا تزججه بأي شيء خلال ستة أشهر على الأقل سيحبس نفسه ليكتب القصة. وفي الواقع استمرت هذه المدة أربعة عشر شهراً.

وفي "حي سان أنخيل إن" حيث كان قد استأجر شقة قبل ذلك ببضعة شهور كانت هذه الشقة هي الخلة الهادئة المناسبة التي كان يحتاج إليها. وجدير بالذكر أن أبناء الطبقة المتوسطة والتجار والكتاب والصحفيين كانوا يتوجهون إلى هذا الحي كملاذ للراحة وطلباً لنقاء الجو والهواء ، فقد كان الحي بين أشجار الصنوبر والحوار والدرء والتين وزهر العسل. وكان حياً سكنياً ذا هندسة معمارية غير متجانسة وشوارع مرصوفة بالأحجار والزلط ، ومن خلال هذا الحي كان سكانه يستطيعون مشاهدة البراكين الطيفية والجبال ذات اللون الأرجواني ، لأن العاصمة التي بلغ تعدادها سبعة ملايين نسمة لم تعد "منطقة نقية الهواء" ، وبالنسبة لأسرة جارثيا ماركيز فإن "حي سان أنخيل إن" أصبح مجاوراً لكارلوس فوينتيس في شارع ثيرادا جاليانا رقم ١٦ وخومي جارثيا أسكوت وماريا لويسا إيليو في شارع كارياتوس رقم ١٤ ، فقد كانوا يعيشون على مقربة من أسرة جارثيا ماركيز في شارع لوما رقم ١٩ قريباً من الأرياف.

كان المنزل يتكوّن من طابقين وأسقف مستوية ، ونوافذ كبيرة حيث كان نصف ضوء النهار يتسلل إلى داخل المنزل. وحقيقة لقد كان المنزل كبيراً بالنسبة لأسرة جارثيا ماركيز وإمكاناتها المادية ولكنه كان مناسباً لكي يتفادى كراهيته للحبسة والأماكن المغلقة ، وكانت هذه عقدة فطرية لدى الكاتب ، كما كان المنزل أفضل خلوة هادئة يتوق إليها الكاتب. وفي آخر حجرة الجلوس أعد جارثيا ماركيز غرفة مكتبه بوضع حائط خشبي: "كهف المافيا". لقد كانت مكاناً ضيقاً ولكنه جيد التهوية والإضاءة ، فطولها ثلاثة أمتار وعرضها متران ونصف المتر، كما كانت مزودة بحمام صغير وباب ونافذة تطلُّ على الفناء وكان بها ديوان وأرفف عليها كثير من الكتب ومنضدة خشبية عليها آلة كاتبة ماركه أوليبتي. وقد علّق على هذه الأرفف لوحة تافهة كانت مثار المزاح والنكات من جانب الأصدقاء: جنية ماء سميكة أشبه بثدي كبير يضطجع على وسائد ، بينما كان إليها الحب السمينان مصنوعين من نفس الخامة ، وعلى عنقهما إكليان من الزهور وردية

اللون. وفوق الديوان وضع لوحة زيتية أقل تكلفاً من الأخرى ، ولكنها كانت مُفعمةً بالسذاجة : كانت عبارة عن طفلين يجمعان الزهور على حافة هوةٍ فى حراسة ملاك عن كُتب ، بينما الكاتب يرتدى أفروله الأزرق كميكانيكى كان يجلس بجوار مدفأة كهربائية وهو يناضل ضد ملاك الشر فى ماكوندو.

أما باقى المنزل فكان مملكة مرسيدس: منزلٌ كبير من طابقين به قليل من الأثاث وفناء صغير فى ظلال أشجار الدرداء وحديقة مكسوة بالعُشب أمام الجراج حيث كان يلعب رودريجو وجونثالو كل مساءً بعد عودتهما من المدرسة. وبالتحديد أسهمت مواعيد مدرسة الطفلين فى تغيير جدول مواعيد الكاتب فإلى عهدٍ قريب كان جارثيا ماركيز لا يزال كاتباً ليلياً (فى الواقع كان خلال ساعات فراغه من الأعمال الغذائية : العمل فى المجلتين والسينما والدعاية والإعلان ، لم يكن يكتب بل كان يقوم بتمرينات الجمناز لتتمة عضلاته)^(٢٩) ، نظراً للقصور الذاتى الذى كان يعانى منه منذ ممارسته للصحافة حتى أشارت عليه الحياة بأن ساعات الصباح هى بمثابة الجزيرة المهجورة وهى المُنى للكتابة. وبهذا الشكل ، أى أنه بعد أن يترك نجليه فى مدرسة ويليام بالقرب من منطقة لاس أجيلاس كان جارثيا ماركيز يحبس نفسه فى غرفته التى أطلق عليها كهف المافيا فى تمام الساعة الثامنة والنصف صباحاً ، وكان يكتب خلال هذه الفترة دون انقطاع حتى الثانية والنصف ظهراً عندما يحين موعد مجئ نجليه لتناول طعام الغداء.

وكان عمرُ رودريجو وجونثالو فى تلك الآونة سبعة وأربعة أعوام على التوالى. ويتذكران كيف أن والدهما كان يحبس نفسه فى غرفته الصغيرة فى نهاية الصالون وأنه بعد الغداء كان ينام القيلولة قليلاً ، ثم يتنزه وقتاً قصيراً فى الحى ، ثم يعود مرةً أخرى إلى الحبسة حتى الساعة الثامنة والنصف مساءً حيث كان الأصدقاء يتوافدون بصفة دائمة ومنهم ألبارو موتيس وكارمن ميراكلى وخومى جارثيا أسكوت وماريا لويسا إيليو. وخلال أربعة عشر شهراً كانت أسرنا الصديقين شهوداً متميزين لإعداد وكتابة وتطور الألف قصة وقصة لبوينديا والمصير المرعب لماكوندو.

وعلى عكس وجهة نظر ولديه كان جارثيا ماركيز يشعر خلال شهور محبسه بأنه الرجل الأكثر إنسانية واجتماعية فى العالم ، بل كان الأكثر سعادة لأنه على الرغم من

الصعوبات الاقتصادية للشهور الأخيرة حيث كانت مرسيدس تدير المنزل على نمط عمته أورسلينا بصرامة وخبرة وحكمة وحنكة ، فإنَّ الكاتب لم يكن فقط يلتقى يومياً مع أسرة بوينديا وأناس كثيرين من ماكوندو بل كان أيضاً يعتقد أنه يخترع الأدب: هكذا كانت تنساب الكلمات والقصاص التي تتدفق من خياله. ولكنه لم يعيش دائماً في إعداد كتابه كعبد من أعياد الخصوية. لقد تذكَّر البداية - على سبيل المثال - بأنَّها كانت صعبة وشاقة للغاية. وعندما استطاع في النهار أن يخط العبارة الأولى : " بعد سنوات طويلة وأمام كتيبة الإعدام كان على العقيد أوريليانو بوينديا أن يتذكَّر ذلك المساء البعيد عندما اصطحبه والده لكي يعرف الجليد على الطبيعة " ، وتسأل خائفاً " عجباً ما الذي سيأتى بعد ذلك " ، وحتى العثور على السفينة في قلب الغابة (في نهاية الفصل الأوَّل) لم يصدق حقيقة أن هذا الكتاب بوسعه الوصول إلى أى مكان. ولكن اعتباراً من تلك اللحظة بدأ التحمس المسلى للغاية^(٤٠) ، وبالطبع كان ينبغي أن يكون مسلياً حتى بالنسبة لجارثيا ماركيز لأنه يكتب بهذا اللطف وتلك الإنسيابية غير المعهودين من قبل في اللغة الإسبانية وهو يرى ميليكياديس وهو يجرُّ مغنطيساته ويصيح قائلاً : إنَّ الجمادات لها حياتها الخاصة والأمر فقط يتعلق بإيقاظها ، فالروح على سبيل المثال ، كما نرى خوسيه أركاديو بوينديا وهو يتعجب من السحر غير المحدود للفجرى أو نرى القسيس نيكانور رينا وهو يهذى بعد أن تناول فنجاناً من الكاكاو ، أو نرى خوسيه أركاديو بوينديا وهو يحاول إعادة تركيب آلة الذاكرة لكي يسجل بكل دهشة جميع الاختراعات أولاً وحتى لا يتعرض لوباء النسيان في وقت لاحق ، أو عندما نرى الحسناء ريميديوس وهي تصعد إلى السماء بجسدها وروحها في ملاءة من خيوط الدوبارة أو من القُتَب كانت لفرناندا ديل كاربيو عبر الحديقة متعددة الألوان التي تمتع بها الكاتب في منزل جديّه.

ولم يكن كل شيء تسلياً بالنسبة لعالم الكاتب نفسه ، فأخطر لحظات حياته التي عانى منها أيضاً في كهف المافيا . فموت العقيد أوريليانو بوينديا على سبيل المثال يقارن فقط بذلك المساء الحزين والمشنوم خلال شهر يناير عام ١٩٤٢ بعد وصوله بقليل إلى بوجوتا وهو لا يزال في السادسة عشرة من عمره عندما اضطر للبكاء في شارع خيمينيث دى كيسادا أمام مبنى المحافظة ، أو ذلك اليوم في أكتوبر ١٩٧٢ عندما بكى بكاءً مرّاً في برشلونة لوفاة صديقه ألبارو ثيبيدا ساموديو أشهر وأعظم أعضاء جماعة

مازحى الكهف". وأثناء التطور الطبيعى للقصة فإن العقيد أوريليانو بوينديا أصبح عجوزاً بعد أن أعدَّ وجهٌ وخسر اثنتين وثلاثين حرباً ، وبعد أن أنجب سبعة عشر ابناً من سيدات مختلفات ، وبعد أن بقى على قيد الحياة من كتيبة الإعدام ، وبعد أن ظلَّ حياً عَقَبَ محاولة انتحار ، وبعد تناول جرعة كبيرة من الاستركنين كافية لقتل حصان. عندما وقع فى الدائرة المفرغة لوحده وعزلته وهو يصنع حُلِيًّا من الذهب على شكل أسماك صغيرة لكى يصهرها ويُعيدُ صناعتها من جديد ، أدرك جارثيا ماركيز أنه فى الواقع كان يؤجل إحدى اللحظات المتناهية الصعوبة فى حياته بأسرها ألا وهى موت العقيد أوريليانو بوينديا. وبما أنه كان دائماً تَوَاقُفاً لكتابة رواية تصف بدقة بالغة لحظة بلحظة يوماً فى حياة شخص حتى يموت (ربما بسبب عدوى أوليس والسيدة مالوى) ، حاول أن يعطيه هذا الحل الأدبى لموت شخصيته ، ولكنه أدرك فى الحال بأن الكتاب سيتحول إلى شىء آخر تماماً. حينئذٍ اختار شيئاً آخر أكثر بساطة: أن يموت العقيد وهو يتبول فى ظل شجرة القسطل (أبوفروة). وفى الواقع كان هذا هو الموت المكتوب على العقيد لأنَّ جارثيا ماركيز كان يعلم على مدى سنوات طويلة أن عسكرياً عجوزاً شَهِدَ الحرب الأهلية فى كولومبيا قضى نحبهُ وهو يتبول تحت شجرة. حينئذٍ وفى صباح مطير من شهر أكتوبر (وهو الشهر الذى يعتبره جارثيا ماركيز فى قصصه شهراً قاسياً) لقي العقيد أوريليانو بوينديا حتفه وهو يفكر فى السيرك ، وبينما كان يتبول ظلَّ يفكر فى السيرك ولكنه لم يجد الذكرى. وضع رأسه بين كتفيه مثل كتكوت صغير ، وظلت جبهته مستندة إلى جذع شجرة القسطل" ، وفى ذلك المساء صعد جارثيا ماركيز إلى غرفة النوم فى الطابق الثانى من المنزل حيث تنام مرسيدس القيلولة وأبلغها بوفاة العقيد ونام بجوارها وظلَّ يبكى ساعتين كاملتين^(٤١). وبعد ذلك بقليل عندما ذهب إلى منزل خومى جارثيا أسكوت وماريا لويسا إيليو وصل إليهما ومحياه أزرَق اللون ضارب إلى السواد وعبوس وقد سألاه عما حدث له فقال لهما: لقد قتلت تَوَاقُفاً العقيد أوريليانو بوينديا^(٤٢). ولم يكن سهلاً ميسوراً له وفاة أرسولا إجواران ، أو هروب سانتا صوفيا دى لا بيداد (صوفيا قديسة الرحمة أو الشفقة) بلا جنوى بعد أن ظَلَّتْ تقدِّم خدماتها على مدى نصف قرن دون شكوى واحدة فى منزل أسرة بوينديا ، أو اللحظة التى كان مدفوعاً فيها بالخراب والدمار المحموم لماكوندو. لقد ودَّعَ العالم القطالونى أصدقاءه وعاد

إلى قريته مسقط رأسه لاردة . ومن هذه القرية كان الذهول والذعر يستحوذان عليه بسبب اشتياقين متقابلين كمرأتين. " كان يرسل لهم خطابات يشرح لهم واقع الأحداث بوضوح وشفافية وطلب منهم: الذهاب إلى ماكوندو وأن ينسوا ما علمهم إيّاه عن العالم والقلب الإنساني ، وأن يسبوا أوراثيو ، وأن يتذكروا في أى مكان يتواجدون فيه أن الماضي كان كذباً ، وأنّ الذاكرة ليست لها دروب للعودة ، وأنّ كل ربيع ماض لا يمكن استرجاعه ، وأنّ الحبّ الأحمق والعنيد كان على أية حال حقيقة فانية سريعة الزوال .

ومع ذلك فإنّ لحظة الحيرة الكبيرة التي عانى منها جارثيا ماركيز كانت عندما أوشكت القصة على النهاية. فبعد شهور كثيرة من التعايش مع القصة ليلاً ونهاراً ومع شخصياتها الخيالية ، وذات يوم فى منتصف عام ١٩٦٦ أحس الكاتب أن قصة ماكوندو وأسرة بوينديا قاربت النهاية بصورة طبيعية ، وأنّ ذلك سيكون يوم العمل الأخير ، ولكن الأمور تسارعت فجأة فى تمام الحادية عشرة صباحاً. وبما أن مرسيدس لم تكن بالمنزل ولم يجد أحداً من أصدقائه وشركائه على الهاتف لى يحكى له شيئاً. فقد كان يحاول اختراع شىء لى يستطيع البقاء حتى الساعة الثالثة مساءً^(٤٣) ، واعترف بعد عام لاحق بأنه بعد كتابة " مائة عام من العزلة " أحس بالفراغ وكأنّ أصدقاءه وافقهم المنية^(٤٤).

هكذا كانت حالة الاستحواذ المطلق التي كانت ماكوندو وشخصياتها تمارسها على جارثيا ماركيز. وإذا لم يكن الأمر بسبب العوز والفقر خلال الشهور الأخيرة ، فإنّ حالة الجنون هذه كانت ستستمر حتى مارس ١٩٦٧ (كما سبق أن أبلغ الكاتب ذلك للويس هارس فى رسالته المؤرخة فى نوفمبر ١٩٦٥) ، حيث اضطر لحذف جيلين من أسرة بوينديا وإغفال بعض الشخصيات ، وحذف عدة أحداث لأنه كان قد تأخر فى سداد قيمة الايجار لصاحب المنزل طيلة ستة أشهر وعدة أشهر للقصاب (الجزائر) وببساطة شديدة كان الكاتب قد رهن كل شىء^(٤٥).

وبنفس الهدوء والتلقائية التي استطاعت فيه مرسيدس إدارة منزلها بحكمة بالغة أثناء فترات الرخاء والوفرة الاقتصادية ، استطاعت أيضاً أن تُدير شهور النُدرة والعوز والفقر عام ١٩٦٦ (إنّ تلك الفترة يمكن مقارنتها فقط بما عانى منه الكاتب أثناء وجوده فى باريس عام ١٩٥٦ ، ومن العجيب أنّ ذلك قد حدث له وهو يكتب رائعته

الأخرى "العقيد لا يجد من يُراسله" فعندما سلّمها زوجها الخمسة آلاف دولار فى منتصف العام السابق (١٩٦٥) دبّرت مرسيدس أمرها لكى تستطيع هذه النقود تمويل المنزل لمدة ستة أشهر خلالها سيكتب القصة كما وعدّها بذلك ، ولكنها عندما وجدت أن النقود قد نفدت وهو لا يزال فى منتصف القصة ، وقال لها : لا يوجد حل آخر يمكننا الإقدام عليه ، وأخذ سيارته الأوبيل البيضاء التى كان قد اشتراها بالجائزة التى حصل عليها عن قصته "الساعة المشنومة" ، ورهنها فى بنك الرهون وأخذ مقابل ذلك مبلغاً من المال^(٤٦). وفى الواقع إن نقود رهن السيارة لم تكف سوى ثلاثة أو أربعة أشهر فقط. وكانت مرسيدس تعلم جيداً أنه على الرغم من أن السبب كان قهرياً ، فإنه لا ينبغى عليها أن تزج زوجها لتذكره بواجباته كلما أوشكت النقود على النفاد. ولذلك بدأت ترهن بعض حليها وجواهرها والتلفاز والمذياع حتى لم يبق لديها سوى " آخر ثلاثة مواقع عسكرية" السيشوار (مجفف ومصفف الشعر) ، والخلط الذى كانت تجهز به الطعام لطفليها ، والمدفأة التى كانت تساعد زوجها أثناء الكتابة أثناء الأيام الباردة صباحاً ومساءً بالمدينة ، وذلك "لأن مدينة المكسيك أشبه بالثلاجة بداخلها مدفأة". وبينما كانت تسد ثغرات الحياة المعيشية يومياً برهن هذا وذاك (وذلك دون أن ينقص الزوج الخمسمائة ورقة اللازمة للكتابة من ورق الصُحف ، وقد استطاعت بدمائة خلقها أن يقوم قصّاب الحى السيد/ فيليبى بتزويدهم باللحم حتى يتيسر لها السداد ، كما أن صاحب المنزل لويس كودريير وافق أيضاً على أن يستمر فى مسكنهما حتى ييسر الله لهما ويسددا قيمة الإيجار. ولم يكن ذلك إلا إسهماً منهما فى أن يكتب جارثيا ماركيز رائعته القصصية. ويعد ذلك بثلاثين عاماً تقريباً سيظل صاحب المنزل لويس كودريير سعيداً لحسن صنيعه، وكان دائماً يتذكر أن أسرة جارثيا ماركيز كانت تسدد قيمة الإيجار فى الأيام المحددة دون أدنى تأخير أو تسويف^(٤٧).

وعلى الرغم من هذا فإنّ الأصدقاء نفوا ذلك أو لم يعيروه اهتماماً مشيرين إلى التفاهم حول صديقهم كى يساعده وأسرته فى وقت عسره. وقد تحمل كل من ألبارو موتيس وكارمن ميرالكى وماريا لويسا إيليو وخومى جارثيا أسكوت المسؤولية دون تبرم أو ضجر لسببين: أولاً بسبب الصداقة ، وثانياً من أجل الأدب. ومما يثير الإعجاب فعلاً أن ما فعلوه لم يكن تضامناً أخوياً فقط بل كان ذلك يتم فى سرّية تامة وبخجل وحياءٍ

جم ، فلم يتحدثوا عن ذلك قط. كما لم يفخروا أو يزهوا بمساعداتهم التي لم تتأخر خلال شهور الشدة عندما كان جارثيا ماركيز يكتب " مائة عام من العزلة " ، وإذا كانت هذه المواقف النبيلة قد عُرِفَت فيما بعد ، فقد كان ذلك بسبب الاعترافات المتفرقة لجارثيا ماركيز أو بسبب خيانة أصدقاء ومقربين آخرين^(٤٨). وإذا تحدث الأصدقاء المقربون عن شيء لم يكن ذلك لإبراز حسن صنيعهم وشهامتهم ، بل كان لسرد بعض النوادر التي عاشوها أو عرفوها كشهود عيان لكتابة القصة.

وكانت الأسرتان الصديقتان تأتيان إلى رقم ١٩ شارع لا لوما حوالى الساعة الثامنة مساءً ، أحياناً قبل أن ينتهى الكاتب من واجبات اليوم التالى (ففى المساء كان معتاداً على توثيق أوراقه وترتيب ملحوظاته وإعداد خطة العمل لليوم التالى) ، ولذلك كانت الأسرتان تنتظران حتى يُفتح باب كهف المافيا ، فموتيس الذى لم يكن معتاداً على المبالغة يذكر أن صديقه كان يخرج وكأنه انتهى من مباراة ملاكمة من اثنتى عشرة جولة : لقد كان ذلك شيئاً فظيلاً ، ويعد أن يؤى رودريجو وجونثالو إلى فراشهما كان الأصدقاء الستة يتسامرون حتى الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة ليلاً وهم يتناولون الكنوس من قنينة ويسكى. وكانت الدردشات دائماً تدور حول القصة ، فقد كانت بمثابة الابنة المنتظرة المدلة من الجميع ، كما تناول الحديث موضوعات أخرى: الموسيقى والسينما والأصدقاء والحياة اليومية (أى موضوعات الحياة اليومية يوماً بعد يوم) . وأثناء الدردشة كان القصاص يطلق بعض الأسئلة تتعلق بكم الموضوعات التى لا حصر لها لما يدور فى القصة من أحداث اعتباراً من الجنس بين الجمبرى أو برغوث البحر ، وعادات بعض الحشرات ، حتى الطرق والوسائل المتعددة لقتل الصراصير فى العصر الوسيط ، وعادات بعض الشخصيات التاريخية. وكان هذا أمراً طبيعياً: فكل الأصدقاء يعرفون شغفه بالتوثيق ، ولقد رأوا أسبوعاً تلو الآخر نصوصاً لا حصر لها فى الكيمياء وروايات البحارة ووصفات إعداد الوجبات الغذائية ، وكتباً فى الطب المنزلى ، وأخباراً عن الأوبئة فى العصور الوسطى ، وكتباً فى السموم وأدويتها وأنباء عن بلاد الهندو الحمر ، ودراسات عن مرض الأسقربوط والبرى برى والبلاجرا ، وكتباً عن الحروب الأهلية الكولومبية والأسلحة النارية القديمة ؛ هذا فضلاً عن الخمسة والعشرين جزءاً التى تتألف منها الموسوعة البريطانية ، ومعاجم اللغة المتنوعة كل هذا كان يتراكم على مكتب جارثيا ماركيز.

إنَّ هذه اللقاءات اليومية الليلية الحميمة كانت بمثابة شراكة شاملة ، وقد أصبحت اجتماعات مفتوحة أيَّام الأحد مساءً في منزل ماريا لويسا إيليو وخومى جارثيا أسكوت ، حيث كان يحضرها كل من ألبارو موتيس وكارمن براكلـى فضلاً عن أسرة جارثيا ماركيز مع نجليهما وأصدقاء آخرين مثل كارلوس فوينتيس وريتا ماثيو (قبل انتقالهم إلى باريس) ، وألبارو بيثينتى روخو وإيميليو جارثيا ريبيرا وخوسيه لا كولينا وأرتورو ريبستين ولويس الكوريثا. وفى الواقع كانت هذه هى اللحظة الوحيدة الأسبوعية التى كان ساكن كهف المافيا يخرج فيها أولاده للتزّه قليلاً ، فضلاً عن رؤية أصدقاء آخرين، وذلك لأنَّ نجليه كانا أثناء كل مساءً فى الشهور الأخيرة قد اعتادا على الذهاب إلى منزل أسرة جارثيا إيليو عقب خروجهما من المدرسة لكى يلعبا مع ديجو نجل هذه الأسرة.

وعلى عكس هؤلاء والناقد إيمانويل كاربايو الذين كانوا قُراءه اليوميين لقصة "مائة عام من العزلة" وقد رفض ألبارو موتيس منذ البداية الاطلاع على القصة فى أجزاء فقد كان يريد القصة بأكملها ، ولكن على أية حال كان يعيش ويتعاشى معها يومياً من خلال ما يذكره ويعلق عليه الأصدقاء الآخرون وجارثيا ماركيز نفسه. ويقول الكاتب : "إنَّ ألبارو موتيس كان يسمع الفصول بعد الانتهاء منها تماماً وبحماس شديد ، لدرجة أنه كان يكرر ذلك فى كل مكان بعد تصحيحها وتنقيحها وإضافة ما يراه مناسباً. وقد كان أصدقاء موتيس يحكون ذلك لجارثيا ماركيز كما حكاه لهم صديقه ألبارو ، وكثيراً ما استحوذت على كل إضافاته"^(٤٩). فبالنسبة لألبارو موتيس مُبدع ماكرول الجابيرو فإنَّ هذه الكلمات ما هى إلا كرم وسخاء من جانب جابو ، وبعد سنوات طويلة علِمَ جيداً ما هى الأماكن التى وطأها القصّاص ، لدرجة أنه لم يكن معتاداً التحدّث كثيراً عما كان يحكيه له أثناء كتابته "مائة عام من العزلة". ولكنه كان يعترف ، فكما حيرت حكاية القسيس الذى كان يتناول الكاكاو وهو يعظ مريديه ماريا لويسا إيليو : ذات ليلة وصل هو وكارمن إلى حى سان أنخيل إن حيث خرج جارثيا ماركيز وقال له : لقد كتبت مَشْهُداً لقسيس يتناول الكاكاو وهو يعظ مريديه ، حينئذ قال ألبارو موتيس : "يا لهول! إنَّ هذا الرجل أفسدَ القصة فلا يمكن أن يتناول قسيس الكاكاو وهو يُقيمُ القدّاس ! وخلاصة الأمر أنَّ جابو ليس قصاصاً شفهياً مُجيداً لقصصه ، فهو يوجز بشكل كبير ، ودون أن يدري يفعل

ذلك بصورة مضحكة ساخرة. وبالتالي يُحوّل قصته إلى كاريكاتير دون أن يدرك ذلك ، ولكن عندما أكمل القصة وأعطاهما إيّاي ذهلتُ : لقد رأيت فى هذا الكتاب بسهولة كبيرة الكتاب، أعنى: الكتاب العظيم عن أمريكا اللاتينية.

وعلى العكس من ذلك فإنّ أسرة جارثيا إيليو قرأت القصة على أجزاء وهى ساخنة ، وكانت على علم بكل دقائقها وأسرارها يوماً بيوم وهى على الآلة الكاتبة ، وخاصة ماريا لويسا إيليو لأنها منذ أن حكى لها جارثيا ماركيز تلك الحكاية بأكملها ذات ليلة فى أوائل شهر سبتمبر ١٩٦٥ فى شقة موتيس أصبحت مدمنة للكاتب الكولومبى لا تشعب من القراءة له ، ولذلك فإنّ رواية ماكوندو جعلتها مستمعة لها ، وفى نفس الوقت شريكة رئيسية للكاتب. فكان أحياناً يتصل بها هاتفياً ويقرأ عليها الذى كتبه ، وأحياناً أخرى كان يسألها عن كيفية زى أمارانتا أورسولا فى كافة المناسبات، وعندما كان ينتهى من كتابة فصل كان يعطيها نسخة منه لكى تقرأه مع زوجها خومى جارثيا أسكوت ، ولذلك فكلاهما دخل حالة حماس واشتياق متزايدين وفريدين لمعرفة ماذا سيحدث فى الفصل التالى. لقد كانا كما يقول خوسيه دى لاكولينا هما اللذين سردا الأحداث الممتازة بالقصة بالتدرج. وفى الحقيقة لم يستطيعا إجابة سرد الأحداث للأصدقاء ، ومع ذلك فقد اعترفا بأنهما كانا متفاعلين مع القصة الرائعة. لقد كان شيئاً أشبه بالوعظ فى القدّاس ، "وكانا يرددان دائماً : "إنّ جابو يكتب " موبى ديك " أمريكا اللاتينية".

وكان الناقد إيمانويل كاربايو هو القارئ الآخر المبهور من الفصل الأوّل حتى الأخير على مدى اثنى عشر شهراً أو أربعة عشر شهراً هى التى استغرقتها كتابة القصة. وجدير بالذكر أنّ كاربايو كان يُدير مع كارلوس فوينتيس "المجلة المكسيكية للأدب" ، وكان أحد النقاد البارزين فى المكسيك ومن أكبر جراحى الأدب المكسيكى لحقبة السبعينات. كان متزوجاً من نيوس إيسبرياتى الشريكة المؤسّسة لدار النشر الصغيرة المعروفة باسم إيرا وهى الناشرة لجارثيا ماركيز ، والتى كانت تنتظر القصة انتظار الخبز فى الإفطار. وبالتالي فإنّ إيمانويل كاربايو كانت تربطه صداقة وقوة مع القصاص ، وكان يعرف قصصه السابقة اعتباراً من " الورقة الساقطة " ، وبالتالي فإنّ تقييمه للقصة التى كانت تُكتب آنذاك كان عاملاً مؤيداً ومعضداً كثيراً لما حظى بإعجاب القصاص. ومع

ذلك فإنَّ السبب الرئيسي لقراءته القصة جزءاً جزءاً يرجع إلى أنَّ الجامعة الوطنية المستقلة بالمكسيك كانت تنوى إصدار اسطوانة بصوت الكاتب وهو يقرأ أجزاء من القصة فى سلسلة الصوت الحى لأمريكا اللاتينية ، وكان إيمانويل كاربايو المكلف بإعداد المقدمة التى كانت بمثابة التجربة أو البروفة الأولى " لمائة عام من العزلة" والتنبؤ الصائب بما ستكون عليه القصة فى المستقبل^(٥٠) .

وبالطبع كانا يلتقيان أيام السبت فى المساء. وكان جارثيا ماركيز حينما ينتهى من فصل يُسلِّمهُ لكاربايو الذى كأنه يلتهمه التهاماً ويقدمه مع تعليقاته الشخصية عليه يوم السبت التالى. ويقول كاربايو نفسه كانت الفصول كاملة بلا نقص لأنَّه كان يتسلمها بعد تنقيحها وتصحيحها ، ومنذ الوهلة الأولى كان يقول له إنه أمام " تحفة روائية رائعة". لقد وجد نفسه دائماً أمام قصة هائلة ، وكان يقرأها " بشغف كبير ولذة لا تُقارن" ، ومنذ ذلك الحين وهو يعتقد أنها ستكون أعظم قصص جارثيا ماركيز وإحدى أفضل الروايات باللغة الإسبانية خلال النصف الثانى من القرن العشرين. ولذلك فإنَّ درذشاتنا عما كان يقرأه تركزت على الجو العام والشخصيات وأحداث القصص. ولكن لم يؤثر أى من تعليقاتى فى القصة ذاتها.

لقد كان حماس كاربايو يُصيبُ زوجته نيروس إيسبريساتى بالعدوى فصلاً بعد آخر ، وكذلك بيثينتى روخو وأصحاب دار نشر إيرا. وقد سبَّب ذلك إزعاجاً لجارثيا ماركيز حيث اضطر إلى إخبار أصدقائه والناشرين المكسيكيين الذين كانوا متحمسين وينتظرون القصة بفارغ الصبر بأنَّ القصة لن تكون لهم بل لدار نشر أمريكا الجنوبية فى بوينوس أيرس. وبعد أن انتهى جارثيا ماركيز من كتابة القصة شرح لهم وجهة نظره قائلاً: " إنَّ النشر فى الدار المذكورة كان أملاً يراوده منذ زمن طويل ، بل إنَّ دار نشر أمريكا الجنوبية كانت كريمة سخية معه حيث طلبت منه أن تنشر له أعماله السابقة ، وأرسلت له عقدًا وخمسمائة دولار مقدماً لنشر " مائة عام من العزلة " ، وأوضح لهم أن دار النشر إيرا صغيرة ومحدودة ، وأنه كان يرغب دخول السوق الكبير لكى تتم ترجمتها ، والترجمة أحد أحلامه الكبار ودوافعه التى جعلته يأتى إلى المكسيك للمُقام فيها ، والاستقرار بها منذ خمس سنوات مضت. وعلى الرغم من الحزن والألم الذى أحس به هؤلاء ، فإنهم أفضل من فهِم تبريراته ودوافعه لعلمه تماماً بظروفه الاقتصادية

والعُسر الذى يعانى منه كان الرسَّامُ ومصمم الرسومات بيثينتى روخو الذى أعدَّ غلاف الطبعة الأرجنتينية. ولكن التى تأثت وأسفت لذلك أسفًا كبيرًا كانت نيوس إيسبريساتى.

وقبل بضعة أشهر من الانتهاء من كتابة "مائة عام من العُزلة" كان جارثيا ماركيز قد تلقى الرسالة الأولى من دار نشر أمريكا الجنوبية الأرجنتينية ، وقَبِلَ ذلك العرض وكأنه قدر من الأقدار مثل شىء جاء بلا توقع لكى يضع تطلعاته القديمة فى مكانها وموضعها الصحيح. إنه الظهور الذى سيحدد أعمال جارثيا ماركيز قبل وبعد "مائة عام من العُزلة" ، أى بمثابة الحد الفاصل والعلامة المميزة فى حياة المؤلف. ولم يكن الأمر أقل من ذلك . فقد شجع دار النشر لويس بورخيس وأصدقائه فى دار نشر سور فى أوائل حقبة الأربعينيات ، لقد كانت سود أمريكا إحدى دور النشر الأسطورية فى أمريكا اللاتينية ، فهى تضارع سور ولوسادا ومؤسسة الثقافة الاقتصادية التى ملأت القارة بالكتب الممتازة التى أسهم كثير منها فى التكوين الأدبى لجارثيا ماركيز . وعند الانفصال عن دار نشر سور واصلت الدار مسيرتها تحت إدارة القطالونى أنطونيو لوبيث يواساس ، وفى عام ١٩٥٨ دخل فرانثيسكو بوروا كقارئ ومؤسس دار نشر مينوتاورو لكى يصبح بعد ذلك مديره الأدبى. وقد كان هذا من أهم وأبرز الأحداث فى مسيرة سود أمريكا حيث أن باكو أو "القارئ المجهول" كما كانوا يطلقون عليه فى دار النشر كان قارئاً لا يشبع ؛ قارئاً ذا عين طبية لا تُضارع ومروجاً ومتعهداً وراعياً للكتاب الأرجنتينيين والأمريكيين اللاتينيين الجدد ، وقد راهن منذ البداية على كُتاب مثل: خوان كارلوس أونيثى وخوليو كورتثار وليوبولو مارييتشال. ولهذا لا يبنو فجائياً أن يُقدِّم فى أواخر ١٩٦٥ أمام بوروا الكاتب الشيلى الشاب - الأمريكى - لويس هارس بالنسخة الأصلية لكتاب "كُتابنا" ، وهو كتاب يتألف من عدة مقالات صحفية بشكل ذاتى للتطرق إلى أعمال عشرة روائيين كان يعتبرهم من أبرز الكُتاب فى الأدب الأمريكى اللاتينى الجديد. ومن بين هؤلاء جارثيا ماركيز الذى لم يسمع عنه بوروا شيئاً. وقد شرح لويس هارس له من هو جارثيا ماركيز وأين يعيش ، وأعاره الكتب الأربعة التى نُشرت للكاتب الكولومبى من قبل. وبمجرد أن قرأها الناشر كتب رسالة لمؤلفها أخبره فيها بأن كتبه نالت إعجابه تماماً ، ويود إعادة نشرها فى سود أمريكا: هذه الرسالة هى التى وضعت التطلعات القديمة لجارثيا ماركيز ؛ الكاتب الكولومبى فى موضعها .

وقد ردَّ عليه جارثيا ماركيز بأنه سعيد لهذا العرض ، ولكن كتبه مرتبطة مع ناشرين هم إلى جانب ذلك أصدقاؤه (" العقيد لا يجد من يُراسله " ، و " الساعة المشنومة " كانتا في دار نشر إيرا ، و " جنازة الأم الكبيرة " كانت في دار نشر جامعة بيراكروث . أما " الورقة الساقطة " فقد أُعيدَ نشرها في مونتفيدو بدار نشر أركا السفينة) . حينئذٍ عرض القصة التي كان على وشك الانتهاء من كتابتها ؛ إنها قصة كما قال له : علّق عليها كثيراً من الآمال^(٥١) ، وطلب الناشرُ منه أجزاءً من القصة فأرسل له المؤلف الفصول الأربعة الأولى . وبما أن الناشر عرّف كتبه السابقة ، فقد اكتفى بورواً بقراءة بعض الصفحات من الفصل الأوّل لى يأخذ فكرة وليتأكد مثل كارلوس فوينتيس وألبارو موتيس وكاربايو وأسرة جارثيا - إيليو أنه " أمام عمل رائع " ، وبعد ذلك بقليل أرسل له العقد وخمسمائة دولار أمريكي مقدماً . بينما كانت كارمن بالثليس تسعى جاهدة بما لها من خبرة كبيرة مدتها عشر سنوات بسبب صراعاته مع دور النشر ، وكانت تعرف كيف تتحرك جيداً في المضمار البدائي للحصول على ما يُسمّى بحقوق المؤلف . وكانت تحاول جاهدة عبّرَ محادثات هاتفية مباشرة مع مواطن أراكاتاكا أنطونيو لوبيث يواساس مدير وأكبر مساهم في دار نشر سود أمريكا للحصول على عربون أكبر وتعاقد أفضل . ولكن جارثيا ماركيز أصابه التوتر خشية أن تضيق منه هذه الفرصة وألا تُطبع رواياته في دار نشر أحلامه ، وأبلغ مندوبيته قائلاً : " لا تتناقشوا بشأن خمسمائة دولار فإنّ كل ما أتوق إليه هو أن ينشروا لي ، وأنّ ينشروا لي حالاً " . وهكذا - وبدون مزيدٍ من التسويف أو التأخير - وقّع في ١٠ سبتمبر ١٩٦٦ العقد الذي كان قد أرسله له باكو بوروا . وقد نصّ العقد على حصول جارثيا ماركيز على نسبة عشرة في المائة من جملة المبيعات ، وقد نصّ أيضاً على حصوله على عربون قدره خمسمائة دولار أمريكي .

إنّ العقد والتاريخ تبريران جيدان أطاحا بأسطورة كارلوس بارأل الذي رفض " مائة عام من العزلة " . وطبقاً لما ذكره الناشر القطالوني لقد أرسل له الكاتب في لحظة ما برقية اقترح عليه فيها قراءة القصة - وفي هذا يقول بارأل : " لقد وصلت لى البرقية عندما كنت عازماً على السفر ، ولا أدري هل كانت إجازة أو سفر عمل ، ولكن

الأمر يكمن فى أننى كنت بصدد سفر وشيك، ولذلك ، والسبب لم أجد له تبريراً على الإطلاق لم أرد على البرقية فى الوقت المناسب مما جعل جابو يشعر كثيراً بالإهانة واستغنى فيما بعد عن قرأتى للقصة ، وتعاقد فوراً مع دار نشر سود أمريكا . ولكنى لم أر قط مخطوط " مائة عام من العزلة" وما يتردد عن أننى رأيت مخطوط أو أصل القصة ولم أستطع تقديره جيداً ما هو إلا زيف وبهتان^(٥٢). وقد أكد جارثيا ماركيز بعد ذلك بأن هذا كان زيفاً ، وأن القصة شقت طريقها بنفسها دون أن يستطيع كارلوس بارأل نفسه الانتقاص من قدرها أو التقليل من شأنها^(٥٣).

وحقيقى أن أحد قُرَّائه وهو الشاعر جابرييل فيرأتير كان قد قرأ القصة بأكملها أو جزءاً منها ، ولكن فى وقت سابق وبالصداقة ، ويعد شهر من التعاقد مع سود أمريكا تلقت كارمن بالثليس فى مكتبها ببرشلونة بشارع أرجال نسخة من القصة بهدف بذل المساعى لترجمتها إلى لغات أخرى. وقد وصل إعجاب المندوبة إلى سمع فيرأتير بفضل خطيبته ؛ وهى فتاة أمريكية كانت تعمل فى وكالة بالثليس ، وقد طلبت من المندوبة القصة لى تسلمها إلى خطيبها. وكان رد فيرأتير فوراً : وقال لبالثليس إذا تقدمت القصة لجائزة المكتبة المختصرة لدار نشر سيكس - بارأل ستفوز بالجائزة بكل تأكيد. وقد استشارت المندوبة جارثيا ماركيز فى هذا الأمر ، ولكنه رفض العرض ليس فقط بسبب التعاقد الذى وقَّعه مع دار النشر الأرجنتينية ، بل أيضاً لأنه لم يرد أن تُنشر قصته تحت عنوان أى جائزة ، كما أنه لم يرد التقدم مسبقاً إلى لعبة الجوائز اللذيذة على الرغم من أن (المكتبة المختصرة) كانت أشهر جائزة فى مضمارة اللغة الأسبانية.

ولكن رفض الكاتب كان له ما يبرره بشكل مسبق وعميق ، وهو تأكده من أنه كتب عملاً رائعاً ، قصة مثل دون كيشوت ستضع فاصلاً فى تاريخ الرواية فى اللغة القشتالية. ومع ذلك وعلى الرغم من الثقة الكاملة لمسيدس بارتشا فى نبوغ زوجها فإنها لم تكن مقتنعة عندما ذهباً إلى مكتب البريد لإرسال المخطوط إلى دار النشر فى بوينوس أيرس. فبعد عدة أشهر من قيامها ببيع ورهن كل ما لديها تقريباً كانت هذه اللحظة بمثابة انتشال لغريقين يتشبثان بالبقاء على قيد الحياة. لم ينس جارثيا ماركيز صورة مرسيدس وهى تبحث عن البيزو المكسيكى عندما أخبرها موظف البريد بأن الطرد سيتكلف اثنين وثمانين بيزو. وبما أنهما لم يكن لديهما أكثر من خمسين بيزو

قاما بتقسيم الخمسائة وتسعين صفحة إلى نصفين وأرسلا الفصول العشرة الأولى. وتوجها بعد ذلك إلى المنزل ، وأخذوا " المواقع العسكرية الثلاثة الأخيرة " مجفف ومصف الشعر ومدفاته والخلط ، وذهبا إلى بنك الرهون ورهنوها بخمسين بيزو. وعندما خرجا من مكتب البريد القديم يملؤهما الأمل ويحيط بهما اليأس خوفاً من عدم وصول الطرد كانا سعيدين وقانعين لأنهما تركا المولود الضخم يشق طريقه بنفسه بعد أن كان كابوساً يخيم على صدريهما ، ولذلك فإن مرسيدس التي لم تكن قد قرأت الرواية حتى ذلك الوقت (لأنها لم تكن معتادة على قراءة المخطوطات) قالت لزوجها : " يا جابو تصور بعد كل ما فعلنا لو طلعت هذه القصة سيئة " (٥٤).

وعلى الرغم من أنها كانت قد اعترفت قبل ذلك ببضعة أشهر بأن كتابة الكتب "عملٌ انتحاري" ، فإن زوجها لم يحدث أن كان أكثر ثقة وثباتاً وتأكداً من عمله كما هو عليه الآن في هذا الكتاب، فقد كان مقتنعاً في قرارة نفسه بأنه ما لبث أن سلم تحفته الرائعة " ، كما كان قد أكد ذلك لزوجته عندما كانا يطلقان في الجو عقب زواجهما في طريقهما من بارأنكيا إلى كاراكاس أنه سيكتب رائعة أعماله وهو في الأربعين من عمره. ولم يكن يعرف ذلك بنفسه ومن أصدقائه الذين كانوا قد قرأوها : استناداً إلى الشائعة التي بدأت تنمو حول القصة في القارة بأكملها ، وذلك من خلال التعليقات الصحفية ، ومن خلال الأجزاء التي عُرفت من القصة مسبقاً. وقد كان الصوت الاكيد والواثق والمتمرس والأكثر حماسة هو صوت كارلوس فوينتيس الذي تسلم الفصول الثلاثة الأولى من " مائة عام من العزلة " في يونية عام ١٩٦٦ وهو في باريس ، وكتب على الفور في أواخر ذلك الشهر نفسه للحق "الثقافة في المكسيك" في باب " دائماً " (٥٥) تعليقاً مُفعماً بالمدح والثناء والإطراء على قصة صديقه ؛ تلك القصة التي كان ينتظرها منذ أن كانا يضطجعان سوياً على العُشب في حديقة منزله بحى سان أنخيل إن بالمكسيك. وقد شجعه فوينتيس على كتابتها منتهزاً ومستغلاً العمل الغذائي بالسينما (العمل مقابل سد الرُمق). وعلى الفور قدّم فوينتيس هذه الصفحات الخمس والسبعين الأولى إلى خوليو كورتثار ؛ الذي قرأها بحماس مشابه لحماس فوينتيس ، ثم قدّم الفصل الثاني للناقد الأوروغواني أمير رودريجيث مونيغال لى ينشره في العدد الأول من أغسطس لمجلته (العالم الجديد). ومع ذلك فإن الأسبوعية كانت على يد

أصدقائه فى صحيفة الاسبكتادور(المشاهد) فى بوجوتا فى أول مايو كعرفان بحسن صنيع لصحفى الجريدة القديم الذى قدّم لهم شخصياً الفصل الأول فى مارس عندما حضر فى بوجوتا افتتاح فيلم " زمن الموت ". وبعد ذلك جاءت عرابين أخرى من مجلة أمارو فى ليما خلال شهر يناير ١٩٦٧ ومن مجلة إيكو (الصدى) فى بوجوتا أثناء شهر فبراير من نفس العام^(٥٦) .

وبالتالى ؛ فقد وصلت لجارثيا ماركيز مؤشرات كافية بدءاً من التى قام بها أصدقائه فى بارأنكيا لكى يتأكد لأقصى درجة من قصته. ولكن ما لم يتأكد منه هو : هل وصل المخطوط إلى بوينوس أيرس أم لا ، لأنه على الرغم من أن بريد ماكوندو كان بريداً جويّاً ، فقد كان يبدو بطيئاً وكأنه يتم إرساله على بغلة. ولقد استغلّ المساعى الحميدة لصديقه ألبارو موتيس لكى يتأكد من أن الأصل وصل إلى المرسل إليه. وكان الشاعر دى كويو يعمل مندوباً منذ عام لأمريكا اللاتينية لفوكس القرن العشرين منتقلاً من مكان إلى آخر، وفى سفر لبوينوس أيرس فى منتصف أكتوبر ١٩٦٦ طلب منه جارثيا ماركيز أن يأخذ معه القصة خشية أن تكون قد ضاعت فى الطائرة . وعندما وصل أجرى اتصالاً هاتفياً مع باكو بوراً وقال له : " لقد أحضرت لك أصل " مائة عام من العزلة " ، وقال لى : اسكت لقد تسلمتها وهى رائعة وعبقريّة ولا أدري ما رأيك " ، فقلت له : أنا لا أعرف القصة ، وأنه قادم إلى فندق بلاتّا وصل إلى الفندق وقال لى : اسمع ألا تدري أنها قصة رائعة ؟ إنه كاتب كلاسيكى إنها عمل كامل وهائل ، وقد اقترح عليه فيما بعد الحديث لتقديمها للسينما مثل بعض الروايات ، ولكننى لم أوافق على ذلك ، ولم أعتقد أنه كان على صواب. ولكننا تحدثنا بإسهاب عن الكتاب ، واتفقنا سوياً على أن القصة ستكون ساحقة.

لقد كان لقاءه مع ألبارو موتيس هو المؤشر النهائى للناسر الذى أحس بكفاية الأدلة على عظمة القصة من جانب من يعرف جيداً حياة جارثيا ماركيز وإنتاجه ، وقد أصاب تحمس باكو بوراً جميع الأفراد العاملين فى دار نشر أمريكا الجنوبية ، وكذلك أصدقاءه من النقاد وصحافة بوينوس أيرس. وقد كانت هذه درجة استحقاقه العظيمة كناسر لقصة " مائة عام من العزلة " : وهو استطاعته خلق الترقب والقدرة على الإعجاب والتأثير الملائمين ، كما حدث فى رواية الحيلة لخلويو كورتثار ، وكتب أخرى خالدة - لترى الرواية الضوء فى ٣٠ مايو ١٩٦٧ وسط ترقب شديد من جماهير غفيرة.

وتقريباً ستصل إلى الجماهير الغفيرة اعتباراً من زيارة المؤلف لبوينوس أيرس بعد ذلك بعشرين يوماً عندما حضر تقديم وترويج كتابه ، وكذلك لحضور مسابقة القصة كعضو في لجنة التحكيم ، وكانت المسابقة باسم (الصفحة الأولى في أمريكا الجنوبية) .

ونظراً لتحمس باكو بوروا في تحقيق عملية تقديم وترويج هائلتين ، فإنه غرس الحماس في صديقه توماس إيلوى مارتينيث رئيس تحرير مجلة (الصفحة الأولى) ، فقد اقترح أن يتم إعداد تحقيق صحفي خاص عن المؤلف على أن يكون الغلاف بالألوان وهذا امتياز استثنائي من جانب المجلة الأرجنتينية الأولى لكاتب بارز ، ولكنه لم يكن معروفاً بالقدر الكافي حتى تلك اللحظة. لذلك أرسلت المجلة سكرتير تحريرها إلى المكسيك إيرنستو شتو الذي عاد في أوائل يونية بتحقيق صحفي موسع حكي فيه كيف كان جارثيا ماركيز يعيش ويكتب " مائة عام من العزلة " ، ومنه هي أسرته ، وأين وكيف نشأ ، وما هي مسيرته الأدبية والصحفية ، ومنهم هم أصدقاؤه ، وما هي مشروعاته الفورية. وقد لاحظ الصحفي أن جارثيا ماركيز رجلٌ تغمره السعادة ، ظريفٌ وصاحب نكتة لا مثيل له ، عريض الابتسامة ، يتبادل الابتسامات والعناق مع كثير من مواطني مدينة المكسيك من أصدقائه ومعارفه خلال عامين من الإقامة بها. ومنذ أن انتهى من كتابة القصة في سبتمبر من العام الماضي كان قد استعاد حياة الشارع ؛ يتنفس هواءً جديداً ومجدداً . لقد كان مدركاً تمام الإدراك أنه قادم على بداية مرحلة أسطورية من مملكته ، ولكن لم يكن بوسعه الشك في الحماس الكبير لبوينوس أيرس.

وكان من المفروض أن التحقيق الصحفي وغلاف مجلة " الصفحة الأولى " الذي يحمل صورة جارثيا ماركيز سوف ينزلان إلى الشارع قبيل مُنتصف يونية عندما كانت " مائة عام من العزلة " قد طُرحت في المكتبات منذ أسبوع. ولكن في تلك الأيام اندلعت حرب الأيام الستة بين مصر وإسرائيل فاستبدل الوجه الغربي لجارثيا ماركيز في آخر لحظة بوجه القرصان الصهيوني موشيه ديآن ، ومن ثم تأجل نشرهما إلى الأسبوع التالي حيث توافق النشر مع قدوم الكاتب إلى بوينوس أيرس في ٢٠ يونية^(٥٧).

ومما هو مدهش أن التحقيق الصحفي والغلاف كانا بمثابة الطبق الرئيسي على المائدة لتقديم القصة والترويج لها ، ولكن عندما نُشِرَا وخرجا إلى الشارع كانت قد نفدت الثماني آلاف نسخة من الطبعة الأولى^(٥٨) ، في غضون خمسة عشر يوماً. فبالطبع

كان الترقب هائلاً منذ البداية ، فقد أثارت دار نشر أمريكا الجنوبية التعبئة فى كافة وسائل الإعلام فى بوينوس آيرس ، كما أن الكاتب كان قد قدم أجزاءً من قصته منذ عام فى صُحف ومجلات مهمة بالقارة.

إن مثل هذا النجاح الباهر لدار النشر بهذا الشكل الفورى والقاطع أدهش الجميع. فقد طرح الناشرون فى البداية فكرة طبع خمسة آلاف نسخة ، ولكنهم عند مراجعة التجارب وإدراكهم للاهتمام والحماس الفريد داخل دار النشر وخارجها قرروا أن تكون الطبعة الأولى ثمانية آلاف نسخة. وعندما علم جارثيا ماركيز بذلك كتب لهم وهو قلق للغاية قائلاً: إنهم قد يخاطرون بهذا الكم الهائل ، وقد لا تُحقق القصة مبيعات كثيرة وسيبقى لديهم معظم نسخ الطبعة الأولى ولكنهم رثوا عليه وقالوا له : لا ، إن القصة ممتازة ، وإنهم متأكدون من أنها ستُباع فى الفترة من يونية إلى ديسمبر^(٥٩). والحقبة أنهم كانوا يعدون طبعة ثانية بعد خمسة عشر يوماً من عشرة آلاف نسخة مما أدى إلى نفاد الورق بدار النشر ، ودون حصص طباعة لتغطية الطلب المتزايد نظراً لنهم القراءة للقارة بأسرها. وهكذا ففى غضون شهرين كانت هناك مفارقة كبيرة وهى أن الحديث كان يدور عن " مائة عام من العزلة " فى جميع أنحاء أمريكا اللاتينية، ولكن الناس لم يستطيعوا اقتناها لعدم وجودها بالمكتبات. وعندما صدرت الطبعة الثالثة فى سبتمبر كانت بمثابة فرصة ذهبية وفرت الرخاء الكامل للكاتب ، لأن المكسيك طلبت عشرين ألف نسخة وكولومبيا عشرة آلاف نسخة وبقيّة الدول عشرة آلاف نسخة أو خمسة آلاف أو ثلاثة آلاف نسخة. وهكذا بدأ الصنبور أو النافورة الأمازونية باللغة الأسبانية. ففى غضون السنوات الثلاث الأولى بيعت ستمائة ألف نسخة ، وخلال ثمانى سنوات مليوناً نسخة ، ونفس هذا الرقم بيع فى الأرجنتين وحدها خلال خمسة وعشرين عاماً. وبلاشك فإن هذه الأرقام تقريبية حيث إنه كما هو معروف جيداً ليس كل الناشرين يعلنون دائماً عن طبعاتهم الحقيقية نعى ؛ عدد نسخها ، ومن ناحية أخرى فمن المستحيل تحديد الكم الهائل الذى أصدره الناشرون القراصنة.

ولم يتم فقط تأجيل الطبعة الثالثة حتى سبتمبر ، كما كان قد تم تأجيل الغلاف الدعائى والترويجى لمجلة الصفحة الأولى ، بل أيضاً صدرت الطبعة الأولى فى تاريخ متأخر لأن التأجيلات والتسويات كما رأينا طوال إعداد القصة وكتابتها كانت ظاهرة

ملازمة لصير هذه القصة. وهكذا فعلى الرغم من أن الطبعة الأولى كان من المتوقع أن تصدر كحد أقصى قبل ٣٠ مايو ، فإن الغلاف الأصلي لم يصل فى موعده من المكسيك واضطرت دار نشر سود أمريكانا إلى ارتجال غلاف آخر حتى لا يتم تأخير صدور الكتاب أكثر من ذلك.

وكان الرسّام بيثينتى روخو الناشر المشارك وصديق جارثيا ماركيز قد صمم الغلاف بناءً على طلب المؤلف. وعندما غاص فى القصة يبحث عن مبررات للغلاف ظلّ مذهولاً: فلم يستطع اختيار شخصيات لكثرة الشخصيات بها ، كما لم يستطع الاسترشاد بالموضوعات لأنّه ضلّ الطريق بين موضوعاتها المتنوعة والمتعددة. ويتذكر بيثينتى روخو أنّه اختار حينذاك ما هو شعبى ، أى العناصر الموجودة فى الخيال الشعبى وهى ليست عناصر محددة من القصة ، لأنها لم تكن تُوضح شيئاً معيناً " ، وفوق خلفية بيضاء أعدّ الرسّام لوحة شبكية لونها أزرق تتألف من موضوعات وعناصر فلكلورية باللون الأسود والأحمر البرتقالى: قلوبٌ دامية وآلهة الحب (كيوبيد) النشطة وشياطين يرقصون وأهلة وملائكة مذهولون ونجومٌ ذابطة وشموسٌ بأسمة وأسماك صغيرة طائرة وقُبعات ترمزُ للجمهورية وأجراس وتوريق زخرفى ورموز للموت. فهو لم يلتقط العمق والرسالة الشعبية للقصة ، بل اقترب أيضاً دون أن ينوى ذلك من التصميم الأول لماكوندو الذى كان شعبياً فى منطقة زراعات الموز خلال العقدين الأولين من القرن العشرين.

وقد رسم بيثينتى روخو اسم المؤلف والقصة بحروف كبيرة كى يتم عمله على أكمل وجه ، وكانت الحروف أشبه بما يستخدم فى صناديق التغليف وفى المحلات الريفية، وفى آخر لحظة عنّ له إضافة حرف E مقلوباً من كلمة الغربية بالأسبانية لكى يكون له تورية ذات مدلول شعبى. ولم يكن الرسّام المكسيكى يتخيل أن شقاوة وبراعة عبقرية الشخصية ستكون أساساً للنظريات الأكثر تبايناً واختلافاً فى النقد الدولى ، وحتى لبعض النواذر الطريفة والمضحكة مثل تلك المتعلقة بصاحب المكتبة فى جواياكيل ، الذى لم يتوان فى الاتصال بدار نشر سود أمريكانا وطلب منها راجياً الكف عن إرسال نسخ معيبة له حتى لا يزعج زبائنه من المشتريين والقراء واضطر إلى مسح ورسم الحرف المقلوب أو المعكوس الموجود فى عنوان القصة يدوياً.

إن غلاف روخو الذى غزا القارة بأكثر من مليون نسخة جعله يكتسب شعبية كبيرة مثل القصة ذاتها متجاوزة كافة الحدود المتعلقة بالكتب ، وأصبحت صورة للهوية الثقافية ومع ذلك فإن شهرة الطبعة الأولى كانت من نصيب الغلاف المزيف الذى ارتجلوه فى دار نشر سود أمريكانا ، عندما تأكدوا من أن الغلاف الأصيل لن يصل. وقد قام مصمم مجهول بإضافة سفينة على غلاف الطبعة الأولى " لمائة عام من العزلة" وكانت السفينة موجودة فى قلب الغابة فوق خلفية زرقاء رمادية مقترنة بثلاث زهور غريبة برتقالية اللون تفتتح أسفل السفينة. وبعد ذلك بثلاثين عاماً حقق تجار المخطوطات ثراءً كبيراً بما تبقى على قيد الحياة من هذه الطبعة الرئيسية التى بلغت ثمانية آلاف نسخة حيث باعوها بمئات الدولارات.

إن حوافز الشهرة الأدبية لم يكن بوسع المؤلف ذاته أن يتشكك فيها عندما نزل من الطائرة مع مرسيدس فى مطار إيزيزا يوم ٢٠ يونية ١٩٦٧. كما لم يستطع الارتياح فى أن صدور قصته ووجوده فى بوينوس آيرس سيتم وسط احتفاء منقطع النظير من جانب جماهير غفيرة. واستناداً لما يقوله باكوبوروا: " خضعت المدينة بأسرها فوراً لفتنة القصة وسحرها ، وشرعت فى قراءتها". ولكن طبقاً لما يقوله توماس إيلدى مارتينيث كانت هناك مرحلة انتقالية لبضعة أيام من التوجس قبل أن ينطلق الجنون المحموم ، واضطر الناشر إلى تغيير إقامة الكاتب من فندق إلى آخر ، ووضعوا تحت تصرفه سكرتيرة لكى تنتقى له المكالمات الهاتفية^(٦٠).

وكان صنّاع نجاح " مائة عام من العزلة" قد ذهبوا إلى المطار لاستقبال مؤلفها فى تمام الساعة الثالثة صباحاً. وفى تلك الساعة وبعد سفر طويل للغاية كانوا يتوقعون أن يروا رجلاً قد غلبه النوم وتملكه الإرهاق وتمكن منه التعب ، ولكنهم رأوا شخصاً ينزل من الطائرة كالريح المرسلة يريد التوجه فوراً إلى المروج الخضراء لكى يشهد بزوغ الصبح البنفسجى اللون إلى جوار شؤاية اللحم. وقد استطاع مضيفوه إثناءه عن هذا الجنون واصطحبوه إلى أحد المطاعم التى افتتحت حديثاً فى شارع مونتيفيديو. وقد رأوه إلى جانب مرسيدس بسترته ذات الألوان الكاريبية ، وسرواله الجسد الضيق على غرار طراز بيترو كريسي ، وأسنانه القوية المتراسة ، وحديثه المفعم بالحكمة وببروده وجراته المعهودين فى شخصه. وقد بدأ باكوبوروا وتوماس إيلوى مارتينيث يعتقدان أن

مواطن أراكاتاكا الجوّال هو الذى كتب هذه الرائعة الروائية التى جذبت انتباه ثمانية آلاف قارئ أرجنتينى.

ومع ذلك فخلال الأيام الثلاثة الأولى - فيما يبدو - لم ينتبه أحد لوجوده فى بوينوس آيرس وإن كان جارثيا ماركيز سرعان ما سار إلى جانب غلاف مجلة بريميرا بلانا (مجلة الصفحة الأولى) التى ضاعفت من صورتها كأنها متاهة من مرايا خورخى لويس بورخيس فى الأكشاك والمكتبات. وذات صباح وهو يتناول طعام الإفطار فى مقهى سانتا فيه سويتشبا شعر جارثيا ماركيز ومرسيدس بالشعبية الجارفة: سيدة تخرج من السوق وتحمل كيساً كبيراً تركت نسخة من " مائة عام من العزلة " مرثية بين الطماطم والخس^(١١). وكان ذلك بالنسبة للكاتب بمثابة بادرة مشجعة للغاية لأنّ القصة التى خرجت من داخل أعماق الجوف الشعبى كانت مقبولة منذ البداية كشىء خاص بالعالم الشعبى. فالكتاب - بالفعل - قُوبِلَ بالحفاوة ليس كقصة بل على أنه مثل الحياة .

وفى نفس تلك الليلة حضر جارثيا ماركيز وزوجته العرض الأول لمسرحية فى مسرح معهد دى تيا . واستناداً لما يقوله توماس إيلوى مارتينث: تقدّم هو ومرسيدس إلى الصالة حائرين وسط الفراءات وقُبعات الريش البرّاقة. لقد كانت الصالة مظلمة ، ولكن لا ندرى لماذا تتبع مصباحُ خطواتهما عندما صاح شخص مجهول قائلاً: برافو ! وبدأ فى التصفيق. وقد تبعته سيدة قائلة : هذا بسبب قصته. حينئذٍ ؛ وقف جميع الحاضرين بالصالة. وفى تلك اللحظة شاهدت بنفسى أن الشّهرة تنزل من السماء ملفوفة فى ملاءات براقة تتطاير وترفرف مثل ريميديوس الحساء ، وقد حطّت فوق جارثيا ماركيز رياح حصينة من الضوء ضد أضرار السنين^(١٢).

وبالنسبة للكاتب نفسه فإنّ الحصار الجماهيرى كان قد بدأ فى أحد الاجتماعات العامة الكثيرة خلال تلك الأيام فى بوينوس آيرس ، التى كانت تعيش كأنها فى عيد من الأعياد. وخلال أوقات أو ساعات الفراغ عندما كان يشارك فى هيئة تحكيم مسابقة القصة التى أعدتها (مجلة الصفحة الأولى الأمريكية الجنوبية) مع كل من رُؤا باستوس وليو بولوى مارتينشال. وكان جارثيا ماركيز يقضى ساعات فراغه فى اجتماعات واحتفالات فى حضور جماهير غفيرة: وخلال إحداها ، التى أَعَدّها صديقه الصحفى

أوراثيو بيربتييسكى بُغية أن يلتقى مؤلف "مائة عام من العزلة" من جديد مع الكاتب ريدولفو ولش. ولم يكن ولش صديقه فقط عندما كانا يعملان جنباً إلى جنب فى هافانا خلال تلك الشهور الصعبة عام ١٩٦٠ ، بل كان أحد أساتذة ماركيز السريين منذ أن تعرّف على البنية الكاملة لرواياته البوليسية. ولكنهما لم يستطيعا التحدث كثيراً ، وقد اقتصر اللقاء الجديد على تبادل النظرات الطويلة فى صمت ، ربما بسبب خجلهما وطول الفترة التى لم يلتقيا فيها ، وربما نظراً للوجود المرعب لهذه الشهرة المفاجئة للمؤلف الكولومبى: إن جمهوراً غفيراً التف حول الكاتب فى تلك الليلة وأكد له أنه قرأ كتابه ، وأن أورسولا هى جدته نفسها ، وأن أمارانتا تشبه عمته وإن كانت لم تتجاوز خمسة عشر يوماً منذ صدورها ، وبالنسبة لجارثيا ماركيز كانت هذه الحفلة بمثابة "وداع للعزلة والوحدة" ، لأنه منذ ذلك الحين لم يستطع البقاء وحده أو بمفرده^(١٣). ولكن إذا نظرنا إلى الأمور جيداً كانت هذه بمثابة دخوله فى العزلة والوحدة فى النادى الهائل لعزلة الشهرة.

إن هذا الطوفان غير حياة الكاتب بسرعة البرق ، كما جعله يتربع على عرش القصة الأمريكية اللاتينية. لقد كانت القصة النتاج الصافى الخالص لنبوغه الفريد ، ومن صراعه مع الأرق كفنان للكلمة ، ولكن الأمور ربما ستكون مختلفة أو - على الأقل - أكثر بطناً بدون الناشرين والصحفيين والنقاد وقرّاء مدينة بوينوس آيرس. وفى إطار لغتنا فإن بوينوس آيرس مدينة ثقافية توافرت فيها حينئذ كافة الظروف بدرجة كبيرة وتوازن أمثل لقبول قصة وجعلها شعبية على الفور مثل "مائة عام من العزلة" ، دون المرور مسبقاً بنيويورك وباريس أو روما. ولذلك فبعد ثلاثين عاماً سيظل الأصدقاء الأرجنتينيون يتساءلون لماذا لم يعد جارثيا ماركيز مرة أخرى إلى بوينوس آيرس. أم أن فراو روبرتا عرافة الأحلام قد نصحته كما فى حالة فيينا ألا يعود للعاصمة الأرجنتينية. لأن المدينة التى زارها وأقامت له الاحتفالات الأولى لشهرته المستحقة لم تكن مثل مدينة المكسيك التى تتميز بالانغلاق ، وانعدام الثقة ، كما أنها ليست كمدينة بوجوتا الشهيرة وغير المبالية ، ولا مثل مدينة كاراكاس الحساسة وغير المكترثة ، ولا تماثل مدينة باريس البراقة والخيالية. ولا تُشبه مدينة مدريد الريفية فى العصور الوسطى وفى عصر فرانكو ، بل كانت مدينة بوينوس آيرس المثقفة والمتحمسة مهد أستاذه خورخي لويس بورخيس ،

والتي توجد بها كثير من دور النشر الأسطورية ، أسهمت مطبوعاتها من الكتب المُنثى في إثراء تكوين وإعداد الكاتب.

وبينما تمتد الشهرة النثرية والأدبية " لمائة عام من العُزلة" في العاصمة الأرجنتينية ، واصلت كارمن بالثليس في صمت نشاط النملة العاملة النشيطة لكي تتم ترجمة القصة إلى اللغات الرئيسية في العالم. ففي الواقع أنها لم تنتظر حتى تبدأ حفلة التتويج ، لأنها لم تكن فقط على علم باحتياجات المؤلف ، بل لأنها أدركت على الفور مثل جميع الناس أنَّ القصة من العيار الثقيل. لم تكن في حاجة لاحتفال كبير لكي يتم تقديمها بلغات أخرى. لقد بدأ عملها منذ أن تلقت نسخة من القصة الأصلية في مكتبها - في منتصف شهر أكتوبر من العام الماضي - في شارع أورخيل ببرشلونة. أو ربما قبل ذلك لأنَّ الثقة التي أولاها الناس للقصة (لمعرفتهم بالقصص السابقة للكاتب ، وكانت هي من القراء المعجبين به) جعلتها تتصل بدور نشر أخرى لتقديم القصة بلغات أخرى. وتذكر كارمن بالثليس على سبيل المثال أن باليريوريا المدير الأدبي لفيلترينيلي كتب لها للإعراب عن اهتمامه بالكتب السابقة لجارثيا ماركيز ، وأنه قال لها: " ولكك تقولين إنَّ المؤلف يُعدُّ الآن كتاباً مهماً. ماذا سيحدث لو ظهرت مرةً أخرى ماكوندو في الكتاب المهم الجديد الذي يُعدُّه الآن ؟. هل ستكون نفس القصة ونفس الأسطوانة" والحقيقة أنَّ فيلترينيلي كانت دار النشر الأجنبية الثانية التي تعاقدت مع " مائة عام من العُزلة" في أكتوبر ١٩٦٧ بعد دار النشر الفرنسية سويل ، التي كانت قد تعاقدت على القصة في أبريل بينما انضمت هاربر أندرو للتعاقد لنفس الغرض في نوفمبر (التي كانت قد اشترت الكتب الأربعة الأولى لجارثيا ماركيز مقابل ألف دولار) اشترت أيضاً حقوق القصة للسوق الأمريكي. والعائق الوحيد الذي صادف القصة كان في ألمانيا حيث رفضتها أربع دور نشر في البداية: رولت وريجر وهاوسر وأوفولباو. والوحيدة التي تعاقدت مع القصة هي كيبهاور في نوفمبر ١٩٦٨ ، عندما تفجرت شهرة الكتاب في فرنسا وإيطاليا^(٦٤).

وبعد ترجمتها إلى اللغات الغربية الرئيسية وحصولها في فرنسا وإيطاليا عام ١٩٦٩ على جائزة أفضل كتاب أجنبي وجائزة شيانسيانو استطاعت كارمن بالثليس - خلال بضعة أشهر - الحصول على ستة عشر عقداً إضافياً لترجمة القصة في إنجلترا

والدانمرك وفنلندا والسويد والنرويج وهولندا وروسيا والمجر وبولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا (ترجمتان : صربية - كرواتية وسلوفانية) واليابان والبرتغال والبرازيل. ولذلك ، فخلال ثلاث سنوات فقط استطاعت القصة أن تخطو خطوة عملاقة فى التتويج على مستوى العالم ، وبالتالي رأت المندوبة القطالونية أن عقدها المضحك لمدة مائة وخمسين عاماً أصبح حقيقة رائعة ، وقد وقَّع لها ولزوجها لويس بالوماريس الكاتب جارتيا ماركيز فى حضور لويس بيثيس القطالونى أيضاً. وفى الواقع لقد بدأت أسطورة أخرى داخل نفس الأسطورة: " إنها أسطورة الأم العظيمة للقصة الأمريكية اللاتينية " وفقاً للتعبير المازح الجاد للكاتب البيروانى ماريو بارجاس يوسا .

وبعد حفلة التتويج فى بوينوس آيرس عادت أسرة جارتيا ماركيز إلى المكسيك فى أواخر يونية ١٩٦٧ وأمامها هدف رئيسى : تحزيم أمتعتها وحقائبها (بعد عدة أسفار قصيرة إلى فنزويلا وكولومبيا وبيرو) ، حيث كان الكاتب يتوق الى تهيئة الظروف والعتور على أفضل المرافقات لمصطلحى مجهول المؤلف والعزلة ، لكى يجلس ويكتب قصته القادمة " خريف البطريق " ، ولكن ما حدث له كان على عكس ذلك تماماً . لقد وصمته بوينوس آيرس إلى الأبد بالعزلة تماماً أى عزلة الشهرة - ككبناء السفاح الذين رزقَ بهم العقيد أوريليانو بوينديا - ولم يستطع الفكاك منها حتى لو كان فى آخر ركن بالعالم. وبالطبع فإن الكاتب كان مُدرِكاً للنتائج المشؤمة للوباء الذى أُصيب به مؤخراً (يعنى الشهرة) ، ولذلك فمن بين الدوافع والأسباب اختار مدينة حية وحيوية تطل على ساحل البحر المتوسط ورزينة مثل مدينة برشلونة ، ولكن على أية حال ، وعلى الرغم من احتمال أن يزداد الطين بلةً ، فإن الناقدَ المكسيكى إيمانويل كارايو حذَّره من الجولات الخطيرة لمصيره كرجل مشهور .

فالناقد وزوجته نويس إيسبريساتى قاما بدعوة أسرة جارتيا ماركيز لتناول طعام الغداء تكريماً لهما قبل وداعهما فى منزلهما بشارع كوميرثيو إى أدمينيستراثيون (التجارة والإدارة) ، وهما يعيان جيداً أنهما سيودعان رجلاً كتب قصة لم يتردد الناقد كارايو فى وصفها بأنها تُحفة رائدة ورائعة منذ البداية ، وأن هذا الرجل سيتحول إلى أسطورة حية. وبالفعل خلال الاجتماع قال له الناقد المكسيكى الذى تنبأ بعظم مصير " مائة عام من العزلة " : " إن هذه القصة ستُحيطك بالشهرة والمجد والمال ، وهذا

سيؤدي إلى مسخ أو تغيير شامل في شخصيتك، وأن الشاب البسيط المتواضع الصريح والخجول الذي كتب القصة سيخطو خطوة رغماً عن إراداته ، وسيتحول إلى شخص آخر يختلف تماماً عما كان عليه إلى رجل سيصعب عليه الجلوس مع أصدقائه في تلك الآونة. فقال له جارشيا ماركيز : "بالطبع لن يحدث ذلك مطلقاً". وقد دافع عن ذلك بكل المبررات ، وأن الأمر لن يتجاوز الحياة البسيطة تقوم على الصداقة والأمانة والعمل ، وكدليل عن أن ذلك لن يحدث على الإطلاق وقع الأربعة جارشيا ماركيز وميرسيدس وكاربايو وإيسبريساتي على زجاجة ويسكي ماركة الحصان الأبيض. وهم كالفرقى ألقوا بزجاجة للزمن التي كانت خلافاً لزجاجات البحر ينبغي عليها أن تبلغ رسالتها دون أن تُفْتَحَ ، وتظل في راحتها الخالدة الأبدية كحساء نائمة في غابة الزمن.

إنَّ التنبؤات والمخاوف التي عبر عنها الناقد المكسيكي في تلك المأدبة في أواخر شهر يولية ، والتي كان قد صاغها وأوجزها قبل ذلك بأربعمئة عام ميتشيل دي موتين بشعر فكره عندما كتب : "إن المجد والراحة لا يمكنهما أن يسكنا منزلاً واحداً". وانتهى الأمر بجارشيا ماركيز أن قبلهما بعد ذلك بأربعة عشر عاماً على ضوء تجربته الشخصية عندما أعلن أن الشهرة تُعكر معنى الواقع شأنها شأن السُلطة تماماً^(٦٥). ولكن ليحدث ما يحدث خلال السنوات القادمة ستكون هناك دائماً جزيرة من الأصدقاء في حياة جارشيا ماركيز يلوذ إليها ويسترجع هذا المعنى المضطرب عن الواقع. ففي المكسيك لم يكن هؤلاء الأصدقاء كثيرين ، ولكنهم كانوا كافين ومخلصين أوفياء: كارلوس فوينتيس وخوان جارشيا بونثي وألبارو بيثينتي روخو وإيميليو ونانسي ولويس بيثينس. وقد كان ألبارو موتيس وكارمن حالة فريدة : فقد وصلت معهما أسرة جارشيا ماركيز لأبعد من الصداقة والأخوة؛ وبالتالي كان الوداع قاسياً حقيقة بالنسبة للأسرتين: فخلال ست سنوات كانتا تقتسمان كل شيء ، كل شيء تماماً: الأنجال والأصدقاء والشدة والرخاء والآمال واليأس والإحباط والسرء والضراء. وعلى وجه الخصوص تقاسما إلى جانب أسرة جارشيا إيليو تلك الحفلة (حفلة أليمة أيضاً) لإعداد وكتابة " مائة عام من العزلة". ولذلك فعندما رحلت أسرة جارشيا ماركيز متجهة إلى إسبانيا متوقفة قليلاً في كولومبيا وفنزويلا شعر أفرادها بأنهم أيتام من أصدقائهم ،

وسرعان ما انفصلت كارمن موتيس عن زوجها قائلة : " آه ، لا . إنَّ الزواج كان مقترناً بأسرة جارثيا ماركيز . أما بدونهما فلم يكن ذلك فى الحسبان ! " .

وبينما كانت مرسيدس تسافر مع رودريجو وجونثالو إلى بارانكيا وقرطاجنة فى أواخر يولية ، وكان جارثيا ماركيز يستعجل الأيام الأخيرة فى هذه الفترة الأولى بالمكسيك فى شقة فى ميدان واشنطن كان يمتلكها لويس بيثينس (حيث إن منزلهما فى "حى سان أنخيل إن" كانا قد سلَّماه فى منتصف الشهر) ، لكى تذهب الأسرة إلى كاراكاس ، حيث حضر المؤتمر الدولى الثالث عشر للأدب الأيبروأمريكائى (الأدب فى أسبانيا والبرتغال وأمريكا اللاتينية) ، ولحضور تسليم جائزة رومولو جايغوس ، ولكن قبل هذه الاحتفالية المزدوجة للأدب كان كل ما يهم جارثيا ماركيز هو أن يلتقى مرةً أخرى بأصدقائه الفنزييليين القدامى والتعرف شخصياً على ماريو بارجاس يوسا الكاتب البيروانى الذى حصل على أول جائزة لرومولو جايغوس عن قصته (البيت الأخضر) . وكما يذكرنا لأن طائرات لندن والمكسيك كانت تهبط فى وقت واحد تقريباً ، وقد ظلّا سوياً طوال الخمسة عشر يوماً الأولى من شهر أغسطس فيما بين كاراكاس (التى ما لبثت أن عانت من زلزال مأساوى) وميريدا وبوجوتا ثم عادا إلى اللقاء من جديد فى ليما خلال الأيام الأولى من شهر سبتمبر .

وعلى الرغم من أن هذه كانت المرة الأولى التى تعارفا فيها شخصياً ، فقد كانت تربطهما صداقة طويلة عبر المراسلة الأدبية لدرجة أنهما تشاورا فيما بينهما على كتابة قصة بأقصى سرعة عن الحرب الهزلية المأساوية التى شهدتها بلدهما فى أوائل الثلاثينيات . وبالطبع كان كلُّ منهما قد قرأ للأخر بدقة متناهية ، وكانت رسائلهما الأدبية تتسم بالإعجاب المتبادل فى كلِّ من باريس ولندن والمكسيك . وكانا معجبين بقصص الفرسان ، وبالنسبة لجارثيا ماركيز فإنَّ ماريو بارجاس يوسا " آخر الفرسان الجوالين فى الأدب " ، بينما يرى الكاتب البيروانى أنَّ جارثيا ماركيز هو " أماديس أمريكا اللاتينية " فقد اكتسب سمات شخصية من قصة " البيت الأخضر " لشخصية أخرى فى " مائة عام من العزلة " (كما فعله الكاتب الكولومبى مع شخصيات كارلوس فوينتيس وكورتثار وكارينتير) ، وقد كتب ماريو بارجاس يوسا مقالاً للثناء والإطراء امتدح فيه روائع هذه القصة "إنها كتاب هائل" ، وكان يود أن يكتبها هو كما اعترف

بذلك فى وقت لاحق ، لأن كاتب القصة أنهى أربعة قرون كاملة من الخجل والاستحياء الروائى : إنه يتعامل مع الواقع معاملة الند للند ، وجعل من السرد هدفاً فعلياً يعكس العالم كما هو : متعدد وساحلى ومحيطى (ويعنى بذلك ساحل المحيط الأطلسى والكاريبى)^(٦٦). إن هذا الإعجاب المتبادل لا يرجع فقط إلى كونهما كاتبين كبيرين للقصة فى أمريكا اللاتينية ، بل ربما لتشابه حياتهما فى طابعها السحرى تشابهاً يبدو أنه مأخوذ من صفحات بلوتاركو الهائل. فكلاهما تربيا على أيدي جديهما ، لأمهما وتمتعا بكافة اللذات ، وكانا طفلين مدللين هوائيين يتحقق لهما كل ما يريدان ، وقد فقدتا طفولتهما فى العاشرة من عمرهما . لقد تعرفا فى وقت متأخر على والديهما وكانت علاقاتهما بهما علاقة جفاء لعدة أسباب من بينها أن والديهما كانا يتحفظان أو يعترضان على توجهاتهما فى الحياة: لقد درس كلاهما فى مدرسة دينية ، ودرسا الثانوية كطلاب داخلية تنسم بالحزم والعسكرية ، وقد لاذ كلاهما بالأدب ، وكتاكيد لهويتهما وسط بيئة معادية لهما أو مقززة منفرة. كما وجد كلاهما فى المسرح والشعر الركائز الأساسية فى إعدادهما وتكوينهما الأدبى ، كما كتبا أشعاراً وهما فى مرحلة المراهقة ، كما نشرا أول قصة لهما فى نفس السن تقريباً. لقد قرأ كلاهما بحماس منقطع النظير لأليخانبرو روما وتولستوى وروبين داريو وفوكنر وبورخيس ونيرودا. وبدأ كلاهما يكتسب قوته بالعمل فى صحف المحافطات فى ظروف سيئة ، كما سافرا إلى أوروبا وهما فى مرحلة الشباب حيث جذبتهما الأسطورة الأدبية لباريس ، وحيث ظلّا يعيشان ويتكسبان من الصحافة ، كما لقيا الأمرين فى مدينة النور حيث عاشا ربما أشد أيام حياتهما قتامة ومرارة ، كما استطاعا أن يواصلتا كتابة أعمالهما فى غرفة صغيرة ذات سقف مائل فى سطح الفندق حيث استأجراهما من مدام لا كرويكس وزوجها فى فندقين بالى اللاتينى ، ولم يتقاضيا منهما الإيجار لمدة بضعة أشهر نظراً للضائقة المالية التى كانا يعانيان منها ، كما قاسيا أيضاً من رفض قصصهما الأولى من دور نشر فى مدينة بوينوس أيرس. وكلاهما ذو توجه ماركسى، كما تفاديا العضوية العاملة فى الأحزاب السياسية اليسارية ، كما كانا مدافعين كبيرين عن الثورة الكوبية ، وكانا صديقين ورفيقين لشاعر الأمريكتين بابلو نيرودا ، وانتهى بهما الأمر أن أصبحا الابنين المثاليين لنفس الأم العظيمة كارمن بالثيلس ، وكنقطة وفاق أصبح الاثنان نجمين

ساطعين فى سماء القصة الأمريكية اللاتينية الجديدة ، التى يُطلق عليها بشكل غير ملائم " اليوم الأمريكى " (الانطلاق القصصى) .

ومع ذلك كانا رجلين وكاتبين مختلفين ومتعارضين فى كثير من الأمور بدءاً من النبوغ والعبقرية الشخصية حتى فى طبيعة أعمالهما ، اللهم باستثناء الحماس للصدقة والانضباط فى العمل والالتزام الذى لا فكاك منه مع الأدب. وعلى الرغم من أن طوارئ وظروف الحياة والصدقة والسياسة فصلت بينهما ووضعت كلاً منهما فى دروب مختلفة وحتى متعارضة فقد ظلّا يتشرفان بالتشابه الخفى فى حياتهما حيث إنهما كانا صديقين بشكل نادر لم يُرَ إلا فى حالات قليلة فى تاريخ الأدب الأمريكى اللاتينى: ولذلك لا يبدو مفاجئاً أو مبالغاً أن تسليم جائزة رومولو جايغوس كانت الأولى من نصيب ماريو بارجاس يوسا عن قصته (البيت الأخضر) ، والثانية لجارثيا ماركيز عن قصته " مائة عام من العزلة " ، وهى أشهر جائزة فى اللغة الأسبانية ، وأن الكلمتين اللتين ألقياها عند تسليم الجائزتين تضمنتا دوافع سياسية تبناها كل منهما وتعتبران فضيحتين من أكبر الفضائح السياسية - الأدبية فى أمريكا اللاتينية خلال سنوات الستينيات والسبعينيات.

ففى الكلمة التى ألقاها ماريو بارجاس يوسا يوم ٤ أغسطس أعطى درساً هائلاً عن الأسباب الحقيقية التى تُحرِّك وتُغذى الكاتب ، وعن الظروف الفنية والالتزامات والسلوكيات الخلقية فى القصة. ونَبّه على أن الأدب نأرٌ ، " لأنه يعنى السخط والتمرد " إن الدافع الوجودى للكاتب هو الاحتجاج والمعارضة والنقد^(١٧). ولكنه عندما انتقل من النار الأدبية إلى النار الواقعية والحقيقية إلى النار الثورية التى ينبغى عليها أن تقضى على الخزى والعار والطُغيان والاستبداد والظلم فى أمريكا اللاتينية مثلاً كما يقول ماريو بارجاس يوسا - حدث فى كوبا منذ ثمانى سنوات . لقد كان ذلك بمثابة طروادة فى كاراكاس " فى كاراكاس الحزينة " ، ومن المحتمل أن يكون صديقه الحميم وزميله الكولومبى قد تحرك فى مقعده بينما كان يستمع إليه ليس لأنه كان يشاركه نفس الاعتقاد والافتناع ، فبالطبع كان كذلك ، وسيظل حتى عندما هجر ماريو بارجاس يوسا المعسكر الاشتراكى بل لأن جارثيا ماركيز كان قد التزم الصمت الحكيم على الملأ بشأن الثورة الكوبية منذ أن فصل وأصدقائه (أو هُجروا بدافع من أنفسهم) من وكالة الأنباء اللاتينية عام ١٩٦١ . ولكنه على الرغم من حزنه الشديد لهذا الحدث المؤلم ،

والذى كان بمثابة الشوكة المؤلة ، فإن هذا لم يكن السبب الكبير وراء صمته بل إنَّ الحدث الذى كان الكاتب يراه فى ذلك الوقت باستياء عميقٍ هو عملية التدخل السوفيتى المتزايد فى الثورة الكويتية. وكما رأينا فإنَّ ماركيز سافر لبضعة أشهر متجولاً فى الاتحاد السوفيتى ، والدول التى تدور فى فلكه بشرق أوروبا . ولقد عرف على الطبيعة الكارثة الماكوندية التى حطت وأملت بهذه الدول . وقد كتب تحقيقات ممتازة أكَّدها التاريخ بعد ذلك بثلاثين عاماً . كما كان قد عمِلَ فى الصحافة اللاتينية: فى بوجوتا وهافانا ونيويورك . وقد عَرِفَ عن كثب النبضات الداخلية والخفية للثورة الكويتية وقادتها. ولذلك فإنَّ صمته لم يكن فقط فترة راحة للمحارب ، بل كان لرجل عَرِفَ بطريقة مباشرة الاتجاه التضليلي والمنحرف لثورة كان قد تحمس لها قلباً وقالباً دون تحفظات ، مثلما فعل كلُّ من ماسيتى ورودلفو ولش وآخرون. لقد كان بارجاس يوسا أيضاً متحمساً للثورة الكويتية ، ولكنه كان شاباً حاد الطبع وغير مزود بمعلومات مباشرة عن "هوية الاشتراكية الحقيقية" ، وعلى العكس من ذلك كان يسمح لنفسه بإطلاق الهراءات الثورية التى كانت تُصيب الطبقة الوسطى بالقشعريرة ، وكذلك الأقليات الحاكمة التى فى وجود رومولو جايغوس كافأوه وتملَّقوه فى الصالون المفتوح بمتحف الفنون الجميلة فى كاراكاس. كان الكولومبى والبيروانى كاتبين ومفكرين مختلفين تماماً كما كانا مختلفين فى تألفهما وتشابهما (فبعد ذلك كما عَرِفَ كان ماريو بارجاس يوسا يعتبر فيدل كاسترو الوحش الأسود الذى تجب محاربته والتصدى له بينما أصبح جارثيا ماركيز المراهق الثورى الوفى بلا حدود للزعيم الكوبى) ، وهذه الهوية التناقضية بالإضافة إلى مفارقة التشابه فى حياتهما هو الذى - إلى جانب أمور أخرى - سيعطى قوة لصداقتهما التى لا ريب فيها .

إنَّ ماريو بارجاس يوسا الودود المبتسم والمهتم قد قسَّم الجمهور فى كاراكاس ما بين ملتبس ومفتون بهيئة وطريقة ملبسه على غرار أهل هوليود ومداخلته البراقة والرصينة العاقلة. إنه فظٌ وخجولٌ ومستاءٌ من فضيحة شعبيته المتزايدة. أما جارثيا ماركيز ، فبشعره المتجدد وقمصانه المتعددة الألوان على نمط أهل الكاريبى رفض إعطاء الصورة الأكاديمية الجادة التى انتظرها الجميع من مبدع ومؤلف ماكوندو. لقد كان نجماً ناشئاً سعيداً بمصيره الأدبى ، ولكنه بدأ يشعر بعدم الارتياح من جرأه

انعكاسات الشهرة : ففي حفلة أصدقائه القدامى تكريماً له في كاراكاس وضع لافتة تقول : (ممنوع الحديث عن " مائة عام من العزلة ") ، ولذلك عندما كان يتكلم في هذا الشأن كان بغرض التسلية والمزاح دائماً ، وكما يذكر ماريو بارجاس يوسا نفسه أن جارثيا ماركيز اعترف للصحفيين بالوجه الصارم لعمته بيترا أن قصصه كانت تكتبها زوجته ، وأنه كان يوقعها لأنها كانت سيئة ، ولم تكن مرسيدس ترغب في تحمل المسؤولية وحدها . وعندما سُئِلَ في التلفاز عما إذا كان رومولو جايغوس روائياً كبيراً فكر ملياً وأجاب: " في كنايما يوجد وصف لديك في غاية الروعة(٦٨) " ولكنه اضطر - مرة على الأقل - للحديث بجدية: كان ذلك في ١١ أغسطس في النادي الثقافي بكاراكاس أثناء الجلسة الختامية للمؤتمر الدولي الثالث عشر للأدب الأسباني الأمريكي اللاتيني ، عندما ألقى محاضرة عنوانها " القصص ونقاده " . لقد كان مدعوراً كمن ينتظر دوره أسفل سقالة الإعدام. كان يجلس بجوار بارجاس يوسا ويده رطبتان ومتجمدتان من البرودة تعكس رغبته اللانهائي وهو يُدخِّن كالخفاش . وبدلاً من المحاضرة الأكاديمية التي تشنف أسماع النقاد والأساتذة ، حكى حكاية هي ببساطة قصة ربما للتمرد على الجلال والوقار والجو الأكاديمي في تلك اللحظة. لقد كانت البداية شاقة وعسيرة مليئة بالأحجار والصخور لترتيب الكلمات ، فترات صمت طويلة تركت المستمعين مُعلّقين في مقاعدهم. ولكن رويداً رويداً استطاع تجميع الحكاية كاملة ، هي التي أصبحت بعد سنوات موضوع فيلم بريساخيو (النبوءة) (٦٩) . وقد نالت مداخلته إعجاباً كبيراً وتصفيقاً شديداً أصم الأذان من أجل ما كان يهيمه في أعماق نفسه ، ألا وهي رغبته في أن يكون : قصاص حكايات.

إن بوجوتا الإنديزية الشهيرة لم تحسن الضجيج العام الذي خلفته قصة ماكوندو . لقد كان جارثيا ماركيز حنوناً عطوفاً ودوداً مكثرئاً ومعتنياً بأصدقائه الدائمين . والحقيقة " أن المدينة كانت أقبح مُدن العالم وأشدّها حُرناً " ، واستناداً لما قاله لقد انتهى به الأمر أن تقطّب جبينه وجعلته أكثر فظاظاً ويُعدّأ عن الجمهور . ولكن لم يكن هناك شيء يفعله ، لأنّ الخلافات مع مدينة كوايبسه كانت مرضاً مُزمناً ومرضاً مستوطناً بالروح. ويذكر ماريو بارجاس يوسا قبل أن يخرجاً سوياً في طريقهما إلى بوجوتا في ١٢ أغسطس تسلّى جارثيا ماركيز بإجراء مكالمات صامتة بعاصمة

كولومبيا: ويعدها اكتشفت أنه يُخطط مع أصدقائه في بوجوتا برنامجاً ؛ سيستقلون سيارات سريعة ، وسينتقلون من فندق إلى آخر ، ومن منزل إلى آخر ، وذلك لأن ماريو بارجاس يوسا والناقد خوسيه ميغيل أوبييدو لم تسنح لهما الفرصة بمشاهدة مدينة بوجوتا على بُعد كبير^(٧٠).

ولكن لم يتحقق له ذلك . فالشهرة والشعبية المتزايدتان لكل منهما جعلتهما شخصيتين لهما حضور ووجود في كل مكان من الناحية العملية على مدى ثلاثة أيام في مدينة بوجوتا، مدينة المثقفين والمحامين والتجارالخ. وعندما عاد ماريو بارجاس يوسا إلى ليما في ١٥ أغسطس في المساء بعد مائدة مستديرة ساخنة في مجلة التيمبو (الزمن) ، (التي شارك فيها أيضاً ألبارو ثيبيدا ساموديو وأنخيل راما وخوسيه ميغيل أوبييدو) ، وفي تكريم حضره جمهور غفير في مجلة ليتراس ناثيوناليس (الآداب الوطنية) ، وفي جلسة قام خلالها بتوقيع كتبه في المكتبة المعاصرة. وفي اجتماع شبه سرّي مع الشبيبة الشيوعية كان الكاتبان مُرهقين نظراً للمجهود الجبار الناجم عن الشهرة ، لكي يتأكد لهما قول مونتني: إنّه أمر حقيقي أنه لا جدوى من التمتع بالشهرة والمجد والراحة في وقت واحد.

ومن المفارقات أنهما " في ليما المرعبة " ، التي رغم استمرار المجد والشهرة فقد منحتهما شيئاً من الراحة والاستجمام أو على الأقل جعلتهما يتحليان بالصبر إزاء مصيرهما كنجمين لامعين. وربما كان السرُّ أنه خلال الأسبوع الذي زار فيه جارثيا ماركيز العاصمة البيروانية في أوائل سبتمبر مدعواً من الجامعة الوطنية للهندسة استطاع وماريو بارجاس يوسا توثيق الصداقة وتوطيدها إلى جانب الألفة والأدب ، في حالة من التناغم الرائع. لقد بدأ ذلك بتعميد الابن الثاني لأسرة بارجاس يوسا الذي اختير جارثيا ماركيز أباً له في العماد ، والذي أطلق عليه والده اسم جابرييل رودريجو جوتثالو ، وهذا يعنى التعبير الأسمى عن الحب والود والصداقة ، فقد جمع في اسم نجله اسم الكاتب الكولومبي ونجليه أيضاً. وانتهى الأمر إلى بدء حوار مفتوح بين الكاتبين عن القصة في أمريكا اللاتينية بصفة عامة ، وأعمال الكولومبي بصفة خاصة خلال يومى ٥ ، ٧ سبتمبر في قاعة الاحتفالات بكلية الهندسة المعمارية بالجامعة الوطنية للهندسة أمام جمعٍ غفيرٍ من الطلاب^(٧١). ولكن الحوار كان هادئاً انسيابياً متدفقاً وشبه

أسرى. ولم يُبدِ جارتيا ماركيز فقط راضياً عن قدره ، بل كان يبدو أنه تغلّب على دُعره من الحديث على الملأ. فقد كان أكثر قُرباً واعتناءً ومعتدلاً المزاج ، وقد كان مُسهباً ، حتى أنه كشف عن مفاتيح فنه الروائى وارتباطاته بالواقع. وبنظرته الشاملة للقصة وبفكرته المتسلطة على تحليل القصة. وقد كان بارجاس يوسا المحاور ، ومدير الحوار وموجه الأسئلة ، وإن كانا أحياناً قد تبادلا الأدوار فيما بينهما. ولقد كانت هناك فكرة أخرى حديثة مهيمنة على الكاتب البيروانى : فهم وشرح مجمل العملية المتعددة التى أدت بجارتيا ماركيز إلى كتابة " مائة عام من العزلة " ، وهى المهمة التى سيقوم بها ماريو بارجاس يوسا بعد ذلك بعامين عندما كتب كتابه الخالد " قصة متمرّد " ، وهو كتاب وإن كان تلغرافياً وليس على المستوى اللائق فيما يتعلق بالسيرة الذاتية فإن تجاوزه سيبقى أمراً صعباً لما فيه من تطوير وتحليل للأسرار والخبايا الأدبية. ومن بين الأشياء التى اتضحت فى هذا الحوار الخالد بين عملاقى القصة الأمريكية اللاتينية : أمران باتا جليين : المعلومات الموسعة عن صُلْب القصة : فماريو بارجاس يوسا وهو فى الحادية والثلاثين من عمره فضلاً عن اهتماماته النظرية بالقصة واهتمامه العميق بانتاج صديقه وزميله ، والوعى الدقيق والواضح الذى أعدّه به جارتيا ماركيز أعماله طوال عشرين عاماً على ضوء تحليل موسع ومتأنٍ للواقع الكولومبى والأمريكى اللاتينى. وقد ظلّ الواقع الأمريكى اللاتينى واضحاً جلياً ، عندما اقترح البيروانى على الكاتب الكولومبى مشكلة الخيال فى إنتاج خورخى لويس بورخيس : " ألا تعتقد أن بورخيس بصورة ما يَصِفُ ويبرز الخيال الأرجنتينى والخيال الأمريكى اللاتينى. و أن هذا الخيال هو بعدُ ومستوى وحالة من الواقع الشامل أى الاستحواذ على الأدب " ؟ ، فجارتيا ماركيز بعد إبراز إعجابه وعرفانه وامتنانه للأستاذ الأرجنتينى (لأننا نحتاج إليه لاكتشاف اللغة التى هى مشكلة جادة للغاية) أجاب : إننى أعتقد أن الخيال لدى بورخيس مزيفٌ أيضاً ، فليس هو الخيال الأمريكى اللاتينى. وهنا ندخل فى مفارقات : إن الخيال فى أمريكا اللاتينية هو أمرٌ واقعى جداً ويومى للغاية ؛ وبالتالى فهو مُبهمٌ مع ما يُفهم بالواقع^(٧٢). وبالطبع: إنه كان يعرف جيداً ، ويعرف ذلك منذ أن كان طفلاً لأن هذا الخيال بأمريكا اللاتينية وأنه فى عام ١٩٥٠ كان قد أسماه " بواقعية الخيال " الواقعية بالخيال أو الخيال الإنسانى المفرط^(٧٣). لقد كانت الأرض المغذية والمكان العجيب الذى

عاشت فيه جدته ترانكلينا إجواران كوتيس ، وعماته الكثيرات ، وكثير من الشخصيات العجيبة فى أراكاتاكا التى عاش فيها طفولته. وقد كان هذا العصبُ الكبير والجوهر الأساسى لإنتاج جارشيا ماركيز : هو نفسه الذى حاول فهمه وتصويره والتعبير عنه فى منتصف أغسطس ١٩٤٨ ، حيث كتب فى بوجوتا " الاستسلام الثالث " بدافع من قصة المسخ لكافكا. كما أن قصة " مائة عام من العزلة " تُعدُّ بمثابة التتويج الأسمى لهذا العزم والتصميم الهائل والقديم من جانب جارشيا ماركيز.

إنَّ هذا العزم والتصميم كان مبرراً لفكرة شخصية متسلطة على العقل كانت إحدى الخدع الكثيرة والخطيرة للحنين ، وفقاً لما اعترف به جارشيا ماركيز شخصياً لماريو بارجاس يوسا أمام الطلاب فى ليما ، ألا وهى العودة إلى منزل أراكاتاكا ، واستعادة اللحظات المفقودة مع الجد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا الذى كان يصطحبه إلى السيرك والقدّاس والسينما أو للتنزه فى شوارع القرية ، أو عبر مزارع البلوز أو لكى يستحم فى نهر المياه الباردة الشفافة تحت سَفح سيرا نيفادا فى سانتا مارتا^(٧٤). ومع ذلك فإنَّ حفيد العقيد استطاع التغلب بحكمة شعرية أدبية على خدعة الحنين والاشتياق ، حيث بنى عالماً مستقلاً قوياً ، عالماً مستقلاً فائتاً ، واستطاع أن يسترده ويحافظ عليه دون المساس بزمنهما ، إلى جانب ذكريات كثيرة من لحظات الطفولة التى عاشها حقاً سعيداً بجوار جدّه. ولكنه ذهب إلى أبعد من ذلك. فقد استطاع جارشيا ماركيز إنقاذ لحظات التعاسة الكبيرة التى اعتقد أنه أصابه فيها الغم والكرب: إنها تلك اللحظات الليلية أمام الأرواح الشريرة التى كانت جدته ترانكلينا إجواران كوتيس تُروّعها بها وعلاوة على ذلك : فليس فقط فى العالم الذى ابتكره على غرار عالم الواقع تماماً فقد استطاع تحقيق ما كان يتوق إليه وهو طفل : اجتياز حدود الأرواح الشريرة المستوطنة فى المنزل والتصالح معها. إنَّ حالة النفس هذه أكثر من الحالة المعنوية هى الحقيقة " المكان " الذى انطلق منه ، والذى كان يحاول جاهداً الوصول إليه (عدم العودة ، فالحقيقة أنَّ الذاكرة ليست لها دروب للعودة) للتعرف عليه لأوّل مرّة أى للاستحواذ عليه أدبياً.

هوامش الفصل الأول

- (١) انظر الملحوظة ٣٧ في الفصل التاسع .
- (٢) في محادثاتها بالكسيك في الفترة من ٤ إلى ١٧ مارس ١٩٨٩ ذكر جارثيا ماركيز أن عودته - بالفعل - إلى قريته أبرزت له أن ما عاشه في طفولته ، وما يراه الآن في قريته المهمة كان بعيداً كل البعد عما كتبه حتى ذلك الحين ، وأن هذا البرهان جعله يسلك طريقاً أو درباً آخر فيما بعد .
- (٢) وعلى عكس ما كان يكرره في بعض المقابلات لم يكتبها بعد هذه الرحلة؛ ففي الفصل السابع وملحوظتيه ٢٤ ، ٢٥ ، وكذلك في الفصل التاسع في ملحوظتيه رقم ٤٥ ، ٤٩ يتضح أن الكتابة الأولى لقصة " الورقة الساقطة " كانت قد كتبت قبل ثلاث سنوات تقريباً من عودته مع والدته إلى أراكاتاك .
- (٤) في المقابلة التي منحها لفريق التحرير بالمانيفيسـتو (البيان) (" الرحلة إلى الجنور ") في بوجوتا (١٩٧٧) . يؤكد جارثيا ماركيز أن ذلك كان في بايديوار بعد أربعة أعوام في " حكاية الحكاية " (في الملحوظات الصحفية في الفترة من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٤ مدريد موندادوري ١٩٩١) كانت في البداية مقدمة لقصة " نبأ موت مُعلن " ، ويقول إن ذلك كان في مناوري ديل ثيسار . إن هذا القموض والإيهام بالنسبة للأماكن يمكن أن يكون متعمداً من جانب جارثيا ماركيز ، ويهدف من جراء ذلك أن يظل البطل الثالث مجهولاً ، والذي يذكره في الحالة الأولى على أنه خوسيه بروينثيو أجيلار ، بينما في الحالة الثانية لم يذكر اسمه . ومع ذلك فإن رفائيل إيسكالونا في أحد اللقائين اللذين تمّ بينهما في بوجوتا خلال أغسطس ١٩٩٢ لم يفصح لي فقط عن اسم ليساندرو باتشيكو ؛ بل أيضاً أوضح لي أن اللقاء مع ليساندرو كان في مدينة " السلام " الواقعة بين بايديوار ومناوري .
- (٥) جابريل جارثيا ماركيز " حكاية الحكاية " المصدر المذكور .
- (٦) من محادثاتي مع رفائيل إيسكالونا بوجوتا أغسطس عام ١٩٩٢ .
- (٧) جابريل جارثيا ماركيز . المصدر المذكور .
- (٨) هذا الوصف لبارأنكاس أدين به لمواطنین عديدين من أهلها ، وخاصة إلى أنا ديوس ، وعمدتها خوسيه دومينجو سولانو .
- (٩) المصدر نفسه وخيرمان أرثينيجاس عبقرية وشخصية خورخي إسكاس بوينس أيرس ، أوديبا ، ١٩٧٠ .
- (١٠) مانويل م . فلوريس الإيستادو (الدولة) سانتا مارتا ١٩ مارس ١٩٣٧ .
- (١١) طبقاً لهذه المعلومة مثل معلومات أخرى من شجرة النسب أمدتني ليخيا جارثيا ماركيز مؤرخة الأسرة " جدة جدة القصاص " ، وجد والدته كانا قد وصلا إلى كولومبيا في عام ١٨٢٦ على أقصى تقدير .
- (١٢) في منزل إيليدا فونسيكا ببارأنكاس يمكن التعرف على إحدى الحكى على شكل سمكة صغيرة من الذهب قام بتصنيعها جد جارثيا ماركيز ، وتنتمي إلى سارة إيريتا فونسيكا نجلة حفيدة العقيد ماركيز . إنها مطابقة تماماً لتلك الحكى التي وصفها القصاص في " مائة عام من العزلة " .
- (١٣) أوبرادو بينتو روميرو " بارأنكاس " أرض أسرة بوينديا جواخيرا جرافيكاً أكتوبر ١٩٨٤ .

(١٤) ألبارو تيرادو ميخيا. الدولة والسياسة في القرن التاسع عشر ، في كتاب تاريخ كولومبيا، بوجوتا. المعهد الكولومبي للثقافة ١٩٨٢. الجزء الثاني ، وألبرتو جوميث م. "حرب الألف يوم" ، بوجوتا. دار نشر لا أوبيخا نيجرا (النعجة السوداء وأكبش الفداء) ١٩٨٥ .

(١٥) كارلوس إدواردو خراميو، محاربو القرن التاسع عشر، بوجوتا، دار نشر ثيريك ، ١٩٩١ .

(١٦) خوسيه ماريا بالديبلانكيث . تاريخ مقاطعة ماجدلينا وأرض لا جواخيرا منذ عام ١٨٩٥ حتى ١٩٦٣ ، بوجوتا. دار نشر اليوتو ناثيونال (التصويت الوطني) ١٩٦٤ .

(١٧) كما هو الحال لدى نيقولاس ماركيز وأنجاله وأصدقائه وخالة رفائيل أوريبى ، ويبيدرو نيل أوسينا الذين كانا صديقين كبيرين وخصمين في آن واحد ، الأمر الذي يوضح عبث ومأساة مصير الكولومبيين الذين عاشوا في مواجهات من أجل مثاليات متناقضة ، ولكن بمجرد انتهاء الحرب تجانسوا فعلاً حتى تضاعفت الخلافات بينهم ، أى بين الليبراليين والمحافظين ، كما يصف ذلك العقيد أوريليانو بوينديا في "مئة عام من العزلة" بقوله: إن الخلاف بين هؤلاء ، وأولئك يكمن في أن الليبراليين يذهبون إلى قُدّاس الخامسة أمّا المحافظون فيذهبون إلى قُدّاس الساعة الثامنة.

(١٨) ساباس س. سوكرأس. ذكريات حرب الألف يوم في محافظات باديا ، وبايدويار وفي مقاطعة أو دائرة ماجدلينا : ١٨٩٩ إلى ١٩٠٣ في خوسيه ماريا بالديبلانكيث : المصدر المذكور.

(١٩) أوربادو بينتو روميرو : المقال السابق.

(٢٠) خوسيه ماريا بالديبلانكيث : المصدر السابق.

(٢١) ساباس س. سوكرأس : المصدر السابق ، وأوكتايبوم. جوميث "حرب الألف يوم في ماجدلينا" (معركة كراثا) في كتاب خوسيه ماريا بالديبلانكيث. المصدر السابق.

(٢٢) بما أن باتشيكو ميدرادو روميرو كان جندياً عادياً ، وكان تحت وصاية عمه فرانثيسكو خابيير روميرو ؛ فقد أدرج في لجنة الضباط يفسر عدم ظهور اسمه في تعليقات أو أخبار ساباس سوكرأس ، وأوكتايبو جوميث. ولكن بفضل زميل سلاح آخر ، وصديق كبير لنيقولاس ماركيز ، وخوان لاثارو رويليس. نعم سيتم تسجيل اسم ميدرادو باتشيكو روميرو في ذكرياته عن حرب الألف يوم في محافظات باديا وبايدويار ، ولا جواخيرا ، وسانتا مارتا ١٩٤٦ .

(٢٣) - لم يتوفر في حرب العصابات الانتضباط العسكرية ، وكان تماسكها يرجع إلى الوفاء ، والإخلاص والاحترام. ومن هنا كان على القادة أن يظهروا باستمرار مهارة وشجاعة لتأكيد سلطتهم (كارلوس إدواردو خراميو. المصدر السابق). كان هذا أحد الأسباب التي تفسر الفارق بين جماعات حرب العصابات والجيش النظامي بقيادة بينخامين إيريرا في المحيط الهادئ وبينما ، والقوات الفوضوية والمنحطة لأوريبى أوريبى في المحيط الأطلسي: بينما كان الأول دائماً على رأس قواته يشاركونهم نفس المخاطر ؛ كان الثاني دائماً في حالة ترحال وتجوّال بمختلف أنحاء البلاد ، وكان يظهر بالكاد من حين لآخر لتحفيز ، وتشجيع قواته بخطبه النارية الحماسية.

(٢٤) لوкас كبايرو. مذكرات "حرب الألف يوم" . بوجوتا. المعهد الكولومبي للثقافة.

(٢٥) بالفعل في ٢٠ أغسطس ١٩٠٢ في طريقه إلى بايدويار و أراكاتاكا وشيناجا قال في سان خوان ديل ثيسار: "أعتقد أن نهاية الحرب ستفرضها أسباب ترجع للرحمة والشفقة الخالصة. وأن مجيئي لا هدف له سوى أن تكون شروط السلام عملية "وقورة" (خوسيه ماريا بالديبلانكيث. المصدر السابق) .

(٢٦) المصدر نفسه . إنَّ الشهر وتاريخ الوصول ، إلى أراكاتاكا لأوريبى أوريبى ورجاله خاطئان فى هذا الكتاب لأنه يذكر أنه كان فى الأيام الأخيرة من يولييه وفى الواقع كان فى ٥ سبتمبر ١٩٠٢ كما ظهر فى الكتاب الذى لم يُنشر لمؤلفه لاثارو دياجو خوليو : أراكاتاكا : تاريخ لكى يحكى ١٩٨٩ .

(٢٧) المصدر نفسه .

(٢٨) المصدر نفسه .

(٢٩) لا يمكن التأكيد على سبيل الحصر أنَّه من بين هاتين الشخصيتين التاريخيتين خرج اسم شخصية أوريليانو بوينديا . وفى حرب ١٨٩٥ كان هناك أيضاً عقيد ليبرالى يُدعى فرانثيسكو بوينديا ، هو الذى عند مروره بأراكاتاكا واجه القوات الحكومية وخلع الحاكم المحافظ، وكان سبباً فى أسطورة ربما سمعها الطفل جابيتو بعد ذلك بسنوات طويلة من شفتى جده . ومن ناحية أخرى فإنَّ لقب بوينديا اسم شائع الاستخدام فى منطقة ساحل الأطلسى الكولومبى . ومما هو معروف جيداً أنَّ جارتيا ماركيز قبل أن يحاول كتابة قصة "المنزل" فى أواخر الأربعينيات ، وهى أصل مائة عام من العزلة، كان يعرف أسطورتى العقيد رامون بوينديا ، وأوريليانو ناودين . وقد حكى لى القصص مانويل ثباتا أوليبيا أنَّ والده أنطونيو ماريا ثباتا كتب مطبوعاً عن أوريليانو ناودين ، وأن جارتيا ماركيز قرأه فى تلك الفترة فى قرطاجنة الأمريكية .

(٣٠) خوان لاثارو روبليس . المصدر السابق .

(٣١) وفى مارس ١٩٥٢ كتب جارتيا ماركيز فى بارأنكا إلى صديقه ومواطنه جونثالو جونثاليت فى بوجوتا : لقد عدت إلى أراكاتاكا تواً . ولا زالت قرية مليئة بالغبار ، يخيم عليها الصمت والموتى . مزعجة بشكل زائد عن الحد بعقدائها القدامى الذين لقوا حتفهم خلف الفناء تحت آخر شجرة موز ، كما كثر بها كم العذاري نوات الستين عاماً ، وقد صدان ، وهن يتصببن عرقاً لآخر نزواتهن الجنسية بسبب قيظ الساعة الثانية ظهراً (نقد ذاتى . صحيفة الاسبكتاتور . بوجوتا ٢٠ مارس ١٩٥٢) . وقبل ذلك بخمس سنوات توفيت جدته فى سوكرى ، وقد عبرت عن آخر رغبة لها التى كانت آخر ما كان يتوق إليه الجد المتوفى فى عام ١٩٣٧ : أن يقبض أحد المعاش الموعود بعد وفاته .

(٣٢) إنَّ أهل بارأنكا يقدمون ثلاث روايات مختلفة عن دوافع وأسباب مبارزة التحدى بين نيقولاس ماركيز ، وميدرايو باتشيكو ، وكيف وقعت الأحداث ، وطبقاً للجيل فإنَّ الروايات كانت تكتسب مدلولاً مغايراً . ومما لا شك فيه على الإطلاق أنَّ الرواية الأكثر موضوعية هى دائماً رواية الكبار المسنين إذا استثنينا منها الثغرات المتعلقة بالذاكرة ، والتغييرات التى تدخلها الأعراف الشفهية حتماً . واسترشاداً بهذا المعيار أو الرأى فقد التقيت وتكلمت فى بارأنكاس مع الشقيقتين إيتزائل ، وكليمينثيا سالتارين ، وهما فى الثانية والتسعين من العمر على التوالي . واستناداً إلى ذكرياتهما (حيث لم أستطع العثور على أية وثيقة عن هذا الحدث لا فى بارأنكاس ولا فى ريو هاتشا ، ولا فى سانتا مارتا) ، قد حاولنا تكوين الرواية الأكثر وقاراً مع موضوعية الأحداث . وبمقارنة المعلومات التى قدمتها الشقيقتان ، وبمقابلة هذه المعلومات مع تلك التى قدمها مواطنون آخرون من بارأنكاس تم إلغاء واستبعاد التغييرات والتلفيقات من العرف الشفوى ، وتم الحصول على معلومات أخرى هامشية فى الظاهر ، أو شبه منسية ، ومع ذلك كانت فى غاية الأهمية فى الحصول على رواية موضوعية للأحداث .

(٣٣) من محادثاتي مع إيتزائل ، وكليمينثيا سالتارين . بارأنكاس . أغسطس ١٩٩٢ .

(٣٤) إنَّ الجملة كانت تنتقل من جيل إلى جيل كما هى بين أهالى بارأنكاس .

(٣٥) إنَّ معلومات النزوج والإقامة فى سانتا مارتا ، وثيناجا ، وكذلك تاريخ الوصول إلى أراكاتاكا قدمتها لى لويسا سانتياجا ماركيز إجواران والدة القصص فى محادثتنا فى كارتخينا وبارأنكا فى يولييه وأغسطس ١٩٩٢

(٣٦) هكذا يظهر فى شهادة وفاته . التى حصلت عليها من أرشيف الأبرشية أو الكنيسة فى بارأنكاس .

هوامش الفصل الثاني

- (١) استناداً إلى شهادات والدّة جارشيا ماركيز وابنة عمها سارة ماركيز : فقد أهدى لأسرة ماركيز إيجواران بعد ذلك بـ عدة سنوات اثنتان من الهنود الحمر في أراكاتاكا ، وهما نيكيتار ، ولوثيا . أمّا ريميديوس ، أليرو اللذان إذا بالفرار من المنزل ، ولم يعرف الكاتب سوى أبولينار الذي كان قد اعتاد العودة إلى القرية ليزور أسياده القدامى .
- (٢) إنّ الجملة والتادرة اللتين أشارت إليهما ليخيا جارشيا ماركيز لهما أهمية ما في الأسرة مثل تلك اللحظات ، والتهنئات لأجداد أسرة بوينديا .
- (٣) أورلاندو فالس بوردا^١ التاريخ المزدوج للساحل (مويوكس ولوبا) الجزء الأول، بوجوتا ، الناشران كارلوس بالينثيا ، ١٩٨٠ .
- (٤) لاثارو دياجو خوليو . المصدر المذكور . إنّ النسخة التي اطّلت عليها لازالت محفوظة في دار الثقافة في أراكاتاكا . إنه الكتاب الأول الذي كُتب عن تاريخ القرية ، وإنّه مصدرٌ جيدٌ للمعلومات . لقد كان مفيداً للغاية بالنسبة لي لاستكمال تحرياتي عن تاريخ الشاميلاس من الهنود الحمر ، وتأسيس وتاريخ أراكاتاكا ، وظاهرة زراعات الموز .
- (٥) البروموتور (المؤسس) ، بارانكيا ، ٤ مارس ١٨٨٢ وخيرمان أرثينيجاس . المصدر المذكور .
- (٦) روبرتو إيريرا سوتو ورفائيل روميرو كاستانيدا لاثونا بانانيرا دى ماجدليتا (منطقة زراعات الموز في ماجدليتا) ، بوجوتا ، المطبعة الوطنية لمعهد كارو إى كويريو ، ١٩٧٩ .
- (٧) المصدر السابق نفسه .
- (٨) ألبرتو لونا كارديناس عام ، وأيام آخر مع الجنرال بينخامين إيريرا في زراعات الموز بأراكاتاكا ميدايين ، دار نشر بيدوت ، ١٩٦٠ .
- (٩) روبرتو إيريرا سوتو . المصدر المذكور . وريثان بيجا ، مذبحة زراعات الموز ، بوجوتا ، دار نشر أوبيخا نيجيرا ، ١٩٨٥ .
- (١٠) يتذكر أهالي أراكاتاكا أنّ البرادو كان أشبه بالأحلام . لويس كورّيا جارشيا صديق الطفولة الحميم لجارشيا ماركيز وصف لي ذلك المكان أنّه كان من الجمال الرائع والسلطان ، وكان شيئاً محرماً أو محظوراً على أهالي أراكاتاكا . (يعنى المكان الذى كان يسكن فيه مسئولو شركة الفواكه المتحدة الأمريكية) .
- (١١) جابريل جارشيا ماركيز (نقد ذاتى . المقال المذكور) .
- (١٢) لاثارو دياجو خوليو . المصدر المذكور .
- (١٣) إنّ الشج بلا شك كان معروفاً في أراكاتاكا ، ولكنه كان مقتصرأ على منازل الأمريكين . ويبدو أنّ الفجر جعلوا منه أمراً شعبياً في جميع أنحاء المنطقة خلال السنوات الأولى من الحقبة الثانية .

(١٤) جاء ذلك ضمن أقوال لويسا سانتياجو ماركيز لم أقرأها ؛ بل عشتها (مقابلة مع والدى جارثيا ماركيز أجراها معها أليجى لوى بمجلة التيمبو الزمن بوجوتا ، ٨ مارس ١٩٧٠) .

(١٥) لاثارو دياجو خوليو. المصدر المذكور ، والإضافة الموجزة عن تاريخ أراكاتاكّا الذى ذكرت على هامش كتاب التعميمات أعدها القسيس فرانشيسكو ث. أنجاريثا .

(١٦) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز للمصحف جوستابو تاتيس جيرا فى " جابو الكيميائى الآخر " بصحيفة الأونيفرسال (العالمى) قرطاجنة ، ٣ مايو ١٩٩٢ . وقد أكدت لى هذه النادرة لويسا سانتياجا ماركيز والدة الكاتب .

(١٧) ولكن فى الواقع أن الأسقف إسبيخو بما أنه قسيس سانتا مارتا قد اعتاد الذهاب إلى أراكاتاكّا لرأس الاحتفالات الكبرى بالقرية ، وخلال هذه الأيام كان يُقيم مع القساوسة فى منزل أسرة ماركيز إيجواران حتى أنه أطلق على المنزل اسم "الفاتيكان" .

(١٨) إن مختلف المصادر الشفوية والمكتوبة التى تم استشارتها أو الاطلاع عليها عن هذه الواقعة اعتباراً من أقوال أهل أراكاتاكّا المسنين ، حتى أقوال جارثيا ماركيز نفسه تختلف بشكل ملحوظ بالنسبة لأسباب ودوافع هذه المشاجرة التى تسببت فى وفاة الساحلى على أيدي مواطن أنطيوخيا ، ومع ذلك فإن جميع المصادر تتفق فى الإشارة إلى أن هذا الموت يرجع إلى الأحقاد المكبوتة لدى أهالى أراكاتاكّا على مدى سنوات طويلة ، وأن الحادثة حفرت فى ذاكرة جميع أفراد القرية . وهناك صعوبة أخرى تكمن فى تحديد السنة التى وقعت فيها المذبحة . فبينما نجد جارثيا ماركيز يُشير - على سبيل المثال - إلى عام ١٩١٠ نجد أن لاثارو دياجو خوليو يذكر أنها حدثت فى عام ١٩١٣ ، أما جيرمو إنريكيث فقد حدد حدوثها فى ١٩١٢ .

(١٩) لاثارو دياجو خوليو. المصدر المذكور .

(٢٠) المصدر السابق نفسه .

(٢١) نظراً لتنوع ، وكثرة الأقنعة يذكّرنا كرنفال ماکونزو حيث تنافست على تاج الجمال ريمبيديوس الحسناء ، وفرناندا ديل كاريبو ، وقد حدثت مجزرة تُعرف بليلة أراكاتاكّا .

(٢٢) جابريل جارثيا ماركيز " عودة إلى الجذور " فى الملاحظات الصحفية ١٩٨٠-١٩٨٤ ، المصدر المذكور .

(٢٣) كارلوس أرنجوت . " الباقون على قيد الحياة من مذبحة زراعات الموز بوجوتا . أى تى أواى ECOE 1985 فيكتور جوميث بوبيا " مزارع الموز : كانت تسع مزارع " الاسبكتاتور (المشاهد) بوجوتا ، ١٠ ديسمبر ١٩٧٢ . مجلة أراكاتاكّا رقم ٢٠١ أراكاتاكّا ، ١٩٨٣ ويعد ذلك بخمسة أشهر من المذبحة نشرت صحيفة الاسبكتاتور فى بوجوتا يوم ١٩ مايو ١٩٢٩ مقابلة مع الجنرال المحافظ بومبيليو جوتيريث التى صرح فيها : لدى أدلة لا تُحصى تدل على أن ضحايا مذبحة الموز تجاوز عددهم الألف قتل . هذا الرقم تخفيه الحكومة أما الباقون على قيد الحياة فقد أوضحوا من جانبهم فى كتاب كارلوس أرنجوت ، وبإصرار على أن جميع الضحايا تقريباً قد أُلقيت جثثهم فى البحر خلال تلك الليلة . وكان أحد السائقين الذين كانوا يقودون السيارات لنقل الجثث إلى مكان وجود اللش الذى كان يحملهم إلى الباخرة التى ستقلهم إلى داخل البحر . كان هذا السائق يُلقب بوبيا . لقد تمرد فى تمام الساعة الرابعة صباحاً ، ولم يرد نقل مزيد من الموتى لأنه كان مرهقاً ومتوتراً (سانتندير أليمان) لقد كنت هناك بالحطة ، وقد شهدت الواقعة ، وقد رأيت سقوط قتلى من أهالى شيناجا ، كما رأيتهم وهم يحملون الكثيرين لإلقائهم فى البحر " كارلوس ليال) .

(٢٤) الصحافة ، بارانكيا فى ١٤ ديسمبر ١٩٢٨ .

- (٢٥) صحيفة الاسيكاتور، بوجوتا في ١٩ مايو ١٩٢٩
- (٢٦) إن رسالة القنصل الأمريكي في بوجوتا جيفرسون كافى مؤرخة في ١٥ يناير ١٩٢٩، وقد نُشرت في وسائل الإعلام بعد ذلك بوقت كبير.
- (٢٧) جاء ذلك ضمن السيرة الذاتية الموجزة لراؤول إدواردو مايتشا في كارلوس أرانجو ث. المصدر المذكور.
- (٢٨) جاء ذلك ضمن تصريحات جارتيا ماركيز للصحفي جوستابو تاتيس جيرا. المقال المذكور.
- (٢٩) ويؤكد أحد الباقيين على قيد الحياة من هذه المذبحة وهو سيكستو أوسبينا نونيث - على سبيل المثال - "... قامت القوات على مدى ثلاثة أشهر طوال مدة الحصار بعمليات قمع رهيبية ، وكان الإنسان يرى قتلى في كل مكان". كارلوس أرانجو ث. المصدر المذكور.
- (٣٠) من محادثاتي مع لويسا سانتياجا ماركيز ، ومارجوت ، وليخيا جارتيا ماركيز ، قرطاجنة ، يولية وأغسطس ١٩٩٢ .
- (٣١) جاء ضمن السيرة الذاتية الموجزة لإدواردو مايتشا ، في كارلوس أرانجو ث. المصدر المذكور.
- (٣٢) روبرتو إيريرا سوتو. المصدر المذكور.
- (٣٣) ذكر في تصريحات سانتندير دوران جوميث (ابن شقيق الجنرال خوسيه روساريو دوران) لكارلوس أرانجو ث. المصدر المذكور. في البرقية التي أرسل بها مجلس منتجي الموز في أراكاتاكا إلى صحيفة لابرنسا (الصحافة) في بارانكيا، والتي نشرتها في ٥ ديسمبر ١٩٢٨ . وقد ذُكرت أسماء لجنة الوساطة برئاسة الجنرال خوسيه روماريو دوران، ولكن لم يظهر اسم جد جارتيا ماركيز ، ومع ذلك فإن كلام سانتندير دوران جوميث يؤكد أن العقيد ماركيز كان ضمن اللجنة المذكورة بيدو لنا لا جدال فيه ، لسبب بسيط : أن ذلك لكونه نجلاً لشقيق الجنرال دوران ، ومقرباً من العقيد ماركيز ، ووجب عليه معرفة هذه المعلومة دون أدنى شك.
- (٣٤) روبرتو إيريرا سوتو. المصدر المذكور. ورينان بيجا. المصدر المذكور.
- (٣٥) في " مائة عام العزلة " حل هذا المرسوم محل المرسوم رقم ١ ، وقد تم إدماج المرسومين: حيث طُلب من الجماهير الفقيرة بالتفرق مهدداً بإيأهم بالذخيرة الحية وإطلاق النيران ، كما اعتبر المهربين " فرقة من الأشرار المخربين". إن المرسوم الذي نُكِيَ في الواقع قبل المذبحة كان بالفعل المرسوم رقم ١ ، بينما الذي قُرأ في الخيال كان المرسوم الرابع.
- (٣٦) روبرتو إيريرا سوتو يعطى بصفة عامة رواية دقيقة وموثقة عن هذه المذبحة في منطقة زراعات الموز في ماجدلينا ، ويذكر أن نتيجة رفع الجثث كان ثلاث عشرة جثة وتسع عشر جريحاً ، ولكن المحضر الرسمي الذي يدرجه إيريرا سوتو كاملاً في النص يتحدث بالتحديد عن تسعة قتلى وثلاثة جرحى ، وعلاوة على ذلك توجد وثائق بالصور عن المقبرة الجماعية للقتلى التسعة لكورتيس بارجاس.
- (٣٧) خورخي إليسير جايتان، مذبحة زراعات الموز ، بوجوتا ، وثائق وشهادات.

هوامش الفصل الثالث

(١) إن أفضل من بحثت عن شجرة نسب الكاتب كانت شقيقته ليخيا بدافع مذهبها الديني الرموني البدعي ، إن المعلومات بشأن أسرتي الأب والأم قدمتها لي ليخيا أخت جارثيا ماركيز ؛ فجميع المعلومات في هذا الفصل يرجع الفضل إليها ما لم تذكر مصادر أخرى ، أو من دردشاتي مع جابرييل جارثيا ماركيز ، أو والدته لويسا سانتياجا ماركيز ، أو أشقائه لويس إنريكي ، وجوستابو خايمي ، ومارجوت ، وعابدة أوليخيا جارثيا ماركيز ، وكذلك ابنتي خالتيه سارة ماركيز ، ومارجوت بالديبلانكيث ، ومعلمته الأولى روسا إيلينا فيرجسون ، وصديق طفولته لويس كارميلو كورثيا جارثيا ، والعديد من أهالي أراكاتاكا الذين تحدثت معهم خلال أسفاري المتعددة إلى أراكاتاكا والتي بدأت في يناير ١٩٧٣

(٢) ليخيا جارثيا ماركيز تشك في أن والدها - نظراً للفقر المدقع الذي كانت تعاني منه الأسرة - لم يسجل نفسه رسمياً في جامعة قرطاجنة ؛ بل كان يحضر بصورة غير رسمية بعض الدراسات بمدرسة طب الأسنان ، وهذه المعلومة لم أستطع التحقق منها لأن أرشيفات تلك الفترة لم تكن موجودة في جامعة قرطاجنة .

(٣) ومن العجيب أن كارلوس إنريكي بارخا سيكون بعد ثلاثة وعشرين عاماً أستاذاً بكلية الحقوق لجارثيا ماركيز بالجامعة الوطنية في بوجوتا .

(٤) خوسيه فونت كاسترو. المفاتيح الحقيقية لقصة "الحب في زمن الغضب" صحيفة الباييس "الدولة"، مدريد، في ١٩ يناير ١٩٨٦ .

(٥) المصدر المذكور نفسه.

(٦) المصدر المذكور نفسه.

(٧) جابرييل جارثيا ماركيز "حكاية الحكاية" المصدر المذكور.

(٨) خوسيه فونت كاسترو. المقال المذكور.

(٩) إن نفس جابرييل إيلخيو اضطر لتأجيل اقتراحه بالزواج في بعض الأحيان لأن الخالة فرانثيسكا رفضت الابتعاد عن شجرة اللوز ، حيث كان يتحدث مع لويسا سانتياجا ماركيز ، لأن إيلخيو قد توسل إليها بأن تتركهما بمفردهما لحظة لأنه كان لديه أمر خاص سيخبر به خطيبته. ولكن الخالة فرانثيسكا لم ترفض فقط طلبه بل ردت عليه أيضاً قائلة : ماذا يمكن أن تقوله للطفلة لويسا؟ ، ولا تستطيع الاستماع إليه خالتيها. إن هذه النادرة والجملة أو العبارة يسجلها جارثيا ماركيز في قصته "الحب في زمن الغضب" بين الخالة إيسكولاستيكا داتا وفلوريتينو أريثا .

(١٠) خوسيه فونت كاسترو. المقال المذكور.

(١١) لقد استاء دائماً والد الكاتب أن يذكر ماريو بارجاس يوسا عن جارثيا ماركيز في قصة "متنرد" (برشلونة، بارأل الناشرين، نوفمبر ١٩٧١) أن والد الكاتب رفض في منزل أهل ماركيز إيجواران لأسباب

اجتماعية وأسرية. والحقيقة أن هذه الأسباب كانت مشهورة بين الأقارب والمقربين إلى أسرة جارثيا ماركيز، كما أنه من الحقيقة أيضاً أن أسرة ماركيز إجواران في البداية رفضت كل خطيب لنجلتها مهما كان وضعه الاجتماعي. (١٢) من محادثاتي مع أنطونيو باريوسا نجل دوريث الصيدلي الذي يحمل نفس الاسم والعديد من مواطني أراكاتاكا ، أراكاتاكا ، يولييه ١٩٩٢ .

٢ (١٣) من دريشتاتي مع سانتندير إنفانتي صانع الألعاب النارية في أراكاتاكا، يولييه ١٩٩٢ . (١٤) من محادثاتي مع أنطونيو باريوسا ، وجراثيانو بريتيو، بارأنكاس، أغسطس ١٩٩٢ . وكان بريتيو المكلف بإحضار البغال لهم إلى بيانونيبا إلى منزل الجنرال ساباس سوكارأس (الصديق القديم للعقيد نيقولاس ماركيز) لكي يحمل السيدة ترانكلينا ونجلتها لويسا سانتياجا إلى بارأنكاس.

(١٥) خوسيه فونت كاسترو، المقال المذكور. (١٦) إن هذه القصة تذكرها جيداً مثل قصص أخرى ؛ أنطونيو باريوسا لأنها سمعتها من والديها أرثينيا وأويخينيو ريو.

(١٧) ليس صحيحاً كما يؤكد ماريو بارجاس يوسا في قصة " متمرّد " أن انتقال جابرييل إيليو جارثيا إلى ريو هاتشا كان يرجع بناءً على ضغوط من العقيد ماركيز: لقد كان الانتقال بناءً على رغبة ومبادرة شخصية من والد الكاتب ، كما حكته لي والدة جارثيا ماركيز .

(١٨) خوسيه فونت كاسترو، المقال المذكور . (١٩) استناداً لولادة الكاتب ؛ هناك خطأ في تاريخ عقد زواجها ؛ فالعقد ينص على أن لويسا سانتياجا ماركيز إجواران ، وجابرييل إيليو جارثيا مارتينيث تزوجا في اليوم الثاني عشر من يونيه ١٩٢٦ ، والحقيقة أن الزواج كان في الحادي عشر لأنها تذكر أن الزواج كان بالضبط نفس يوم عيد القلب المقدس للسيد المسيح.

(٢٠) إن العبارة لم تكن فقط بمثابة منافسة ومسابقة بين الأسرتين؛ بل أيضاً أدرجها جارثيا ماركيز حرفياً في قصته الحب في زمن الغضب .

(٢١) إن شهادة التعميد (الموجودة في المجلد الثاني عشر. الصحيفة ١٢٦ . هامش ٢٢٤ مكتبة سان خوسيه في أراكاتاكا) تقول: إن جابرييل جارثيا ماركيز - ولد في السادس من مارس عام ألف وتسعمائة وسبعة وعشرين (١٩٢٧) ، والمعلومة الأخرى التي تؤكد ميلاد الكاتب عام ١٩٢٧ دون أدنى خطأ ، وليس ١٩٢٨ لأن شقيقه لويس إنريكي هو الذي ولد في الثامن من سبتمبر (١٩٢٨) وفقاً لشهادة التعميد الكاتبة في المجلد الحادي عشر الصفحة ٩٦ والهامش ١٩٢ بنفس الكنيسة أو الأبرشية بأراكاتاكا .

(٢٢) خوسيه فونت كاسترو، المقال المذكور. (٢٣) لاثارو دياجو خوليو ، المصدر المذكور.

(٢٤) في جارثيا ماركيز وأسرته يوجد الشك بشأن أن يكون هناك احتمال بأن جابيتو في الثانية من عمره تقريباً اصططحبه والداه إلى بارأنكيا في يناير ١٩٢٩ ، وأنه في العام التالي بعد ولادة مارجوت أعيد إلى أراكاتاكا مع جدّه، ولكن رسالة من الخالة فرانثيسكا ثيمودوسيا ميخيا بتاريخ ٢ مايو ١٩٢٩ تُبدد هذا الشك. وكانت الرسالة موجهة إلى زوجة أخيه أويخينيو ريو في بارأنكاس ، وهذا ما يهمننا من تلك الرسالة: لويسا تعيش في بارأنكيا ، ولكن النجل الأكبر هنا في منزل جدّه ، والثاني الذي سيكمل ثمانية أشهر ، وهو الذي في الصورة (...) الكبير يُسمى جابرييل ، ونطلق عليه جابيتو لم يظهر في الصورة لأنه لا يوجد مصور هنا الرسالة تنتمي إلى أرشيف أنطونيو ريو.

(٢٥) جاء ضمن تصريحات جارتيا ماركيز لسوسانا كاتو أن جارتيا ماركيز عاد إلى بوليفار إلى ميدان المعركة "بروتيسو، المكسيك في ١٤ أبريل ١٩٨٩ . وفي محادثاتها في المكسيك يومي ١٤، ١٧ مارس ١٩٨٩ . لقد حدثت جارتيا ماركيز عن هذا السفر إلى بارانكيا ، كئنه اليوم الذي اصطحبوه لكي يتعرف على شقيقته مارجوت . وبعد ذلك ، وبالحديث مع والدته وشقيقته في قرطاجنة الأمريكية خلال شهر يولية وأغسطس ١٩٩٢ ، وبمناسبة مرور مائة عام على وفاة بوليفار استطعت الاستنتاج أن الكاتب التبس عليه الأمر بين اليوم الذي اصطحبوه لكي يتعرف على أخته عابدة روسا ، وذلك الذي أخذه للتعرف على شقيقته الأخرى مارجوت والذي كان قبل ذلك بعام .

(٢٦) جوستابو كاستيون ليثيرو ، وخيلبير جوميث ، وخايمي سانتوس بريثا . إعادة بناء الذاكرة المعمارية ، واقتراح إعداد المنزل متحفاً لجابرييل جارتيا ماركيز في أراكاتاكا (رسالة تخرج) جامعة خورخي توليدو لوثانو (قسم الكاريبي) كلية الهندسة المعمارية ، قرطاجنة دي إندياس ١٩٩٢ . ومع جوستابو كاستيون ليثيرو الأكثر اهتماماً بأدب المهندسين المعماريين الثلاثة . لقد قضيت أسبوعاً في أراكاتاكا لأتأكد على الطبيعة من المعلومات والخرائط كعمله الرائع . وإلى جانب المعلومات التي حصلت عليها من لويسا سانتياجو ماركيز ، ومارجوت جارتيا ماركيز ، وسارة ماركيز ، وعمل المهندسين المعماريين الشبان الثلاثة ، كما كان ذلك كافياً ونهائياً لإعادة بناء المنزل الذي ولد فيه الكاتب .

(٢٧) لويس هارس ، "جارتيا ماركيز أو الضعف" في كتاب "كُتّابنا" بوريس أيريس ، دار نشر أمريكا الجنوبية ، نوفمبر ١٩٦٦ ، وجابرييل جارتيا ماركيز ، وماريو بارجاس يوسا ، القصة في أمريكا اللاتينية: ديالوجو (حوار) ، ليما ، دار نشر كارلوس ميا بارتري 1968 UNI .

(٢٨) جاء ضمن تصريحات جارتيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوتا في "رائحة الجوافة" برشلونة ، دار نشر بروجيرا أبريل ١٩٨٢ .

(٢٩) هذه الحكاية قصتها على (أنطونيا) (انظر الاسيكتاتور "المجلة الأسبوعية التي تصدر يوم الأحد" بوجوتا ، ٢٢ أكتوبر ١٩٧٢) ، وقد أكدتها لي حرقياً سارة ماركيز بعد ذلك بعشرين عاماً في محادثاتها بسانتا مارتا في أغسطس ١٩٩٢ .

(٣٠) جابرييل جارتيا ماركيز "لا كوندويرما الكلمات" في ملحوظات صحفية ١٩٨٠-١٩٨٤ ، وكلمة كوندويرما كلمة أقلية ربما تكون من فنزويلا ، وتعني "الكابوس" ، ولكن جد الكاتب أعطى لها مدلولاً بمعنى "العذاب الدائم" . وفي "نبا موت مُعلن" ظهرت هذه الكلمة على لسان أنخيلا بيكاريو : "..... لقد أحسست وكأنني تخلصت تماماً من العذاب الدائم للموت" .

(٣١) جابرييل جارتيا ماركيز ، وماريو بارجاس يوسا . المصدر المذكور .

(٣٢) من محادثاتي المذكورة مع سارة ماركيز .

(٣٣) من محادثاتي مع روسا إيلينا فيرجسون ، ميداين ، يونية ١٩٩٢ ، ومارجوت بالديبلانكيث بوجوتا ، يوليه ١٩٩٢ .

(٣٤) جابرييل جارتيا ماركيز ، وماريو بارجاس يوسا . المصدر المذكور .

(٣٥) لا يوجد أحد في أسرة جارتيا ماركيز متأكد من الكتابة الصحيحة للاسم الثاني للخالة فرانثيسكا ؛ فكل واحد يكتبه كما يحلو له : بحرفي SS أو بحرف S واحد أو بحرف S في البداية أو C في آخر الاسم . ولكن في رسالة لها تنتمي إلى أرشيف أنا ريو رأيت أنها تُوقَّع فرانثيسكا Francisca C. Mejia مما يدل على أن الاسم شيمودوسيا Cimodosea كانت تكتبه على الأقل بحرف C في بداية الاسم .

- (٣٦) جارثيا ماركيز، وماريو بارجاس يوسا. المصدر المذكور.
- (٣٧) أي أن الحكاية كما حكاها جارثيا ماركيز لبارجاس يوسا في الحوار المذكور الذي دار بينهما يومي ٥ ، ٧ سبتمبر ١٩٦٧ في الجامعة الوطنية للهندسة بمدينة ليما لا يمكن أن يكون قد حدث بهذا الشكل مثلما حكته لي سارة ماركيز، والخالة فرانثيسكا لم تكن تعرف الحكاية ، ولكن الخالة أليبرا هي التي كانت تجيد الحكاية. وبالإضافة إلى ذلك عندما حدثت واقعة الكفن لم يكن جارثيا ماركيز موجوداً في أراكاتاكا ؛ بل كان في بوجوتا لحضور امتحان للحصول على منحة بوزارة التعليم وهو الامتحان الذي مكّنه من إتمام دراسته الثانوية في ثيباكيرا.
- (٣٨) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لكلاوديو ديريفوس في بلاي بوى إنترفيو: "جابريل جارثيا ماركيز" بلاي بوى ، يناير ١٩٨٣ (التيمبو في بوجوتا حيث نشر رواية موجزة وترجمة لكارلوس E. ريستريو، في ٩ يناير ١٩٨٣ والتي استشهد منها).
- (٣٩) وعلى سبيل المثال في لويس هارس المصدر المذكور، جابريل جارثيا ماركيز ، وماريو بارجاس يوسا. المصدر المذكور، وبيلينيو أبوليو ميندوثا. المصدر المذكور.
- (٤٠) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا. المصدر المذكور.
- (٤١) جابريل جارثيا ماركيز، وماريو بارجاس يوسا. المصدر المذكور.
- (٤٢) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لإيرنستو جونثاليت بيرميخو في "جارثيا ماركيز: الآن مانتا عام من العزلة" ترينوفو، مدريد. نوفمبر ١٩٧٠، وبيلينيو أبوليو ميندوثا. المصدر المذكور.
- (٤٣) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى ماريانيل بالبي في "البوليفار الكاريبي وليس الروماني"، الناشر (بوث سوليمينا) كاراكاس في ٢٣ فبراير ١٩٨٩ ، وطبقاً للكاتب كان الجد يصطحبه لتضليل الرقابة أو الحراسة الجمركية لأن القصصان الحرير والعطور كان يدخلها عن طريق التهريب.
- (٤٤) إن الحكاية التي قصتها على ليخيا جارثيا ماركيز تعتبر إحدى اللحظات القوية في طفولة الكاتب.
- (٤٥) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لسوسانا كاتو. المقال المذكور.
- (٤٦) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا. المصدر المذكور.
- (٤٧) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لجوستابو تاتيس جيروا. المقال المذكور: إن الحساء الأمريكية المجهولة كانت تُسمى باتريشيا براون في "مائة عام من العزلة" ، وبعد الطوفان الذي قضى على "الحظائر المكهربة" وزراعات الموز، ولم يبق منها سوى قفاز داخل سيارتها التي أطفأتها رامبات الثالث أو التلكيث.
- (٤٨) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لإنريكي سانتوس كالديرون، وخورخي ريستريو في "إنني ملتزم ومتورط حتى النخاع مع الصحافة السياسية". البديل رقم ٢٩، بوجوتا من ٢٥ مارس إلى ١٠ أبريل، ١٩٧٥ .
- (٤٩) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لجوستابو تاتيس جيروا. المقال المذكور.
- (٥٠) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز للويس هارس. المصدر المذكور. وإلى ماريا إيستر خيليو في "الكتابة الجيدة واجب ثوري" ترينوفو، مدريد ١٩٧٧ .
- (٥١) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لمانويل بيريرو، هافانا، ١٩٧٩ .
- (٥٢) جابريل جارثيا ماركيز : "العودة إلى الجنور". المصدر المذكور.

(٥٣) المصدر السابق نفسه .

(٥٤) استشهاد من جانب ماريو بارجاس يوسا في جارتيا ماركيز " قصة متمرّد " . في يونيو ١٩٩٢ تحدثت مع أوسبالدوريليس كتيانيو الذي كان قاضياً في كالي وعاد ليحدثني في هذا الصدد في آخر لقاء له مع جدة جارتيا ماركيز . وطبقاً لما ذكره كان اللقاء في أواخر عام ١٩٤١ قبل أن تموت الخالة فرانثيسكا ثيموبوسيا ميخيا ، التي وجدها في صحبتها كفيفة تماماً .

(٥٥) خورخي إلسير جايتان . المصدر المذكور .

(٥٦) ذُكر في تصريحات جارتيا ماركيز لجوستابو تاتيس جيرا . المصدر المذكور .

(٥٧) جابريل جارتيا ماركيز ، "ذاكرة سعيدة في كاراكاس" . الاسبكتادور (المشاهد) ، بوجوتا في ٧ مارس ١٩٨٢ .

(٥٨) جابريل جارتيا ماركيز : " العودة إلى الجذور " . المصدر المذكور .

(٥٩) المعلومات حول معنى والأصل الاشتقاقي لاسم ماكوننو كان الفضل فيها للخدمات الإعلامية للموسوعة البريطانية . اشتقاقاته ، وتنوعاته الاشتقاقية في مختلف اللغات الإفريقية المتعددة .

(٦٠) إنريكي بيريث أربيلايث النباتات المفيدة في كولومبيا ، ميداين . دار نشر فيكتور هوجو ، ومن محادثاتي مع لويس كارميلو كورثيا جارتيا ، بارانكيا ، أغسطس ١٩٩٢ ، بيدرو أنطونيو بيريث مونيوت وديونيسيو سانثيث ، جواكامايل ، أغسطس ١٩٩٢ .

(٦١) جابريل جارتيا ماركيز " الشعر في متناول الأطفال " في ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤ .

المصدر المذكور .

(٦٢) جاء ضمن تصريحات جارتيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوتا . المصدر المذكور .

(٦٣) جابريل جارتيا ماركيز " الزى القوسفوري " التيمبو (الزمن) ، بوجوتا في ديسمبر ١٩٩٢ .

(٦٤) منذ ظهور " الحب في زمن الغضب " انتشرت هذه الرواية ، التي نصت على أن جد القصص تُوفى بسبب وقوعه وهو يحاول اصطلياد بيفاء من أحد أغصان شجرة المانجو ، كما حدث للدكتور خويينال أوربينو في القصة ، ولكن كما ذكرت لي سارة ماركيز التي شهدت الأحداث إن سقوط أو وقوع العقيد ماركيز لم يكن فقط من فوق غصن شجرة المانجو ؛ بل حدثت الوفاة بعد عامين من ذلك نتيجة عدة ظروف . وفي شهادة الوفاة الموجودة في أرشيفات الكنيسة بكاتدرائية سانتا مارتا ذكر أن الجد تُوفى نتيجة الإصابة بالتهاب رئوي .

(٦٥) وطبقاً لبيانات شهادة الوفاة الكائنة في المجلد الحادي والثلاثين . الصفحة ٢٩٩ رقم ٦٣ - ٢٠ من أبرشية الساجرادو ، وسان ميغيل في سانتا مارتا . وفي نفس يوم ٤ مارس نشرت صحيفة الاستالو (النولة) في سانتا مارتا في باب " الحياة الاجتماعية " نبأ وفاة جد الكاتب . وفي الساعات الأولى من صباح اليوم تُوفى السيد نيقولاس رماركيز . تبعث بتعازينا إلى أهله ونويه . وبين هذا التاريخ ، و٩ من نفس الشهر نشرت في الصحيفة ذاتها ترجمتان للصديقين ، ويرقية عزاء من مجلس مدينة أراكاتاكا ، مما يبرهن الحب الكبير والتقدير الذي كان يتمتع به جد جارتيا ماركيز ليس فقط في أراكاتاكا ؛ بل أيضاً في جميع أنحاء محافظة ماجدلينا .

(٦٦) جاء ذلك ضمن تصريحات جارتيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوتا . المصدر المذكور .

هوامش الفصل الرابع

(١) القرار رقم ١٩٠ وزارة التعليم الوطني (المجلس المركزي للشهادات الطبية) ، ١٣ مايو عام ١٩٣٨ .
إن المعلومات الموجودة في هذا الفصل إذا لم يتم الإشارة إلى مصادر أخرى تأتي من محادثات مع جابريل جارثيا ماركيز، والدته لويسا سانتياجا ماركيز، وأشقائه لويس إنريكي ، ومارجوت، وعائدة، وإليخيا جارثيا ماركيز ، وأستاذه القديم ، والأب اليسوعي إجناسيو ثالديبار .

(٢) خوان جوساين ، " جارثيا ماركيز: هذا المجهول كروموس (ألوان) رقم ٢٨٠٤ ، بوجوتا ، ١٩٧١ .
(٣) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لروساريو أجوديلو في محادثات مع جارثيا ماركيز بوييلو (ملحق السيت الأدبي) مدريد في ٢ مايو ١٩٨١ .

(٤) داسو سالديبار ، جارثيا ماركيز: واقع بدأ ألا يكون الاسبكتادور (المشاهد) (مجلة الأحد) ، بوجوتا في ٩ أكتوبر، ١٩٧٧ ، عندما استشرت أرشيفات مدرسة سان خوسيه التي كانت لا تزال كاملة، ولكن بعد سنوات لاحقة مع الولوج بجارثيا ماركيز المتزايد ، وينقل المدرسة إلى مكان آخر اخفت الوثائق المتعلقة بالكتاب. فشهادات التقديرات للعامين الأول والثاني الثانويين تبرهن على أن التحصيل الأكاديمي للتلميذ " جابريل جارثيا " . وشهادة عام ١٩٤١ تلك السنة التي مرض فيها تشير إلى حضور غير منتظم للغاية حتى مايو، عندما اضطر إلى ترك الدراسة بالسنة الثانية ، وعاد مع والديه إلى سوكري .

(٥) خوان ب. فرنانديث رينو ، يتذكرُ عندما كان جارثيا ماركيز جابيتو (أى جابى الصغير) مجلة التيمبو (الزمن) "قراءات أيام الأحاد" ، بوجوتا ، أكتوبر ١٩٨٢ .

(٦) "ماما جايو" من أين جاء مصطلح "ماما جايسمو" و "ماما جايستا"، إنه تعبير شعبي ذو استخدام شائع اليوم في كولومبيا ، حيث يحدد المعنى أو المغزى المزاجي المرح لسكان ساحل الأطلسي . وبصفة عامة يستخدم كمترادفات "تومار البيلو" أى يسخر من أو يستهزئ من ، ولكن في مصطلحات جارثيا ماركيز "مامار جايو" يعنى المزاج الرقيق والمزاح الراقى أو اللحم سيئ الطعم أو المذاق . إنه كما خدده جارثيا ماركيز بنفسه يتعامل مع الأمور الجادة جداً والمزعجة للغاية ، وكأننا لا نأخذها مأخذ الجد خوفاً من المهابة والوقار . مامار جايو Mamar gallo طبقاً لعلماء لغة العرقيات . إنه تعبير قادم من فنزويلا ، وعلى ما يبدو يرجع أصله إلى مربى الديوك الرضاعة أو مص عرف الديوك. ويعنى أيضاً في بعض المناطق الكولومبية مداعبة أو تقبيل العضو التناسلي للمرأة.

(٧) فيكتور جونثاليث سولانو يؤكد على وجود محاولات أدبية سابقة: وكحالة مجهولة فنحن بإمكاننا الإشارة إلى عمر الحادية عشرة (.....) . كتب جابيتو بالفاظ رفيعة ما يمكن أن يطلق عليه اقتحامه الأول لجال الأدب ؛ التي تتكون من خمس صفحات كراسة على شكل بحث أسماء "محبرتي وأنا" و "لماذا أنا كذاب" (جارثيا ماركيز في بنول الزمن) . أنترميديو - ملحق الكاريبي، بارانكيا في ٢٤ أكتوبر ١٩٨٢). ونظراً للعنوانين المذكورين يمكن أن يكون ذلك صحيحاً ، ولكن ليس في الحادية عشرة من عمره ؛ بل قبل بلوغه هذه السن ،

ولكن فى محادثائى التى جرت مع جارثيا ماركيز بالمكسيك أبدى الكاتب تشككه وارتيابه عن وجود هاتين المحاولتين الأدبيتين : " لا أعتقد أن هذين الموضوعين المدرسين فى فترة مونتييسورى ، لأننى فقط تعلمت القراءة والكتابة فى العام الثانى ، وكنت أقرأ باستمرار فى الصف الثالث بالمدرسة، واعتباراً من ذلك العام كنت أرسم. إن أول موضوعات كتبها فى بارانكيا عندما كنت تلميذاً فى مدرسة سان خوسيه ، ولكن قبل ذلك لا؛ فقد كانت رسومات ورسومات ، ونُشرت فى مجلة خوينتود فى أعدادها ٦،٤،٣،٢،١ على التوالى فى شهور يونية، وسبتمبر، ونوفمبر عام ١٩٤٠ ومارس ١٩٤١ ونوفمبر ١٩٤٢ .

(٨) مجلة خوينتود (الشباب) العدد ١ . بارانكيا، يونية ١٩٤٠ .

(٩) مجلة خوينتود (الشباب) العدد ٤ . بارانكيا ، مارس ١٩٤١ .

(١٠) هذه الأشعار تنتمى إلى تعاونه الصحفى " من خلال ركن فى المنزلة الثانية" ، وقد نشرتها مجلة خوينتود (الشباب) بالعدد الثالث فى نوفمبر ١٩٤٠ .

(١١) ماريو بارجاس يوسا . المصدر المذكور .

هوامش الفصل الخامس

(١) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لخيرمان كاسترو في "جابو يحكى قصة حياته" الاسبكتاتور (المشاهد) ، بوجوتا من ١٦ إلى ٢٣ مارس ١٩٧٧ (هذا التحقيق كان امتيازاً مبدئياً من الكاتب إلى نفس الصحيفة للتليفزيون الكولومبي بمناسبة نقل أو إذاعة الإعداد التليفزيونى لقصته "الساعة المشنومة" ، وهى المرة الأولى التى يمنح فيها جارثيا ماركيز مقابلة لوسيلة إعلام مسموعة مرئية) . وقد نُكِرَ بين بعض الأصدقاء المقربين للكاتب أنها كانت أحد الأسباب التى جعلته يترك المنزل للعلاقة السيئة التى كانت تربطه بوالده. هذا أمر محتمل ؛ ففي رائحة الجوافة اعترف جارثيا ماركيز لبيلينيو ميندوتا: "النتيجة أن علاقاتنا كانت (علاقته مع والده) حتى المراهقة صعبة" ، وبعد ذلك بأربعة عشر عاماً بينما كان يشرف على ورشة عمل فى قرطاجنة الأمريكية مع اثنى عشر صحفياً أنه فى ثيباكيرا اضطر للحصول على درجات ممتازة لكى يظل يستمتع بالمنحة لأنه كان لا يرغب فى العودة إلى منزله ، لأن الكاتب كان يشعر بالسعادة خارجه (انظر كارلوس أرويو، جارثيا ماركيز: أنا لا أعرف قواعد النحو الباييس (البلد) ، مدريد فى ٢١ ديسمبر ١٩٩٥) .

(٢) جابرييل جارثيا ماركيز، "بوجوتا ١٩٤٧" فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠-١٩٨٤، المصدر المذكور.

(٣) خيرمان كاسترو كايثيو، المقال المذكور.

(٤) جابرييل جارثيا ماركيز، "نهر الحياة" فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠-١٩٨٤، المصدر المذكور.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر السابق نفسه .

(٧) خيرمان كاسترو كايثيو، المقال المذكور.

(٨) فى الحقيقة بدأ نجمه يضى أثناء الرحلة النهرية بالباخرة ليس فقط لأنه تعرّف على الرجل المتيم، بل ربما للنادرة التى حكاها لي فى بوجوتا لورينثو سولانو بيلايث محافظ لا جواخيرا السابق وحفيد لورينثو سولانو جوميث الصديق الكبير لجد جارثيا ماركيز: إنها قصة لم أستطع توضيحها . ولا أدري أكانت فى ١٩٤٢ أم فى ١٩٤٤ عندما كان فى باخرة تابعة للشركة البحرية الكولومبية كان هناك طالب على ظهر الباخرة يبكى لأنه فقد حافظة نقوده بكل ما فيها من مائتى أو ثلاثمائة بيزو. لقد وجدتته فى حمام الباخرة، وعندما عاد الفتى أعطيتها إياه. لقد عانقتى شاكراً إياى ثم تناولنا بعض كنووس الروم المخلوط بالكوكاكولا. وعلى ما يبدو لي إن صاحب الحافظة كان جابرييل جارثيا ماركيز ، ولكننى لم أره بعد ذلك قط. ولكن بعد بضع سنوات عندما كان يعمل فى الاسبكتاتور (المشاهد) ، ونشر أول كتاب له وكل مرة كنتُ أرى فيها صورته فى الصحف كنت أتذكر نادرة حافظة النقود. إن جميع المعلومات المذكورة فى هذا الفصل إذا لم يذكر مصدر آخر هى من محادثاتى مع جارثيا ماركيز وأشقائه لويس إنريكي ، ومارجوت جارثيا ماركيز ، وأستاذه الشاعر كارلوس مارتين ، وزميله السابق المهندس المعماري إدواردو أنجولو فلوريس ، وطبيب المسالك البولية أرماتنو لوبيث ، والتلميذ السابق بمدرسة الليسيه الوطنية فى ثيباكيرا والطبيبتين جلاديس وثونى كالديرون وكريمات كارلوس خوليو

كالدريون إيرميديا أستاذ الأدب لجارثيا ماركيز في ثيباكيرا ، وماريا لويسا نونيث ، وماريا لويسا جوميث دى أجيريى ، وأرملة ونجدة المحامى أنولفو جوميث تمارا على التوالي، ومن المدير الوطنى للمنتح الذى ساعد شاب أراكاتاكافى الحصول على المنحة فى بوجوتا لإتمام دراسته الثانوية فى ثيباكيرا .

(٩) خيرمان كاسترو كايثيدو، المقال المذكور.

(١٠) جابرييل جارثيا ماركيز، " بوجوتا ١٩٤٧". المصدر المذكور.

(١١) فى " أخطر لحظة فى الحياة" للقصاصد النثرية لثيسار بايخو رجل يعترف : إن هذه هى أخطر لحظة فى حياتى ، حيث كانت تكمن فى وحدتى وعزلىتى . إن هذه العزلة كما هو معلوم ستكون أخطر لحظة فى حياته ، إنها الوفاء الأعظم فى حياة شخصيات جارثيا ماركيز.

(١٢) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لدانى سامير فى " القصص جارثيا ماركيز لن يعود للكتابة"، مجلة التيمبو (الزمن) "قراءات أيام الأحد"، بوجوتا فى ٢٢ ديسمبر ١٩٦٨ .

(١٣) خيرمان كاسترو كايثيدو، المقال المذكور.

(١٤) المصدر السابق نفسه .

(١٥) ومن الغريب أن أول أشعار مَقْفَاة والتعليقات الصغيرة لجارثيا ماركيز كان قد نشرها فى مجلة خويينتود (الشباب) بمدرسة سان خوسيه ، وهى موجودة الآن فى مكتبة هذه المدرسة بفصل مساعى اليسوعى والمؤرخ فورتوناتو إيريرا .

(١٦) فى دفتر التسجيل فى ١٩٤٣ رقم ١٨٢ نُكِرَ فيه أنه سجّل فى الصف الثالث بالمرحلة الثانوية قادماً من مدرسة سان خوسيه فى بارانكيا - كطلاب داخلية حاصل على منحة". إن أرشيفات مدرسة اليسيه الوطنية القديمة للبنين توجد فى مدرسة لاساى الحالية. وكما حدث فى بقية كولومبيا فإن الولع بجارثيا ماركيز هو ما جعل معظم الأرشيفات المذكورة تهتم بكل ما يتعلق بحياة وإنتاج الكاتب. ومن أرشيفات لاساى الحالية لا توجد شهادتنا قيد أو تسجيل جارثيا ماركيز فى الصفين الخامس والسادس فى المرحلة الثانوية ، وكذلك لوحتا الفسيفساء لدفعة خريجي الثانوية عام ١٩٤٦: الرسمية والكاريكاتير التى رسمها جارثيا ماركيز بنفسه.

(١٧) ذكر ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لروساريو أجوديلو. المقال المذكور.

(١٨) هذا الإيضاح قام به جارثيا ماركيز فى أبريل ١٩٩٢ على متن الباخرة الفرنسية ميليكياديس ، التى رست فى ميناء قرطاجنة الأمريكية لتحية القصص. إن كلمات جارثيا ماركيز مذكورة فى المقال المذكور لجوستابو تاتيس جيرأ .

(١٩) كارلوس مارتين " نبأ صغير يتعلق بجابو" ، نص قرأه المؤلف فى إذاعة نيدر لاند فى أكتوبر ١٩٨٢ بمناسبة منح جائزة نوبل لجارثيا ماركيز.

(٢٠) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلىنيو ميندوتا. المصدر المذكور.

(٢١) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لخوان جوستابو كويو بوردا فى كومادريو ليترايو خلال أربع ساعات مع جارثيا ماركيز، فى الأدب الآخر لأمريكا اللاتينية، بوجوتا، أنكورا- بروكوتورا، ١٩٨٢ .

(٢٢) المصدر السابق نفسه .

(٢٣) جيرمو بالينثيا (١٨٧٣-١٩٤٣) كان أبرز ممثلى شعراء كولومبيا البرناسيين ، وكان شعارهم " التضحية بالعالم لتتقى بيت شعر " ، فى الخامسة عشرة من عمره فى مدرسة سان خوسيه فى بارانكيا لم يكن جارثيا ماركيز يقرأ ذلك فقط؛ بل كان ينشده فى سهرات المدرسة ، ولكن فى ثيباكيرا ترك ذلك بدافع من تأثير مجموعة الحجر والسماء . وكان رأيه كقصاص شهير رأياً مدمراً عن بالينثيا: عند إعادة قراءة ما كتبه جيرمو

بالينثيا أدركت أنه كان شخصية مغرورة تماماً ، إنه كالخجل العام حيث لم أجد بيتاً واحداً جيداً من شعرة`
(جاء ذلك فى تصريحاته لخوان جوستابو كويو بوردا).المصدر المذكور.

(٢٤) خيرمان سانتا ماريا ، `كارلوس خوليو كالديرون إيرميديا أستاذ جارتيا ماركيز` جازيتا (مجلة المعهد الكولومبى للثقافة) رقم ٣٩ ، بوجوتا ، ١٩٨٣ . كارلوس مارتين يذكرنى فى رسالته المؤرخة ٢٠ يولييه ١٩٩٢ التى كتبها فى لاهاي ؛ أن كتابه الشعرى بالفعل بعنوان` عبور برى` ، الذى نشر فى ١٩٤٢ ، وقد عرفه الأستاذ كالديرون وبعض التلاميذ فى ١٩٤٤ . لقد عرف جابو أنذاك ديوانى الشعرى الأول كما عَرَفَ مطبوعات أو إصدارات إدواردو كارانتا وخورخى روخاس.

(٢٥) يذكرنى كارلوس مارتين فى رسالته المذكورة أنه فى فصله قرئت عدة مرأت القصيدتان الشعريتان المشنومتان` والليليون لروين داريو.

(٢٦) رويين داريو ، سيرة ذاتيه ، مدريد ، موندادورى ، ١٩٩٠ ، والنص لكارلوس مارتين الذى قُرئ فى إذاعة نيدرلاند. المقال المذكور.

(٢٧) كأنها أخذت من صفحات بلو تارك يمكن سرد أكثر من خمسة وعشرين موقعاً متشابهاً أو مماثلةً بين رويين داريو ، وجارتيا ماركيز. وليس من العبث أن يكون النيكاراجوى والكولومبى من كبار المؤلفين للعصر الذهبى إلى جانب أن بايخو ويورخيس هما أعظم القصاصين والشعراء فى اللغة الأسبانية. ولذلك فإن الوجود القريب والخصب لرويين داريو فى` خريف البطريق` جاء ليثبت ويبرهن على التأكيد المعروف لجارتيا ماركيز وهو أن هذه القصة بين جميع القصص التى تشتمل على أكبر عدد من مفاتيح سيرته الذاتية.

(٢٨) خ.ج. كويو بوردا. المصدر المذكور. بالنسبة لهذه القراءات المبكرة لجارتيا ماركيز وكارلوس مارتين يحكى لي فى رسالته التى كتبها فى لاهاي: إن المرة الأخيرة التى رأيتها فيها فى كولومبيا اعترف لي بأنه لم ينس قط أنني ضغطت عليه لكى يقرأ كتاباً ضخماً بهذا الشكل ، مثل التجربة الأدبية لآلفونسو ريبس ، قلت له شيئاً فى ذلك على سبيل المزاح إن هذا يرجع لحسك ونبضك كناشر.

(٢٩) كارلوس مارتين ، `إزاء الصوت الجديد` جازيتا ليتاريا (المجلة الأدبية) (لسان حال المركز الأدبى لمجموعة الثلاثة عشر بمدرسة الليسيه الوطنية) ثيباكيرا فى ١٨ يولييه ١٩٤٤ .

(٣٠) ماريو كوينيريس ، وخابيير جارتيس ، `استبيان اليوم` جازيتا ليتاريا ، ثيباكيرا فى ١٨ يولييه ١٩٤٤ .

(٣١) العدد الأول من لا جازيتا ليتاريا(لسان حال المركز الأدبى لمجموعة الثلاثة عشر بمدرسة الليسيه الوطنية) صدرت يوم ١٨ يولييه ١٩٤٤ ، وإن كانت قد طُبعت قبل ذلك، وتتكون من ثماني صفحات ، تتكون كلٌ منها من خمسة أعمدة. مقالات ، وأخبار ، وتعليقات ، وروايات ، وأشعار للتلاميذ والمدرسين بمدرسة الليسيه الوطنية. وكانت إسهامات خابيير جارتيس (جارتيا ماركيز): فى باب شعراؤنا و` استبيان اليوم` و` لحظة النهر` تظهر فى صفحتى ٧، ٥ وتتضمن لا جازيتا ليتاريا بعض الصور الدعائية على استحياء فى عمودين أسفل الصفحة ، وبهذه الدعاية كانت المجلة تمول نفسها بنفسها. إن هذه المعلومة لم أستطع تأكيدهما ، ولكن جميع الشهادات تشير إلى أن المجلة لم يصدر منها سوى عديدين أو ثلاثة أعداد. وقد حصلت على العدد الأول بفضل سماحة ولطف الشاعر كارلوس مارتين.

(٣٢) خيرمان سانتا ماريا، المقال المذكور.

(٣٣) جابرييل جارتيا ماركيز، ` الشعر فى تناول الأطفال` ، المصدر المذكور.

(٢٤) ظهرت أشعار جارتيا ماركيز خلال فترة ثيباكيرا فى عدة مطبوعات كولومبية نظراً لأن أصحابها كانوا أصدقاء قدامى للكاتب، وقد أوضحوا لنا ذلك.

(٢٥) ولم يكن جارتيا ماركيز يكتب وينقح قصائده التى استوحاها من إلهامه ، ولكنه أيضاً كان يقرض الشعر بسهولة لأصدقائه وزملائه أو لخطيباتهم ، كما كان يفعل وهو فى الثالثة عشرة ، وفى الخامسة عشرة من عمره فى مدرسة سان خوسيه فى بارانكيا . إن زميله إنيواردو أنجولو فلوريس على سبيل المثال يتذكر هذه الأبيات: عيناك تشعان بريقاً كثيراً/ طفلة سبب سرأني / عيناك كالمصباحين/ قوتهما خمسة وعشرون بوجيها. إن الفتيان الآخرين الذين كانوا يقرضون الشعر لم يذهبوا لمدرس الأدب لكى يصحح لهم أشعارهم ؛ بل كانوا يبحثون عن جابرييل. وكان آخرون يغافلون ويسرقون السوناتاس أى القصائد الشعرية لكى يهدونها إلى خطيباتهم. وكما يتذكر جونثالو مايارينو ، وذات يوم ، وأثناء الرقص فى نهاية الأسبوع أراد زميل لجابرييل أن يغازل خطيبته (أى خطيبة جابرييل) ؛ حيث قرأ لها سوناتا كان صديقه قد أرسلها إلى خطيبته من قبل. وكانت الفتاة سعيدة ، وتركت الشاعر النصاب المتحل ينشد الأشعار المسروقة ، وقد ردت عليه قائلة: " أنا جاريد غير لى الروشتة " مشيرة بذلك إلى قصيدة للشاعر المكسيكى خوان دى ديوس بيتا (أى أنها المرسل إليها .

(٣٦) وفى المقابلة التى منحها كارلوس خوليو كالديرون إيرميذا إلى خيرمان سانتا ماريا ، المقال المذكور، والمدرس جارتيا ماركيز لم يشر إلى لحظات لعدم انضباط تلميذه السابق فى ثيباكيرا . ولكن فى المحادثات التى أجريتها مع كريميتيه (إن المدرس العجوز كان قد توفى منذ قليل) الطبيبتين جلاديس ، وثونى كالديرون حيث أكدتا لي - بالفعل - أن والدهما كان قد تحدث إليهما أكثر من مرة عن فترة عدم الانضباط لطالب الثانوية جابرييل جارتيا ماركيز ، كذلك الروايات التى كان يفرضها عليه كعقاب.

(٣٧) من الناحية الأولى لجارتيا ماركيز لا يعرف هل الأصل موجود أم لا . هناك أصول كثيرة للكاتب ينبغى البحث عنها واستردادها. فعن " المرض النفسى المتسلط " يتحدث المدرس كارلوس خوليو كالديرون إيرميذا فى المقابلة المذكورة مع خيرمان سانتا ماريا ، وكذلك حدثنى عنها المهندس المعماري إنيواردو أنجولو فلوريس فى دردشاتنا فى بوجوتا ، ١٨ يولييه ١٩٩٢

(٣٨) خيرمان سانتا ماريا ، المصدر المذكور.

(٣٩) المصدر السابق نفسه.

(٤٠) المصدر السابق نفسه.

(٤١) المصدر السابق نفسه.

هوامش الفصل السادس

(١) وطبقاً للتسجيل رقم ٦٥ في الصفحة ٣٢ بتاريخ ٢٥ فبراير ١٩٤٧ بكلية الحقوق بالجامعة الوطنية. نجد تقديرات جابريل جارثيا ماركيز في المواد التسع للصف الأول، وكذلك تقديرات المواد الأحد عشر في الصف الثاني موجودة في هذه الصفحة ، وجدير بالذكر أن الكاتب هجر الدراسة في الصف الثاني في ٩ أبريل ١٩٤٨ . وفي الهامش السفلي بالناحية اليمنى توجد ملحوظة بالقلم الرصاص تقول: " سَجِّل في جامعة قرطاجنة . المعلومات التي تقدمها في هذا الفصل إذا لم تذكر مصادر أخرى تأتي من محادثاتي مع جابريل جارثيا ماركيز وشقيقه لويس إنريكي وأصدقائه لويس بيار بوردا ، وجونثالو مايارينو ، ولويس كارميلو كورثيا .

(٢) جاءت ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى خوان لويس ثييريان في " صورة جارثيا ماركيز نادي القراء ، سبتمبر ١٩٨٩ .

(٣) الدرجة من صفر إلى خمس درجات وقد رسب في مادة الإحصاء والسكان ؛ حيث حصل على ٢ من ٥ درجات ، ونجح في القانون الدستوري والدولي ؛ حيث حصل على ٣ درجات ، ويوجد كشط في هذه الدرجة. أما المواد الأخرى التي درسها في الصف الأول فهي: القانون المدني ، والقانون الروماني ، والاقتصاد السياسي العام ، والأحياء ، والتاريخ السياسي الاقتصادي في كولومبيا ، ومدخل إلى القانون.

(٤) في عام ١٨٥٤ انقسم الليبراليون الذين كانوا يتولون الحكم آنذاك إلى فريقين. الفريق الأول ضم التجار والمحامين والخطباء ، وقد أطلق على هؤلاء اسم لوس كاتشاكوس (التجار والمحامين والخطباء). أما الفريق الثاني فقد تألف من الحرفيين ، ومجموعات شعبية أخرى ، وقد لقبوا جواتشيس ، نظراً لصناديق الاقتراع التي كانوا يستخدمونها.

(٥) خيرمان أرثينييجاس ، الملح ، والذهب والزُمرّد " و" هكذا كانت بوجوتا - بوجوتا ، دار نشر جاماً ، ١٩٨٧ .

(٦) كان أهم مقهيين لهما طابع اجتماعي وأدبي كبير هما أستورياس الكائن في شارع ١٤ بين طريقي ٦ ، ٧ والأوتوماتيكو بشارع خيمينيث دي كيسادا بين طريقي ٥ ، ٦ . وفي هذين المكانين كان الكتاب يلتقون من مختلف الأجيال مع الشباب الجامعي. وهناك حكاية توضع هذا التقارب - على سبيل المثال- تلك التي يحكيها الشاعر ألبارو موتيس الصديق الحميم لجارثيا ماركيز: " لن أنسى أبداً أننا كنّا ذات مرّة هناك ننتقد كاتباً في ذلك الحين. وعندما سمع ذلك ليون دي جرييف قال: لكي نقول هذه الأشياء لابد أن نعرف - ياإلهي- حتى ولو بالاسم جياومي وأبولينير" ، وقد أجبت قائلاً: لقد قرأت له. التفت دي جرييف برأسه تجاهي وسألني عن العمر. وعندما أجبت حك لحيتي ، وقال: لا يحق أن يكون الإنسان في العشرين من العمر ... لا يحق ذلك. ولكن من الرائع أن يكون الشخص قد قرأ لأبولنير" فرناندو كيروث ، " المملكة كانت لي" (محادثات مع ألبارو موتيس) ، بوجوتا ، دار نشر مجموعة نورما ، أبريل ١٩٩٣ .

(٧) القصيدتان لجابريل جارتيا ماركيز تم استردادهما نتيجة لمسعى شخصي للويس بيار بوردا ، وقد نُشرتا في يولية ١٩٤٧ في صحيفة لا راثون (العقل) . الحياة الجامعية كانت تصدر كل ثلاثاء ، وقد صدرت فقط أثناء ١٩٤٧ . وكما يشير اسمها كانت تهتم بالموضوعات ، والمشاكل الجامعية وخاصة القضايا الإنسانية والأدبية . إنها قصائد جارتيا ماركيز التي ظهرت في باب الشعراء الجامعيين .
(٨) بيلينيو أبوليو ميندوثا - القضية الخاسرة في لا ياما والإيلو (الذهب والتج) ، برشلونة ، دار نشر بلانيتا ، ديسمبر ١٩٨٤ .

(٩) بيلينيو أبوليو ميندوثا نفس المصدر المذكور يحكى أنه بعد التعرف على جابريل جارتيا ماركيز في مقهى بمدينة بوجوتا ، حيث قدّمنى له وعرفنى عليه لويس بيار بوردا قال عنه إنه يتلذذ بالآلم . ذات يوم ذكر فى الجامعة أنه مريض بالزهرى . وفى يوم آخر قال إنه يعانى من مرض السل الرئوى . كان يشرب إلى أن يسكر ، وكان لا يحضر الامتحانات ، كان ينام فى بيوت الهوى . واخسارته ، إنه ذكى عبقري . ولكنه هو قضية خاسرة على الإطلاق . وعلى الرغم من أن هذا الكلام يمكن أن يترجم رأياً عاماً بين رفاقه آنذاك عندما كان جارتيا ماركيز طالباً بكلية الحقوق تبدو أنها آراء مبالغ فيها من جانب ذاكرة بيلينيو أبوليو ميندوثا على لسان لويس بيار بوردا ، لأنه كما يرى كان يقدر رفيقه فى القراءات الأدبية والصحفية إلى أقصى درجة .

(١٠) جاءت ضمن تصريحات جارتيا ماركيز لدانييل سامبر ، المقال المذكور .

(١١) جاءت ضمن تصريحات جارتيا ماركيز لخيرمان كاسترو كايثيدو ، المقال المذكور .

(١٢) جابريل جارتيا ماركيز ، "بوجوتا ١٩٤٧" المصدر المذكور .

(١٣) المصدر السابق نفسه .

(١٤) المصدر السابق نفسه .

(١٥) وعلى العكس فإن رفات الجد نيقولاس اختفى من المقابر المركزية بسانتا مارتا فى أواخر الثمانينيات أما رفات الجدة ترانكلينا فقد نُقل من سوكرى إلى قرطاجنة ، حيث يرقد فى مستودع العظام بالكاتدرائية .

(١٦) إنوارد ثلاميا بوردا (أوليس) - المدينة والعالم - صحيفة الاسبكتاتور (المشاهد) ، بوجوتا فى ٢٢ أغسطس ١٩٤٧ .

(١٧) جارتيا ماركيز حكى مراراً وتكراراً أنه كتب أو أتم قصته الاستسلام الثالث عندما قرأ ملحوظة أوليس ، وقد فعل ذلك بدافع التضامن الجيلى : لكى يثبت الكتاب أن جيله قادر على أن يكون منه كُتّاب . وعلى الرغم من كون ذلك حقيقياً وصحيحاً ، فإن الشرح أو التفسير هائل ومصطنع حيث أن ما هو منطقى أو الشيء المنطقى الوحيد هو التفكير أن ذلك الشاب ذو العشرين ربيعاً أتم قصته وأرسلها إلى صحيفة الاسبكتاتور المشاهد عندما سنحت له فرصة واضحة ومواتية لكى ينشروا له أعماله . ومن الصعب الاعتقاد أن فتى يكتب أول قصة له أن يكون قد اتخذ هذا الموقف النبيل والمهم .

(١٨) جاء ضمن تصريحات جارتيا ماركيز لخيرمان كاسترو كايثيدو ، المقال المذكور .

(١٩) إينواردو ثلاميا بوردا ، " المدينة والعالم " ، صحيفة الاسبكتاتور المشاهد ، بوجوتا ، الثلاثاء ١٨ أكتوبر ١٩٤٧ . لم تخرج الملحوظة لأنه كما أكد جارتيا ماركيز إلى جانب أول قصة له فى سبتمبر من ذلك العام .

هوامش الفصل السابع

- (١) من محادثاتي مع مانويل ثباتا أوليبيا في بوجوتا ، ١١ يولييه ١٩٩٢ ، لقد ذكر لي هذا أنه من المحتمل أن يكون قد تعرّف على جارتيا ماركيز قبل ذلك بكثير ، ولكنه بدأ يتذكره اعتباراً من هذا اللقاء في أواخر ١٩٤٧ ، وأنه يتذكره جيداً لأن جارتيا ماركيز وهو لا يزال طالباً جامعياً اعترف له أنه يعاني من مشاكل مادية لكي يستكمل دراسته ، وأن كل ما يرغبه هو أن يكون كاتباً . إن المعلومات الأخرى التي وردت في هذا الفصل - إذا لم أذكر مصادر أخرى - تأتي من محادثاتي مع مانويل ثباتا أوليبيا نفسه ، وجارتيا ماركيز ، ولويس بيار بوردا ، ولويس إنريكي جارتيا ماركيز ، وخوان ثباتا أوليبيا ، وجوستابو إيباراً ميرلانو ، والفونسو فوينمايور ، وراميرو دي لا إيسبيريا ، وألبارو موتيس ، ومن الدردشة التي لم تُنشر لجارتيا ماركيز مع طلبة مدرسة الصحافة صحيفة الباييس ، وجامعة الأوتونوما بمدريد ، في ٢٨ أبريل ١٩٩٤ .
- (٢) رفائيل جالان ميداين ، " جريمة أبريل " بوجوتا ، دار نشر أيكوي ، أبريل ١٩٨٦ .
- (٣) دانييل بيكاوت ، الأمن والعنف : كولومبيا ١٩٢٠-١٩٥٤ ، الجزء الثاني ، بوجوتا ، مجموعة القرن الحادي والعشرين للنشر ، أغسطس ١٩٨٧ .
- (٤) خورخي أليسيرجياتان ، المصدر المذكور .
- (٥) دانييل بيكاوت ، المصدر المذكور . وبينخامين أرديلا دوارتي ، " جايتان والليبرالية الشعبية " ، في تاريخ كولومبيا ، الجزء الأول ، الملزمة ٢١ ، بوجوتا ، دار نشر لا أوبيخا نيجرا ، ١٩٨٦ .
- (٦) انظر على سبيل المثال دانييل بيكاوت ، المصدر المذكور ، وجونثالو سانشيث ، ودوني ميرتنس قُطّاع الطرق ، والإقطاعيون ، والفلاحون (حالة العنف في كولومبيا ، بوجوتا أنكورا للنشر ، ١٩٨٣) نظرية القاتل السياسي لخورخي أليسيرجياتان تتأكد عندما يتم تحليل الماضي القريب لخوان روسا سيراً قاتله الفعلي . في ينس للعثور على عمل . جاء في يوم من الأيام إلى مكتب جايتان قبل بضعة أشهر لكي يطلب مساعدته ، ولكن الزعيم الليبرالي أخبره بأنه يصعب عليه الاستجابة لمطلبه بسبب القيود التي تفرضها الحكومة المحافظة ، وقد اقترح عليه الذهاب إلى الرئيس ماريانو أوسبينا بيريث . وفي سكرتارية الرئاسة طلبوا منه مزيداً من التفاصيل بشأن طلبه ، وهذا يعني أن حكومة المحافظين نما إلى علمها من هو وفي أي وضع يكون . ومما يثير الشك أن خوان روسا سيراً تحول من موقف فقير إلى رجل ذي مشروعات للسفر إلى شرق البلاد ، ومعه مئات من البيزو سمحت له قُبيل أيام من الجريمة بشراء مسدس قديم دون أدنى مساومة .
- (٧) بيتر ستوني ، " انكتشف عالم جابريل جارتيا ماركيز " استشهاد لبيدرو سورديلا في جارتيا ماركيز الآخر . السنوات العجاف ، مدريد ، موندادوري ، ١٩٨٨ .
- (٨) بيلينيو أبوليوميندوثا " سيرة ذاتية منزلية لقصة " مجلة التيمبو الزمن " ، " قراءات أيام الأحد " ، يونية ، ١٩٦٣ .

(٩) جاء ذلك ضمن تصريحات فيدل كاسترو لأرتورو ألابي في مناساة بوجوتا. مذكرات النسيان ، بوجوتا ، دار نشر يلوما (القلم) ، ١٩٨٣ .

(١٠) المصدر السابق نفسه.

(١١) كليمنتي مانويل ثبالا، " تحية لجارثيا ماركيز"، صحيفة الأونيفرسال (العالمى) ، قرطاجنة ، ٢٠ مايو ١٩٤٨ .

(١٢) المقال الأول لجارثيا ماركيز لصحيفة الأونيفرسال (العالمى) كان عن المدينة الاستعمارية وحظر التجول ، وقد نُشر في ٢١ مايو ١٩٤٧ في الصفحة الرابعة ، حيث افتتح به عموداً بعنوان " نقطة ومن البداية أو من أول السطر".

(١٣) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لجاك جيرالد ، التي ذكرها في مقدمته لنصوص ساحلية، برشلونة ، دار نشر بروجيرا، فبراير ١٩٨١ .

(١٤) جابرييل جارثيا ماركيز ، " هيكتور روخاس إيراثو " ، الهيرالد ، بارانكيا ، ١٤ مارس ١٩٥٠ .

(١٥) جابرييل جارثيا ماركيز ، " بهلوان ملون خلف الباب " في ملحوظات صحفية من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٤ المصدر المذكور.

(١٦) انظر العمود " نقطة ومن أول السطر" بصحيفة الأونيفرسال (العالمى) في ٢٩ يونيو ١٩٤٨، المذكور في نصوص ساحلية. إن الاسم الحقيقي لهذا العمود عن الشاعر الوهمي ثيسار جيراً بالديس تم الإفصاح عنه بواسطة خورخي جارثيا أوستا في " جذور السحر المشترك" صحيفة الاسبكتادور" المشاهد " ، " المجلة الأحدية " ، بوجوتا ، ١٦ أغسطس ١٩٩٢ . وفي اليوم التالي لنشر مقال روخاس إيراثو في عمود جارثيا ماركيز صدر في نفس الصحيفة تحقيق لما يدعى جيراً بالديس أعدّه مانويل ثبالا وروخاس إيراثو ، وإيباراً ميرلانو ، وجارثيا ماركيز ، حيث أفصحوا فيه عن فكرهم الأدبي وآرائهم القاسية عن الثقافة والتاريخ في بلدان أمريكا اللاتينية.

(١٧) وفي " عندما توجّ جارثيا ماركيز ملكات الجمال " (مجلة التيمبو) ، " قراءات أحدية " ، بوجوتا في ٨ نوفمبر ١٩٨٧) ، خورخي جارثيا أوستا نسب إلى جارثيا ماركيز الكلمة التي ألقاها في ٥ يولييه ١٩٤٩ في تتويج ملكة جمال الطالبات إليبرا بيرجارا. وعندما عرضت النص على راميرو دى لا إسبيريا قال لى - بالفعل - إن هذه الكلمة ألقاها جارثيا ماركيز ونُشرت في الأونيفرسال (العالمى) باسمه ، ولكن النص في الحقيقة هو من إعدادى ، وقد أطلعه على نص جارثيا ماركيز : وهو نص نُشر أيضاً في نفس الصحيفة باسم دى لا إسبيريا ، وقد ألقاه هذا في نفس اليوم في تتويج ملكة الجمال الأخرى كارمن ماروجو ، ولكن في الواقع كان من إعداد جارثيا ماركيز. وتحليل أسلوبى النصين يتأكد لنا دون أدنى ريب ما ذكره راميرو دى لا إسبيريا. وبعد ذلك بسبعة أشهر في تتويج ملكة جمال بارانو في ١٨ فبراير ١٩٥٠ كرّر جارثيا ماركيز فقرتين حرفياً من كلمة دى لا إسبيريا.

(١٨) انظر على سبيل المثال " منزل أسرة بوينديا " ، و " نجل العقيد " و " كريمة العقيد " والعودة من ميمى . حيث جمّعها جاك جيرالد في " نصوص ساحلية " و " رجل قادم تحت المطر" في مقال آخر بين التجار والمحامين والخطباء (لوس كاتشاكوس) ، برشلونة، دار نشر بروجيرا، أبريل ١٩٨٢ .

(١٩) إن شهر وستة هذا اللقاء حددهما جاك جيرالد في مقدمته لـ " نصوص ساحلية" ، وقد أقرهما جوستابو إيباراً ميرلانو في محادثتنا في بوجوتا ، ٢٧ أغسطس ١٩٩٢ .

(٢٠) جاء ذلك في تصريحات خيرمان بارجاس لخورخي ميدينار ونغون في - لم يتبق لجابو إلا الكتابة للأطفال - ، صحيفة الاسبكتادور - المشاهد - ، بوجوتا ، ٢٢ أكتوبر ١٩٨٢ . وفي معنى مشابه تذكر هذا اللقاء الأول في مقابلة أجراها البارو ميدينا لاستطلاع الرأي - من قهوة كولومبيا إلى حانة لا كويبا - ملحق الكاريبي ، بارانكيا ، ١٤ أكتوبر ١٩٧٣ . وكان هذا هو اللقاء الأول لجارثيا ماركيز مع مجموعة بارانكيا ، وقد تأكد ذلك من تعليق لاحق لآلفونسو فوينمايور للصحفية الكوبية ليديث بالينثويلا (في رياليداد ونوستالغيا لجارثيا ماركيز: الواقع والحنين لجارثيا ماركيز) ، هافانا ، دار نشر يابلودي لا تورينتي ، ١٩٨٩) : إنه يعتقد - لأن الذاكرة تخونه في بعض الأحيان أنه تعرّف على جارثيا ماركيز في ١٩٤٩ . كما أنه لا يتذكر سبب تقديمه للصحفي خيرمان بارجاس - وهذا يعني أنّ ألفونسو فوينمايور يعترف بأن خيرمان بارجاس التقى مع جارثيا ماركيز قبل أن يلتقى به في سبتمبر ١٩٤٨ .

(٢١) في محادثاتها في بارانكيا بتاريخ ٢٢ أغسطس ١٩٩٢ ، لم يتذكر ألفونسو فوينمايور وجود إيباراً ميرلانو ولا الرسام إليخاندرو أوبريجون في هذا اللقاء مع جارثيا ماركيز. وبعد ذلك في الرسالة المؤرخة في ١ يناير ١٩٩٣ عاد ليؤكد لي : ليس صحيحاً أنّ محادثاتي الأولى مع جابيتو يكون قد حضرها الصديق الكبير جوستابو إيباراً ميرلانو. ولكن طبقاً لما حكاه لي إيباراً ميرلانو لم يكن موجوداً فقط ، بل كانت مداخلته في المحادثة هي الأبرز إلى جانب ألفونسو فوينمايور. ويتذكر إيباراً ميرلانو أيضاً وجود الرسام إليخاندرو أوبريجون نظراً لما يلي: لقد حكى له أوبريجون أن شعر إدواردو كارانثا لم يحظ بإعجابه ، على الرغم من كونه رائد حركة "حجر وسماء" الشعرية والتي قرأ لها كثيراً جارثيا ماركيز.

(٢٢) إنه مكان مشترك ذكره الكاتب. فخلال سنوات يحاول جارثيا ماركيز جاهداً ربط تكوينه الأدبي والصحفي الحقيقي وكتابة " الورقة الساقطة " في مدينة بارانكيا والجو العام لأصدقاء هذه المدينة على حساب قرطاجنة وأصدقاء قرطاجنة. حتى أنه أكد على الملأ : في ١٩٥٠ عندما كنت في بارانكيا (وكني تكون صرخاء كان ذلك في قرطاجنة ولكنني لم أذكر أصدقاء قرطاجنة لأنهم كاتشاكوس (المحامون والتجار والخطباء) ، كتبت " الورقة الساقطة " (تصريحاته لدانييل سامبير بيثانو، المقال المذكور) . وبعد ذلك بسنوات قبل ذلك قائلاً: كتبت نصف قصتي الأولى..... في الساعات المبكرة الحارة ذات الشذى بجوار مطبعة صحيفة الأونيغرسال (العالمي) ، قرطاجنة - (السحر المر للآلة الكاتبة ، في ملحوظات صحفية ١٩٨٠-١٩٨٤) . وفي الواقع كما يُبرر في الملحوظتين ٢٤، ٢٥ بهذا الفصل فإن قصة " الورقة الساقطة " كتبت في نسختها الأولى في قرطاجنة خلال (من المحتمل) أواخر ١٩٤٨ والأشهر الستة الأولى من ١٩٤٩ .

(٢٣) في محادثاتها بالمكسيك تذكر جارثيا ماركيز أنه عندما عاد من بوجوتا إلى الساحل بدأ يقرأ للكاتب الأمريكي فوكتر ، وقد أفاده ذلك في اقتباس طريقته في الكتابة ، كما أبرزت له تلك القراءات لفوكتر الأهمية الأدبية لعالم طفولته في أراكاتاك وزراعات الموز ، حينئذ بدأ كتابة لا كاسا (المنزل) التي هجرها بعد أن كتب الفصول الأولى لكي ينتقل على الفور إلى " الورقة الساقطة " ، وهكذا فإن بداية كتابة هذه القصة كانت في قرطاجنة خلال الثلاثة أشهر الأخيرة ، الشهرين الأخيرين من ١٩٤٨ . وذلك بالطبع تاريخ تقريبي ولكنه ليس خاطئاً إذا أخذ في الحسبان أن شهادات إيباراً ميرلانو وروخاس إيراثو فإن الورقة الساقطة كتبت في أول نسخة لها ما بين مايو ويوليه من عام ١٩٤٩ .

(٢٤) " عودة زميل " ، الأونيغرسال (العالمي) ، قرطاجنة ، ١٥ مايو ١٩٤٩ . العنوان الآن نقص العُشب ويشير المؤلف المجهول لذلك المقال الذي وفقاً لجميع الأقوال هو روخاس إيراثو ، وهو أحد العناوين المتعددة لقصة " الورقة الساقطة " في البداية. ويؤكد جيرالد في مقدمته "نصوص ساحلية" أن العنوان الغريب كما أوعز إليه به جارثيا ماركيز كان من اختراع روخاس إيراثو، وأن هذه القصة لم تُوجد أصلاً. ومع ذلك في

أكتوبر ١٩٧٢ حكّت لي عابدة جارتيا ماركيز- التي كانت راهبة آنذاك- في كويابكانا - أنطويوكيا أن شقيقها وضع للقصة عدة عناوين تتذكر منها على وجه الخصوص " الآن نقص العُشب " انظر داسو سالدنيار، الراهبة عابدة جارتيا ماركيز " ، صحيفة الاسبكتاتور " المشاهد " ، " مجلة الأحد " ، بوجوتا ، ٢٢ أكتوبر ١٩٧٢ . ومن الممكن أن يكون العنوان لروخاس إيراثو ، وقد استعاره جارتيا ماركيز لأن الصديقين في تلك الفترة كانا يكتبان في أعمدة الأونيفرسال (العالمى) ، وكانا يستعيران كل شيء : العناوين ، والاستعارات ، والشخصيات ، والموضوعات ، ولكن الحجة الدامغة في أن روخاس إيراثو أشار إلى " الورقة الساقطة " بهذا العنوان من ذكريات فوكتر ، يكمن في الرأى الذى أبداه بشأن هذه القصة في نفس المقال: إنها أحد أكبر الجهود التى تبذل حالياً في كولومبيا لإدراج بلادنا في دروب القصة المعاصرة في أمريكا اللاتينية. إنه حكم مبالغ فيه من جانب شخص في غاية الذكاء ومطلع مثل روخاس إيراثو استطاع فقط الإشارة إلى " الورقة الساقطة " وليس قصته المنزل " والتي كان الكاتب قد هجرها مؤقتاً ، وأن الحكم على الأجزاء التى وصلت إلينا لا يمكن أن تستحق هذا الحكم المتحمس. ومن ناحية أخرى ؛ فإن إشارة وتعليق روخاس إيراثو على القصة الأولى لجارتيا ماركيز يعتبر أحد الموضوعات القوية الراسخة التى تسمح لنا - وضد كافة التأكيدات لأغلب كاتبى السيرة الذاتية للقصاص ، وعلى الرغم من أن جارتيا ماركيز أرخ للقصة في بارأنكيا عام ١٩٥٠- أن قصة " الورقة الساقطة " كُتبت أثناء فترة قرطاجنة ، وأن النسخة الأولى كانت جاهزة في مايو/ يوليو ١٩٤٩ .

(٢٥) في رسالته المؤرخة في ٩ فبراير ١٩٩٣ في بوجوتا ذكر لي إيباراً ميرلانو أنه قرأ " الورقة الساقطة " قبل سفره إلى بوجوتا لكى يستقر بصفة نهائية في هذه المدينة . وتاريخ سفره كان في ٢٦ يولييه ١٩٤٩ أو قبل ذلك بقليل لأنه صدر في ذلك اليوم بصحيفة الأونيفرسال (العالمى) مقال مجهول المؤلف مودعاً إياه الذى كتبه له جارتيا ماركيز. وفي رسالة أخرى مؤرخة أيضاً في بوجوتا في ١٥ سبتمبر ١٩٩٤ وأكثر دقة: بالتالى فإن قصة الورقة الساقطة كانت قد كُتبت وصُحِّحت في يولييه ١٩٤٩. إن هذا هو الموضوع الأكثر صلاباً من الموضوعات المتعددة التى تؤكد أن جارتيا ماركيز كتب قصته الأولى في قرطاجنة ، وأنه في منتصف ١٩٤٩ كانت النسخة الأولى جاهزة: تلك التى قرأها روخاس إيراثو، وإيباراً ميرلانو.

(٢٦) جاء ذلك ضمن تصريحات جارتيا ماركيز إلى ج.ج. كويو بوردا. المصدر المذكور.

(٢٧) على الرغم من أنه لم يُسجَل حتى ١٧ يونية طبقاً لما تشير إليه شهادة القيد رقم ١٢٩ المذكورة في الكتاب رقم ٧ الورقة ٥٨ ، ٥٩ ، والتي توجد بأرشيفات جامعة قرطاجنة.

(٢٨) جارتيا ماركيز غاب خلال هذا العام خمس عشرة مرة : تسع مرات في القانون الدولى العام، وست مرّات في القانون الرومانى. أما تقديرات المواد فهى كالتالى: علم الاجتماع العام: ٥ درجات ، والقانون الدستورى ٥ درجات ، والقانون الكنسى أو الدينى: ٥ درجات، والقانون الدولى العام : ٥ درجات ، والقانون المدنى: ٤ درجات ، وتاريخ النظريات الاقتصادية: ٤ درجات ، والاجتماع سيمينار: ٤ درجات ، والقانون الرومانى: درجتان ، وعلم طبائع الإنسان وعلم النفس : لم يدرسهما .

(٢٩) وبالنسبة للصف الثالث ؛ فقد سجّل في ٥ فبراير الى ١٩٤٩ برقم ١١١ . وقد تضاعفت نسبة غيابه مقارنة بالصف الثانى: بلغ غيابه أربعاً وستين يوماً : منها سبعة وثلاثون في القانون المدنى ، وستة في سيمينار القانون المدنى، وواحد وعشرون في القانون الأسبانى وقانون الهنود الحمر. أما تقديرات المواد في الصف الثالث فهى على النحو التالى: علم الاجتماع الأمريكى: ٥ درجات ، وقانون العقوبات العام: ٤ درجات، والقانون الدولى الأمريكى وتاريخ كولومبيا: ٤ درجات ، والقانون الأسبانى والهنود الحمر: ٤ درجات، والمالية العامة: ٢ درجات ، والقانون المدنى: ٢ درجات، والطب الشرعى: درجتان، وسيمينار القانون المدنى: لم يُقدّم البحث المطلوب.

(٣٠) جابريل جارثيا ماركيز، المراسم الأولية، مقدمة لقصة: الشبورة الزرقاء لجورج بيسويل كوتيس، قرطاجنة، طبوغرافيا، دياريو دي لا كوستا (صحيفة الساحل) ، ديسمبر ١٩٤٩ . وإلى جانب مقدمة جارثيا ماركيز فإن هذه القصة نُشرت بمقدمة مضادة لسانتندير بلانكو ، لأنه كما يتذكر مانويل ثبالا أوليبيبا فإن بيسويل كوتيس لم تُعجبه مقدمة جارثيا ماركيز ، لأنه لم يُثن عليها الثناء الإيجابي بين الأصدقاء ورفاق الجماعة : بل بكل المرح والرفقة حيث سرد الأخطاء والعثرات - دون هوادة - التي ارتكبها في القصة.

(٣١) وفي الواقع إن دافع أو سبب عن الحب وشياطين أخرى وجده بعد ذلك بسنوات طويلة وربما في أوائل الثمانينيات بينما كان يؤثق ويجمع معلومات لقصة الحب في زمن القضب . إن الأمر يتعلق بواقعة تاريخ قرطاجنة الأمريكية الذي رواه إدواردو لا ماتيرى المعروف باسم السياساتيو إديفينيس ، وهي عبارة عن دعوى قضائية بين الزُهبان الكبوشيين ، ولوس كارليساس (أعضاء ينتمون إلى حزب سياسى يتمسك بالتقاليد القومية والدينية ، وتتخللها قصة حب بين التلميذة المستجدة خوانا كليمينثيا دى بارثيس إى ياندو ، ونائب المحافظ (جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لجوستابو تاتيس جيرا ، المصدر المذكور) .

(٣٢) ويشير إدواردو ثلاميا بوردا (أوليس) في الملاحظة التي قرأها جارثيا ماركيز: (...) وقريباً ستظهر في الباب الأدبي في هذه الصحيفة أعمال لمؤلفين مثل أرتورو كوماتشو راميريث، ألبرتو أنخيل مونتويا ، وكارلوس لوبيث ناريبايث ، وألبارو موتيس ، وكُتاب آخرون . صحيفة الاسيكاتادور المشاهد ، بوجوتا في ٢٢ أغسطس عام ١٩٤٧) .

(٣٣) في الملحق نهاية الأسبوع الاسيكاتادور (المشاهد)، السبت ٦ سبتمبر ١٩٤٧، وقد ظهرت بشكل بارز قصيدة ٢٠٤ - لألبارو موتيس ، في ٤ أكتوبر من نفس العام ، لعنات وسباب ماكرول الجابيريرو .

(٣٤) جابريل جارثيا ماركيز، صديقي موتيس ، صحيفة الباييس ، مدريد ، ٣٠ أكتوبر ١٩٩٣ .

هوامش الفصل الثامن

- (١) جاك جيرالد ، مقدمة لنصوص ساحلية. المعلومات التي لم يتم ذكر مصادرها في هذا الفصل وردت في محادثاتي مع ألفونسو فوينمايور ، وجوستابو إيباراً ميرلانو وراميرو دى لا إسبريا والبارو موتيس.
- (٢) ودُعُ جارثيا ماركيز الاثنان بمقالين صحفيين ملينين بالحب والإعجاب، وقد وصفه إيباراً بأنه نموذج إنساني فوق العادة، ومفكر في المعنى الصحيح لهذا المصطلح أو اللفظ الذي يربطه به حب مطلق (مقال مجهول بصحيفة الأونيفرسال (العالمى) ، قرطاجنة ، ٢٦ يولية ١٩٤٩) . وبعد ذلك بيومين وفي نفس الصحيفة مقال موقع باسمه سفر راميرو دى لا إسبيريا ودعه بتعليقات مشابهة ، وأضاف بأن الصديق سيفتقدونه كثيراً " لكى تحملنا أياماً كاملة يقرأ أصول قصة لا يمكن نشرها دون موافقتك " (أى أن جارثيا ماركيز ينبغي أن يشير هنا إلى قصته " الورقة الساقطة " وليس " لا كاسا " (المنزل) .
- (٣) الطبيعة تقرّر الدعوى القضائية القديمة بين ميناء كولومبيا وبوكاس دى ثينيثا صحيفة الاسبكتاتور " المشاهد " ، بوجوتا ، ٨ مارس ١٩٥٥ (تجميع جاك جيرالد فى : " بين الكاتشاكوس " (أى المحامين والتجار والخطباء) .
- (٤) بالنسبة لعالم الاجتماع والمؤرخ مواطن بارأنكيا أورلانو فالس بوردا ، المصدر المذكور ، الاسم الأول الرسمي للمدينة ، كان سان نيقولاس دى بارأنكياس وهو الاسم الذى أطلقه المستعمرون البيض الأوائل فى بدايات القرن الثامن عشر . وبالنسبة لآخرين فإن الأصل الحقيقى لبارأنكيا يرجع إلى الأزمنة القديمة للرجل التمساح ، الصياد الذى بفضل سحر أحد الهنود الحمر ، وايرو تحول نصفه إلى حيوان والنصف الآخر إلى إنسان . والبعض يعتقدون أن أصل المدينة كان كفرأ للهنود الحمر القدامى من قبيلة كاماتش (خوليو أولاثيريجى " تاريخ التمساح الأمريكى " الباييس . العدد الأسبوعى . مدريد ، ٢٧ أغسطس ١٩٩٥) .
- (٥) خيرمان بارجاس " جارثيا ماركيز : مؤلف قصة سيسبب ضجيجاً اينكوينترو ليبرال (اللقاء الليبرالى) بوجوتا ، ٢٩ أبريل ١٩٦٧ .
- (٦) فى لقائنا ببوجوتا ، ذكر جوستابو إيباراً ميرلانو أنه فى قرطاجنة فى عام ١٩٤٩ لم يكن جارثيا ماركيز عضواً فى المجموعة الساخرة ، بل هو إلى جانب كونه جاداً لم يكن يتحمل أية كلمة عامية أو سوقية .
- (٧) بيلينيو أبوليو مينوثا ، " تأبين كاتب " فى لا ياما والإيبيلو (الذهب والثلج) ، ودانييل سامبير بيتانو ، " مقدمة لمختارات من ألبارو ثيبيدا ساموديو ، بوجوتا ، المعهد الكولومبى للثقافة ، ١٩٧٧ .
- (٨) جاء ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لـ ج.ج. كويو بوردا المصدر المذكور .
- (٩) نبوءة الموت لألبارو ثيبيدا ساموديو فى " مائة عام من العزلة " سمحت بالتأكيد على أن الطابع النبؤى هو عنصر عام فى إنتاج كاتب أراكاتاكا (يعنى جارثيا ماركيز) . وفى الحال بدأ حصر النبوءات الأخرى التى وقعت بالفعل أو فى انتظار حدوثها ، مثل سفر البابا بابلو السادس إلى كولومبيا بعد ذلك بتسعة أعوام بعد أن سرده الكاتب فى " جنازة الأم العظيمة " (مع نفس الرئيس الاصلع مرفوع القامة ، ونفس رئيس

الوزراء باسترانا اللذين استقبلا البابا فيما بعد) العثور على رجل من أسرة بوينديا في بارانكيا له ذيل خنزير. العثور في الأرجنتين بواسطة فرناندو بيدال بوثي مدير دار نشر أمريكا الجنوبية على جانب من باخرة مهجورة في وسط الغابة ، أو العثور في الكاريبي في أعقاب صدور قصة " الحب في زمن الغضب" على عدة بواخر غارقة بكنوز من العهد الاستعماري.

(١٠) جاء ذلك ضمن تصريحات خيرمان بارجاس في " لم يبق لجابو سوى الكتابة للأطفال" الاسبكتاتور ، بوجوتا ، ٢٢ أكتوبر ١٩٧٢ .

(١١) ذكره جاك جيرالد في مقدمته لنصوص ساحلية. المصدر المذكور.

(١٢) ألفونسو فوينمايور. تعليقات عن جماعة بارانكيا ، بوجوتا ، المعهد الكولومبي للثقافة ، ١٩٧٨

(١٣) جابرييل جارتيا ماركيز، أوبريجون أو الهواية بلا حماية " في ملحوظات صحفية ١٩٨٠-١٩٨٤، المصدر المذكور.

(١٤) نفس المصدر السابق، فرانتيسكو بورا أول ناشر "مائة عام من العزلة" ، وقد أطلعني على التوافق بين هذه القصة و " العملاق الغريق" لبايارد على الأقل في طرح البداية للروايتين. ولكننا نتفق على أنه ليس ممكناً أن يكون الكولومبي قد قرأ أصل قصة بايارد في ١٩٦٩ . (وعلاوة على ذلك فإن قصة ماركيز " أجمل غريق في العالم" كتبت في ١٩٦٨ والترجمة الإسبانية لتلك القصة نُشرت بعد ذلك بثلاث سنوات) وعلى أية حال فإن فكرة الرواية عن الغريق كانت فكرة قديمة متسلطة على ذهن جارتيا ماركيز، وقد ذكر ذلك في رسالته بعنوان " نقد ذاتي" التي بعث بها إلى جونتالو جونتاليث في مارس ١٩٥٢ .

(١٥) ألفونسو فوينمايور، المصدر المذكور.

(١٦) جابرييل جارتيا ماركيز ، " بطاقتي للسيد رامون " ، في نصوص ساحلية. المصدر المذكور.

(١٧) جاك جيرالد بين جبال الإنديز والكاريبي (العمل الأمريكي لرامون بيتش) ، ميدايين ، دار نشر جامعة أنطيوكيا ، ديسمبر ١٩٨٩ .

(١٨) المصدر السابق نفسه.

(١٩) جابرييل جارتيا ماركيز " شارب الكوكاكولا" في نصوص ساحلية. المصدر المذكور.

(٢٠) جاك جيرالد، المصدر المذكور.

(٢١) المصدر السابق نفسه.

(٢٢) ذلك المقال عن الطائرات المروحية أو العمودية حيث ذكر جارتيا ماركيز بعض السمات الماكوندية: تذكر " ألف ليلة وليلة " . ذكر سحر البسط السحرية والتي بمجرد سماع صوت تحمل الإنسان فوق الإبل والجبال ... يتحدث عن تلك القرية الرعوية المجهولة التي مرت على هامش رحلتنا. قال إن بطن القرية كانت مقوسة مليئة بجاذبية الفواكه ويصمت كان يشبه صمت أم نائمة. وكان النهر منطلقاً، ذلك النهر الذي لا يمكن الاستغناء عنه والذي كان ينساب في هدوء وهو مليء بالعناقيد، والأطفال وكان المشهد الطبيعي لا يتحرك إلا بسبب ذاكرة القرية (صحيفة الأونيفرسال العالمي ") ، قرطاجنة ٢٦ مايو ١٩٤٨ .

(٢٣) وهكذا يشير القصص إلى الأصدقاء أوريليانو بايلونيا: ألبارو (شيبدا ساموديو) ، خيرمان (بارجاس) ألفونسو (فوينمايور) و جابرييل جارتيا ماركيز، واستناداً لما حكاه لي ألفونسو فوينمايور ونحن نجلس سوياً عند نافورة تربيى عام ١٩٦٩ اعترف له جابرييل جارتيا ماركيز بالآتي: " أستأذى إن أهم شيء حدث لي في حياتي هي تلك الفترة التي قضيتها في بارانكيا هو أنني أحسست أن تكويني وإعدادي تم هناك ، لقد وجدت كيف تفتحت لي السبل لكي أصبح ما أتوق إليه " وبعد ذلك بوضع سنوات كرر له ذلك في المكسيك ،

وبعد عام من حصوله على جائزة نوبل لخص بهذا الشكل حبه وعرفانه وإعجابه بأصدقاء جماعة بارأنكيا: كانوا حاسمين بالنسبة لتكوينى وإعدادى الفكرى ، لقد وجهوا قراءتى الوجهة الصحيحة. ساعدونى وأعارونى الكتب. ومن العجب وعلى الرغم من كافة الظروف الحياتية ظلوا جميعاً أفضل أصدقائى (ماريا تريز أيرآن، جائزة نوبل بعد عام من ذلك الحدث ، صحيفة الاسبكتادور: المشاهد ، بوجوتا ، ١١ نوفمبر ١٩٨٢).

(٢٤) جاء ذلك ضمن تصريحات للصحيفة الكوبية لديث بالينثويلا . المصدر المذكور.

(٢٥) خوان ب. فرنانديث رينوييتسكى ، عندما كان جارثيا ماركيز جابيتو، مجلة التيمبو (الزمن) ، بوجوتا ، ١١ أكتوبر ١٩٨٢ .

(٢٦) خوان جوساين، العودة من ماكوندو، تحقيق صحفى نُشرَ أولاً فى الاسبكتادور ببوجوتا يومى ١٧، ١٨ يناير ١٩٧١ ، ثم أدرج فى جابرييل جارثيا ماركيز يتحدث عن جابرييل جارثيا ماركيز، بوجوتا، دار نشر رينيتيريا ، ١٩٧٩ . ويشير جوساين أنه وأصدقاء صحفيين آخرين كانوا ينتظرون جارثيا ماركيز فى مطار بارأنكيا فى ١٤ يناير ١٩٧١ ، وعندما رآه سائق سيارة أخرى يهبط من الطائرة مرتدياً قميصاً أصفر بلون الجواقة تذكر أنه منذ عشرين عاماً مضت كانوا يطلقون على جارثيا ماركيز لقباً فى بارأنكيا : يصاحب الملابس المجنونة.

(٢٧) جاء ذلك ضمن خيرمان بارجاس، فى جارثيا ماركيز - مؤلف عمل سيحدث ضجيجاً - خوان جوساين ، وجابرييل جارثيا ماركيز : ذاك المجهول - وجابرييل جارثيا ماركيز فى - رحلة إلى الجنور - . تصريحات لفريق التحرير فى صحيفة المانيستو (البيان) .

(٢٨) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز فى - رحلة إلى الجنور - المقال المذكور، - رائحة الجواقة - المصدر المذكور.

(٢٩) فى - لقاء رفيقين - (ريبستا ليرى (المجلة الحرة) ، باريس ، ١٩٧٢) ، قال جارثيا ماركيز لصديقه بيلينيو أبوليو ميندوتا: إن تصريح فوكتر الذى نشرته ذا باريس ريفيو عندما كنت أعيش فى بارأنكيا، وعلى وجه التحديد فى أحد بيوت الهوى وهذا غير صحيح لأن تصريح مؤلف ضوء أغسطس نُشر فى عام ١٩٥٦ عندما كان جارثيا ماركيز يقيم فى باريس.

(٣٠) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوتا فى لقاء رفيقين - المصدر المذكور.

(٣١) ذكر ألفونسو فوينمايور أنه فى لقائهما ببارأنكيا أن جارثيا ماركيز كتب أو أعاد كتابة قصة - أوراق الشجر البالية - أو الورقة الساقطة - فى ورق الصحف بعد أن ينتهى من عمله فى صحيفة الهيرالد. وسرعان ما كان يجلس ليناقدش صديقه عن ملائمة أو عدم ملائمة بعض الجمل والعبارات. وأتذكر بعض العبارات التى أعرب لي عن شكها لأنها بدت له مطموسة على غرار الأسلوب الفوكتري: وقد اجتاز الحصان النهر كأنه يحمل بين ساقيه غضب الله . وقلت له اتركها وماذا سيحدث .

(٣٢) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لخوان جوساين فى - العودة إلى ماكوندو - ، المقال المذكور.

(٣٣) أول تأكيد مكتوب وعُرف عن هذا الرفض هو لجارثيا ماركيز نفسه ، الذى قال فى رسالة نُشرت فى صحيفة الاسبكتادور: المشاهد - بتاريخ ٣٠ مارس ١٩٥٢ لمواطنه وصديقه جونثالو جونتاليث (جوج) من بين أشياء أخرى: - أنت تعرف أن دار نشر لوسادا رفضت نشر قصة - أوراق الشجر البالية - ، أو - الورقة الساقطة - ، ولكن هذا التأكيد متأخر وأدى إلى الغموض بشأن العام الذى كُتبت فيه القصة والتاريخ التقريبى الذى رفضتها فيه دار النشر الأرجنتينية، وفى محادثاتنا بالمكسيك ذكر لى ألبارو موتيس أنه عندما تعرّف على

جارثيا ماركيز في قرطاجنة في أكتوبر أو نوفمبر ١٩٤٩ قال له إنه انتهى من قصته الورقة الساقطة ، وهو الذي أوصى عليه في بوجوتا خورخي ثيسار بيبجاس مندوب دار نشر لوسادا الأرجنتينية حينئذ ينبغي أن يكون قد أرسلها بجانب " المسيح من الظهر " لإنواريو كباييرو كالديرون في أواخر ١٩٤٩ أو أوائل ١٩٥٠ بعد أقصى ، وأن جارثيا ماركيز عرف رفض كتابه قبل ١٥ أبريل من ذلك العام - لماذا؟ لأنه في ذلك التاريخ عندما عاد نهائياً رامون بيتنس العالم القطالوني إلى برشلونة ، واستناداً لجارثيا ماركيز ذاته كان أحد الشخصيات الذين ساعدوه على تجاوز خمود الهمة الذي سببه له رفض قصته (تصريحاته لليوبولدو أثنانكوت في " جابرييل جارثيا ماركيز يتحدث عن السياسة والأدب " إنديثي (الفهرس) رقم ٢٣٧ ، مدريد ، نوفمبر ١٩٦٨) .

(٢٤) جاء ذلك ضمن تصريحات ألفونسو فوينمايور إلى ليديثي بالينثويلا المصدر المذكور . ورسالة جبيرمودي تورى إلى جارثيا ماركيز التي يبدو أنها غير موجودة . فعرف فقط ما جاء فيها نتيجة تعليقات الكاتب وقليل من الأصدقاء مثل ألفونسو فوينمايور كانوا قد قرأوها في ذلك الحين .

(٢٥) جاء ذلك ضمن تصريحاته إلى ليوبولدو أثنانكوت ، المقال المذكور .

(٢٦) ألفونسو فوينمايور ، المصدر المذكور .

(٢٧) ليديثي بالينثويلا المصدر المذكور .

(٢٨) جاك جيرالد - قصة كرونيكا ، جازيتا ، الجزء الرابع رقم ٣٥ ، المعهد الكولومبي للثقافة ، بوجوتا ، ١٩٨١ .

(٢٩) ومع ذلك كان ذلك بالمساعدة المتكررة لخيرمان بارجاس الذي قال بعد ذلك بسنوات إن صحيفة كرونيكا كانوا يوزعونها من محل إلى آخر ، وأيضاً ثمنها الزهيد كنا نحصله من محل إلى آخر على شكل مشروبات (رامون بيتنس الذي عرفته ، بونتورخو (النقطة الحمراء) رقم ٢ ، بوجوتا ، ١٩٧٥) .

(٤٠) جابرييل جارثيا ماركيز ، " نقد ذاتي " ، المقال المذكور . في محادثتنا اعترف ألفونسو فوينمايور بصحة هذا الرهان ، ولكنه أكد أنه لم يتذكر مزيداً من التفاصيل بشأنه .

(٤١) ألفونسو فوينمايور ، المصدر المذكور .

(٤٢) جاء ذلك ضمن " نقد ذاتي " المقال المذكور . وبالفعل " القطة " يمكن أن تُعَنَى أيضاً " الرجل الذي كان يصل في تمام السادسة " أو " قصة نيا موت مُعلن " .

(٤٣) إن هذا الموضوع تكرر على سبيل المثال في " أوراق الشجر البالية " أو " الورقة الساقطة " و " قيلولَة الثلاثة " ، " ماريا ورايان " ويطرق متعددة في " مائة عام من العزلة " . وحتى في مقدمة " اثنتا عشرة حكاية غريبة " يُشير جارثيا ماركيز إلى تاريخ القصة التي أصابته بالإحباط ، والتي تستند على حكم حضر فيه إلى جانب أصدقائه مواكب جنازتهم الشخصية .

هوامش الفصل التاسع

(١) جاء ذلك ضمن تصريحات إنريكي جارثيا ماركيز للصحفي خوان جوساين في " واقع موت مُعلن " ، الاسبكتاتور ، بوجوتا ، ١١ مايو ١٩٨١ . إن المعلومات التي لم يتم الإشارة إلى مصادرها في هذا الفصل واردة من محادثاتي مع جابرييل جارثيا ماركيز ، وأشقائه لويس إنريكي ، وجوستابو ، وخايمي ، وإليخيو ، ومارجوت ، وعائدة وإليخيا جارثيا ماركيز ، وألفونسو فوينمايور ، ورفائيل إسكالونا ، ومانويل ثباتا أوليبيا ، ولويس كارميلو كورثيا جارثيا ، وهو جوبيجا ، والبيرا ثالاثار وآخرين من مواطني سوكرى .

(٢) جابرييل جارثيا ماركيز ، " حكاية الحكاية " المصدر المذكور .

(٣) وُلِدَ خايمي في ٢٢ مايو ١٩٤٠ ، وإيرناندو في ٢٦ مارس ١٩٤٣ ، وألفريدو ريكاردو في ٢٥ فبراير ١٩٤٦ ، وإليخيو جابرييل في ١٤ نوفمبر ١٩٤٧ . لقد وُلِدَ أربعة أنجال في أراكاتاكا: جابرييل خوسيه ، ولويس إنريكي ، وإليخيا ، وجوستابو ، وثلاثة في بارانكيا: مارجريتا ، وعائدة روسا ، وريتا ديل كارمن .

(٤) إليخيو جارثيا ماركيز ، الموت الثالث لسانتياجو نُصِرَ ، مدريد ، موندادوري ، سبتمبر ١٩٨٧ .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) استناداً لما قاله جوستابو جارثيا ماركيز كانوا ينامون جميعاً طوال تلك الليالي في نفس الغرفة لأن النوم في ذلك الحين كان كابوساً مرعباً لأن القصص كانت مستمرة في الأحلام أيضاً .

(٧) في التحقيق الصحفي " رحلة إلى الجذور " المقال المذكور ، يقول جارثيا ماركيز: إنه عرف لاسيربي لأنه كان هناك . ومع ذلك قال لي شقيقه لويس إنريكي إنه كان شبه متأكد من أن جابيتو لم يذهب إلى لا سيربي على الإطلاق . وفي مقدمة " بين الكاتشاكوس " (بين المحامين والتجار والخطباء) يقول جاك جيرالد انطلاقاً من تأكيدات الكاتب إنه حصل على معلومات لسلسلة لا سيربي من خلال محادثات كثيرة في سوكرى ، حيث تواترت أنباء كثيرة عن هذه المنطقة الغربية ، وإن كان يحدد بالتخصيص أن الذي زوده بهذه المعلومات أنخيل كاسيخ بالينثيا صديق عاش في سوكرى ، ويعد ذلك في قرطاجنة . ولكن ليس من المستبعد ، ونظراً للحزم الذي يلتزم به الصحفي فإن جارثيا ماركيز قد يكون قد قام في النهاية برحلة سريعة إلى أراضي لا سيربي المربعة ، لكي يؤكد ويوثق معلوماته لأنه في التحقيق المذكور يُشير إلى أنه يعرف لا سيربي ، كنت في لا سيربي ولكنني لم أرَ الكنز الذهبي ولا " التمساح الأبيض " ولاشيء من هذه الأشياء بل كان واقعاً يعيش داخل وجدان الناس ، ولذلك فإن ما يحكونه لك لن يساورك أدنى شك بأن ذلك حقيقة لا مراء فيها .

(٨) جابرييل جارثيا ماركيز ، " ماركيز لا سيربي الصغيرة " ، في " بين المحامين والتجار والخطباء " إنها أول جزء من الأربعة أجزاء عن " دولة على الساحل الأطلسي " ، وهو عنوان مميز لم يحتفظ به المؤلف اعتباراً من الطبعة الأولى الكاملة للسلسلة في صحيفة الاسبكتاتور " المشاهد " أيام ٧ ، ٢١ ، ٢٨ مارس ، ٤ أبريل ١٩٥٤ (الجزء الأول نُشر في مجلة لامبارا (المصباح) الجزء الأول رقم ٥ ، بوجوتا ، ١٩٥٢ .

(٩) داسو سالدبيار ، "الراهبة عابدة جارثيا ماركيز" ، صحيفة الاسبكتاتور "المشاهد" - مجلة الأحد ،
بوجوتا ، ٢٢ أكتوبر ١٩٧٢ ، وإيليخيو جارثيا ماركيز. المصدر المذكور. وفي سفرى إلى سوكرى ما بين ١٧ ، ١٨
أغسطس عام ١٩٩٢ استطعت إثبات صحة أسطورة ماريا أماليا سامبايو دى ألباريت. وطبقاً لما يُقرأ فى لوح
المرمر (شاهد قبرها) ولدت فى ١٦ فبراير ١٨٩٨ وتُوفيت فى ١ نوفمبر ١٩٥٧ .

(١٠) جاء ذلك ضمن تصريحات لويس إنريكي جارثيا ماركيز لخوان جوساين . المقال المذكور .

(١١) جابرييل جارثيا ماركيز " الساذجة إيرينديرا وجدتها إيرينى باباس " فى ملحوظات صحفية
١٩٨٠-١٩٨٤ المصدر المذكور . يقول المؤلف بالنص: " منذ سنوات كثيرة ، وفى ليلة نزهة فى قرية بعيدة
بالكاريسى تعرّفت على طفلة فى الحادية عشرة من العمر كانت تمارس البغاء على أيدي قابلة يمكن أن تكون
جدتها (...) ، وكان عمرى فى ذلك الحين ستة عشر عاماً ، وكنت أدرك أنه أجلاً أم عاجلاً ساكون كاتباً . ونظراً
لأن جارثيا ماركيز اعتاد على الخطأ فى عمره حيث ينقص منه عامين أو عاماً ينبغى أن تُرجع الأحداث لعامى
١٩٤٤ ، ١٩٤٥ وخلال هذين العامين كان يقضى إجازته فى سوكرى على وجه التحديد . وعندما سُئل عن صحة
هذه النادرة أو الحكاية أجبني لويس إنريكي جارثيا ماركيز إنه لا يذكرها ولا يذكر أنها حدثت فى سوكرى ،
ونظراً لتكدي من ذاكرته الجيدة فإن هذا جعلنى أفكر أن حكاية الطفلة الداعرة لا ينبغى أن تكون قد حدثت
فى سوكرى ؛ بل فى إحدى القرى الأخرى القريبة . وعلاوة على ذلك فإن الكاتب لم يكن شاهداً مباشراً بل
يحتمل أن يكون قد سمعها فى إدامة بنما كما يقول الكوبيون .

(١٢) جاء ذلك ضمن تصريحات لويس إنريكي جارثيا ماركيز لخوان جوساين . المقال المذكور و جابرييل
جارثيا ماركيز فى "حكاية الحكاية" ، المصدر المذكور .

(١٣) جاء ذلك ضمن تصريحات جابرييل إيليخيو جارثيا والد القصص لهارلى د . أوبرهيلممان ، فى
" جابرييل إيليخيو جارثيا يتحدث عن جابيتو " جميع بيتر إيرلى فى جارثيا ماركيز ، مدريد ، تاوروس ، أكتوبر ١٩٨١ .
فى منتصف ١٩٧٤ كانت لى دردشة مع والد جارثيا ماركيز فى منزله بحى لا مانجا فى قرطاجنة ، ومن بين
أشياء أخرى حدثت عن هذه الشخصية وأنا فقط بسبب بعض أخطاء الذاكرة ، وقد وجدت طبيب الأسنان
المنفى ذاتياً فى أراكاتاكا .

(١٤) إيليخيو جارثيا ماركيز ، المصدر المذكور .

(١٥) نفس المصدر السابق ، ولويس إنريكي جارثيا ماركيز فى " واقع موت مُعلن " ، المقال المذكور .

(١٦) يبدو أن هذه الحكاية لم تنتقل إلى الذاكرة الشعبية لأن جارثيا ماركيز دقيق كما هى عادته ، ولم
يسجلها فى تحقيقاته المسبقة لكتابة قصته " نيا موت مُعلن " . وقد حكاهما لى شقيقه لويس إنريكي فى بارأنكيا ،
وقال لى إن الكاتب عرفها عندما كانت القصة فى المطبعة .

(١٧) إيليخيو جارثيا ماركيز ، المصدر المذكور فى رحلتى إلى سوكرى حاولت إعادة تمثيل الجريمة
بكافة تفاصيلها ، وعلى الرغم من أن تحقيقاتى اتفقت مع الأحداث الرئيسية وسرعان ما أدركت أن العُرف لم
يتغير فقط عدة مرّات ؛ بل كان كل مواطن من سوكرى يضيف التفاصيل والمتغيرات التى يخترعها ، ونفس
الشئ عند إعادة تمثيل أحداث أخرى تأكدت فى أراكاتاكا وبارأنكاس وشتينايجا وبارأنكيا وقرطاجنة ، وكل قرية
أو مدينة على الساحل . وهكذا على سبيل المثال إلبيزا سالاثار صاحبة فندق بيراكروث والمنزل القديم لكايثانو
جينتيل أعطت رواية أخرى للأحداث تختلف فى كثير من المظاهر (وقد أكّد لى أنها كانت شاهدة عيان) من
تلك التى يقدمها أشقاء جارثيا ماركيز الذين يحتفظون برواية حقيقية وصادقة عن التفاصيل الدقيقة لهذه
الجريمة التى أثرت فيهم كثيراً . ولهذا فقد قررت الاسترشاد بتصريحاتهم . وقد سمح لى السفر إلى سوكرى
علاوة على ذلك التأكد من صدق معلوماتهم والتواريخ والأسماء والأماكن ، وكذلك الموقع والمسافة بينها (أى بين

هذه الأماكن). وقد كان في غاية الفائدة بالنسبة لي النوم ليلة في فندق بيراكروث. كما أنني تمكنت أيضاً من التأكد من الأوصاف التي قدمها جارشيا ماركيز في قصة "المنزل"، الميدان، والباب، والنهر، والقرية هي كما هي حرفياً في غاية الدقة.

(١٨) نفس المصدر السابق، ولويس إنريكي جارشيا ماركيز في واقع موت مُعلن: المقال المذكور. واستناداً إلى ما قالته إليبرا سالازار كانت آخر كلمات المحتضر: "ماما أحضروا لي أصبعي الذي ظل في المنزل الآخر. ماما إنني برئ: الهدوء والسكينة والصبر. انتقموا لدمي". وحكاية الأصبع كانت حقيقية على ما يبدو، وهي أحد الأشياء القليلة جداً التي لم يذكرها جارشيا ماركيز في القصة: فمع أول طعنة بتر فيكتور مانويل تشيكا أصبح كايثانو (بتر خنصر اليد اليمنى لكايثانو، وقد ظل بجوار بركة أو حوض المنزل المجاور). خوسيه سالازار شقيق المالكة الحالية لمنزل كايثانو أخذته وأدخلته في جيب قميصه لكي تدفن الجثة كاملة.

(١٩) الذي رأى بصورة أفضل واقعة اغتيال خوليو ثيسار في سانتياجو نُصّر هو خوسيه مانويل كمانشو ديلجابو في "نبا موت مُعلن: إن إعادة كتابة القصة"، هوياس (الآثار) (مجلة جامعة الشمال)، بارانكيا، أغسطس ١٩٩٤. وفيما يتعلق بالسبب الذي ذكره جارشيا ماركيز في قصته عن أسطورة القدر، انظر تأملاته في "حكاية بعد الحكاية" في ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤. المصدر المذكور.

(٢٠) جابريل جارشيا ماركيز، "حكاية الحكاية" المصدر المذكور.

(٢١) جاك جيرالد، في مقدمة نصوص ساحلية، ويؤكد بالفعل أن جارشيا ماركيز لم يحضر هذا العمل: فالقوضى الإدارية كان مُبالغاً فيها، وكان نشاطه الوحيد يتلخص في تقاضى مرتبه، وكان - بلا ريب - غير كاف لميزانية الأسرة، ولكن لم يكن يستحق ذلك لأنه وشقيقه لم يشترك في إعداد الإحصاء السكاني، ومع ذلك فإن جوستابو جارشيا ماركيز في درشتنا بتاريخ ١٩ أغسطس ١٩٩٢ أكد لي في بارانكيا أن أخاه لم يقبض شيئاً، لأنه لم يحضر إلى العمل، أما هو فقد عمل لمدة عشرة أشهر مقابل مائة بيزو شهرياً، وأنه تمكن من الحصول على أول راتب له بعد سبعة أشهر. أما لويس إنريكي من جانبه فقد اضطر للعمل في البداية كمخبر سرى بضعة أشهر قبل الالتحاق للعمل بوزارة الزراعة والاستقرار والإقامة في ثينانجا في نوفمبر ١٩٥١.

(٢٢) ويذكر فوينمايور جيداً اقتراضه ستمائة بيزو استناداً لما قاله لي لامرين: أولاً بسبب الأثاث وثانياً لأن ماركيز اضطر إلى سداذه بمقالات افتتاحية مما عكّر عليه صفو حياته طوال عدة أشهر، بينما حققت له المقالات الراحة النفسية في حياته.

(٢٣) جابريل جارشيا ماركيز، "كلمات للكتابة" في نصوص ساحلية. المصدر المذكور. وبالنسبة لتأليف راميرو دي لا إسبيريا للخطاب الأول في قرطاجنة حيث إن فقرتيه الأخيرتين نسخهما جارشيا ماركيز هنا. انظر الملحوظة ١٧ من الفصل السابع.

(٢٤) جاك جيرالد، مقدمة نصوص ساحلية. المصدر السابق وخورخي جارشيا أوستا، "أيام القرض"، الأونيفرسال (العالم)، قرطاجنة، ١١، ١٩ ديسمبر ١٩٨٢.

(٢٥) كونسويلو أراوخو نوجيرا، رفائيل إسكالونا، الرجل والأسطورة، بوجوتا، دار نشر بلانيتا، أغسطس ١٩٨٨.

(٢٦) ثيرو كيروث أوتيرو الأغنية الشعبية، الرجل والغناء، بوجوتا، إيكاروا، فبراير ١٩٨٣.

(٢٧) نفس المصدر السابق وجابريل جارشيا ماركيز في "جارشيا ماركيز يتحدث عن الموسيقى"، تصريحات أدلى بها لرامانويلوبيث للمجلة الكوبية أوبيينا (قل رأيك)، وقد أعيد نشرها في الاسبكتادور (المشاهد)، بوجوتا، ٢٩ ديسمبر ١٩٨٥.

(٢٨) جاء ذلك ضمن تصريحات جارتيا ماركيز لجلة كورالبي ، في " عندما كان إيسكالونا يطعمني " ، بوجوتا ، أبريل ١٩٨١ : لم أتعجب قط من القول بأن قصه " مائة عام من العزلة " ليست إلا أنشودة شعبية تتكون من ٢٥٠ صفحة ، وأى شخص سمع أغنية شعبية أصلية سيُدرك أن ذلك ليس نكتة مزاحية ، ولا سخوية مُضحكة . " مائة عام من العزلة " عبارة عن رواية لأحداث يومية للمنطقة ، حيث نشأت وازدهرت الأغنية الشعبية على وجه التحديد .

(٢٩) جارتيا ماركيز اعترف على الملأ مراراً وتكراراً بإعجابه وامتنانه لرفائيل إيسكالونا : " لقد تعرّفت على إيسكالونا . أسمع النظر : لقد بدأنا العمل سوياً . لقد قمنا بعدة رحلات للمتعة إلى لا جواخيرا... هناك رحلة من إيرينديرا عبارة عن رحلة قمت بها مع إيسكالونا إلى لا جواخيرا... " (الرحلة إلى الجنور ، المقال المذكور) . وبعد ذلك بأربعة أعوام صرح لجلة كورالبي : لقد ساعدني إيسكالونا كثيراً ، وقد كنا دائماً صديقين ممتازين ، ولقد حضرت ميلاد كثير من الأغاني الشعبية التي كتبت ألحانها . إن إيسكالونا عبقرى في هذه الحياة . وهذا أمر في غاية الجدية . هل تتصور إدراج كمية كبيرة من الموضوعات في ثمانية أسطر ؟ ، إن هذا هو الإعجاب الكبير الذي أشعر به تجاه إيسكالونا وجميع ملحنى الأغاني الشعبية " (عندما كان إيسكالونا يطعمني " المقال المذكور) . وطبقاً للسيرة الذاتية للملحن كونسويلو أراوخو فإن الكاتب اختتم إعجابه تجاه إيسكالونا في قلب استكهولم أثناء أيام احتفاله بالحصول على جائزة نوبل حيث أهدى نسخة من " مائة عام من العزلة " إلى صديقه : إلى رفائيل إيسكالونا الشخص الذي يشتد به إعجابي في العالم أجمع " أما عدا ذلك فالان تعرف أن القدرة الكبيرة لبنيته الروائية لا ترجع إلى كتاب مثل هيمينجواي وجراهام جرين بل أيضاً - وفي المقام الأول - إلى الأغاني الشعبية هذا الينوع الساحر .

(٣٠) وعلى سبيل المثال في " الرحلة إلى الجنور " ، المقال المذكور : هل تعرف كيف مؤلت كل رحلتى التي استغرقت أكثر من عام عندما كنت أتجول من مكان إلى آخر في جميع أنحاء المنطقة ؟ ... كنت أبيع موسوعات ! . إن هذه الرحلة لم تستغرق سوى خمسة أو ستة أشهر فقط . أما الذى استغرق أكثر من عام ؛ فقد كانت الرحلات المتعددة التي قام بها إلى ماجدلينا ، وبايدويار ، ولا جواخيرا ، ولذلك فعند الحديث بهذا الشكل فإن جارتيا ماركيز يجعل من جميع رحلاته وأسفاره رحلة واحدة أو سفرأ واحداً . وعلاوة على ذلك ففى الأونة الأخيرة في نفس القصة المختلفة " (مقدمة الرجل فى الشارع) لسيمينون ، برشلونة ، توسكيتس ، فبراير ١٩٩٤ ، عاد مرة أخرى الفموض عندما أرخ للرحلة إلى لا جواخيرا كيانه للكتب (والتي تمت فيما بين ديسمبر ١٩٥٢ ومايو أو يونية ١٩٥٢) فى ١٩٤٩ تلك السنة التي على ما يبدو قام فيها برحلته إلى بايدويار ولايات مدعواً من مانويل ثباتا أوليبيا .

(٣١) فى محادثاتنا بتاريخ ١١ يولية ١٩٩٢ بمدينة بوجوتا ، مانويل ثباتا أوليبيا كان يبدو أنه يتذكر تلك الرحلة الأولى لجارتيا ماركيز إلى بايدويار ولا بات مدعواً من جانبه . وقد ذكر فقط الرحلة التي قام بها الكاتب لبيع الكتب برفقة رفائيل إيسكالونا ، وقد نسى أن هذه الرحلة الثالثة التي قام بها للمنطقة . ولكن السنة التقريبية للرحلة الأولى يمكن تحديدها من مصادر أخرى . الأولى أعطاني إياها نفس ثباتا أوليبيا عندما أخبرنى بأنه فى أواخر ١٩٤٩ ، وبعد التخرج طبياً فى بوجوتا توجه إلى لا بات عن طريق قرطاجنة ، والتقى ثانية بجابريل جارتيا ماركيز الذى كان يعمل منذ عام فى الأونيفرسال (العالمى) وذلك بفضل وساطته على وجه التحديد . كان حينئذ عندما دعا مانويل ثباتا أوليبيا الكاتب لكى يزوره فى لا بات . وقد أكد هذه الزيارة جارتيا ماركيز بنفسه لجاك جيرالد (انظر الملاحظة ٧٩ من مقدمة نصوص ساحلية المصدر المذكور) ، وانطباعات هذه الرحلة دونها فى عمود لاخيرا فا (الزرافة) فى صحيفة الهيرالد (أبيليتو بيا ، إيسكالونا ثيا) فى ١٤ مارس ١٩٥٠ . حيث أكد أنه بالفعل كان مع مانويل أوليبيا فى بايدويار . إن تاريخ النشر يوحى بأن الرحلة تمت مؤخراً ،

ولكن إشارة من الكاتب جعلتني أعتقد أن الرحلة الأولى كان قد قام بها في ديسمبر ١٩٤٩ ربما قبل أن يستقر في بارانكيا. ويشير جارشيا ماركيز - نفس القصة المختلفة - أن المرة الأولى التي قرأ فيها قصة - الرجل في الشارع - لسيمينون كان في ١٩٤٩ ، عندما توقف في مسيرته الصحفية وبدأ ببيع الكتب الفنية والموسوعات بالتقسيط في قرى ونجوع لا جواخيرا الكولومبية . إن هذا زيف بالتأكيد أن يكون ذلك العام هو الذي قام فيه ببيع الكتب أثناء زيارته للمنطقة بل الرحلة التي قام بها إلى بايديوار ولا باث مدعواً من مانويل ثباتا أوليبيبا .

(٢٢) كونسويلو أراوخو نوجيرا ، المصدر المذكور يؤكد أن الكاتب والملاحن تعرفا على بعضهما في ٢٤ مارس ١٩٥٠ ، والحقيقة أن ذلك تم في اليوم السابق على هذا التاريخ ، كما يؤكد جارشيا ماركيز في عموده لآخرافا الزرافة - بصحيفة الهيرالد الذي نُشر في نفس التاريخ، ويشير أراوخو نوجيرا إلى أن الشهر التالي سافر جارشيا ماركيز إلى بايديوار مدعواً من جانب إيسكالونا، وأنه قضى أسبوعاً كاملاً. إنه تاريخ مشكوك فيه لأنه في أبريل ، وحتى في الشهور التالية من ذلك العام لم تتخلف أو تتأخر مقالات جارشيا ماركيز في صحيفة الهيرالد لكي يؤكد أنه تغيب خلال تلك الفترة لمدة أسبوع كامل. إن التغيب الملحوظ عن عموده لم يحدث حتى أواخر مارس وأبريل وأوائل مايو ١٩٥١ ، وهي تلك الفترة التي عاد فيها جارشيا ماركيز إلى قرطاجنة ليلتقي بأسرته التي ما لبثت أن وصلت إلى سوكرى.

(٢٣) وتؤكد كونسويلو أراوخو نوجيرا المصدر السابق أنه في نهاية إقامة جارشيا ماركيز في منزل والدي رفانيل إيسكالونا، وبعد أن تحدثت ساعات كثيرة مع كليمنتي إيسكالونا المسن كانت لدى الكاتب الخطوط العريضة، وسمات بطل إحدى القصص القصيرة الجميلة في الأدب العالمي: " العقيد لا يجد من يرأسه". إنها مبالغة أن نطرح ذلك بهذا الشكل ، لأن جارشيا ماركيز لكي تختصر فكرة كتابه اعتمد على التاريخ المشترك لعدة شخصيات حقيقية بدءاً بشخصية جده ، وفي بعض الأحيان إلى ظروف السيرة الذاتية.

(٢٤) وبما أن مغامرة قصته "القرص" لم تنته حتى أواخر سبتمبر ١٩٥١ يُفترض أن جارشيا ماركيز لم يقم بهذه الرحلة حتى أكتوبر أو نوفمبر أو ربما حتى ديسمبر من ذلك العام. لقد توقف عن كتابة عموده لا خيرافا (الزرافة) في صحيفة الهيرالد في أوائل يولية ، ثم عاد إلى الكتابة في ٨ فبراير ١٩٥٢ في نهاية هذه الجولة.

(٢٥) جابريل جارشيا ماركيز ، " شئ أشبه بالعجزة " ، في نصوص ساحلية، المصدر المذكور.

(٢٦) جابريل جارشيا ماركيز ، نقد ذاتي ، المقال المذكور.

(٢٧) في النسخ الأولى للكتاب استخدمت التاريخ التقريبي للرحلة الذي أعطاني إياه جارشيا ماركيز في محادثتنا بالمكسيك: فيما بين ٢٥ ، ٢٨ فبراير ١٩٥٠ وهي السنة التي ذكرها دائماً أصدقائه في بارانكيا وبعض كتابي سيرته ودارسيه. ومع ذلك ولعلمي بأن هذا التاريخ مهم للغاية في حياة الكاتب، وأنه تخطط وتلتبس عليه السنوات في إشارات الخاصة بالسيرة الذاتية فكرت في ضرورة التأكد من ذلك من والدته وأشقائه. السيدة سانتياجا ماركيز ، التي ستكمل العام التسعين من عمرها لم تتذكر السنة جيداً، ولكن نجلتها ليخيا - مؤرخة الأسرة - التي قالت لي بصفة قاطعة إن رحلة والدتها مع شقيقها لبيع منزل جديها لم يكن في ١٩٥٠ بل كان في ١٩٥٢ ، عندما كانوا قد استقروا منذ عام في قرطاجنة. ولم يساورها الشك في هذا الشأن لأنها في أوائل ذلك العام عرفت أراكاتاكا ، ولم يكن البيت قد بيع حتى ذلك الحين على الأقل خلال الشهور الأولى لأنها ذهبت عدة مرأت لتقاضى الإيجار من أسرة أكونيا أكوستا. ثم أكد لي شقيقها لويس إنريكي في وقت لاحق أن ١٩٥٢ هو التاريخ الأكيد لرحلة شقيقه مع والدته لبيع منزل جدي: لأنه كان قد ذهب للعمل في ثيناجا كموظف بوزارة الزراعة في نوفمبر ١٩٥١ . وبعد ذلك بثلاثة أو أربعة أشهر التقى هناك بوالده وشقيقه جابريل ، وهما في طريقهما إلى أراكاتاكا. ولذلك فلم يكن أدنى شك: كان سفر الكاتب مع والدته لبيع منزل جدي كان في عام ١٩٥٢ . وكان السفر في شهر مارس كما سجل ذلك الكاتب في رسالته " نقد ذاتي " ، حيث

اعترف فيها جارثيا ماركيز لصديقه ومواطنه جونثالو جونتاليث: " لقد وصلت تَوّاً إلى أراكاتاكا... وقد وصف له فيها حالة الخراب والعزلة التي وجد عليها القرية. إن التاريخ التقريبي : كان في الأسبوع الأول من شهر مارس، ولهذا يستنتج من ذلك من أن جارثيا ماركيز ترك كتابة عموده لا خيرا (الزرافة) في صحيفة الهيرالد الأمر الذي كان يقطعه دائماً عندما يتغيب عن بارأنكيا.

(٢٨) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لماريو بارجاس يوسا ، في " القصة في أمريكا اللاتينية " : حوار، المصدر المذكور.

(٢٩) نفس المصدر السابق ، ويضيف جارثيا ماركيز أن والدته وأمه في العمد تعانقتا ويكتتا على مدى نصف ساعة " . إن هذا بلا شك مبالغة من الكاتب لأنه في بلدة ترتفع بها درجة الحرارة إلى خمس وثلاثين درجة في الظل ليس من الممكن أن يتحمل شخصان العناق على مدى نصف ساعة.

(٤٠) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لمجلة " بلاي بوى " التي أعادت نشرها مجلة التيمبو (الزمن) تحت عنوان " بلاي بوى مقابلة مع جارثيا ماركيز "، المصدر المذكور، بوجوتا، ٩ يناير ١٩٨٢ ، في هذه المقابلة يتذكر الرحلة مع والدته إلى أراكاتاكا بشكل يشبه ما أورده به في حوار مع ماريو بارجاس يوسا ، ويعد ذلك مع خ.ج. كويو بوردا في اللقاء الأدبي على مدى أربع ساعات مع جابريل جارثيا ماركيز. المصدر المذكور. وليس لديه الآن " خمسة عشر عاماً " ، بل واحداً وعشرين عاماً " (وفي الواقع كان يكمل عامه الخامس والعشرين) " ولم تبق والدته وأمه في العمد نصف ساعة .

(٤١) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى ماريو بارجاس يوسا. المصدر المذكور.

(٤٢) جاء ذلك في " بلاي بوى " ، مقابلة مع جارثيا ماركيز المقال المذكور. ويعد ذلك بستة أعوام في حواراتنا بالمكسيك قال: عند مقارنة ما كتبته حتى الآن مع أراكاتاكا التي وجدتها أثناء زيارتي بدا لي ذلك بعيداً كل البعد عما أراه وأشاهده هنا.

(٤٣) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى خ.ج. كويو بوردا، المصدر المذكور.

(٤٤) نفس المصدر السابق، ورائحة الجوافة. المصدر المذكور. في محادثتنا بالمكسيك كرر الشيء نفسه : " حينئذ تركت " لا كاسا " (المنزل) وكتبت " الورقة الساقطة " عندما عدت أي أنني بدأت من درب آخر .

(٤٥) في رسالة " النقد الذاتي " المؤرخة في بارأنكيا في مارس ١٩٥٢ بعد عودته بقليل من أراكاتاكا اعترف جارثيا ماركيز لصديقه جونثالو جونتاليث: أنت تعرف الآن أن دار نشر لوسادا رفضت نشر " الورقة الساقطة " كما رأينا في الملاحظة ٣٢ من الفصل الثامن، وقد عرفت المؤلف قبل ١٥ أبريل ١٩٥٠ ، إذن لماذا يُصرُّ على أنه كتب قصته الأولى في بارأنكيا بعد عودته من أراكاتاكا تلك العودة التي حدها في فبراير ١٩٥٠ ؟ هناك ثلاث إجابات ممكنة أو ربما ثلاث طرق لإعطاء نفس الإجابة. الأولى أنه منذ نشر الورقة الساقطة ١٩٥٥ فإن النقد أصر على التأثير الفوكنري الواضح في هذه القصة ، حتى أن جارثيا ماركيز استاء تماماً (لأن النقد كان من جانب واحد لم ير فقط تأثير فيرجينيا وولف ومؤلفين آخرين ؛ بل تجاهل أيضاً الحدث الجوهري وهو أن مصدر القصة هو طفولته ومنزل جديهِ وأراكاتاكا) وربما لهذا السبب نجده قد وضع نفسه على طرف نقيض من النقاد، وأراد الإقناع بأن " الورقة الساقطة " كان قد كتبها فقط عقب عودته مع والدته إلى أراكاتاكا (وهذا ما يفسر لماذا في لحظة ما بدأ يؤرخ للرحلة إلى أراكاتاكا في فبراير ١٩٥٠). أما الإجابة الثانية فإنها تُدرج في الأولى ، لأننا كما رأينا أنه فقط اعتباراً من هذه اللحظة الحاسمة بدأ جارثيا ماركيز يرى بوضوح الجذور وموضوع القصة وهدف وغاية الروائي ، وبدأ يشعر أنه كاتب أصيل حقيقة ، أو لديه إمكانية لكي يكون كذلك لكونه أمراً متاحاً له ، ولذلك عاد إلى كتابة القصة للمرة الثالثة على ضوء خبرته بعد الزيارة. وفيما يخص الإجابة الثالثة ، فهي ذات طابع عاطفي لأنه يؤكد أنه كتب " الورقة الساقطة " بعد سفره إلى أراكاتاكا

(وهذا يعني ، طبقاً لكلامه في ١٩٥٠ ، تلك السنة التي كان مرتبطاً فيها بأصدقائه في بارأنكيا) وتاريخ ذلك في ١٩٥٠ كما فعله في الطبعة الأولى بدار نشر س.ل.ب. سنحت له الفرصة لإعداد تكريم خالد للمدينة ولأصدقاء الجماعة ، حيث أن صداقتهم ورفقتهم يعتبرها أهم شيء في مسيرته الأدبية.

(٤٦) جاء ذلك ضمن تصريحات خيرمان بارجاس في "لم ينقص جابو سوى الكتابة للأطفال"

المقال المذكور.

(٤٧) جاء ذلك في "بلاي بوي" مقابلة جاريثا ماركيز. المقال المذكور.

(٤٨) من الرسالة التي بعث لي بها جوستابو إيبارا ميرلانو، مؤرخة في بوجوتا في ١٥ سبتمبر ١٩٩٤ .

(٤٩) عند سؤاله عن الروايات المتعددة " الورقة الساقطة" في لقائنا الثاني بالمكسيك، في ١٧ مارس ١٩٨٩، قال لي جاريثا ماركيز: إن قصة " الورقة الساقطة" لم تمر بكتابات متعددة ، ولكنني تأخرت كثيراً في كتابتها . لا ، هذه القصة كانت من الإلهام: وعلى الفور بدأ بوسيلتها ونغمتها وأسلوبها ويكل شيء. لا، إن كل ما حدث أنني قرأتها كثيراً لأنني كنت حينئذ يسودني انطباع بأنه يخترع شيئاً ، وإن كان هذا يبدو لي شيئاً صيبانياً ؛ بل في كولومبيا لم يكن صيبانياً بالنسبة لعمر الأدب. ومن جانبه جوستابو إيبارا ميرلانو أكد لي في رسالته المؤرخة في سبتمبر ١٩٩٤: صحح جابرييل القصة عدة مرّات حيث أشار إلى كتابات سابقة ، هي التي قرأها قبل يولية ١٩٤٩ ، وبما أننا نعرف منهج عمل جاريثا ماركيز والشكوك التي ساورت في هذه القصة الأولى وخطوب الدهر التي مرت بها القصة الأولى ولذلك فمن الملائم أن شبه الحتمى التفكير في أنه اضطر إلى كتابتها مرّات كثيرة، وأن قصة "الورقة الساقطة" إذا لم تكن القصة التي أعدها بدقة بالغة فهي من أهم القصص التي حظيت بهذا الإعداد والتجهيز. وبالتأكيد لن نستطيع تحديد العدد الدقيق لمختلف رواياتها دون أن نعرف مختلف المسودات ، ولكن يمكن القول بأنها كتبت أربع أو خمس مرّات في البداية ، إذا ما تتبعنا خطوب الدهر والظروف التي رافقت كتابة هذه القصة. الأولى كانت التي قرأها هيكتور روخاس إيراثو، وجوستابو إيبارا ميرلانو في مايو أو يونية ١٩٤٩ (دون أن نحسب أنه من الممكن أن يكون قد كتبها أكثر من مرّة قبل ذلك). أمّا الثانية فهي تلك التي أعدها جاريثا ماركيز بعد قراءة سوفكليس بناءً على إيعاز من جوستابو إيبارا ميرلانو الذي دُهِش وقال له: إن قصة " الورقة الساقطة" عظيمة وحينئذٍ استعارها وأسرع في قراءتها في لقائنا ببوجوتا جوستابو إيبارا ميرلانو وذكر لي: " ويعد ذلك وعلى ضوء القراءة ، (جاريثا ماركيز) أعاد كتابتها وكتكريم للأستاذ اليوناني أشار إلى بداية قصة " الورقة الساقطة". وهذه الكتابة كانت بناءً على إيعاز من ألبارو موتيس ، جاريثا ماركيز أرسل القصة إلى مندوب دار نشر لوسادا في بوجوتا في أواخر ١٩٤٩ أمّا الثالثة (أو الكتابة الثانية) وهو ما فعله الكاتب بعد رفض دار النشر القصة ، وأخذ انتقادات العالم القطالوني رامون بيثينس ، ألفونسو فوينمايور وخيرمان بارجاس في مارس أو أبريل أو مايو ١٩٥٠ وأواخر تلك السنة. وهذه هي الرواية التي يتبنّاها أصدقاء بارأنكيا ودارسو الكاتب ويعتبرونها الأولى، وهي تلك التي أراد الكاتب أن تكون كذلك طبقاً للأسباب التي شُرحَت في الملاحظة ٤٤ . وهكذا - على سبيل المثال- أكد لي ألفونسو فوينمايور أن جاريثا ماركيز بدأ كتابة قصة " الورقة الساقطة" في صالة تحرير صحيفة الهيرالد (أي في أوائل ١٩٥٠) على آلة كاتبة ماركة ريمينجتون، وكانت ماكيتي التي أمديتها لمتحف رومانتيكو في بارأنكيا ، بينما نرى أن جاك جيرالد الدارس الفرنسي للإنتاج الصحفي للكاتب يؤكد في مقدمته "لنصوص ساحلية" ، مما يوضح أن كتابة " الورقة الساقطة" بدأت منذ يونية أو يولية ١٩٥٠ إلى يونية ١٩٥١ ، وفيما يتعلق بالمرّة الرابعة (أو الكتابة الثالثة) فهي التي كانت نقطة انطلاقها عودة جاريثا ماركيز إلى أراكاتاكّا مع والدته السيدة لويسا سانتياجا ماركيز التي بدأها في مارس أو أبريل ١٩٥٢ في أن واحد مع الاستمرار في كتابة القصة المؤجلة دائماً والتي هجرها في نهاية الأمر " لا كاسا" (المنزل) . إنه قد كتب " الورقة الساقطة" بعد هذه الرحلة

المشار إليها أنفاً ، وتُحتمل أن تكون هذه المرة بعد قراءة متأنية لنفس القصة ، حيث أن هناك تفاصيل وأوصاف التقطها الكاتب بعد عودته إلى أراكاتاكا مع والدته ، وعلى سبيل المثال نجد كذلك انعقاد المجهول في القصة: هنا بقيت قرية خربة بها أربع محلات مظلمة وفقيرة ، وأصحابها أناس على المعاش وحاقنون يرعبهم ويروعهم ماضٍ مزدهر ومرارة حاضر سىء لا جدوى منه" أو ذلك الوصف لإيسابيل نجلة العقيد: وجهت وجهى صوب النافذة ورأيت على الناصية الأخرى اشجار اللوز الحزينة المليئة بالغبار ، ومنزلنا خلفها تهزه رياح غير مرئية ، رياح الدمار وهى أيضاً فى مرحلة ما قبل الصمت والانهيار النهائى. " إن الفقرة الأولى عبارة عن نظرة وإحساس جارتيا ماركيز عن قريته عندما عاد إليها بصحبة والدته فى الأسبوع الأول من شهر مارس ١٩٥٢ . أما الفقرة الثانية هى نظرته للمنزل الذى ولد فيه نظرة قطرية أو مائلة من صيدلية أنطونيو باربوسا ، حيث كانت والدته وأمه فى العماد أو ريانا بيردوجو تتعانقان ، واستناداً لما قاله الكاتب ، تكيان فى صمت طوال نصف ساعة. وكان خلال هذه الرواية عندما قام جارتيا ماركيز بنزع الفصل " مناجاة إيسابيل ترى المطر فى ماكوندو" الذى نشره أولاً فى صحيفة الهيرالد فى ٢٤ ديسمبر ١٩٥٢ بعنوان " الشتاء " وفى الطبعة الثانية (المهرجان الأول للكتاب الكولومبى، أغسطس ١٩٥٩) حذف الكاتب جزءاً كبيراً من الفصلين الرابع والسابع، وعدّل أو حذف عبارات كثيرة من الطبعة الأولى التى صدرت فى بوجوتا عن دار نشر س. ل. ب. مايو ١٩٥٥ .

(٥٠) فى الحوار مع ماريو بارجاس يوسا يقول جارتيا ماركيز: " لا أود القول بأن أراكاتاكا هى ماكوندو فبالنسبة لى ... إن ماكوندو هى الماضى ، وبما أن هذا الماضى يجب أن نضيف إليه الشوارع والمنازل والحرارة والناس ، ووضعت لها صورة هذه القرية شديدة الحرارة والمترية الخربة والمنتبهة ذات المنازل الخشبية وأسقفها من الزنك التى تشبه كثيراً أسقف المنازل فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية . إنها قرية تشبه كثيراً قرى فوكر ، لأن شركة الفواكه المتحدة هى التى شيدتها. والآن فإن اسم القرية يأتى من ضيعة مزارع الموز التى كانت على مقربة ، وكانت تدعى ماكوندو" (قصة أمريكا اللاتينية: حوار، المصدر المذكور .

(٥١) جابرييل جارتيا ماركيز ، نقد ذاتى ، المقال المذكور.

(٥٢) جاك جيرالد ، مقدمة "نصوص ساحلية". المصدر المذكور. ألبارو موتيس الذى كان صديقاً لبيجاس هو الذى أمدنى بمعظم هذه المعلومات عن شخصية بيجاس.

(٥٣) كونسويلو أراوخو نوجيرا فى سيرتها الذاتية عن رفائيل إيسكالونا. المصدر المذكور. تؤكد أن سفر الكاتب بدأ فى أكتوبر من هذا العام ، ولكن هذا غير صحيح لأن جارتيا ماركيز لم يبدأ هذه الرحلة حتى أوائل ديسمبر عندما هجر صحيفة الهيرالد نهائياً. وهذا ليس صحيحاً أيضاً لأن جارتيا ماركيز نفسه أرخ له فى ١٩٤٩ فى مقدمته (نفس القصة المختلفة) لقصته الرجل فى الشارع. المصدر المذكور، لسيمينون: المرة الأولى التى قرأتها فيها فى ١٩٤٩) عندما توقفت عن نشاطاتى الصحفية الأولى، وكنت أبيع الموسوعات ، والكتب الفنية بالأجل فى قرى لا جواخيرا". وعلى الرغم من أن ذلك كان صحيحاً ، عندما اعترف بذلك قبل ثلاثة عشر عاماً لـ ج. كوبر بوردا. المصدر المذكور: عندما خرجت من صحيفة الهيرالد فى بارانكيا ذهبت إلى لا جواخيرا فترة من الزمن ومعى حقيبة لبيع كتب الطب، وموسوعة أوتيتها". وبعد ذلك يضيف : " وذات يوم فى بايديوار شديد الحر فى أحد الفنادق وصلتنى مجلة لايف " الحياة " أرسلها هؤلاء المجانين فى بارانكيا: وهناك كانت قصة " العجوز والبحر " ، وكانت بمثابة عبوة من الديناميت" لقد صدرت رواية هيمنجواى فى العدد ٦ من مجلة لايف باللغة الأسبانية فى ٣٠ مارس ١٩٥٢ ، مما يسمح لنا بالاستنتاج عن يقين بأن رحلة جارتيا ماركيز كبائع للكتب فى بايديوار ولا جواخيرا كان خلال النصف الأول من ذلك العام.

(٥٤) فى لقاءنا فى بوجوتا خلال أغسطس ١٩٩٢ ، وفى محادثات هاتفية لاحقة أكد لي رفائيل إيسكالونا أن الرحلات إلى هذه الأماكن مع الكاتب (الرحلة إلى لا جواخيرا الصحراوية سيستفيد منها جارتيا

ماركيز) فى قصته السانحة إيرينديرا(، وقد أصرُّ على أنه كان مرشده الدائم ، ويؤكد أن: " مائة عام من العزلة" خرجت من بايديوار ولا جواخيرا لأن الفولكلور فى أراكاتاكا لا يحتاج إلى نصف ساعة لتحليله. لقد رافقته فى كل مكان ، وقد علمته وحكى له كل شيء . وذات مرة اصططحته إلى تويي بالقرب من لا باث ، وجعلته يشاهد شجرة تمر هندي عملاقة قد جفت. وقد سألتني جابو لماذا وقد قلت له : لأن قسيساً تبوّل على جذعها. ولقد دون جابيتو كل شيء ويحكى إيسكالونا أن أصدقاءه اشتكوا له: اسمع يارفانيل ، إن صديقك هذا كثير الأسئلة للغاية" وقد تركه إيسكالونا يتحدث مع الناس وذهب مع الموسيقيين.

(٥٥) جاء ذلك ضمن تصريحات جارتيا ماركيز فى " نفس القصة المختلفة " المصدر المذكور، وليديثى بالينثويلا. المصدر المذكور. وفى هذه المقدمة لقصة الرجل فى الشارع " لسيميتون ، جارتيا ماركيز أن الإيصال الذى كان مديناً بقسيمة أوليصال ليفيكتور كوهين قيمته تسعمائة بيزو " ، ولكن الصحفية الكوبية ليديثى بالينثويلا والتي كان معها الإيصال بلاشك تشير إلى معلومة مختلفة تماماً: " نظراً لهذه الطيبة غير المعتادة فى أصحاب الفنادق ، فإن كوهين احتفظ بالإيصال المستحق له على جارتيا ماركيز والمؤرخ فى ٣٠ مارس ١٩٥٣ . وفى خانة المبلغ ظهر الدين على أنه ١٢٢ بيزو ، ٥٣ سنتى (كولومبى) ، وقد سدد منها ٥٣ بيزو. وهناك توقيع من الدائن أسفل الإيصال " (الواقع والحنين لجارتيا ماركيز. المصدر المذكور).

(٥٦) العدد ٧ من مجلة لايف باللغة الأسبانية صدر فى ٣٠ مارس ١٩٥٣، وهذا يعنى أنه فى نفس اليوم الذى هجر فيه جارتيا ماركيز بايديوار بعد أن وقع الإيصال ليفيكتور كوهين متجهاً صوب لا جواخيرا الداخلية، وريو هاتشا. وبما أن المجلة وصلت إليه بعد عدة أسابيع ، ومن المحتمل ألا يكون قد تسلمها فى بايديوار حيث قرأ قصة هيمنجواي ، أو إذا كان قد حدث ذلك هنا ينبغي أن يكون فى مايو أو يونية من رحلته الفاشلة كبائع للكتب بالأجل. واستأداً لجاك جيرالد فى مقدمة بين كاتشا كوس (أى المحامين والتجار والخطباء) ، يذكر جارتيا ماركيز أنه قرأ هذا النص. وقد قتله الحر فى غرفته بفندق ريو هاتشا، ولكنه كان متحمساً للقراءة خلال الفترة التى كان يبيع فيها الكتب. ومع ذلك كما يرى فى الملاحظة ٥٢ فإن خ.ج. كويو بوردا قال له إن ذلك كان فى بايديوار. ومن المحتمل ألا يكون جارتيا ماركيز يتذكر بالضبط فى أى من المدينتين كان موجوداً فى ذلك الوقت ، وقرأ قصة هيمنجواي " العجوز البحر " ، ولكن المكان فى حد ذاته ليس مهماً. إن المعلومة التى ينبغي إبرازها أن ذلك كان خلال الجولة عندما قرأ تلك القصة.

(٥٧) جاء ذلك ضمن تصريحات جارتيا ماركيز لبيلينيو أبوليو مينوثا فى " لقاء رفيقين" المقال المذكور، ورائحة الجواقة. المصدر المذكور، وفى كلتا الحالتين يذكر جارتيا ماركيز نص فقرة قصة فيرجينيا ووف حرفياً.

هوامش الفصل العاشر

(١) وهذا يعنى أنه على الرغم من أن دعم ومساندة الاسبكتاتور (المشاهد) كان جوهرياً لجارثيا ماركيز ؛ فإن هذه المرة كان الكاتب هو الذى أعطى لبوجوتا، وكولومبيا ، والعالم ثمار نضجه المبكر. نفكر مع الناقد الأوروغواني أنخيل راما فى أن الاكتشافات الموضوعية والقوانين الجمالية التى انتهجها الكاتب فى أواخر ١٩٤٧، وبدايات ١٩٥٤ حيث عاد إلى بوجوتا لن تتغير جوهرياً اعتباراً من عمله فى الاسبكتاتور (المشاهد) ، حيث يمزج بين ما هو أدبى ، وبين التحقيق الصحفى والسينما والقلق السياسى - الاجتماعى ، بل ستتعمق إلى أكبر حد (أنخيل راما، البداية الأدبية لجابرييل جارثيا ماركيز، مركز الأبحاث اللغوية والأدبية، جامعة بيراكروثانا ، إكسالبا، يناير - ديسمبر ١٩٧٥) .

(٢) من محادثتى مع ألبارو موتيس ، المكسيك ، ١٧ نوفمبر ١٩٤٩ . استناداً إلى ما يتخيله بيدرو سوريلا فى جارثيا ماركيز الآخر. السنوات العجاف ، المصدر المذكور. قال له جبيرمو كانتو إنه لن يستطيع أن يؤكد له عما إذا كان صحيحاً انضمام جارثيا ماركيز نتيجة حيلة حاكها جيداً ألبارو موتيس بالاتفاق مع شخص ما بالصحيفة لكى يقترب من الاسبكتاتور ، ثم بعد ذلك يطلب منه البقاء أو الاستمرار. إن المعلومات التى لم تذكر مصادرها فى هذا الفصل واردة من محادثتى مع ألبارو موتيس ومانويل ثباتا أوليبييا، والفونسو فوينمايور ، وخوسيه سالجار، ولويس بييار بوردا وجونثالو مايا رينو وكارلوس مارتين وروبريجو أريناس بيتانكور ، ونانسى بيتينس ، وخوسيه لويس دياث جرانانوس.

(٣) جاك جيرالد، مقدمة لنصوص ساحلية، المصدر المذكور.

(٤) جابرييل جارثيا ماركيز " لوحة الأنباء تلك " فى ملحوظة صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤، المصدر المذكور.

(٥) النادرة نفسها التى أشار إليها جونثالو حكاها لي الكاتب خوسيه لويس دياث جرانانوس قريب جارثيا ماركيز.

(٦) بيدرو سوريلا. المصدر المذكور.

(٧) بالنسبة لهذه الحكاية التى سردها لي موتيس فى محادثتنا بمدريد فى ٧ نوفمبر ١٩٩١ : كان يشير إلى جارثيا ماركيز فى مقالة صديقى موتيس ، المقال المذكور.

(٨) جاء ذلك على سبيل المثال فى مانويل بيكاوت، المصدر المذكور. وجونثالو سانشيث ودوتى ميرتينس، المصدر المذكور.

(٩) جابرييل جارثيا ماركيز " حكاية هذه القصة "، مقدمة لـ " لحكاية غريق " برشلونة، دار نشر توسكيتس ، مارس ١٩٧٠ .

(١٠) جاك جيرالد، مقدمة لنصوص ساحلية ، المصدر المذكور.

(١١) جبيرمو كانتو مدير الصحيفة اعترف لبيدرو سوربلا. المصدر المذكور. أستطيع أن أقول لك شخصياً أنني لم أكن أعرف أن جارثيا ماركيز عضو في الحزب الشيوعي ، ولا كان يشارك في جمع التبرعات من زملائه بالعمل. كنت أعرف نعم أن جارثيا ماركيز كان ذا فكر يساري تقدمي.

(١٢) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لخوان لويس ثيرريان ، المصدر المذكور.

(١٣) ماريو بارجاس يوسا، جارثيا ماركيز: "قصة متمرّد". المصدر المذكور. وبيلينيو أبوليو ميندوتا، رائحة الجوافة ، المصدر المذكور. جارثيا ماركيز يتذكر أن أصدقاءه الأعضاء في الحزب استطاعوا أن يسببوا له عقدة ذنب رميية عندما قالوا له: إن قصة " الورقة الساقطة " لا تتدب بشيء ، إنها لا تكشف عن أي شيء .

(١٤) جاك جيرالد، مقدمة بين كاتشاكوس (بين التجار، والمحامين والخُطباء) المصدر المذكور.

(١٥) نفس المصدر السابق.

(١٦) في هذا الجانب من التأثير (على الرغم من أن الأمر يتعلق بالتأثير والمصادفة) للواقعية الإيطالية الجديدة في إنتاج جارثيا ماركيز قد أصاب الدارس الفرنسي جاك جيرالد في ملاحظته في المقدمة المذكورة. ولكن كان الناقد الأوروغواني أنخيل راما ، المصدر المذكور هو أفضل من أدرك جوهر ما هو إنساني هام في رواية جارثيا ماركيز.

(١٧) جاء ذلك في اعترافات جارثيا ماركيز في " بلوى كون الانسان كاتباً شاباً" في ملحوظات صحفية ١٩٨٠-١٩٨٤. المصدر المذكور.

(١٨) جاك جيرالد ، المصدر المذكور.

(١٩) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لخيرمان كاسترو كايثيدو ، المقال المذكور.

(٢٠) جاك جيرالد ، المصدر المذكور.

(٢١) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لخيرمان كاسترو كايثيدو. المقال المذكور.

(٢٢) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز، "مقاطعة الشوكو التي لا تعرفها تعرفها كولومبيا" صحيفة الاسبكتاتور- المشاهد ، بوجوتا ، ٢٩ سبتمبر إلى ٢ أكتوبر ١٩٥٤ .

(٢٣) جابرييل جارثيا ماركيز: " من كوريا إلى الواقع"، صحيفة الاسبكتاتور- المشاهد ، من ٩ إلى ١١ ديسمبر ١٩٥٤ .

(٢٤) جابرييل جارثيا ماركيز مثال كولومبي كبير تبنته المكسيك ، الاسبكتاتور ، بوجوتا ، ١ فبراير ١٩٥٥ .

(٢٥) في ١٩ يولية في ١٩٩٢ في منزله بكالداس بالقرب من ميدياين ، رودريجو أريناس بيتانكور حكاها لي جارثيا ماركيز أنه اقترح عليه أن يعد له تحقيقاً صحفياً: لقد كان لديه كل شيء مرتباً وجاهزاً في ذهنه. إنه كان يعرف جيداً ما كُتب عني، وكان يعرف كل شيء : السيمينار، عادات أسرة قروية في أنطيوكيا ، وكثرة تنقل هذه الأسرة بحثاً عن الاستقرار والقوت. إن التحقيق الصحفي إذا أمتعنت النظر يعتبر تحقيقاً ذاتياً إلا أنه ينتقل من الأدب إلى الحجر. إن المثال كان يعتقد دائماً أن جارثيا ماركيز لم يبحث عنه لكونه كاتباً لأنني لم أكن موضع اهتمامه، وإن أكون كذلك : بل كان ذلك بسبب انتمائي للحزب الشيوعي لأنه كان بالحزب أو كان قريباً من فكر وأيدولوجية الحزب.

(٢٦) جابرييل جارثيا ماركيز ، " حكاية تلك القصة " من مقدمة لـ " حكاية غريق " المصدر المذكور.

(٢٧) من تصريحات جارثيا ماركيز لم تنشر في الدردشة التي قام بها في مدرسة الصحافة بصحيفة الباييس (النولة) وجامعة الأوتونوما بمدريد في ٢٨ أبريل ١٩٩٤ .

(٢٨) المصدر السابق نفسه.

(٢٩) المصدر السابق نفسه.

(٣٠) منذ أن نشرت دار نشر توسكيتس في برشلونة هذا التحقيق الصحفي في سلسلة نصوص هامشية في مارس ١٩٧٠ أصبح الكتاب أكثرها طباعة وقراءة للمؤلف ، حيث بلغت احصائية المبيعات خلال خمس وعشرين سنة إلى عشرة ملايين نسخة في مختلف أنحاء العالم.

(٣١) استناداً لما قاله لويس أليخاندرو بيلاسكو عندما صدر الكتاب في مارس ١٩٧٠ كتب له جارثيا ماركيز رسالة عبر له فيها عن أن الحقوق ملك له، وأشار عليه بضرورة القيام بذلك لكي يتقاضاها (جاء ذلك في تصريحات إلى لويس ديلجانو في "الغريق يقاضى جارثيا ماركيز" مجلة التيمبو (الزمن) بوجوتا ٢٩ يولية ١٩٨٧ ، ومنذ مارس ١٩٧٠ حتى ديسمبر ١٩٨٢ كانت حقوق الطبعة الأسبانية تصله دون تأخير، ولكن اعتباراً من هذا التاريخ وبدون أدنى تفسير لم تعد الدجاجة تبيض له بيضاً من الذهب. لقد أصبح بيلاسكو رجل صناعة مزدهر ، واشتكى إلى مندوبة الكاتب الأدبية كارمن بالثليس دون أن يجد رداً طوال ثلاثة أعوام حتي مارس ١٩٨٦ ترأسل محامو الطرفين وانتهت القضية في فبراير ١٩٩٤ لصالح الكاتب حيث قضت المحكمة بأن الكاتب هو المؤلف الوحيد للكتاب.

(٣٢) جابرييل جارثيا ماركيز، قصة الورقة الساقطة ، بوجوتا. دار نشر س.ل.ب. مايو ١٩٥٥ ، وهناك ملحوظة تقول إن عدد نسخ هذه الطبعة ٤٠٠٠ نسخة ، ولكن وفقاً لعدة شهادات فإن طبعات صمويل ليسمان باون لم تتجاوز الألف أو الألفي نسخة.

(٣٣) إدوارد ثلاميا بوردا ، أوليس أهده العمود بأسره - المدينة والعالم ، صحيفة الاسبكتاتور - المشاهد ، قصة - الورقة الساقطة ، في يونية ١٩٥٥ ، كتب إيرناندو ثييث تعليقاً على الطبعة الأسبوعية للصحيفة نفسها في ١٢ من ذلك الشهر قبل ذلك بأسبوعين ، ومع ذلك كان قد ظهر تعليق مجهول في العدد الأول لمجلة ميتو (الأسطورة) تحت إشراف الشاعر خورخي جايتمان دوران في بارأنكيا : لقد كتب أصدقاء الجماعة عدة مقالات ، وقد برز من بين هذه المقالات مقال لعازف البيانو روبرتو بريتو سانشيث المنشور في صحيفة الهيرالد في ١٤ يولية ؛ أي في نفس اليوم الذي كان فيه جارثيا ماركيز موجوداً في أوروبا ، وقبل ذلك بشهر في ١٥ يونية أعد الأصدقاء مائدة تحية لأول قصة لجارثيا ماركيز، وقد كان ذلك حدثاً في الصحافة المحلية في ١٦ أكتوبر ، وعندما كان الكاتب موجوداً في روما نشر جونثالو أرانجو في صحيفة الكولومبي في مدينة ميدياين تعليقاً عميقاً بعنوان " جارثيا ماركيز: هو فوكنر في كولومبيا".

(٣٤) جاء ذلك في تصريحات لكارلوس خوليو كالدرون إيرميذا لخيرمان سانتا ماريا ، المقال المذكور.

هوامش الفصل الحادى عشر

(١) فى " حكاية هذه القصة " مقدمة " لحكاية غريق " يُشير جارثيا ماركيز: " قبل عامين سقطت الديكتاتورية ، وبقيت كولومبيا تحت إشراف نُظُم أخرى أنيقة ، ولكنها لم تكن أنظمة عادلة بينما بدأت فى باريس هذا المنفى الشارد ، وقليل من الجفاف الذى يُشبه كثيراً قارباً أشرف على الغرق "، وبعد ذلك بسبعة أعوام ، وفى تصريحات لخيرمان كاسترو كايثيو، المقال المذكور عاد ليؤكد النفى الاضطرابى : بعد صدور " حكاية الغريق " ازدادت الحالة سوءاً فى كولومبيا، لقد كان ذلك فى عهد طغيان روخاس بينيا. لقد كانت الصحف مراقبة، ولدى انطباع منذ عشرين عاماً بأن الديكتاتورية لم يعجبها التحقيق الصحفى. وخشية أية مشاكل قرر المسؤولون فى إدارة صحيفة الاسبكتاتور (المشاهد) أن أذهب إلى جنيف كمبعوث خاص لمؤتمر الأربعة الكبار.

(٢) صرح مدير الصحيفة جييروم كانو إلى بيدرو سورولا، المصدر المذكور " أعتقد أن سفر جارثيا ماركيز إلى أوروبا حدث فيه كل شيء كجائزة جائزة لنجوميته الصحفية طوال عامين فى الاسبكتاتور ، ولكن على وجه الخصوص فى انطباعى أو وجهة نظرى، ورغبة فى أن يسلك دروباً جديدة وليفتح آفاقاً جديدة لتبوغه المتميز.

(٣) جاك جيرالد، الدارس الفرنسى للإنتاج الصحفى لجارثيا ماركيز يراه هكذا: " إذا كانوا قد أرسلوه إلى أوروبا لأنهم كانوا متاكدين من أن إنتاجه الصحفى سيكون ممتازاً ، وسيؤدى إلى زيادة مبيعات وتداول الصحيفة مقدمة بين كاتشاكوس " (بين المحامين والتجار والخطباء المصدر المذكور).

(٤) خوسيه سالجار فى محادثتنا ببوجوتا ، ١٣ أغسطس ١٩٩٢ . ذكر أن سفر جارثيا ماركيز إلى أوروبا لم يكن فقط قد أدى إلى فشل التحقيق الصحفى : بل أيضاً إلى إغلاق الصحيفة من جانب طغيان روخاس بينيا. والأمر أنه لم يعد يعرف شيئاً عن الموضوع باستثناء أن النفق كان مُغلَقاً ، وقد هجرت الصحيفة. إن المعلومات التى لم يتم الإشارة إلى مصادرها واردة من محادثتى مع خوسيه سالجار ، وألبارو موتيس وألفونسو فوينماير ، وفرناندو بيرى ، ورودرىجو أريناس بتناكور، ومرسيدس بارتشا بارو.

(٥) جابرييل جارثيا ماركيز، " العودة إلى الجافة "، فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤ المصدر المذكور ، " جابو يحكى قصة حياته " المقال المذكور.

(٦) جاء ذلك فى اعترافات جابرييل جارثيا ماركيز فى " كيف تكتب قصة ؟ " ، فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤ ، المصدر المذكور. ومناجاة إيسابيل ترى المطر فى ماكوندو " ، وقد تم نشره تحت عنوان " الشتاء " فى صحيفة الهيرالد فى بارانكيا ، ٢٤ ديسمبر ١٩٥٢ .

(٧) جاء ذلك فى تصريحات جارثيا ماركيز لخيرمان كاسترو كايثيو. المقال المذكور.

(٨) المصدر السابق نفسه.

(٩) تحقيقات جنيف: "الأربعة الكبار باللون الفنى"، "عميلى المذهب إيكي"، كيف يكون عش نمل الصحافة"، "آباء العمد الأربعة السعداء"، "خوف الأربعة الكبار"، "برج بابل الحقيقى"، "سيدات جنيف العظيمات الثلاث". وقد نُشرت فى صحيفة الاسبكتاتور المشاهد أيام ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩ يولية ١٩٥٥ على الترتيب.

(١٠) ماريو بارجاس يوسا، المصدر المذكور.

(١١) جابريل جارشيا ماركيز، "روما فى الصيف" فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠-١٩٨٤.

(١٢) نفس المصدر السابق. العدد ١٧ الذى ذكرنا بالسبعة عشر نجلاً غير الشرعيين للعقيد أوريليانو بونديا، ومن المحتمل هنا أن يكون اختراعاً يبحث عن الترابط مع المفهوم السحري - القدرى الذى يرمز إليه هذا الرقم فى عمل جارشيا ماركيز.

(١٣) "أس. أس. فى أجازة" و "الاستعداد لنهاية العالم"، وقد نُشر فى صحيفة الاسبكتاتور المشاهد فى ٨، ١٥ أغسطس ١٩٥٥ على التوالي.

(١٤) ليس فقط سيجعل البابا يزور ماكوندو فى جنازة الأم الكبيرة، الأمر الذى سيحدث تاريخياً بعد ذلك بتسع سنوات مع زيارة البابا بابلو السادس لكولومبيا عام ١٩٦٩، بل سيدخل موكب السوق الملتف حول البابا أثناء استراحته الصيفية، وكذلك المرأة مقطوعة الرأس التى عثرت عليها الشرطة فى تلك الأيام فى بحيرة كاستيليجا نولفو.

(١٥) "الحياة الطويلة السعيدة لمارجريتو دوارتى" فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠-١٩٨٤ المصدر المذكور.

(١٦) على سبيل المثال لم يتعمق جارشيا ماركيز فى هذه القصة من "الاثنتا عشرة حكاية الغريبة فى الحياة" التى كان يعيشها مارجريتو دوارتى فى روما، بينما كان ينتظر تطويب نجلته الطاهرة، ولذلك فهو القديس الحقيقى، وليست نجلته أمر لا يمكن تصديقه لأن القصة هى التى ينبغى أن تسرد لنا ذلك، وليس الكاتب فى تدخل تعسفى فى وجهة نظرنا.

(١٧) "انتصار غنائى فى أوروبا" نُشر فى صحيفة الاسبكتاتور المشاهد فى ١١ ديسمبر ١٩٥٥.

(١٨) نُشر فى أربعة عشر جزءاً فى الفترة من ١٧ إلى ٣٠ سبتمبر ١٩٥٥.

(١٩) جابريل جارشيا ماركيز - مدير فرنسى فى البندقية مهتم بالإنتاج السينمائى فى كولومبيا، صحيفة الاسبكتاتور المشاهد، بوجوتا فى ٧ سبتمبر ١٩٥٥.

(٢٠) جاك جيرالد، مقدمة - من أوروبا إلى أمريكا، برشلونة، دار نشر بروجيرا، فبراير ١٩٨٣.

(٢١) جاء ذلك ضمن اعترافات جارشيا ماركيز فى "أستاجر نفسى لكى أحلم"، فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤، المصدر المذكور.

(٢٢) التحقيقات الصحفية الثلاثة عن فيينا تحت العنوان المميز "فى مدينة الرجل الثالث"، وقد نشرت فى ١٣، ٢٠، ٢٧ نوفمبر، والأربعة تحقيقات عن البابا - قداسة البابا عن قرب فى ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢ ديسمبر والتحقيقات الثلاثة عن صوفيا لورين وجينا لولو بريجيديا - حرب الجوارب الحريرى - ٢٦، ٢٧، ٢٨ ديسمبر ١٩٥٥. إن الموضوعات والشخصيات المختارة وكذلك العناوين توضح أن جارشيا ماركيز لم يكن فقط موجوداً وسعيماً فى أوروبا، بل كان مبهوراً بها. فالمزاح والجرأة وطريقته فى تناوله ومعالجته للموضوع الأوروبى، ومقارنته بون عقد مع ما هو كولومبى أو أمريكى لاتينى يمكن أن يؤدى إلى الاعتقاد - كما يفكر فى ذلك الكثيرون - فى أن الكاتب لم يكن منبهراً بالقارة القديمة. إن الذين يعتقدون فى ذلك ينسون أن عبقريته وطريقته فى الكتابة مستأنتان من هذا الانبهار لأن جارشيا ماركيز فنان كبير أمام هدفه الروائى.

(٢٣) فى محادثاتنا مع أنطونيو دى لوس يانيوس ، ٢٢ أكتوبر ١٩٩٤ أُلح على فرناندو بيرى فى أن الصورة الأولى التى لديه عن جارتيا ماركيزهى تلك التى كان يرتدى الطاقية والمعطف ، وأنهما تعارفا فى ثينيثتا مما يوحى أو يوعمز بأن ذلك كان فى الخريف فى أواخر أكتوبر عندما كان الكاتب عائدًا لقوه من سفره إلى بولندا ، وتشيكوسلوفاكيا عن طريق النمسا . وهذا يقودنا إلى الاستنتاج الصائب فى أن جارتيا ماركيز لم يتمكن من الدراسة فى مركز السينما التجريبي أكثر من شهرين من أواخر أكتوبر إلى أواخر ديسمبر عندما انتقل إلى باريس .

(٢٤) جاء ذلك فى اعترافات جارتيا ماركيز فى كيف تُحكى قصة ، بوجوتا ، دار نشر بولونتا ، ١٩٨٥ .

(٢٥) جبيرمو أنجولو ، " بحثًا عن جابو المفقود " فى تجميع لمقالات لعدد من الكُتّاب ، بوجوتا ، دار نشر كولكوترا ، ١٩٨٣ .

(٢٦) جاء ذلك فى كلمة ألقاها جارتيا ماركيز فى احتفال افتتاح مقر هيئة السينما اللاتينية الأمريكية الجديدة فى ٤ ديسمبر ١٩٨٦ ، صحيفة الهيرالد " المجلة الأسبوعية " بارانكيا فى ٢٨ ديسمبر ١٩٨٦ .

(٢٧) جابرييل جارتيا ماركيز ، " من باريس مع وافرالحب " ، ملحوظات صحفية ، ١٩٨٠ - ١٩٨٤ . المصدر المذكور .

(٢٨) بيلينيو مينوثا لم يحدد سنة هذا اللقاء فى " القضية الخاسرة " لا ياما والإيلو (الهميب والتج) ، المصدر المذكور . ولكن لويس بيّار بوردا يعتقد أن ذلك كان قبيل سفر بيلينيو إلى أوروبا فى أول منصب دبلوماسى له فى ١٩٤٨ بعد ٩ أبريل بقليل (جاء ذلك ضمن السفير الأخير بوجوتا ، دار نشر العالم الثالث ، يولية ١٩٩٢) .

(٢٩) بين أبواب السبب التى بدأ جارتيا ماركيز قراءتها فى ١٩٤٤ . بعد وصول الشاعر كارلوس مارتين لإدارة مدرسة الليسيه الوطنية للبنين فى ثيباكيرا كانت هناك أحدها بعنوان " نثر غنائى " والتى - بلا شك - قام طالب الثانوية الشاب بإعدادها لباب نصوصه الغنائية فى المجلة الأدبية المتوجهة .

(٣٠) بيلينيو مينوثا ، المصدر المذكور .

(٣١) المصدر السابق نفسه .

(٣٢) " عملية أسرار فرنسا " ، نُشرَ فى الانديينديتى (المستقل) ، فيما بين ١٨ مارس ، ٥ أبريل ١٩٥٦ ، وهذا فى رأينا هو التحقيق الصحفى الوحيد السىء الذى كتبه جارتيا ماركيز أثناء مسيرته الصحفية الطويلة اللامعة بدون بنية ولا أسلوبه المعتاد ، ولا إيقاع ، ولا مزاح . هذا التحقيق الصحفى على ما يبدو كُتب على وجه السرعة دون إعداد مُسبق ، ودون مضاهاة لمادته الصحفية . وبالتأكيد فإن اللغة ، وعدم معرفة التاريخ والسياسة والمجتمع الفرنسى كانت عوائق كبيرة بالنسبة للصحفى الذى اضطر للكتابة لكى يكتسب قوت يومه .

(٣٣) ماريو بارجاس يوسا ، المصدر المذكور . وياك جيرالد ، مقدمة من أوروبا وأمريكا . المصدر المذكور .

(٣٤) بيلينيو أبوليو مينوثا ، المصدر المذكور .

(٣٥) المصدر السابق نفسه .

(٣٦) من محادثاتى مع خوسيه لويس دياث - جرانا دوس ، بوجوتا ، ١٤ يولييه ١٩٩٢ . دياث - جرانا دوس ، وهو قريب لجارتيا ماركيز ، وقد تعامل عن قُرب معه عندما كان الكاتب فى أواخر ١٩٥٩ وأواخر ١٩٦٠ موجوداً فى بوجوتا يُعيد كتابة " الساعة المشنومة " ، وكان حينئذٍ عندما سمعه يتحدث عن الدوافع السياسية الخفية لقصته .

- (٢٧) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، " سيرة ذاتية منزلية لقصة " ، مجلة التيمبو ، " قراءات يوم الأحد " ، بوجوتا ، يونية ١٩٦٣ .
- (٢٨) خيرمان بارجاس ، " حول العقيد لا يجد من يُراسله " ، في جابرييل جارتيا ماركيز إلى جين ميتشيل فوسى ، فى مقابلة مع جارتيا ماركيز ، إيماخين (صورة) ، كاراكاس ، ١٩٦٩ (ذكر ذلك ماريو بارجاس يوسا ، المصدر المذكور) .
- (٢٩) جاء ذلك فى تصريحات لجارتيا ماركيز لجين ميتشيل فوسى فى "مقابلة مع جارتيا ماركيز" إيماخين (صورة) كاراكاس ، ١٩٦٩ (ذكر ذلك ماريو بارجاس يوسا ، المصدر المذكور سابقاً) .
- (٤٠) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، رائحة الجوافة ، المصدر المذكور .
- (٤١) جاء ذلك ضمن تصريحات جارتيا ماركيز لأرماندو لوبيث ، فى " جارتيا ماركيز يتحدث عن الموسيقى " . الهيرالد ، بارانكيا ، ٢٩ ديسمبر ١٩٨٥ ، ولخوان لويس ثييريان ، المصدر المذكور .
- (٤٢) استناداً للمثال رودريجو أريناس بيتانكور ، أرسل جارتيا ماركيز له رسائل إلى المكسيك يطلب منه دولارات ، وقد أرفق معها بعض المقالات لكى ينشرها له فى الصحافة المكسيكية . وقد قرأ المثال الرسائل على صديقه جيرمو أنجولو الذى لم يكن له صلة بالكاتب فى ذلك الحين سوى عبر المراسلة الأدبية ، وقد تسلي الشخصان بهذا الموقف . قل لهذا الشخص الحقيقة كما هى : إننا أيضاً ليس لدينا ما نكله تعجب أنجولو قاتلاً وفقاً لما حكاه رودريجو أريناس بيتانكور .
- (٤٣) إن الحكاية قصتها على ألفونسو فوينمايور فى بارانكيا أثناء محادثاتها يوم ٢٢ أغسطس ١٩٩٢ . ومن العجيب أنها حكاية لم تشر إلى جارتيا ماركيز على حد علمى فى مقابلاته الصحفية ، ربما بسبب هذا الحياء الناجم عن اليأس الذى ألم أيضاً بالعقيد الذى لم يُراسله أحد .
- (٤٤) جاء ذلك ضمن تصريحات جارتيا ماركيز إلى بيلينيو ميندوثا ، فى رائحة الجوافة ، المصدر المذكور .
- (٤٥) جاك جيرالد ، مقدمة بين كاتشاكوس (بين التجار ، والحامين ، والخطباء) . المصدر المذكور .
- (٤٦) جاء ذلك ضمن تصريحات جارتيا ماركيز لخيرمان كاسترو كايثيو ، المقال المذكور .
- (٤٧) خيرمان بارجاس ، المصدر المذكور .
- (٤٨) إن الحكاية سردها لي مارجوت جارتيا ماركيز . ومعظم المعلومات عن تاتشيا كينتانا قدمها لي لويس بيّار بوردا الذى تعرّف عليها فى باريس خلال هذه السنوات .
- (٤٩) جابرييل جارتيا ماركيز ، " هيمنجواى الشخصى " ، فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤ .
- (٥٠) جابرييل جارتيا ماركيز ، " من باريس مع وافر الحب " و " جيورجيس براسينس " فى ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤ المصدر المذكور سابقاً . ولخوان لويس ثييريان ، المصدر المذكور سابقاً .
- (٥١) جابرييل جارتيا ماركيز ، " من باريس مع خالص الحب " ، المصدر المذكور .
- (٥٢) خلال فصل الربيع هذا قادماً من كوينهاجن زاره الطبيب والصحفى خوان ثباتا أوليبيا شقيق القصص مانويل ثباتا أوليبيا ، يذكر أنه عندما هم بالعودة إلى قرطاجنة الأمريكية قال له جارتيا ماركيز بأكثر قدر من الوقار الممكن : " إنه كان يكتسب قوت يومه من آلة الكتابة ، ولكنها كانت بها مشكلة حيث طمس حرف من حروفها - فما رأيك ؟ . قال له الكاتب الحزين . إنه ليس حرف X وحرف Y أو حرف Z . لا إنه حرف A : وقد أعطاه خوان ثباتا أوليبيا نقوداً لكى يصلح الآلة الكتابة ، وعندما رأها الفنى صاح من الحزن قاتلاً : إنها متهلكة ياسيدى " .

(٥٣) جابريل جارثيا ماركيز " الستارة الحديدية " هي عصا مطلية باللونين الأحمر والأبيض " ، برلين ماهي إلا هُراء " ، منزوع الملكية يجتمعون لكي يحكو همومهم ومشاكلهم " ، في " تسعون يوماً عند الستارة الحديدية " إنها سلسلة من التحقيقات الصحفية قام بتجميعها جاك جيرالد في " من أوروبا وأمريكا " ، المصدر المذكور.

(٥٤) في " القضية الخاسرة " ، المصدر المذكور ، يقول بيليني مينوثا بذاكرة سيئة في غاية الوضوح : من الناحية الرسمية أصبحنا معتمدين كأعضاء في فرقة الباليه الشعبى الذى كان يتكون من الملونين أو الزنوج من الساحل الكولومبى " ، مانويل ثباتا أوليبيا على العكس من ذلك حكى لى ، كان هو الذى تمكّن من إدخال بيلينيو أبوليو مينوثا وجارثيا ماركيز في فرقته عندما لم يكن لديهم أى بارقة أمل في السفر إلى موسكو .

(٥٥) بيلينيو مينوثا ، في " القضية الخاسرة " ، المصدر المذكور .

(٥٦) جابريل جارثيا ماركيز " ، لقد كنتُ في روسيا " ، تم تجميعه في " من أوروبا وأمريكا " ، المصدر المذكور .

(٥٧) جابريل جارثيا ماركيز " للمرأة التشيكية كانت الجوارب النايلون بمثابة جوهرة ثمينة " ، و " الناس يتصرفون في براغ كما يحدث في أى دولة رأسمالية " ، في " تسعون يوماً عند الستارة الحديدية " ، المصدر المذكور .

(٥٨) جابريل جارثيا ماركيز " تسعون يوماً عند الستارة الحديدية " ، كروموس ، بوجوتا في ٢٧ يولييه ، ٣ ، ١٠ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٣١ من شهر أغسطس ، ٧ ، ٢١ ، ٢٨ من سبتمبر ١٩٥٩ . إن عناوين التحقيقات العشرة هي كما يلي : الستارة الحديدية هي عصا مطلية بالأحمر والأبيض " ، برلين ما هي إلا هُراء " ، منزوع الملكية يجتمعون لكي يحكو همومهم " و " للمرأة التشيكية كانت الجوارب الحريرى من النايلون بمثابة جوهرة ثمينة " و " الناس يتصرفون في براغ مثل أى دولة رأسمالية " ، " العيون المفتوحة في بولندا في حالة الغليان " و " الاتحاد السوفيتى : مساحته ٤٠٠,٠٠٠ كم٢ بدون إعلان كوكاكولا واحد " ، و " موسكو أكبر قرية بالعالم " ، و " في ضريح الميدان الأحمر يرقد ستالين دون نائب ضمير " ، و " الرجل السوفيتى بدأ يتعب من التناقضات " .

(٥٩) جاك جيرالد ، مقدمة من أوروبا إلى أمريكا ، المصدر المذكور .

(٦٠) جيبيرمو أنجولو ، المقال المذكور . يقول أنجولو : " إن اللقاء كان ذات مساء في الشتاء " ، ولكن في الواقع كان خريفاً آخر أى في أوائل الشتاء حيث أن جارثيا ماركيز كان قد سافر إلى كاراكاس : في ٢٣ ديسمبر ١٩٥٧ .

(٦١) جابريل جارثيا ماركيز ، " لقد زرت المجر " و " كنت في روسيا " ، مجلة " لحظة " كاراكاس ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٩ نوفمبر ١٩٥٧ .

هوامش الفصل الثاني عشر

(١) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، " القضية الخاسرة " فى " اللهب والثلج " المصدر المذكور . من أصدقاء جارثيا ماركيزا المقربين القدامى بيلينيو ميندوثا ، هو الوحيد الذى كتب بتوسع عن حياته حيث تجاوز الوفاق والإعجاب . وقد انتقد بأنه بالغ فى الأدب فى سرد قصة صديقه (أى أنه أدب سيرته الذاتية) . والحقيقة أنه بالقراءة الحذرة وبمعلومات جيدة حيث إن النزعة الأدبية تستند إلى احترام وقور ودقن لموضوعية الأحداث . صحيح أن صفحات بيلينيو ميندوثا قد حذفت الإشارات الزمنية ، وهذا إلى جانب انسيابية أسلوبه يبدو وكأنه يقترب من القصة أكثر من المقال الخاص بالسيرة الذاتية ، ولكنه يعرف ويدرك جيداً بدقة ووضوح السمة الإنسانية والنفسية لكى يظهر الحقيقة العميقة للأحداث . وهكذا فإن " القضية الخاسرة " تبدو لنا أفضل صورة كُتبت عن القصص ، ولذلك فقد اتخذناها مرجعاً لإعادة ترتيب أحداث الأربعة عشر شهراً لإقامة جارثيا ماركيز فى كاراكاس ، والعامين اللذين قضاهما يتعاون مع وكالة الصحافة اللاتينية . أما المعلومات الأخرى فى هذا الفصل والتي لم يُشر إلى مصادرها واردة من محادثاتي مع أدريانو جونزاليث ليون ، وخوسيه فونت كاسترو ، وألبرتو ثلاميا ، ومرسيدس بارتشا - بارو ، وهيكتر بارتشا بيليا ، وخوسيه لويس دياث - جرانادوس وألبرتو أجيري ، وألفونسو فوينمايور ، وأنخيل أوكخير ، وإليسيو ألبرتو ديجو .

(٢) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، المصدر المذكور .

(٣) نفس المصدر السابق و جابريل جارثيا ماركيز ، " ذاكرة كاراكاس السعيدة " ، المقال المذكور .

(٤) " صباح الخير يا حورية " و " الشعب فى الشارع " ، مجلة " لحظة " ، كاراكاس ٢٤ يناير ١٩٥٨

(٥) قام بتجميعها جاك جيرالد فى " من أوروبا إلى أمريكا " المصدر المذكور .

(٥) جاء ذلك فى تصريحات جارثيا ماركيز إلى بيلينيو أبوليو ميندوثا فى " رائحة الجوافة "

المصدر المذكور .

(٦) نفس المصدر السابق ، وإيرنستو جونزاليث بيرميخو ، جارثيا ماركيز : الآن مانتا عام من العزلة ،

النص رقم ٤٤ ، مدريد فى ١٤ نوفمبر ١٩٧٠ .

(٧) جاء ضمن تصريحات مرسيدس بارتشا بارو إلى خيرمان كاسترو كاشيدو حيث أوردتها كاسترو

فى " جابو يحكى قصة حياته " المقال المذكور .

(٨) المصدر السابق نفسه .

(٩) طبقاً لقرار الداخلية بمقاطعة بوليفار فى ٢٢ مايو ١٩٣٢ ، ومنه يتضح أن جدّ مرسيدس من سوريا

اليوم جبل لبنان ، وكان مقيماً فى مدينة ماجانجى .

(١٠) الصفوف الأولى ، والثاني ، والثالث بالمدسة الابتدائية درستها فى مدرسة لوس نينوس كروث

فى ماجانجى من ١٩٤٢ إلى ١٩٤٤ ، أما الرابع والخامس من المرحلة الابتدائية ، والأول والثاني من المرحلة

الثانوية فى مدرسة القلب المقدس للسيد المسيح فى مومبوكس من ١٩٤٥ إلى ١٩٤٨ ، أما الثالث والرابع

فى المرحلة الثانوية فى مدرسة لا برستثاڤيون فى أنيبيجانو عامى ١٩٤٩ ، ١٩٥٠ ، أمّا الخامس والسادس فى مدرسة ماريا أوكليلادورا بمدينة ميدياين عامى ١٩٥١ ، ١٩٥٢ . ودرجات الصّف الثالث والرابع بالمرحلة الثانوية توحى بأن مرسيدس بارتشا بارودو لم تكن فقط طالبة ممتازة ، بل كانت أيضاً واحدة من أفضل اثنتين أو ثلاث طالبات بالمدرسة خلال السنتين المذكورتين.

(١١) استناداً للويس بيّار بوردا كما اعترفت له تاتشيا كينتانا بنفسها أنه عندما التقى بها مصادفة فى أوائل ١٩٥٨ فى مقهى بوليبارد سان جيرمان فى باريس: هنا ظهرت تاتشيا كانت نيته الزواج بمرسيدس ، كما أبلغ ذلك إلى تاتشيا نفسها وفقاً لروايته (من رسالة لويس بيّار بوردا للمؤلف المؤرخة فى ٢٠ فبراير ١٩٩٦ بوجوتا).

(١٢) فى ١٩٦٧ اعترف الكاتب للصحفى بيرنارد ماركيز من وكالة الصحافة اللاتينية أنه بعد الانتهاء من القصة: كان يسير بها وهى ملفوفة ومربوطة برباط عنقه . وقد وضعها فى حقيبتها عندما كان يكتسب قوته من الصحافة. وأتذكر أنه عندما وصلت مرسيدس بارتشا بارودو إلى كاراكاس حيث كنت أعيش . عندما كنت أرتب هذه الفوضى المنظمة فى غرفتى سألتنى ما هذا يا جابو؟ ما هذا؟ إنها قصة لا تلقىها فى القمامة من فضلك ... (" جارتيا ماركيز: ماضى وحاضر قصة " ، ألتيرناتيفا (البديل) العدد ٩٢ ، بوجوتا ، من ٩ إلى ١٦ أغسطس ١٩٧٦) . ومع ذلك ، وبعد ثلاث سنوات يعترف بعكس ذلك تماماً للصحفى الكوبى مانويل بيريرو: " عندما عدت من أوروبا إلى كاراكاس كانت معى الساعة المشنومة ملفوفة ومربوطة برباط عنق (...) وفى هذه الفترة تزوجت من مرسيدس ، وعندما بدأت ترتيب المنزل سرعان ما أخرجت هذه اللقافة من الورق المربوطة برباط العنق ، وقالت لى: ما هذا ؟ ، وقد أجبته أنها قصة ، ولكنها لن تخدمنى ، والأفضل التخلص منها حتى لا أفكر فيها من جديد لأنه قد تفتحت لى أفاق أخرى (الثورة الكوبية خلصتني من التشريفات الكريهة البغيضة بهذا العالم ، بوهيميا ، هافانا ١٩٧٩) . ومن هاتين الروايتين المتناقضتين اخترت الرواية الأولى لأنها الأقرب إلى الحقيقة . لأننا كما نعرف جارتيا ماركيز لا شىء أهم لديه من مخطوطاته بعد حياته والحب والصداقة : فمن الملائم الاعتقاد فى أن تلك الرواية ينبغى أن تكون الإجابة التى قدمتها له زوجته المحسنة.

(١٣) انظر الملحوظة ٥٠ من الفصل الثالث.

(١٤) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، " القضية الخاسرة " ، المصدر المذكور ، الرواية مزودة بالرسم التوضيحي للرسم فرناندو بوتيرو لم تُنشر حتى مرور عامين بعد ذلك فى مجلة التيمبو (الزمن) ، " قراءات يوم الأحد " ، بوجوتا ، ٢٤ يناير ١٩٦٠ . وخلال هذه السنة نفسها قام أوجوستو مونتيروسو - بناءً على إيعاز من السينمائى القطالونى لويس بيثيس - بإعادة نشره فى دار نشر جامعة المكسيك ، مجلة UNAM .

(١٥) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، المصدر المذكور . وياك جيرالد ، مقدمة من أوروبا وأمريكا ، المصدر المذكور .

(١٦) نُشرت كلها فى مومينتو (اللحظة) ما بين يناير ومايو ١٩٥٨ وقد جمعها جاك جيرالد من أوروبا إلى أمريكا . المصدر المذكور .

(١٧) جابرييل جارتيا ماركيز " ليس لدى أى عنوان " ، مجلة بيت الأمريكتين ، رقم ١٠٠ ، هافانا ، يناير وفبراير ١٩٧٧ .

(١٨) بيلينيو ميندوثا ، المصدر المذكور .

(١٩) بالطبع أن يكون أمراً توضيحياً أيضاً للحكمة (أو الصمت) الذى يعالج بها جارتيا ماركيز موضوعات الثورة الكوبية. والمناسبة التى سنحت له بذلك كانت ، عندما كتب المقال " ليس لدى عنوان " ولكن الكاتب ينهى الرواية فى تلك اللحظة بالضبط التى وصل فيها إلى هافانا فى ١٩ يناير ١٩٥٩ .

- (٢٠) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، المصدر المذكور، وباك جيرالد ، المصدر المذكور.
- (٢١) المصدر السابق نفسه.
- (٢٢) المصدر السابق نفسه.
- (٢٣) جابريل جارثيا ماركيز ، قصة " الورقة الساقطة " المهرجان الأول للكتاب الكولومبي ، دار نشر توريس أجيرو ، ليما ، بيرو ، ١٩٥٩ . وسواء هذه الطبعة أو الطبعة الأولى في ١٩٥٥ فهما مهادتان لخيرمان بارجاس ، وإن كان الكاتب لن يحتفظ بهذا الإهداء في الطبعة التالية، ولكي يتم وضع مهرجان الكتاب الكولومبي موضع التنفيذ ذهب مانويل سكورتا إلى بوجوتا ، واقترح على الصحفي ألبرتو ثلاميا نجل الشاعر خورخي ثلاميا الذي كان يشرف على المهرجان ، وقد اختاروا رئيساً شرفياً له القصاص إدواردو كيايرو كالديرون .
- (٢٤) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا في " لقاء الرفاق " المقال المذكور إلى خيرمان كاسترو كاثينو، المقال المذكور، وخوان لويس ثييريان، المصدر المذكور.
- (٢٥) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا، المقال المذكور، وخيرمان كاسترو كاثينو، المقال المذكور.
- (٢٦) وطبقاً لشهادات بيلينيو أبوليو ميندوثا (انظر باك جيرالد، مقدمة " من أوروبا إلى أمريكا ")، إن كتابة هذه الرواية الجوهرية من إنتاج جارثيا ماركيز توافقت مع النشاطات الأولى للمؤلف في وكالة أنباء أمريكا اللاتينية ، أي في الأيام الأولى من شهر مايو عام ١٩٥٩، وهذا ما يؤكد بيلينيو أبوليو ميندوثا بنفسه في وقت لاحق حيث كتب في " القضية الخاسرة " إنه في أغسطس من ذلك العام عندما ولد النجل الأكبر لجارثيا ماركيز كان الكاتب يعيد كتابة قصته " الساعة المشنومة " .
- (٢٧) في هذا الصدد تشارك التحليل وجهة نظر باك جيرالد (انظر مقدمة من أوروبا إلى أمريكا) .
- (٢٨) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، " السيرة الذاتية السرية لقصة " .
- (٢٩) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لباك جيرالد لمقدمة بين كاتشاكوس (بين المحامين والتجار والخطباء) ومن أوروبا إلى أمريكا.
- (٣٠) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لألبيرتو أجيرو المؤرخة في المكسيك في ١٧ أغسطس ١٩٦١ .
- (٣١) بيلينيو ميندوثا " القضية الخاسرة " ، المصدر المذكور.
- (٣٢) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز للصحفي الأرجنتيني أوراثيو بيريتسكي في " جابو يتحدث عن وولش " (النسخة التي حصلت عليها صورتها من نسخة أخرى من قسم الصحف بمكتبة بيت الأمريكتين، ولا تحتفظ باسم المجلة أو الصحيفة ولا السنة ولا التاريخ) .
- (٣٣) المصدر السابق نفسه.
- (٣٤) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لإيرنستو جونزاليث بيرميخو، المقال المذكور.
- (٣٥) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى أوراثيو بيريتسكي ، المقال المذكور، وفي " ذكريات صحفي " بالملحوظات الصحفية ١٩٨٠ إلى ١٩٨٤ . المصدر المذكور.
- (٣٦) الشاعر والسينمائي الكوبي إليسيو ألبرتو ديجو نجل الشاعر أليسيو ديجو ، الصديق المتعاون مع جارثيا ماركيز هو الذي حكى لي هذه الحكاية في محادثتنا بالمكسيك في ٢٤ نوفمبر ١٩٩٤ . وقد ذكر لي

إليسيو ألبرتو ديجو كذلك أن الكاتب لم يعترف فقط بهذا الإعجاب بفيلكس ب. كايجنيت ، بل أيضاً تأثير الشفاهية للقصة الإذاعية في إنتاجه.

(٣٧) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، " القضية الخاسرة " المصدر المذكور.

(٣٨) جاء ذلك ضمن تصريحات جارشيا ماركيز إلى أورلاندو كاستيانوس للبرنامج " رسمياً بصورة " لإذاعة هافانا، كوبا ، وقد أعيد نشره في برسما ديل ميريديانو ٨٠ ، هافانا من ، ١-١٥ أكتوبر ١٩٧٦ .

(٣٩) جابريل جارشيا ، " شبح التقدم " في ملحوظات صحفية ١٩٨٠-١٩٨٤ . المصدر المذكور.

(٤٠) بيلينيو ميندوثا ، " القضية الخاسرة " ، المصدر المذكور.

(٤١) جاء ذلك ضمن التصريحات التي أدلى بها جارشيا ماركيز لأوراثيو بيربيتسكي ، المقال المذكور.

(٤٢) كان نفس الصحفي الأرجنتيني أوراثيو بيربيتسكي الذي حاول استعادة - ربما بإيعاز من جارشيا ماركيز - وثيقة ما من عهد ماسيتي وولش وجارشيا ماركيز ، ولكن طيقاً لما يشرحه في نفس المقابلة مع الكاتب الكولومبي " بعد مساعي كثيرة " في الصحافة اللاتينية قالوا إنه لم يتم الاحتفاظ بشيء من تلك الفترة " وقد علّق جارشيا ماركيز على ذلك: إنه من المحتمل جداً أن يكون قد تم القضاء على هذه الوثائق لأسباب أخرى: للتلاعب في تاريخ وكالة أنباء أمريكا اللاتينية. وهذا لا يهمني أن يكون ذلك مسجلاً ، وأنت ستقوم بنشره. ومن الممكن أن يكونوا قد مزقوا جميع الأرشيفات التي كانت في عصر ماسيتي وولش بغية إعطائه شهادة ميلاد مختلفة للصحافة اللاتينية لأن هذه المقالات كانت كما ينبغي أن تكون ، ولكن بالنسبة لإنسان منظم وذو فكر منطقي كانت غير متجانسة بشكل مرعب ، ومن المحتمل أن تكون حتى مناهضة للثورة .

(٤٣) بيلينيو أبوليو ميندوثا ، " القضية الخاسرة " المصدر المذكور.

(٤٤) إيرنستو ستشو، " رحلات السندباد جارشيا ماركيز "، الصفحة الأولى ، رقم ٢٣٤ ، بينوس أيرس،

من ٢٠ إلى ٢٦ يونيو ١٩٦٧ ، بيلينيو ميندوثا ، " القضية الخاسرة " ، المصدر المذكور، وجابريل جارشيا ماركيز " العودة إلى المكسيك " في ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤ المصدر المذكور.

هوامش الفصل الثالث عشر

(١) جاء ذلك ضمن تصريحات ألبارو موتيس إلى فرناندو كيروث في "المملكة كانت لي"، بوجوتا، دار نشر نورما، أبريل ١٩٦٣. والمعلومات التي لاتتم الإشارة إلى مصادرها في هذا الفصل واردة في محادثاتي مع كل من ألبارو موتيس وكارلوس فوينتيس، وماريا لويسا إليسيو، وبيثينتي روخو، وإيمانويل كاريابو، وناتسي بيثنس، وكارمن بالثليس، ومرسيدس بارتشا باربو، وجونثالو جارثيا بارتشا، وخوسيه دي لا كولينا ونينوس إسبريساتي، ولويس كودويرير، وفرانشيسكو ثيربانتيس، وأوجوستو مونتيروسو، وأرتور ريبستين (الذي أوضح لي بعض التواريخ من خلال إدواردو جارثيا أجيلار) وألبرتو أجيرو، وألفونسو فوينمايور، وياكو بوروا، ودانييل سامبير.

(٢) جابريل جارثيا ماركيز، أشواق موجزة، دياريو ١٦، الثقافة، مدريد في ٦ يناير ١٩٨٦.

(٣) جابريل جارثيا ماركيز، "رجل مات ميتة طبيعية" نويدياديس (المستجدات) المكسيك في الثقافة المكسيك في ٩ يوليو ١٩٦١.

(٤) جابريل جارثيا ماركيز، عودة إلى المكسيك، في ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤ المصدر المذكور.

(٥) كلتا المجلتين أسسهما فرانثيسكو سايرولس: الأسرة في ١٩٣٠ وحوادث للجميع في ١٩٣٣. كانت الأولى منهما توزع أيضاً في إسبانيا، وباقي دول أمريكا اللاتينية. وبما أن جارثيا ماركيز لم يرد أن يظهر اسمه فيهما، وكان من بين هيئة إدارتها جوستابو ألا ترستى، ولكننا عندما كنا نقرأ المقالات الافتتاحية كان من السهل التعرف على أسلوب الكاتب: "جاءت اللحظة لكي يلتحق الطفل بالمدرسة. لقد كبر الطفل، ولم يكن قطعة اللحم هذه التي كادت أن تتفسخ بين أيدينا، الآن يسير على قدميه، ويتحدث باستمرار وينظر إلى كل ما حوله في دهمشة يبحث ويسأل ويريد الاستحواذ على العالم، الذي على الرغم من اتساعه يبدو الطفل جزءاً صغيراً منه، ولكن الطفل يؤمن بوجوده ويهتبه الإحاطة به بذكائه وعبقريته الناشئة." (امتداد المنزل، الأسرة رقم ٦٦٣، المكسيك، ١٤ أكتوبر ١٩٦١). وبما كان جارثيا ماركيز يتحدث في هذه اللحظة عن تجربته الأبوية الخاصة لأن روبريجو النجل الأكبر ما لبث أن أكمل العامين من عمره.

(٦) ذكر ذلك في "أشواق وجيزة"، المقال المذكور.

(٧) المصدر السابق نفسه.

(٨) جاء ذلك في إجابة لجارثيا ماركيز ردأ على سؤال لخيرمان بارجاس في "المفكرون يستجوبون جابريل جارثيا ماركيز" إعداد إيبيا نوربيند في مجلة أوميرى دي مونو (الرجل المتمرس ذو الخبرة)، ١٩٧٧.

(٩) ماريو بارجاس يوسا، جارثيا ماركيز: "قصة متمرّد"، المصدر المذكور.

(١٠) فى الطبعة الأولى للقصة (المجلة المكسيكية للثقافة ، رقم ٥ - ٦ ، المكسيك ، مايو - يونية ١٩٦٢) يُقال أن توبياس رافق كلوتيدى كى تتعرف على الثلج ، تلك العبارة التى غيرها جارتيا ماركيز رافق كلوتيدى كى تتعرف على النقود فى طبعة القصة ، المدرجة فى مُجلد القصة الحزينة ، التى لا يمكن تصديقها للسانحة إيرينديرا وجدتها القاسية ، المكسيك ، دار نشر إيرميس ، ١٩٧٢ .

(١١) إن هذا على الأقل هو ما يعترف به الكاتب للناسر ألبرتو أنجيرى فى رسالته المؤرخة فى ١٧ أغسطس ١٩٦٧ بالمكسيك: " القصة (تُشير إلى الساعة المشنومة) كانت منتهية، وإن كانت بدون عنوان ، ولن أعطيها لك . لقد عدت طموحاً وأريد أن تُنشر فى أن واحد فى عدة لغات . وهذا ردُّ على سؤال برسالتى: لماذا أنا موجود بالمكسيك؟

(١٢) جابريل جارتيا ماركيز، ملحوظة على الطبعة الأولى ، فى " الساعة المشنومة" ، المكسيك ، دار نشر إيرا (العهد) ، أبريل ١٩٦٦ . والملحوظة كاملة هى هذه: " إن أول مرة طُبعت فيه الساعة المشنومة " ، فى عام ١٩٦٢ ، سمح مصصح التجارب لنفسه بتغيير بعض الألفاظ ، وقوم الأسلوب وباسم النقاء اللغوى ، وفى هذه المرة قام المؤلف بتصحيح الأخطاء اللغوية والفظاعات الأسلوبية باسم إرادته السيادية المطلقة والمتسفة. هذه هى الطبعة الأولى " للساعة المشنومة " . أما أول طبعة فى مدريد فقد صدرت فى ٢٤ ديسمبر ١٩٦٢ فى مطابع لويس بيريث.

(١٣) جاء ذلك فى تصريحاته لبيلينيو أبوليو ميندوتا فى راحة الجوفة. المصدر المذكور.

(١٤) العقيد لا يجد من يُراسله ، ميدايين ، أنجيرى الناسر، سبتمبر ١٩٦١، " جنازة الأم الكبيرة" إكسالابا ، جامعة بيراكروث ، أبريل ١٩٦٢ (تتضمن " قبولة الثلاثاء " ، ذات يوم من الأيام " ، لا يوجد لصوص فى هذه القرية " ، " مساء بالثأر العجيب " ، " أرملة مونتييل " ، " يوم بعد السبت " ، " ورود صناعية " ، " جنازة الأم العظيمة ") .

(١٥) من الرسالة المؤرخة فى ١٧ أغسطس ١٩٦١ بالمكسيك يُشير جارتيا ماركيز إلى الماتى بيزو التى أعطاهما له أنجيرى فى بارانكيا فى سبتمبر من العام الماضى كمقدم للثمانماتة بيزو كحقوق للمؤلف. وفى رسالة لاحقة مؤرخة أيضاً فى ٢٠ مارس ١٩٦٢ بالمكسيك يُظهر الكاتب ارتياحه فى المبيعات بالمكسيك ، ولكنه كان متفانلاً بسبب النقد: هنا - بلا شك - لن يكون هناك بيع بشكل كبير ، ولكن على العكس من ذلك فإن النقد سيكون مونيأً ، فكل أصدقائى دائماً تنقصهم الموضوعات بالصحف والمجلات ، ينتظرون نسخهم لكى يبدؤوا فى إطلاق رصاصاتهم. لقد حاولت ألا يبدؤوا حتى الآن لأننى أفضّل أن تكون الأمور مرتبة ومنسقة جيداً ، وسيكون هذا ممكناً عندما يتوفر لدى هنا عدد كافٍ من النسخ .

(١٦) إدواردو جارتيا أنجيلار ، جارتيا ماركيز، الاغراء السينمائى، المكسيك، أفلام UNAM، ١٩٨٥ .

(١٧) جاء ذلك فى تصريحات إيميليو جارتيا ريرا لإدواردو وجارتيا أنجيلار فى " مقابلة إيميليو جارتيا ريرا ، جازيتا ، الجزء السادس ، رقم ٣٩ ، كولكولتورا ، بوجوتا ، ١٩٨٣ .

(١٨) المصدر السابق نفسه.

(١٩) الديك الذهبى (١٩٦٤) . أفلام كلاسا ، مانويل بارياتشانو بوتشى. منتجٌ مشارك: فيديريكو أميركو.

رئيس الإنتاج: إنريكي مورفين. مخرج: روبرتو جابالون. إيرنستو: ١٧ ديسمبر ١٩٦٤ ، الزمن: تسعون دقيقة.

(٢٠) جاء ذلك ضمن تصريحات جارتيا ماركيز لميجيل توريس فى القصاص الذى أراد العمل بالسينما ،

مجلة السينما الكوبية ، هافانا ، ١٩٦٩ .

(٢١) جاء ذلك ضمن تصريحات جارشيا ماركيز لأوجوستوم. توريس في "جابريل جارشيا ماركيز والسينما"، لتحدث عن السينما، عدد ٤٧، ليما، مايو - يونيو ١٩٦٩.

(٢٢) إدواردو جارشيا أجيلار. المصدر المذكور وتصريحات إيميليو جارشيا ريرا إلى إدواردو جارشيا أجيلار، المقال المذكور، القروض في "لا يوجد لصوم في هذه القرية" هم: الإنتاج: مجموعة كلاوديو وألبرتو إسك، الإخراج: ألبرتو إسك، الموضوع عن نفس القصة لجابريل جارشيا ماركيز، الأعداد ألبرتو إسك وإيميليو جارشيا ريرا، الممثلون: من بين آخرين نجد: لويس بينينس (السيد أوبالدو)، لويس بونويل (سيس)، وخوان رولفو (لاعب الدومينو) وخوسيه لويس كوبياس (لاعب البلياردو)، وكارلوس مونسيباس (لاعب الدومينو) وجابريل جارشيا ماركيز (بائع تذاكر السينما)، وإيميليو جارشيا ريرا (خبير البلياردو) وأرتورو ريستين، وإيلينورا كارينجتون. الذي تم تصويره اعتباراً من ٢٦ أكتوبر ١٩٦٢ وتم افتتاحه في ٩ سبتمبر ١٩٦٤. الزمن: تسعون دقيقة.

(٢٣) إدواردو جارشيا أجيلار، المصدر المذكور.

(٢٤) جاء ذلك في تصريحات جارشيا ماركيز لميجيل توريس. المقال المذكور.

(٢٥) معلومة تاريخ التصوير، التي كانت حاسمة لتحديد اللحظة التقريبية التي بدأ فيها جارشيا ماركيز يكتب "مائة عام من العزلة" أدین بها للمسعى الشخصي لإدواردو جارشيا أجيلار أمام أرتورو ريستين. قروض "زمن الموت" هم: الإنتاج أفلام الاميدا وثيسار سانتوس جاليندو، وألفريدو ريستين ج. ر. المخرج أرتورو ريستين. الموضوع: جابريل جارشيا ماركيز. الإعداد: جابريل جارشيا ماركيز وكارلوس فوينتيس. أفيشات: بيينتي روخو.

(٢٦) ماريو بارجاس يوسا، المصدر المذكور وإدواردو جارشيا أجيلار. المصدر المذكور.

(٢٧) جاء ذلك ضمن تصريحات جارشيا ماركيز لميجيل توريس. المقال المذكور.

(٢٨) بيلينيو أبوليو ميندوثا، القضية الخاسرة المصدر المذكور.

(٢٩) أنظر أمير رودريجيث مونيغال، الجديد والتاريخ المفلوط في "مائة عام من العزلة"، المجلة الوطنية للثقافة، رقم ١٨٥ كاراكاس، يولية وأغسطس وسبتمبر ١٩٦٨، ولويس هارس، جابريل جارشيا ماركيز أو الضعف في كُتابنا، بوينوس آيرس، دار نشر سود أمريكانا (أمريكا الجنوبية)، نوفمبر ١٩٦٦. رودريجيث مونيغال يشير إلى أنه عندما تعرف عليه يناير في ١٩٦٤، جارشيا ماركيز كان رجلاً مُعذَّباً، الساكن الهائل لجهنم: العقم الأدبي. ومن جانبه، لويس هارس الذي زاره في يونيو ١٩٦٥، يقول: كان يمر بفترة شك منهجي من تلك الفترات التي لم يمسك فيها بقلمه ويخط سطرًا واحدًا على الورق في فترات سوء الحظ: يشعر بأنه منهك وخارج تناوب عليه صنوف الصعوبات والعوائق ويقرر أنه منهك ومحطم.

(٣٠) في "لقاء رفيقين"، المقال المذكور، جارشيا ماركيز يقول في بيلينيو ميندوثا: "إن القصة التي أكتبها الآن (هذا يعني خريف البطريق)، وقد توقفت عن كتابتها في المكسيك، في ١٩٦٢ بعد أن كتبت ٣٠٠ ورقة، والوحيد الذي أنقذ منها كان اسم شخصية في "رائحة الجواقة" عاد ليُصِرُّ على نفس الشيء ففي القضية الخاسرة"، المصدر المذكور، بيلينيو ميندوثا يؤكد "كان ذلك عندما توقفت في كتابة الرواية للمرة الثانية" خريف البطريق؛ فقد جلس أمام آله الكاتبة لكي يكتب "مائة عام من العزلة".

(٣١) لويس هارس، المصدر المذكور.

(٣٢) جابريل جارشيا ماركيز، ظلُّ الكاتب في السينما، في ملحوظات صحفية ١٩٨٠ - ١٩٨٤،

المصدر المذكور.

(٣٣) من المحتمل أن يكون جارثيا ماركيز لم يحضر عملية التصوير كلها حيث إنه ما بين ٥ ، ٧ يوليو كان في مدينة المكسيك في استقبال مندوبيه الأدبيين كارمن بالثليس ولويس بالوماريس القادمين من الولايات المتحدة الأمريكية.

(٣٤) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز، في الصفحة الأولى، بالملحق صفحة ١٢، بونوس أيرس ، ١٦ أكتوبر ١٩٩٤ . إن نص جارثيا ماركيز أدرج كتكملة في مقابلة مع باكوبوروا، الناشر الأسطوري "مائة عام من العزلة".

(٣٥) كارلوس فوينتيس، "لا أعتقد أن يكون فرضاً على الكاتب أن يُسمّن صفوف الفقراء المعوزين"، "الثقافة في المكسيك"، ملحق سيمبري "الروائيون أمام الجمهور" لتقديم نصّه ويشير مدير الملاحق إلى أن الحاضرة كانت "منذ أسابيع" ولذلك فإنّ الليلة التي أهدى فيها "مائة عام من العزلة" إلى ماريا لويسا إيليو كان من المفروض في ٨ سبتمبر أو قبيل ذلك بقليل.

(٣٦) خاصة إذا أخذ في الاعتبار أنه قبل ذلك بسنوات اعترف الكاتب أنه عندما ذهب ليصف المشهد لم يقدم القسيس شيئاً حتى جُرب بالكاكاو! انظر خوان لويس ثييريان (المصدر المذكور) ، وهذا يعني أنه في أوائل سبتمبر ١٩٦٥ كان جارثيا ماركيز قد كتب - على الأقل - الأربعة أو الخمسة فصول الأولى من القصة.

(٣٧) إيرنستو ستشو، المقال المذكور، وبيلينيو أبوليو ميندوتا، "رائحة الجافة"، المصدر المذكور.

(٣٨) جاء ذلك في تصريحات إيميليو جارثيا ريبيرا لإدواردو جارثيا أجيلار، المقال المذكور.

(٣٩) لويس هارس، المصدر المذكور، يحكيه على النحو التالي: "لقد قال لنا عندما لم يكن يصور: إنه كان يعمل كالعبد بصفة دائمة وبمثابرة، يستيقظ الساعة السادسة صباحاً لكي يحافظ على سخونة الموتور" (الحرك). ولكن عمل يوم كامل كانت حصيلته ثمانية أو عشرة أسطر لفقرة قد يكون مصيرها سلة القمامة ليلاً".

(٤٠) جاء ذلك ضمن تصريحاته لبيلينيو أبوليو ميندوتا، في "رائحة الجافة" المصدر المذكور.

(٤١) جاء ذلك في تصريحات لجارثيا ماركيز إلى فريق التحرير لصحيفة مانيفستو (البيان)، المصدر المذكور، وبيلينيو أبوليو ميندوتا، المصدر المذكور.

(٤٢) جاء ذلك ضمن تصريحات خومي جارثيا أسكوت (لنْ أهداها "مائة عام من العزلة" إلى إدواردو جارثيا أجيلار، في مقابلة لخومي جارثيا أسكوت، جازيتا، الجزء السادس، رقم ٣٩، كولكوتورا، بوجوتا، ١٩٨٣

(٤٣) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوتا، المصدر المذكور.

(٤٤) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لايرنستو ستشو، المقال المذكور.

(٤٥) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز أثناء المائدة المستديرة "بوينديا، وماكوندو والعالم" التي عُقدت في موسكو في ١٩٧٩، وقد أعيد نشرها بأمريكا اللاتينية، رقم ١، موسكو، ١٩٨٠.

(٤٦) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لمانويل بيريرو، المقال المذكور، وبيرنارنو ماركيز، المقال المذكور.

(٤٧) طبقاً لتصريحات جارثيا ماركيز لمانويل بيريرو، المقال المذكور، عندما صدرت "مائة عام من العزلة"، لويس ريبير اتصل به هاتفياً وقال له: "ياسيد جارثيا ماركيز إن حضرتك ستسبب لي شرفاً كبيراً إذا ذكرت أن لي صلة بهذا الكتاب"، والآن السيد كودوريير بعد أن بلغ من العمر أرذله عندما استقبلني في ٣٠

أكتوبر ١٩٩٤ في نفس منزل لا لوما رقم ١٩ ، ويبرود إنجليزي للغاية حدثني عن المنزل وكيف أنه أجره لأسرة جارتيا ماركيز لشهرته الكبيرة ، وكيف أنهم سرقوا منه اللوحات المعدنية للمنزل مرتين . وكل أثر فإن ذلك المنزل ملئ بالوحدة : بوحدة هائلة .

(٤٨) على سبيل المثال ، في يولييه ١٩٧٦ ، جارتيا ماركيز اعترف إلى برناردو ماركيز ، المقال المذكور : " خلال الشهر الثمانية عشر التي كتبت خلالها (مائة عام من العزلة) لم يبق لدينا ولا سنتي : كنا نعيش على المساعدات التي يقدمها لنا الأصدقاء ، وبالتنقود التي حصلنا عليها نتيجة رهن أمتعتنا ، وفي النهاية برهن السيارة التي حدثت عنها ، وعلى العكس فإن البارو موتيس عندما تحدثت عن هذا الموضوع ابتسم وبعد صمت قصير أضاف : إن هذه الأشياء التي قدمها كل منا للآخر حقيقة ليست مسجلة ، وإنني متأكد أن جابو لا يتذكرها أيضاً . ولم يبق لنا إلا أن نعرف أن أحدها على استعداد تام لمساعدة الآخر في أي شيء سواء كانت النقود نقودي أو نقوده . وكانت ماريا لويسا إيليو أكثر إيجازاً : بالنسبة لي لم يطلبوا مني شيئاً ، لقد منحتهم الحب (يقصد أسرة جارتيا ماركيز) والصدقة ، كما منحوني أيضاً الحب والصدقة ، ومع ذلك كما اعترف به جارتيا ماركيز لم تنقص بالمنزل أكياس المواد الغذائية عندما كنا في حاجة إليها ، كما أن نجلى الكاتب في الشهور الأخيرة لكتابة القصة كانا يذهبان دائماً ويمكثان يمكثان في منزل ماريا لويسا إيليو عقيب خروجهما من المدرسة ، حتى يذهب والدهما لإحضارهما إلى المنزل في المساء

(٤٩) جابرييل جارتيا ماركيز ، " صديقي موتيس " ، الباييس (الدولة) ، ملحق " الكتب " ، مدريد ، ٣٠ أكتوبر ١٩٩٣ .

(٥٠) تقديم إيمانويل كاريابو أدرج في مختارات كثيرة من المقالات عن إنتاج جارتيا ماركيز ، في أمريكا وأوروبا تحت عنوان لجارتيا ماركيز ، قصاص أمريكي لاتيني كبير .

(٥١) جاء ذلك ضمن تصريحات جارتيا ماركيز في الصفحة الأولى ، المقال المذكور .

(٥٢) جاء ذلك ضمن تصريحات كارلوس بارأل إلى داسو سالديبار ، في كارلوس بارأل : بحار على الأرض ، مجلة جامعة المكسيك رقم ٤٠٩ - ٤١٠ ، المكسيك ، فبراير - مارس ١٩٨٥ ، ومن الممكن أن تكون برقية جارتيا ماركيز قد وصلت إلى كارلوس بارأل في أواخر يونية أو أوائل يولية ١٩٦٥ ، في بداية فترة الإجازات الصيفية أي قبيل أن يتلقى اقتراح دار نشر سود أمريكانا (أمريكا الجنوبية) .

(٥٣) جاء ذلك ضمن تصريحات جارتيا ماركيز " للصفحة الأولى " ، المقال المذكور .

(٥٤) جاء ذلك ضمن تصريحات جارتيا ماركيز إلى بيرناردو ماركيز ، المقال المذكور ، ولخيرمان كاسترو كايثينو ، المقال المذكور . وقد حكى لي هذه النادرة ألفونسو فوينمايور بطريقة مشابهة ، ولكن الرواية التي سردها جارتيا ماركيز ، وبيليني مينوثا بعد ذلك بخمس سنوات في " رائحة الجوافة " ، المصدر المذكور تختلف إلى حد ما . يقول الكاتب : " لقد كانت مرسيدس عندما انتهيت من الكتاب هي التي أرسلت المخطوط بالبريد إلى دار نشر سود أمريكانا " (أمريكا الجنوبية) ، وقد أضاف بيليني مينوثا : إن مرسيدس حككت لي ذلك ذات مرة حيث أخذت المخطوط وذهبت إلى البريد وهي تفكر في نفسها متساعلة هل بعد كل هذا العناء والمعاناة ستكون قصة سيئة ؟ .

(٥٥) كارلوس فوينتيس ، جارتيا ماركيز : " مائة عام من العزلة " سيمبري ! (دائماً) ، " الثقافة في المكسيك ، رقم ٦٧٩ ، المكسيك ، ٢٩ يونية ١٩٦٦ .

(٥٦) نشرت أمارو الفصل الثاني عشر في العدد الأول وأيكو (الصدى) الفصل السابع عشر في عددها ٨٢ . وعلاوة على الفصل المنشور في المجلة المكسيكية التي تسمى " حوارات ، والعالم الجديد " في باريس التي قامت بنشر جزء آخر في مارس ١٩٦٧ .

(٥٧) إيرنستو سننشو، رحلات السندباد جارثيا ماركيز - الصفحة الأولى - رقم ٢٣٤، بوينوس آيرس، من ٢٠ إلى ٢٦ يونية ١٩٦٧، كما أدرج في هذا العدد أيضاً تعليق توماس إيلوى مارتينيث: "أمريكا: القصة العظيمة - جابرييل جارثيا ماركيز: - مائة عام من العزلة" التي يطلق عليها أنها استعارة دقيقة للحياة الأمريكية ومشاجراتها وأحلامها السيئة وإحباطاتها - .

(٥٨) انتهت الطبعة الأولى في ٢٠ مايو ١٩٦٧، في شركة الطباعة والنشر الأرجنتينية شركة مساهمة ، شارع السينا ٢٠٤٩ ، بوينوس آيرس ، وقد وُزعت أو صدرت في ٥ يونية. وذلك عندما صدرت الصفحة الأولى كانت القصة بالسوق منذ خمسة عشر يوماً ، وقد نفدت الطبعة عن آخرها .

(٥٩) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز إلى هيئة تحرير مجلة سوينيل ، في جابرييل جارثيا ماركيز: إلى القفص بروكسل ١٩٧٥، وإلى خوان لويس ثييريان، المصدر المذكور.

(٦٠) توماس إيلوى مارتينيث ، " اليوم الذي بدأ فيه كل شيء " لكي يحبنى أصدقائي أكثر وأكثر ، تكريم لجابرييل جارثيا ماركيز ، مقدمة واختيار خوان جوستابو كويرو بوردا ، بوجوتا ، قرن الإنسان للنشر ، ١٩٩٢ .

(٦١) المصدر السابق نفسه.

(٦٢) المصدر السابق نفسه.

(٦٣) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لأوراثيو بيريتيسكي، المصدر المذكور.

(٦٤) فرانثيسك أريو ، " قصة كتاب " ، البابيس ، ملحق الكتب ، مدريد ، ٢٨ نوفمبر ١٩٩٢ .

(٦٥) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز لبيلينيو أبوليو ميندوثا ، في " رائحة الجواقة " المصدر المذكور.

(٦٦) ماريو بارجاس يوسا ، " مائة عام من العزلة " : " أماديس في أمريكا " ، أمارو ، رقم ٢ ، ليما ، يولية - سبتمبر ١٩٦٧ .

(٦٧) جاء ذلك في " الأدب نار " في ضد التيار (١٩٦٢ - ١٩٨٢) ، برشلونة ، سيكس بارأل ، نوفمبر ١٩٨٣ ، بارجاس يوسا في ١١ أغسطس التاريخ ألقى فيه كلمته ، ولكن القصص الفنزويلي أدريانو جونتاليث ليون يقول : لقد كانت قبل ذلك ، وبالفعل فإن الناقد خوسيه ميغيل أوبيينو يذكر في كتابه عن بارجاس يوسا ، اختراع الواقع (برشلونة ، بارأل للنشر ، أكتوبر ١٩٧٧) . كان في ٤ أغسطس .

(٦٨) جاء ذلك ضمن تصريحات جارثيا ماركيز: " قصة متمرد " ، المصدر المذكور.

(٦٩) المصدر السابق نفسه.

(٧٠) المصدر السابق نفسه.

(٧١) نص الحوار نُشر باسم الاثنين أسفل العنوان " القصة في أمريكا اللاتينية " : الحوار، المصدر المذكور. هذا الحوار يمكن اعتباره ما قبل تاريخ " قصة متمرد " ، أما ماعدا ذلك سيكون رسالة دكتوراه بارجاس يوسا التي قُدمت في يونية ١٩٧١ في جامعة كمبلوتنسي بمدريد (جامعة مدريد المركزية) .

(٧٢) نفس المصدر السابق.

(٧٣) جاء ذلك في " قصة لترومان كابوتي " في نصوص ساحلية. المصدر المذكور.

(٧٤) بعد ذلك بعشر سنين وسُع جارثيا ماركيز هذا الاعتراف في أول تحقيق تليفزيوني: " لقد سادني الانطباع دائماً أنني كنت حائراً بعض الشيء لأنه من خلال جميع كتبتي وقصصتي كان هناك عجوز يحمل

الطفل ويحملة لكى يرى ميتاً ، ويحملة للتزهر والفسحة ، ويحملة للسينما ... كان جدى يصطحبني دائماً إلى السينما ، وكان لى انطباع بأتنى لم أصل قط الى لب المشكلة حتى وصلت إلى مائة عام من العزلة ، وقد رافقته لكى أعرف الثلج. وكان ذلك بالضبط حيث كنت أحاول جاهداً الوصول منذ أن كان عمري أربع أو خمس سنوات. واعتقد أننى لم أكن أستطيع الكلام (أى قبل أن أبدأ الكلام) عندما رأيت الثلج (خيرمان كاسترو كايتيدو، المقال المذكور).

صور وخرائط

المنزل الذى شهد ولادة

جابريل جارتيا ماركيز



١ - ولدت الجدة ترانكليينا إجاران كوتيس في ريو هاتشا في ٥ يولييه ١٨٦٣ ، وتوفيت في
سوكري يوم ١٥ أبريل ١٩٤٧ .



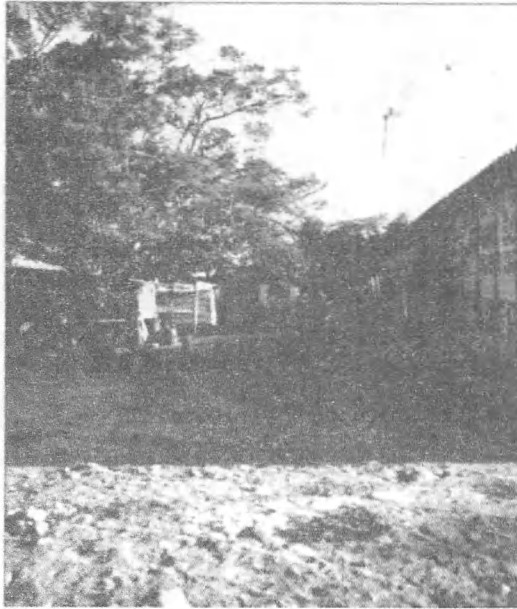
٢ - ولد المجد نيقولاس ريكاردو ماركيز ميخيا في ريو هاتشا يوم ٧ فبراير ١٩٦٤ ، وتوفي في
سانتامارتا يوم ٤ مارس ١٩٣٧ .



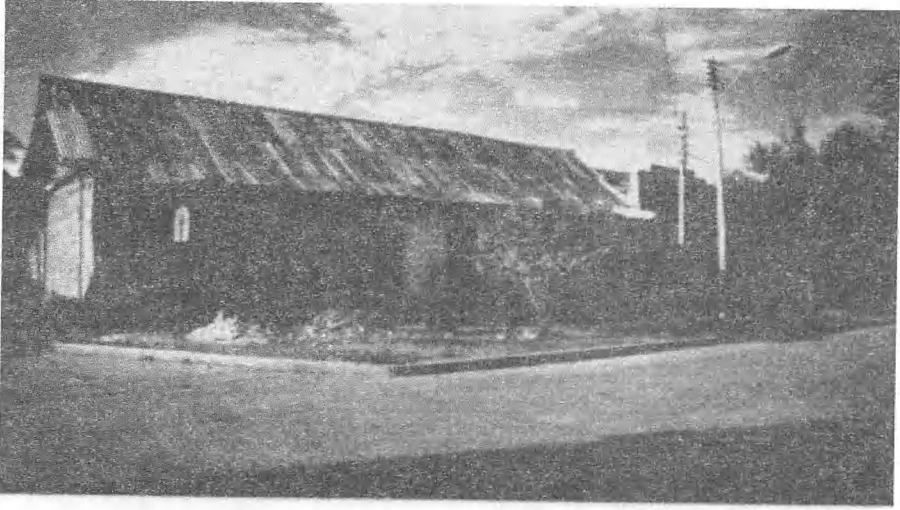
٣ - الجد قبيل وفاته بقليل. كان يعاني من آثار سقوطه من فوق السلم فى أراكاتاكا ، وتوفى نتيجة إصابته بالتهارب رئوى .



٤ - الميدان المركزى فى بارانكاس ؛ حيث بدأت المواجهة بين نيقولاس ماركيز وميدرادو باتشيكو فى إبريل ١٩٠٨ .



٥ - مكان الحارة القديمة فى بارانكاس حيث قتل نيقولاس ماركيز - فى مباراة- ميدرادو باتشيكو فى ١٩ أكتوبر ١٩٠٨ .



٦ - مقر العمدة القديم فى بارانكاس : هنا سلم نيقولاس ماركيز نفسه لصديقه العمدة
توماس بيلايث .



٧ - المنزل القديم للجنرال فرانثيسكو خابيير روميرو عم ميدرادو باتشيكو ، حيث استضيفت
ترانكيننا أجواران هى وأنجالها بعد الحادثة المشنومة .



٨ - والدنا جابريل جارثيا ماركيز : جابريل إيلخيو جارثيا مارتينيث ولويسا سانتياجا ماركيز إيجوران .



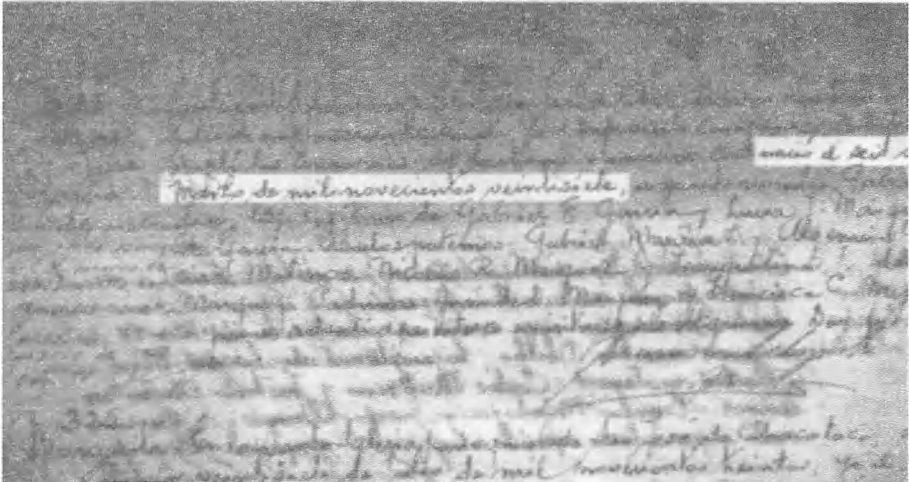
٩ - والدتنا القصاص في سني شبابها .



١٠ - جاريثا ماركيز في الرابعة من عمره في حديقة منزل أركاتاكا إلى جوار زهرة من هافانا .

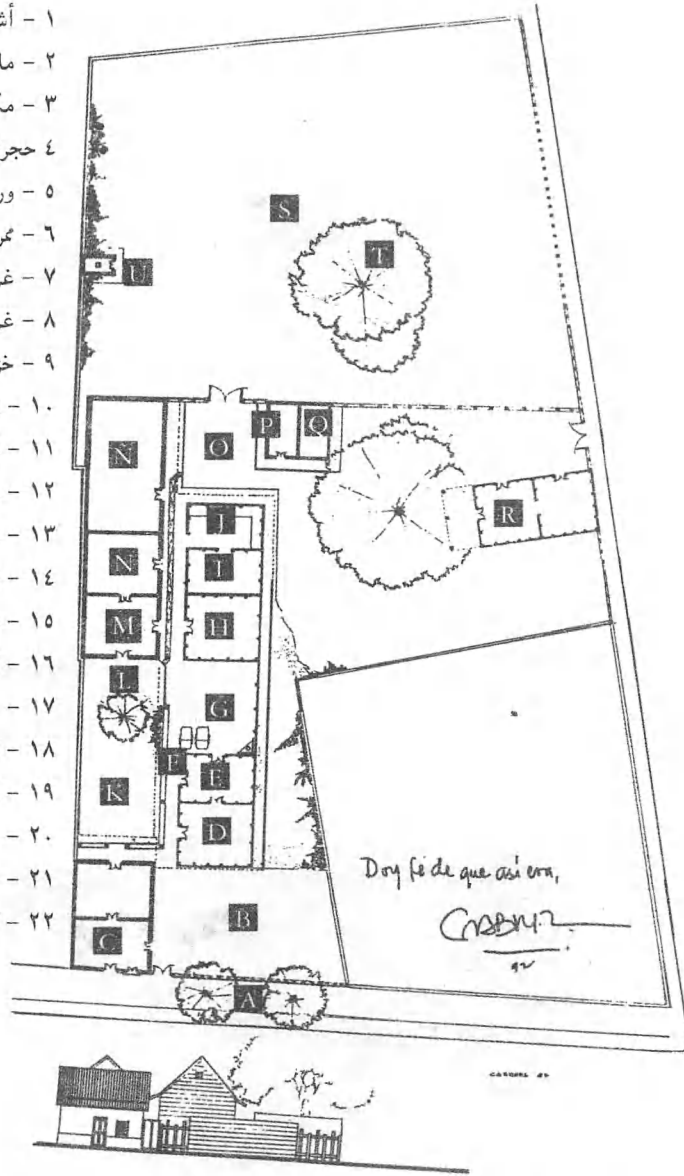


١١ - الكاتب في الثامنة من عمره (في الوسط) ؛ عندما كان في الصف الأول الابتدائي في مدرسة مونتيسوري. ويرى في الصورة من اليسار إلى اليمين شقيقاته مارجوت وليخيا وعائدة ونجل عمه إدواردو كبايرو وشقيق الكاتب لويس إنريكي.



١٢ - شهادة تعميد الكاتب ، يقرأ فيها أنه ولد في ٦ مارس ١٩٢٧ .

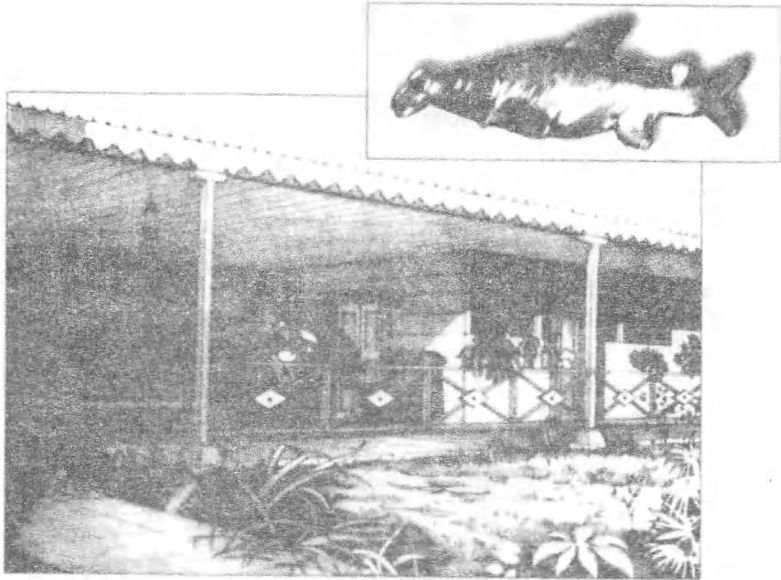
- ١ - أشجار اللوز
- ٢ - ما قبل الفناء
- ٣ - مكتب الجدد
- ٤ - حجرة الزيارات
- ٥ - ورشة الفضية
- ٦ - بحر البيجونيا
- ٧ - غرفة السفرة
- ٨ - غرفة النوم
- ٩ - خزانة أو صوان
- ١٠ - المطبخ
- ١١ - الحديقة
- ١٢ - شجرة الياسمين
- ١٣ - غرفة الجدين
- ١٤ - غرفة القديسين
- ١٥ - غرفة الصناديق
- ١٦ - الفناء
- ١٧ - الحمام
- ١٨ - البركة أو الحوض
- ١٩ - النجارة
- ٢٠ - ما خلف البناء
- ٢١ - شجرة القسطل (أبو فروة)
- ٢٢ - كنيف أو مرحاض



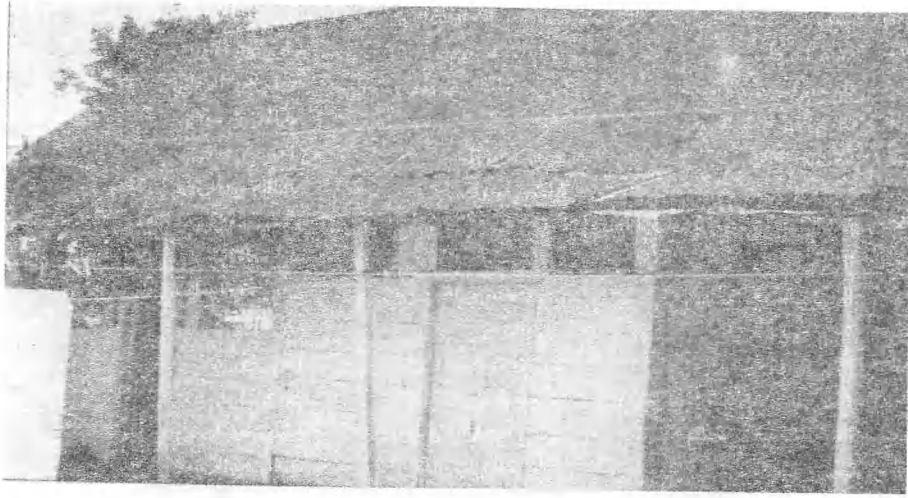
١٣ - الطابق السفلى والطابق العلوى بالمنزل الذى شهد ولادة الكاتب استناداً للمهندسين المعماريين جوستابو كاستيون وجيلبير كارابايو وخايمي سانتوس. كما يرى أن الأجزاء التى يرمز لها بـ (D,E,F,G,H,I,J) هى كما هى فى مائة عام من العزلة ؛ طبقاً للدماغ المتسربة من جثة خوسية أركاديو.



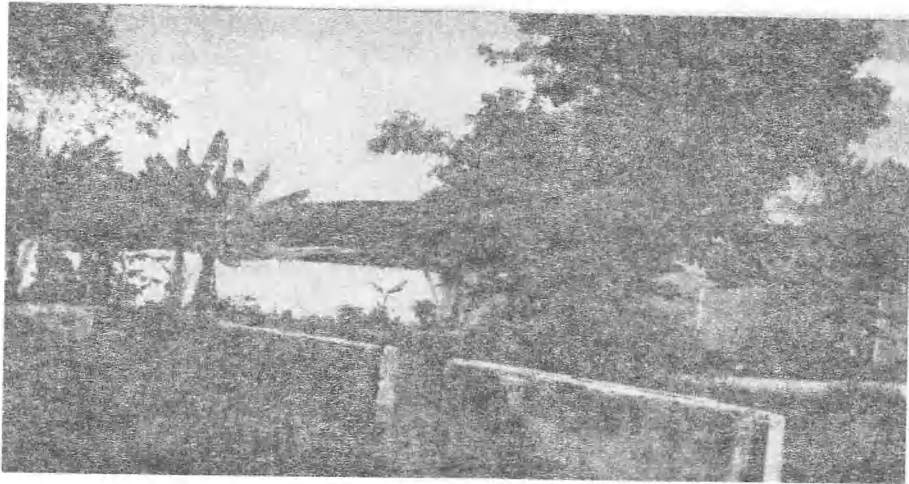
١٤ - صورة للمنزل. كانت الأجزاء الثلاثة خليط من الطوب الأحمر والخشب وأسقفه من الزنك والقش. وقد ولد جارثيا ماركيز في الغرفة الأولى بالجزء الثالث بجوار شجرة الياسمين .



١٥ - هكذا كان مر زهور البيجونيا فيما بين حجرة السفرة ورشة الفضة (على اليمين) ، حيث كان الصانع نيقولاس ماركيز يصنع حلينا على شكل أسماك صغيرة مثل التي تظهر في الصورة .



١٦ - باقى المنزل. من اليسار إلى اليمين الخزانة أو الصوان وغرفة ، وجانباً من غرفة الطعام وممر
زهرة البيجونيا .



١٧ - قطعة أرض بها بعض الأشجار وباقى المنزل القديم .



١٨ - حفل زفاف سارة ماركيز (٢٥ ديسمبر ١٩٣٦). إنها إحدى الصور القليلة داخل المنزل.
من اليسار إلى اليمين مارجوت وعائدة جارثيا ماركيز.

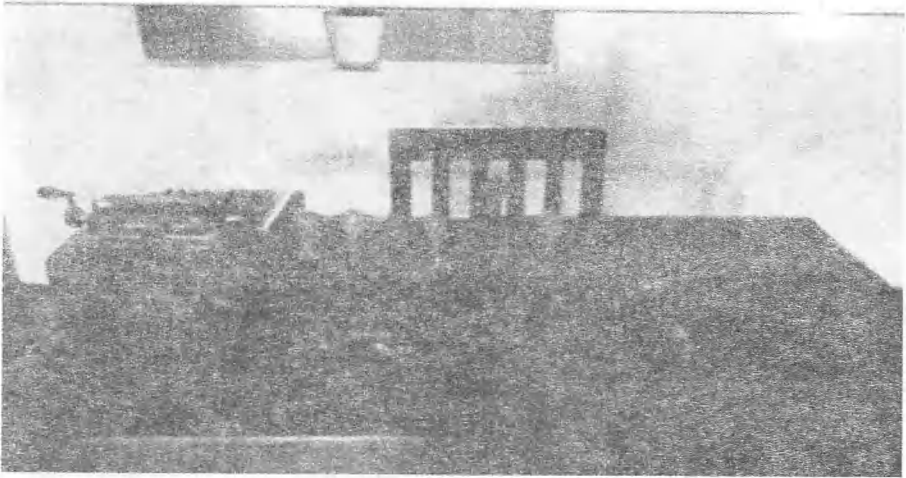
١٩ - فى المكان نفسه حيث توجد
شجرة القشدة كانت هناك شجرة القسطل
الشهيرة حتى مطلع حقبة السبعينيات.



٢٠ - المنزل القديم بأكمله تقريباً الذى هدم وشيد مكانه هذا المنزل الحديث ، حيث يوجد اليوم
متحف جابريل جارتيا ماركيز.



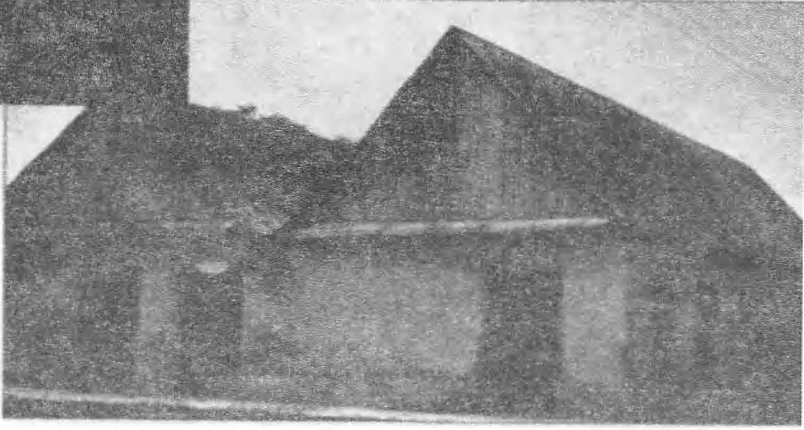
٢١ - منزل موظف البرق (التلغراف) خلف كنيسة أراكاتاكا.



٢٢ - منضدة وأجهزة مكتب البرق القديم. ومن هذا المكان كان جابريل إيلخيو جارثيا يبعث برسائل الحب الشفوية إلى خطيبته لويسا سانتياجا ماركيز إلى قرى أخرى بمشاركة زملائه.



٢٣ - منزل وصيدلية الدكتور أنطونيو باربوسا ،
وهما مكانان مهمان في حياة وإنتاج الكاتب . هنا كان
الوالد يترك رسائل لوالدة الكاتب خلال فترة الخطوبة
المحظورة ، وكان يزورها عبر النافذة الكائنة
بالصورة اليسرى .



٢٤ - شارع الأسقف إسبيخو . على يسار منزل الصيدلية ، وعلى اليمين الناصية ، حيث
يوجد منزل المتوفى ، المجاور أسرة ماركيز دي إجواران.



٢٥ - كنيسة سان خوسية أراكاتاكا حيث تم تعميد جابريل ماركيز في ٢٧ يوليه ١٩٣٠ كما أنه أى الكاتب عمل مساعداً للقسيس فرانثيسكو. أنجاريता.



٢٦ - شارع الكاميون (حوض لى تشرب فيه الماشية) ، الذى كان الطفل جابيتو يجتازه للذهاب إلى مدرسة مونتييسورى فى العمق على اليسار.



٢٧ - محطة أراكاتاكا ، حيث كان القطار يصل يومياً الساعة الحادية عشرة صباحاً.



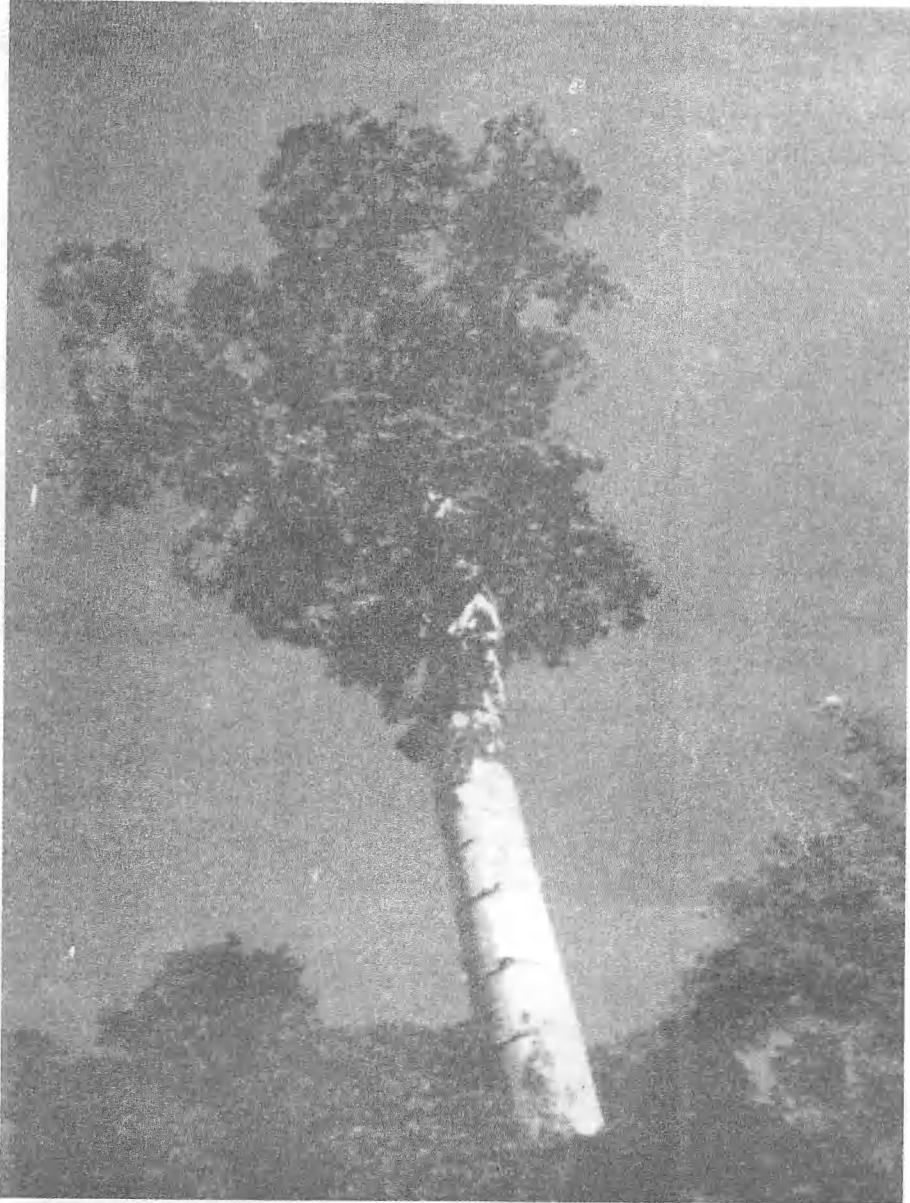
٢٨ - بقايا قطارات شركة الفواكه المتحدة.

٢٩ - روسا إيلينا فيرجسون

معلمة ريو هاتشا التي علمت جابرييل
جارثيا ماركيز القراءة والكتابة
وغرست فيه حب الشعر.

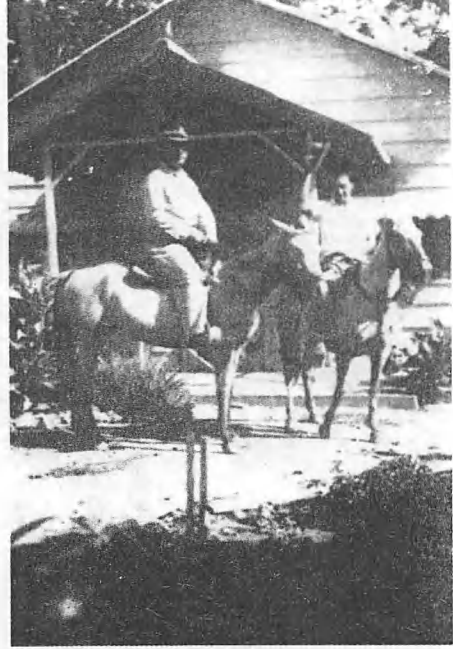


٣٠ - مدرسة مونتييسوري التي أسستها
روسا إيلينا فيرجسون ، حيث التحق الكاتب
بعضانتها والصف الأول .

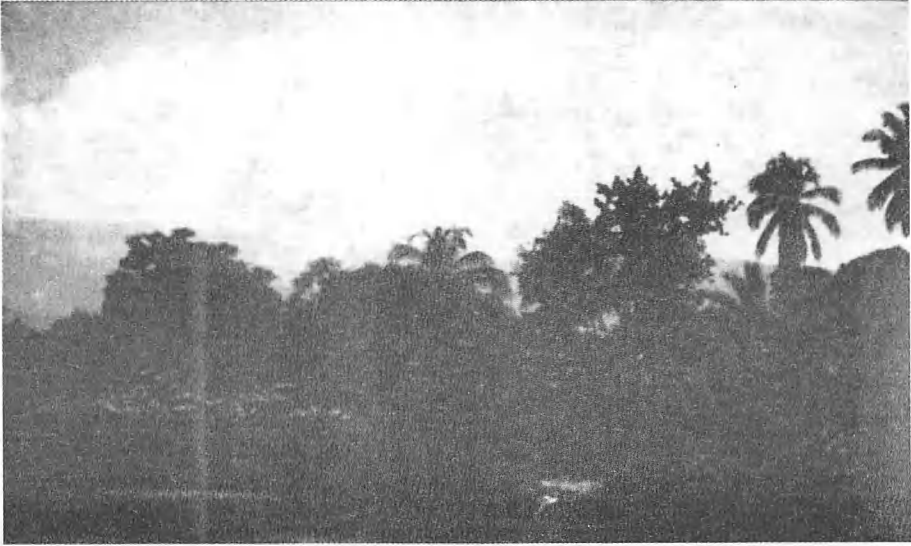


٣١ - شجرة ماكوندو. كثرّت هذه الأشجار بالمنطقة خلال الحقبين الأولى والثانية من القرن العشرين. أما اليوم فلا يوجد منها سوى بعض النماذج عند سفح سلسلة سيرا نيفادا بسانتا ماريا.

٣٢ - منزل ضيعة أو مزرعة ماكوندو
(١٩٤٨) فى الفناء كانت توجد شجرتان ماكوندو
عملاقتان كانتا السبب فى تسمية المكان باسم
ماكوندو. إلى اليمين حقل إيلياس بالينثيا والد
ميتشيل بالينثيا-دوث .



٣٣ - ضيعة أو مزرعة ماكوندو على
ضفاف نهر أشبيلية ، بين جواكامايال
وأشبيلية ومنها أخذ جارثيا ماركيز اسم
قريته الأسطورية أو المجازية .

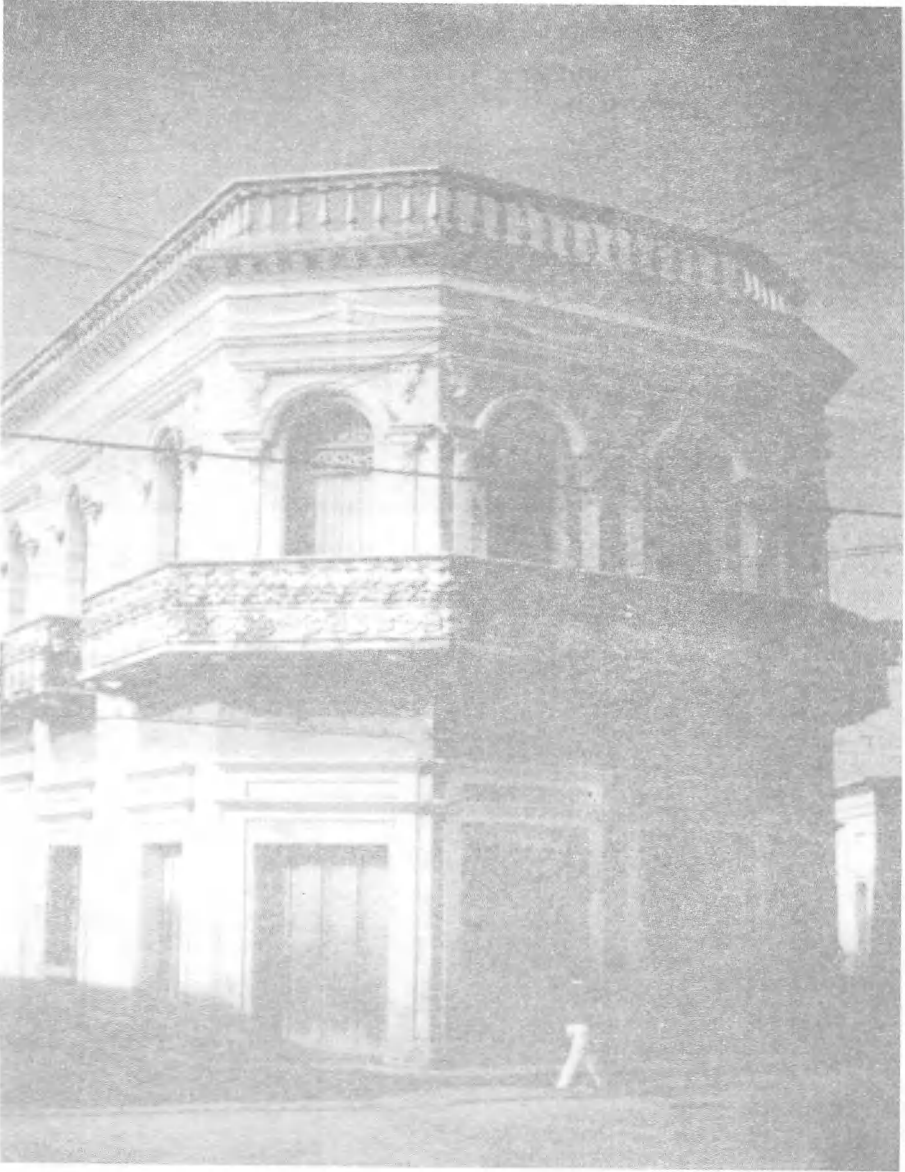




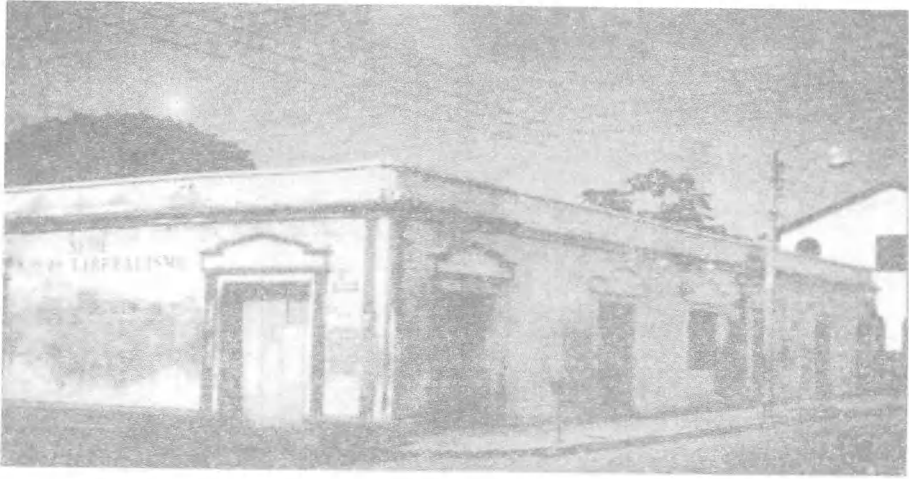
٣٤ - بيت ماكوندو الخالى. وقد شيد حوله كفر فيما بعد أطلق عليه اسم ماكوندو.



٣٥ - خط السكة الحديد عند جواكاميال ، حيث يمكن قراءة الاسم من القطار بحروف بيضاء على أرضية زرقاء رمادية من الزنك والرصاص والقصدير.



٣٦ - منزل ما يسمى بالطراز الجمهورى من عصر الرخاء فى إنتاج الموز فى ثيبيناجا.



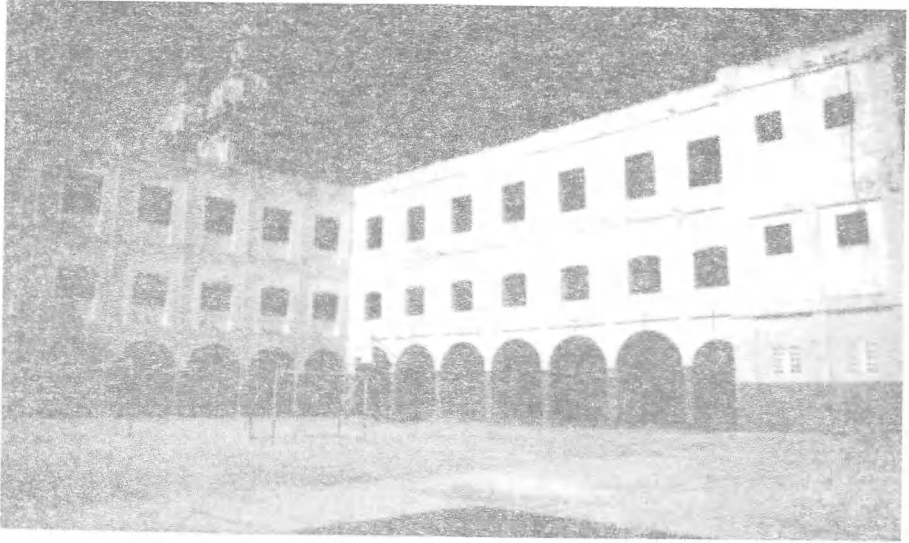
٣٧ - المنزل الكبير ، حيث عاش ألبارو ثيبيدا ساموديو وهو طفل وهو الذى تدور أحداث قصته التى تحمل نفس الاسم .



٣٨ - المكان حيث كانت توجد محطة القطار القديمة فى ثيبيناجا. والتمثال الذى أعده المثال رودريجو أريناس بيتانكور وهو الذى يذكرنا بمذبحة عمال مزارع الموز، موضوع المنزل الكبير ، وأحد الأحداث الأساسية فى مائة عام من العزلة.



٣٩ - الكاتب فى الثالثة عشرة من عمره ، عندما أنهى دراسة الصف الأول الثانوى بمدرسة
سان خوسيه، بارانكيا ، ١٩٤٠ .



٤٠ - مدرسة سان خوسيه ببارانكيا ، حيث درس الصف الأول الثانوى فيما بين ١٩٤٠-١٩٤٢ .



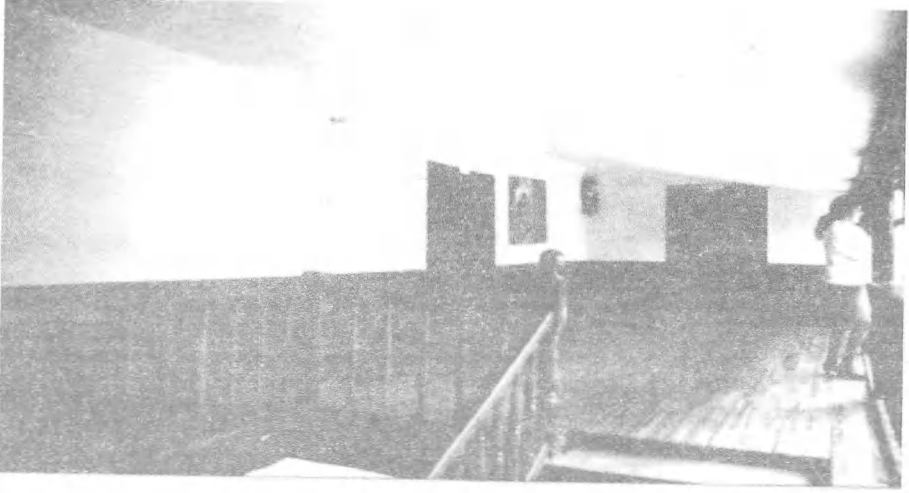
٤١ - مجلة خوينتود
(الشباب) مدرسة سان خوسيه
التي نشرت التعليقات والأشعار
الأولى لجارثيا ماركيز.



٤٢ - الميدان المركزى فى ثيباكيرا بالقرب من الربى الأنديزية.



٤٣ - اللىسيه القديمه للبنين فى يثيباكيرا ، حيث درس الكاتب السنوات الأربع الأخيرة من المرحلة الثانوية فيما بين ١٩٤٣-١٩٤٦ .

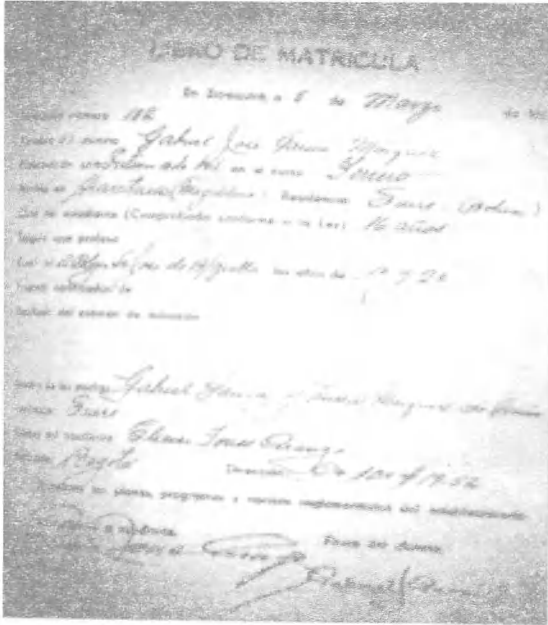


٤٤ - عند الباب الأيسر كان محراب أو مصلى مدرسة الليسية ، وفي العمق كانت توجد المكتبة التي قرأها جارتيا ماركيز عن بكرة أبيها في غضون أربع سنوات .



٤٥ - البهو المؤدى إلى غرف النوم في مدرسة الليسية الوطنية في الطابق الثانى.

٤٦ - شهادة التسجيل
للعام الثالث في الثانوية.



٤٧ - أدلفو جوميث تقارا،
المدير الوطني للمنح الذي ساعد
جارثيا ماركيز في الحصول على
منحة لإتمام دراسته الثانوية.





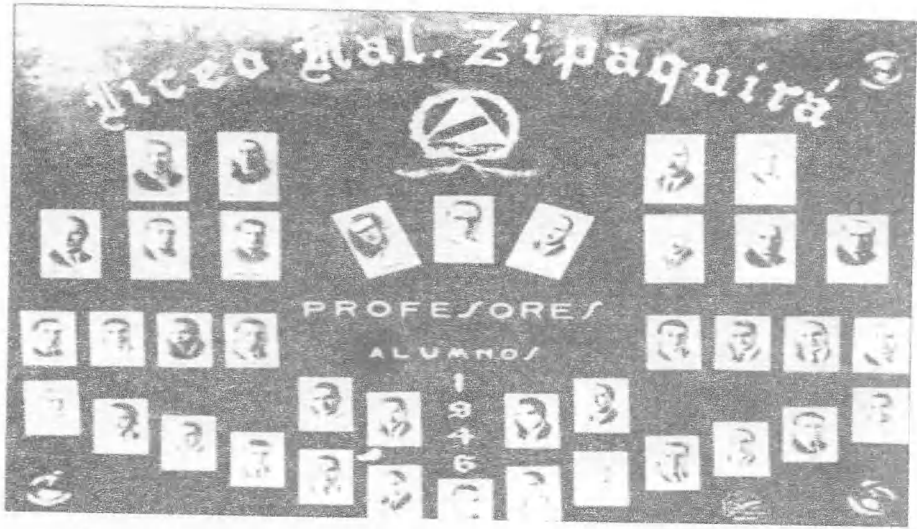
٤٨ - الشاعر كارلوس مارتين :
مدير مدرسة الليسية الوطنية للبنين في
ثيباكيرا خلال ١٩٤٤ ، والذي وجه
الكاتب للاطلاع على أعمال روبين داريو .



٤٩ - كارلوس خوليو كالدرون
إيرميذا : مدرس الأدب ، وأحد الأشخاص
الذين أثروا في مستقبله الروائي .



٥٠ - مرسيدس بارتشا باردو ، الطالبة الجذابة التى ألهمت بعض قصائد طالب الثانوية جارثيا ماركيز.



٥١ - لوحة الفسيفساء لدفعة الثانوية عام ١٩٤٦ بمدرسة الليسية الوطنية للبنين في ثيباكيرا

مع مدرسيها.

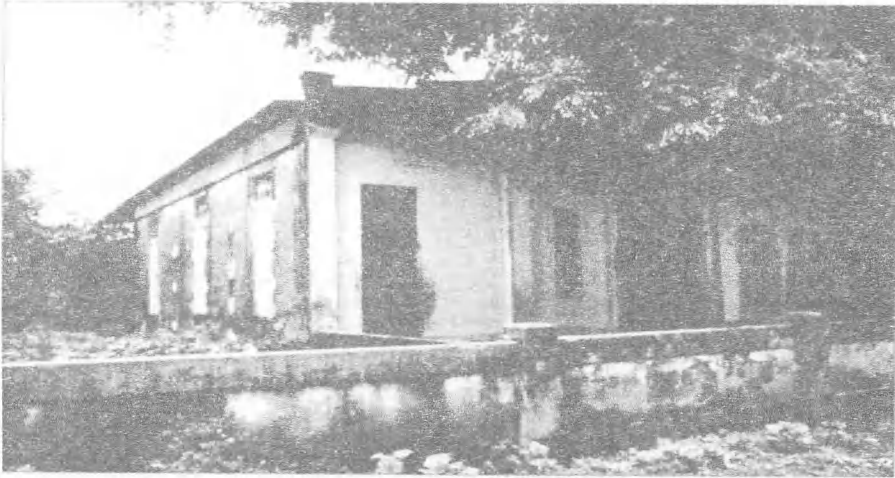


٥٢ - طالب الثانوية

جابريل جارتيا ماركيز .



٥٣ - الميناء القديم فى سوكرى على نهر ماخونا . وهو نفسه الذى يظهر فى قصة "العقيد لايجد من يرأسه" ، و"نبأ موت معلن" .



٥٤ - بقايا منزل أسرة جارثيا ماركيز فى سوكرى : هنا كتب المؤلف أول نسخة من قصة "أوراق الشجر البالية" (الورقة الساقطة) ، وقرأ الكتب الكثيرة تحت ظلال أشجار المانجو .



٥٧ - منزل ماريا أماليا
سامبايو دى ألبارث (الأم العظيمة)
المجاور لمنزل كايانو جنتيلي .



٥٨ - مقبرة ماريا أماليا سامبايو فى جبانة سوكرى .



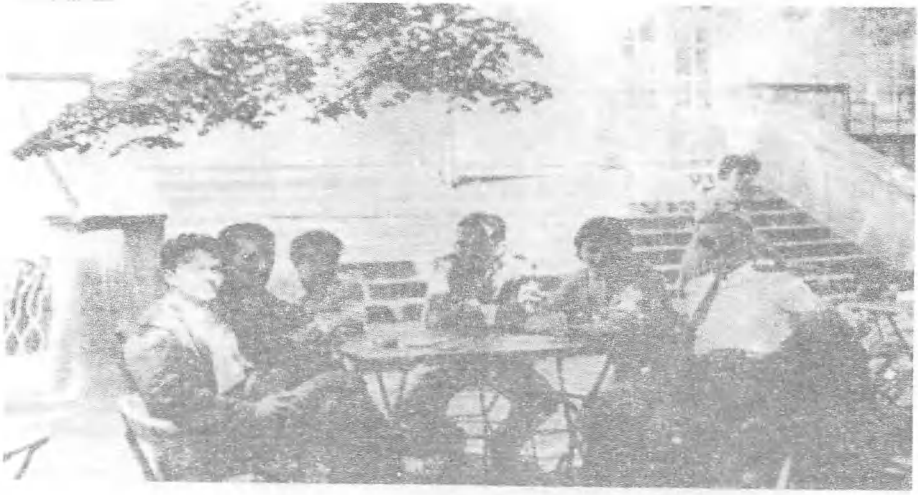
٥٩ - ألبارو موتيس وخوليو تيسار بيجاس وخوانيتا باتي، نيويورك (الحى اللاتينية) ٢١ يناير ١٩٥١ ، وجدير بالذكر أن الثانى كان وزيراً سابقاً فى بيرو ، وقد عمل معه جارتيا ماركيز نائباً للكتب بالتقسيط فى بايدوبار وجواخيرا .



٦٠ - مجموعة بارانكيا من اليسار لليمين الواقفون : ألفريدو ديلجادو ، وكارلوس دى لاسبيريا ، وخيرمان بارجاس ، وفرناندو ثيبدا ، وأورلاندو ريبيرا (الشخصية). الجالسون: روبيرتو ، برييتو وإدواردو فوينمايور ، وجابريل جارتيا ماركيز ، وألفونسو فوينمايور ، ورامون بينيس (العالم القطالونى) ، ورفائيل مادارياجا .



٦١ - جابريل جارشيا ماركيز عندما كان يعمل صحفياً بجريدة الأسبكتادور (المشاهد) ، وحين نشر قصته الأولى " أوراق الشجرة البالية " (الورقة الساقطة).



٦٢ - فى ليبزج، يونيه ١٩٥٧. من اليسار اليمين : كارلوس لوثانو ، وجابرييل جارثيا ماركيز ، وخايمى أوريخويلا ، وبيلينيو ميندوثا ، وسوليداد ميندوثا ، ولويس بيار بوردا.



٦٣ - فى الميدان الأحمر بموسكو، أغسطس ١٩٥٧. من اليسار اليمين: جابرييل جارثيا ماركيز ، ولويس بيار بوردا ، وماتيلدى موخىكا ، وبابلو سولانو ، وتريسا سالتيدو .



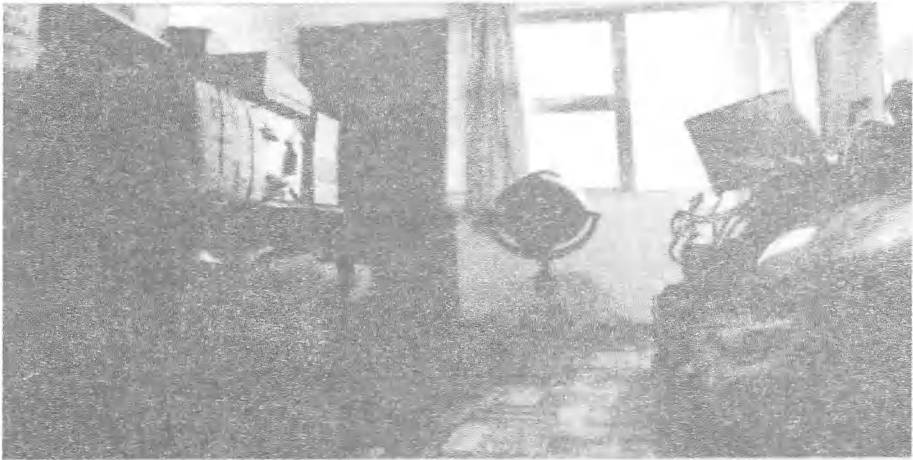
٦٤ - مع زوجته مرسيدس بارتشا باردو في منزل ماريا لويسا إيليو، المكسيك ١٩٦٦ .



٦٥ - مع السينمائيين ألفريدو ، وأرتورو ريبيستين في فترة تصوير "زمن الموت" المكسيك، يوليو ١٩٦٥ .



٦٦ - منزل أسرة جارثيا ماركيز فى الضاحية السكنية فى سان أنجيل .

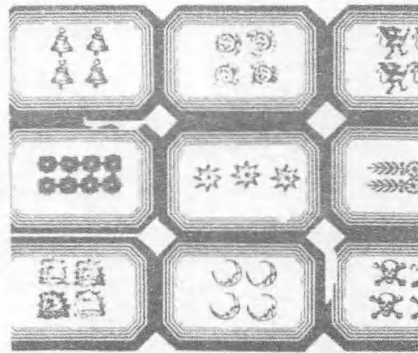


٦٧ - لاكويبا دى لامافيا (كهف المافيا) : الحجرة التى كتب فيها جارثيا ماركيز قصته "مائة عام من العزلة" فيما بين يولية ١٩٦٥ وسبتمبر ١٩٦٦ .



٦٨ - غلاف الطبعة الأولى لمائة عام
من العزلة صدرت في ٣٠ مايو ١٩٦٧ .

جابريل جارتيا ماركيز
مائة عام من العزلة



٦٩ - أعد الغلاف بيثينتي روخو ،
وقد نُشرَ هذا الغلاف اعتباراً من الطبعة
الثانية في يونية ١٩٦٧ .

دار نشر سود أمريكانا



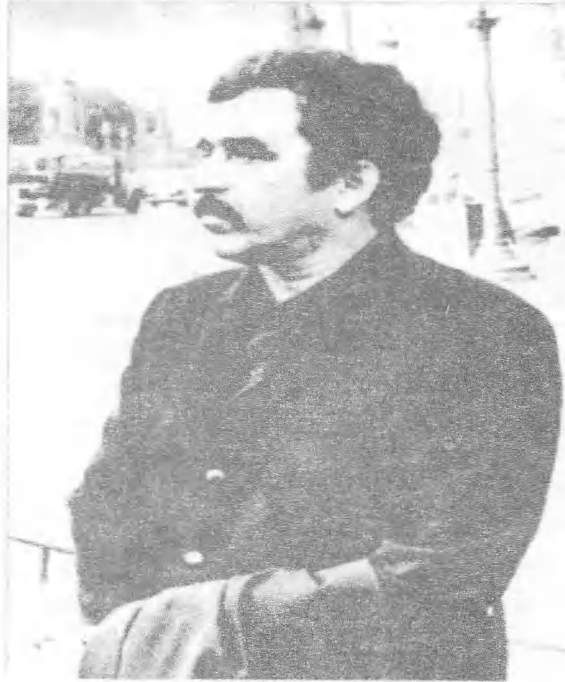
٧٠ - مع فرانسيسكو بوروا ناشر مائة عام من العزلة في شارع بوينوس آيرس في يونيو ١٩٦٧ .



٧١ - مع ألبارو ثيبيدا ساموديو في الوسط: دانييل سامبير من اليسار: في مطبخ كونسويلو أراوخو في بايدوبار، سبتمبر ١٩٦٧ .



٧٢ - مع مرسيدس
ونجليهما جوثالو وزودريجو في
برشلونة ، عندما كان يكتب
"خريف البطريق".

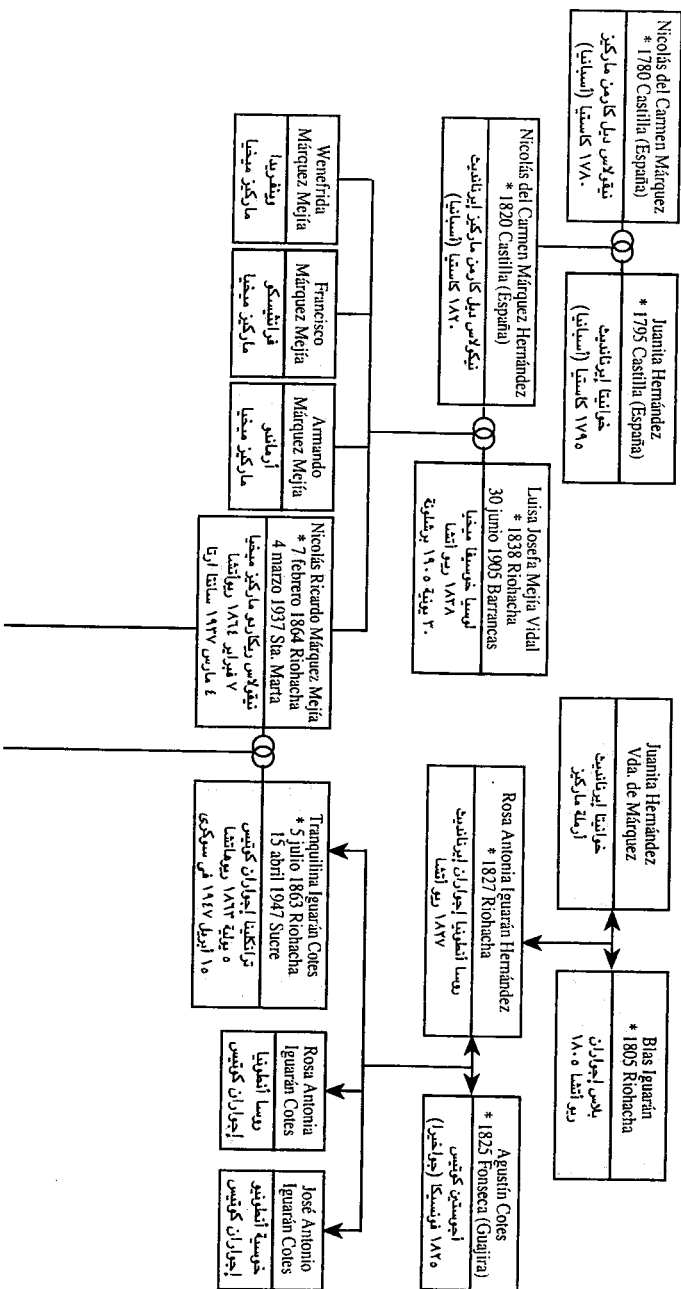


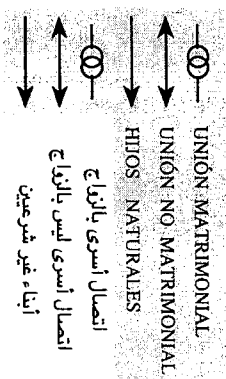
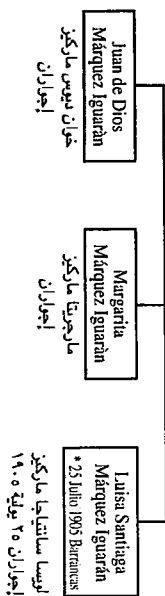
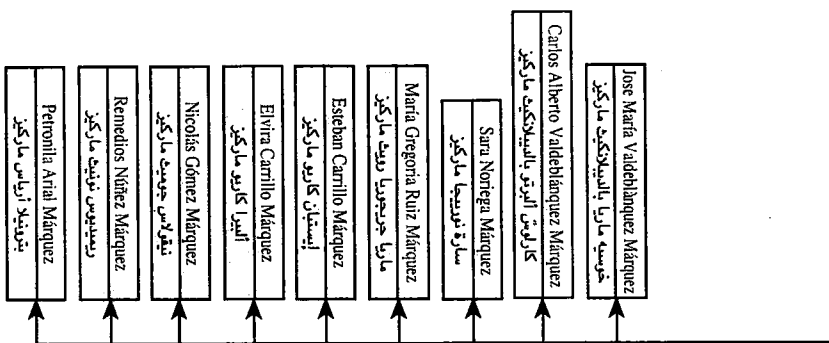
٧٣ - جارتيا ماركيز
محاصر بسبب عزلة الشهرة، يفكر
الكاتب في عزلة السلطة في شارع
ببرشلونة .

ÁRBOLES GENEALÓGICOS

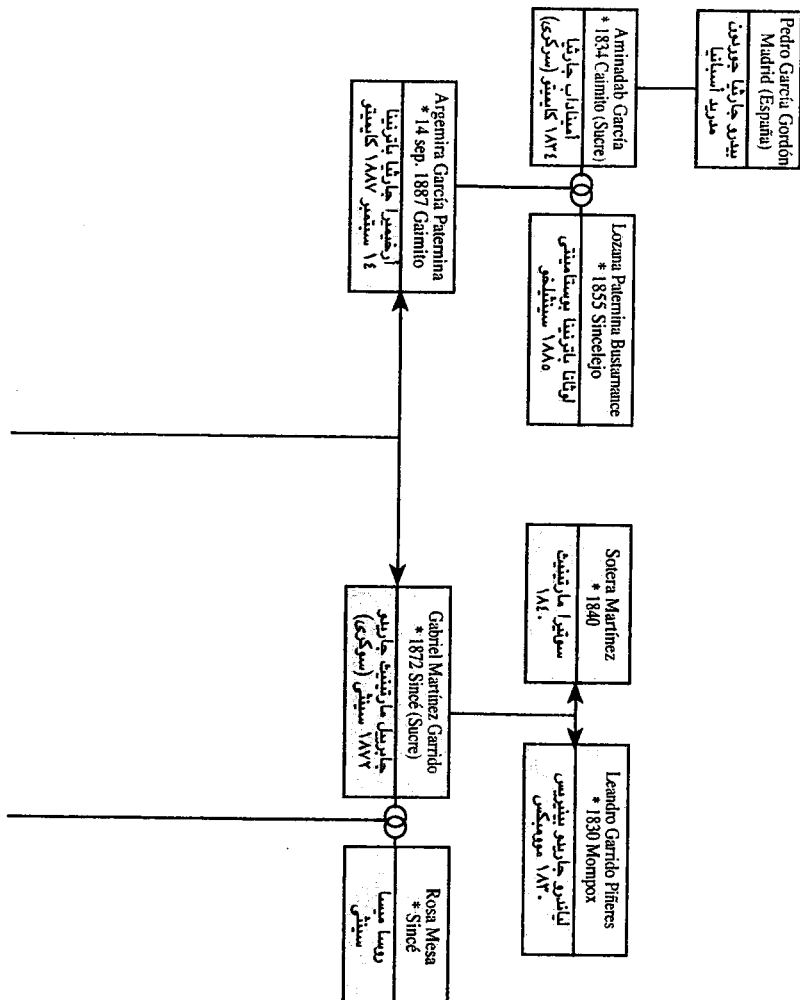
أشجار النسب

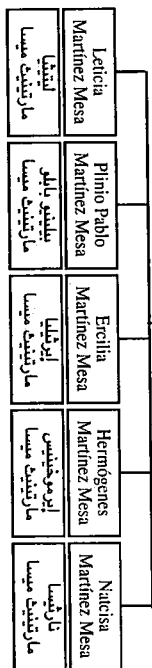
LOS MÁRQUEZ IGUARÁN
أسرة ماركيز إجاران





LOS GARCIA MARTINEZ
أسرة جارتيا ماركنز

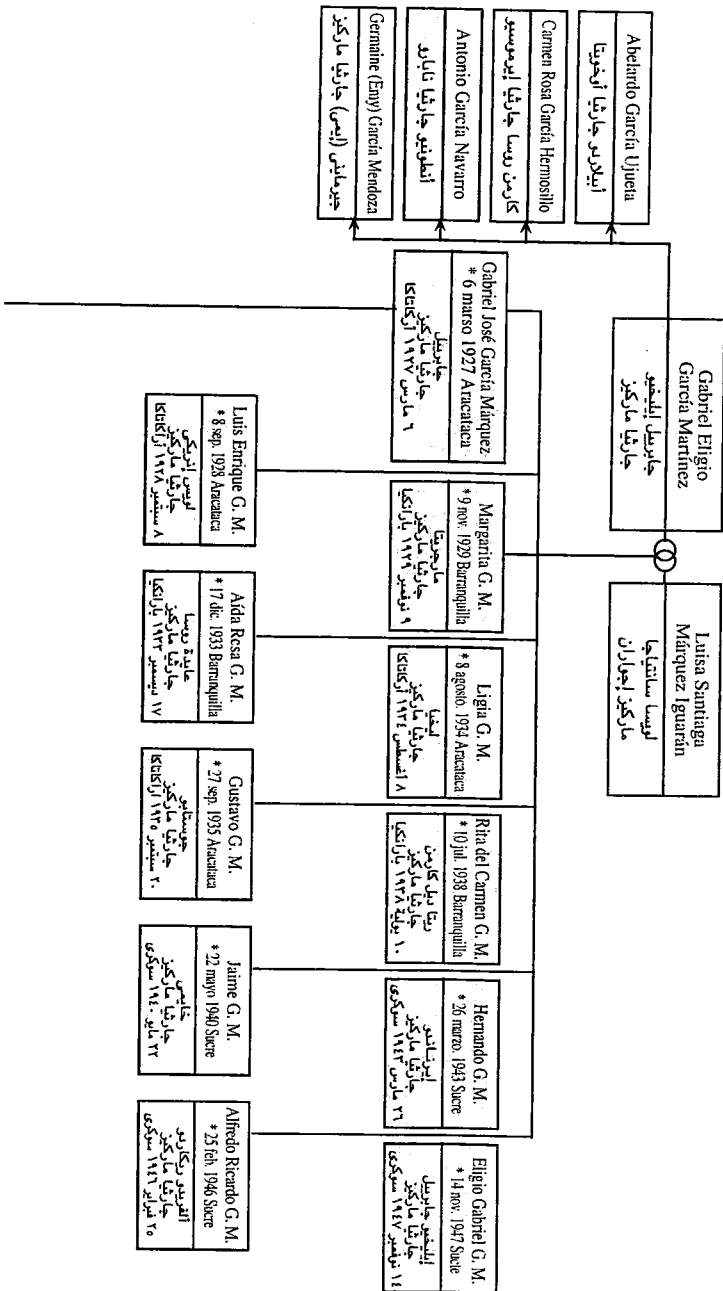


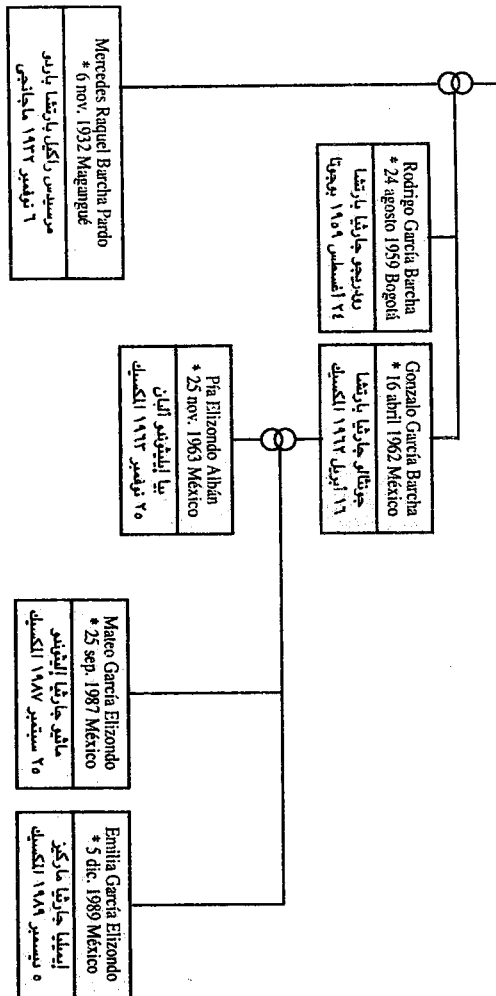


Gabriel Eligio García Martínez
 * 1 dic. 1901 Sincé
 † 13 dic. 1984 Caragen
 جابريل اليخيو جارثيا مارتينيث
 ١ ديسمبر ١٩٠١ سينثي
 ١٣ ديسمبر ١٩٨٤ كارثينا

—⊖— UNIÓN MATRIMONIAL
 ↔ UNIÓN NO MATRIMONIAL
 → HIJOS NATURALES
 —⊖— اتمصال ائسرى بالزواج
 ↔ اتصال ائسرى لئس بالزواج
 → ابناء فئدر شعريين

LOS GARCÍA MÁRQUEZ أسرة جازثا ماركيز





—⊖— UNION MATRIMONIAL
 ↔ UNION NO MATRIMONIAL
 → HIJOS NATURALES
 —⊖— اتصال انسانی خالوج
 ↔ اتصال انسانی بدون خالوج
 → ابناء: عیبر مشرعیین

المؤلف فى سطور

ولد داسو سالدبار فى سان خوليان (أنطيوخيا، كولومبيا) فى ١٩٥١ . وعقب تركه لدراسة الحقوق فى وطنه درس العلوم السياسية فى جامعة كومبلوتنسى بمدريد (الجامعة المركزية بمدريد) . ومنذ ١٩٧٥ أقام فى هذه المدينة ، حيث حصل على الجنسية الإسبانية. ولقد تعاون مع الصحف مثل الباييس والاسبكتاتور "المشاهد" ، ومع مجلات مثل كواديرنوس أمريكانوس "دقاتر أمريكية" ، وأفريقيا وآسيا ، وكذلك فى برامج ثقافية فى التلفزيون الأسباني. وفى ١٩٨٨ حصل على جائزة خاوخا للقصة.

المترجم فى سطور

صبرى محمدى التهامى زيدان

ولد فى ٢٠/٤/١٩٥١ م .

المهنة : عضو هيئة تدريس بجامعة الأزهر كلية اللغات والترجمة ، قسم اللغة الأسبانية وأدائها .

المؤهلات :

١ - ليسانس لغات وترجمة ، قسم اللغة الأسبانية وأدائها ، مايو ١٩٧٥ بتقدير عام ممتاز (أول الدفعة) .

٢ - دبلوم دراسات عليا بالقاهرة عامى ١٩٧٦ و ١٩٧٧ بتقدير عام جيد جداً فى العام الأول وامتيان فى العام الثانى .

٣ - دراسات تمهيدية للدكتوراة فى إسبانيا عام ١٩٨٢ بتقدير عام امتياز .

٤ - دكتوراة فى اللغة الإسبانية وأدائها فى ١٦ فبراير ١٩٩٥ بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف .

الخبرة فى مجال الترجمة :

- زاول أعمال الترجمة التحريرية منذ تخرجه عام ١٩٧٥ .
- سافر إلى إسبانيا فى ٢٣ أكتوبر عام ١٩٧٩ وعاد إلى مصر فى ١١ مارس ١٩٩٥ (إقامة متصلة) .
- عمل مترجماً بالمكتب الصحفى المصرى بمديرى خلال عام ١٩٨٤ .
- مارس أعمال الترجمة فى وكالة الأنباء الليبية بمديرى عام ١٩٨٥ .
- تعاون كثيراً مع السفارة السعودية فى مريد .
- عين مترجماً بالمكتب الإعلامى بسفارة الكويت بإسبانيا منذ نوفمبر ١٩٨٦ وحتى ٢٨ أكتوبر ١٩٩٢ ، حيث مارس كافة أعمال الترجمات السياسية والاقتصادية والعسكرية والتجارية والعلمية والقانونية (تحريرية وتتبعية وفورية) .

- وخلال حرب الخليج الثانية (غزو الكويت) حضر كافة اللقاءات لكبار رجال الدولة ، ومن بينهم الشيخ على الصباح وزير النفط آنذاك حيث ترجم له المؤتمر الصحفي الذى عقده فى مدريد يوم ١٧ أغسطس ١٩٩٠ ، وكافة اللقاءات والاجتماعات مع المسؤولين الأسبان خلال فترة عمله بالسفارة الكويتية بمدريد .
- اشترك فى الترجمة الفورية أثناء اللقاءات العربية الأسبانية بمدينة المونيكار بمحافظة غرناطة والتي كانت تتم سنوياً على مدى ثلاثة أيام .
- قام بأعمال الترجمة الفورية أثناء مؤتمر السلام فى مدريد عام ١٩٩١ من ٢٩ أكتوبر إلى ١ نوفمبر ١٩٩١ .
- شارك فى أعمال الترجمة الفورية فى كثير من المنتديات العربية الأسبانية فى العاصمة الأسبانية .
- قام بأعمال الترجمة الفورية فى مؤتمرين للأديان ، أحدهما عقد فى مدريد بالمركز الإسلامى الثقافى السعودى عم ١٩٩٣ . والآخر فى مدينة الكالادى إيناريس على بعد ١٨ كم من مدريد .
- يقوم بتدريس مادة الترجمة من الأسبانية إلى العربية والعكس فى كليتى اللغات والترجمة والبنات بجامعة الأزهر .
- صدرت له بالاشتراك مع اثنين من الزملاء بقسم اللغة الأسبانية وأدائها ترجمة لتفسير القرآن الكريم ، وقد قدم لفخامة الرئيس مبارك فى ليلة القدر ٢٠٠١م- ١٤٢١هـ .
- ستصدر له ترجمة لمسرحية "ورود الخريف" بالمجلس الأعلى للثقافة للكاتب الأسبانى الأشهر خاينيتو بينابيتتى الفائز بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٩٢ .
- ستصدر له بالمجلس أيضاً مسرحية بعنوان "عش الغريب" للكاتب نفسه .
- ترجم كتاب آخر بعنوان "حوارات مع خوان رامون خيمينيث" ، وسيصدر قريباً بالمجلس الأعلى للثقافة .
- يجيد إلى جانب الأسبانية اللغة الإنجليزية ، التى يستطيع الترجمة منها إلى الأسبانية والعربية .
- يستطيع بحكم دراسته للغتين الأسبانية واللاتينية الترجمة من اللغة الإيطالية والبرتغالية إلى العربية .

هذه السيرة الحياتية لجابريل جارثيا مركيز تستند إلى سؤالين ظلا
يتسلطان على ذهن داسو سالديبار :

من هو الرجل الذى كتب مائة عام من العزلة ؟

ما هو الواقع التاريخى والثقافى والأسرى ، والشخصى الذى يكمن فى هذه
القصة العجيبة ؟

ويبحثنا عن إجابة ... سافر المؤلف إلى المواطن الأصلية لجارثيا مركيز ،
وتحدث مع الكاتب ، وأقاربه ، وأصدقائه وأجرى مئات المقابلات ويبحث ، وتقصى فى
مكتبات الصحف والأرشفات فى عدة دول .

والنتيجة ... رؤية كاملة ومعقدة ومتعمقة ومضنية

لا غنى عنها لفهم أعمال الكاتب فى كل جوانبها ، وهو الذى يفتننا جميعاً
باختراعه وعبقريته .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو باننيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	شوقي جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كارييتكوفا	أحمد الحضري
٥- ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكي
٨- مشعل الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أنثرو. س. جودي	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد منتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
١١- مختارات	فيسوفا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونستون وايرين فرانك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب غلوب
١٤- التحليل النفسي للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إيوارد لويس سميث	أشرف رفيق عفيفي
١٦- أثنية السوداء (ج١)	مارتن برنال	يوسف أحمد عثمان
١٧- مختارات	فيليب لاركن	محمد مصطفى بدوي
١٨- الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولي و بدوي عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صعد بهرنجي	ماجدة العناني
٢٢- مذكرات رجالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد علي الناصري
٢٣- تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارنر	بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشري الخلاق	مقالات	نخبة
٢٨- رسالة في التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو باننيكار	أحمد فؤاد بليغ
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الطوجي وعبد الوهاب غلوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣- التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	أحمد فؤاد بليغ
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد
٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم

أنور مغيث	آلن تورين	نقد الحداثة	٣٨-
منيرة كروان	بيتر والكوت	الإغريق والحسد	٣٩-
محمد عيد إبراهيم	آن سكستون	قصائد حب	٤٠-
ماطف أحمد وإبراهيم قنمى ومحمود ماجد	بيتر جران	ما بعد المركزية الأوروبية	٤١-
أحمد محمود	بنجامين بارير	عالم ماك	٤٢-
المهدى أخريف	أوكتافيو باث	اللهب المزدوج	٤٣-
مارلين تادرس	الدوس هكسلى	بعد عدة أصياف	٤٤-
أحمد محمود	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	التراث المغفور	٤٥-
محمود السيد على	بابلو نيرودا	عشرون قصيدة حب	٤٦-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج١)	٤٧-
ماهر جويجاتى	فرانسوا دوما	حضارة مصر الفرعونية	٤٨-
عبد الوهاب علوب	ه . ت . نوريس	الإسلام فى البلقان	٤٩-
محمد برادة وعثمانى الليلى ويوسف الأشطكى	جمال الدين بن الشيخ	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	٥٠-
محمد أبو العطا	داريو بيانوبيا وخ . م بينتاليستى	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	٥١-
لطفي فطيم وعادل دمرداش	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز رودجر بيل	العلاج النفسى التديعى	٥٢-
مرسى سعد الدين	أ . ف . ألنجتون	الدراما والتعليم	٥٣-
محسن مصيلحى	ج . مايكل والتون	المفهوم الإغريقى للمسرح	٥٤-
على يوسف على	چون بولكنجهوم	ما وراء العلم	٥٥-
محمود على مكى	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	٥٦-
محمود السيد و ماهر البطوطى	فديريكو غرسية لوركا	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	٥٧-
محمد أبو العطا	فديريكو غرسية لوركا	مسرحيتان	٥٨-
السيد السيد سهيم	كارلوس مونيث	المحبرة (مسرحية)	٥٩-
صبرى محمد عبد الفنى	جوهانز إيتين	التصميم والشكل	٦٠-
مراجعة وإشراف : محمد الجوهري	شارلوت سيمور - سميث	موسوعة علم الإنسان	٦١-
محمد خير البقاعى .	رولان بارت	لذة النص	٦٢-
مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٢)	٦٣-
رمسيس عوض .	آلان وود	برتراند راسل (سيرة حياة)	٦٤-
رمسيس عوض .	برتراند راسل	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	٦٥-
عبد اللطيف عبد الحليم	أنطونيو جالا	خمس مسرحيات أندلسية	٦٦-
المهدى أخريف	فرناندو بيسوا	مختارات	٦٧-
أشرف الصباغ	فالنتين راسبوتين	نتاشا العجوز وقصص أخرى	٦٨-
أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى	عبد الرشيد إبراهيم	العلم الإسلامى فى أول القرن العشرين	٦٩-
عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد	أوخينيو تشانج رودريجت	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	٧٠-
حسين محمود	داريو فو	السيدة لا تصلح إلا للرعى	٧١-
فؤاد مجلى	ت . س . إليوت	السياسى العجوز	٧٢-
حسن ناظم وعلى حاكم	چين . ب . توميكنز	نقد استجابة القارئ	٧٣-
حسن بيومى	ل . ا . سيمينوفا	صلاح الدين والمماليك فى مصر	٧٤-
أحمد درويش	أندريه مورا	فن التراجم والسير الذاتية	٧٥-
عبد المقصود عبد الكريم	مجموعة من الكتاب	چاك لاكان وإغواء التظليل النفسى	٧٦-

٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبينسكي	سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمري
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرفاوي
٨٢-	مسرح ميغيل	ميغيل دي أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	خالد المعالي
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	عبد الحميد شيعة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صادق	أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ماجدة العناني
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتوني جيننز	أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠-	وسم السيف	ميغل دي ثريباتس	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوسكا	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	لسانيات ومضامين المسرح الإسباني المعاصر	كارلوس ميغيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فينرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	الحب الأول والصحة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوي
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو بايخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	إيوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
٩٨-	الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نخبة	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روينسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مسألة العولمة	يول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحي
١٠١-	النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيب	عز الدين الكتاني الإبرسي
١٠٣-	قبر ابن عربي يليه آباء	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أويرا ماهوجني	برتول بريشت	عبد الغفار مكاوي
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسي	ماريا خيسوس روبييرامتي	أشرف على دعور
١٠٧-	صورة الفنان في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	محمد عبد الله الجعدي
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	محمود على مكي
١٠٩-	حروب المياه	جون بواوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	إكرام يوسف
١١٣-	رأية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كرنجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان

١١٦-	امراة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المراة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنيل	يأشراف: روف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	نخبة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها النولية	نيل ألكسندر وفناولين	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب	جون جرائ	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	فولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نورية
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروت	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوند فراتك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	يارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كوتو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيلينا تارونى	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	باريسفال	ريشارد فاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	عدلى السمري
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة	كارلو جولونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	على عبدالرؤف البمبى
١٤٧-	خطبة الإدارة الطويلة	تاتكريد نورست	عبدالغفار مكابى
١٤٨-	القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان
١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ١ ج١)	فرنان بربود	بشير السباعى
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	محمد محمد الخطابى
١٥٣-	غرام الفراغة	فيولين فاتويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلكت

أحمد مرسى	نخبة من الشعراء	الشعر الأمريكى المعاصر	١٥٥-
مى التلمسانى	جى أنيال وآلان وأوديت فيرمو	المدارس الجمالية الكبرى	١٥٦-
عبدالعزیز بقوش	النظامى الكنزى	خسرو وشيرين	١٥٧-
بشير السباعى	فرنان برودل	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢)	١٥٨-
إبراهيم فتحى	ديفيد هوكس	الإيديولوجية	١٥٩-
حسين بيومى	بول إيرليش	آلة الطبيعة	١٦٠-
زيدان عبدالحليم زيدان	اليفاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	من المسرح الإشباني	١٦١-
صلاح عبدالعزیز محجوب	يوحنا الأسوى	تاريخ الكنيسة	١٦٢-
ياشراف: محمد الجوهرى	جورجن مارشال	موسوعة علم الاجتماع	١٦٣-
نبيل سعد	چان لاکوتير	شامبوليون (حياة من نور)	١٦٤-
سهير المصافى	أ. ن أفانا سيفا	حكايات الثعلب	١٦٥-
محمد محمود أبو غدير	يشعياهو ليفمان	العلاقات بين التينين والعلمانين فى إسرائيل	١٦٦-
شكرى محمد عياد	رابندرات طاغور	فى عالم طاغور	١٦٧-
شكرى محمد عياد	مجموعة من المؤلفين	دراسات فى الأدب والثقافة	١٦٨-
شكرى محمد عياد	مجموعة من المبدعين	إبداعات أدبية	١٦٩-
بسام ياسين رشيد	ميفيل دليبيس	الطريق	١٧٠-
هدى حسين	فرانك بيجر	وضع حد	١٧١-
محمد محمد الخطايبى	مختارات	حجر الشمس	١٧٢-
إمام عبد الفتاح إمام	ولتر ت. ستيس	معنى الجمال	١٧٣-
أحمد محمود	ايليس كاشمور	صناعة الثقافة السوداء	١٧٤-
وجيه سمعان عبد المسيح	لورينزو فيلشس	التلفزيون فى الحياة اليومية	١٧٥-
جلال البنا	توم تيتنبرج	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	١٧٦-
حصه إبراهيم المنيف	هنرى ترويا	أنطون تشيخوف	١٧٧-
محمد حمدى إبراهيم	نخبة من الشعراء	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	١٧٨-
إمام عبد الفتاح إمام	أيسوب	حكايات أيسوب	١٧٩-
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	قصة جاويد	١٨٠-
محمد يحيى	فنسنط ب. ليتش	النقد الأدبى الأمريكى	١٨١-
ياسين طه حافظ	و.ب. بيتس	العنف والنبوة	١٨٢-
فتحى العشرى	رينيه چيلسون	چان كوكتو على شاشة السينما	١٨٣-
دسوقى سميد	هانز إيندورفر	القاهرة... حاملة لا تنام	١٨٤-
عبد الوهاب علوب	توماس تومسن	أسفار العهد القديم	١٨٥-
إمام عبد الفتاح إمام	ميخائيل إنود	معجم مصطلحات هيجل	١٨٦-
محمد علاء الدين منصور	بُزج علوى	الأرضة	١٨٧-
بدر الديب	الفين كرنان	موت الأدب	١٨٨-
سعيد القانمى	پول دى مان	العمى والبصيرة	١٨٩-
محسن سيد فرجانى	كونفوشيوس	محاورات كونفوشيوس	١٩٠-
مصطفى حجازى السيد	الحاج أبو بكر إمام	الكلام رأسمال	١٩١-
محمد سلامة علاوى	زين العابدين الراغى	سياحت نامه إبراهيم بك (ج ١)	١٩٢-
محمد عبد الواحد محمد	بيتر أبراهامز	عامل النجم	١٩٣-

مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد	١٩٤-
شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور	١٩٥-
المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	أشرف الصباغ	١٩٦-
الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى	١٩٧-
الاتصال الجماهيرى	انورين إمري وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم	١٩٨-
تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لاندواى	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد	١٩٩-
ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	فخزى لبيب	٢٠٠-
الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى	٢٠١-
تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد	٢٠٢-
الشعر والشاعرية	ألفاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى	٢٠٣-
تاريخ نقد العهد القديم	زلمان شاراز	أحمد محمود هويدى	٢٠٤-
الجيئات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافالى - سفورزا	أحمد مستجير	٢٠٥-
الهيولانية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	على يوسف على	٢٠٦-
ليل أفريقي	رامون خوتاسنديز	محمد أبو العطا	٢٠٧-
شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوربان	محمد أحمد صالح	٢٠٨-
السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ	٢٠٩-
مثنويات حكيم سنائى	سنائى الفزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج	٢١٠-
فردينان دوسويسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد القنى	٢١١-
قصص الأمير مرزيان	مرزيان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج	٢١٢-
مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاود	سيد أحمد على الناصرى	٢١٣-
قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيندز	محمد محمود محى الدين	٢١٤-
سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	زين العابدين المزاغى	محمود سلامة علاوى	٢١٥-
جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ	٢١٦-
مسرحيتان ظليعتان	ص. بيكيت	نادية البنهاوى	٢١٧-
لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازان	على إبراهيم منوفى	٢١٨-
بقايا اليوم	كازو ايشجورو	طلعت الشايب	٢١٩-
الهيولانية فى الكون	بارى باركر	على يوسف على	٢٢٠-
شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام	٢٢١-
فرانز كافكا	رونالد جراى	نسليم مجلى	٢٢٢-
العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنز	السيد محمد نفاذى	٢٢٣-
دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم	٢٢٤-
حكاية غريق	جابريل جارتيا ماركث	السيد عبدالظاهر السيد	٢٢٥-
أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هريت لورانس	طاهر محمد على البربرى	٢٢٦-
المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله	٢٢٧-
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالسيح وخالد حسن	٢٢٨-
مأزق البطل الوحيد	نورمان كيچان	أمير إبراهيم العمرى	٢٢٩-
عن الذباب والفتران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى	٢٣٠-
الدراكيل	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن	٢٣١-
ما بعد المعلومات	توم ستينز	مصطفى إبراهيم فهمى	٢٣٢-

طلعت الشايب	أرثر هومان	فكرة الاضمحلال	٢٣٣-
فؤاد محمد عكود	ج. سبنسر تريمنجهام	الإسلام في السودان	٢٣٤-
إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومي	ديوان شمس تبریزی (ج١)	٢٣٥-
أحمد الطيب	ميشيل تود	الولاية	٢٣٦-
عنايات حسين طلعت	روبين فيرين	مصر أرض الوادي	٢٣٧-
ياسر محمد جادالله وعري مديري أحمد	الانكباد	العولة والتحرير	٢٣٨-
نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق	جيلرافر - رايوخ	العربي في الأدب الإسرائيلي	٢٣٩-
صلاح عبدالعزيز محجوب	كامي حافظ	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	٢٤٠-
ابقسام عبدالله سعيد	ج . م كويتز	في انتظار البرابرة	٢٤١-
صبري محمد حسن عبدالنبي	وليام إميسون	سبعة أنماط من القموض	٢٤٢-
علي عبدالرؤف اليمبي	ليفى بروفنسال	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	٢٤٣-
نادية جمال الدين محمد	لورا إسكييل	الفليان	٢٤٤-
توفيق علي منصور	إليزابيتا أديس	نساء مقاتلات	٢٤٥-
علي إبراهيم منوفي	جابريل جارتيا ماركث	مختارات قصصية	٢٤٦-
محمد طارق الشرفاوي	والتر إرمبريست	الثقافة الجامعية والحدثة في مصر	٢٤٧-
عبداللطيف عبدالطيم	أنطونيو جالا	حقول عدن الخضراء	٢٤٨-
رفعت سلام	دراجو شتامبوك	لغة التمزق	٢٤٩-
ماجدة محسن أباطة	دومنيك فينيك	علم اجتماع العلوم	٢٥٠-
بإشراف: محمد الجوهري	جوردين مارشال	موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	٢٥١-
علي بدران	مارجو بدران	رائدات الحركة النسوية المصرية	٢٥٢-
حسن بيومي	ل. أ. سيمينوفا	تاريخ مصر الفاطمية	٢٥٣-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وجودي جروفز	الفلسفة	٢٥٤-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وجودي جروفز	أفلاطون	٢٥٥-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روينسون وكريس جرات	ديكارت	٢٥٦-
محمود سيد أحمد	وليم كلي رايت	تاريخ الفلسفة الحديثة	٢٥٧-
عبادة كُحيلة	سير أنجوس فريزر	الفجر	٢٥٨-
فاروجان كازانجيان	اقلام مختلفة	مختارات من الشعر الأرمي عبر العصور	٢٥٩-
بإشراف: محمد الجوهري	جوردين مارشال	موسوعة علم الاجتماع (ج٣)	٢٦٠-
إمام عبد الفتاح إمام	زكي نجيب محمود	رحلة في فكر زكي نجيب محمود	٢٦١-
محمد أبو العطا	إدوارد منوثا	مدينة المعجزات	٢٦٢-
علي يوسف علي	جون جرين	الكشف عن حافة الزمن	٢٦٣-
لويس عوض	هوراس وشلي	إبداعات شعرية مترجمة	٢٦٤-
لويس عوض	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	روايات مترجمة	٢٦٥-
عادل عبدالمنعم سويلم	جلال آل أحمد	مدير المدرسة	٢٦٦-
بدر الدين عروبيكي	ميلان كونديرا	فن الرواية	٢٦٧-
إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومي	ديوان شمس تبریزی (ج٢)	٢٦٨-
هسبري محمد حسن	وليم جيفور بالجريف	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	٢٦٩-
صبري محمد حسن	وليم جيفور بالجريف	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج٢)	٢٧٠-
شوقي جلال	توماس سي. باترسون	الحضارة الغربية	٢٧١-

إبراهيم سلامة	س. س والترز	الأديرة الأثرية في مصر	٢٧٢-
عنان الشهاوى	جوان أر. لوك	الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط	٢٧٣-
محمود على مكي	رومولو جلاجوس	السيدة ياريارا	٢٧٤-
ماهر شفيق فريد	أقلام مختلفة	د. س إليث شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	٢٧٥-
عبد القادر التلمساني	فرائك جوتيران	فنون السيئنا	٢٧٦-
أحمد فوزي	بريان فورد	الجينات: الصراع من أجل الحياة	٢٧٧-
ظريف عبدالله	إسحق عظيموف	البدايات	٢٧٨-
طلعت الشايب	ف.س. سوندرز	الحرب الباردة الثقافية	٢٧٩-
سمير عبدالحميد	بريم شند وآخرون	من الأدب الهندي الحديث والمعاصر	٢٨٠-
جلال الحفناوى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	الفريوس الأعلى	٢٨١-
سمير حنا صادق	لويس وليبرت	طبيعة العلم غير الطبيعية	٢٨٢-
على اليمبي	خوان رولفو	السهل يحترق	٢٨٣-
أحمد عثمان	يوريبيدس	هرقل مجنوناً	٢٨٤-
سمير عبد الحميد	حسن نظامي	رحلة الفواجة حسن نظامي	٢٨٥-
محمود سلامة علاوى	زين العابدين المراغى	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	٢٨٦-
محمد يحيى وآخرون	انتونى كتج	الثقافة والعولة والنظام العالمى	٢٨٧-
ماهر البيوطي	ديفيد لودج	الفن الروائى	٢٨٨-
محمد نور الدين عبدالمنعم	أبو نجم أحمد بن قوص	ديوان منجوهري الدامغانى	٢٨٩-
أحمد زكريا إبراهيم	جورج موتان	علم اللغة والترجمة	٢٩٠-
السيد عبد الظاهر	فرانشيسكو رويس رامون	المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج١)	٢٩١-
السيد عبد الظاهر	فرانشيسكو رويس رامون	المسرح الإسباني في القرن العشرين (ج٢)	٢٩٢-
نخبة من المترجمين	روجر آلن	مقدمة للأدب العربى	٢٩٣-
رجاء ياقوت صالح	بوالو	فن الشعر	٢٩٤-
بدر الدين حب الله الديب	جوزيف كامبل	سلطان الأسطورة	٢٩٥-
محمد مصطفى بدوى	وايم شكسبير	مكبث	٢٩٦-
ماجدة محمد أنور	بيوتيسوس ثراكس ويوسف الأهوانى	فن النحو بين اليونانية والسريانية	٢٩٧-
مصطفى حجازى السيد	أبو بكر تافاويليوه	مناساة العبيد	٢٩٨-
هاشم أحمد فؤاد	جين ل. ماركس	ثورة في التكنولوجيا الحيوية	٢٩٩-
جمال الجزيري وبهاء چامين وإليزابيل كمال	لويس عوض	لسيرة برونشوس في الأدب الإنجليزى والفرنسى (ج١)	٣٠٠-
جمال الجزيري و محمد الجندي	لويس عوض	لسيرة برونشوس في الأدب الإنجليزى والفرنسى (ج٢)	٣٠١-
إمام عبد الفتاح إمام	جون هيتون وجودى جروفز	فنجشتين	٣٠٢-
إمام عبد الفتاح إمام	جين هوب ويون فان لون	بوذا	٣٠٣-
إمام عبد الفتاح إمام	ريوس	ماركس	٣٠٤-
صلاح عبد الصبور	كروزيو مالابارته	الجلد	٣٠٥-
نبيل سعد	چان فرانسوا ليونار	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	٣٠٦-
محمود محمد أحمد	ديفيد باينو	الشعور	٣٠٧-
ممدوح عبد المنعم أحمد	ستيف جونز	علم الوراثة	٣٠٨-
جمال الجزيري	أنجوس چيلاتى	الذهن والمخ	٣٠٩-
محيى الدين محمد حسن	ناجى ميد	يونج	٣١٠-

٣١١-	مقال في المنهج الفلسفي	كولنجويد	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم دي بوير	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية	خاير بيان	عبدالله الجعدي
٣١٤-	الفن كعدم	جينس مينيك	هويدا السباعي
٣١٥-	جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو	كاميليا صبحي
٣١٦-	محاكمة سقراط	أ.ف. ستون	نسيم مجلي
٣١٧-	بلا غد	شير لايموفا - زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الآب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	نخبة	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايتير ياسيففاك وكوستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لغة السراج في حضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ١، ٢، ٣)	ليفى برو فنسال	نخبة من المترجمين
٣٢٢-	وجهات غربية حديثة في تاريخ الفن	دبليو يوجين كلينباور	خالد مقلح حمزة
٣٢٣-	فن الساتورا	تراث يوناني قديم	هانم سليمان
٣٢٤-	اللعب بالنار	أشرف أسدي	محمود سلامة علاوي
٣٢٥-	عالم الآثار	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦-	المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	حسن صفر
٣٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (ج ١)	نخبة	توفيق علي منصور
٣٢٨-	يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠-	كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شيرد	سامي صلاح
٣٣١-	عندما جاء السوردين	ستيفن جرائ	سامية دياب
٣٣٢-	القصة القصيرة في إسبانيا	نخبة	علي إبراهيم منوفي
٣٣٣-	الإسلام في بريطانيا	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	أرثر.س. كلارك	مصطفى فهمي
٣٣٥-	عصر الشك	ثاتالي ساروت	فتحى العشري
٣٣٦-	متون الأهرام	نصوص قديمة	حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٣٣٨-	نظرات حائرة (يقسم أخرى من الهند)	نخبة	جلال السعيد الحفناوي
٣٣٩-	تاريخ الأدب في إيران (ج ٢)	علي أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠-	اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	فخرى لبيب
٣٤١-	قصائد من رلك	راينر ماريا رلك	حسن حلمي
٣٤٢-	سلامان وأيسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٣٤٣-	العالم البرجوازي الزائل	نادين جورديم	سمير عبد ربه
٣٤٤-	الموت في الشمس	بيتر بلانجوه	سمير عبد ربه
٣٤٥-	الركض خلف الزمن	بونه ندائي	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدي	جمال الجزيري
٣٤٧-	الصبية الطائشون	جان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨-	التصوفة الأولون في الأدب التركي (ج ١)	محمد فؤاد كويريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرون	أحمد عمر شاهين

٣٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	عطية شحاتة
٣٥١-	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصاري
٣٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣-	الفن الإسلامي في الأتلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو يابون مالدوناند	علي إبراهيم منوفي
٣٥٤-	الفن الإسلامي في الأتلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو يابون مالدوناند	علي إبراهيم منوفي
٣٥٥-	التيارات السياسية في إيران	حجت مرتضى	محمود سلامة علاوى
٣٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعي
٣٥٧-	متون هيرميس	نصوص قديمة	عمر الفاروق عمر
٣٥٨-	أمثال الهوسا العامة	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٣٥٩-	محاورات پارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشاروني
٣٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشرييني
٣٦١-	التصحر: التهديد والمواجهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وأمال شاور
٣٦٢-	تلميذ بائنيبرج	هاينرش شبورال	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبري محمد حسن
٣٦٤-	حادثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥-	سأم باريس	شارل بودليير	محمد أحمد حمد
٣٦٦-	نساء يركضن مع القناب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧-	القلم الجريء	نخبة	البراق عبد الهادي رضا
٣٦٨-	المصطلح السردي	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩-	المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠-	الفن والحياة في مصر الفرعونية	كلير لاويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١-	التصوف الأولين في الأدب التركي (ج٢)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢-	عاش الشباب	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	علي إبراهيم منوفي
٣٧٤-	اليوم السادس	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥-	الخلود	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦-	الغضب وأحلام السنين	نخبة	إيوار الخراط
٣٧٧-	تاريخ الأدب في إيران (ج١)	علي أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨-	المسافر	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩-	ملك في الحديقة	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠-	حديث عن الخسارة	جوانتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١-	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢-	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادی
٣٨٣-	هدية الحجاز	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤-	القصص التي يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥-	مشتري العشق	محمد علي بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦-	دفاعاً عن التاريخ الأدبي النسوي	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧-	أغنيات وسوناتات	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨-	مواظ سعدى الشيرازي	سعدى الشيرازي	محمد علاء الدين منصور

٣٨٩-	من الأدب الباكستاني المعاصر	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠-	الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١-	الحافلة الليكية	مايف بينشى	منى الدروبي
٣٩٢-	مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	عبداللطيف عبداللطيف
٣٩٣-	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤-	القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥-	آلام سياوش	إسماعيل فصيح	سليم حمدان
٣٩٦-	السافاك	تقى نجارى راد	محمود سلامة علاوى
٣٩٧-	نيتشه	لورانس جين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨-	سارتر	فيليب تودى	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩-	كامى	ديفيد ميروفتس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠-	مومو	مشيانيل إنده	باهر الجوهري
٤٠١-	الرياضيات	زيادون ساردر	ممنوح عبد المنعم
٤٠٢-	هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ممنوح عبدالمنعم
٤٠٣-	رية المطر والملابس تصنع الناس	توبور شتورم	عماد حسن بكر
٤٠٤-	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	خلبية خميس
٤٠٥-	إيزابيل	أندرية جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦-	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧-	الأدب الإسباني المعاصر بقلم كاتبه	أقلام مختلفة	طلعت شاهين
٤٠٨-	معجم تاريخ مصر	جوان فوشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩-	انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠-	خلاصة القرن	كارل بوير	الزواوى بغفرة
٤١١-	همس من الماضى	جينييفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ٢)	ليفى بروفنسال	نخبة
٤١٣-	أغنيات المنفى	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤-	الجمهورية العالمية للأدب	باسكال كازانوف	أمل الصبان
٤١٥-	صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦-	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	مصطفى بدوى
٤١٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العشانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبى للإسكندرية	جون ماير	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة	روى متحدة	أشرف محمد كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ١)	نخبة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسرارات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوائح العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاروس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود سلامة علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية	باى إنكلان	ثريا شلبى

٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك	محمد أمان صافي
٤٢٩-	هيجل	ليود سينسر وأندرجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	كانط	كرستوفر وانت وأندرجي كليوفسكي	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	فوكو	كريس هوروكس وزودان جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	ماكياثلي	باتريك كيري وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	جوليس	ديفيد نوريس وكارل فلفت	حمدي الجابري
٤٣٤-	الرومانسية	دونكان هيث وچون بورهام	عصام حجازي
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زيرج	ناجي رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج ١)	فردريك كويلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق	شبلو النعماني	جلال السعيد الحفناوي
٤٣٨-	بطولات وضحايا	إيمان ضياء الدين بييرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت الرايبي	صدر الدين عيني	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرفاوي
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة	أرون داتي روي	فخري لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ماهر جويجاتي
٤٤٣-	اللغة العربية	كيس فرستينغ	محمد طارق الشرفاوي
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علماني
٤٤٥-	حول وزن الشعر	برويز نائل خاتلري	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	الكسندر كوكيرن وجيفري سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	نظرية الكم	ج. پ. ماك إيقي	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	علم نفس التطور	ديلان إيفانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	الحركة النسائية	نخبة	جمال الجزيري
٤٥٠-	ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيري
٤٥١-	الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن ويون فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجناتري وأوسكار زاريت	محيي الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل
٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فردريك كويلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تتسنى	مريم جعفري	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء في الفكر السياسي الغربي	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	المويسكيون الأندلسيون	مرثيدس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	الفاشية والتازية	ستوارت هود ولينزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	لكن	داريان ليدر وجودي جروفر	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودي	عبدالرشيد الصادق محمودي
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للغة	مايكل بارنتي	حصه إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزيرج	جمال الرفاعي
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة محمود

٤٦٧-	التفكير السياسي	ستيفين ديلاو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدي عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضي والجودة البيئية	نخبة	محمد السيد الننة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج٢)	نخبة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتي (القسم الأول)	ميجيل دي ثريانتس سايبيرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتي (القسم الثاني)	ميجيل دي ثريانتس سايبيرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عثاني
٤٧٦-	أرض الحيايب بعيدة: بيرم التونسي	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	أشرف كيلاني
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنغ و لي شي يونج	عبد العزيز حمدي
٤٧٩-	المقهسى (مسرحية صينية)	لاوشه	عبد العزيز حمدي
٤٨٠-	تساي ون جي (مسرحية صينية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدي
٤٨١-	عبادة النبي	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة محمود
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامي
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانس روبرت ياكس	رشيد بنحو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوي	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغني رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادي	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذي كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هسرل: الفلسفة علماً دقيقاً	هسرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسماء البقاء	محمد قادري	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقي	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد علي مؤسس مصر الحديثة	جي فارجيت	محمد رفعت عواد
٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى (الخروج في النهار)	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفي
٤٩٥-	اللوبي	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصري
٤٩٦-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج١)	إكوانو بانولي	نخبة
٤٩٧-	العلمانية والنوع والنوة في الشرق الأوسط	نايبة العلي	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد علي بدوي
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	في طفولتي (دراسة في السيرة الذاتية العربية)	تيتز روكي	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء في الغرب (ج١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	هدى الصدة	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسي الحديث	نخبة	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (ج١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (ج٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق

٥٠٦-	ربما كان قديساً	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضي الجميل	بيتر شيفر	شوقي فهمي
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومي	عبد الباقي جلبنازلي	عبد الله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفكر والإحسان في عهد سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة المأكدة	كارلو جولونوي	عبد الرزاق عيد
٥١١-	كوكب مرقع	آن تيلر	عبد الحميد فهمي الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائي	تيموثي كوريغان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمي
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومي عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطي موجلان	فدوى مالطي موجلان
٥١٦-	إرادة الإنسان في شفاء الإيمان	أرنولد واشنطن وودونا باوندي	صبري محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات في المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الانتصاري
٥٢٠-	الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبد الوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	علي إبراهيم منوفي
٥٢٣-	الفن الليطلي الإسلامي والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٥٢٤-	الملك لير	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٥٢٥-	موسم صيد في بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون رزيفز	نادية رفعت
٥٢٦-	علم السياسة البيئية	ستيغن كرويل ووليم رانكين	محبي الدين مزيد
٥٢٧-	كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيري
٥٢٨-	تروتسكي والماركسية	طارق علي وفلر إيفانز	جمال الجزيري
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال في شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٥٣١-	ما الذي حدث في «حدث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢-	المغامر والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعي
٥٣٣-	تعلم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد الشرقاوي
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لوبا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار	نظامي الكنجوي	عبد العزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتجتون	شوقي جلال
٥٣٧-	للحب والحرية	نخبة	عبد الغفار مكاري
٥٣٨-	النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانتيلر	محمد الحديدي
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رؤف عباس
٥٤١-	هي تخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	ميلاني كلاين	نخبة	حمدي الجابري

٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	بارت	فيليب ثودي وأن كودس	جمال الجزيري
٥٤٨-	علم الاجتماع	ريتشارد أوزيرن ويورن فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩-	علم العلامات	بول كويلي وليتا جانز	جمال الجزيري
٥٥٠-	شكسبير	نيك جروم وييرد	حمدي الجابري
٥٥١-	الموسيقى والعولة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دي ثريانتس	على عبد الروف البعبي
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر في عهد محمد علي	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبد السميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصر الدين الجبالي
٥٥٦-	جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧-	الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف	تشا تشاجي	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين ولادين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف	خاثيرنتو بينابيتتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	غش الغريب	خاثيرنتو بينابيتتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا . ج. جيرنز	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المقتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر
٥٦٩-	موقع الثقافة	هوى. ك. بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسي	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١-	تاريخ النقد الإسمائى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فى زمن القراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	فرويد	ريتشارد ابيجانانس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤-	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين عبد العزيز السباعى
٥٧٥-	الاقتصاد السياسى للعولة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثريانتس	أمريكو كاسترو	ناهد المشرى محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩-	تشومسكى	چون ماهر وچودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (ج١)	جون فينز ويول سبترجز	محمد فتحي عبدالهادى
٥٨١-	الحمقى يموتون	ماريو بونز	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا الذات	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان

٥٨٤-	سفر	محمود نوات أبادي	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب	هوشنك كلشميرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصيني	نخبة	عبدالعزیز حمدي
٥٨٨-	أمنوتب الثالث	أنيس كابرول	ماهر جويجاتي
٥٨٩-	تمبكت العجبية	فيلكس ميبواه	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدي عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالنواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية	محمد صبرى السورى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الطور
٥٩٤-	القلب السمين	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (ج٢)	إكوانو بانولى	نخبة
٥٩٦-	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكثمان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهريين	محمود سلامة علاوى
٦٠٠-	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢-	ليوتارنحو فلسفة ما بعد حداثة	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزیز
٦٠٣-	النقد الثقافى	أرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (ج١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيوروسكى الصغير	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعنى
٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (ج١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (ج٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنو فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المدججة	رفائيل لويث جوشمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيدولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسى	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيليبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبي	توماش ماستكان	بشير السباعى
٦٢١-	النوبة المعبر الحضارى	وليم. ى. آدمز	فؤاد عكرد
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى

يوسف عبدالفتاح	سعيد قانعي	نوادير جحا الإيراني	٦٢٣-
عمر الفاروق	رينيه جينو	أزمة العالم الحديث	٦٢٤-
محمد برادة	جان جينيه	الجرح السرى	٦٢٥-
توفيق على منصور	نخبة	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	٦٢٦-
عبدالوهاب علوب	نخبة	حكايات إيرانية	٦٢٧-
مجدى محمود المليجى	تشارلس داروين	أصل الأنواع	٦٢٨-
عزة الخميسى	نيقولا جويات	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	٦٢٩-
صبرى محمد حسن	أحمد بللو	سيرتى الذاتية	٦٣٠-
باشراف: حسن طلب	نخبة	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	٦٣١-
رانيا محمد	نولورس برامون	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	٦٣٢-
حمادة إبراهيم	نخبة	الحب وفنونه	٦٣٣-
مصطفى البهنسارى	روى ماكويدي واسماعيل سراج الدين	مكتبة الإسكندرية	٦٣٤-
سمير كريم	جودة عبد الخالق	التبثيت والتكيف فى مصر	٦٣٥-
سامية محمد جلال	جناب شهاب الدين	حج يواندة	٦٣٦-
بدر الرفاعى	ف. روبرت هنتر	مصر الخديوية	٦٣٧-
فؤاد عبد المطلب	روبرت بن ودين	الديمقراطية والشعر	٦٣٨-
أحمد شافعى	تشارلز سيميك	فندق الأرق	٦٣٩-
حسن حبشى	الأميرة أناكومنينا	ألكسباد	٦٤٠-
محمد قدرى عمارة	برتراند رسل	برتراند رسل (مختارات)	٦٤١-
ممدوح عبد المنعم	جوناثان ميلر ويورين فان لون	داروين والتطور	٦٤٢-
سمير عبدالحميد إبراهيم	عبد الماجد الدرايبادى	سفرنامه حجاز	٦٤٣-
فتح الله الشيخ	هوارد دتيرنر	العلوم عند المسلمين	٦٤٤-
عبد الوهاب علوب	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	٦٤٥-
عبد الوهاب علوب	سپهر نبيح	قصة الثورة الإيرانية	٦٤٦-
فتحي العشرى	جون نينيه	رسائل من مصر	٦٤٧-
خليل كلفت	بياتريث سارلو	بورخيس	٦٤٨-
سحر يوسف	نخبة	الخوف وقصص خرافية أخرى	٦٤٩-
عبد الوهاب علوب	روجر أوين	النولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	٦٥٠-
أمل الصبان	وثائق قديمة	ديليسبس الذى لا نعرفه	٦٥١-
حسن نصر الدين	كلود تروينكر	آلهة مصر القديمة	٦٥٢-
سمير جريس	إيريش كستتر	مدرسة الطفافة	٦٥٣-
عبد الرحمن الخميسى	نصوص قديمة	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	٦٥٤-
حليم طوسون ومحمود ماهر طه	إيزابيل فرانكو	أساطير وآلهة	٦٥٥-
ممدوح البستائوى	ألفونسو ساسترى	خبز الشعب والأرض الحمراء	٦٥٦-
خالد عباس	مرثيديس غارثيا- أرينال	محاكم التفتيش والموريكيون	٦٥٧-
صبرى التهامى	خوان رامون خيمينيث	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	٦٥٨-
عبداللطيف عبدالحليم	نخبة	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	٦٥٩-
هاشم أحمد محمد	ريتشارد فايفيلد	نافذة على أحدث العلوم	٦٦٠-
صبرى التهامى	نخبة	روائع أندلسية إسلامية	٦٦١-

٦٦٢- رحلة إلى الجنود

داسن سالدنيار

مبيري التهامي

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٢٥٢ / ٢٠٠٤

